

رواية . . من نور الوحي

قصة الحياة

عبدالإله بن عبدالله السعدي

قصة الحياة

جمع وإعداد
عبد الإله بن عبد الله السعيد

الحقوق متاحة لكل مسلم

١٤٤٢هـ

المقدمة

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله وآله
وصحبه ومن اتبع هداه، أما بعد :

فهذه القصة العجيبة الصادقة ليست من نسج
الخيال، وإنما غالب فصولها وأحداثها من أخبار الوحي،
ورواية ثقات المؤرخين في خلاصة غنية جداً من
الأحداث والأحاديث الصحيحة -إن شاء الله- التي هي
نواة العلم الحقيقي وتاريخ الكون والبشر.

بعيداً عن خرافات العصر الحجري وما يسمى بعصر
ما قبل التاريخ، ونظريات تحول الإنسان من قرد، ونظرية
الانفجار العظيم وغيرها من الفلسفات والتخيلات

الباطلة المليئة بالمتناقضات والظنون التي لا تغني من الحق شيئاً.

بعيداً عن ذلك كله؛ هناك مصدر للحق الذي يوافقه العقل السليم والفطرة السوية فتخبت له القلوب وتطمئن إليه النفوس. إنه نور الوحي السماوي الذي أوحاه رب الكون وجعله نوراً وهدى للناس، فيه ذكر أصل الكون وتاريخه السابق واللاحق، وما كان وما سيكون، وفيه (قصة الحياة).

من خلق هذا الكون؟ وكيف بدأ؟ وما قصة أول إنسان؟ وهل كان عالماً أم جاهلاً؟ وما علاقته بالسماء وبالأرض وبملك المخلوقات التي تغيب عن الأعين؟ ولماذا نحن على الأرض؟ وما النظام الصحيح للحياة؟

وما قصة الأجيال التي عاشت قبلنا؟ والتي ستأتي بعدنا؟ وما الدين الحق؟ وما قصة الرسائل السماوية التي بُعث بها الأنبياء من رب العالمين؟ وما آخر رسالة منها إلى البشر؟ وكيف ستكون نهاية الحياة؟ وأين هي تلك الجنة؟ وما مصير الأرواح؟ وما مصير الكون؟.

ما أجمل أن تجد من الوحي إجابات صادقة وإرشادًا وهديًا ربّانيًا لكل تلك التساؤلات! وقد قال خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم -: "مَا تَرَكْتُ شَيْئًا يُقَرِّبُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَيُبَاعِدُكُمْ عَنِ النَّارِ ، إِلَّا وَقَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ ، وَمَا تَرَكْتُ شَيْئًا يُقَرِّبُكُمْ مِنَ النَّارِ ، وَيُبَاعِدُكُمْ عَنِ الْجَنَّةِ ، إِلَّا وَقَدْ نَهَيْتُكُمْ

عَنْهُ، تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي."

ولذا فلا عجب أن يقول أبو ذر - رضي الله عنه : تَرَكْنَا رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - وَمَا طَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي الْهَوَاءِ ، إِلَّا ذَكَرْنَا مِنْهُ عِلْمًا.

حتى قَالَ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ لِسَلْمَانَ - رضي الله عنه - وَهُمْ يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ : قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْحِرَاءَةِ. فَقَالَ: أَجَلُ "لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ لِعَائِطٍ، أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِالْيَمِينِ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقْلٍ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ".

ويقول عمرو بن أخطب - رضي الله عنه - :
"صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْفَجْرَ،
وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهُرُ، فَنَزَلَ
فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ،
ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ
الشَّمْسُ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ، فَأَعْلَمْنَا
أَحْفَظْنَا".

ويقول حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - :
"خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خُطْبَةً مَا
تَرَكَ فِيهَا شَيْئًا يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا
ذِكْرَهُ، حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ، وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ، قَدْ عَلِمَهُ
أَصْحَابِي هَؤُلَاءِ، فَمَا مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا قَدْ سَأَلْتُهُ عَنْهُ، إِلَّا أَنِّي

لَمْ أَسْأَلْهُ: مَا يُخْرِجُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَإِنَّهُ
لَيَكُونُ مِنْهُ الشَّيْءُ قَدْ نَسِيتُهُ، فَأَرَاهُ، فَأَذْكُرُهُ كَمَا يَذْكُرُ
الرَّجُلُ وَجْهَ الرَّجُلِ إِذَا غَابَ عَنْهُ، ثُمَّ إِذَا رَأَاهُ عَرَفَهُ".

ولما تفرقت تلك الروايات التي تحكي قصة الوجود
والغاية من الخلق ونظام الحياة ونهاية الدنيا وتشعبت
في الكتب؛ حرصت أن أجمع منها خلاصة غنية في
سياق قصة تجمع أصول العلم الثابت وجوامع الحديث
الصحيح وأهم أحداث التاريخ، لتحكي بنسق مترابط
أبرز وأهم ما يتيسر جمعه من أحداث قصة الوجود
والخلق والطريق في هذه الحياة وما فيه من تدافع الحق
والباطل وأبرز أخبار الأمم وما سيكون إلى حياة الخلود.

جمعتها لتكون خلاصة متناسقة بأسلوب يسهل فهمها والربط بينها ومذاكرتها ومعاودة قراءتها والاستئناس بها؛ فأنفع بها وأنفع بها أولادي وأحبها لهم؛ كونها خلاصة غنية من الأخبار والسنن الصحيحة والحسنة وهدى النبوة في سياق قصة أحداث لهذه الحياة، وحرصت قدر الإمكان على الاكتفاء بالصحيح عن الضعيف وانتقاء ما صححه أو حسنه ورجحه بعض المحققين من أهل العلم، مكثفياً بذلك عن الإطالة والإحالة والإسناد والعزو والتخريج؛ حيث كان المقصد جمع الفوائد الصحيحة واختصار المهم من مطولاتها وربطها وتسهيل مراجعتها بصورة خاصة وليس للنشر العلمي.

ثم رغب إلي بعض الأُحبة -ممن اطلع على هذا الكناش- بنشره لما فيه من مراعاة الانتقاء والتسلسل والربط والتسهيل والخلاصات وإن كان يكاد يخلو من عنصر الإحالات والتوثيقات ؛ ففعل الله أن يفتح لقارئه باباً للتزود من العلم النافع ويسهل لقارئه فهم كثير مما جاء في القرآن والسنة والسيرة والتاريخ وواقعه المعاصر، ويكون بقراءته الممتعة في سياق قصة مترابطة قد مرَّ بفوائد جمّة من كثير من الأحاديث وجوامع الكلم والأخبار الصحيحة والحسنة الجامعة والمجتمعة الأطراف في ترابط وترتيب مختصر مفيد مع خلاصات وفوائد وشروح في الحاشية بعضها في الواقع خلاصات واختصارات لموضوعات مطولة وكتب

متفرقة، مع الشكر والدعاء والعرفان لمن نقلت من كتبهم أو مواقعهم أو أبحاثهم أو مقالاتهم وترجيحاتهم فهذا العلم والجهد من جهدهم، نقلت منه وجمعت واخترت ولخصت مما أفادوا، فجزاهم الله عني وعن المسلمين خيراً، وبارك فيما كتبوه وعلموه رحمهم الله وغفر لهم ورفع درجاتهم.

ولا شك أنه عمل يعتره النقص والخطأ والزلل، وخاصة في عدم الحرص على التوثيق والإحالة، فما كان فيه من الصواب فمن الله ، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي، وأستغفر الله وأتوب إليه، ولعل الله أن يسخر له من يفيد منه ويسدد خلله ويتمم نقصه، فإنما هو كناش لمراجعة خلاصات الفوائد في سياق لطيف.

وأسأله سبحانه المغفرة والقبول وأن ينفع بما
جُمع وكُتب، وأن يوفقنا جميعاً لكل خير ويعفو عن
الخطأ والزلل ويرحمنا برحمته الواسعة، ويجزي خيراً من
نقلت من علومهم فأفادوني وأفادوا غيري ولم أشر إليهم
وأنسب الفضل لهم، غفر الله لهم وشكر لهم، إنه غفور
شكور.

وحرره:

عبد الإله بن عبد الله السعيد - عفا الله عنه -

٢٥ محرم ١٤٤٢هـ

الله جل وعلا

الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، كان الله ولم يكن شيء غيره
ولا قبله، هو الأول فليس قبله شيء، والآخر فليس بعده
شيء، والظاهر فليس فوقه شيء، والباطن فليس دونه
شيء، لا إله إلا هو، وليس كمثله شيء، هو أكبر وأعظم
من كل شيء، لم يكن له شريك في الملك، له الأسماء
الحسنى والصفات العلى، إِنَّ اللَّهَ - عز وجل - لَا يَنَامُ،
وَلَا يَنبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ^(١)، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ^(٢)، يُرْفَعُ

(١) كالتعليل لمعنى القيومية أي كيف ينام، وهو مالك ما في السموات وما في الأرض ومربيهم، ومدبر أمور معاشهم ومعادهم؟
(٢) قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: الْقِسْطُ: الْمِيزَانُ، وَسُمِّيَ قِسْطًا ، لِأَنَّ الْقِسْطَ: الْعَدْلَ، وَبِالْمِيزَانِ يَقَعُ الْعَدْلُ، قَالَ: وَالْمُرَادُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَخْفِضُ الْمِيزَانَ وَيَرْفَعُهُ بِمَا يُوزَنُ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ الْمُتَرَفِّعَةِ، وَيُوزَنُ مِنْ أَرْزَاقِهِمُ النَّازِلَةِ، وَهَذَا تَمْثِيلٌ لِمَا يَقْدَرُ تَنْزِيلُهُ ، فَشَبَّهَ بِوَزْنِ الْمِيزَانِ.

إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ
 عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأُحْرِقَتْ سُبُحَاتُ
 وَجْهِهِ^(١) مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ. (قل هو الله
 أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً
 أحد)، (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا
 لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ).

علم الله

الله هو العليم خالق العقول (وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا)
 فالعلم كله عِلْمُهُ، وقد (أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)،
 والمخلوقون (لَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا) فهو أجلُّ وأعظم من

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْقِسْطِ: الرِّزْقُ الَّذِي هُوَ قِسْطُ كُلِّ مَخْلُوقٍ ، يَخْفِضُهُ
 فَيُقْتَرَهُ ، وَيَرْفَعُهُ فَيُوسِّعُهُ.

(١) سُبُحَاتُ وَجْهِهِ: نُورُهُ وَجَلَالُهُ وَبَهَاؤُهُ.

ذلك، بل (لَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)، (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا).

يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ وَلَا يَزَالُ النَّاسُ يُسْأَلُونَ حَتَّى يُقَالَ: هَذَا خَلَقَ اللَّهُ، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟، فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا؛ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتِهِ وَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ. إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ. ^(١)

(١) فإذا رد العبد تلك الوسوسة بذكر الله والإيمان به وانتهى عن الاسترسال في الوسواس واستعاذ من الشيطان؛ فإن ذاك دلالة على (صريح الإيمان) في قلبه.

والشيطان يأتي للعبد ويريد أن يوقعه في المعاصي دون ذلك الإلحاد، فإذا لم يستطع؛ لجأ إلى تلك الوسواس، فالحمد لله الذي رد كيده إلى مجرد الوسوسة ولم يجعل له سلطاناً على المؤمنين.

بدء الخلق

وكان عرش الله على الماء^(١)، وحين خلق الله القلم قال له : اكتب، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة (إلى الأبد)، كتب مقادير الخلائق (القدر)، وكتب في الذكر (اللوح المحفوظ) كل شيء قبل أن يخلق الله السموات والأرض بخمسين ألف سنة.

رحمة الله

وَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ؛ كَتَبَ كِتَابًا عَلَى نَفْسِهِ فَهُوَ مَوْضُوعٌ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ : "إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي"، وَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

(١) وعن ابن عباس : أن الماء على مثنى الرِّيحِ .

مِائَةً رَحْمَةً (مِائَةً جُزْءٍ) ، كُلُّ رَحْمَةٍ طِبَاقٍ ^(١) مَا بَيْنَ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، أُنْزِلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجَنِّ،
وَالْإِنْسِ، وَالْبَهَائِمِ، وَالْهَوَامِّ، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاخَمُ
الْخَلَائِقُ، وَبِهَا يَتَعَاطِفُونَ، فَبِهَا تَعْطِفُ الْوَالِدَةُ عَلَى
وَلَدِهَا، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوُحُوشُ عَلَى أَوْلَادِهَا، وَالطَّيْرُ
بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا
خَشْيَةً أَنْ تُصِيبَهُ. وَادَّخَرَ عِنْدَهُ لِأَوْلِيَائِهِ تِسْعًا وَتَسْعِينَ
رَحْمَةً، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ضَمَّمَهَا إِلَيْهَا فَأَكْمَلَهَا بِهِذِهِ
الرَّحْمَةِ وَرَحِمَ بِهَا عِبَادَهُ، فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ
مِنَ الرَّحْمَةِ، لَمْ يَيْئَسْ مِنَ الْجَنَّةِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ
بِمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ؛ مَا طَمِعَ فِي الْجَنَّةِ أَحَدٌ.

(١) يعني : ملء ما بينهما .

وَمَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أَضْبَعَهُ
فِي الْيَمِّ^(١) ، فَلْيَنْظُرْ بِمَاذَا تَرْجِعُ ، وَلَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ
عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ؛ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةً مَاءٍ .

خلق السموات والأرض

وَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَيْنِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ^(٢) ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَوْمَ السَّابِعِ ، وَخَلَقَ التُّرْبَةَ
يَوْمَ السَّبْتِ ، وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الْآحَدِ ، وَخَلَقَ

(١) اليم: البحر والنهر العظيم ، قيل هو كلمة عربية . وقيل معرب عن السريانية وأصله فيها (يمًا) وقال شَيْدَلَةُ: هو من القبطية ، وقال ابن الجوزي: هو من العبرية ، ولعله موجود في هذه اللغات . ولعل أصله عربي وأخذته لغات أخرى سامية من العربية وأطلق في القرآن على بحر القلزم ، المسمى في التوراة بحر سُوف ، وهو البحر الأحمر . وعلى نهر النيل ، وكلاهما لهما اتصال بأرض مصر .

(٢) جمهور العلماء على أنها أيام كأيامنا . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن اليوم الواحد من الأيام الستة بألف سنة .

الشَّجَرِ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ، وَخَلَقَ التَّنُّ وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ ^(١) يَوْمَ
الثَّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ ^(٢) يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ ، وَبَتَّ فِيهَا الدَّوَابَّ
يَوْمَ الْخَمِيسِ . وَخَلَقَ آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَام - بَعْدَ الْعَصْرِ
مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فِي آخِرِ الْخَلْقِ ، فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ
الْجُمُعَةِ ، فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ . ^(٣)

(١) في كتاب ثابت من رواية النسائي: "التَّنُّ"، وهو ما يقوم به المعاش
ويصلح به التدبير كالحديد وغيره من جواهر الأرض، وكل شيء يقوم
به صلاح شيء فهو تقنة، ومنه: إتقان الشيء: إحكامه. وعند مسلم
(المَكْرُوه). قال المناوي: لا ينافيه رواية مسلم لأن كلاً منهما خُلِقَ فيه.
وفي طبقات بعض الكتب: (الشر) مكان (المكروه).

(٢) ورد في كتاب ثابت (النون) بدل النور وبهذا اللفظ رواه بعض الرواة
لصحيح مسلم ومعناه: الحوت، وجمع النووي بينهما بأنه يحتمل أن
يكون والنور كلاهما خُلِقَا يوم الأربعاء، وذكر القاضي عياض في رواية
أخرى (البحور) بدل النور، والله سبحانه أعلم.

(٣) استشكل بعض العلماء الجمع بين الأيام السبعة في الحديث
والأيام الستة في القرآن التي تحدثت عن خلق الأرض والسموات،
وقال بعضهم: هذا الحديث في متنه غريبة، فمن ذلك أنه ليس فيه
ذكر خلق السماوات. وأجيب عن ذلك بأن الحديث يتحدث عن شيء
من التفصيل الذي أجراه الله على الأرض، فهو يزيد على القرآن، ولا
يخالفه.

تسخير الشمس والقمر والنجوم للناس

(وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ
مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) {إِنَّ
عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ
خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ
الْقَيِّمُ}، فجعل الله السنة اثنا عشر شهراً ، منها أربعة

والحديث وإن لم ينص على خلق السماء؛ فقد أشار إليها بذكره في
اليوم الخامس النور، وفي السادس الدواب، وحياة الدواب محتاجة
إلى الحرارة، والنور والحرارة مصدرهما الأجرام السماوية. والذي فيه
أن خلق الأرض نفسها كان في أربعة أيام كما في القرآن، والقرآن إذ
ذكر خلق الأرض في أربعة أيام، لم يذكر ما يدل أن من جملة ذلك
خلق النور والدواب، وإذ ذكر خلق السماء في يومين لم يذكر ما يدل
أنه في أثناء ذلك لم يحدث في الأرض شيئاً، والمعقول أنها بعد تمام
خلقها أخذت في الخطور بما أودعه الله تعالى فيها، والله سبحانه
وتعالى لا يشغله شأن عن شأن.

حرم ، ثلاث متواليات: ذو القعدة ، وذو الحجة ،
والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان. ^(١)

(١) طريقة الإسلام في حساب السنة والشهر والأسبوع واليوم أقوم طريقة، فالحول (السنة) ؛ لم يكن له حد ظاهر في السماء، فكان لا بد فيه من الحساب والعدد، فكان عدد الشهور الهلالية أظهر وأعم من أن يحسب بسير الشمس، وتكون السنة مطابقة للشهور؛ ولأن السنين إذا اجتمعت فلا بد من عددها في عادة جميع الأمم؛ إذ ليس للسنين إذا تعددت حد سماوي يُعرف به عددها، فكان عدد الشهور موافقاً لعدد البروج، فجعلت السنة اثني عشر شهراً قمرياً هي : مُحَرَّمٌ ، وَصَفَرٌ ، وَرَبِيعُ الْأَوَّلِ ، وَرَبِيعُ الْآخِرِ ، وَجُمَادَى الْأُولَى جُمَادَى الْآخِرَةِ ، وَرَجَبٌ ، وَشَعْبَانٌ ، وَرَمَضَانٌ ، وَشَوَّالٌ ، وَذُو الْقَعْدَةِ ، وَذُو الْحِجَّةِ . وهي بعدد البروج التي تكمل بدور الشمس فيها سنة شمسية، فإذا دار القمر فيها كمل دورته السنوية، وبهذا كله يتبين معنى قوله: {وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابِ} ؛ فإن عدد شهور السنة وعدد السنة بعد السنة إنما أصله بتقدير القمر منازل، وكذلك معرفة الحساب؛ فإن حساب بعض الشهور لما يقع فيه من الأجال ونحوها إنما يكون بالهلال، وكذلك قوله تعالى: {قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ} . فأخبر الله أن ذا هو الدين القيم؛ ليبين أن ما سواه من أمر النسبي وغيره من عادات الأمم ليس قيماً لما يدخله من الانحراف والاضطراب.

فالיום الطبيعي ليلته من غروب الشمس إلى شروقها ونهاره من طلوع الشمس إلى غروبها في أربع وعشرين ساعة، ثم تحل ليلة يوم جديد ، وأما الأسبوع؛ فهو عددي من أجل الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض ثم استوى على العرش، فوقع التعديل بين الشمس والقمر باليوم، والأسبوع بسير الشمس، والشهر والسنة بسير

{وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ}،
 وجعلت النُّجُومُ زِينَةً لِلسَّمَاءِ الدنيا، وَرُجُومًا
 لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا^(١).

القمر، وبهما يتم الحساب، فالهلال يكون توقيت الشهر والسنة،
 وليس شيء يقوم مقام الهلال ألبتة لظهوره وظهور العدد المبني عليه
 وتيسر ذلك وعمومه، وغير ذلك من المصالح الخالية عن المفسد.
 ومن عرف ما دخل على أهل الكتابين والصابئين والمجوس وغيرهم
 في أعيادهم وعباداتهم وتواريخهم وغير ذلك من أمورهم من
 الاضطراب والحرَج وغير ذلك من المفسد ازداد شكره على نعمة
 الإسلام، مع اتفاقهم أن الأنبياء لم يشرعوا شيئاً من ذلك، وإنما دخل
 عليهم ذلك من جهة المتفلسفة الصابئة الذين أدخلوا في ملتهم
 وشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله.

(١) كان لشعوب عديدة وللعرب خصوصاً معرفة واسعة بأسماء
 النجوم، وطلوعها وغروبها وآكدها القُطْبُ الشَّمَالِي. دعاهم إلى ذلك
 اعتمادهم عليها في سيرهم براً وبحراً، وساعدهم على ذلك: صفاء
 جوهم.

والبروج عند العرب عبارة عن مجموعة أو تشكيلات متقاربة من
 النجوم الظاهرة يتم تخيلها على صورة حيوان أو صورة آلة في رؤية
 العين فسميت كل جماعة باسم تلك الصورة التي هي عليها، وهي
 اثنا عشر برجاً أشار بعضهم لها على الترتيب فقال:

حَمَلُ الثَّوْرِ جُوزَةُ السَّرَطَانِ ... وَرَعَى اللَّيْثُ سُنْبُلَ الْمِيزَانِ
 وَرَمَى عَقْرَبُ بَقُوسٍ لِحْدَي ... نَزَحَ الدَّلوُ بَرَكَةَ الْحَيَتَانِ

وسميت هذه المنازل بالبروج، وهي القصور العالية؛ لأنها للكواكب
 السيارة كالمنازل الرفيعة لسكانها، واشتقاقها من التبرج؛ وهو الظهور،

لأن أصل معنى البرج: الأمر الظاهر، من التبرج، ثم صار حقيقة في العرف للقصر العالي؛ لظهوره، ويقال: لما ارتفع من سور المدينة برج أيضاً. ستة منها في شمال خط الاستواء، وستة منها في جنوبه، فالتى في شماله ثلاثة ربيعية، وهي: الحمل والثور والجوزاء، وابتداء الحمل من الاعتدال الربيعي، ويصادف اليوم الثالث والعشرين من شهر مارس آذار، وثلاثة صيفية، وهي: السرطان والأسد والسنبلة، وابتداء السرطان من نقطة الانقلاب الصيفي، ويصادف اليوم الثالث والعشرين من شهر يونيو حزيران. والستة التي في جنوب خط الاستواء، ثلاثة منها خريفية، وهي الميزان والعقرب والقوس، وابتداء الميزان من الاعتدال الخريفي، ويصادف اليوم الرابع والعشرين من شهر سبتمبر أيلول، وثلاثة شتائية، وهي: الجدي والدلو والحوت، وابتداء الجدي من الانقلاب الشتوي، ويصادف اليوم الثالث والعشرين من شهر كانون أول ديسمبر، فتكون السنة الشمسية ثلاث مئة وخمسة وستين يوماً وربع يوم، وهي مدة رجوع الشمس إلى النقطة التي فارقتها من تلك البروج، وكل برج ثلاثون درجة، فمجموعها: (٣٦٠) ثلاث مئة وستون درجة، كل درجة بمقدار أربع دقائق، ومجموعها: أربع وعشرون ساعة، والشمس تقطع هذه البروج كلها مرة في السنة، كل برج في شهر، وبها تتم دورة الفلك، ويقطعها القمر في ثمانية وعشرين يوماً وكسور. فكل برج له منزلتان وثلاث. ولكل فصل من الفصول الأربع سبعة منازل.

ولا يظهر على القبة السماوية في الليل إلا ستة من هذه البروج يغيب واحداً منها كل شهر ويطلع مقابله برج جديد. والشمس بضوئها الوهاج تحول دون رؤية البرج الذي يقع خلفها تماماً، ويقال حينئذ أن الشمس قد نزلت في ذلك البرج. ويستدل على نزول الشمس في أحد البروج من خلال مراقبة البرج المقابل له تماماً على فلك البروج (١٨٠ درجة) أو ما يسمى بالرقيب. فرقيب الحمل هو الميزان وكذلك العكس، ورقيب الثور هو العقرب، وهكذا لبقية الأبراج. وعلى ذلك فإنه يمكن تحديد منزل الشمس في أي وقت من خلال معرفة البرج الرقيب الذي يطلع من جهة الشرق عند غياب الشمس،

أو الذي يسقط في الغرب عند شروق الشمس. وعلى ذلك فإن تحديد بداية كل شهر من أشهر السنة يتم من خلال مراقبة بداية طلوع الرقيب من الشرق عند غياب الشمس.

وقسم العرب حركة القمر السنوية داخل حزام أو شريط أو دائرة الأبراج إلى ٢٨ منزلاً هي خير دليل لحركة حياتهم والاهتمام بها في مواعيد الزراعة وحصاد المحاصيل الصيد البحري للأسماك والصيد البري للحيوانات والصيد الجوي للطيور المهاجرة، ومواسم الأمطار والجفاف ومواقيت المد والجزر ومواسم فيضان الأنهار ومن خلالها كانوا يحددون مواعيد حروبهم وغيرها، وأول هذه المنازل : الشَّرطان، وهي نقطة الاعتدال الربيعي. وتبدأ من البداية نفسها للبروج الشمسية والتي توافق برج الحمل. لتعلن بداية فصل الربيع في نصف الكرة الشمالي، وآخر المنازل القمرية هو الرشاء والذي يقع في برج الحوت وهو آخر البروج الشمسية. وتكون الفصول الأربعة على التوالي الربيع والصيف والخريف والشتاء.

فَمَنَازِلُ الْقَمَرِ ثَمَانِيَّةٌ وَعِشْرُونَ مَنَزَلًا أَوْ نَجْمًا، وَهِيَ: الشَّرْطَانُ، وَالْبُطَيْنُ، وَالثُّرَيَّا، وَالدَّبْرَانُ، وَالْهَقْعَةُ، وَالْهَنْعَةُ، وَالذَّرَاعُ، وَالنَّبْرَةُ، وَالطَّرْفُ، وَالْجَبْهَةُ، وَالزُّبْرَةُ، وَالصَّرْفَةُ، وَالْعَوَاءُ، وَالسَّمَائُكُ، وَالْغَفْرُ، وَالزُّبَانَى، وَالْإِكْلِيلُ، وَالْقَلْبُ، وَالشَّوْلَةُ، وَالنَّعَائِمُ، وَالْبَلْدَةُ، وَسَعْدُ الدَّابِحِ، وَسَعْدُ بُلْعٍ، وَسَعْدُ السُّعُودِ، وَسَعْدُ الْأَخْبِيَةِ، وَالْفَرْعُ الْمُقَدَّمُ؛ وَالْفَرْعُ الْمُؤَخَّرُ، وَبَطْنُ الْحَوْتِ.

مجموعة في قول بعضهم:

أَوَّلُهَا الشَّرْطَيْنُ ثُمَّ الْبُطَيْنُ ... ثُمَّ الثُّرَيَّا الْوَاضِحُ الْمُسْتَبِينُ

وَدَبْرَانِ هَقْعَةٍ وَهَنْعَةٍ ... ذِرَاعُ نَبْرَةٍ وَطَّرْفُ جَبْهَةٍ

وَالْخَزْرَتَانِ زُبْرَةٍ تُسَمَّى ... وَالصَّرْفَةُ الْعَوَا السَّمَائُكُ ثَمَّا

غَفْرُ زُبَانَا إِكْلِيلُ قَلْبٍ بَعْدَهُ ... وَشَوْلَةُ نَعَائِمٍ وَبَلْدَةُ

سَعْدُ دَابِحٍ سَعْدُ بُلْعَةٍ ... سَعْدُ سُعُودٍ سَعْدُ الْأَخْبِيَةِ

وَالْفَرْعُ ذُو التَّقْدِيمِ وَالْفَرْعُ الْأَخِيرُ ... وَبَطْنُ حَوْتٍ وَالرِّشَاءُ فِيهِ شَهِيرُ

فأول أنواء فصل الشتاء هو الإكليل (١٣ يوماً) يوافق بدايته (٧ ديسمبر) وهو رأس العقرب، ثلاثة كواكب زهر مصطفىة. وقالوا: إذا

طلع الإكليل بطلت التعاليل. وهو أول مربعانية الشتاء، قارس البرودة، وتكثر فيه الأمطار بإذن الله، ويقطع فيه سعف النخل وفواصل الأشجار، ويقلل فيه سقي الزرع عدا القمح والشعير، وتنبث فيه الكمأة (الفقع)، وتزرع فيه الحلبة والقمح والشعير في شمال جزيرة العرب، وفيه بداية هجرة طيور القطا والكدرى والجوني، ويندر سمك الفسكر، ويهلك الذباب وكثير من الحشرات، ويخرج البخار من الأفواه، وينزل الندى فجراً، ويستحب أكل الحار.

ثم القلب وهو قلب «العقرب» (١٣ يوماً) يوافق بدايته (٢٠ ديسمبر) وقالوا: إذا طلع القلب، لأن كل صعب. ويشد فيه البرد والرياح، وتكون قشعريرة في الصباح، ويظهر الضباب وتكثر الغيوم، فيه أطول ليلة وأقصر نهار في العام، وفيه يأخذ النهار بالزيادة من الليل، ويبدأ غرس العنب والأشجار وتقليمها، ويمكن فيه زراعة البرسيم والبطاطس والعدس والحلبة، وفيه نهاية زراعة الخس، وبداية تقليم الشجر ويبتدئ الطلع، ويظهر النجم الأحمر، وفيه هجرة طيور الوز الشتوي، وبداية العام الميلادي.

ثم الشولة (١٣ يوماً) يوافق بدايته (٢ يناير) وهى إبرة العقرب ومئبرها، وسميت بذلك لأنها مشالة أبداً - أي: مرفوعة؛ وهى كوكبان أزهران متقاربان، في طرف ذنب العقرب. وقالوا: إذا طلعت الشولة، أعجلت الشيخ البولة. وهو آخر المربعانية وتستمر فيه شدة البرد والصقيع والضباب ونقص الليل وزيادة النهار، ويهيض فيه البلغم، ويزرع فيه المشمش والخوخ والحبة السوداء والبطيخ والبادنجان، وفيه بداية تسميد الأرض، وتعد فيه الأرض لزراعة أشجار الفاكهة، وهو آخر موعد لزراعة القمح والشعير في شمال جزيرة العرب، وتسقط فيه أوراق الشجر المثمر، ويخضر عشب الصحراء، وفيه هجرة طير القطا المعاعي (النفاق)، ويكثر سمك الهامور والنيسر والصافي والقرفقان والكوفر، ويقل سمك سلطان.

ثم النعائم (١٣ يوماً) يوافق بدايته (١٥ يناير) والنعائم بضم النون هي الخشبات التي تكون على راس البئر، ويعلق فيها البكر والدلاء؛ فشبهت بها، كأن منها أربعة كذا، وأربعة كذا. وقالوا: إذا طلعت

النَّعَام، خلص البرد إلى كل قائم. ويردها قارس وشديد ويزداد فيه الصقيع، ولا يكاد يزرع فيه شيء لشدة برودته، ويستحسن فيه تسميد النباتات المستديمة وتقليم اليابس منها، وتزرع البطاطس وتشتل الطماطم والباذنجان والفلفل، وفيه تبدأ النخيل البواكير في الطلع، وتعود الرياح لاتجاهها، ويخضر وجه الأرض، ويبدأ تغير الجو، وتستمر قطرات الندى، ويبدأ غرس الأشجار، وتتكاثر السحب وفيه هجرة طيور القطا، وينتهي موسم القنص وتتشبع الأرض بالرطوبة ويبدأ ظهور الذباب.

ثم البلدة (١٣ يوماً) يوافق بدايته (٢٨ يناير) وسميت البلدة لكونها رقعة من السماء قفر، لا كواكب فيها، وشبهت بالفرجة، التي تكون بين الحاجبين إذا لم يكونا مقرونين؛ ويقال رجل أبلد، إذا كان غير مقترن ما بين الحاجبين. وقالوا: إذا طلعت البلدة، أكلت القشدة - وهي ما يخرج من الزبد والسمن في أسفل القدر- وقيل: أكلت الجعدة، وهي نبت معروف. وفيها يشد البرد ويجمد الماء، وهو أفضل وقت لزراعة البرسيم، وفيه يزرع البطيخ والقطن، وينقل في آخره أفراخ النخيل، وتستمر فيه زيادة النهار ونقصان الليل، والأيام الثلاثة الأخيرة منه جزء من "بذرة الست" الصالحة لزراعة جميع الأشجار، ويستحسن نبش الأرض وحرثتها ، ويظهر ورق الأشجار، ويتكاثر سمك الكنعد ويندر سمك الزبيدي والبده.

ثم سعد الذابح (١٣ يوماً) يوافق بدايته (١٠ فبراير) وهو كوكبان، أحدهما شمالي والآخر جنوبي، وبينهما قدر ذراع؛ وعند الشمالي منهما كوكب صغير، هو شاته التي يذبحها، وهما على قرن الجدي. وقالوا: إذا طلع الذابح، حمى أهله النَّابح. والأيام الثلاثة الأولى منه جزء من "بذرة الست" الصالحة لزراعة الأشجار. ويبدأ فيه جريان الماء ليصعد في فروع الشجر ويكثر العشب والفقع، ويقطع فيه جذوع النخل، ويورق الخوخ والرمان والمشمش واللوز، ويزرع الشامام والبامية، وفيه تقليع فسائل النخيل، ونهاية زراعة الخيار، ويندر الروبيان وسمك الحمرة.

ثم سعد بلع (١٣ يوماً) يوافق بدايته (٢٣ فبراير) وهو كوكبان، بينهما ثالث خفى، حتى كأن أحدهما ابتلعه، فنزل من الحلق الى الصدر. وقالوا: إذا طلع بلع، اقتحم الرُّبع -أي قوي على المشي- وصار في الأرض لُح -أي بدَّر الكلاً. وهو آخر أنواء الشتاء، يكثر فيه المطر بإذن الله، وفي آخره ربما يكون البرد قارساً ويضر المزروعات، وتشتد فيه الرياح ويتحول اتجاهها، وبداية لغبار خفيف، ويجري الماء في العود، وتنتهي زراعة الذرة والكوسة، ويبدأ فيه غرس فسائل النخل، وتلقيح النخل. ويقل سمك الربيب والكراري والقين، وتبدأ أمراض الحساسية.

ثم يظهر أول أنواء فصل الربيع وهو سعد السعد (١٣ يوماً) يوافق بدايته (٨ مارس) وهو ثلاثة كواكب، أحدها أنور من الباقين؛ وسَمِّي بذلك لاستبشارهم بطلوعه وتيمّنهم به، لأنّ طلوعه يكون عند إدبار البرد، وانقطاع الشتاء، وابتداء تواتر الأمطار. وقالوا: إذا طلع سعد السعد اخضرَّ العود، ولانت الجلود، وكره في الشمس القعود. وفيه يعتدل الطقس وتخضر الأرض ويكثر العشب وتزدهر الورود والرياحين ويزداد الفقع، وتكثر الأمطار وتغرس فسائل النخل ويستمر تلقيح النخيل، ويقلم العنب والتين، ويزرع البرسيم والخضار، وفيه اقتران القمر بالثريا فيما يُسمَّى بالقران الخامس والذي يقال فيه: (قران خامس ربيع طامس)، ومعناه أن هذا الاقتران علامة على تفشي الربيع في أنحاء المعمورة، وفيه الإقلال من سقي الزرع واستحباب ترك الدثار، والإحساس بدفع مؤقت، وهبوب رياح دافئة، وبعض الغبار الخفيف، وهيجان البراغيث.

ثم سعد الأخبية (١٣ يوماً) يوافق بدايته (٢١ مارس) وهو أربعة كواكب، ثلاثة منها على هيئة مثلث حادّ الزوايا، وواحد في وسطه على مثال مركز الدائرة المحيطة به، وهو «السعد» والتي حواليه أخبيته؛ ويقال: بل سَمَّى بذلك، لأنّه إذا طلع؛ خرج من الهوامّ ما كان مختبئاً. وقالوا: إذا طلع الأخبية، حنّ الناس إلى لبس الأخبية. ويتساوى فيه الليل والنهار، ويزداد فيه الدفء واخضرار الأشجار وتخرج الهوام والحشرات من جحورها ومخابئها، وتغرس فيه

الأشجار وأشجار الفاكهة، ويكثر فيه تلقيح النخل، وتبذر فيه جميع البذور الصيفية والخضار والبرسيم، وفيه هجرة طيور الوز الربيعي، وينهى عن أكل السمك المالح، وفيه زيادة النبق (الكنار)، واحتمال هبوب رياح الشمال، وبداية ندرة أم الروبيان، ونهاية موعد مقاومة آفات الزروع، ويكثر فيه سمك الشعري.

ثم المقدم (١٣ يوماً) يوافق بدايته (٣ إبريل) ويسمى العرقوة العليا، وناهزي الدلو المقدمين؛ وهما كوكبان أزهزان. وقالوا: إذا طلع المقدم، فاحدم ولا تندم. ويرده يهلك الثمار، وهو أوان انقطاع البلغم، ويكثر فيه الصداق والزكام، ويزرع فيه الأرز، ويحصد القمح، ويظهر فيه ورق العنب، وتقليم أفرع العنب، وينعقد فيه اللوز والتفاح، وتزرع الذرة الرفيعة، وفيه هجرة طيور الدحل وعودة القماري، ويتكاثر سمك الزبيدي والكراري والحمرة، ويندر سمك الجش، وترتدى الملابس الخفيفة، ويهيج النمل، ويقتطف العسل.

ثم المؤخر (١٣ يوماً) يوافق بدايته (١٦ إبريل) ويسمى العرقوة السفلى، وناهزي الدلو المؤخرين. وقالوا: إذا طلع المؤخر، فأسرع ولا تتأخر. ويعتدل فيه الجو في الليل ويميل للحرارة في الظهيرة، وإذا حدث فيه مطر فيكون بإذن الله غزيراً ويخضر به العشب، ويستحسن فيه تلقيح النخيل، وتغرس فيه النخيل والأشجار المثمرة، وتسمد فيه الأشجار التي لم تسمد من قبل، وتزرع البذور الصيفية، وتكثر فيه طيور القماري وطيور الربيع، ويخرج النمل من باطن الأرض، وتكثر القوارض، ويتحول اتجاه الرياح، ويهيج الذباب، ويحس بالحرارة ويستحب شرب الماء البارد.

ثم الرشاء (١٣ يوماً) يوافق بدايته (٢٩ إبريل) ويسمى بطن الحوت وقلب الحوت أيضاً، وهو كوكب نير في أحد شقي بطن سمكة، تسمى «الرشاء». وقالوا: إذا طلعت السمكة، أمكنت الحركة، وتعلقت بالثوب الحسكة، أي: حسك السعدان. وهو آخر النجوم اليمانية، ليله معتدل ونهاره حار خاصة في الظهيرة، ومطره غزير بإذن الله، وتهب فيه الرياح العالية، وفيه تغيير أوراق شجر البمبر، وتغرس فيه فسائل النخل، وتزرع الخضار كالطماطم والفلفل والباذنجان والبصل،

وتكثر فيه طيور القماري والصفاري والخواضير والطيور الصغيرة، ويكثر سمك الجدد والفسكر، ويستمر تكاثر سمك الكراري والزبيدي، ويندر القبقب وسمك الحمام والقرقفان.

ثم نوء الشرطان (١٣ يوماً) يوافق بدايته (١٢ مايو) أول النجوم الشامية، وهما العلامتان، وسمي بذلك - كما سمي أصحاب السلاطين شرطاً - إذ علموا أنفسهم بالسود أو غيره. وقالوا: إذا طلع الشرطان استوى الزمان، وخضرت الأغصان، وعمرت الأوطان، وتهادت الجيران، وبات الفقير بكل مكان. ويميل الطقس فيه إلى الدفء وتستمر زيادة النهار، وتكثر فيه الرياح والعواصف وبه أمطار خفيفة، وتزرع فيه الذرة الرفيعة والشامية وال فول السوداني والعروة الأخيرة من الخيار، وتختفي كثير من الحشرات ويظهر العنب البكر، وفيه بداية صيد اللؤلؤ بالخليج، واستحباب شرب الماء صباحاً، وبداية تضاؤل الظل.

ثم البطين (١٣ يوماً) يوافق بدايته (٢٥ مايو) وصغروه بالاضافة إلى بطن الحوت. وقالوا: إذا طلع البطين اقتضي الدين. وهو آخر أنواء الربيع وأول مربية القيظ، تزداد في حرارة الطقس وزيادة النهار ونقص الليل، ويبدأ جفاف العشب، وتزداد حاجة الأشجار إلى الماء، ويحبس الماء عن الأشجار المزهرة حتى انعقاد الثمرة، ويغرس فيه قصب السكر، وفيه أفضل أوقات غرس النخيل، وتجنى فيه باكورة البطيخ، ويقرب نضج ثمرة البمبر، وتسقط أوراق السدر، ودخول النمل في باطن الأرض، وفيه بداية باكورة الرطب وهبوب ريح الشمال ونهاية الركود في الجو، وينقص الظل، ويكثر سمك الزبيدي والكراري.

ثم يظهر أول أنواء فصل الصيف وهو الثريا (١٣ يوماً) يوافق بدايته (٧ يونيو) وهي ستة كواكب مجتمعة، أشبه شيء بعنقود من العنب. ويشتد فيه الحر وتكثر العواصف، وتبدأ رياح السموم، وتقل الأمطار، ويصفى العشب ويجف، وتختفي الحشرات الربيعية، ويبدأ تلون طلع بواكير النخل، واشتهر أوانه بسرعة برء الجروح، وتكاثر سمك القين واستمرار تكاثر سمك الفسكر والحمرة، وفيه بداية ضمور الظل.

وقالوا: إذا طلعت الثريا عشياً، بع لراعيك كسيًا، فإن طلعت غديًا ابتغ له سقيًا.

ثم الدبران (١٣ يوماً) يوافق بدايته (٢٠ يونيو) وهو كوكب أحمر نير. وقالوا: إذا طلع الدبران، توقدت الحرتان، ويبست الغدران. وفيه أطول نهار وأقصر ليل، وفيه يبدأ الليل في الزيادة، وجفاف الجو، وترسب الغبار في الليل، وفي الخامس منه ينعدم ظل الزوال لتعامد الشمس مع مدار السرطان، وتشتد فيه حرارة الطقس، ويزداد تلون طلع النخيل، ويتوفر التين، وتزرع الذرة الشامية والملوخية والقثاء والكوسة والقرعيات والبقدونس والجرجير، وفيه أوان نضج العنب، ونهاية موعد تسميد الأرض، ويكثر سمك الفسك.

ثم الهقعة (١٣ يوماً) يوافق بدايته (٣ يوليو) وهي ثلاثة كواكب صغار متقاربة، كأنها آثار الإبهام والسبابة والوسطى، إذا نكت بها على الأرض وهي مقبوضة؛ وسميت بذلك تشبيهاً بدائرة تكون على جنب الفرس، عند مفصل الرجل، يقال : فرس مهقوع. وقالوا: إذا طلعت الهقعة، رجع الناس عن النجعة. ويتناقص فيه النهار ويزداد الليل، ويشتد الحر وتكثر السموم والعواصف الترابية، ويبدأ نضوج بواكير النخيل وترطيب البلح، وتزرع فيه بعض الخضار كالكوسة والقرع والخيار، ويطيب بعده الغوص لاستخراج اللؤلؤ، ويستحب تناول المبردات، ويكثر سمك الحمرة والقين، ويندر الخثاق، وتهب الرياح، وتقترب قطع من الغمام.

ثم الهنعة (١٣ يوماً) يوافق بدايته (١٦ يوليو) وهي كوكبان زاهران بينهما قيد سوط؛ من هنت الشيء، إذا عطفته وثنت بعضه على بعض، فكأن كل واحد منهما ينعطف على صاحبه. وقالوا: إذا طلعت الهنعة، انعطفوا إلى المنعة. يبلغ فيه الحر أشده (جمرة القيظ) واشتداد السموم حتى منتصف الليل، ويستمر الجفاف، وتكون الرياح ساكنة، ولا يزرع فيه إلا الذرة والملوخية، ويكثر من ري المزروعات، ويتوفر الرطب، وبانتهائه يبدأ باطن الأرض بالبرودة، وفيه أول زراعة البطيخ، وظهور الروبيان، وتقلب اتجاه الرياح، وشدة تألق كوكب الزهرة.

ثم الذراع (١٣ يوماً) يوافق بدايته (٢٩ يوليو) وهى كوكبان بينهما مقدار ذراع، وهذه الذراع هي ذراع الأسد المبسوطة عند العرب، وقالوا: إذا طلع الذراع، حسرت الشمس القناع، واشتعل في الأفق الشعاع، وترقرق السراب بكل قاع. وتستمر فيه شدة الحر والسُموم مع حدوث عواصف ترابية أحياناً وغيوم مع مطر خفيف، وهو أوان استخراج اللؤلؤ، ويكثر فيه الرطب والفواكه الصيفية، ويبدأ غرس فسائل النخيل، ويستمر في ري المزروعات، ويكثر الرطب الجيد، ويكثر الروبيان وسمك سلطان، ويندر سمك الصافي والهامور والكنعد والجد، ويظهر سمك الشعري.

ثم النثرة (١٣ يوماً) يوافق بدايته (١١ أغسطس) وهي الموضع الذي، بين فم الأسد ومنخرية، وقالوا: إذا طلعت النثرة، جُني النخل بكثرة، ولم يترك في ذات درّ قطرة. وفيه يلطف الجو قليلاً وبالأخص في ساعات المساء، ويزداد هبوب الرياح والرطوبة، ويستمر غرس فسائل النخيل، وتبدأ الزراعة الخريفية المبكرة كالطماطم والباذنجان والبصل والسمسم والذرة الشامية، وفيه هجرة طيور الدخل، ويندر سمك النيسر والكوفر والبياح، ويتكاثر سمك البدح.

ثم الطرف (١٣ يوماً) يوافق بدايته (٢٤ أغسطس) ويعنون به عين الأسد، وهما كوكبان متقاربان، وهو أول سهيل وآخر أنواء الصيف، والعرب تقول: إذا طلع سهيل لا تأمن السيل. وقالوا: إذا طلع الطُرف، سهل أمر الضيف وخف. ويلطف الجو فيه ليلاً مع بقاء الحر في ساعات النهار، وهو مناسب لغرس فسائل النخيل والأشجار، وتزرع فيه الخضار (مثل نوء النثرة) والجزر واللفت والفجل والسبانخ والفاصوليا والطماطم والملفوف والذرة والباذنجان والكوسة، وتتواجد فيه بعض الطيور المهاجرة كالدخل والصفاري. ويشرب المخيض من اللبن والبارد من الشراب، وتتحول الرياح إلى جنوبية. ويكثر سمك البياح.

ثم يظهر أول أنواء فصل الخريف وهو الجبهة (١٤ يوماً) يوافق بدايته (٦ سبتمبر) يعنون بها جبهة الأسد، وهى أربعة كواكب. وقالوا: إذا طلعت الجبهة، توجه المسافر في كلّ وجهة. وينهى فيه عن

النوم تحت أديم السماء، ويعتدل الطقس في الليل ويستحب البعد عن التكييف ليلاً، ويتحسن الطقس نهائياً ولا يزال حاراً، ومطره نافع بإذن الله، ويبدأ فيه صرام النخيل، وتغرس فسائله، وتشتل الأشجار وتزرع الخضار والكرث والبقل وتبدأ زراعة البنجر والقرنبيط، وتلحق ثمار النبق، ويبدأ تكاثر سمك الهامور والصفافي والربيب والققب والجش، وهو نهاية موسم البلح.

ثم الزبرة (١٣ يوماً) يوافق بدايته (٢٠ سبتمبر) ويعنون بها زبرة الأسد أي: كاهله ومغرز عنقه أو موضع الشعر الذي على أكتافه، لأنه يزبتر عند الغضب. وهي كوكبان بينهما قيد سوط. وفيه يتلطف الطقس في النهار ويبرد في الليل، ويتساوى فيه الليل والنهار، وتكون الرياح ساكنة، وأمطاره إذا هطلت تكون غزيرة، وفيه بداية استحسان أكل البارد، وفيه كثرة جذاذ النخيل، ويستمر فيه غرس النخيل وزراعة الخضار والبقول وكثرة سقي الغرس، وبداية زراعة الفول، وتشتل فيه الطماطم والبادنجان والبصل والخس، وفيه نهاية زراعة البامية، وتهاجر طيور القماري، وبداية كثرة الذباب، وتكثر أم الروبيان، وفيه ختام موسم الغوص.

ثم الصرفة (١٣ يوماً) يوافق بدايته (٣ أكتوبر) وهو كوكب أزهر على طرف ذنب الأسد؛ سمي بهذا الاسم، لانصراف الحر عند طلوعه، والبرد عند سقوطه. وقالوا: إذا طلعت الصرفة احتال كل ذي حرفة. وهي آخر سهيل، فيعتدل الجو في النهار وتزداد برودته في الليل، ويستمر فيه غرس النخيل والأشجار، ويكثر الرمان ويحصد الأرز، ويزرع البرسيم والكزبرة والخس والجزر والفلفل الأخضر والبصل الجاف والبقول والخضار الشتوية، وتهاجر طيور الماء والبط والغرائيق، وتنتشر الأرضة في الأثاث، ويكثر فيه سمك البده والختاق والققب، ويتكاثر سمك القرقفان والصفافي، وتمارس فيه هواية القنص.

ثم العواء (١٣ يوماً) يوافق بدايته (١٦ أكتوبر) وهو خمسة كواكب، على خط معق الطرف، ولذلك سمي بهذا الاسم. يقال: عويت الشيء، إذا عطفته. ويقال: إذا طلعت العواء، ضرب الخباء، وطاب

الهواء . وهو أول نجوم الوسم ، يعتدل الجو في نهاره ويبرد في ليله، وأمطاره محمودة تنبت الكمأة (الفقع) والشيخ والنفل وجميع الأعشاب البرية، ويستمر فيه غرس النخيل وزراعة البرسيم والبقول والبصل والثوم والخضار. وتكافح فيه أمراض الزراعة وأمراض الخريف وأمراض العيون والزكام، وفيه بداية هيجان الإبل، وضعف حركة الجماع، وبداية تسخين الماء، واستحباب قطع الأشجار، وهو بداية هجرة طيور الحبارى والكروان والسمق .

ثم السّمَاك (١٣ يوماً) يوافق بدايته (٢٩ أكتوبر) ويسمى ساق الأسد، وسمي سماكاً لارتفاعه، وهو آخر النجوم الشامية ، وقالوا: وإذا طلع السّمَاك، كثر على الماء اللّكّاك، يعني الرّحام. وتزداد فيه البرودة في الليل ، وتهب فيه الرياح الجنوبية ، وتكثر الأمطار وتكون غزيرة بإذن الله ، وتسمد الأشجار، وتزرع فيه البقول والخضار، وفيه نهاية زراعة الطماطم والذرة، وتقاوم الآفات الزراعية، ويكثر سمك الجش، وتهب رياح جنوبية شرقية، ويستحب الجلوس تحت أديم السماء، ويتحسن الطقس ، ويتكاثر السمك، وقد تحصل إصابات بالإسهال .

ثم الغفر (١٣ يوماً) يوافق بدايته (١١ نوفمبر) وهو ثلاثة كواكب، ليست بزهر على ذيل العذراء ورجلها اليسرى، وسمي «غفراً» لنقصان ضوء كواكبه، يقال: غفرت الشئ، اذا غطيته؛ وأيضاً: لأنّه يعلو زباني العقرب، فيصير بمنزلة المغفر. وقيل: هو من الغفرة، وهي الشّعر الذي على طرف ذنب الأسد. وقالوا: إذا طلع الغُفْر، عاد السّفْر. وهو أول النجوم اليمانية، تزداد فيه برودة الليل ولايزال نهاره معتدلاً، ومطره ينبت الكمأة (الفقع)، وينهى فيه عن شرب الماء قبل النوم، ويزرع القمح والشعير والعدس والبصل في وسط جزيرة العرب، وتزرع فيه الخضار، وهو بداية هجرة طيور قطا نجد المقطقط. وينهى عن شرب الماء ليلاً، ويوقف استعمال المكيفات، ويبرد الصباح ويحتمل ظهور الغيوم، ويستحسن ارتداء الصوف .

ثم الزبانا (١٣ يوماً) يوافق بدايته (٢٤ نوفمبر) وهي كوكبان مضئان، مفترقان بينهما خمسة أذرع، بموضع يصلح أن يكون زبانيي العقرب، ولكنّها من صورة الميزان، ويقال أنّ اسمها مشتق من الرّبن .

وقالوا: إذا طلعت الرُّبَيَّانِي، أخذ كلُّ ذي عيال شانا. وهو آخر الموسم ونهاية فصل الخريف وبداية فصل الشتاء وتشتد فيه البرودة والرياح الباردة، ومطره ينبت الكمأة (الفقع)، وتستمر فيه زراعة القمح والشعير والخضار والبقول وفيه نهاية زراعة الفلفل الحار والبصل، ويحبس الماء عن أشجار الفواكه التي تتساقط أوراقها في فصل الشتاء كالعنب والرمان إذا كانت الأرض طينية، ويقلل من سقيها إذا كانت رملية، وفيه وفرة سمك الحمام وتكاثر سمك الكوفر.

فهذه هي منازل القمر والأنواء التي تظهر في السماء وما هي إلا علامات ومواقيت، والله خالقها وهو مسبب الأسباب، ولا يكون شيء مما ذكر وقوعه إلا أن يشاء سبحانه وتعالى وبتقديره جل وعلا.

والقمر يعكس ضوء الشمس ويظهر هذا الانعكاس في أطوار يكون فيها هلالاً خفيفاً ويزداد فيها حتى يكتمل بداراً ثم يقل هذا الانعكاس حتى يعود كالعرجون القديم كل شهر.

وفي كل ليلة من السنة يكون للقمر فيها طور مختلف (قدر ما يعكسه من ضوء الشمس) مع خلفية نجمية مختلفة (ما يظهر من النجوم التي تظهر خلفه في منازلها)، فلا يجتمع له ذلك الطور وتلك المنزلة معاً في ليلة أخرى طوال السنة، فهو في كل ليلة في اختلاف في مقدار ما يعكسه من ضوء الشمس مع ما يظهر خلفه من النجوم، فيعرف بذلك الوقت من الشهر والموسم من السنة.

وذكروا أن الفلك جسم لطيف مستدير الشكل كفلكة المغزل وبعضها على بعض كقشور البصلة ونحن في وسطها. وَالشَّمْسُ تَطْلُعُ مِنْ الْمَشْرِقِ، وَتَغْرُبُ فِي الْمَغْرِبِ، وَتَخْتَلِفُ مَطَالِعُهَا وَمَغَارِبُهَا، عَلَى حَسَبِ اخْتِلَافِ مَنَازِلِهَا، وَأَنَّ نَوْرَ الْقَمَرِ مِنْ نَوْرِ الشَّمْسِ، وَالْقَمَرُ يَبْدُو أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنَ الشَّهْرِ هَالِلاً فِي الْمَغْرِبِ، ثُمَّ يَتَأَخَّرُ كُلَّ لَيْلَةٍ نَحْوَ الْمَشْرِقِ مَنَزَلاً، ثُمَّ يَطْلُعُ لَيْلَةَ الرَّابِعِ عَشَرَ مِنَ الْمَشْرِقِ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، بَدْرًا تَامًا، وَلَيْلَةَ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ يَبْدُو عِنْدَ الضُّجْرِ كَالْهَالِالِ مِنَ الْمَشْرِقِ، وَتَخْتَلِفُ مَطَالِعُهَا بِاخْتِلَافِ مَنَازِلِهِ. واليوم عند العرب يبدأ بالليلة وغروب الشمس، والشمس لا تكسف إلا آخر الشهر القمري، والقمر لا يخسف إلا عندما يكون بداراً في منتصف الشهر القمري. وعندما

تكون الشمس في جهة الشمال يطول النهار ويشتد الحر ويقصر الليل، وعندما تكون في الجنوب يكون عكس ذلك، ولا يجتمع نجم شامي ونجم يمانى في وقت واحد.

ويتم تحديد جهة الشمال في الليل عبر النجم القطبي الذي يقع على امتداد محور دوران الأرض أي فوق القطب الشمالي تماماً ويبدو للمشاهد من شمال الكرة الأرضية ثابتاً لا يتحرك كبقية النجوم. ويستدل على النجم القطبي من بعض الكوكبات القريبة منه. وعرف العرب نجم الشعرى وهو أسطع نجم في السماء بعد كوكب الزهرة مباشرة وكان يدلهم مع نجوم أخرى للطريق إلى اليمن حيث كانت رحلة الشتاء ولذلك كان واقع عبادتهم هذا النجم اليماني من حيث المنفعة في الاهتداء به إلى طريق اليمن.

أما إتجاه الشرق أو الغرب فيمكن تحديدهما في النهار من خلال مراقبة الشمس فهي تطلع من اتجاه الشرق وتغيب في اتجاه الغرب بشكل تقريبي. ويمكن تحديد إتجاهي الشرق والغرب في أي مكان على سطح الأرض بشكل دقيق عند الاعتدالين الربيعي والخريفي حيث تطلع الشمس من الشرق وتغيب في الغرب تماماً. أما في الليل فيمكن تحديد اتجاه الغرب من مراقبة القمر، وكذلك البروج والكواكب، فالقمر كالشمس يتحرك في اتجاه الغرب بشكل تقريبي إلى أن يغيب فيه. ويمكن استخدام دائرة البروج للاستدلال على الشرق والغرب حيث أن الخط الواصل بين ثلاثة بروج متجاورة يشير إلى اتجاه الشرق والغرب بشكل تقريبي ويمكن تحديد الشرق من الغرب بعد ذلك من ترتيب تلك البروج لمن يعرفها.

وقد قال الخطيب البغدادي ما ملخصه : أن العلم المحمود في النجوم هو العلمُ بأَسْمَاءِ الْكَوَاكِبِ، وَمَنَاظِرِهَا، وَمَطَالِعِهَا، وَمَسَاقِطِهَا، وَسِيرِهَا، وَالْأَهْتِدَاءُ بِهَا، وَأَنْتِقَالَ الْعَرَبِ عَنْ مِيَاهِهَا لِأَوْقَاتِهَا، وَتَحْيِيرُهُمُ الْأَزْمَانَ لِنَبَاتِ مَوَاشِيهَا، وَضُرَابِهِمُ الْفُحُولَ، وَمَعْرِفَتُهُمُ بِالْأَمْطَارِ عَلَى اخْتِلَافِهَا، وَاسْتِدْلَالُهُمْ عَلَى مَحْمُودِهَا وَمَذْمُومِهَا، وَالتَّوَصُّلُ إِلَى جِهَةِ الْقِبْلَةِ بِالنُّجُومِ، وَمَعْرِفَةُ مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ، وَسَاعَاتِ اللَّيْلِ بِظُهُورِهَا وَأَفُولِهَا. فَالْعَرَبُ تَعْرِفُ أَوْقَاتَ الْمَطَرِ وَالرِّيَّاحِ وَالْحَرِّ

وَالْبَرْدَ بِمَطَالِعِ النَّجْمِ، وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ فَضِيلَةٌ بَيِّنَةٌ، وَإِذَا رَأَوْا السَّحَابَ عَرَفُوا: هَلْ هِيَ ذَاتُ مَطَرٍ أَمْ لَا؟ وَهَلْ مَطَرُهَا كَثِيرٌ أَوْ غَيْرُ كَثِيرٍ؟ وَهَلْ هِيَ مِمَّا قَدْ أَهْرَاقَ مَاءَهُ أَوْ مَاوَهُ فِيهَا؟

فَكَمْ مِنْ قَوْمٍ أَوْشَكُوا عَلَى الضِّيَاعِ وَالْهَلَاكِ، فَأَنْجَاهَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْإِسْتِدْلَالِ بِنَجْمِ أُمُوهُ وَوَجْهِ قَصْدُوهُ، وَبِهِ يُعْرَفُ وَقْتُ النَّتَاجِ، وَوَقْتُ تَأْبِيرِ النَّخْلِ، وَوَقْتُ بَيْعِ الثَّمَرَةِ، وَإِقْبَالُ الْخَيْرِ وَإِدْبَارُهُ، وَأَمَارَاتُ الْخُصْبِ وَالْجَدْبِ، وَعَلَامَاتُ السَّحَابِ الْمَاطِرَةِ وَالسَّحَابِ الْمُخْلِفَةِ، وَالْبُرُوقِ الصَّادِقَةِ وَالْكَاذِبَةِ، وَبِهِ يَنْتَقِلُونَ عَنِ الْمَحَاضِرِ إِلَى الْمِيَاهِ، وَعَنِ الْمِيَاهِ إِلَى الْمَحَاضِرِ.

وَإِنَّمَا جَاءَ التَّغْلِيظُ فِي هَذَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَزْعُمُ أَنَّ ذَلِكَ الْمَطَرَ الَّذِي جَاءَ عِنْدَ سُقُوطِ النَّجْمِ هُوَ فِعْلُ النَّجْمِ، وَلَا يَجْعَلُونَهُ سُقْيَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنْ كَانَ وَافَقَ سُقُوطُ النَّجْمِ. وَأَمَّا مَنْ نَسَبَ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَجَعَلَهُ وَقْتًا كَمَوَاقِيتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ كَانَ ذَلِكَ حَسَنًا.

وَإِذَا أَنْفَدَ النَّاطِرُ فِي هَذَا الْعِلْمِ عُمُرَهُ بِإِسْهَارِ اللَّيْلِ، وَشَغَلَ الْقَلْبَ عَنِ الْمَطْعَمِ، وَالْمَشْرَبِ، وَاللَّذَاتِ، وَالْعَمَلِ لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَتَبَاعَدَ مِنَ اللَّهِ، وَرَسُولِهِ، وَمِنْ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ، كَانَ عَرَفَهُ الَّذِي انْتَهَى إِلَيْهِ، وَزِيدَتْهُ الْبُتَى مَخْضُ عَنْهَا عِلْمُ كُسُوفِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ مَتَى يَكُونُ؟ وَفِي أَيِّ وَقْتٍ يُحْدِثُ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ؟ وَمِقْدَارُ مَا يَكْسِفُ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، وَوَقْتُ الْإِنْجِلَاءِ؟ وَهَذَا عِلْمٌ لَا يَنْفَعُ اللَّهُ بِهِ بَوَاجِهُ مِنَ الْوُجُوهِ، وَلَا يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ، وَإِنَّمَا الْكُسُوفُ شَيْءٌ قَدَرَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِمَسِيرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، فَيَكُونُ بِاجْتِمَاعِهِمَا أَوْ تَقَابُلِهِمَا، وَلَيْسَ عَلَى مَنْ لَمْ يَعْلَمْ وَقْتُ الْكُسُوفِ حِينَ يَكُونُ مِنْ عَيْبٍ وَلَا نَقْصٍ، وَإِنَّمَا يَكُونُ الْعَيْبُ فِي الْجَهْلِ بِمَا تَعَلَّمَهُ الْعَرَبُ مِنْ أَمْرِ النُّجُومِ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُنَا لَهُ، فَإِنْ اسْتَرْزَلَهُ الشَّيْطَانُ، وَأَطْمَعَهُ فِي الْقَضَاءِ وَالْأَحْكَامِ، وَاعْتَقَدَ فِي الْكُسُوفِ أَنَّهُ لَمُوتُ أَحَدٍ أَوْ حَيَاتِهِ أَوْ حُلُولُ حَادِثَةٍ وَوُقُوعُ جَائِحَةٍ، فَقَدْ عَقَلَهُ الشَّيْطَانُ بِالْعُرُورِ، وَقَطَعَ أَسْبَابَهُ مِنَ الدِّينِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اسْتَأْثَرَ بِالْغَيْبِ دُونَ أَنْبِيَائِهِ وَمَلَائِكَتِهِ، إِلَّا مَا أَطْلَعَهُمْ عَلَيْهِ.

وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا خَلَقَ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثِ خِصَالٍ: جَعَلَهَا زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَجَعَلَهَا نَهْدِي بِهَا، وَجَعَلَهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، فَمَنْ تَعَاطَى

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ
لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا
بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . إِنَّ فِي اخْتِلَافِ
الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ) (١).

فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ، فَقَدْ أَخْطَأَ حَظُّهُ، وَقَالَ رَأْيُهُ، وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا
لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، وَإِنْ أَنَا جَهْلَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى قَدْ أَحَدْتُوْا فِي هَذِهِ
النُّجُومِ كِهَانَةً: مَنْ أَعْرَسَ بِنَجْمٍ كَذَا وَكَذَا، كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَمَنْ سَافَرَ
بِنَجْمٍ كَذَا وَكَذَا، كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَعَمْرِي مَا مِنَ النُّجُومِ نَجْمٌ إِلَّا يُؤَلَّدُ
بِهِ الطَّوِيلُ وَالْقَصِيرُ، وَالْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ، وَالْحَسَنُ وَالذَّمِيمُ.

(١) جعل الله الشمس والقمر آيتين على إبداع خلقه، وجعل من
فوائدهما معرفة السنين والحساب، فالشمس بدورتها اليومية يتكون
اليوم، والقمر بدورته في منازلته يتكون الشهر، ومن تكون اثني عشر
شهرًا قمريًا تتكون السنة.

فالتأريخ الهجري القمري تأريخ كوني ثابت دقيق لا يتغير، والشهر
فيه مرتبط بظاهرة كونية يراها جميع البشر وهو دورة القمر في
منازلته في ٢٩ أو ٣٠ يوماً كما يراه الناس - وبهذه الرؤية ترتبط
العبادة الشرعية- والفلكيون يجعلون تعديل الرقم إلى ٢٩,٥
بحسابهم ، فالعام فيه ثابت على الطريقتين. وهو مكون من اثني
عشر شهراً ومجموع أيامه (٣٥٤ يوماً)، وذلك منذ خلق السموات
والأرض (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُومٌ) وجعل البشر يعرفون مواسم مناسبة الزراعة وتكاثر النبات والحيوان بمعرفة مواقيت الأبراج والنجوم في قبة السماء فيتعلمون منها معرفة أوقات الفصول الأربعة وتغيراتها ومعرفة الاتجاهات (وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ). ومن نعم الله أن جعل التغيرات في مدة السنة الكونية القمرية مع دورة الشمس في منازل الأبراج. ونتيجة هذا التغير أن ينعم الناس بالفصول الأربعة الصيف والشتاء والخريف والربيع في كل شهورهم القمرية على مدى السنين، فيصومون شهر رمضان مرة في الربيع ومرة في الشتاء وأخرى في الصيف أو الخريف، وهكذا في شهور الحج وسائر الشهور.

ونصوص السنة تشير إلى أن اليهود كانوا يعرفون التأريخ القمري وأن موسى -عليه السلام- نصر على فرعون في يوم عاشوراء الذي كانت اليهود تصومه وتتخذ عيداً (وهو يوم العاشر من شهر محرم في التأريخ القمري). سواء يوم انتصاره على السحرة، أو يوم إغراق فرعون، كلاهما كان في عاشوراء. وهذا قبل ميلاد المسيح بمئات السنين. والأنبياء دينهم واحد، وكانوا يحجون من قبل ميلاد المسيح -عليه السلام- وبعده.

وكان العرب يعرفون الأشهر القمرية ويؤرخون بها ويعرفون الأشهر الحرم ويعرفون دين إبراهيم وإن حرفوه. ويعرفون الدورة الشمسية وأبراج السماء ونوء كذا وكوكب كذا. ويفيدهم ذلك في معرفة مواسم الزراعة وتأبير النخل وتكاثر الحيوان وانتشار الأوبئة الموسمية المرتبطة بالتغير المناخي وأوقات خروج الهوام وانتشارها، وغير ذلك.

وحفظ الله لعباده تأريخهم القمري؛ فليس فيه زيادات وتغيير من وضع البشر لتزيد على سنة غيرها أو شهر على غيره دون سبب وأثر كوني، ولم يتدخل الملوك بتغييره بزيادة ولا نقصان في عدد الشهور أو مدتها أو حذف أيام من التاريخ في لحظة أو الزيادة والتعديل والتصحيح فيه كل فترة من مئات السنين كما هو واقع في التأريخ

الذي يسمونه اليوم الميلادي وهو في الواقع التأريخ الجريجوري المعدل كما هو مثبت عند علماء التأريخ.

فقد كان التقويم عند الرومان قمرياً لكن السنة فيه تتألف من عشرة أشهر فقط حتى جاء ملك روما (توما الثاني ٧١٦-٦٧٣ ق.م) الذي أضاف شهري يناير وفبراير وأصبحت السنة تتألف من ٣٥٥ يوماً.

ولم ينج هذا التقويم من العبث المتكرر، ففي قرابة سنة ٤٥ قبل الميلاد استعان الإمبراطور الروماني يوليوس قيصر ببعض الفلكيين الإسكندرانيين لوضع تأريخ حسابي، يعتمد عليه، ويؤرخ به، فوضعوا له تأريخاً مستنداً إلى السنة الشمسية حيث كانوا يعظمون الشمس، وتمثل تعديلهم في جعل السنة العادية ٣٦٥ يوماً والكبيسة ٣٦٦ يوماً وتكون سنة كبيسة كل أربع سنوات، وجعل عدد أيام الأشهر الفردية ٣١ يوماً والزوجية ٣٠ يوماً، ودخل التقويم اليولياني حيز التنفيذ في سنة ٤٥ ق م الموافقة لسنة ٧٠٩ لإنشاء روما. وسُمي الشهر السابع باسم يوليوس قيصر لأنه حقق فيه انتصاراً فصار اسمه يوليو.

ثم في سنة ٣٣ ق.م تم تعديل اسم الشهر الثامن ليكون باسم القيصر أغسطس (أكتافوس) ولثلاً يكون شهر يوليس (يوليو) أكبر من شهر أغسطس؛ قام مجلس الشيوخ في عهد أغسطس بتعديل أيام الشهر إلى واحد وثلاثين يوماً بدلاً من ثلاثين يوماً؛ لأنه أحرز في هذا الشهر أعظم انتصاراته، فزادوا في الشهر الثامن يوماً على حساب شهر فبراير فأصبح شهر فبراير في السنة العادية ٢٨ يوماً وفي الكبيسة ٢٩ يوماً، ثم غيروا أعداد أيام الشهور بعد أغسطس لثلاً تتوالى ثلاثة أشهر بنفس الطول (يوليو-أغسطس-سبتمبر) فعكسوا القاعدة، فصار سبتمبر ٣٠ يوماً وأكتوبر ٣١ يوماً ونوفمبر ٣٠ يوماً وديسمبر ٣١ يوماً.

وصارت الأشهر يتفاوت طولها في هذا التأريخ بشكل غير منطقي ولا كوني بين ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ و ٣١ يوماً!!!

ثم بعد الميلاد بعدة قرون تم تحويل التقويم الشمسي إلى التأريخ النصراني الميلادي لتكون بدايته من أول السنة الميلادية نسبة إلى ميلاد المسيح عيسى - عليه السلام - وأن تكون بداية هذا التأريخ:

الأول من يناير لأنه يوم ختان المسيح - عليه السلام - كما يزعمون؛ وعند النصارى الغربيين أن ميلاد المسيح في يوم ٢٥ ديسمبر، بينما عند الشرقيين هو في ٧ يناير، ثم أخذ الوقت المنتصف بين الوقتين لتكون بداية السنة الميلادية في أول يناير.

ثم قام بابا النصارى (جوريجوري الثالث عشر) بمحاولة إصلاح الخطأ الذي تفاقم في هذا حساب هذا التاريخ؛ وهو عدم مطابقة السنة الحسابية على الدورة الفعلية للشمس، مما أدى إلى وجود فرق سنوي قدره إحدى عشرة دقيقة بين الحساب والواقع الفعلي، ولأنه يرى أن موسم عيد الفصح يجب أن يكون دوماً في الربيع؛ فقام بإعلان حذف أحد عشر يوماً من التاريخ في لحظة وتعديل التقويم من يوم ٤ أكتوبر ١٥٨٢م مباشرة إلى يوم ١٥ أكتوبر ١٥٨٢م وسمي هذا التعديل بـ (التأريخ الجوريجوري) ولقي معارضة كبيرة حيث قاومته الدول غير الكاثوليكية ثم استقر العمل به في غالب الدول النصرانية، وكان الهدف منه هو محاولة أن تتوافق الدورة الشمسية والفصول الأربعة مع السنة الحسابية التي اعتمدوا تعديلاتها، وهو ما لا يمكن واقعاً دون تعديلات وتصحيحات مستمرة وإضافات وتغييرات في التأريخ.

ولذلك لجؤوا إلى إضافة يوم في التقويم كل ٤ سنوات لكل سنة يقبل رقمي الآحاد والعشرات فيها القسمة على ٤. ويُستثنى من ذلك السنوات المئوية التي لا تقبل القسمة على ٤٠٠، مثل ١٧٠٠؛ ١٨٠٠؛ ١٩٠٠؛ ٢١٠٠، . . إلخ حيث تكون كلها سنوات بسيطة، في حين تكون السنوات المئوية القابلة للقسمة على ٤٠٠ هي فقط السنوات الكبيسة، مثل ١٦٠٠؛ ٢٠٠٠؛ ٢٤٠٠؛ إلخ.

وصار هناك فارق 2.11 يوم تقريباً في كل سنة بين التقويم القمري الكوني الثابت (الهجري) والتقويم الجريجوري الميلادي المتغير الشائع الذي لازال بحاجة مستمرة إلى التعديل والتصحيح.

ولما سقطت حضارة المسلمين وخلافتهم وتسلبت أعداء تلك الحضارة قاموا بفرض التأريخ الجريجوري على الناس وسمّوه (الميلادي)، واستخدموا التقانة والتطور في الحساب لطباعة تقويم جريجوري

طويل الأمد بالتعديلات البشرية ليتوافق مع دورة الشمس والفصول الأربعة والاعتدال الربيعي والصيفي ولرغبتهم أن تتكرر مناسبة ميلاد المسيح (المختلف أصلاً في تحديدها) لتكون في الشتاء في الخامس والعشرين من ديسمبر، ولرغبتهم أن يوافق عيد الفصح عندهم موسم الربيع. ففرضوا نشر هذا التقويم على الناس مع ما فيه من التحريف والتعديل والتدخل البشري، ومخالفة الحساب الكوني الثابت.

وسعوا لإقصاء التقويم الكوني القمري الدقيق. فأضل الله النصارى عن الارتباط الصحيح بسنين الكون فضلوا باتباع أهواء أحبارهم ورهبانهم وملوكهم وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل. وقد حذرت نصوص الوحي من اتباع سَنَنَ وطرق اليهود والنصارى؛ فلو أخرج المسلم زكاته بحول التقويم الشمسي لكان أثماً بتأخير الحق عن مستحقه وعدم اعتبار الحول الشرعي، ولو ضحى أضحيته بحسابه لربما ما أجزأته.

ولما دعت الحاجة المسلمين إلى التخطيط لمواعيد أعمالهم المستقبلية ومواسم الفصول الأربعة وتغييراتها، وأن تكون ضمن تقويم مطبوع للسنين القادمة؛ عمدوا إلى طباعة (تقويم أم القرى) حتى يخططوا عليه أمور دنياهم، إلا أنهم يعتمدون في العبادة الشرعية على الرؤية الكونية لقوله عليه الصلاة والسلام لما ذكر رمضان: "إنا أمة أمية، لا نكتب، ولا نحسب، الشهر هكذا، وهكذا، وهكذا" - يعني: ثلاثين - ثم قال: "وهكذا وهكذا، وهكذا" وقبض إبهامه في الثالثة - يعني: تسعاً وعشرين - يعني مرة يكون ثلاثين، ومرة تسعاً وعشرين. "فلا تصوموا حتى تروا الهلال، ولا تفطروا حتى تروه، فإن غم عليكم فأكملوا العدة ثلاثين، صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته".

(وتقويم أم القرى) هو تقويم قمري يعتمد على دورة القمر لتحديد الأشهر، وأضافوا في طباعته منازل الشمس والقمر وطوالع النجوم التي جعلها الله علامات يهتدي بها الناس في معرفة تغييرات الطقس والفصول الأربعة ومواسم الزراعة والتكاثر الفطري. ويعتمد إحداثيات (خط الطول وخط العرض) للكعبة المشرفة في مكة

المكرمة أساساً لتقويم أم القرى، كما يعتمد ولادة الهلال فلكياً حال غروب القمر بعد غروب الشمس في مكة المكرمة.

ولو لم يكن للمسلمين تقويم مطبوع فهم يؤرخون بالنظر في منازل القمر ويهتدون إلى مواعيد فصول السنة بالنظر في قبة السماء ومنازل الشمس والقمر وطوال تلك النجوم ، ولهم في ذلك كتب وعلوم مسطرة وأشعار ومنظومات تؤصل خبرتهم الدقيقة العالية في التأمل في النجوم والاهتداء للاتجاهات ودراسة تغيرات الزمان وأثرها على الأرض.

وقد سبق المسلمون شعوب العالم قديماً في إبداع التأمل في السماء والأرض وفق نصوص الوحي الصادق ويعيداً عن الخرافات والتخرص بغير علم، فقادهم ذلك لإبداع الحضارة واختراع الأسطرلاب وهو نموذج ثنائي البعد للقبة السماوية، يُظهر كيف تبدو السماء في مكان محدد عند وقت محدد، وتعرف به الاتجاهات والمواقيت والفصول والمواسم المختلفة.

وسبق المسلمون كذلك في اختراع الخرائط كخرائط الإدريسي للأرض، بل وإبداع الخرائط الدقيقة كخرائط الرئيس بيري العثماني التي أذهلت علماء الحضارة الغربية في دقتها حيث رسم خارطتين مرسومتين بتسعة ألوان علي جلد الغزال للشواطئ الغربية لإفريقيا، والشواطئ الشرقية للأمريكتين والحدود الشمالية لليابسة في القارة القطبية الجنوبية (أنتاركتيكا) وأظهرت بوضوح أماكن لم يكتشفها الإنسان في ذلك الزمان، ورسم جبال القارة القطبية الجنوبية ووديانها، في حين لم تتوصل المراكز الجغرافية المعاصرة إلي رسمها إلا بعد عام ١٩٥٢م بعد أن تسلحت بأحدث تقنيات المسح الزلزالي، ومما زاد الغرب حيرة أن الصور التي التقطتها المركبات الفضائية للقارة القطبية الجنوبية جاءت مطابقة لخرائط الرئيس بيري، والشيء نفسه للحدود الشرقية في القارتين الأمريكيتين، مما سبب إحراجاً لعلماء التاريخ وعلماء الجغرافيا الغربيين وأثبت لهم أن المسلمين وصلوا منذ القدم لأقصى أنحاء الأرض ولأمريكا قبلهم.

وجعل الله خلقه وإبداعه وإنعامه على المخلوقين
وتربيتهم بنعمه آيات ودلائل على ربوبيته، فهو رب

ولذلك يرفض الغرب الاعتراف بأن من رسم هذه الخرائط المذهلة هو السيد بيرى (بيرى رئيس) لأن اعترافهم بها يعني أن المسلمين كانوا يجولون في السواحل الأمريكية قبل مولد كولومبس، وأنهم كانوا يبحرون في جميع المحيطات بين القطبين. ولكونها تحوي بعض الملاحظات والكتابات التاريخية التي يعلم منها أن السواحل الشرقية لقارة أمريكا كانت مسجلة ضمن الممتلكات العثمانية تحت اسم "أنتيليا" منذ عام ١٤٦٥م، أي قبل كولومبس بـ ٢٧ عاماً، وأن تشابه اسم جزر الأنتيل الحالية مع اسم أنتيليا يشير إلى أن هذا الاسم مأخوذ من اللغة المحلية لشعب هذه المنطقة آنذاك. وهذا الاعتراف يجرد الغرب من كثير من الاكتشافات الجغرافية التي يفخرون بها. ولكون هذه الخرائط تدل على التفوق العلمي آنذاك لكونها شديدة الدقة حتى ادعى بعض الغربيين أنها من رسم كائنات فضائية. وهي موجودة في مكتبة بقصر الباب العالي في إسطنبول بتركيا. وكان المسلمون الأسبق إلى معرفة علم الحركة ونبغ فيهم ابن باجه وأبو حمزة البغدادي، والسابق في معرفة نظرية الجاذبية جعفر بن موسى وأبو الفتح الخزيني "أو الخازني"، وأصول نظرية القس البولندي "كوبرنيكوس" في الفلك موجودة سابقاً في كتب ابن رشد لا سيما كتابه السماء والعالم.

وهذه العلوم المرتبطة بالوحي والشرعية الإسلامية وحضارتها هي امتداد لدين جميع الأنبياء؛ قد أغنت المسلمين عن اتباع التأريخ والتقويم الجريجوري وغيره من التقويمات والتأريخات البشرية البعيدة عن الإتقان والارتباط الصحيح بالكون والحياة. والمتمسكون من المسلمين بدينهم -الذي هو دين جميع الأنبياء- لازالوا أكثر الناس ارتباطاً بمعالم الكون ودقته.

العالمين، تسبّح له وتقدسه السماوات السبع والأرض
وَمَنْ فِيهِنَّ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وتنزهه وتعظمه وتبجله
وَتَكْبَرُهُ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِ
اللَّهِ. والله فوق عرشه، وعرش الله هو أعلى
المخلوقات، وأعظمها، وسقفها، وهو كالقبة على العالم
وله قوائم، وتحت الماء وتحت الماء الكرسي الذي هو
بالنسبة إلى العرش كحلقة في فلاة، وتحت الكرسي
السماوات وتحتها الأرض، والكرسي محيط بالسماوات
والأرض وهن بالنسبة إليه كحلقة في فلاة، والعالم
العلوي والسفلي بالنسبة إلى الخالق جل وعلا في غاية
الصغر.

خلق الملائكة والجن

وخلق الله الملائكة من نور، وخلق الجن من نار،
قبل أن يخلق الإنسان من طين، ثم نفخ في الإنسان
الروح، فالإنسان من جسد وروح، لا يعلم حال هذه
الروح إلا الله، (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ
الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)، (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ
أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ).

وفطر الله الملائكة على طاعته وعبادته فلا
يعصونه، فهم (عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ
بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ).

وخلق الله الجن والإنس لعبادته ولم يجعلهم
مجبولين على الطاعة كالملائكة ، بل منحهم إرادة وعقلاً
وأسبغ عليهم نعمة ظاهرة وباطنة، وأمرهم بطاعته
ونهاهم عن معصيته ووعد المطيع بالثواب والعاصي
بالعقاب، (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ
أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)، (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ
عَلَى الْهُدَى)، (وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ).

قصة خلق آدم

وقال الله للملائكة: إني خالق بشراً من طين وهو
آدم عليه السلام، فإذا سويته خلقه، وعدلت صورته،
ونفخت فيه من روحي، فاسجدوا له .

وإن الله تعالى خلق آدم - عليه السلام - في خَيْرِ
يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ وهو يَوْمُ الْجُمُعَةِ، بَعْدَ الْعَصْرِ
فِي آخِرِ الْخَلْقِ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ فِيمَا
بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ ، فَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتُهُ، وَأَسْكَنَهُ
جَنَّتَهُ، فَلِلَّهِ مَا أَمْسَى ذَلِكَ الْيَوْمَ حَتَّى عَصَاهُ فَأَخْرَجَهُ
مِنْهَا. (١)

(١) خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ
الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا وَفِيهِ تَبَّ عَلَيْهِ وَفِيهِ أَهْبَطَ وَفِيهِ مَاتَ ، وَلَا
تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ ، وَمَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا وَهِيَ
تُصْبِحُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مُصِيخَةً (مُضْغِيَّةٌ مُسْتَمِعَةٌ) حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ
شَفَقًا مِنْ السَّاعَةِ ، إِلَّا الْجَنِّ وَالْإِنْسَ ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يُؤَافِقُهَا عَبْدٌ
مُسْلِمٌ ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي ، يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى فِيهَا شَيْئًا ، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ
، وَلَا يَسْتَعِيدُ مِنْ شَرٍّ ، إِلَّا أَعَادَهُ اللَّهُ مِنْهُ . قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ -
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : هِيَ بَعْدَ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ الشَّمْسُ ، آخِرُ سَاعَةٍ
مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ قَبْلَ أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ ، وَفِي الْحَدِيثِ : "لَا يَزَالُ الْعَبْدُ
فِي صَلَاةٍ مَا كَانَ فِي مُصَلَّاهُ يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ" .

وخلق الله - عز وجل - آدم على ستين وثلاث مائة مفصل، طوله ستون ذراعاً في سبعة أذرع عرضاً^(١)، فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن.

وخلق آدم من صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ وَمِنْ طِينٍ لَازِبٍ، فَاللَّازِبُ: الجَيِّدُ، وَالْحَمَاءُ: الْحُمَاءُ^(٢)، وَأَمَّا الصَّلْصَالُ: فَالْتُّرَابُ الْمُرَقَّقُ، من قبضة قبضها من جميع الأرض، مِنْ أديم الأرض كُلِّهَا أَحْمَرُهَا وَأَسْوَدُهَا وَطَيِّبُهَا وَخَبِيثُهَا، فَسَمِّيَ: آدَمَ. فجاء بنو آدم على قَدْرِ الأرض، فجاء منهم

(١) فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ ، وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا ، يُبْعَثُ أَهْلُ الْجَنَّةِ عَلَى صُورَةِ آدَمَ فِي مِيلَادٍ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ ، جُرْدًا مُرَدًّا مُكْحَلِينَ ، ثُمَّ يُذْهَبُ بِهِمْ إِلَى شَجَرَةٍ فِي الْجَنَّةِ فَيُكْسَوْنَ مِنْهَا ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُمْ ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُمْ ، وَمَا مِنْ أَحَدٍ يَمُوتُ سَقَطًا وَلَا هَرَمًا - وَإِنَّمَا النَّاسُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ - إِلَّا بُعِثَ ابْنُ ثَلَاثِينَ سَنَةً ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، كَانَ عَلَى مَسْحَةِ آدَمَ ، وَصُورَةُ يُوسُفَ ، وَقَلْبُ أَيُّوبَ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، عُظْمُوا وَفُحِّمُوا كَالْجِبَالِ .

(٢) الطين الأسود المتغير.

الأحمر، والأبيض، والأسود، وبين ذلك، والسهل
والحزن والخبيث والطيب وبين ذلك. ^(١)

ولما صور الله آدم في الجنة، تركه ما شاء الله أن
يتركه، فجعل إبليس يطيف به ^(٢)، وينظر ما هو، فلمَّا
رآه أجوف قال: ظَفِرْتُ بِهِ، خَلَقْتُ لَا يَتَمَالَكُ، وعرف
أنَّ آدمَ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ وَيَحْبِسُهَا عَنِ
الشَّهَوَاتِ، ولا يملك دفع الوسواس عنها {وَوُخِّلَ
الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}.

(١) قال عليه الصلاة والسلام: (إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبْيَةَ الْجَاهِلِيَّةِ
وَفَخَّرَهَا بِالْأَبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ أَوْ فَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ،
لَيْدَعَنَّ رَجُلًا فَخَرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لِيَكُونَنَّ
أَهْوَنَ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْجَعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتْنَ. وفي رواية: (مَنْ
الْجَعْلُ الَّذِي يُدْهَدُهُ الْخُرءُ بِأَنْفِهِ).
(٢) يستدير حواليه.

فلما نفخ الله فيه الروح عطس، فقال: الحمد لله، فحمد الله بإذنه، فقال له ربه: يرحمك ربك يا آدم، ثم قال له: اذهب فسلم على أولئك النفر - وهم نفر من الملائكة جلوس - فاستمع ما يجيبونك، فذهب فقال: السلام عليكم، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله، فزادوه : ورحمة الله، ثم رجع إلى ربه، فقال له: إن هذه تحيتك وتحية ذريتك بينهم. وَقَالَ اللَّهُ لَهُ وَيَدَاهُ مَقْبُوضَتَانِ: اخْتَرْ أَيُّهُمَا شِئْتَ، فَقَالَ: اخْتَرْتُ يَمِينَ رَبِّي وَكَلَّمَا يَدَيَّ رَبِّي يَمِينَ مُبَارَكَةً، ثُمَّ بَسَطَهَا، فَإِذَا فِيهَا آدَمُ وَذُرِّيَّتُهُ^(١)، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: ذُرِّيَّتُكَ. فَإِذَا

(١) وفي رواية: مَسَحَ عَلَى ظَهْرِهِ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،

كُلُّ إِنْسَانٍ مَكْتُوبٌ عُمُرُهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وجعل بين عيني
كل إنسان منهم وبيصاً^(١) من نور فرأى فيهم رجلاً من
أضوئهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: يا رب
من هذا؟، فقال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك
يقال له داود. فقال: رب كم جعلت عمره؟ قال: قد
كتبت له عمر أربعين سنة. قال: يا رب زده في عمره.
قال: ذاك الذي كتبت له. قال: أي رب فإني قد
جعلت له من عمري ستين سنة. قال: أنت وذاك، إِذَا
يُكْتُبُ وَيُخْتَمُ وَلَا يُبَدَّلُ. ثُمَّ أُسْكِنَ آدَمُ الْجَنَّةَ مَا شَاءَ اللَّهُ.

(١) يعني وميضاً أو لمعاناً.

إخبار الله للملائكة بخلق البشر

وقال الله للملائكة أنه سيجعل في الأرض بشراً
يخلف بعضهم بعضاً، للقيام بعمارتها على طاعة الله،
فسأل الملائكة ربهم -سؤال استرشاد واستفهام- عن
الحكمة من جعل بني آدم خلفاء في الأرض، وهم
سيفسدون فيها، ويريقون الدماء ظلماً^(١)، قائلين: ونحن
أهل طاعتك، نُنزهك حامدين لك، ومعظمين جلالك
وكمالك، لا نفتر عن ذلك .

وَقَدْ كَانَ فِي الْأَرْضِ - قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ آدَمَ بِالْفِي عَامٍ
-الْجِنُّ بَنُو الْجَانِّ، فَأَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ، وَسَفَكُوا الدِّمَاءَ،

(١) لعل الله سبحانه أخبر الملائكة أن البشر سيفسدون في الأرض، أو أنهم قاسوهم على الجن إذ أفسدوا لكونهم غير مفسطورين على الطاعة.

فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ جُنُودًا مِّنَ الْمَلَائِكَةِ، فَضَرَبُوهُمْ حَتَّى
 أَحَقُّوهُمْ بِحَزَائِرِ الْبُحُورِ، وَلِذَلِكَ سَأَلَ الْمَلَائِكَةُ رَبَّهُمْ:
 "أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا؟" أَي : كَمَا فَعَلَ أَوْلَئِكَ
 الْجِنُّ بَنُو الْجَانِّ؟، فَأَجَابَهُمُ اللَّهُ عَنْ سُؤَالِهِمْ: "إِنِّي أَعْلَمُ
 مَا لَا تَعْلَمُونَ" مِنَ الْحُكْمِ الْبَاهِرَةِ فِي خَلْقِهِمْ، وَالْمَقَاصِدِ
 الْعَظِيمَةِ مِنْ اسْتِخْلَافِهِمْ.

ولبيان منزلة آدم عليه السلام علَّمه الله تعالى
 أسماء الأشياء كلها من الحيوان والجماد؛ ألفاظها
 ومعانيها، ثم عرض تلك المسميات على الملائكة قائلاً:
 أخبروني بأسمائها إن كنتم صادقين فيما تظنون أنكم
 أكرم من هذا المخلوق وأفضل منه. فقالوا -مُعْتَرِفِينَ
 بنقصهم مُرْجِعِينَ الْفَضْلَ إِلَى اللَّهِ-: نُنْزِعُكَ وَنُعْظِمُكَ

يا ربّنا عن الاعتراض عليك في حُكمك وشرعك، فنحن لا نعلم شيئاً إلا ما رزقتنا علمه، إنك أنت العليم الَّذي لا يخفى عليك شيء، الحكيم الَّذي تضع الأمور في مواضعها من قدرك وشرعك، وعندئذ أمر الله تعالى آدمَ أن يخبرهم بأسماء تلك المسمّيات، فلما أخبرهم كما علّمه ربه، قال الله للملائكة: ألم أقل لكم: إني أعلم ما خفي في السماوات وفي الأرض؟ وأعلم ما تُظهرون من أحوالكم وما تحدّثون به أنفسكم.

سجود الملائكة لآدم واستكبار إبليس

وأمر الملائكة بالسجود لآدم سجود تقدير واحترام، فسجدوا مسارعين لامثال أمر الله، إلا إبليس الَّذي كان من الجن، فامتنع اعتراضاً على أمر الله له

بالسجود وتكبراً على آدم، فصار بذلك من الكافرين بالله تعالى.

والله -وهو عالم بكل شيء- قال توبيخاً لإبليس: أي شيء منعك من امتثال أمري لك بالسجود لآدم؟؛ أمنعك من السجود التكبر؟، فقال إبليس محيياً ربه: منعني أنني أفضل منه، فقد خلقتني من نار، وخلقته هو من طين، والنار أشرف من الطين.

فأخرج الله إبليس من الجنة واهبطه منها مذموماً مطروداً من رحمة الله؛ لأن الجنة دار الطيبين الطاهرين، وليست للمستكبرين.

فقال إبليس: يا رب، أمهلني إلى يوم البعث حتى أغوي من أستطيع إغواءه من الناس.

قال له الله: إنك -يا إبليس- من المُمَهِّلِينَ الَّذِينَ كَتَبْتَ عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ يَوْمَ النَّفْخَةِ الْأُولَى فِي الصُّورِ حِينَ يَمُوتُ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ، وَيَبْقَى خَالِقُهُمْ وَحْدَهُ.

فقال إبليس: بسبب إضلالك إياي حتى تركتُ امتثال أمرك بالسجود لآدم لأفْعُدَنَّ لبني آدم لأصرفهم وأضلهم عن صراطك المستقيم كما ضَلَلْتُ أنا عن السجود لأبيهم آدم، ثم لآتِيَنَّهُمْ من جميع الجهات بالترهيد في الآخرة، والترغيب في الدنيا، وإلقاء الشبهات، وتحسين الشهوات، ولا تجد -يا رب- أكثرهم شاكرين لك؛ لما أُمِلِيَهُ عَلَيْهِمُ مِنَ الْكُفْرِ.

قال الله له: إِنَّ عِبَادِي الَّذِينَ قَدَّرْتُ لَهُمُ الْهَدَايَةَ، فَلَا سَبِيلَ لَكَ عَلَيْهِمْ، وَلَا وُصُولَ لَكَ إِلَيْهِمْ، وَلَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ

يوم القيامة منك ومن كل من اتبعك في كفرك
وأطاعك وعصى أمر ربه. ^(١)

خلق حواء وإسكانها الجنة مع آدم

وخلق الله حواء من ضلع آدم ليأنس إليها،
ويطمئن بها، وجعل بينهما مودة ورحمة، وأسكنها الله
الجنة مع زوجها آدم. وقال الله لآدم: يا آدم، اسكن أنت
وزوجتك حواء الجنة، فكلَا مما فيها من الطيبات ما
شئتما، ونهاهما أن يأكلا من شجرة عَيْنَهَا الله لهما،

(١) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِذَا قرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ
فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ يَبْكِي يَقُولُ يَا وَيْلَهُ (وَفِي رَوَايَةٍ : يَا وَيْلِي) أُمِرَ
ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ.

وأنهما إن أكلا منها بعد نهيه لهما كانا من المتجاوزين
لحدود الله. ^(١)

إغواء الشيطان لآدم وزوجه

واستمر حسد إبليس لآدم وزوجته، فوسوس
لهما ^(٢) ليُظهر لهما ما سترَ عنهما من عوراتهما، وقال

^(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: " {إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها} قال: " قيل لآدم أتأخذها بما فيها، فإن أطعت غفرتُ، وإن عصيتَ حذرتك؟ قال: قبلت. قال: فما كان إلا كما بين صلاة العصر إلى أن غربت الشمس حتى أصاب الذنب ".

و{الأمانة} التكاليف الشرعية كالصَّلوات وَغَيْرَهَا مِنَ الْفَرَائِضِ الَّتِي ائْتَمَنَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْعِبَادَ مِمَّا فِي فِعْلِهَا مِنَ الثُّوَابِ وَتَرْكِهَا مِنَ الْعِقَابِ وما يحفظ من أموال وأسرار. {وَأَشْفَقْنَ} خَفْنَ {مِنْهَا}. وحملها الإنسان، إنه كان ظلومًا لنفسه، جهولًا بعاقبة حملها.

^(٢) بلغتهما وسوسة إبليس مع أنه مطرود من الجنة. والله عز وجل يُسمع أهل الجنة إن شاء كلام وأخبار من هم خارج الجنة، كما يُسمعهم نداء أهل النار لهم وطلبهم منهم أن يفيضوا عليهم من الماء أو مما رزقهم الله ، وكذلك فإنه لَا تُؤْذِي امْرَأَةٌ زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا، إِلَّا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ: لَا تُؤْذِيهِ قَاتِلُكَ اللَّهُ ، فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكَ دَخِيلٌ يُوْشِكُ أَنْ يُفَارِقَكَ إِلَيْنَا .

لهما: ما نهاكما الله عن الأكل من هذه الشجرة إلا كراهة أن تكونا مَلَكَيْن، وإلا كراهة أن تكونا من الخالدين في الجنة، وحلف لهما بالله: إني لكما -يا آدم وحواء- لمن الناصحين فيما أشرت عليكما به.

وبدأ إبليس بحواء فأغواها وزين لها، حتى جعلها تأكل من الشجرة التي نهيت هي وآدم عن قربها، فقبلت بغواية إبليس فأغوت زوجها ودعته إلى الأكل من تِلْكَ الشَّجَرَةِ، فلما أَكَلَا من الشجرة التي نُهِيا عن الأكل منها ظهرت لهما عوراتهما مكشوفة، فأخذا يُلْزِقَان عليهما من ورق الجنة؛ ليسترا عوراتهما، وَحَطَّهما إبليس من المنزل التي كانا فيها بخداع منه وغرور.

وناداهما ربهما قائلاً: ألم أنهكما عن الأكل من
هذه الشجرة، وأقل لكما محذراً لكما: إن الشيطان عدو
لكما بين العداوة؟!

توبة آدم وحواء وإنزالهما إلى الأرض

{فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}. وألهم
الله آدم التوبة والندم والدعاء بكلمات هي : {رَبَّنَا
ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
الْخَاسِرِينَ} فقبل الله توبته، وغفر له، فهو سبحانه
غفور رحيم.

وقال آدم: أَيُّ رَبِّ ، أَلَمْ تَخْلُقْنِي بِيَدِكَ؟، قال:
بلى، قال: أَيُّ رَبِّ ، أَلَمْ تَنْفُخْ فِيَّ مِنْ رُوحِكَ؟، قال:

بَلَى، قَالَ: أَيُّ رَبِّ ، أَلَمْ تُسَكِّنِي جَنَّتِكَ ؟ ، قَالَ: بَلَى،
قَالَ: أَيُّ رَبِّ ، أَلَمْ تَسْبِقْ رَحْمَتَكَ غَضَبِكَ؟، قَالَ: بَلَى،
قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ ثُبْتُ وَأَصْلَحْتُ، أَرَأَجِي أَنْتَ إِلَى
الْجَنَّةِ؟، قَالَ: بَلَى.

وقال الله لآدم وزوجه وللشيطان: انزلوا إلى
الأرض، بعضكم أعداء بعض، ولكم في تلك الأرض حياة
واستقرار وبقاء وتمتّع بما فيها من خيرات إلى أن تنتهي
آجالكم فتموتون، حتى تقوم الساعة يوم القيامة
فتخرجون من الأرض وتبعثون.

هبوط آدم وحواء وإبليس إلى الأرض

وأُهبط آدم وزوجه حواء وأُهبط إبليس كذلك إلى الأرض، وَمَا سَكَنَ آدَمُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَّا أَخْرَجَ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ زَوْدَهُ مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ، وَعَلَّمَهُ صَنْعَةَ كُلِّ شَيْءٍ، فَثَمَارُكُمْ هَذِهِ مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ، غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ تَغَيَّرَ وَتِلْكَ لَا تَغَيَّرُ.

وقال الله جل وعلا : (اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ). وجعل الله آدم نبياً مرسلًا يدل بنيه على الهدى الذي علمه الله.

وجود إبليس وذنوب البشر لحكمة

ولو أراد الله أن لا يعصى؛ ما خلق إبليس، ولو لم
تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون،
فيستغفرون الله فيغفر لهم.

وآدم لما عصى ندم وتاب وطلب المغفرة
والرحمة، وإبليس لما عصى طلب أن يُمدد في عمره إلى
يوم القيامة، فأعطى الله كلا منهما ما طلب.

وَإِنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - قَالَ: يَا رَبِّ، أَرِنَا آدَمَ
الَّذِي أَخْرَجْنَا وَنَفْسَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، فَأَرَاهُ اللَّهُ آدَمَ، فَقَالَ
مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ؟، أَنْتَ أَبُونَا آدَمُ؟، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: نَعَمْ،
قَالَ: أَنْتَ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ

وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ؟، أَنْتَ الَّذِي
 أَشَقَيْتَ النَّاسَ وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ، بِخَطِيئَتِكَ إِلَى
 الْأَرْضِ؟، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ خَيَّبْتَنَا،
 وَأَخْرَجْتَنَا وَنَفْسَكَ مِنَ الْجَنَّةِ؟، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: وَمَنْ
 أَنْتَ؟، قَالَ: أَنَا مُوسَى، قَالَ: أَنْتَ نَبِيُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي
 كَلَّمَكَ اللَّهُ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ
 رَسُولًا مِنْ خَلْقِهِ؟، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: وَأَعْطَاكَ اللَّهُ
 الْأَلْوَحَ فِيهَا تَبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ؟، وَكَتَبَ لَكَ التَّوْرَةَ بِيَدِهِ؟
 قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَبِكُمْ وَجَدَتِ اللَّهُ كَتَبَ التَّوْرَةَ قَبْلَ
 أَنْ يَخْلُقَنِي؟، قَالَ: بِأَرْبَعِينَ سَنَةً، قَالَ آدَمُ: فَهَلْ وَجَدَتِ
 فِيهَا: {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى؟} قَالَ: نَعَمْ، قَالَ:

أَفْتَلُوْنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ
يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً ؟؟، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى. (١)

إكرام الله لبني آدم وإنعامه عليهم

وأكرم الله بني آدم بأن خلق أباهم آدم بيده،
ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته، وأسكنه في
جنته، وكلمه وعلمه واجتباها وتاب عليه وهداه، وقدّر
له ذرية تخلفه في الأرض، وأسبغ على البشر نعمه ظاهرة
وباطنة (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا
تَفْضِيلًا)، (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ

(١) يعني كان جواب آدم وحُجَّتُهُ هي الأقوى والأصوب.

الشَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ)، (وَمَا ذَرَأَّا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ، وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ
لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا
وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ)

والله يري ملائكته من علمه وحكمته وتديره
لأمور البشر وغيرهم كثيراً مما لا يعلمون وهم يعظمونه
ويعبدونه ويسبحونه (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا
إنك أنت العليم الحكيم) .

تحذير البشر من عدوهم الشيطان

وحذر الله البشر من الشياطين فقال جل وعلا:
(يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ
الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ
هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ
أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ).

وإن إبليس قال لربه: بعزتك وجلالك، لا أبرح
أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم، فقال الله:
فبعزتي وجلالي، لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني . وقال
إبليس: يا رب، كل خلقك قد سببت أرزاقهم، فما
رزقي؟، قال: كل ما لم يذكر اسمي عليه.

ويضع إبليس عرشه على البحر وإذا أصبح بث
جنوده وسراياه فيفتنون الناس، فأعظمهم عنده منزلة؛
أعظمهم فتنة.

يحيء أحدهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا، فيقول:
ما صنعتَ شيئاً. ثم يحيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى
فرقتُ بينه وبين امرأته. فيدينه منه ويلتزمه ويقول:
نعم أنت، فيقول: من أضل اليوم مسلماً ألبسته التاج،
فيحيء أحدهم فيقول: لم أزل به حتى عق والده،
فقال: يوشك أن يبره، ويحيء أحدهم فيقول: لم أزل به
حتى طلق امرأته فيقول: يوشك أن يتزوج، ويحيء
أحدهم فيقول: لم أزل به حتى أشرك، فيقول: أنت
أنت.

ويجيء أحدهم فيقول: لم أزل به حتى قتل، فيقول:
أنت أنت، ويلبسه التاج.

وفاة آدم عليه السلام

وقد كتب الله على آدم قبل أن يخلقه أنه
سيسكن الجنة ثم يخرج منها ويهبط إلى الأرض التي
منها خلق ويمكث فيها ما شاء الله من الأجل حتى
يموت ويبعث بعد موته، فتكون الجنة مأواه ومن تاب
وأصلح من ذريته، وليس أول الخلق بأهون على الله من
إعادته.

ولما أُهبطَ آدم من الجنة إلى الأرض جعل يُعَدُّ
لنفسه أجله وعمره، فلما قُضي عُمرُ آدمَ جاءه ملكُ
الموت، فقال له آدم: قد عجلت!! قد كُتب لي ألف

سنة، أولم يبق من عمري ستين سنة؟، قال: بلى، ولكنك جعلت لابنك داود ستين سنة، قال: ما فعلتُ، فَجَحَدَ آدَمُ؛ فحدثَ ذريته، فمن يومئذ أمر بالكتاب والشهود^(١)، ونسي آدمُ فنسيت ذريته وسمي (الإنسان)، وخَطِئَ آدَمُ، فخطئت ذريته.

وَلَمَّا نَزَلَ بِآدَمَ الْمَوْتُ قَالَ: أَيُّ بَنِي، إِنِّي أَشْتَهِي مِنْ ثَمَرَةِ الْجَنَّةِ. انطلقوا فاجنوا لي من ثمار الجنة. فَانْطَلَقَ بَنُوهُ يَلْتَمِسُونَ فَاسْتَقْبَلْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ فَقَالُوا: أَيْنَ تَرِيدُونَ يَا بَنِي آدَمَ؟ فَقَالُوا: يَشْتَهِي أَبُونَا مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ. فَقَالُوا: ارْجِعُوا قَدْ كَفَيْتُمْ، فَقَدْ أَمَرَ بِقَبْضِ أَيْكُمُ. فَرَجَعُوا مَعَهُمْ فَأَقْبَلُوا حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى آدَمَ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ حَوَاءُ عَرَفَتْهُمْ

(١) يعني: بِكِتَابَةِ الْحُجَّةِ وَ إِشْهَادِ الشُّهُودِ لِلتَّوَثُّقِ عَلَى الْحَقُوقِ وَمَعَ الْبَيِّنَةِ عَلَيْهَا، وَلَمْ يَنْزَلِ الْإِيجَابُ فِيهَا.

وذعرت منهم وجعلت تدنو إلى آدم فَلَصَقَتْ بِآدَمَ،
فَقَالَ: إِلَيْكَ عَنِّي فَمِنْ قَبْلِكَ أُتَيْتُ، دَعِينِي وَمَلَائِكَتُ
رَبِّي.

فَقَبَضُوهُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ، وَغَسَلُوهُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ،
وَكَفَنُوهُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ وَحَنَطُوهُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ، وَصَلَّوْا
عَلَيْهِ، ثُمَّ حَفَرُوا لَهُ ثُمَّ دَفَنُوهُ، ثُمَّ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ فَقَالُوا: يَا
بَنِي آدَمَ، هَذِهِ سُنَّتُكُمْ فِي مَوْتَاكُمْ وَهَذَا سَبِيلُكُمْ فَكُذَّابُكُمْ
فافعلوا.

ذرية آدم وتربص الشيطان بهم

وكان آدم نبيًا معلمًا مكلَّمًا وكان بين نوح وآدم
عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، وكان ود وسواع

ويغوث ويعوق ونسر رجالاً صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا ولم تعبد.

حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عُبدت واختلفوا في دينهم، فلما اختلفوا في دينهم بعث الله النبيين برسالة التوحيد والإسلام لله مبشرين ومنذرين والْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ^(١)، أُمَمَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ.

(١) تقول العرب : هم إخوة لعلات إذا كانت أمهاتهم مختلفات وأبوهم واحد ، وشبه دين الأنبياء بالأب الواحد لاشتراك جميعهم فيه، وأما شرائع الأعمال والمأمورات فقد تختلف، فهي بمنزلة الأممات الشتى، فإن لقاح تلك الأممات من أب واحد، كما أن مادة تلك الشرائع المختلفة من دين واحد متفق عليه.

الأنبياء والمرسلون

وَالْأَنْبِيَاءُ مِائَةٌ أَلْفٌ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا، وَالرُّسُلُ
ثَلَاثٌ مِائَةٌ وَخَمْسَةٌ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا، (مِنْهُمْ مَنْ
قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ)، بعثوا إلى
أمم كثيرة لا يعلمهم إلا الله (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ
إِلَّا اللَّهُ)، وممن ذكرهم الله في القرآن : أبو البشر آدم،
وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط،
وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وشعيب،
وأيوب، وذو الكفل، وموسى، وهارون، وداود،
وسليمان، وإلياس، واليسع، ويونس، وزكريا، ويحيى،
وعيسى، ومحمد خاتم الأنبياء والمرسل؛ صلوات الله

وسلامه عليهم أجمعين. ومنهم من ذكر في السُّنَّةِ مثل:
 شيث بن آدم^(١) ويوشع بن نون عليهما السلام، وكذلك
 ممن أشير له في القرآن وذكر في السنة: الخَضِرُ عليه
 السلام^(٢)، وَمَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ.

وأوتي النبوة بعد آدم ابنه شيث عليهما السلام،
 ثم إدريس عليه السلام، ثم كان إرسال نوح عليه السلام
 إلى قومه لما ظهر فيهم الشرك.^(٣)

(١) قال بعض المؤرخين : أن شيث عليه السلام وُلِدَ لآدم بعد مقتل
 هابيل، وإليه تَنَتَّهَى أَنْسَابُ بني آدم كلهم اليَوْمَ، وَذَلِكَ أَنَّ نسل آدم
 غير نسل شيث انقراضوا فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ. أَمَّا الْقَاتِلُ (قابيل)
 فهلك نسله بالطوفان، وَأَمَّا الْمَقْتُولُ (هابيل) فلم يعقب. ونوح من
 ذرية شيث، ومن على الأرض كلهم هم من ذرية نوح عليه السلام.
 (٢) على الأرجح لدلائل عديدة وقوية.

(٣) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَتْ فِيمَا بَيْنَ نُوحٍ وَإِدْرِيسَ
 أَلْفَ سَنَةٍ، وَإِنَّ بَطْنَيْنِ مِنْ وَلَدِ آدَمَ كَانَ أَحَدُهُمَا يَسْكُنُ السَّهْلَ، وَالْآخَرُ
 يَسْكُنُ الْجَبَلَ. وَكَانَ رَجَالُ الْجَبَلِ صَبَاحًا وَفِي النِّسَاءِ دَمَامَةٌ. وَكَانَ
 نِسَاءُ السَّهْلِ صَبَاحًا وَفِي الرِّجَالِ دَمَامَةٌ، وَإِنَّ إِبْلِيسَ أَتَى رَجُلًا مِنْ أَهْلِ
 السَّهْلِ فِي صُورَةِ غُلَامٍ، فَاجْرَ نَفْسَهُ مِنْهُ، فَكَانَ يَخْدُمُهُ وَاتَّخَذَ إِبْلِيسُ

نوح عليه السلام

وَكَانَ نُوحٌ إِذَا طَعِمَ طَعَامًا أَوْ لَبَسَ ثَوْبًا حَمِدَ اللَّهَ،
فَسَمِّيَ عَبْدًا شَكُورًا. وكان نُوحٌ أَوَّلُ نَبِيٍّ أُرْسِلَ إِلَى قَوْمِهِ
يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وكانوا هم أهل الأرض،
فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم ليلاً
ونهاراً سرّاً وجهاراً، فأعرضوا عنه واستنكروا أن يرسل
إليهم بشر وليس ملك من الملائكة، وأن الذين اتبعوا
نوحاً ليسوا من ذوي المكانة والمال وهم قليل، وطلبوا

شَيْئًا مِثْلَ الَّذِي يُزَمَّرُ فِيهِ الرِّعَاءُ، فَجَاءَ فِيهِ بِصَوْتٍ لَمْ يَسْمَعْ النَّاسُ
مِثْلَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ مَنْ حَوْلَهُ، فَاِنْتَابُوهُمْ يَسْمَعُونَ إِلَيْهِ، وَاتَّخَذُوا عِيدًا
يَجْتَمِعُونَ إِلَيْهِ فِي السَّنَةِ، فَيَتَبَرَّجُ النِّسَاءُ لِلرِّجَالِ. قَالَ: وَيَتَزَيَّنُ
الرِّجَالُ لَهُنَّ، وَإِنْ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْجَبَلِ هَجَمَ عَلَيْهِمْ فِي عِيدِهِمْ ذَلِكَ،
فَرَأَى النِّسَاءُ وَصَبَاحَتَهُنَّ، فَأَتَى أَصْحَابَهُ فَأَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ، فَتَحَوَّلُوا
إِلَيْهِنَّ، فَتَزَلُّوا مَعَهُنَّ وَظَهَرَتِ الْفَاحِشَةُ فِيهِنَّ، فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَلَا
تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى}. وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ: التَّبَرُّجُ: أَنَّهَا
تُلْقِي الْخِمَارَ عَلَى رَأْسِهَا، وَلَا تَشُدُّهُ فَيُؤَارِي قَلَائِدَهَا وَقُرْطَهَا وَعُنُقَهَا،
وَيَبْدُو ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْهَا.

منه أن يطرد أولئك المؤمنين، وطالت به السنين والقرون وهو يحذّرهم من عقاب الله فكذبوه وأصروا على كفرهم واستكبارهم، وَمَكَّرُوا مَكْرًا كُبَارًا فَاحْتَالُوا فِي إِضْلَالِ النَّاسِ بِكُلِّ حِيلَةٍ وَأَمَالُوهُمْ إِلَى شُرَكِهِمْ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ. وطلبوا العذاب، وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فدعا على قومه الكافرين، وصنع السفينة بأمر الله وأُمِرَ إذا فار التنور-أي: خرج الماء وارتفع من التنور وهو مكان طبخ الخبز- أن يحمل في السفينة مَنْ آمَنَ معه، وَمِنْ كُلِّ الدَّوَابِّ زَوْجَيْنِ ذَكَرًا وَأُنْثَى، ثم أمطرت السماء وجاء الطوفان فأغرق أهل الأرض إلا من كان مع نوح في السفينة، وهلك امرأته وَكَانَتْ تَقُولُ لِلنَّاسِ إِنَّهُ مَجْنُونٌ، وهلك ابن له مع

الكافرين ولم يركب معه في السفينة. ثم أذهب الله الطوفان، فتوقف المطر وابتلعت الأرض ماءها، ووقفت السفينة على جبل الجودي بالعراق، وجعلها الله آية للناس. ونصر الله نوحاً وباركه ومن معه وجعل نسله هو الباقي، فكل أهل الأرض اليوم من نسله، وولَدَ نُوحٌ ثَلَاثَةً: سَامٌ وَحَامٌ وَيَافِثُ أَبُو الرُّومِ. وكل الأنبياء الذين أتوا بعد نوح هم من ذريته.

وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ نُوحًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لِابْنِهِ: إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ، أَمْرُكَ بِاشْتَيْنِ، وَأَنْهَاكَ عَنِ اشْتَيْنِ: أَمْرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ، لَوْ وُضِعْنَ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ لَرَجَحَتْ بِهِنَّ، وَلَوْ

أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ كُنَّ حَلَقَةً مُبْهَمَةً
لَقَصَصْتُهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، فَإِنَّهَا
صَلَاةُ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِهَا يُرْزَقُ كُلُّ شَيْءٍ، وَأَنْهَاكَ عَنِ الشَّرِّ
وَالْكِبْرِ.

إرسال هود عليه السلام إلى عاد

ثم بعث الله هودًا -عليه السلام- إلى عاد وهي
قبيلة إرم بالأحقاف جنوب الجزيرة العربية، يدعوهم
إلى التوحيد، وكانوا أشد الناس قوة، فذكرهم بالله
ونعمه عليهم وأنه جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح
وخصَّهم بعظم الأجسام والقوة وشدة البطش وما
أعطاهم الله من أنعام وأولاد وبساتين وعيونٍ جارية.
ودعاهم إلى توحيد الله وشكره والإخلاص له. وأنكر

عليهم أنهم كانوا يبنون بكل مكان مشرف مرتفع بنياناً
 علماً عبثاً دون فائدة تعود عليهم. وأنهم يتخذون
 حصوناً وقصوراً كأنهم سيخلدون في الدنيا، وأنهم
 يسطون على غيرهم بالقتل أو الضرب سطوة جبارين
 من غير رأفة ولا رحمة. فكذبوه واتهموه بالجنون،
 فحذرهم من سخط الله وعقابه، وتحذاهم جميعاً بآية
 معجزة وهي أن يكيدوه أو يلحقوا به الضر مع كل قوتهم
 لأن الله سيحفظه وهو أشد منهم قوة. فلما أصرروا على
 تكذيبهم نبى الله هوداً والذين آمنوا معه، وحل العذاب
 بقومه المكذبين فرأوا سحباً معترضاً في جهة من
 السماء متجهاً لأوديتهم فظنوه سحباً ممطرهم، وإنما
 كان العذاب الذي استعجلوه، ريحاً شديدة البرد قاسية

ذات صوت مزعج، بلغت الغاية في القسوة عليهم.
 أرسلها الله عليهم مدة سبع ليالٍ وثمانية أيام تفنيهم
 عن بكرة أبيهم وتدمر كل شيء مرت عليه مما أمرها
 الله بإهلاكه، فأصبحوا هلكى مصروعين في الأرض
 كأنهم أصول نخل ساقطة بالية. لا يُرى إلا بيوتهم التي
 كانوا يسكنونها. ونجى الله هودًا والذين آمنوا معه
 برحمته. ^(١)

(١) جاء في الحديث عنه عليه الصلاة والسلام : " نُصِرْتُ بِالْصَّبَا ،
 وَأُهْلِكْتُ عَادٌ بِالدَّبُورِ".

و (الصَّبَا) هي الريح التي تهب من مشرق الشمس ونصرته بها صلى
 الله عليه وسلم كانت يوم الخندق إذا أرسلها الله تعالى على الأحزاب
 باردة في ليلة شاتية فقلعت خيامهم وأطفأت نيرانهم وقلبت قدورهم
 وكان ذلك سبب رجوعهم وانهزامهم. و (الدَّبُور) هي الريح التي تهب
 من مغرب الشمس وبها كان هلاك قوم عاد كما قص علينا القرآن
 الكريم.

إرسال صالح عليه السلام إلى ثمود

ثم بعث الله إلى ثمود نبيه صالحاً فدعاهم إلى التوحيد وطاعة الله وذكرهم بنعم الله عليهم من الخيرات والنعم والأمن وعدم الخوف، ومن الرخاء والعيش في بساتين وعيون جارية وزروع ونخل ثمرها لين نضيج. وأن الله جعلهم خلفاء من بعد قوم عاد، ومكنهم أن ينحتوا الجبال فيصنعوا منها بيوتاً، ويبنوا في سهول الأرض قصوراً. فكذبوه واتهموه أنه مسحور، واستهزؤوا به وبالمؤمنين المستضعفين معه. وطلبوا منه آيةً معجزةً تدل على صدق نبوته، فأخرج لهم بإذن الله من الصخرة ناقةً لتكون لهم آية على صدق نبوته واختباراً لهم، وأخبرهم صالحٌ بأمر الله لهم أن يكون ماء

بئرهم مقسوم بينهم وبين الناقة؛ يوم لها ويوم لهم، وأن يتركوها ترعى في أرض الله، ولا يتعرضوا لها بأي أذى؛ وإلا فسينالهم عذاب قريب من وقت عقرهم لها. فاتفقوا وحرصوا أشقاهم على قتل الناقة؛ فقتلها. ^(١) وقالوا مستهزئين مُستبِعين لما توعدهم به نبيهم: يا صالح، جئنا بما توعدتنا به من العذاب الأليم إن كنت من رسل الله. فقال لهم: استمتعوا بالحياة في أرضكم مدة ثلاثة أيام من عقركم الناقة، ثم يأتيكم عذاب الله. وكان في مدينة الحِجْر تسعة رجال يفسدون في الأرض بالكفر والمعاصي، ولا يصلحون فيها بالإيمان والعمل

(١) عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَمْعَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ، وَذَكَرَ النَّاقَةَ وَالَّذِي عَقَرَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " { إِذْ أَنْبَعَتْ أَشْقَاهَا } أَنْبَعَتْ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ عَارِمٌ، مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ، مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ " .

الصالح. قال بعضهم لبعض: ليحلف كل واحد منكم
بالله لنأتين صالحاً وأهله في بيته ليلاً، فلنقتلهم، ثم
لنقولن لولي دمه: ما حضرنا قتل صالح وأهله، وإنا
لصادقون فيما قلنا. ودبروا مكيده خفية لإهلاك صالح
وأهله. لكن الله أبطل مكرهم وحفظ صالحاً ومن معه.
فلما انقضت الأيام الثلاثة؛ أخذتهم الزلزلة الشديدة
وأرسلت عليهم صيحة واحدة وهي صوت شديد
مهلك فماتوا من شدِّته، وأصبحوا ساقطين على
وجوههم، قد لصقت وجوههم بالتراب فأهلكتهم،
فكانوا كالشجر اليابس الذي يتخذ منه المُحتَظِر حظيرة

لغنمه. ونجى الله صالحاً ومن آمن معه برحمته وفضله.

(١)

بعثة إبراهيم عليه السلام في العراق

وُولِدَ إبراهيم عليه السلام بِبَابِلَ في العراق، ثم بعثه

الله إلى الملك نمرود بن كنعان وقومه بالعراق، وكانوا

(١) لَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْحَجْرِ قَالَ: لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ ، فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ؛ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ. ثُمَّ تَقَنَّعَ بِرِدَائِهِ وَهُوَ عَلَى الرَّحْلِ وَأَسْرَعَ السَّيْرَ حَتَّى أَجَارَ الْوَادِي . وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالنَّاسِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ عَلَى الْحَجْرِ عِنْدَ بَيْوتِ ثَمُودَ ، فَاسْتَسْقَى النَّاسُ مِنَ الْأَبَارِ الَّتِي كَانَ يَشْرَبُ مِنْهَا ثَمُودُ ، فَعَجَنُوا مِنْهَا ، وَنَصَبُوا الْقُدُورَ بِاللَّحْمِ ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ لَا يَشْرَبُوا مِنْ بَنَرِهَا وَلَا يَسْتَقُوا مِنْهَا ، وَقَالَ: "مَنْ عَمِلَ مِنْ هَذَا الْمَاءِ طَعَامًا فَلْيَلْقَهُ". فَمِنْهُمْ مَنْ عَجَنَ الْعَجِينَ وَمِنْهُمْ مَنْ حَاسَ الْحِيسَ فَأَلْقَوْهُ. فَقَالُوا: قَدْ عَجَنَّا مِنْهَا وَاسْتَقَيْنَا. فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يُهْرِيقُوا مَا اسْتَقَوْا مِنْ بَنَرِهَا ، وَأَنْ يَغْلِفُوا الْإِبِلَ الْعَجِينَ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَسْتَقُوا مِنَ الْبَنَرِ الَّتِي كَانَتْ تَرُدُّهَا النَّاقَةُ.

يعبدون الأصنام والكواكب، فدعاهم وجادلهم بالبينات.

وابتدأ إبراهيم بدعوة أبيه آزر إلى توحيد الله متلطفاً معه حريصاً عليه، لكن أباه رفض تركه دينه الباطل^(١)، وأراد إبراهيم أن يثبت لقومه أن الكواكب والأصنام لا تضر ولا تنفع ولا تصلح للعبادة، فاتخذ طريقة الاستدراج والتنزل في مناظرتهم، فحين أظلم عليه الليل رأى كوكباً، فقال لقومه على وجه التنزل معهم لاستدراجهم: سأختار أن يكون هذا الكوكب ربي. فلما غاب ذلك الكوكب قال إبراهيم عليه السلام: لا أحب المعبود المتغير المسخر، الذي يغيب وينصرف عمن

(١) عن ابن عباس قال: ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما مات: تبين له أنه عدو لله؛ فتبرأ منه.

عَبْدَهُ، لَأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مَنْ هَذَا حَالُهُ هُوَ الْقَائِمُ
بِمَصَالِحِ عِبَادِهِ، الْمُدَبِّرُ لَشُؤُونِ الْعَالَمِ، الَّذِي بِيَدِهِ النَّفْعُ
وَالضَّرُّ، وَعَلَيْهِ فَلَا يَصْلَحُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْكَوْكَبُ الَّذِي
اخْتَرْتَهُ إِلَهًا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ.

فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ فِي أَوَّلِ طُلُوعِهِ قَالَ تَنْزُّلاً مَعَهُمْ
لَا سِتْدَرَا جَهُمْ: هَذَا رَبِّي، فَلَمَّا غَابَ الْقَمَرُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ:
إِنَّ الْقَمَرَ أَيْضًا يَغِيبُ وَلَا يَصْلَحُ لِلْعِبَادَةِ، وَلَئِنْ لَمْ يُؤَفِّقْنِي
رَبِّي لِلْحَقِّ لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ.

فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ فِي أَوَّلِ طُلُوعِهَا قَالَ تَنْزُّلاً مَعَ
قَوْمِهِ: هَذَا الطَّالِعُ رَبِّي، وَهُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْكَوْكَبِ وَمِنَ
الْقَمَرِ، فَلَمَّا غَابَتِ الشَّمْسُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: يَا قَوْمِ إِنِّي أَبْرَأُ
مِنْ كُلِّ مَا تَعْبُدُونَهُ مَعَ اللَّهِ، إِنِّي أَخْلَصْتُ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ

الذي أبدعَ خلق السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وما فيها من شمس
وقمر وكواكب على غيرِ مثَالٍ سابقٍ، مائلاً عن الشُّرْكِ،
مستقيماً على التَّوْحِيدِ، وما أنا مِنَ المُشْرِكِينَ مع الله
تعالى غَيْرِهِ.

وَكَانَ لَهُمْ عِيدٌ يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً إِلَى
ظَاهِرِ الْبَلَدِ، فلما حان يوم عيدهم أرادوه أن يخرج
معهم، فقال لهم: إني مريض. وأراد في نفسه أن يختلي
بالأصنام حين يخرجون ليحطمها. ثم قام بتحطيم
الأصنام في يوم عيد قومه وترك كبير الأصنام، فلما
رجعوا ووجدوا أصنامهم محطمة أخذوا يبحثون عن
الفاعل، فذكر بعضهم أن إبراهيم هو الذي كان يعيب
الأصنام ولم يخرج معهم إلى العيد. فلما أحضروه

وسألوه عما يتهم به من تحطيم الأصنام؛ جادلهم
مُتَهَكِّمًا أن كبير الأصنام هو الذي حطم بقية الأصنام،
وطلب منهم سؤال الأصنام عن ذلك. فأدركوا ضعف
أصنامهم وأنها لا تنطق، ولكنهم لما غلبتهم الحُجَّة؛
استكبروا وقالوا إنك تعلم أنها لا تنطق. فعاب عليهم
عبادة ما لا ينطق ولا ينفع ولا يضر ولا يستطيع الدفاع
حتى عن نفسه، وأنه لا يخاف من أصنامهم شيئاً ولا
يخشى إلا الله. فأرادوا الانتقام لأصنامهم وتحريقه بالنار
وشرعوا يَجْمَعُونَ حَطَبًا مِنْ جَمِيعِ مَا يُمَكِّنُهُمْ مِنَ
الْأَمَاكِنِ، فَمَكَّثُوا مُدَّةً يَجْمَعُونَ لَهُ حَتَّى إِنَّ الْمَرْأَةَ مِنْهُمْ
كَانَتْ إِذَا مَرِضَتْ تَنْذِرُ لَيْنَ عَوْفَيْتٍ لَتَحْمِلَنَّ حَطَبًا

لِحَرِيقِ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ عَمَدُوا إِلَى جُوبَةٍ^(١) عَظِيمَةٍ فَوَضَعُوا فِيهَا ذَلِكَ الْحَطَبَ، وَأَطْلَقُوا فِيهِ النَّارَ فَاضْطَرَمَتْ وَتَأَجَّجَتْ وَالتَّهَبَتْ، وَعَلَاهَا شَرَرٌ لَمْ يَرِ مِثْلُهُ قَطُّ، ثُمَّ وَضَعُوا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي كِفَّةٍ مَنُجْنِقٍ صَنَعَهُ لَهُمْ رَجُلٌ مِنَ الْأَكْرَادِ يُقَالُ لَهُ هِيزَنُ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ صَنَعَ الْمَجَانِيقَ فَخَسَفَ اللَّهُ بِهِ الْأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ أَخَذُوا يُقَيِّدُونَهُ وَيُكْتَفُونَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ، لَكَ الْحَمْدُ وَلَكَ الْمُلْكُ لَا شَرِيكَ لَكَ. وَوُضِعَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي كِفَّةِ الْمَنُجْنِقِ مُقَيَّدًا مَكْتُوفًا، ثُمَّ أَلْقَوْهُ مِنْهُ إِلَى النَّارِ، وَكَانَ الْوَزْعُ يَنْفُخُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ النَّارَ. وَكَانَ آخِرَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ

(١) وهي الفجوة بين البيوت، والفجوة متسع في الارض -وغيرها - فارغ.

حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ: {حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} فجعلها الله بردًا وسلامًا عليه، وصَارَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مِثْلِ الْجُؤْنَةِ^(١) حَوْلَهُ النَّارُ، وَهُوَ فِي رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِ. وكانت آية من آيات الله. فخرج منها سالمًا.

ثم حصلت المُنَاطَرَةُ التي كَانَتْ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَبَيْنَ النُّمْرُودِ - وَهُوَ مَلِكُ بَابِلَ - يَوْمَ خَرَجَ مِنَ النَّارِ، وَلَمْ يَكُنِ اجْتِمَاعَ بِهِ إِلَّا يَوْمَئِذٍ. وناظرَ إبراهيمَ في وجود الله ورُبوبيَّته وألوهيَّته، وما حمَّله على ذلك وجرَّاه عليه إِلَّا الْمَلِكُ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ لَهُ، فَاسْتَكْبَرَ وَطَغَى، وَأَنْكَرَ وجودَ الله جَلَّ وَعَلَا، فَأَخْبَرَهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ

(١) الجؤنة: سلية (سلة صغيرة) مستديرة مغطاة بالجلد، يحفظ العطار فيها الطيب.

اللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ، مُسْتَدِلًّا بِذَلِكَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى وجود
 الرَّبِّ تَعَالَى وَرَبوبِيَّتِهِ وَأَحَقِّيَّتِهِ وَحَدَهُ بِالْعِبَادَةِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ
 الْمَلِكُ - عِنَادًا - أَنَّهُ أَيْضًا يَمْلِكُ أَنْ يَفْعَلَ هَذَا الْفِعْلُ؛
 فَالْإِحْيَاءُ بِاسْتِيقَاءِ مَنْ أَرَادَ قَتْلَهُ، أَوِ الْإِمَاتَةُ بِقَتْلِ مَنْ أَرَادَ
 إِمَاتَتَهُ. فَرَدَّ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَيْهِ أَنَّ اللَّهَ يَأْتِي
 بِالشَّمْسِ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ جِهَةِ الْمَشْرِقِ، فَإِنْ كَانَ إِلَهًا حَقًّا،
 يُحْيِي وَيُمِيتُ، فَلْيَجْعَلْهَا تَطْلُعُ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ، فَحِينَهَا
 عَلِمَ ذَلِكَ الْمُحَاجِجُ أَنَّهُ عَجَزَ وَانْقَطَعَ عَنِ الْإِدْلَاءِ بِمُحْجَّةٍ،
 فَتَحَيَّرَ وَانْدَهَشَ. وَأُرْسِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَسَدَانِ
 مُجَوَّعَانِ، فَلَحَسَاهُ وَسَجَدَا لَهُ.

وَأَمِنْ لِإِبْرَاهِيمَ مِنْ قَوْمِهِ لُوطُ وَهُوَ ابْنُ أَخِيهِ، ثُمَّ
 هَاجَرَ إِبْرَاهِيمُ بِزَوْجَتِهِ سَارَةَ ابْنَةَ عَمِّهِ هَارَانَ، وَهَاجَرَ

معهم لوط إلى أرض الشام. وحل العذاب بقوم إبراهيم
 (فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ
 فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) فهلك
 ملكهم النمرود وسلبوا النعم التي كانوا فيها (فَأَمَلَيْتُ
 لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) .

فضل إبراهيم وهجرته إلى الشام

وَكُلُّ مَنْ كَانَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ كَانَوا كُفَّارًا سِوَى
 إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، وَامْرَأَتِهِ، وَابْنِ أَخِيهِ لُوطٍ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.
 وَلَمَّا هَجَرَ قَوْمَهُ فِي اللَّهِ، وَهَاجَرَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ، -
 وَكَانَتْ امْرَأَتُهُ عَاقِرًا لَا يُوَلِّدُ لَهَا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ الْوَلَدِ
 أَحَدٌ، بَلْ مَعَهُ ابْنُ أَخِيهِ لُوطُ بْنُ هَارَانَ بْنِ آزَرَ - ؛ وَهَبَهُ
 اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ الْأَوْلَادَ الصَّالِحِينَ، وَجَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ

النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ، فَكُلُّ نَبِيٍّ يُعْثَ بَعْدَهُ فَهُوَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ،
وَكُلُّ كِتَابٍ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ
بَعْدِهِ فَعَلَى أَحَدِ نَسْلِهِ وَعَقِبِهِ خِلْعَةً مِنَ اللَّهِ وَكَرَامَةً لَهُ
حِينَ تَرَكَ بِلَادَهُ وَأَهْلَهُ وَأَقْرِبَاءَهُ، وَهَاجَرَ إِلَى بَلَدٍ يَتِمَكَّنُ
فِيهَا مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَدَعْوَةِ الْخَلْقِ إِلَيْهِ، وَالْأَرْضُ
الَّتِي قَصَدَهَا بِالْهَجْرَةِ أَرْضُ الشَّامِ، وَهِيَ الَّتِي قَالَ اللَّهُ عَزَّ
وَجَلَّ: {إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ}.

وَقَدْ آتَاهُ اللَّهُ رُشْدَهُ فِي صِغَرِهِ، وَابْتَعَثَهُ رَسُولًا، وَاتَّخَذَهُ
خَلِيلًا فِي كِبَرِهِ. وَلَمْ يَشَارِكْهُ فِي الْخَلَةِ إِلَّا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ.

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعْلَمُ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى
إِحْيَاءِ الْمَوْتَى عِلْمًا يَقِينًا لَا يَحْتَمِلُ التَّقْيِضَ، وَأَحَبَّ أَنْ

يُشَاهِدَ ذَلِكَ عَيْنَانَا، وَيَتَرَقَّى مِنْ عِلْمِ الْيَقِينِ إِلَى عَيْنِ
 الْيَقِينِ فَسَأَلَ اللَّهُ ذَلِكَ. فَأَجَابَهُ اللَّهُ إِلَى سُؤَالِهِ، وَأَعْطَاهُ
 غَايَةَ مَأْمُولِهِ. فَأَمَرَهُ أَنْ يَحْضُرَ أَرْبَعَةَ مِنَ الطَّيْرِ وَأَنْ يُمَرِّقَ
 لِحُومَهُنَّ وَرِيشَهُنَّ، وَيَخْلِطَ ذَلِكَ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ، ثُمَّ
 يُقَسِّمُهُ قِسْمًا، وَيَجْعَلَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا فَفَعَلَ
 مَا أَمَرَ بِهِ، ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يَدْعُوهُنَّ بِأَذْنِ رَبِّهِنَّ، فَلَمَّا دَعَاهُنَّ
 جَعَلَ كُلُّ عَضْوٍ يَطِيرُ إِلَى صَاحِبِهِ، وَكُلُّ رِيشَةٍ تَأْتِي إِلَى
 أُخْتِهَا حَتَّى اجْتَمَعَ بَدَنُ كُلِّ طَائِرٍ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ، وَهُوَ
 يَنْظُرُ إِلَى قُدْرَةِ الَّذِي يَقُولُ لِلشَّيْءِ: كُنْ؛ فَيَكُونُ. فَاتَيْنَ
 إِلَيْهِ سَعْيًا لِيَكُونَ أَبْيَنَ لَهُ وَأَوْضَحَ لِمُشَاهَدَتِهِ مِنْ أَنْ
 يَأْتِينَ طَيْرَانَا.

وأجرى الله على يديه بناء الكعبة وهي بيت الله
الحرام الذي جعله قياماً للناس ومثابة وأمناً وعهد الله
إليه ولابنه تبعاً له تطهير البيت للطائفين، والعاكفين،
والركع، والسجود. وأمر الله سبحانه المؤمنين بأن
يتخذوا من مقام إبراهيم مصلًى في المسجد الحرام
والعبادة في مواقف الحج كلها، وهو عليه السلام أول
من يكسى يوم القيامة، ولم يأت نبي بعد إبراهيم إلا من
ذريته. وَأَوْلَادُ الْمُسْلِمِينَ^(١) فِي جَبَلٍ فِي الْجَنَّةِ، يَكْفُلُهُمْ
إِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ السَّلَام - وَسَارَّةٌ، حَتَّى يَرُدُّوهُمْ إِلَى آبَائِهِمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

(١) الأطفال الذين يموتون وهم صغار. وكذلك أولاد المشركين الصغار.

وَلَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ - عَلَيْهِ السَّلَام - قَطُّ إِلَّا
ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ ^(١)، فِي ذَاتِ اللَّهِ - عَزَّوَجَلَّ - وَهِيَ قَوْلُهُ:
{إِنِّي سَقِيمٌ} ^(٢) وَقَوْلُهُ: {بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا}، وَقَوْلُهُ
فِي الْكُوكَبِ: {هَذَا رَبِّي} ^(٣)، وَوَاحِدَةٌ فِي شَأْنِ سَارَةَ.

قصة إبراهيم وسارة مع ملك مصر

. . فَإِنَّهُ هَاجَرَ ^(٤) بِسَارَةَ وَكَانَتْ أَحْسَنَ النَّاسِ، فَدَخَلَ
بِهَا قَرْيَةً فِيهَا مَلِكٌ مِنَ الْمُلُوكِ أَوْ جَبَّارٌ مِنَ الْجَبَّارَةِ، فَلَمَّا

(١) قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : أَنَّهَا مِنَ الْمَعَارِيضِ الَّتِي تُبَاحُ عِنْدَ الْحَاجَةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَهِيَ : أَنْ يَغْنِيَ بِكَلَامِهِ مَا يَحْتَمِلُهُ اللَّفْظُ وَإِنْ لَمْ يَفْهَمْهُ الْمُخَاطَبُ. وَلَمْ يُرَخَّصْ فِيْمَا يَقُولُ النَّاسُ : إِنَّهُ كَذِبٌ؛ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ : فِي الْإِضْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ وَفِي الْحَرْبِ؛ وَفِي الرَّجُلِ يُحَدِّثُ امْرَأَتَهُ.

(٢) قَالَ مُتَعَلِّلاً عَنِ الْخُرُوجِ مَعَ قَوْمِهِ إِلَى عِيْدِهِمْ : إِنِّي مَرِيضٌ.

(٣) لَمَّا سَأَلَهُ قَوْمُهُ هَلْ هُوَ الَّذِي كَسَّرَ أَصْنَامَهُمْ؟، قَالَ - مُتَهَكِّمًا بِهِمْ وَمُظْهَرًا عِزَّ أَصْنَامِهِمْ عَلَى مَرَأَى مِنَ النَّاسِ - : بَلِ الَّذِي كَسَّرَ الْأَصْنَامَ هُوَ كَبِيرُ الْأَصْنَامِ.

(٤) ذَكَرَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنَّهُ لَمَّا قَدِمَ الشَّامَ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ إِنِّي جَاعِلٌ هَذِهِ الْأَرْضَ لِحَلْفِكَ مِنْ بَعْدِكَ فَأَبْتَنَى إِبْرَاهِيمُ مَذْبَحًا لِلَّهِ شُكْرًا عَلَى هَذِهِ

دَخَلَ أَرْضَهُ، رَأَاهَا بَعْضُ أَهْلِ الْجَبَّارِ، فَأَتَاهُ فَقَالَ لَهُ: لَقَدْ
 قَدِمَ أَرْضَكَ امْرَأَةٌ لَا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَكُونَ إِلَّا لَكَ، فَأَرْسَلَ
 إِلَيْهِ، أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ مَنْ هَذِهِ الَّتِي مَعَكَ؟، فَقَالَ: أُخْتِي،
 ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: يَا سَارَةُ، لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ
 مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرِكَ^(١)، وَإِنَّ هَذَا سَأَلَنِي، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّكَ
 أُخْتِي، فَلَا تُكَذِّبْنِي، فَإِنَّ هَذَا الْجَبَّارَ إِنْ يَعْلَمَ أَنَّكَ امْرَأَتِي،
 يَغْلِبْنِي عَلَيْكَ، فَإِنْ سَأَلَكَ، فَأَخْبِرِيهِ أَنَّكَ أُخْتِي، فَإِنَّكَ
 أُخْتِي فِي الْإِسْلَامِ^(٢)، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا، فَقَامَ إِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ

النِّعْمَةُ، وَضُرِبَ قُبَّتُهُ شَرْقِيَّ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، ثُمَّ انْطَلَقَ مُرْتَحِلًا إِلَى
 الْيَمَنِ، وَأَنَّهُ كَانَ جُوعٌ أَيْ قَحْطٌ وَشِدَّةٌ، وَغَلَاءٌ فَارْتَحَلُوا إِلَى مِصْرَ،
 وَذَكَرُوا قِصَّةَ سَارَةَ مَعَ مَلِكِهَا، وَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ قَالَ لَهَا قَوْلِي: أَنَا أُخْتُهُ.
 وَذَكَرُوا إِخْدَامَ الْمَلِكِ إِيَّاهَا هَاجِرَ، ثُمَّ أَخْرَجَهُمْ مِنْهَا فَارْجَعُوا إِلَى بِلَادِ
 التِّيمَنِ يَعْنِي أَرْضَ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَمَا وَالَاهَا وَمَعَهُ دَوَابُّ وَعَبِيدٌ وَأَمْوَالٌ.
 (١) يعني: زوجان مؤمنان، لأنه آمن معه لوط من قومه، وهاجر معه
 إلى الشام.

(٢) ذكر المنذري في "حاشية السنن"، عن بعض أهل الكتاب أنه كان من
 رأي الجبار المذكور أن من كانت متزوجة لا يقربها حتى يقتل زوجها،

السلام - إِلَى الصَّلَاةِ، وَقَامَتْ تَوَضُّأً وَتُصَلِّي، فَقَالَتْ:
 اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ، وَأَحْصَنْتُ فَرْجِي
 إِلَّا عَلَى زَوْجِي، فَلَا تُسَلِّطْ عَلَيَّ الْكَافِرَ، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ
 لَمْ يَتَمَالِكْ أَنْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَيْهَا، فَقُبِضَتْ يَدُهُ قُبْضَةً
 شَدِيدَةً حَتَّى رَكَضَ بِرِجْلِهِ، فَقَالَ لَهَا: ادْعِي اللَّهَ أَنْ يُطْلِقَ
 يَدِي، وَلَا أَضْرِكْ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنْ يَمُتْ يُقَالُ: هِيَ
 قَتَلَتْهُ، فَأُرْسِلَ، فَعَادَ، فَقُبِضَتْ يَدُهُ أَشَدَّ مِنْ الْقُبْضَةِ
 الْأُولَى، فَقَالَ لَهَا مِثْلَ ذَلِكَ، فَفَعَلَتْ، فَعَادَ، فَقُبِضَتْ
 أَشَدَّ مِنْ الْقُبْضَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ، فَقَالَ: ادْعِي اللَّهَ أَنْ يُطْلِقَ
 يَدِي، فَلَكِ اللَّهُ أَنْ لَا أَضْرِكَ، فَفَعَلَتْ، وَأُطْلِقَتْ يَدُهُ،
 فَدَعَا الَّذِي جَاءَ بِهَا، فَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ إِنَّمَا أَتَيْتَنِي بِشَيْطَانٍ،

فلذلك قال إبراهيم: "هي أختي"، لأنه إن كان عادلاً خطبها منه ثم
 يرجو مدافعتة عنها، وإن كان ظالماً تخلص إبراهيم من القتل.

وَلَمْ تَأْتِنِي بِإِنْسَانٍ، فَأَخْرِجْهَا مِنْ أَرْضِي، وَأَعْطِهَا
هَاجِرًا^(١)، قَالَ: فَأَقْبَلْتُ تَمْشِي، فَلَمَّا رَأَاهَا إِبْرَاهِيمُ، وَهُوَ
قَائِمٌ يُصَلِّي؛ انْصَرَفَ، فَقَالَ لَهَا: مَهَيْمُ؟ قَالَتْ: خَيْرًا، كَفَّ
اللَّهُ يَدَ الْفَاجِرِ، وَأَخَذَ خَادِمًا. ^(٢)

رجوع الخليل من مصر إلى الشام

ثُمَّ إِنَّ الْخَلِيلَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَجَعَ مِنْ بِلَادِ
مِصْرَ إِلَى أَرْضِ التَّيْمَنِ، وَهِيَ الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةُ الَّتِي كَانَ

(١) قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَتِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ. يَقْصِدُ هَاجِرًا
إِسْمَاعِيلَ، وَالْعَرَبَ لَصَفَاءِ نَسَبِهِمْ.

(٢) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي قِصَّةِ سَارَةِ مَعَ جِبَارِ مِصْرَ: وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ الْأَثَارِ
أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَشَفَ الْحِجَابَ فِيمَا بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبَيْنَهَا
فَلَمْ يَزَلْ يَرَاهَا مِنْذُ خَرَجَتْ مِنْ عِنْدِهِ إِلَى أَنْ رَجَعَتْ إِلَيْهِ، وَكَانَ مُشَاهِدًا
لَهَا وَهِيَ عِنْدَ الْمَلِكِ، وَكَيْفَ عَصَمَهَا اللَّهُ مِنْهُ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَطْيَبَ لِقَائِهِ
وَأَقْرَبَ لِعَيْنِهِ وَأَشَدَّ لَطْمًا نَبْتَهُ، فَإِنَّهُ كَانَ يُحِبُّهَا حُبًّا شَدِيدًا لِدِينِهَا،
وَقَرَابَتِهَا مِنْهُ وَحُسْنِهَا الْبَاهِرِ، فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ: إِنَّهُ لَمْ تَكُنْ امْرَأَةً بَعْدَ
حَوَاءَ إِلَى زَمَانِهَا أَحْسَنَ مِنْهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

فِيهَا، وَمَعَهُ أَنْعَامٌ وَعَبِيدٌ وَمَالٌ جَزِيلٌ، وَصَحِبَتْهُمْ هَاجِرُ
الْقِبْطِيَّةِ الْمِصْرِيَّةُ.

انتقال لوط إلى قرية سدوم

ثُمَّ إِنَّ لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ نَزَحَ بِمَا لَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ
الْجَزِيلَةِ بِأَمْرِ الْخَلِيلِ لَهُ فِي ذَلِكَ إِلَى أَرْضِ الْعُورِ، الْمَعْرُوفِ
بِغُورِ زُعَرَ، فَنَزَلَ بِمَدِينَةِ سَدُومَ، وَهِيَ أُمَّ تِلْكَ الْبِلَادِ فِي
ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَكَانَ أَهْلُهَا أَشْرَارًا كُفَّارًا فُجَّارًا.

ولادة إسماعيل وقصة زمزم

وَلَمَّا وَهَبَ جَبَّارُ الْقَرْيَةِ (مَلِكُ مِصْرَ) هَاجِرَ
إِلَى سَارَةَ بِنْتِ عَمِّ الْخَلِيلِ وَكَانَتْ سَارَةُ يَتَسْتُ مِنَ الْوَلَدِ؛
وَهَبَتْ سَارَةُ هَاجِرَ الْقِبْطِيَّةِ الْمِصْرِيَّةَ لِإِبْرَاهِيمَ، فَوَلَدَتْ

له هَاجِرٌ إِسْمَاعِيلَ، فَغَارَتْ سَارَةُ مِنْهَا وَاشْتَدَّتْ غَيْرُهُ
 سَارَةُ مِنْ هَاجِرٍ، وَطَلَبَتْ مِنَ الْخَلِيلِ أَنْ يُغَيِّبَ وَجْهَهَا
 عَنْهَا. وَإِنَّ أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النَّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قَبْلِ أُمِّ
 إِسْمَاعِيلَ^(١)، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لَتَعْفَى أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ، ثُمَّ
 جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَبَابْنَهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ
 تُرْضِعُهُ، حَتَّى وَضَعَهُمَا فِي وَهَادِ جِبَالِ فَارَانَ، وَهِيَ
 الْجِبَالُ الَّتِي حَوْلَ مَكَّةَ عِنْدَ الْبَيْتِ، عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ
 زَمْزَمَ^(٢)، فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ^(٣) وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ،
 وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَاكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا

(١) وهي : هَاجِرٌ. وَالْمِنْطَقُ: مَا يُشَدُّ بِهِ الْوَسْطُ. فَشَدَّتْ هَاجِرُ بِهِ
 وَسَطَهَا وَهَرَبَتْ وَجَرَتْ ذَيْلَهَا لَتُخْفِيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ، وَاسْتَمَرَّتْ غَيْرُهُ
 سَارَةَ إِلَى أَنْ كَانَ إِخْرَاجُ هَاجِرٍ وَوَلَدِهَا إِلَى مَكَّةَ، ثُمَّ وَلَدَتْ سَارَةُ بَعْدَ
 أَرْبَعَةِ عَشَرَ عَامًا إِسْحَاقَ.

(٢) الدَّوْحَةُ: الشَّجَرَةُ الْكَبِيرَةُ. وَكَانَتْ بَيْنَ الْبُثْرَيْنِ الصَّفَا.

(٣) أَيُّ: مَكَانَ الْمَسْجِدِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بُنِيَ حِينَئِذٍ.

فِيهِ تَمَرٌ، وَسِقَاءٌ فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ
أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَقَالَتْ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا
الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ؟، فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ
مِرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: اللَّهُ الَّذِي
أَمَرَكَ بِهَذَا؟، قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا، ثُمَّ
رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ، حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ
لَا يَرُونَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ وَدَعَا
بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ، فَقَالَ: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي
بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا
الصَّلَاةَ، فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ، وَارْزُقْهُمْ

مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} (١) وَجَعَلْتُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ
تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ، وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفَدَ
مَا فِي السَّقَاءِ عَطِشْتُ، وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلْتُ تَنْظُرُ
إِلَيْهِ يَتَلَوَّى، فَاِنْطَلَقْتُ كَرَاهِيَةً أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدْتُ
الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ
اسْتَقْبَلْتُ الْوَادِي تَنْظُرُ، هَلْ تَرَى أَحَدًا؟، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا،
فَهَبَطْتُ مِنَ الصَّفَا، حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ الْوَادِي رَفَعْتُ
طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعْتُ سَعِيَ الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى
جَاوَزْتُ الْوَادِي، ثُمَّ أَتَيْتُ الْمَرْوَةَ، فَقَامْتُ عَلَيْهَا، وَنَظَرْتُ
هَلْ تَرَى أَحَدًا؟، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلْتُ ذَلِكَ سَبْعَ

(١) ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». وفيه مكان البيت
الْمُعَظَّمُ عِنْدَ الْأَنْبِيَاءِ مَوْضِعُهُ مِنْ لَدُنْ آدَمَ.

مَرَّاتٍ، فَذَلِكَ سَعَى النَّاسِ بَيْنَهُمَا، فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى
 الْمَرْوَةِ، سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقَالَتْ: صِهْ - تُرِيدُ نَفْسَهَا - ثُمَّ
 تَسَمَّعَتْ، فَسَمِعَتْ أَيْضًا، فَقَالَتْ: قَدْ أَسَمِعْتُ إِنْ كَانَ
 عِنْدَكَ غَوَاثٌ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلِكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ
 فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ، أَوْ بِجَنَاحِهِ، حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ
 تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ الْمَاءِ
 فِي سِقَائِهَا، وَهُوَ يَقُورُ بَعْدَمَا تَغْرِفُ. (١) فَشَرِبَتْ
 وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا الْمَلِكُ: لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ فَإِنَّ
 هَاهُنَا بَيْتُ اللَّهِ، يَبْنِيهِ هَذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا

(١) جاء في الحديث عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ
 إِسْمَاعِيلَ، لَوْ تَرَكْتَ زَمْزَمَ، لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْمَاءِ، لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا
 تَجْرِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. خَيْرُ مَاءٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، مَاءُ زَمْزَمَ، فِيهِ
 طَعَامٌ مِنَ الطَّعْمِ، وَشِفَاءٌ مِنَ السُّقْمِ، وَشَرُّ مَاءٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، مَاءُ
 بَوَادِي بَرَهَوْتِ، بِقُبَّةِ حَضْرَمَوْتِ، كَرَجَلِ الْجَرَادِ مِنَ الْهُوَامِ، تُصْبِحُ
 تَدْفُقُ، وَتُمْسِي لَا بِلَالٍ بِهَا. (أَي: لَا مَاءَ بِهَا.)

يُضِيعُ أَهْلَهُ، وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الْأَرْضِ كَالرَّايَةِ
تَأْتِيهِ السُّيُولُ، فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، فَكَانَتْ كَذَلِكَ
حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقٍ كَدَاءٍ
فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ، فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا
الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ لَعَهْدُنَا بِهَذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ،
فَبَعَثُوا رَسُولَهُمْ فَنَظَرُ، فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ، فَأَتَاهُمْ فَأَخْبَرَهُمْ،
فَأَتَوْا إِلَيْهَا، فَقَالُوا: أَتَأْذِنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكَ؟، قَالَتْ:
نَعَمْ، وَلَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ، قَالُوا: نَعَمْ. فَأَلْفَى ذَلِكَ
أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، وَهِيَ تُحِبُّ الْأُنْسَ، فَنَزَلُوا، وَأَرْسَلُوا إِلَى
أَهْلِهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ، حَتَّى كَانَ بِهَا أَهْلُ أُبَيَاتٍ مِنْهُمْ،
وَشَبَّ الْغُلَامُ، وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ وَأَنْفَسَهُمْ، وَأَوَّلُ مَنْ
فَتَقَ لِسَانَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ الْمُبِينَةِ إِسْمَاعِيلُ، وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِ

عَشْرَةَ سَنَةً، وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوْجُوهُ
امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ.

إرسال لوط عليه السلام

ولوط هو ابنُ أَخِي إِبْرَاهِيمَ، فَالْخَلِيلِ فِإِبْرَاهِيمَ
وَهَارَانَ وَنَاحُورَ إِخْوَةٍ. وَلُوطٌ هُوَ ابْنُ هَارَانَ بْنِ (تَارَحَ
-وَهُوَ آزَرَ-) .

وَكَانَ لُوطٌ قَدْ نَزَحَ عَنْ مَحَلَّةِ عَمِّهِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِمَا
السَّلَامُ بِأَمْرِ لَهُ وَإِذْنِهِ، فَنَزَلَ بِمَدِينَةِ سَدُومَ مِنْ أَرْضِ غُورِ
زُعَرَ، وَكَانَتْ أُمُّ تِلْكَ الْمَحَلَّةِ وَلَهَا أَرْضٌ وَمُعْمَلَاتٌ وَقُرَى
مُضَافَةٌ إِلَيْهَا، وَلَهَا أَهْلٌ مِنْ أَفْجَرِ النَّاسِ. فَبَعَثَ فِي تِلْكَ
الْقُرَى بِالْأُرْدُنِّ، فَدَعَاهُمْ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ

والإخلاص له وشكر نعمه. وأنكر عليهم فعل الفاحشة بالذكور لقضاء الشهوة بهم دون النساء اللائي خُلِقن لقضائها، وأنها فعلة شنيعة لم يسبقهم إلى ارتكابها أحد! وأنهم متجاوزون لحدود الله بخروجهم عن الفطرة الكريمة. فأصروا على كفرهم وعصيانهم وفاحشتهم، وقالوا معرضين عن الحق: أخرجوا لو طًا وأهله من قريبتكم؛ إنهم أناس يَتَنَزَّهون عن عملنا هذا، فلا يليق بنا أن يبقوا بين ظهرانينا.

مجيء إبراهيم إلى مكة لتفقد حال ابنه

وَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَ مَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرْكِتَهُ فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ

بِشْرٍ، نَحْنُ فِي ضَيْقٍ وَشِدَّةٍ، فَشَكَتْ إِلَيْهِ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ
 زَوْجُكَ فَاقْرِئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقُولِي لَهُ يُغَيِّرُ عَتَبَةَ^(١) بَابِهِ،
 فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ آتَسُ شَيْئًا، فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ
 مِنْ أَحَدٍ؟، قَالَتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلْنَا
 عَنْكَ، فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَا فِي
 جَهْدٍ وَشِدَّةٍ، قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكَ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ،
 أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ: غَيِّرُ عَتَبَةَ بَابِكَ،
 قَالَ: ذَاكَ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أَقَارِقَكَ، الْحَقِّي بِأَهْلِكَ،
 فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى، فَلَيْتَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا
 شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ، فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ
 فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ؟،

(١) العتبة : هي الخشبة العليا في موضع الباب. وقيل : هي خَشْبَةُ
 الْبَابِ الَّتِي يُوطَأُ عَلَيْهَا (الْأُسْكُفَةُ).

وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ،
وَأَنْتِ عَلَى اللَّهِ - عز وجل - فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟،
قَالَتْ: اللَّحْمُ، قَالَ: فَمَا شَرَابُكُمْ؟، قَالَتْ: الْمَاءُ، قَالَ:
اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ^(١)، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ
زَوْجُكَ فَاقْرِئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ،
فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟، قَالَتْ:
نَعَمْ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، وَأَنْتِ عَلَيْهِ، فَسَأَلَنِي
عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَا بِخَيْرٍ
قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟، قَالَتْ: نَعَمْ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ

(١) فحصلت بركة بدعوة إبراهيم عليه السلام في طعام أهل مكة وشرابهم. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -: وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ، دَعَا لَهُمْ فِيهِ، قَالَ: فَهُمَا لَا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بَغَيْرِ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُؤَافِقَاهُ. يعني : ليس أحدٌ يخلو؛ أي: يعتمد ويداوم على اللحم والماء بغير مكة إلا اشتكى بطنه. أما في مكة المشرفة فلا؛ فإنهما يوافقانه فيها.

السَّلَامَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثَبِّتَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكَ أَبِي،
وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَ، ثُمَّ لَيْتَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ
اللَّهُ .

إبراهيم وإسماعيل يبنيان الكعبة

ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ ^(١) وَإِسْمَاعِيلُ يُبْرِي نَبْلًا لَهُ ^(٢) تَحْتَ
دَوْحَةٍ، قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَأَاهُ قَامَ إِلَيْهِ، فَصَنَعَا كَمَا

(١) عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَقْبَلَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ أَرْضِ مِثْلَةَ، مَعَهُ السَّكِينَةُ تَدْلُهُ، حَتَّى تَبَوَّأَ الْبَيْتَ كَمَا تَبَوَّاتِ الْعَنْكَبُوتُ بَيْتَهَا، فَرَفَعُوا عَنْ أَحْجَارِ الْحَجَرِ يُطِيقُهُ أَوْ لَا يُطِيقُهُ ثَلَاثُونَ رَجُلًا» .
(٢) عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: " مَرَّ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى نَضْرٍ مِنْ أَسْلَمَ - يَعْنِي مِنْ قَبِيلَةِ أَسْلَمَ - يَنْتَضِلُونَ (مِنْ الْمُنَاضِلَةِ، وَهِيَ الْمُرَامَةُ بِالنَّشَابِ) فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ ، فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا " . وفيه دليل أن عرب اليمن من ذرية إسماعيل . وَالْعَرَبُ كُلُّهَا مِنْ وَلَدِ سَامِ بْنِ نُوحٍ بِالِاتِّفَاقِ . قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: قَالَ الْبُخَارِيُّ: وَأَسْلَمَ بْنُ أَفْصَى بْنِ حَارِثَةَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عَامِرٍ مِنْ خُرَاعَةَ . يَعْنِي: وَخُرَاعَةُ فِرْقَةٌ مِمَّنْ كَانَ تَمَرُّقُ مِنْ قِبَائِلِ سَبَأٍ حِينَ أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرَمِ . وَكَانَتْ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ مِنْهُمْ . فَأَسْلَمَ قَبِيلَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَالْأَنْصَارُ أَوْسُهَا وَخَزْرَجُهَا مِنْ غَسَّانٍ مِنْ

يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ، وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ، ثُمَّ قَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ،
 إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ:
 وَتُعِينُنِي؟، قَالَ: وَأُعِينُكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ
 هَاهُنَا بَيْتًا - وَأَشَارَ إِلَى أَكْمَةِ مُرْتَفَعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا -
 قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ - وَكَانَتْ قَوَاعِدُ
 الْبَيْتِ قَبْلَ ذَلِكَ ^(١) - فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ،
 وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ، جَاءَ بِحَجَرٍ
 وَهُوَ {مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ} ^(٢) فَوَضَعَهُ لَهُ، فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي،

عَرَبَ الْبَيْمَنِ مِنْ سَبَأٍ، نَزَلُوا بِبِثْرِبَ لَمَّا تَفَرَّقَتْ سَبَأٌ فِي الْبِلَادِ، حِينَ بَعَثَ
 اللَّهُ عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرَمِ، وَنَزَلَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ بِالشَّامِ، وَإِنَّمَا قِيلَ لَهُمْ:
 غَسَّانَ بِمَاءٍ نَزَلُوا عَلَيْهِ قِيلَ: بِالْبَيْمَنِ. وَقِيلَ: إِنَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمَشَلَّلِ.

(١) كما صح عن ابن عباس، يعني: كانت الكعبة قد بنيت قبل ذلك.
 وإنما أخبر إبراهيم عن مكانها، (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ)،
 واختلفوا في أول من بنى الكعبة، ف قيل: آدم، وقيل: الملائكة.

(٢) أي: الْحَجَرُ الَّذِي كَانَ يَقِفُ عَلَيْهِ قَائِمًا لَمَّا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ عَنْ قَامَتِهِ
 فَوَضَعَ لَهُ وَلَدُهُ هَذَا الْحَجَرُ الْمَشْهُورَ لِيَرْتَفَعَ عَلَيْهِ لَمَّا تَعَالَى الْبِنَاءُ.

وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاقِلُهُ الْحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولَانِ: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}.

ثم إِنَّ رَجُلَهُ الْكَرِيمَةَ غَاصَتْ فِي الصَّخْرَةِ فَصَارَتْ
عَلَى قَدْرِ قَدَمِهِ حَافِيَةً لَا مُتَعَلَّةً.^(١)

قصة الذبيح ومناسك الحج

وَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَام - لَمَّا أُمِرَ بِالْمَنَاسِكِ
عَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَسْعَى، فَسَابَقَهُ، فَسَبَقَهُ
إِبْرَاهِيمُ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِ جَبْرِيلُ إِلَى جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ، فَعَرَضَ لَهُ

(١) {فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ} وَقَدْ كَانَ هَذَا الْحَجَرُ مُلَصَّقًا
بِحَائِطِ الْكَعْبَةِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ إِلَى أَيَّامِ عُمَرَ بْنِ
الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَخْرَجَهُ عَنِ الْبَيْتِ قَلِيلًا لِنَلَا يَشْغَلَ الْمُصَلُّونَ
عِنْدَهُ الطَّائِفِينَ بِالْبَيْتِ.

الشَّيْطَانُ، فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى ذَهَبَ ^(١)، ثُمَّ
 عَرَضَ لَهُ عِنْدَ الْجُمُرَةِ الْوُسْطَى، فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ -
 ، وَكَانَ مَعَهُ ابْنُهُ إِسْمَاعِيلُ، (قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ
 أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى، قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ
 سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) وَثُمَّ تَلَّهِ لِلْجَبِينِ ^(٢)
 وَعَلَى إِسْمَاعِيلَ قَمِيضٌ أَبْيَضٌ وَقَالَ: يَا أَبَتِ إِنَّهُ لَيْسَ لِي
 ثَوْبٌ تُكَفِّنِي فِيهِ غَيْرُهُ، فَاخْلَعْهُ حَتَّى تُكَفِّنِي فِيهِ،
 فَعَالَجَهُ لِيَخْلَعَهُ، فَتَوَدَّى مِنْ خَلْفِهِ: {أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ
 صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ
 الْبَلَاءُ الْمُبِينُ، وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ} فَالْتَفَتَ إِبْرَاهِيمُ، فَإِذَا

(١) وفي رواية: "حَتَّى سَاخَ فِي الْأَرْضِ"، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 -: الشَّيْطَانُ تَرَجَّمُونَ، وَمَلَأَ أَيْكُمُ تَتَبِعُونَ.

(٢) وضع إبراهيم ابنه على جانب جبهته. وَلِكُلِّ إِنْسَانٍ جَبِينَانِ بَيْنَهُمَا
 الْجَبْهَةُ.

هو بِكَبْشٍ أَبْيَضٌ، أَقْرَنَ، أَعْيَنَ^(١) ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِ جَبْرِيلُ
إِلَى الْجُمُرَةِ الْقُصْوَى، فَعَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ، فَرَمَاهُ بِسَبْعِ
حَصَيَاتٍ حَتَّى ذَهَبَ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِ جَبْرِيلُ إِلَى مِنَى،
قَالَ: هَذَا مِنَى، هَذَا مُنَاخُ النَّاسِ، ثُمَّ أَتَى بِهِ جَمْعًا^(٢)،
فَقَالَ: هَذَا الْمَشْعَرُ الْحَرَامُ، ثُمَّ ذَهَبَ بِهِ إِلَى عَرَفَةَ،
وَسَمَّيْتُ عَرَفَةَ لِأَنَّ جَبْرِيلَ قَالَ لِإِبْرَاهِيمَ: هَلْ عَرَفْتَ؟
قَالَ: نَعَمْ.

(١) جاء في الحديث: "إِنِّي كُنْتُ رَأَيْتُ قَرْنَيْ الْكَبْشِ حِينَ دَخَلْتُ الْبَيْتَ ،
فَنَسِيتُ أَنْ أَمُرَّكَ أَنْ تُخَمِّرَهُمَا فَخَمَّرَهُمَا ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي
الْبَيْتِ شَيْءٌ يَشْغُلُ الْمُصَلِّيَّ " .
أَيُّ: تُغَطِّي قَرْنَيْ الْكَبْشِ الَّذِي فَدَى اللَّهُ تَعَالَى بِهِ إِسْمَاعِيلَ - عَلَيْهِ
السلام - عَنْ أَعْيَنَ النَّاسِ .
قَالَ سُفْيَانُ: لَمْ تَزَلْ قَرْنَا الْكَبْشِ فِي الْبَيْتِ حَتَّى احْتَرَقَ الْبَيْتُ
فَاحْتَرَقَا .

(٢) يعنى المزدلفة (المشعر الحرام) . وسميت (جمعاً) لاجتماع الناس
بها أو لكونهم يجمعون فيها بين صلاتي المغرب والعشاء جمع تأخير .

وَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا أُمِرَ أَنْ يُؤَدِّنَ فِي النَّاسِ بِالْحُجِّ،
 خَفَضَتْ لَهُ الْجِبَالُ رُؤُوسَهَا، وَرُفِعَتْ لَهُ الْقُرَى، فَأَدَّنَ
 فِي النَّاسِ بِالْحُجِّ. (وَأَدَّنَ فِي النَّاسِ بِالْحُجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا
 وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لِيَشْهَدُوا
 مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا
 رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَوَائِلَ
 الْفَقِيرِ، ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا
 بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ). {قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ
 مُسْتَقِيمٍ، دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ
 الْمُشْرِكِينَ}، {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ
 وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ

خَلِيلًا}. فكان الحج لإقامة ذكر الله وتوحيده والذبح له خالصاً والتقرب إليه بطاعته وفعل أمره.

وَلَمْ يُوجَدْ مِنْ سُلَالَةِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ^(١) مِنْ
الْأَنْبِيَاءِ سِوَى خَاتَمِهِمْ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَسَيِّدِهِمْ، وَفَخِرَ
بَنِي آدَمَ فِي الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةِ؛ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ
الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ الْقُرَشِيِّ الْهَاشِمِيُّ الْمَكِّيُّ ثُمَّ الْمَدَنِيُّ
صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

(١) قال ابن كثير : وَعَرَبُ الْحِجَازِ كُلُّهُمْ يَنْتَسِبُونَ إِلَى وَلَدَيْهِ نَابِتٍ وَقَيْدَارٍ ، فَمِنْهُ الْعَرَبُ عَلَى اخْتِلَافِ قَبَائِلِهَا . وقال ابن حجر في الفتح: . . . وَزَعَمَ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ إِلَى أَنَّ قَحْطَانَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ وَأَنَّهُ قَحْطَانُ بْنُ الْهَمَيْسَعِ بْنِ تَيْمٍ بْنِ نَبْتِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ ظَاهِرُ قَوْلِ أَبِي هُرَيْرَةَ الْمُتَقَدِّمِ فِي قِصَّةِ هَاجِرَ حَيْثُ قَالَ وَهُوَ يُخَاطَبُ الْأَنْصَارَ فَتِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ هَذَا هُوَ الَّذِي يَتَرَجَّعُ فِي نَقْدِي وَذَلِكَ أَنَّ عِدَدَ الْأَبَاءِ بَيْنَ الْمُشْهُورِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ وَبَيْنَ قَحْطَانَ مُتَقَارِبٌ مِنْ عِدَدِ الْأَبَاءِ بَيْنَ الْمُشْهُورِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ وَبَيْنَ عَدْنَانَ . وقد تقدمت الإشارة لذلك في حديث: "ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً" .

وبقيت شعائر الحج وملة الحنيفية والتوحيد في
العرب إلى أن غيرها عمرو بن لُحْي بن قَمْعَة بن خندفٍ
بعبادة الأصنام مع الله، فهو يَجْرُ قُصْبُهُ^(١) في النَّارِ، وَكَانَ
أَوَّلَ مَنْ غَيَّرَ عَهْدَ إِبْرَاهِيمَ، وَسَيَّبَ السَّوَائِبَ^(٢)، وَكَانَ قَدْ
أَتَى السَّامَ وَرَآهُمْ بِالْبَلْقَاءِ لَهُمْ أَصْنَامٌ يَسْتَجْلِبُونَ بِهَا
الْمَنَافِعَ وَيَدْفَعُونَ بِهَا الْمَضَارَّ فَصْنَعُ مِثْلِ ذَلِكَ فِي مَكَّةَ
لَمَّا كَانَتْ خُزَاعَةٌ وَوَلَاةَ الْبَيْتِ قَبْلَ قُرَيْشٍ وَكَانَ هُوَ سَيِّدَ
خُزَاعَةٍ.^(٣)

(١) أمعاءه.

(٢) السَّائِبَةُ: هي النَّاقَةُ المَترُوكَةُ والمَندُورَةُ لِلطَّوَاعِيتِ، وَكَانَتِ النَّاقَةُ
الْبَكْرُ تَبْكَرُ فِي أَوَّلِ نِتَاجِ الْإِبِلِ، ثُمَّ تُثَنِّي بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْوَلَادَاتِ التَّالِيَةِ
بِالْإِنَاثِ، فَإِذَا وَلَدَتِ النَّاقَةُ عَشْرَةَ أَبْطَنَ كُلُّهُنَّ إِنَاثٌ، فَكَانُوا يُسَيِّبُونَهَا
لِطَّوَاعِيَّتِهِمْ إِنْ وَصَلَتْ إِحْدَاهُمَا بِالْآخَرَى لَيْسَ بَيْنَهُمَا ذَكَرٌ.

(٣) قال أبو هريرة رضي الله عنه: سمعت رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - يقول لأَكْثَمَ بنِ الْجَوْنِ الْخَزَاعِي "يا أَكْثَمُ رَأَيْتَ عَمْرُو بنَ لُحْيِ
بنِ قَمْعَةَ بنِ خَنْدَفٍ يَجْرُ قُصْبَهُ فِي النَّارِ فَمَا رَأَيْتَ رَجُلًا أَشْبَهَ بِرَجُلٍ

بشارة إبراهيم بإسحاق عليهما السلام

وَجَاءَتِ الْبَشَارَةُ بِإِسْحَاقَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِإِبْرَاهِيمَ
وَسَارَةَ لَمَّا مَرُّوا بِهِمْ مُجْتَازِينَ ذَاهِبِينَ إِلَى مَدَائِنِ قَوْمِ لُوطٍ
لِيُدْمَرُوا عَلَيْهِمْ لِكُفْرِهِمْ وَفُجُورِهِمْ، وَكَانَ الْمَلَائِكَةُ
جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، وَلَمَّا وَرَدُوا عَلَى الْخَلِيلِ
حَسِبَهُمْ أَوَّلًا أَضْيَافًا فَعَامَلَهُمْ مُعَامَلَةَ الضُّيُوفِ؛ شَوَى
لَهُمْ عَجَلًا سَمِينًا مِنْ خِيَارِ بَقَرِهِ، فَلَمَّا قَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ وَعَرَضَ
عَلَيْهِمْ لَمْ يَرِ لَهُمْ هِمَّةٌ إِلَى الْأَكْلِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ
الْمَلَائِكَةَ لَيْسَ فِيهِمْ قُوَّةُ الْحَاجَةِ إِلَى الطَّعَامِ فَنَكَرَهُمْ
إِبْرَاهِيمُ: {وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا

منك به ولا بك منه". فقال أكثم: عسى أن يضرنى شبهه يا رسول
الله؟ قال "لا، إنك مؤمن وهو كافر، إنه كان أول من غير دين إسماعيل
فنصب الأوثان وبحر البحيرة وسيب السائبة ووصل الوصيلة وحمى
الحامي".

إِلَى قَوْمٍ لُّوطٍ { أَيُّ لِنْدَمَرَّ عَلَيْهِمْ. فَاسْتَبَشَرْتُ عِنْدَ ذَلِكَ
سَارَةَ غَضَبًا لِلَّهِ عَلَيْهِمْ. وَكَانَتْ قَائِمَةً عَلَى رُءُوسِ
الْأَصْيَافِ، كَمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ النَّاسِ مِنَ الْعَرَبِ
وَعَبَائِهِمْ، فَلَمَّا ضَحِكَتِ اسْتَبْشَارًا بِذَلِكَ ؛ بَشَرْتَهَا
الْمَلَائِكَةُ { بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ }،
فَأَقْبَلَتْ { فِي صَرَّةٍ } أَيُّ: فِي صَرْخَةٍ، { فَصَكَّتْ وَجْهَهَا }
كَمَا يَفْعَلُ النِّسَاءُ عِنْدَ التَّعَجُّبِ، وَقَالَتْ: يَا وَيْلَتَا أَلِدْتُ
وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا { ؟ }، فَأَكْثَرُوا لَهَا الْخَبَرَ بِهَذِهِ
الْبِشَارَةِ، وَبَشَّرُوهُمَا { بِغُلَامٍ عَلِيمٍ } وَهُوَ إِسْحَاقُ، وَقَدْ
وُصِفَ أَخُوهُ إِسْمَاعِيلُ بِأَنَّهُ غُلَامٌ (حَلِيمٌ) لِمَقَامِهِ وَصَبْرِهِ.

إهلاك قوم لوط في قرى سدوم

وجاءت الملائكة لوطًا في هيئة رجال فساءه
مجيئهم، وضاق صدره بسبب الخوف عليهم من قومه
الذين يأتون الرجال شهوة من دون النساء، وقال لوط:
هذا يوم شديد؛ لظنه أن قومه سيغالبنه على ضيوفه.
وجاء قوم لوط مسرعين قاصدين فعل الفاحشة
بضيوفه. وقال لهم لوط مدافعًا قومه ومعدرًا لنفسه
أمام ضيوفه: هؤلاء بناتي من جملة نسائكم
فتزوجوهن؛ فهن أطهر لكم من فعل الفاحشة، فخافوا
من الله، ولا تجلبوا لي العار في ضيوفي، أليس منكم رجل
ذو عقل سديد ينهاكم عن هذا الفعل القبيح؟!، فقالوا
له: لقد علمت -يا لوط- أنه ليس لنا حاجة في بناتك

ولا نساء قومك، ولا شهوة، وإنك لتعلم ما نريده، فلا نريد إلا الرجال. قال لوط: ليت لي قوة أدفعكم بها، أو عشيرة تمنعني، فأحول بينكم وبين ضيوفي. ^(١)

وقالت الملائكة للوط عليه السلام: يا لوط، إنا رسلُ أرسلنا الله، لن يصل إليك قومك بسوء، فاخرج بأهلك من هذه القرية في ساعة مظلمة من السحر آخر الليل، وكن خلفهم ولا ينظر أحدكم إلى ما وراءه، وامضوا حيث تؤمرون. فسلمه الله وأهله (وهم ابنتاه) بالخروج ليلاً من القرية التي سيقع عليها العذاب، إلا

(١) فَإِنْ لُوطًا كَانَ مِنْ مَّهَاجِرًا مِنْ أَهْلِ بَابِلَ وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَرَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى لُوطٍ إِنْ كَانَ لِيَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، إِذْ قَالَ: {لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ} فَمَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ نَبِيًّا إِلَّا فِي ثَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ". وَالثَّرْوَةُ: الْكَثْرَةُ وَالْمَنْعَةُ.

امراته كانت من الغابرين الباقين مع قومها^(١)، وَكَانَتْ
تَدُلُّ عَلَى الضَّيْفِ، وهي التي دلتهم على ضيف لوط.
فأصابها ما أصاب قومها من العذاب، وكان موعد
إهلاكهم الصبح.

وجاء أمر الله بإهلاك قوم لوط فأخذهم صوت
شديد مهلك عند دخولهم في وقت شروق الشمس،
ورفعت قراهم ثم قلبت فصار عالي قراهم سافلها،
وأمر الله عليهم مطراً عظيماً بحجارة من طين
متصلب معلمة عند الله بعلامة خاصة مصفوف
بعضها فوق بعض بتتابع، ونجى الله لوطاً ومن آمن معه
برحمته، وبقي خسف مكان قوم لوط (منطقة البحر

(١) وقيل أنها خرجت مع لوط ولما سمعت صوت العذاب التفتت
فأصابها حجر فقتلها.

الميت) آية للعة على طريق المسافرين، وهو طريق متصل بقرية مدين أصحاب الأيكة -وهي القرية ذات الشجر الملتف- (وإنهما لبإمام مبين).

إرسال شعيب عليه السلام إلى مدين

وبعث الله إلى مدين^(١) نبيه شعيباً عليه السلام، وكانوا قريبي عهد بلوط وقومه زماناً ومكاناً، فمدين وسدوم كلاهما على طريق واحدة ظاهرة للمسافرين. فذكرهم شعيب بنعم الله عليهم وكيف أن الله منّ عليهم بأن كان عددهم قليلاً فكثّرهم، ودعاهم إلى توحيد الله وأن يتمّوا المكيال والميزان بالعدل، ولا

(١) وتقع مدين في المنطقة التي تسمى اليوم: البّء، وهي قريبة من من تبوك، شمال غرب الجزيرة العربية. وأهلها هم: أصحاب الأيكة.

ينقصوا الناس من حقوقهم شيئاً بالتطفيف والغش
والخداع أو بغيب سلعهم، والتزهيد فيها، أو المخادعة
لأصحابها وألا يفسدوا في الأرض بالمعاصي وألا يقعدوا
بكل طريق يهددون من سلكه من الناس ليسلبوا
أموالهم، ويصدوا عن دين الله من أراد الاهتداء به. وأن
ما يبقيه الله لهم من الحلال بعد إيفاء حقوق الناس
بالعدل؛ أكثر نفعاً وبركة من الزيادة الحاصلة بالتطفيف
والإفساد في الأرض، وقال لهم: ما أريد أن أنهاكم عن
شيء وأخالكم في فعله، لا أريد إلا إصلاحكم بدعوتكم
إلى توحيد ربكم وطاعته قدر استطاعتي، وما توفيقي
إلى الحصول على ذلك إلا بالله سبحانه.

فرفضوا ترك عبادة الأصنام التي عبدها آباؤهم
وأصروا على التصرف بأموالهم كيف يشاؤون بالباطل.
وهددوا بقتله لولا عشيرته. وهددوا بإخراجه ومن آمن
معه من قريتهم. وزعموا أن الذين اتبعوا شعيباً
سيخسرون. فحذرهم أن ينالهم بكفرهم وتكذيبهم من
العذاب مثل ما نال قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح،
وأن إهلاك قوم لوط ليس منهم ببعيد، لا زماناً ولا
مكاناً، وأنهم يعلمون ما أصابهم. فاستكبروا وأصروا
وطلبوا منه مستهزئين أن يسقط عليهم قطعاً من
السماء إن كان صادقاً، فوعدهم بعذاب يوم الظلة وهي
السحابة العظيمة، حيث أظلتهم سحابة بعد يوم
شديد الحر، فرجفت بهم الأرض وتزلزلت زلزلة شديدة

وأمرت السحابة عليهم نارًا فأحرقتهم. ونجى الله
شعيبًا ومن آمن معه برحمته.

إسحاق عليه السلام

وقد ذكرنا أنه لما بلغ إبراهيم عليه السلام الكبر هو
وزوجته سارة بشره الله أنه سيولد له إسحاق^(١) من
زوجته سارة وسيكون نبياً، ومن ذرية ابنه إسحاق نبى
أيضاً هو يعقوب عليهم السلام.

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ نَبِيَّهٖ إِسْحَاقَ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ
الْعَزِيزِ، وَوُلِدَ لَهُ يَعْقُوبُ وَهُوَ إِسْرَآئِيلُ الَّذِي يَنْتَسِبُ إِلَيْهِ

(١) قال ابن كثير : وقد وُلِدَ إِسْحَاقُ -وَلَأَبِيهِ مِائَةُ سَنَةٍ- بَعْدَ أَخِيهِ
إِسْمَاعِيلَ بِأَرْبَعِ عَشْرَةِ سَنَةً، وَكَانَ عُمُرُ أُمِّهِ سَارَةَ حِينَ بُشِّرَتْ بِهِ تِسْعِينَ
سَنَةً.

سَائِرُ أَسْبَاطِهِمْ فَكَانَتْ فِيهِمُ النَّبُوءَةُ، وَكَثُرُوا جِدًّا بِحَيْثُ لَا يَعْلَمُ عَدَدُهُمْ إِلَّا الَّذِي بَعَثَهُمْ، وَاخْتَصَّهُمْ بِالرَّسَالَةِ وَالنُّبُوءَةِ حَتَّى خُتِمُوا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

قال ابن كثير: وذكر أهل الكتاب أن إسحاق تزوج في حياة أبيه وولدت زوجته غلامين توأمين: أولهما سموه عيصو، وهو الذي تسميه العرب العيص، وهو والد الروم. والثاني خرج وهو آخذ بعقب أخيه؛ فسموه يعقوب، وهو إسرائيل الذي ينسب إليه بنو إسرائيل .

قصة ذي القرنين

وَكَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ ^(١) مَلِكًا مِنَ الْمُلُوكِ الْعَادِلِينَ وَكَانَ مُوَحِّدًا مُؤْمِنًا بِاللَّهِ ، وَآتَاهُ اللَّهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى نَيْلِ مَقْصُودِهِ فِي الْمَمْلَكَةِ وَغَيْرِهَا؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَأْخُذُ مِنْ كُلِّ إِقْلِيمٍ مِنَ الْأَمْتِعَةِ وَالْمَطَاعِمِ وَالزَّادِ مَا يَكْفِيهِ وَيُعِينُهُ عَلَى أَهْلِ الْإِقْلِيمِ الْآخِرِ. وَقَدْ مُكِّنَ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَقْهَرِ الْجَبَابِرَةِ وَأَذْلَهُمْ وَكَانَ يَغْزُو عِبَادَ الْأَصْنَامِ، وَسَارَ بِالْعَدْلِ فِيمَا آتَاهُ اللَّهُ. وَقَدْ وَصَلَ إِلَى آخِرِ الْعِمَارَةِ

(١) يذكر أنه عاش في عهد إبراهيم عليه السلام أو قريباً منه، وقيل: أنه أسلم على يدي إبراهيم عليه السلام، وأنه حج البيت ماشياً، وأنه كان مِنَ الْعَرَبِ. وَلَا يُعْلَمُ هَلْ كَانَ نَبِيًّا أَمْ لَا؟ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "وما أدري إذا القرنين نبياً كان أم لا".

قَالَ مُجَاهِدٌ: "مَلِكُ الْأَرْضِ مُؤْمِنَانِ وَكَافِرَانِ؛ فَأَلْمُؤْمِنَانِ: سُلَيْمَانُ وَذُو الْقَرْنَيْنِ. وَالْكَافِرَانِ: بَخْتَنَصْرُ وَنَمْرُودُ. وَسَيَمْلِكُهَا خَامِسٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ".

من الأرض من جهة المغرب فرأى الشمس عند الغروب في رأي العين تغرب في البحر المحيط كأنها تغرب في عين حمئة أي: سوداء، كما أنا نشاهدها في الأرض الملساء كأنها تدخل في الأرض، وهذا هو المعتاد لمن كان بينه وبين أفق الشمس الغربي ماء، رآها تغرب في نفس الماء وإن كانت في غاية الارتفاع. ثم وَصَلَ ذُو الْقَرْيَيْنِ إِلَى آخر العمارة من الأرض من جهة المشرق، ووجد الشَّمْسِ (تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا)، يعني : أنهم أول من تطلع عليهم . وليس أنها تماسهم وتلاصقهم. ثم ذهب متوجها من المشرق، قاصداً للشمال، فوصل إلى ما بين السدين، وهما سلاسل جبال معروفين في ذلك الزمان، ووجد من دون السدين

قومًا لا يكادون يفقهون قولًا لعجمة ألسنتهم،
واستعجام أذهانهم وقلوبهم، وقد أعطى الله ذا القرنين
من الأسباب العلمية، ما فقه به ألسنة أولئك القوم
وفقّهم، وراجعهم، وراجعوه، فاشتكوا إليه ضرر
يأجوج ومأجوج -وهما أمتان عظيمتان من بني آدم-
فقالوا: {إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ}
بالقتل وأخذ الأموال وغير ذلك. {فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ
خَرْجًا} أي أجرة {عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا}. ودل
ذلك على عدم اقتدارهم بأنفسهم على بنيان السد،
وعرفوا اقتدار ذي القرنين عليه، فبدلوا له أجرة، ليفعل
ذلك، فلم يكن ذو القرنين ذا طمع، ولا رغبة في الدنيا،
وكان قصده الإصلاح، فلذلك أجاب طلبتهم لما فيها

من المصلحة، ولم يأخذ منهم أجره، وشكر ربه على
 تمكينه واقتداره، فقال لهم: {مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ}
 أي: مما تبذلون لي وتعطوني، وإنما أطلب منكم أن
 تعينوني بقوة منكم بأيديكم {أَجْعَلُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا}
 أي: مانعاً من عبورهم عليكم. {آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ} أي:
 قطع الحديد، فأعطوه ذلك فوضعها. {حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ
 بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ} أي: الجبلين اللذين بني بينهما السد
 {قَالَ انْفُخُوا} النار أي: أوقدوها إيقاداً عظيماً،
 واستعملوا لها المنافخ لتشتد، فتذيب النحاس، فلما
 ذاب النحاس، {قَالَ آتُونِي أَفْرَغْ عَلَيْهِ قِطْرًا} أي: نحاساً
 مذاباً، فأفرغه على الردم الذي بناه من قطع الحديد،
 فاستحكم السد استحكاماً هائلاً وامتنع به من وراءه

من الناس، من ضرر يأجوج ومأجوج. {فَمَا اسْتَطَاعُوا
 أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا} أي: فما لهم
 استطاعة، ولا قدرة على الصعود عليه لارتفاعه، ولا على
 نقبه لإحكامه وقوته. فلما فعل هذا الفعل الجميل
 والأثر الجليل، أضاف النعمة إلى موليتها وقال: {هَذَا
 رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي} أي: من فضله وإحسانه عليّ وعلى
 خلقه، وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا منّ الله عليهم
 بالنعمة الجليلة، ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترفهم
 بنعمة الله. ثم قال: {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي} أي: لخروج
 يأجوج ومأجوج {جَعَلَهُ} أي: ذلك السد المحكم المتقن
 {دَكَّاءَ} أي: دكه فانهدم، واستوى هو والأرض {وَكَانَ
 وَعْدُ رَبِّي حَقًّا} .

وفاة إبراهيم عليه السلام

وإبراهيم عليه السَّلام يَعْتَرِفُ بِفَضْلِهِ جَمِيعُ
الطَّوائِفِ وَالْمِلَلِ؛ فَاَلْمَشْرِكُونَ الْعَرَبَ كَانُوا مُعْتَرِفِينَ
بِفَضْلِهِ، مُقَرِّينَ بَأَنَّهُمْ مِنْ أَوْلَادِهِ، وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى
وَالْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ مُعَظِّمُونَ لَهُ، مُعْتَرِفُونَ بِجَلَالَةِ قَدْرِهِ.
فَكُلُّ كِتَابٍ أُنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ
إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ فَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ وَشِيعَتِهِ. (١)

(١) قال ابن كثير: ففي السَّفَرِ الْأَوَّلِ مِنَ التَّوْرَةِ الَّتِي بَأْيَدِيهِمْ فِي قِصَّةِ
إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَا مَضْمُونُهُ وَتَعْرِيضُهُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى
أَوْحَى إِلَى إِبْرَاهِيمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَعْدَ مَا سَلَّمَهُ مِنْ نَارِ النَّمْرُودِ أَنْ قُمْ
فَاسْلُكْ الْأَرْضَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا لِوَلَدِكَ . . أَمَا وَلَدُكَ إِسْحَاقُ فَإِنَّهُ
يُرِزُّ ذُرِّيَّةً عَظِيمَةً، وَأَمَا وَلَدُكَ إِسْمَاعِيلُ فَإِنِّي بَارَكْتُهُ وَعَظَّمْتُهُ، وَكَثُرَتْ
ذُرِّيَّتُهُ، وَجَعَلْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ مَا ذَا مَا ذَا - يَعْنِي مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ - .

فَفَزَّهَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلِيلَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ أَنْ
يَكُونَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا
وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّ أَوَّلَى
النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ}. يَعْنِي الَّذِينَ كَانُوا عَلَى
مِلَّةِهِ مِنْ أَتْبَاعِهِ فِي زَمَانِهِ وَمَنْ تَمَسَّكَ بِدِينِهِ مِنْ بَعْدِهِمْ
{وَهَذَا النَّبِيُّ} يَعْنِي مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ اللَّهَ
شَرَعَ لَهُ الدِّينَ الْحَنِيفَ الَّذِي شَرَعَهُ لِلْخَلِيلِ وَكَمَّلَهُ اللَّهُ
تَعَالَى لَهُ، وَأَخْبَرَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ (كَانَ أُمَّةً) أَيُّ قُدُوةً إِمَامًا
مُهْتَدِيًّا دَاعِيًّا إِلَى الْخَيْرِ يُقْتَدَى بِهِ فِيهِ. ^(١) وَقَالَ تَعَالَى:

(١) عَنْ سُلَيْمَانَ، قَالَ: "لَمَّا أُرِيَ إِبْرَاهِيمُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَأَى
عَبْدًا عَلَى فَاحِشَةٍ فَدَعَا عَلَيْهِ فَهَلَكَ، ثُمَّ رَأَى آخَرَ فَدَعَا عَلَيْهِ فَهَلَكَ،
فَقَالَ اللَّهُ: أَنْزِلُوا عِبْدِي، لَا يَهْلِكُ عِبَادِي".

{وإبراهيمَ الَّذِي وَفَّى} أي: وَفَّى جَمِيعَ مَا أَمَر بِهِ. ^(١) وَقَامَ
بِجَمِيعِ خِصَالِ الْإِيمَانِ وَشُعْبِهِ. وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ صَيَّفَ
الصَّيْفَ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ اخْتَتَنَ عَلَى رَأْسِ ثَمَانِينَ سَنَةً،
وَاخْتَتَنَ بِالْقُدُومِ.

وَبَنَى أَشْرَفَ الْمَسَاجِدِ فِي أَشْرَفِ الْبِقَاعِ فِي وَادٍ غَيْرِ
ذِي زَرْعٍ، وَدَعَا لِأَهْلِهَا بِالْبَرَكَةِ، وَأَنْ يُرْزَقُوا مِنَ الثَّمَرَاتِ
مَعَ قَلَّةِ الْمِيَاهِ، وَعَدِمِ الْأَشْجَارِ وَالزُّرُوعِ وَالثَّمَارِ ^(٢) ، وَأَنْ

(١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: {وَإِذِ ابْتَلَى
إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ} قَالَ: " ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِالطَّهَارَةِ، خَمَسٌ فِي الرَّأْسِ
وَحَمَسٌ فِي الْجَسَدِ؛ فِي الرَّأْسِ: قَصُّ الشَّارِبِ، وَالْمُضْمَضَةُ،
وَالِاسْتِنْشَاقُ، وَالسَّوَالُكُ، وَفَرَقُ الرَّأْسِ، وَفِي الْجَسَدِ: تَقْلِيمُ الْأُظْفَارِ،
وَحَلْقُ الْعَانَةِ، وَالْخِتَانُ، وَنَتْفُ الْأَبْطِ، وَغَسْلُ مَكَانِ الْغَائِطِ وَالْبَوْلِ
بِالْمَاءِ .

وَقَالَ: " مَا ابْتُلِيَ أَحَدٌ بِهَذَا الدِّينِ فَقَامَ بِهِ كُلُّهُ غَيْرُ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ابْتُلِيَ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ، فَكَتَبَ اللَّهُ لَهُ الْبَرَاءَةَ، فَقَالَ:
{وإبراهيمَ الَّذِي وَفَّى} .

(٢) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ
الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ كَانَ

يَجْعَلُهُ حَرَمًا مُحَرَّمًا وَأَمْنًا مُحْتَمًّا، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ - وَلَهُ
 الْحَمْدُ - لَهُ مَسْأَلَتُهُ، وَلَبَّى دَعْوَتُهُ وَأَتَاهُ طَلِبَتُهُ، فَقَالَ
 تَعَالَى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ
 مِنْ حَوْلِهِمْ} وَقَالَ تَعَالَى: {أَوَلَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى
 إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا}. وَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ
 فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَيُّ مِنْ جِنْسِهِمْ وَعَلَى لُغَتِهِمْ الْفَصِيحَةِ
 الْبَلِيغَةِ النَّصِيحَةِ لِيَتِمَّ عَلَيْهِمُ النِّعْمَتَانِ الدُّنْيَوِيَّةُ
 وَالْدِّينِيَّةُ، بِسَعَادَةِ الْأُولَى وَالْآخِرَةِ، وَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ
 فَبَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا، وَأَيُّ رَسُولٍ، خَتَمَ بِهِ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ،
 وَأَكْمَلَ لَهُ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا قَبْلَهُ، وَعَمَّ

إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اخْتَجَرَهَا دُونَ النَّاسِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {وَمَنْ
 كَفَرَ} أَيْضًا فَأَنَا أَرْزُقُهُمْ كَمَا أَرْزُقُ الْمُؤْمِنِينَ. أَخْلَقَ خَلْقًا لَا أَرْزُقُهُمْ؟!
 {فَأَمْتَعَهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرَّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ}. ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: {كُلًّا
 نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا}.

بِدَعْوَتِهِ أَهْلَ الْأَرْضِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ
وَصِفَاتِهِمْ فِي سَائِرِ الْأَقْطَارِ وَالْأَمْصَارِ وَالْأَعْصَارِ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَامَةِ ، وَلِهَذَا اسْتَحَقَّ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذْ
كَانَ بَانِي كَعْبَةِ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَكُونَ مَنْصِبُهُ وَمَحَلُّهُ
وَمَوْضِعُهُ فِي مَنَازِلِ السَّمَاوَاتِ، وَرَفِيعِ الدَّرَجَاتِ عِنْدَ
الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ الَّذِي هُوَ كَعْبَةُ أَهْلِ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ. (١)

(١) جاء في حديث الرؤيا : إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي،
وَإِنَّهُمَا قَالَا لِي أَنْطَلِقْ، وَإِنِّي أَنْطَلَقْتُ مَعَهُمَا ، فَأَنْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى
رَوْضَةٍ مُعْتَمَةٍ، فِيهَا مِنْ كُلِّ لَوْنِ الرَّبِيعِ، وَإِذَا بَيْنَ ظَهْرِي الرَّوْضَةَ رَجُلٌ
طَوِيلٌ، لَا أَكَادُ أَرَى رَأْسَهُ طَوْلًا فِي السَّمَاءِ، وَإِذَا حَوْلَ الرَّجُلِ مِنْ أَكْثَرِ
وَلَدَانِ رَأَيْتُهُمْ قَطْ " قَالَ: " قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا مَا هَؤُلَاءِ؟ " قَالَ: " قَالَا
لِي: أَنْطَلِقْ أَنْطَلِقْ " . . . قُلْتُ لَهُمَا: فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مِنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَبًا،
فَمَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ؟ " قَالَ: " قَالَا لِي: أَمَّا إِنَّا سَنُخْبِرُكَ . . . وَأَمَّا
الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِي فِي الرَّوْضَةِ، فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ - وَأَمَّا الْوَلَدَانِ الَّذِينَ حَوْلَهُ، فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَى الْفِطْرَةِ ثُمَّ
ذَكَرَ أَنَّهُ مِنْهُمْ كَذَلِكَ: "أَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ".

وَلَمَّا كَانَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَفْضَلَ الرُّسُلِ وَأَوَّلِي
 الْعِزِّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ
 أَمَرَ الْمُصَلِّي أَنْ يَقُولَ فِي تَشَهُدِهِ : «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ
 وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ
 إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ
 مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ
 حَمِيدٌ مَجِيدٌ» .

وَقَبْرُهُ وَقَبْرُ وَلَدِهِ إِسْحَاقَ وَقَبْرُ وَلَدِ وَلَدِهِ يَعْقُوبَ فِي
 الْمَرْبَعَةِ الَّتِي بَنَاهَا سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِبَلَدِ
 حَبْرُونَ، وَهُوَ الْبَلَدُ الْمَعْرُوفُ بِالْخَلِيلِ الْيَوْمَ. وَهَذَا مُتَلَقَّى
 بِالتَّوَاتُرِ أُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ مِنْ زَمَنِ بَنِي
 إِسْرَائِيلَ، وَإِلَى زَمَانِنَا هَذَا أَنَّ قَبْرَهُ بِالْمَرْبَعَةِ تَحْقِيقًا. فَأَمَّا

تَعْيِينُهُ مِنْهَا فَلَيْسَ فِيهِ خَبْرٌ صَحِيحٌ عَنْ مَعْصُومٍ، فَيَنْبَغِي
أَنْ تُرَاعَى تِلْكَ الْمَحَلَّةُ، وَأَنْ تُخْتَرَمَ احْتِرَامَ مِثْلِهَا.

يعقوب (إسرائيل) عليه السلام

واصفى الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم
بالنبوة، ومما جاء في سيرة يعقوب عليه السلام أنه
رحل من بيت المقدس إلى خاله لابان بأرض حران؛
وزوجه ابنتيه: ليا وراحيل. وكان ذلك سائغاً في ملتهم،
ثم نسخ في شريعة التوراة وولدت له ليا أولاداً وولدت
له راحيل يوسف وبنيامين. ورجع إلى فلسطين عند
أبيه إسحاق عليهما السلام. ثم توفي إسحاق واستقر

يعقوب هو وأبناؤه الأسباط الاثنا عشر في فلسطين،
ومن ذرية الأسباط يتكون نسب بني إسرائيل^(١).

(١) أبناء يعقوب عليه السلام هم: يوسُفَ ورُوبِيلُ وَهُوَ أَكْبَرُهُمْ وَشَمْعُونُ
وَلَاوِي وَيَهُوذَا وَدَانِي وَنَفْتَالِي وَكَادُ وَأَشِيرُ وَأَيْسَاجِرُ وَرَائِيلُونُ وَبَنِيَامِينُ .
وَهُمُ الْأَسْبَاطُ، وَقَدْ اخْتَلَفَ فِيهِمْ فَقِيلَ كَانُوا أَنْبِيَاءَ وَيُقَالُ لَمْ يَكُنْ
فِيهِمْ نَبِيٌّ.
وَأَيْنَمَا الْمُرَادُ بِالْأَسْبَاطِ : قَبَائِلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَدْ كَانَ فِيهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ
عَدَدٌ كَثِيرٌ.

قصة أيوب عليه السلام

وَإِنَّ أَيُّوبَ نَبِيَّ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَام - لَبِثَ بِهِ بَلَاؤُهُ
 وَمرضُهُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَفَضَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ، إِلَّا
 رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ، كَانَا مِنْ أَخَصِّ إِخْوَانِهِ، كَانَا يَغْدُوَانِ
 إِلَيْهِ وَيَزُورَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ ذَاتَ يَوْمٍ: تَعْلَمُ
 وَاللَّهِ، لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ،
 فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟، قَالَ: مُنْذُ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً
 لَمْ يَرْحَمَهُ اللَّهُ فَيَكْشِفَ مَا بِهِ، فَلَمَّا رَاحَا إِلَى أَيُّوبَ، لَمْ
 يَصِيرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ أَيُّوبُ: مَا أَدْرِي
 مَا تَقُولَانِ، غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمُرُّ بِالرَّجُلَيْنِ
 يَتَنَازَعَانِ، فَيَذْكُرَانِ اللَّهَ، فَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي فَأَكْفُرُ عَنْهُمَا،
 كَرَاهِيَةً أَنْ يُذَكِّرَ اللَّهُ إِلَّا فِي حَقٍّ. ودعا أيوب ربه أن

يكشف ما به من ضر، وَكَانَ أَيُّوبُ يُخْرِجُ لِحَاجَتِهِ، فَإِذَا
 قَضَى حَاجَتَهُ، أَمْسَكَتِ امْرَأَتُهُ بِيَدِهِ حَتَّى يَبْلُغَ، فَلَمَّا كَانَ
 ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَ عَلَيْهِا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى أَيُّوبَ أَنْ: {ارْكُضْ
 بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ} (١) فَاسْتَبْطَأَتْهُ،
 فَبَلَغَتْهُ تَنْظُرٌ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ مَا بِهِ مِنْ
 الْبَلَاءِ وَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ، فَهُوَ أَحْسَنُ مَا كَانَ، فَلَمَّا رَأَتْهُ
 قَالَتْ: أَيُّ بَارِكِ اللَّهُ فِيكَ، هَلْ رَأَيْتَ نَبِيَّ اللَّهِ هَذَا
 الْمُبْتَلَى؟ وَاللَّهِ عَلَى ذَلِكَ، مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَشْبَهَ بِهِ
 مِنْكَ إِذْ كَانَ صَحِيحًا، قَالَ: فَإِنِّي أَنَا هُوَ، وَكَانَ لَهُ
 أَنْدَرَانِ: أَنْدَرُ الْقَمْحِ، وَأَنْدَرُ الشَّعِيرِ (٢)، فَبَعَثَ اللَّهُ

(١) يعني : اضرب برجلك الأرض. فاضرب برجله الأرض، فنبع له
 منها ماء يشرب منه ويغتسل، فيذهب ما به من الضر والأذى.

(٢) هو المكان الذى يوضع فيه القمح والشعير.

سَحَابَتَيْنِ، فَلَمَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى أُنْدَرِ الْقَمَحِ،
 أَفْرَغَتْ فِيهِ الذَّهَبَ حَتَّى فَاضَ، وَأَفْرَغَتْ الْأُخْرَى عَلَى
 أُنْدَرِ الشَّعِيرِ الْوَرِقِ^(١) حَتَّى فَاضَ، وَيَيْنَمَا أَيُّوبُ - عَلَيْهِ
 السَّلَامُ - يَغْتَسِلُ عُزْيَانًا، خَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ،
 فَجَعَلَ يَحْتِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ - عز وجل - : يَا أَيُّوبُ،
 أَلَمْ أَكُنْ أَغْنِيكَ عَمَّا تَرَى؟ أَلَمْ يَكْفِكَ مَا أَعْطَيْنَاكَ؟،
 قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، وَلَكِنْ لَا غِنَى لِي عَنْ بَرَكَاتِكَ، عَنْ
 فَضْلِكَ.

وكان أقسم ليضربن زوجته مائة جلدة إذا شفاه
 الله، لما غضب عليها من أمر أثناء مرضه، وكانت امرأة

(١) وهو : الفضة.

صالحة؛ فأوحى الله إليه أن يأخذ بيده حُزمة شماريخ^(١)،
ويضرب بها زوجته ضربة واحدة إبراراً بيمينه، فلا
يحنث. فخفف الله عنهما، وجمعه بأهله جميعاً،
وزاده عليهم مثلهم من البنين والحفدة رحمة به، وجزاءً
له على صبره.

يوسف بن يعقوب عليه السلام

وكان يوسف وشقيقه الأصغر بنيامين هما أصغر
أبناء يعقوب، وَأُعْطِيَ يُوسُفُ وَأُمُّهُ شَطْرَ الْحُسَيْنِ^(٢).

(١) يعني : شماريخ النخل، وهي حزمة من العيدان التي كان عليها
البسر. والتي تكون فيها العذوق.

(٢) أي نصف كمال الجمال البشري، وقيل : نصف جمال آدم عليه
السلام. وأن المقصود بـ (أمه): سارة زوجة إبراهيم عليه السلام، وهي
أم جده إسحاق عليهم السلام.

قال ابن قتيبة : وَالَّذِي عِنْدِي فِي ذَلِكَ، أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، جَعَلَ
لِلْحُسَيْنِ غَايَةً وَحَدًّا، وَجَعَلَهُ لِمَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، إِمَّا لِلْمَلَائِكَةِ، أَوْ لِلْحُورِ

ولما كان يوسف في سن الطفولة أخبر والده يعقوب
عليهما السلام أنه رأى في المنام أحدَ عشرَ كوكبًا
والشَّمْسَ والقَمَرَ يسجدون له، ففهم يعقوب تفضيل
يوسف على إخوته بالنبوة والعلم ، لكنه خشي على
يوسف من حسد إخوته وكيدهم له ومن مكر
الشیطان، فأمره ألا يقص هذه الرؤيا على إخوته.

العين؛ فجعل ليوسف عليه السَّلام نصف ذلك الحُسْن، ونصف ذلك
الكَمَالِ.

وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ جَعَلَ لغيره ثلثه، وَلَا خَرَّ رُبْعَهُ، وَلَا خَرَّ عَشْرَهُ، وَيَجُوزُ
أَنْ لَا يَجْعَلَ لِأَخَرٍ مِنْهُ شَيْئًا.

وَكَذَلِكَ لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّهُ أُعْطِيَ نِصْفَ الشَّجَاعَةِ، لَمْ يَجْزُ أَنْ يَكُونَ
أُعْطِيَ نِصْفَهَا، وَجُعِلَ لِلْخَلْقِ كُلِّهِمُ النِّصْفُ الْآخَرُ. وَلَوْ كَانَ هَذَا هُوَ
الْمَعْنَى؛ لَوَجِبَ أَنْ يَكُونَ الَّذِي أُعْطِيَ نِصْفَ الشَّجَاعَةِ، يُقَاوِمُ الْعِبَادَ
جَمِيعًا وَحْدَهُ.

وَلَكِنْ مَعْنَاهُ: أَنْ لِلشَّجَاعَةِ حَدًّا يَعْلَمُهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَيَجْعَلُهُ لِمَنْ شَاءَ مِنْ
خَلْقِهِ، وَيُعْطِي غَيْرَهُ النِّصْفَ مِنْ ذَلِكَ، وَيُعْطِي لِأَخَرِ الثَّلَاثِ، أَوِ الرُّبْعِ،
أَوِ الْعُشْرِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وتشاكى إخوة يوسف من أبيه فيما بينهم من محبة أبيهم ليوسف وأخاه الشقيق الأصغر بنيامين، وذكر بعضهم أن أباهم يعقوب يُفَضِّلُهما عليهم مع أنهم جماعة أكثر عددًا وأكبر سنًا وأنفع في خدمة أبيهم من يوسف وأخيه. فقال بعضهم : اقتلوا يوسف، أو ألْقُوهُ في أرضٍ مجهولةٍ، بعيدةٍ عن العمران، حتى يَخْلُصَ لكم حُبُّ أبيكم، ولا يَلْتَفِتْ عنكم إلى غيركم، ثم تتوبوا من ذنبكم بعد قَتْلِ يُوسُفَ أو إبعاده. ^(١)

لكن أحدهم نصحهم ألا يقتلوا يوسف، وأن يكتفوا بالقاءه في جوفِ البئرِ حتى يَلْتَقِطَهُ بعضُ المارةِ من المسافرين فيبعد عنهم ويستريحوا منه.

(١) بيَّتوا نية التوبة قبل فعل الذنب.

وبعد اتَّفَقَهم على إبعاده طلب إخوة يوسف من أبيهم أن يأذن في خروج يوسف معهم، وقالوا لأبيهم: يا أبانا ما لك لا تأمُنَّا على يوسف مع أنَّه أخونا، ونحن نريد له الخير، ونُشْفِقُ عليه ونرعاه، ونُخَصِّصُه بِخَالِصِ النُّصْحِ؟ أرسله معنا غداً يأكلُ وَيَنْشَطُ وَيَفْرَحُ، ويلعبُ بالاستِباقِ ونحوه، وإنَّا لحافظون له من كلِّ ما تخافُ عليه.

فقال أبوهم يعقوب: إِنِّي لَيُؤْلِمُ نفسي ذهابكم به، ومُفَارَقَتُهُ لي، وأخشى أن يأكله الذِّئْبُ وأنتم عنه غافلون، فقال إخوة يوسف لوالديهم: لئن أَكَلَهُ الذِّئْبُ ونحن جماعةٌ قويَّةٌ، إِنَّا إِذَا لخاسرون، لا خيرَ فينا، ولا نَفْعَ يُرْجَى مِنَّا.

فلَمَّا أَقْنَعُوا آبَاهُمْ وَطَمَأْنَوْهُ؛ ذَهَبَ إِخْوَةُ يَوْسُفَ بِهِ
وَأَجْمَعُوا عَلَى إِقَائِهِ فِي جَوْفِ الْبَيْتِ، وَفَعَلُوا بِهِ مَا فَعَلُوا
مِنَ الْأَذَى، وَأَخَذُوا مِنْهُ قَمِيصَهُ، وَذَبَحُوا سَخْلَةَ (شاة
وليدة) فَأَخَذُوا دَمَهَا فَلَطَخُوا بِهِ الْقَمِيصَ، وَأَوْحَى اللَّهُ
إِلَى يَوْسُفَ أَنَّهُ سَيُخْبِرُ إِخْوَتَهُ مُسْتَقْبَلًا بِفِعْلِهِمْ هَذَا
الَّذِي فَعَلُوهُ بِهِ، وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ أَخُوهُمْ يَوْسُفَ.

ثُمَّ رَجَعَ إِخْوَةُ يَوْسُفَ إِلَى آبِيهِمْ فِي وَقْتِ الْعِشَاءِ
يَتَبَاكُونَ، وَأَتَوْا فِي وَقْتِ الظُّلْمَةِ حَتَّى لَا يَرَى أَعْيُنُهُمْ
وَيَدْرِكُ تَحَايِلَهُمْ، وَهُمْ يُظْهِرُونَ الْأَسْفَ وَالْجَزَعَ، وَقَالُوا:
يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَتَسَابَقُ، وَتَرَكْنَا يَوْسُفَ عِنْدَ زَادِنَا
وَشْيَابِنَا فَأَكَلَهُ الذَّبُّ، وَنَعْلَمُ أَنَّكَ لَنْ تَصْدُقَنَا. ثُمَّ جَاءُوا
بِقَمِيصِهِ مُلَطَّخًا بِدَمَاءِ لَيْسَتْ بِدَمِ يَوْسُفَ؛ لِكِي يَبْرَهِنُوا

صَدَقَهُمْ، وَقِيلَ أَنَّهُمْ: نَسُوا أَنْ يَمْزُقُوا الْقَمِيصَ، فَكَانَ دَلِيلًا عَلَى كَذِبِهِمْ، فَكَيْفَ يَأْكُلُ الذُّبُّ طِفْلًا دُونَ تَمْزِيقِ قَمِيصِهِ؟!

فَقَالَ لَهُمْ أَبُوهُمْ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُونَ، بَلْ زَيَّنْتَ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ الْأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ أَمْرًا قَبِيحًا فِي يَوْسُفَ، فَرَأَيْتُمُوهُ حَسَنًا وَفَعَلْتُمُوهُ، فَصَبْرِي صَبْرٌ جَمِيلٌ لَا شَكْوَى مَعَهُ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ، وَأَسْتَعِينُ بِاللَّهِ عَلَى احْتِمَالِ مَا تَصِفُونَ مِنَ الْكَذِبِ، لَا عَلَى حَوْلِي وَقَوَّيْ.

ثُمَّ جَاءَتْ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُسَافِرِينَ فَأَرْسَلُوا مَنْ يَطْلُبُ لَهُمُ الْمَاءَ، فَلَمَّا أَنْزَلَ دَلْوَهُ فِي الْبُئْرِ لِيَحْضُرَ الْمَاءَ؛ تَعَلَّقَ بِهَا يَوْسُفُ، فَقَالَ ذَلِكَ الْوَارِدُ: يَا بُشْرَايَ هَذَا غَلَامٌ. وَأَخْفَى

أولئك المسافرون أمرَ يوسُفَ، وجعلوه بضاعةً وعزَموا على بيعه، وأخذوه معهم من فلسطين وباعوه في مصر بثَمَنٍ قليلٍ مِنَ الدَّرَاهِمِ^(١)، وكانوا زاهدين فيه، راغبين في التخلُّص منه، واشترَّاه منهم عزيزُها- وهو الوزير- وقال لامرأته: أحسني مُعامَلته، واجعلي مَقامه عندنا كريماً؛ لعلَّنا نستفيدُ من خِدمته أو نتبناه.

وبذلك أنجى اللهُ يوسُفَ مِنَ الجُبِّ (البئر)، وجعلَ وزيرَ «مصر» يعطِفُ عليه، وعَلَّمَه اللهُ تفسيرَ الرُّؤى، ومعاني كُتُبِ اللهِ وسُنَنَ الأنبياء. ولَمَّا بلغ يوسُفُ

(١) قيل : أنه لما اسْتَشْعَرَ إِخْوَةُ يُوسُفَ بِأَخْذِ السَّيَّارَةِ لَهُ لِحَقْوِهِمْ، وَقَالُوا: "هَذَا غُلَامُنَا أَبَقَ مِنَّا". فَاشْتَرَوْهُ مِنْهُمْ بِثَمَنٍ بَخْسٍ؛ أَي: قَلِيلٍ نَزَرَ.

مُنْتَهَى قُوَّتِهِ فِي شَبَابِهِ أَعْطَاهُ اللَّهُ النَّبُوَّةَ وَالْعِلْمَ، جَزَاءً
عَلَى إِحْسَانِهِ وَصَبْرِهِ.

ولما كان يوسف بالغ الحسن والجمال تعلقت امرأة
الوزير بحبه وخططت لإيقاعه في معاشرتها، فتهيات
وتزينت ودعته إلى نَفْسِهَا، وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ عَلَيْهَا وَعَلَى
يُوسُفَ، وَقَالَتْ: هَلُمَّ إِلَيَّ، فَقَالَ: مَعَاذَ اللَّهِ! أَعْتَصِمُ بِهِ
وَأَسْتَجِيرُ مِنَ الَّذِي تَدْعِينِي إِلَيْهِ مِنْ خِيَانَةِ سَيِّدِي
الَّذِي أَحْسَنَ مَنَزِلَتِي وَأَكْرَمَنِي، فَلَا أَخُونُهُ فِي أَهْلِهِ؛ إِنَّهُ
لَا يُفْلِحُ مَنْ ظَلَمَ فَفَعَلَ مَا لَيْسَ لَهُ فِعْلُهُ.

ولما استنفدت خططها وحيلها ولم تحصل على ما
تريد منه؛ غضبت من امتناعه وتحفظه، وهَمَّتْ أَنْ
تضربه على تَمَنُّعِهِ وَعَصْيَانِهِ أَوْامِرَهَا وَهِيَ امْرَأَةٌ سَيِّدَةٌ،

وهمّ يوسف أن يدفعها أو يضربها لغضبه من شناعة ما بدر منها وإصرارها على السوء وإيقاعه فيه، مع أنه وعظها ونبها إلى شناعة ما تدعوه إليه، لكنه - بما علّمه الله من حسن التدبير - أدرك أن بذل قوته في دفعها عن نفسه قد يكون له أثر في اتهامه بالسوء، وقد يُحسب عليه دليلاً وبرهاناً يوهم أنه هو المعتدي الذي يريد النيل من شرف المرأة الأضعف، وأن ترك ضربها وترك دفعها عن نفسه والإعراض عنها والسعي في الخروج من المكان حتى تكون هي التي تعتدي عليه فإنه سيكون دليلاً وبرهاناً على نزاهته، فرأى بعد الوعظ أن يكتفي بالإعراض عنها والانصراف عنها أسرع ما يمكن؛ فإن خرج من ذلك المكان في تلك الحال كان أسلم له،

وإن اعتدت عليه كان دليلاً على براءته، وهذا من فضل الله وتعليمه لنبيه، فهو سبحانه يصرف عن نبيه السوء والفاحشة في جميع أموره؛ فيوسف من الأنبياء المُطَهَّرِينَ الْمُصْطَفَيْنَ لِلرَّسَالَةِ، الذين أخلصهم الله من الشُّركِ والسُّوءِ والفحشاء.

وأسرع يوسفُ إلى البابِ يريدُ الخروجَ، وأسرعت غاضبةٌ تُحاولُ الإمساكَ به، وجذبت قميصه من خلفه؛ لتحولَ بينه وبين الخروجِ فشَقَّتْهُ، ووجدت زوجها عند البابِ، فبادرت المرأةُ محاولةً إبراءِ نفسها واتهمت يوسفَ وقالت لزوجها: ما جزاءُ مَنْ أرادَ بامرأتك سوءاً إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ يُعَذَّبَ الْعَذَابَ الْمُوجِعَ. وقال يوسفُ

-مدافعاً عن نفسه- : هي التي طلبت وحاولت
وامتنعت منها.

فأرسل الوزير إلى محقق أمين من أهل امرأته ليحقق
في هذا الأمر، فحقق في الأمر ولم يجد أثراً للاعتداء على
المرأة مع أن قميص يوسف مشقوق ، وبعد التحقيق
والنظر قال المحقق في حكمه للوزير: إن كان قميصُ
يوسف شُقَّ من الأمام فصَدَقَتْ في اتِّهامِها له حيث
يكون أرادها وهي امتنعت وشقت قميصه من الأمام
عند الدفاع عن نفسها ، وإن كان قميصُ يوسف شُقَّ
من الخلفِ فكذَّبت في قولِها، فتكون هي التي أرادته وهو
معرض عنها ، وهو من الصَّادقين. فلمَّا رأى الوزير
قميصَ يوسفَ شُقَّ من خَلْفِهِ عَلِمَ براءةَ يوسفَ، وقال

لزوجته: إِنَّ هَذَا الْكَذِبَ الَّذِي اتَّهَمْتَ بِهِ هَذَا الشَّابَّ
 هُوَ مِنْ جَمَلَةِ مَكْرُكِّنَ - أَيُّهَا النَّسَاءُ - إِنَّ مَكْرُكِّنَ عَظِيمٌ،
 وَقَالَ لِيُوسُفَ: يَوسُفُ، اتْرُكْ ذِكْرَ مَا كَانَ مِنْهَا، فَلَا
 تَذْكُرْهُ لِأَحَدٍ، وَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: اطْلُبِي - أَيُّهَا الْمَرْأَةُ - الْمَغْفِرَةَ
 لَذَنْبِكَ؛ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْآثِمِينَ فِي مُرَاوِدَةِ يَوسُفَ عَنْ
 نَفْسِهِ، وَفِي افْتِرَائِكَ عَلَيْهِ.

وَمَعَ هَذَا التَّكْتُمِ فَقَدْ تَسَرَّبَ وَشَاعَ خَبْرُ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ،
 وَتَحَدَّثَ بِهِ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ وَاعْتَبَنَ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ وَقُلْنَ
 مُنْكَرَاتٍ عَلَيْهَا: امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ عُלَامَهَا عَنْ نَفْسِهِ،
 وَتَدْعُوهُ إِلَى نَفْسِهَا، وَقَدْ بَلَغَ حُبُّهَا لَهُ مَبْلَغًا عَظِيمًا، إِنَّا
 لَنَرَاهَا فِي هَذَا الْفِعْلِ فِي ضَلَالٍ وَاضِحٍ. وَقَدْ مَكَرَ النِّسْوَةُ
 بِهَذَا الْقَوْلِ لِرَغْبَتِهِنَّ أَنْ يَصِلَ هَذَا الْكَلَامُ إِلَى امْرَأَةِ الْعَزِيزِ

فترىهم يوسف وجماله. فلما سمعت امرأة العزيز
 بغيبتهن إياها، واحتيالهن في ذمها، أرسلت إليهن
 تدعوهن لزيارتها، وهيات لهن ما يتكفن عليه من
 الوسائد، وما يأكلنه من الطعام، وأعطت كل واحدة
 منهن سكيناً؛ ليقطعن الطعام، ثم قالت ليوسف: اخرج
 عليهن، فلما رأينه أعظمته وأجللته، وأخذهن حسنه
 وجماله، فجرحن أيديهن وهن يقطعن الطعام؛ من
 فرط النظر إليه والدّهشة والذهول، وقُلن مُتَعَجِّبات:
 معاذ الله، ما هذا من جنس البشر؛ لأنّ جماله غير
 معهود في البشر، ما هو إلا ملك كريم من الملائكة.

عندها أبدت امرأة العزيز عذرها في مراودة يوسف
 من شدة جماله، وقالت للنسوة اللاتي قطعن أيديهن:

فهذا- الذي أصابَكَ لمجرد رؤيتِكَ إِيَّاه - هو الفتى الذي لُمْتُني في الافتتانِ به، ولقد راودته عن نفسه، فامتنع وأبى، ولئن لم يفعلْ ما أمَّره به لُيعاقَبَنَّ بدخولِ السَّجْنِ، وليكونَنَّ مِنَ الْأَذْلَاءِ. وكانت تُسمِعُ يوسفَ هذا الكلامَ مهددة له أمامهن، فكأنهن أشرن على يوسف أن يجيبها لما تريد وألا يعرض نفسه للسجن والأذى.

فقال يوسفُ مُستعيذاً مِنْ شَرِّهِنَّ وَمَكْرِهِنَّ: رَبِّ، السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ممَّا يدعونني إليه مِنْ عَمَلِ الْفَاحِشَةِ، وَإِنْ لَمْ تَدْفَعْ عَنِّي مَكْرَهُنَّ أَمَلُ إِلَيْهِنَّ، وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ، فاستجاب اللهُ ليوسفَ دعاءَه، فصرف عنه ما أرادت منه امرأةُ العزيزِ وصَواحِبَاتُهَا مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ، فهو سبحانه سميعٌ عليمٌ.

ثمَّ ظهر للعزیز وأصحابه - من بعد ما رأوا الأدلَّة على براءة یوسف وعِفَّتِه - أن یسجُنوا یوسف إلى مُدَّةٍ مِنَ الزَّمن؛ لینقَطِعَ بذلك الخبرُ، ویتناساه النَّاسُ.

ودخل مع یوسف علیه السلام السجَنَ فُتَیان، قال له أحدهما: إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَعَصِرُ عِنَبًا لِيَصِيرَ خَمْرًا، وَقَالَ الْآخَرُ: إِنِّي رَأَيْتُ أَنِّي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ، أَخْبَرْنَا - يَا یوسفُ - بِتَفْسِيرِ مَا رَأَيْنَا، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ. قَالَ لَهُمَا یوسفُ: لَا تَرِيَانِ فِي مَنَامِكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا أَخْبَرْتُكُمَا بِتَفْسِيرِهِ فِي الْيَقَظَةِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا، ذَلِكَ التَّعْبِيرُ الَّذِي سَأَعْبُرُهُ لَكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي؛ إِنِّي آمَنْتُ بِهِ، وَأَخْلَصْتُ لَهُ الْعِبَادَةَ، وَابْتَعَدْتُ عَنِ دِينِ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَهُمْ بِالْبَعْثِ

وَالْحِسَابِ جَاهِدُونَ، وَاتَّبَعْتُ دِينَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، فَعَبَدْتُ اللَّهَ وَحْدَهُ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ
نَجْعَلَ لِلَّهِ شَرِيكًا فِي عِبَادَتِهِ، ذَلِكَ التَّوْحِيدُ بِإِفْرَادِ اللَّهِ
بِالْعِبَادَةِ، مِمَّا تَفَضَّلَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ الَّذِينَ
جَعَلْنَا دُعَاءَ لَهُمْ إِلَى تَوْحِيدِهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَشْكُرُونَ.

وَأَخَذَ يُوسُفُ يَدْعُوهُمَا إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَيُبَيِّنُ لَهُمَا
الدين الحق، وقال لهما: يَا سَاكِنِي السَّجْنِ، أَعِبَادَةُ آلِهَةٍ
مَخْلُوقَةٍ شَتَّى خَيْرٌ أَمْ عِبَادَةُ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ؟ مَا
تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ لَا مَعَانِيَ وَرَاءَهَا،
جَعَلْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ أَرْبَابًا، جَهْلًا مِنْكُمْ وَضَلَالًا، مَا
أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ حُجَّةٍ أَوْ بَرَهَانٍ عَلَى صِحَّتِهَا، وَمَا الْحُكْمُ إِلَّا

لله تعالى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، هو سبحانه أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا
أَحَدًا غَيْرَهُ، وهذا هو الدِّينُ الْقَيِّمُ الَّذِي لَا عِوَجَ فِيهِ،
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يَجْهَلُونَ ذَلِكَ، فَلَا يَعْلَمُونَ حَقِيقَتَهُ.

ثم فسر لهما رؤياهما بقوله: أَمَّا أَحَدُكُمَا فَإِنَّهُ يُخْرَجُ
مِنَ السَّجْنِ، وَيَكُونُ سَاقِيَ الْخَمْرِ لِلْمَلِكِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَإِنَّهُ
يُصَلِّبُ وَيُتْرَكُ، فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ، فُرِغَ مِنْ تَأْوِيلِ
رُؤْيَاكُمَا وَهُوَ وَاقِعٌ بِقَضَاءِ اللَّهِ، وَقَالَ يَوْسُفُ لِلَّذِي عَلِمَ
أَنَّهُ نَاجٍ مِنْ صَاحِبِيهِ: اذْكُرْنِي عِنْدَ سَيِّدِكَ الْمَلِكِ،
وَأَخْبِرْهُ بِأَنِّي مُظْلومٌ، قَدْ سُجِنْتُ بِلَا ذَنْبٍ، فَأَنْسَى
الشَّيْطَانُ ذَلِكَ الرَّجُلَ أَنْ يَذْكُرَ لِلْمَلِكِ حَالَ يَوْسُفَ،
فَمَكَثَ يَوْسُفُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي السَّجْنِ عِدَّةَ سَنَوَاتٍ.

وبعد تلك السنين جمع ملك مصر أهل الشورى
والعلم وقال لهم: إِنِّي رَأَيْتُ فِي مَنَامِي سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ،
يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ بَقَرَاتٍ نَحِيلَاتٍ مِنَ الْهَزَالِ، وَرَأَيْتُ سَبْعَ
سُنْبُلَاتٍ خُضِرَ، وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ يَابَسَتْ يَلْتَفِفْنَ عَلَى
السُّنْبُلَاتِ الْخَضِرِ وَيَسْقُطْنَهُنَّ، يَا أَيُّهَا الْأَشْرَافُ وَالْكَبَرَاءُ
أَخْبِرُونِي عَنْ هَذِهِ الرُّؤْيَا، إِنْ كُنْتُمْ عَلَى عِلْمٍ بِتَفْسِيرِ
الرُّؤْيَى. فَقَالُوا لَهُ: رُؤْيَاكَ هَذِهِ أَخْلَاطٌ مِنَ الْأَحْلَامِ لَا
تَأْوِيلَ لَهَا، وَمَا نَحْنُ بِتَفْسِيرِ الْأَحْلَامِ الْمُخْتَلِطَةِ بِعَالَمِينَ،
وَهُنَا تَذَكَّرُ سَاقِي الْمَلِكِ -وَهُوَ الَّذِي نَجَا مِنَ الْفَتَيَيْنِ
الَّذَيْنِ كَانَا فِي السَّجَنِ مَعَ يُوسُفَ- أَنْ يُوسِفَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ يَتَقَنَّ تَأْوِيلَ الرُّؤْيَى، فَقَالَ لِلْمَلِكِ وَمَنْ مَعَهُ: أَنَا
أَخْبِرُكُمْ بِتَأْوِيلِ هَذِهِ الرُّؤْيَا، فَابْعَثُونِي إِلَى يُوسُفَ

المسجون؛ لآتيكم بتفسيرها. وعندما وصل الرَّجُلُ إلى يوسفَ قال له: يا يوسفُ يا أَيُّها الصَّدِّيقُ فسِّرْ لنا رؤيا مَنْ رَأَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ بَقَرَاتٍ هَزِيلَاتٍ، ورَأَى سَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضِرَ وَأُخِرَ يَابَسَاتٍ؛ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى الْمَلِكِ وَأَصْحَابِهِ فَأُخْبِرُهُمْ؛ لِيَعْلَمُوا تَأْوِيلَ مَا سَأَلْتُكَ عَنْهُ، وَلِيَعْلَمُوا مَكَانَتَكَ وَعِلْمَكَ وَفَضْلَكَ.

فقال يوسفُ لسائِلِهِ عَنْ رُؤْيَا الْمَلِكِ: تَفْسِيرُ هَذِهِ الرُّؤْيَا هُوَ أَنَّكُمْ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ مُتَتَابِعَةً جَادِّينَ لِيَكْثُرَ الْعَطَاءُ، فَمَا حَصَدْتُمْ مِنْهُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ فَادَّخِرُوهُ وَاتْرَكُوهُ فِي سُنْبُلِهِ؛ لِئَلَّا يَفْسُدَ، إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَهُ مِنَ الْحُبُوبِ. ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ هَذِهِ السَّنِينَ الْخِصْبَةِ سَبْعُ سِنِينَ شَدِيدَةُ الْجَدْبِ، يُؤْكَلُ فِيهِنَّ كُلُّ مَا ادَّخَرْتُمْ لِهِنَّ مِنْ قَبْلُ، إِلَّا

قليلًا ممَّا تحفظونه وتدخرونه. ثمَّ يأتي من بعد هذه
السَّنينِ المُجْدِبةِ عامٌ يُمَطِّرُ فيه النَّاسُ مطرًا يغيثهم
ويروي أراضِيهم، فيرفعُ اللهُ تعالى عنهم الشَّدَّةَ،
ويَعْصِرُونَ فيه الثَّمَارَ؛ من كثرةِ الخُصْبِ والنِّماءِ.

ولَمَّا عَلِمَ الْمَلِكُ بتأويلِ رؤياه قال لأَعوانِهِ: أخرجوا
هذا الرَّجُلَ المَعْبَرُ للرُّؤيا من السَّجَنِ، وأحضروه لي، فلمَّا
جاءه رسولُ الْمَلِكِ يدعوه، قال يوسُفُ للرَّسولِ: ارجعْ
إلى سَيِّدِكَ الْمَلِكِ، واطْلُبْ منه أن يسألَ النَّسوةَ اللَّاتِي
جَرَحْنَ أَيْدِيَهُنَّ عن حَقِيقَةِ أَمْرِهِنَّ وشأنِهِنَّ معي؛ لتظهرَ
الحَقِيقَةُ للجميع، وتُتَّضَحَ براءتي، إِنَّ رَبِّي عَلِيمٌ بِصَنيعِهِنَّ
وأفعالِهِنَّ، لا يخفى عليه - سُبْحانَه - شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ. فدعا
الْمَلِكُ النَّسوةَ اللَّاتِي جَرَحْنَ أَيْدِيَهُنَّ، وقال لهنَّ: ما

شأنكَّ حين راودتَّ يوسفَ عن نفسه يومَ الضَّيافة؟
 فهل رأيتَ منه ما يريبُ؟ قلن: معاذَ الله ما عَلِمْنَا عليه
 أدنى شيءٍ يَشِينُهُ، عند ذلك قالت امرأةُ العزيز: الآنَ
 ظهرَ الحقُّ بعدَ خفائه، فأنا التي حاولتُ فِتْنَتَهُ بِإِغْرَائِهِ
 فامتنعَ، وإنَّه لَمِنَ الصَّادِقِينَ في كُلِّ ما قاله، ذلك القولُ
 الذي قلَّته في تنزيهه والإقرارِ على نفسي؛ ليعلمَ يوسفُ
 أنَّي لم أخنه بالكذبِ عليه حالَ غيبته عني، وأنَّ اللهَ لا
 يُوفِّقُ أهلَ الخيانة، ولا يُرشِدُهم في خيانتِهِم، وما أَرْكِي
 نفسي ولا أُبرِّئُها؛ إِنَّ النَّفْسَ لكثيرةُ الأمرِ لصاحبِها بعملِ
 المعاصي؛ طلباً لملذَّاتِها، إلَّا مَنْ عصمه الله، إِنَّ اللهَ
 غفورٌ لذنوبٍ مَنْ تاب من عباده، رحيمٌ بهم.

و حين عَلِمَ مَلِكُ مِصْرَ بَرَاءَةَ يَوْسُفَ قال: جيئوني
 به أَجْعَلْهُ مِن خُلَصَائِي وَأَهْلِ مَشُورَتِي، فَلَمَّا جاء
 يَوْسُفُ، وَكَلَّمَهُ الْمَلِكُ، وَعَرَفَ بَرَاءَتَهُ، وَعَظِيمَ أَمَانَتِهِ،
 وَحُسْنَ خُلُقِهِ وَجَلِيلَ عِلْمِهِ؛ قال له: إِنَّكَ الْيَوْمَ عِنْدَنَا
 عَظِيمُ الْمَكَانَةِ، وَمُؤْتَمَنٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَأَرَادَ يَوْسُفُ أَنْ
 يَنْفَعَ الْعِبَادَ، وَيُقِيمَ الْعَدْلَ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ: اجْعَلْنِي
 وَالِيًّا عَلَى خَزَائِنِ مِصْرَ؛ فَإِنِّي خَازِنٌ أَمِينٌ، ذُو عِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ
 بِمَا أَتَوَّلَاهُ. وَكَذَلِكَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى يَوْسُفَ بِالْخُلَاصِ مِنَ
 السَّجْنِ، وَمَكَّنَ لَهُ فِي أَرْضِ مِصْرَ يَنْزِلُ مِنْهَا أَيَّ مَنَزِلٍ
 شَاءَ، وَجَعَلَهُ عَزِيزَ مِصْرَ وَالْوَالِيَّ عَلَى خَزَائِنِهَا.

ثم قَدِمَ إِخْوَةُ يَوْسُفَ إِلَى مِصْرَ بَعْدَ أَنْ حَلَّ بِهِم
 الْجَدْبُ فِي أَرْضِهِمْ؛ لِيَجْلِبُوا مِنْهَا الطَّعَامَ، فَدَخَلُوا عَلَى

يوسفَ، فعَرَفَهُمْ لَأَنَّهُ رَأَاهُمْ كِبَارًا وَلَمْ يَتَغَيَّرُوا كَثِيرًا وَلَمْ يَعْرِفُوهُ هُمْ لَطُولِ الْمَدَّةِ حَيْثُ فَارَقَهُمْ طِفْلاً صَغِيرًا وَقَدْ شَبَّ وَتَغَيَّرَتْ هَيْئَتُهُ. فَأَمَرَ يَوْسُفُ بِإِكْرَامِهِمْ وَحُسْنِ ضِيَافَتِهِمْ، ثُمَّ أَعْطَاهُمْ مِنَ الطَّعَامِ مَا طَلَبُوا، وَسَلَّاهُمْ عَنْ أَهْلِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ وَعَدَدِهِمْ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ لَهُمْ أَخًا مِنْ أَبِيهِمْ لَمْ يُحْضِرُوهُ مَعَهُمْ - يُعْنُونَ شَقِيقَهُ - فَقَالَ: فِي الْمَرَّةِ الْقَادِمَةِ اسْتُونِي بِأَخِيكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ، أَلَمْ تَرَوْا أَنِّي أُوفِيتُ لَكُمْ الْكَيلَ، وَأَكْرَمْتُكُمْ فِي الضَّيَافَةِ، وَأَنَا خَيْرُ الْمُضْطَفِينَ لِمَنْ نَزَلَ بِي؟ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَيْسَ لَكُمْ عِنْدِي طَعَامٌ أَكِيلُهُ لَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا إِلَيَّ. فَقَالُوا: سَنَبْذُلُ جُهْدَنَا لِإِقْنَاعِ أَبِيهِ أَنْ يُرْسِلَهُ مَعَنَا، وَلَنْ نُقْصَرَ فِي ذَلِكَ. وَقَالَ يَوْسُفُ لِغُلَامَانِهِ: أَعِيدُوا لَهُمُ الثَّمَنَ الَّذِي دَفَعُوهُ وَاجْعَلُوهُ فِي

أَمْتَعْتِهِمْ سِرًّا مَعَ مَا أَعْطَيْنَاهُمْ مِنَ الْبُضَائِعِ؛ رَجَاءً أَنْ
يَعْرِفُوا إِذَا انْصَرَفُوا إِلَى أَهْلِهِمْ وَفَتَحُوا أَمْتَعَتَهُمْ هُنَاكَ؛ أَنَا
أَكْرَمْنَاهُمْ وَضَيْفْنَاهُمْ وَأَوْفَيْنَا لَهُمْ أَفْضَلَ الْكَيْلِ
وَالْبُضَاعَةِ وَأَعَدْنَا لَهُمُ الثَّمَنَ فَلَمْ نَأْخُذْ مِنْهُمْ شَيْئًا مُقَابِلَ
كُلِّ ذَلِكَ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَدْعَى لَهُمْ فِي الرَّجُوعِ إِلَيْنَا مَرَّةً
أُخْرَى.

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى آبِيهِمْ قَضَوْا عَلَيْهِ مَا كَانَ مِنْ إِكْرَامِ
الْوَزِيرِ لَهُمْ، وَقَالُوا: إِنَّهُ لَنْ يُعْطِيَنَا مُسْتَقْبَلًا إِلَّا إِذَا كَانَ
مَعَنَا أَخُونَا -بَنِيَامِينَ- حَيْثُ أَخْبَرَنَا بِهِ، فَأَرْسَلَهُ مَعَنَا
نُحْضِرُ الطَّعَامَ وَافِيًا، وَنَتَعَهَّدُ لَكَ بِحِفْظِهِ. فَقَالَ لَهُمْ
أَبُوهُمْ: كَيْفَ آمَنُكُمْ عَلَى بَنِيَامِينَ وَقَدْ أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ
يُوسُفَ مِنْ قَبْلُ، وَالتَزَّمْتُ بِحِفْظِهِ فَلَمْ تَقُوا بِذَلِكَ؟! فَلَا

أَثِقْ بِالتَّزَامِكُمْ وَحِفْظِكُمْ، وَلَكِنِّي أَثِقُ بِحِفْظِ اللَّهِ؛ خَيْرِ
الْحَافِظِينَ، وَأَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ.

وَلَمَّا فَتَحُوا أَوْعِيَّتَهُمْ وَجَدُوا ثَمَنَ بَضَاعَتِهِمُ الَّذِي
دَفَعُوهُ قَدْ رُدَّ إِلَيْهِمْ، قَالُوا: يَا أَبَانَا مَاذَا نَطْلُبُ أَكْثَرَ مِنْ
هَذَا؟! هَذَا ثَمَنُ بَضَاعَتِنَا رَدَّهُ الْعَزِيزُ إِلَيْنَا، فَكُنْ مُطْمَئِنًّا
عَلَى أَخِينَا، وَأَرْسَلَهُ مَعَنَا؛ لِنَجْلِبَ طَعَامًا وَفِيرًا لِأَهْلِنَا،
وَنَحْفَظَ أَخَانَا، وَنَزْدَادَ حِمْلٍ بَعِيرٍ لَهُ؛ فَإِنَّ الْعَزِيزَ يَكِيلُ
لِكُلِّ وَاحِدٍ حِمْلَ بَعِيرٍ، وَذَلِكَ كَيْلٌ يُسِيرُ عَلَيْهِ. فَقَالَ لَهُمْ
يَعْقُوبُ: لَنْ أَتْرُكَهُ يَذْهَبُ مَعَكُمْ حَتَّى تَتَعَهَّدُوا وَتَحْلِفُوا
لِي بِاللَّهِ أَنْ تَرُدُّوهُ إِلَيَّ، إِلَّا أَنْ تُغْلَبُوا عَلَيْهِ فَلَا تَسْتَطِيعُوا
تَخْلِيصَهُ، فَلَمَّا أَعْطَوْهُ عَهْدَ اللَّهِ عَلَى مَا طَلَبَ، قَالَ

يعقوبُ: اللهُ على ما نقولُ وكيلٌ، تكفينا شهادته علينا،
وحفظه لنا.

ولَمَّا أرادوا الدَّهَابَ إلى مصرَ خاف عليهم يعقوب
من العين، وأمرهم بالأخذ بالأسباب. وقال لهم: يا
أبنائي إذا دخلْتُم مدينةَ مصرَ فلا تدخلوا من بابٍ واحدٍ،
ولكن ادخلوها من أبوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ، وإني إذ أُوصيكم بهذا
لا أدفعُ عنكم شيئاً قضاه اللهُ عليكم، فما الحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ
وَحَدَهُ، عليه اعْتَمَدْتُ وَوَثِقْتُ، وعليه وَحَدَهُ يتوكَّل
المؤمنونَ.

ولَمَّا دخلَ إخوةُ يوسفَ عليه في مَنْزِلِ ضيافته
ومعهم شقيقه، ضَمَّ يوسفُ إليه شقيقه، وقال له سِرًّا:
إني أنا أخوك فلا تحزنْ، ولا تغتمَّ بما صنعوه بي وبك فيما

مضى، وأمره بكتمان ذلك عنهم، فلمَّا جهَّزهم يوسفُ،
 وحملَ إبلهم بالطَّعام، جعلَ الإناءَ- الَّذي يشربُ فيه
 المَلِكُ ويكيلُ للنَّاسِ به (الصَّواع)^(١) - في متاع أخيه
 الشَّقِيقِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ أَحَدٌ، وَلَمَّا رَكَبُوا لِيَسِيرُوا
 نادى مُنَادٍ قَائِلًا: يَا أَصْحَابَ هَذِهِ الْعِيرِ الْمُحْمَلَةِ
 بِالطَّعامِ، إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ، فقال أولادُ يعقوبَ مُقْبِلِينَ عَلَى
 الْمُنادي: مَا الَّذِي تَفْقِدُونَهُ؟ قَالَ الْمُنادي وَمَنْ
 بِحَضْرَتِهِ: نَفَقْدُ الْإِنَاءِ الَّذِي يَشْرَبُ فِيهِ الْمَلِكُ، وَيَكِيلُ
 بِهِ الطَّعامَ، وَمُكَافَأَةٌ مَنْ يُحْضِرُهُ مِقْدَارُ حِمْلٍ بَعِيرٍ مِنْ

(١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ {صَوَاعَ الْمَلِكِ} كَانَ كَهَيْئَةِ الْمَكْوِ، وَكَانَ لِلْعَبَّاسِ
 مِثْلُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَشْرَبُ فِيهِ. فَالصَّوَاعُ مِكْيَالٌ وَهُوَ: الْمُدُّ. وَيُسَمَّى
 الْمَكْوُ بِالْفَارِسِيَّةِ.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: هُوَ الْمَكْوُ الْفَارِسِيُّ الَّذِي يَلْتَقِي طَرَفَاهُ،
 كَانَ يَشْرَبُ فِيهِ الْأَعَاجِمُ.

الطَّعام، وقال المنادي: وأنا ضامنٌ هذه المكافأة لمن يأتي به.

فقال إخوة يوسف: لقد تحقَّقتم ممَّا شاهدتموه ممَّا
أنَّنا ما جئنا أرض مصر من أجلِ الإفسادِ فيها، وليست
السَّرقَةُ من صفاتِنَا، و -بأمر يوسف- قال المُنادي
ومَن معه لإخوة يوسف: فما عُقوبةُ السَّارقِ عنْدكم إن
كنتم كاذبينَ في قولكم؟ فقال إخوة يوسف: جزاءُ
السَّارقِ عنْدنا في شريعتنا أن يُسلَّم إلى مَنْ سرقَ منه؛
حتَّى يكون عبدًا عنده، مثلَ هذا الجزاءِ - وهو
الاستِرقاقُ - نَجْزي الظَّالِمِينَ بالسَّرقَةِ، وهذا ديننا وسُنَّتُنا
في أهلِ السَّرقَةِ.

فرجع إخوة يوسف إليه، وقام يوسف بنفسه
يُفتِّش أمتعتهم، فبدأ بأمتعتهم قبل متاع شقيقه؛
إحكاماً لما دبره لاستبقاء أخيه معه، ثم انتهى بوعاء
أخيه، فاستخرج الإناء (الصواع) منه، كذلك يسر الله
ليوسف هذا التدبير الذي توصل به لأخذ أخيه بإقرار
إخوته وحسب شريعتهم، وما كان له أن يأخذ أخاه في
حكم ملك مصر - لأنه ليس من دينه أن يتملك
السارق - ، لكن الأمر تم ليوسف بمشيئة الله، فقد كاد
الله وقدّر لمصلحة يوسف، حتى يتمكن من أخذ
شقيقه من إخوته، بناءً على شريعتهم، وإقرارهم
بأنفسهم.

فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَرْفَعُ مَنَازِلَ مَنْ يَشَاءُ فِي الدُّنْيَا عَلَى
غَيْرِهِ بِالْعِلْمِ وَالتَّدْبِيرِ، كَمَا رَفَعَ مَنزِلَةَ يَوْسُفَ، وَفَوْقَ كُلِّ
ذِي عِلْمٍ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ، حَتَّى يَنْتَهِيَ الْعِلْمُ إِلَى اللَّهِ
تَعَالَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ.

وَلَمَّا اسْتُخْرِجَ الصُّوَاعُ مِنْ رَحْلِ أَخِيهِمْ قَالَ إِخْوَةُ
يَوْسُفَ: إِنَّ سَرَقَ هَذَا فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ شَقِيقٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ -
يَقْصِدُونَ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ- فَأَخْفَى يَوْسُفُ فِي
نَفْسِهِ كَلِمَةً حَدَّثَ نَفْسَهُ بِهَا قَائِلًا: أَنْتُمْ أَسْوَأُ مَنَزَلَةً مِمَّنْ
ذَكَرْتُمْ؛ حَيْثُ دَبَّرْتُمْ لِي مَا كَانَ مِنْكُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
تَصِفُونَ مِنَ الْكَذِبِ وَالْإِفْتِرَاءِ.

ثم تذكر إخوة يوسف ميثاقهم مع أبيهم أن يعيدوا
بنيامين إليه، فقالوا ليوסף مُستعطفين: يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ،

إِنَّ لَهُ وَالِدًا كَبِيرًا فِي السَّنِّ يُحِبُّهُ، وَلَا يُطِيقُ بُعْدَهُ، فَخُذْ أَحَدَنَا بَدَلًا مِنْهُ؛ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ. فَقَالَ يَوْسُفُ: نَسْتَعِيدُ بِاللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ أَحَدًا غَيْرَ الَّذِي وَجَدْنَا الصُّوَاعَ عِنْدَهُ؛ فَإِنَّا نَكُونُ فِي عِدَادِ الظَّالِمِينَ إِنْ فَعَلْنَا مَا تَطْلُبُونَ. فَلَمَّا يَبْسُوْنَ مِنْ إِيَابَتِهِ إِيَّاهُمْ لِمَا طَلَبُوهُ، انْفَرَدُوا عَنِ النَّاسِ، وَأَخَذُوا يَتَشَاوَرُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ. فَقَالَ كَبِيرُهُمْ: أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدَ الْمُؤَكَّدَ؛ لَتَرُدَّنَّ أَخَاكُمْ إِلَّا أَنْ تُغْلَبُوا، وَمِنْ قَبْلِ هَذَا كَانَ تَقْصِيرُكُمْ فِي يَوْسُفَ وَتَضْيِيعُكُمْ لَهُ؛ لَذَلِكَ لَنْ أَفَارِقَ أَرْضَ مِصْرَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي فِي مُفَارَقَتِهَا، أَوْ يَقْضِيَ لِي رَبِّي بِالْخُرُوجِ مِنْهَا، وَاللَّهُ خَيْرٌ مِنْ حَكَمٍ، وَأَعْدَلُ مَنْ فَصَلَ بَيْنَ النَّاسِ.

ثم قال لهم: ارجعوا إلى أبيكم، وأخبروه بما جرى،
 وقولوا له: إِنَّ ابْنَكَ قد سَرَقَ، وما شَهِدْنَا بذلك إِلَّا بعدَ
 أَنْ تَيَقَّنَّا؛ فقد رأينا المِكيالَ في رَحْلِهِ، وما كان عِندَنَا
 عِلْمُ الغَيْبِ أَنَّهُ سَيَسْرِقُ حينَ عَاهَدْنَاكَ على رَدِّهِ،
 واسأل- يا أبانا- أهلَ مِصرَ، ومَن كان مَعَنَا في القافِلَةِ
 الَّتِي كُنَّا فِيهَا، وإِنَّا لصادِقُونَ فيما أَخْبَرْنَاكَ بِهِ.

ولَمَّا رَجَعُوا وأخْبَرُوا أباهم، قال لهم: بل زَيَّنْتَ لَكُم
 أَنْفُسَكُمْ مَكِيدَةً دَبَّرْتُمُوهَا، كما فَعَلْتُم مِّن قَبْلُ مع
 يُوْسُفَ، فَصَبِرِي صَبْرًا جَمِيلًا، لا جَزَعَ فِيهِ ولا شَكْوَى
 مَعَهُ؛ عسى اللَّهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيَّ أَبْنَائِي جَمِيعًا- يُوْسُفُ،
 وشقيقه، وأخوهمُ الكَبِيرُ الَّذِي تَخَلَّفَ مِن أَجْلِ أَخِيهِ-
 ؛ إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ بِحَالِي، الحَكِيمُ في تَدْبِيرِهِ. وأَعْرَضَ يَعْقُوبُ

عنهم، وقد ضاق صدره بما قالوه، وقال: يا حَسْرَتِي على
يوسُفَ، وابيضَّت عيناه؛ مِنْ شِدَّةِ الحُزَنِ، فهو مُمْتَلِئُ
القلبِ حُزْنًا، وَلَكِنَّهُ شَدِيدُ الْكِتْمَانِ لَهُ. فقال بَنُوهُ:
تَاللَّهِ، ما تَزَالُ تَتَذَكَّرُ يوسُفَ، وَيَشْتَدُّ حُزْنُكَ عَلَيْهِ، حَتَّى
تُشْرِفَ عَلَى الْهَلَاكِ أَوْ تَهْلِكَ فِعْلًا، فَخَفَّفَ عَنْ نَفْسِكَ.
فقال يعقوبُ مُجِيبًا لَهُمْ: لَا أَظْهَرُ هَمِّي وَحُزْنِي إِلَّا إِلَى
اللَّهِ وَحْدَهُ؛ فَهُوَ كَاشِفُ الضُّرِّ وَالْبَلَاءِ، وَأَعْلَمُ مِنْ رَحْمَةِ
اللَّهِ وَفَرَجِهِ مَا لَا تَعْلَمُونَهُ.

وكانَّ يعقوب قد تفكر في حال ذلك الرجل الكريم
عزيز مصر الذي أكرم أولاده وضيَّفهم في زمن القحط،
وأوفى لهم الكيل، ورد لهم الثمن، وطلب منهم إحضار
أخيهم ليكرمه، فكانَّه رأى فيه كرم النبوة وكرم جده

إبراهيم عليه السلام حيث أنه أول من ضَيَّفَ الضيْفَ،
 كما أنَّ ذاك العزيز حكم بشريعة يعقوب في استرقاق
 السارق، فاجتمعت فيه خصالٌ من أخلاق الإيمان
 والنبوة، وكذلك كان مايرجوه يعقوب ليوسف من
 النبوة حين أخبره عن رؤياه وهو صغير. فقال يعقوب
 لأبنائه: عُودُوا إِلَى مِصْرَ، فَاسْتَقْصُوا أَخْبَارَ يَوْسُفَ
 وَأَخِيهِ، وَلَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ؛ إِنَّهُ لَا يَقْنُطُ مِنْ
 رَحْمَةِ اللَّهِ إِلَّا الْجَاهِدُونَ لِقُدْرَتِهِ، الْكَافِرُونَ بِهِ.

ثم إنَّ إِخْوَةَ يَوْسُفَ لما رَجَعُوا إِلَى مِصْرَ، ودخلوا على
 يَوْسُفَ، أرادوا استرقاق قلبه بضعفهم وشدة حاجتهم،
 فإن رأوا منه لينًا وشفقة؛ حاولوا معه أن يطلق لهم
 أخاهم. فلما دخلوا عليه قالوا: يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ، أَصَابَنَا

وأهلنا القحط والجذب، وجئناك بثمرٍ رديٍّ قليل،
 فأعطينا به ما كنت تُعطينا وتكرمنا من قبلُ بالثمنِ
 الجيد، وتصدق علينا بقبض هذه الدراهم المُزجاة وتجوّز
 فيها؛ إِنَّ اللَّهَ تعالى يُثِيبُ المتفضّلين بأموالهم على
 المحتاجين. فلمّا سمِعَ مقالَتهم رَقَّ لهم، وعرّفهم
 بنفسه، وقال: هلْ تذكرونَ الَّذي فعلْتُموه بيوسفَ
 وأخيه من الأذى في حالِ جهلِكُم بعاقبةِ ما تفعلونَ؟
 قالوا: إِنَّكَ لَأَنْتَ يوسفُ؟! قال: نَعَمْ، أنا يوسفُ، وهذا
 شقيقي، قد تفضّل اللهُ علينا، فجمَعَ بيننا بعدَ الفُرقةِ؛
 إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ، وَيَصْبِرْ عَلَى الْمِحْنِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُذْهِبُ
 ثَوَابَ إِحْسَانِهِ، وَإِنَّمَا يُجْزِيهِ أَحْسَنَ الْجَزَاءِ. قالوا: وَاللَّهِ،
 لقد فَضَّلَكَ اللهُ علينا، وأعزَّكَ بِالْعِلْمِ وَالْحِلْمِ، وَالْفَضْلِ

والكرم والملك والجمال، وقد كنّا خاطئين فيما فعلناه بك. فقال لهم يوسف: لا تأنيب عليكم اليوم، يَغْفِرُ اللهُ لكم، وهو أرحمُ الرَّاحمينَ لِمَن تاب من ذنِّه، وأناب إلى طاعته.

ولَمَّا سألهم عن أبيه أخبروه بذهابِ بَصْرِهِ مِنَ البُكاءِ عليه، فقال لهم: عودُوا إلى أبيكم ومعكم قميصي هذا، فاطرحوه على وجهِ أبي يَعُدُّ إليه بَصْرُهُ، ثم أَحْضَرُوا إِلَيَّ جميعَ أهليكم.

ولَمَّا خَرَجَتْ قافلةُ بني يَعْقوبَ من مِصْرَ مُتَّجِهَةً إِلَى الشَّامِ، سارعت الرِّيحُ بحملِ رائحةِ يوسف إلى يعقوب، وقال يعقوبُ لِمَنْ حَضَرَ عِنْدَهُ فِي فلسطين: إِنِّي لَأَشْمُ رائحةَ يوسفَ، لولا أن تُكذِّبوني وتنسُبوني إلى الهَرَمِ

والخرف، فقال له الحاضرون: والله، إنَّك لفي خطبك
الذي كنت عليه قديمًا. فلمَّا أن جاء يعقوب ولده
المبشِّر برسالة يوسف، ألقي قميص يوسف على وجه
أبيه، فعاد مُبصرًا بعينه كما كان. وقال يعقوب
لأولاده: أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ: إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مَا لَا
تَعْلَمُونَهُ؟ فقالوا له: يا أبانا، ادعُ الله أن يغفر لنا ذُنُوبنا؛
إِنَّا نَعْتَرِفُ بِأَنَّنَا كُنَّا خَاطِئِينَ، فقال لهم أبوهم: سوف
أستغفر لكم ربِّي؛ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

فلمَّا دخل يعقوب وأهله على يوسف ضمَّ إليه
أبويه، وقال لجميع أهله: ادخلوا مصر آمنين إن شاء
الله، وأجلس أباه وأمه على العرش الذي يجلس عليه،
وخرَّ الجميع له سُجودًا؛ تحيةً وتعظيمًا ليوسف، وقال

لأبيه: يا أبتَ هذا السُّجودُ منكم لي هو تفسيرُ رؤْيَايَ
الَّتِي رَأَيْتُهَا فِي صِغَرِي، قَدْ حَقَّقَهَا رَبِّي، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي
جَلًّا وَعِلًّا حِينَ أَخْرَجَنِي مِنَ السَّجَنِ، وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ
الْبَادِيَةِ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَفْسَدَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي؛ إِنَّ
رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يُرِيدُهُ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ.

وَقَالَ يَوْسُفُ دَاعِيًا رَبَّهُ: رَبِّي قَدْ آتَيْتَنِي مِنْ مُلْكٍ مِصْرَ،
وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَعْبِيرِ الرُّؤْيَى، وَمِنْ عُلُومِ الْكُتُبِ الْمُنْزَلَةِ،
وَسُنَنِ الْأَنْبِيَاءِ، يَا خَالِقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَنْتَ
نَاصِرِي وَمُتَوَلِّي أُمُورِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، تَوَفَّنِي وَأَنَا عَلَى
الْإِسْلَامِ، وَالْحَقْنِي فِي الثَّوَابِ وَالدرجاتِ بِالصَّالِحِينَ. ^(١)

(١) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : أَكْرَمُ النَّاسِ أَنْقَاهُمْ،
وَالْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ: يَوْسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ
إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، نَبِيُّ اللَّهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ،

مكوث بني إسرائيل في مصر

وكان بنو إسرائيل قد استقروا في مصر بعد ما حصل التمكين ليوسف فيها؛ وكان يوسف قد دعا والده وإخوته إلى مصر، فنزحوا من فلسطين، ومات يعقوب ودفن عند آبائه في فلسطين، فدفنوه هناك. ثم رجعوا إلى مصر، وعزى إخوة يوسف يوسف، وترققوا له؛ فأكرمهم، وأحسن منقلبهم؛ فأقاموا بمصر،

ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ. وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : عَجِبْتُ لَصَبْرٍ أَخِي يُوسُفَ وَكَرَمِهِ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ، حَيْثُ أُرْسِلَ إِلَيْهِ لِيُسْتَفْتَى فِي الرُّؤْيَا، وَلَوْ كُنْتُ أَنَا، لَمْ أَفْعَلْ حَتَّى أَخْرَجَ، وَعَجِبْتُ لَصَبْرِهِ وَكَرَمِهِ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ، أَتَى لِيُخْرَجَ، فَلَمْ يَخْرُجْ حَتَّى أَخْبَرَهُمْ بِعُذْرِهِ، وَلَوْ كُنْتُ أَنَا لِبَادَرْتُ الْبَابَ، لَوْ لَبِثْتُ فِي السَّجْنِ طَوْلَ مَا لَبِثَ يُوسُفُ، ثُمَّ أَتَانِي الدَّاعِي لِأَجْبَتُهُ. ثُمَّ قَرَأَ: {فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ، قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ، إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ} فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : لَوْ كُنْتُ أَنَا، لَأَسْرَعْتُ الْإِجَابَةَ، وَمَا ابْتَغَيْتُ الْعُذْرَ.

ثم حضرت يوسف الوفاة؛ فأوصى أن يحمل معهم إذا
خرجوا من مصر؛ فيدفن عند آبائه، فحنطوه، ووضعوه
في تابوت.

وبعد ذلك تناسل الأسباط - وهم ذرية يعقوب
(إسرائيل) من أبنائه الإثني عشر - وكثروا.^(١)

(١) قيل أن بني إسرائيل أبوا أن يندمجوا مع المصريين؛ فعزلوا أنفسهم
عنهم، وتواصوا فيما بينهم أن يكون لكل سبط نسله المعروف المميز
عن بقية الأسباط، وذلك ليضمنوا الاحتفاظ بنسبهم؛ اعتزازاً به،
وتعالياً على غيرهم، باعتبار أنهم من ذرية الأنبياء. وأن هذه العزة
التي عاشها الأسباط في مصر، مع الشعور المصاحب لهم من التتالي
بنسبهم، جعل مقامهم في مصر قلقاً مضطرباً. وأنه بعد ثلاثة قرون
أو تزيد اضطهدهم الفراعنة حكام مصر واستعبدوهم، حتى بعث الله
نبيه موسى عليه السلام.

اضطهاد فرعون لبني إسرائيل

وَكَانَ فِرْعَوْنُ الْمَلِكُ، وَهَامَانُ الْوَزِيرُ، وَكَانَ فِرْعَوْنُ
 قَدْ قَسَمَ رَعِيَّتَهُ إِلَى أَقْسَامٍ وَفَرَّقَ وَأَنْوَعَ {يَسْتَضْعِفُ
 طَائِفَةً مِنْهُمْ} وَهُمْ شَعْبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، الَّذِينَ هُمْ مِنْ
 سُلَالَةِ نَبِيِّ اللَّهِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ
 اللَّهِ. وَكَانُوا إِذْ ذَاكَ خِيَارَ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ سَلَّطَ اللَّهُ
 عَلَيْهِمْ هَذَا الْمَلِكَ الظَّالِمَ الْغَاشِمَ الْكَافِرَ الْفَاجِرَ،
 يَسْتَعْبِدُهُمْ وَيَسْتَخْدِمُهُمْ فِي أَحْسَنِ الصَّنَائِعِ وَالْحِرَفِ،
 وَأَرْدَتْهَا، وَأَذْنَاهَا، وَمَعَ هَذَا {يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي
 نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} وَكَانَ الْحَامِلُ لَهُ عَلَى
 هَذَا الصَّنِيعِ الْقَبِيحِ، أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا يَتَدَارَسُونَ
 فِيمَا بَيْنَهُمْ مَا كَانُوا يَأْتُرُونَهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، عَلَيْهِ

السَّالَامُ، مِنْ أَنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ غُلَامٌ يَكُونُ هَلَاكُ
مَلِكٍ مِصْرَ عَلَى يَدَيْهِ، وَذَلِكَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - حِينَ جَرَى
عَلَى سَارَّةَ امْرَأَةِ الْخَلِيلِ مِنْ مَلِكٍ مِصْرَ، مِنْ إِرَادَتِهِ إِيَّاهَا
عَلَى السُّوءِ، وَعِصْمَةِ اللَّهِ لَهَا.

وَتَذَاكُرَ فِرْعَوْنَ وَجُلَسَاؤُهُ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ بَنُو
إِسْرَائِيلَ أَنَّ اللَّهَ - عز وجل - وَعَدَ إِبْرَاهِيمَ - صلى الله
عليه وسلم - أَنْ يَجْعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ أَنْبِيَاءَ وَمُلُوكًا، فَقَالَ
بَعْضُهُمْ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَيَنْتَظِرُونَ ذَلِكَ، مَا يَشْكُونَ
فِيهِ، وَقَدْ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ عَلَيْهِمَا
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَلَمَّا هَلَكَ، قَالُوا: لَيْسَ هَكَذَا كَانَ وَعْدُ
إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. قَالَ فِرْعَوْنُ: فَكَيْفَ تَرَوْنَ؟،
فَاتَّمَرُوا وَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ رِجَالًا بِالشِّفَارِ

يَطُوفُونَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَا يَجِدُونَ مَوْلُودًا ذَكَرًا إِلَّا
ذَبَحُوهُ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ، فَلَمَّا أَنْ رَأَوْا أَنَّ الْكِبَارَ فِي بَنِي
إِسْرَائِيلَ يَمُوتُونَ بِأَجَالِهِمْ، وَالصَّغَارُ يُذَبِّحُونَ، قَالُوا:
تُوشِكُونَ أَنْ تُفْنُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَتَصِيرُونَ إِلَى أَنْ
تُبَاشِرُوا مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْخِدْمَةِ الَّذِينَ كَانُوا يَكْفُونَكُمْ،
فَاقْتُلُوا عَامًّا كُلَّ مَوْلُودٍ ذَكَرٍ، فَيَقِلَّ نَبَاتُهُمْ، وَدَعُوا عَامًّا،
فَلَا تَقْتُلُوا مِنْهُمْ أَحَدًا، فَيَنْشَأَ الصَّغَارُ مَكَانَ مَنْ يَمُوتُ
مِنَ الْكِبَارِ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَكْثُرُوا بِمَنْ تَسْتَحْيُوا مِنْهُمْ، فَتَخَافُوا
مُكَاثَرَتَهُمْ إِيَّاكُمْ، وَلَنْ يَفْنَوْا بِمَنْ تَقْتُلُونَ، فَتَحْتَاجُونَ
إِلَيْهِمْ، فَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ.

وروي أَنَّ فِرْعَوْنَ رَأَى فِي مَنَامِهِ كَأَنَّ نَارًا قَدْ أَقْبَلَتْ
مِنْ نَحْوِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَأَحْرَقَتْ دَوْرَ مِصْرَ وَجَمِيعَ

الْقَبْطِ، وَلَمْ تَضُرَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ هَالَهُ ذَلِكَ
فَجَمَعَ الْكَهَنَةَ وَالْحُزَاةَ وَالسَّحَرَةَ وَسَلَّاهُمْ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ
لَهُ الْكَهَنَةُ: هَذَا غُلَامٌ يُؤَلِّدُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، يَكُونُ سَبَبَ
هَلَاكِ أَهْلِ مِصْرَ عَلَى يَدَيْهِ.

موسى وهارون عليهما السلام

وكان موسى بن عمران من نسل يعقوب ومن
ذرية إبراهيم عليهم السلام، فَهُوَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ بْنِ
قَاهِتَ بْنِ عَازَرَ بْنِ لَآوِي بْنِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ
إِبْرَاهِيمَ، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وَحَمَلَتْ أُمُّ مُوسَى بِهَارُونَ -
عليه السلام - فِي الْعَامِ الَّذِي لَا يُذْخِرُ فِيهِ الْغُلَمَانُ،
فَوَلَدَتْهُ عَلَانِيَةً آمِنَةً، فَلَمَّا كَانَ مِنْ قَابِلٍ حَمَلَتْ بِمُوسَى
- عليه السلام - فَوَقَعَ فِي قَلْبِهَا مِنَ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ مِمَّا يُرَادُّ

بِهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهَا: {وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} وَأَمَرَهَا إِذَا وَلَدَتْ أَنْ تَجْعَلَهُ فِي تَابُوتٍ، ثُمَّ تُلْقِيهِ فِي الْيَمِّ، فَلَمَّا وَلَدَتْ فَعَلَتْ ذَلِكَ بِهِ، فَأَلْقَتْهُ فِي الْيَمِّ، فَلَمَّا تَوَارَى عَنْهَا ابْنُهَا، أَتَاهَا الشَّيْطَانُ، فَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا: مَا فَعَلْتُ بِابْنِي؟، لَوْ ذُبِحَ لَيْتَ عِنْدِي، فَرَأَيْتُهُ وَكَفَّيْتُهُ، كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُلْقِيَهُ بِيَدِي إِلَى دَوَابِّ الْبَحْرِ وَحِيتَانِهِ. وَانْتَهَى الْمَاءُ بِهِ حَتَّى أَرْفَأَ بِهِ عِنْدَ فُرْصَةٍ^(١) مُسْتَقَى جَوَارِي امْرَأَةٍ فِرْعَوْنَ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَخَذْنَهُ، فَهَمَمْنَ أَنْ يَفْتَحْنَ التَّابُوتَ، فَقَالَتْ بَعْضُهُنَّ: إِنَّ فِي هَذَا مَالًا، وَإِنَّا إِنْ فَتَحْنَاهُ لَمْ تُصَدِّقْنَا امْرَأَةُ الْمَلِكِ بِمَا وَجَدْنَا فِيهِ، فَحَمَلْنَهُ بِهَيْئَةٍ لَمْ يُحَرِّكَنَّ

(١) فُرْصَةُ النَّهْرِ: تُلْمَتُهُ الَّتِي يُسْتَقَى مِنْهَا.

مِنْهُ شَيْئًا، حَتَّى دَفَعْنَهُ إِلَيْهَا، فَلَمَّا فَتَحَتْهُ رَأَتْ فِيهِ
 غُلَامًا، فَأَلْقَى عَلَيْهِ مِنْهَا مَحَبَّةً لَمْ تُلَقْ مِثْلَهَا عَلَى الْبَشَرِ
 قَطُّ، وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِعًا مِنْ ذِكْرِ كُلِّ شَيْءٍ، إِلَّا
 مِنْ ذِكْرِ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - فَلَمَّا سَمِعَ الدَّاخِلُونَ
 بِأَمْرِهِ، أَقْبَلُوا بِشَفَارِهِمْ إِلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ لِيَذْبَحُوهُ، فَقَالَتْ
 لِلذَّبَّاحِينَ: اتْرُكُوهُ، فَإِنَّ هَذَا الْوَاحِدَ لَا يَزِيدُ فِي بَنِي
 إِسْرَائِيلَ، حَتَّى آتِي فِرْعَوْنَ فَأَسْتَوْهِبَهُ مِنْهُ، فَإِنْ وَهَبَهُ
 لِي، كُنْتُمْ قَدْ أَحْسَنْتُمْ وَأَجْمَلْتُمْ، وَإِنْ أَمَرَ بِذَبْحِهِ، لَمْ
 أَلْمَكُمْ، فَأَتَتْ بِهِ فِرْعَوْنَ، فَقَالَتْ: {قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ}

قَالَ فِرْعَوْنُ: يَكُونُ لَكَ فَأَمَّا لِي، فَلَا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ^(١).

فَأَرْسَلْتُ إِلَى مَنْ حَوْلَهَا مِنْ كُلِّ امْرَأَةٍ لَهَا لَبَنٌ تَخْتَارُ لَهَا ظِئْرًا^(٢)، فَجَعَلَ كُلُّمَا أَخَذَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ فَتَرْضِعُهُ، لَمْ يَقْبَلْ ثَدْيَهَا، حَتَّى أَشْفَقْتُ عَلَيْهِ امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ أَنْ يَمْتَنِعَ مِنَ اللَّبَنِ فَيَمُوتَ، فَأَحْزَنْهَا ذَلِكَ فَأَمَرْتُ بِهِ فَأُخْرِجَ إِلَى السُّوقِ، وَتَجَمَّعَ النَّاسُ، تَرْجُو أَنْ تَجِدَ لَهُ ظِئْرًا يَأْخُذُ مِنْهَا، فَلَمْ يَقْبَلْ، وَأَصْبَحَتْ أُمُّ مُوسَى وَالِهَّةَ، فَقَالَتْ لِأُخْتِهِ: قُصِّيه - يَعْنِي أَثَرَهُ، وَاطْلُبِيهِ - هَلْ تَسْمَعِينَ لَهُ ذِكْرًا؟، أَحْيِ ابْنِي؟، أَمْ قَدْ أَكَلَتْهُ الدَّوَابُّ؟، وَنَسِيتُ مَا كَانَ اللَّهُ

(١) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: " وَالَّذِي أَخْلِفُ بِهِ، لَوْ أَقَرَّ فِرْعَوْنُ بِأَنْ يَكُونَ لَهُ قُرَّةُ عَيْنٍ كَمَا أَقَرَّتْ امْرَأَتُهُ، لَهْدَاهُ اللَّهُ بِهِ، كَمَا هَدَى بِهِ امْرَأَتُهُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُ ذَلِكَ ".
(٢) مرضعاً.

- عز وجل - وَعَدَهَا فِيهِ، فَبَصُرَتْ بِهِ أُخْتُهُ عَنْ جُنْبٍ
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، وَالْجُنْبُ: أَنْ يَسْمُوَ بَصَرُ الْإِنْسَانِ إِلَى
الشَّيْءِ الْبَعِيدِ، وَهُوَ إِلَى جَنْبِهِ لَا يَشْعُرُ بِهِ، فَقَالَتْ مِنَ
الْفَرَحِ حِينَ أَعْيَاهُمُ الطَّلَبُ: أَنَا أَذْلُكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ
يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ، وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ، فَأَخَذُوهَا فَقَالُوا: وَمَا
يُذْرِيكَ مَا نَصَحْتَهُمْ لَهُ؟، هَلْ يَعْرِفُونَهُ؟ - حَتَّى شَكُّوا فِي
ذَلِكَ ، فَقَالَتْ: نَصِيحَتُهُمْ لَهُ وَشَفَقَتُهُمْ عَلَيْهِ رَغْبَةٌ فِي
صَهْرِ الْمَلِكِ، وَرَجَاءٌ مَنْفَعَتِهِ، فَأَرْسَلُوهَا، فَانْطَلَقَتْ إِلَى
أُمِّهَا فَأَخْبَرَتْهَا الْخَبَرَ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ، فَلَمَّا وَضَعَتْهُ فِي
حِجْرِهَا، نَزَا إِلَى ثَدْيِهَا فَمَصَّه، حَتَّى امْتَلَأَ جَنْبَاهُ رِيًّا،
وَانْطَلَقَ الْبَشِيرُ إِلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، يُبَشِّرُهَا أَنَّ قَدْ وَجَدْنَا
لَا بَنِيكَ ظَنَرًا، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهَا، فَأَتَتْ بِهَا وَبِهِ، فَلَمَّا رَأَتْ

مَا يَصْنَعُ بِهَا، قَالَتْ لَهَا: امْكُثِي عِنْدِي، تُرْضِعِينَ ابْنِي
هَذَا، فَإِنِّي لَمْ أَحِبَّ حُبَّهُ شَيْئًا قَطُّ، فَقَالَتْ أُمُّ مُوسَى:
لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَدَعَ بَيْتِي وَوَلَدِي فَنَضِيعُ، فَإِنْ طَابَتْ
نَفْسُكَ أَنْ تُعْطِيَنِيهِ، فَأَذْهَبَ بِهِ إِلَى بَيْتِي، فَيَكُونَ مَعِي،
لَا آلُوهُ خَيْرًا، وَإِلَّا، فَإِنِّي غَيْرُ تَارِكَةٍ بَيْتِي وَوَلَدِي - وَذَكَرْتُ
أُمُّ مُوسَى مَا كَانَ اللَّهُ - عز وجل - وَعَدَهَا، فَتَعَاسَرَتْ
عَلَى امْرَأَةٍ فِرْعَوْنَ، وَأَيَّقَنْتُ أَنَّ اللَّهَ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ -
فَرَجَعْتُ إِلَى بَيْتِهَا بِابْنِهَا، فَأَصْبَحَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ مُجْتَمِعِينَ،
يَمْتَنِعُونَ مِنَ السُّخْرَةِ وَالظُّلْمِ مَا كَانَ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَرَعَرَعَ
قَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لِأُمِّ مُوسَى: أُرِيدُ أَنْ تُرِينِي ابْنِي،
فَوَعَدْتُهَا يَوْمًا تُرِيهَا إِيَّاهُ، فَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لِحُرَّانِهَا
وَقَهَّارِمَتِهَا وَظُئُورَتِهَا: لَا يَبْقَيْنَ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَّا اسْتَقْبَلَ

ابْنِي الْيَوْمَ بِهَدِيَّةٍ وَكَرَامَةٍ، لَأَرَى ذَلِكَ فِيهِ، وَأَنَا بَاعِثُهُ
 أَمِينًا يُحْصِي كُلَّ مَا يَصْنَعُ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ، فَلَمْ تَزَلْ
 الْهَدَايَا وَالْكَرَامَةَ وَالنَّحْلُ تَسْتَقْبِلُهُ مِنْ حِينَ خَرَجَ مِنْ
 بَيْتِ أُمِّهِ إِلَى أَنْ أُدْخِلَ عَلَى امْرَأَةٍ فِرْعَوْنَ، فَلَمَّا دَخَلَ
 عَلَيْهَا بَجَلَّتُهُ وَأَكْرَمَتْهُ، وَفَرِحَتْ بِهِ وَأَعْجَبَهَا، وَبَجَلَتْ أُمُّهُ
 بِحُسْنِ أَثَرِهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَتْ: لَأَتَيْنَ بِهِ فِرْعَوْنَ، فَلْيَبْجَلْنَهُ
 وَلْيُكْرِمْنَهُ، فَلَمَّا دَخَلَتْ بِهِ عَلَيْهِ جَعَلَتْهُ فِي حِجْرِهِ،
 فَتَنَاولَ مُوسَى لَحْيَةَ فِرْعَوْنَ فَمَدَّهَا إِلَى الْأَرْضِ، فَقَالَ
 الْغَوَاةُ أَعْدَاءُ اللَّهِ لِفِرْعَوْنَ: أَلَا تَرَى إِلَى مَا وَعَدَ اللَّهُ
 إِبْرَاهِيمَ نَبِيَّهُ أَنَّهُ يَرْبُّكَ وَيَعْلُوكَ وَيَصْرَعُكَ؟، فَأَرْسَلَ إِلَى
 الذَّبَّاحِينَ لِيَذْبَحُوهُ، فَجَاءَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ تَسْعَى إِلَى
 فِرْعَوْنَ، فَقَالَتْ: مَا بَدَا لَكَ فِي هَذَا الْغُلَامِ الَّذِي وَهَبْتَهُ

لي؟، قَالَ: تَرَيْنَهُ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَصْرَعُنِي وَيَعْلُونِي، قَالَتِ:
 اجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَمْرًا تَعْرِفُ الْحَقَّ فِيهِ: أَنْتِ بِجَمْرَتَيْنِ
 وَلَوْلُوتَيْنِ، فَقَرَّبَهُنَّ إِلَيْهِ، فَإِنْ بَطَشَ بِاللُّلُوتَيْنِ، وَاجْتَنَبَ
 الْجَمْرَتَيْنِ، عَرَفْتَ أَنَّهُ يَعْقِلُ، وَإِنْ تَنَاوَلَ الْجَمْرَتَيْنِ، وَلَمْ
 يُرِدِ اللُّلُوتَيْنِ، عَلِمْتَ أَنَّ أَحَدًا لَا يُؤَثِّرُ الْجَمْرَتَيْنِ عَلَى
 اللُّلُوتَيْنِ وَهُوَ يَعْقِلُ، فَقَرَّبَ ذَلِكَ، فَتَنَاوَلَ الْجَمْرَتَيْنِ،
 فَانْتَزَعُوهُمَا مِنْ يَدِهِ مَخَافَةَ أَنْ تَحْرِقَاهُ، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: أَلَا
 تَرَى؟، فَصَرَفَهُ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَ مَا كَانَ قَدْ هَمَّ بِهِ، وَكَانَ اللَّهُ
 - عز وجل - بَالِغًا فِيهِ أَمْرُهُ، فَلَمَّا بَلَغَ أَشَدَّهُ وَكَانَ مِنَ
 الرِّجَالِ، لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَخْلُصُ إِلَى أَحَدٍ مِنْ
 بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَهُ بِظُلْمٍ وَلَا سُخْرَةٍ، حَتَّى امْتَنَعُوا كُلَّ
 الامْتِنَاعِ، فَبَيْنَمَا مُوسَى فِي نَاحِيَةِ الْمَدِينَةِ، إِذَا هُوَ

بِرَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ، أَحَدُهُمَا فِرْعَوْنِيٌّ، وَالْآخَرُ إِسْرَائِيلِيٌّ،
 فَاسْتَعَاثَهُ الْإِسْرَائِيلِيُّ عَلَى الْفِرْعَوْنِيِّ، فَغَضِبَ مُوسَى
 غَضَبًا شَدِيدًا، لِأَنَّهُ تَنَاوَلَهُ وَهُوَ يَعْلَمُ مَنَزِلَةَ مُوسَى مِنْ
 بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَحِفْظَهُ لَهُمْ، لَا يَعْلَمُ النَّاسُ إِلَّا أَنَّهُ مِنَ
 الرِّضَاعِ - إِلَّا أُمُّ مُوسَى - إِلَّا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ أَطْلَعَ مُوسَى
 مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَا لَمْ يُطْلَعْ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، فَوَكَّزَ مُوسَى
 الْفِرْعَوْنِيَّ فَقَتَلَهُ - وَلَيْسَ يَرَاهُمَا أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ وَالْإِسْرَائِيلِيُّ
 - فَقَالَ مُوسَى حِينَ قَتَلَ الرَّجُلَ: { هَذَا مِنْ عَمَلِ
 الشَّيْطَانِ، إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ }، ثُمَّ قَالَ: { رَبِّ إِنِّي
 ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }،
 وَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ الْأَخْبَارَ، فَأَتَى فِرْعَوْنَ
 فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَتَلُوا رَجُلًا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ،

فَخُذْ لَنَا حَقَّنَا وَلَا تُرَخِّصْ لَهُمْ، فَقَالَ: ابْعُونِي قَاتِلَهُ وَمَنْ
يَشْهَدُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْمَلِكَ وَإِنْ كَانَ صَفْوُهُ مَعَ قَوْمٍ، لَا
يَسْتَقِيمُ لَهُ أَنْ يُقَيَّدَ بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ وَلَا تُبَتِّ، فَاطْلُبُوا لِي عِلْمَ
ذَلِكَ، آخُذْ لَكُمْ بِحَقِّكُمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَطُوفُونَ لَا يَجِدُونَ
ثَبَتًا، إِذَا مُوسَى قَدْ رَأَى مِنَ الْغَدِ ذَلِكَ الْإِسْرَائِيلِيَّ يُقَاتِلُ
رَجُلًا آخَرَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، فَاسْتَعَاثَهُ الْإِسْرَائِيلِيُّ عَلَى
الْفِرْعَوْنِيِّ، فَصَادَفَ مُوسَى قَدْ نَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ،
فَكَرِهَ الَّذِي رَأَى لِعُضْبِ الْإِسْرَائِيلِيِّ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْطِشَ
بِالْفِرْعَوْنِيِّ، فَقَالَ لِلْإِسْرَائِيلِيِّ لِمَا فَعَلَ أَمْسَ وَالْيَوْمَ:
{إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ} فَنَظَرَ الْإِسْرَائِيلِيُّ إِلَى مُوسَى حِينَ قَالَ
لَهُ مَا قَالَ، فَإِذَا هُوَ غَضْبَانٌ كَغَضْبِهِ بِالْأَمْسِ، فَخَافَ أَنْ
يَكُونَ إِيَّاهُ أَرَادَ، وَمَا أَرَادَ الْفِرْعَوْنِيَّ - وَلَمْ يَكُنْ أَرَادَهُ، إِنَّمَا

أَرَادَ الْفِرْعَوْنِيَّ - فَخَافَ الْإِسْرَائِيلِيَّ، فَحَاجَزَ الْفِرْعَوْنِيَّ،
وَقَالَ: { يَا مُوسَى، أَتَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا
بِالْأَمْسِ؟ } وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ مَخَافَةً أَنْ يَكُونَ إِيَّاهُ أَرَادَ مُوسَى
لِيَقْتُلَهُ، وَانْطَلَقَ الْفِرْعَوْنِيُّ إِلَى قَوْمِهِ، فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا سَمِعَ
مِنَ الْإِسْرَائِيلِيِّ مِنَ الْخَبَرِ حِينَ يَقُولُ: { أَتَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي
كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ }، فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ الدَّبَّاحِينَ
لِيَقْتُلُوا مُوسَى، فَأَخَذَ رُسُلُ فِرْعَوْنِ الطَّرِيقَ الْأَعْظَمَ
يَمْشُونَ عَلَى هَيْئَتِهِمْ يَطْلُبُونَ مُوسَى، وَهُمْ لَا يَخَافُونَ أَنْ
يُقْتُلَهُمْ، إِذْ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ شِيعَةِ مُوسَى مِنْ أَقْصَى
الْمَدِينَةِ، فَاخْتَصَرَ طَرِيقًا قَرِيبًا حَتَّى يَسْبِقَهُمْ إِلَى مُوسَى
فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، فَخَرَجَ مُوسَى مُتَوَجِّهًا نَحْوَ مَدِينِ، لَمْ يَلَقَ
بَلَاءً قَبْلَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ لَهُ بِالطَّرِيقِ عِلْمٌ إِلَّا حُسْنَ ظَنِّهِ

بِرَبِّهِ - عز وجل - فَإِنَّهُ قَالَ: {عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ}، {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ} يَعْنِي بِذَلِكَ: حَابِسَتَيْنِ غَنَمَهُمَا، فَقَالَ لَهُمَا: مَا خَطْبُكُمَا مُعْتَزِلَتَيْنِ لَا تَسْقِيَانِ مَعَ النَّاسِ؟، قَالَتَا: لَيْسَ لَنَا قُوَّةٌ نُرَاحِمُ الْقَوْمَ، وَإِنَّمَا نَنْتَظِرُ فُضُولَ حَيَاضِهِمْ، فَسَقَى لَهُمَا، فَجَعَلَ يَغْرِفُ فِي الدَّلْوِ مَاءً كَثِيرًا، حَتَّى كَانَ أَوَّلَ الرَّعَاءِ فَرَاغًا، فَأَنْصَرَفَتَا بِغَنَمِهِمَا إِلَى أَبِيهِمَا، وَأَنْصَرَفَ مُوسَى فَاسْتَظَلَ بِشَجَرَةٍ، فَقَالَ: {رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} (١) فَاسْتَنْكَرَ أَبُوهُمَا (٢) سُرْعَةَ صُدُورِهِمَا

(١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَقَدْ قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: {رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} وَهُوَ أَكْرَمُ خَلْقِهِ عَلَيْهِ، وَلَقَدْ كَانَ افْتَقَرَ إِلَى شِقِّ تَمْرَةٍ، وَلَقَدْ أَصَابَهُ الْجُوعُ حَتَّى لَزِقَ بَطْنُهُ بِظَهْرِهِ.

(٢) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: هُوَ يَثْرَى، صَاحِبُ مَدْيَنَ.

بِعَنَمِهِمَا حُفْلًا بِطَانًا، فَقَالَ: إِنَّ لَكُمَا الْيَوْمَ لَشَأْنًا،
فَأَخْبَرْتَاهُ بِمَا صَنَعَ مُوسَى، فَأَمَرَ إِحْدَاهُمَا تَدْعُوهُ لَهُ،
{فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ} ^(١) فَدَعَتْهُ
{قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا . فَلَمَّا
جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ} لَيْسَ لِفِرْعَوْنَ وَلَا لِقَوْمِهِ عَلَيْنَا سُلْطَانٌ، وَلَسْنَا
فِي مَمْلَكَتِهِ، فَقَالَتْ إِحْدَاهُمَا: {يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ
مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ}، فَاحْتَمَلَتْهُ الْغَيْرَةُ عَلَى أَنْ
قَالَ: وَمَا يُدْرِيكَ مَا قُوَّتُهُ وَمَا أَمَانَتُهُ؟، قَالَتْ: أَمَّا قُوَّتُهُ،

(١) أَي: مَشْيَ الْحَرَائِرِ، كَأَن الْحَيَاءَ صَارَ فَرَاشًا تَمْشِي عَلَيْهِ. وَقَرَأَ
بَعْضُهُمْ: (عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ) أَي أَنَّ الْحَيَاءَ كَانَ فِي
قَوْلِهَا أَيْضًا كَمَا كَانَ فِي مَشْيِهَا. وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: {فَجَاءَتْهُ
إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ}، قَالَ: «مُسْتَتْرَةٌ بِدِرْعِهَا أَوْ بِكُمِّ
قَمِيصِهَا». وَقَالَ: "جَاءَتْ تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ، قَائِلَةً بِتَوْبِهَا عَلَى
وَجْهِهَا، لَيْسَتْ بِسُلْفَعٍ (المرأة الجريئة على الرجال) خَرَاةٌ وَلَا جَهَّةٌ".

فَمَا رَأَيْتُ مِنْهُ فِي الدَّلْوِ حِينَ سَقَى لَنَا، لَمْ أَرَّ جُلَا أَقْوَى
 فِي ذَلِكَ السَّقْيِ مِنْهُ، وَأَمَّا أَمَانَتُهُ، فَإِنَّهُ نَظَرَ إِلَيَّ حِينَ
 أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ وَشَخَصْتُ لَهُ، فَلَمَّا عَلِمَ أَنِّي امْرَأَةٌ صَوَّبَ
 رَأْسَهُ وَلَمْ يَرْفَعْهُ، وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَيَّ حَتَّى بَلَغَتْهُ رِسَالَتُكَ، ثُمَّ
 قَالَ: امْشِي خَلْفِي وَانْعِي لِي الطَّرِيقَ، فَلَمْ يَفْعَلْ هَذَا
 الْأَمْرَ إِلَّا وَهُوَ أَمِينٌ. فَسَرَّيَ عَنْ أَبِيهَا، فَصَدَّقَهَا وَظَنَّ بِهِ
 الَّذِي قَالَتْ. فَقَالَ لَهُ: {إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى
 ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَجٍ^(١)، فَإِنْ أَتَمَمْتَ
 عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ، سَتَجِدُنِي
 إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} فَفَعَلَ، فَكَانَتْ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ
 مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - ثَمَانُ سِنِينَ وَاجِبَةً، وَكَانَتْ

(١) أي : تعمل أجيراً ترعى لنا الغنم ثمان سنوات، ويكون ذلك مهر
 الزواج.

سَنَتَانِ عِدَّةٍ مِنْهُ، فَقَضَى اللَّهُ عَنْهُ عِدَّتَهُ، فَأَتَمَّهَا عَشْرًا،
وقضى أوفى الأجلين. ^(١)

بعثة موسى بن عمران، صفيُّ الله

وَكَانَ مُوسَى قَدْ اشْتَقَّ إِلَى بِلَادِهِ وَأَهْلِهِ، فَعَزَمَ عَلَى
زِيَارَتِهِمْ فِي خُفْيَةٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، فَتَحَمَّلَ بِأَهْلِهِ وَمَا
كَانَ مَعَهُ مِنَ الْغَنَمِ الَّتِي وَهَبَهَا لَهُ صِهْرُهُ، فَسَلَكَ بِهِمْ فِي
لَيْلَةٍ مَطِيرَةٍ مُظْلِمَةٍ بَارِدَةٍ، فَنَزَلَ مَنْزِلًا فَجَعَلَ كُلَّمَا أَوْرَى
زَنْدَهُ لَا يُضِيءُ شَيْئًا، فَتَعَجَّبَ مِنْ ذَلِكَ، فَبَيْنَمَا هُوَ

(١) عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: " لَمَّا دَعَا نَبِيُّ اللَّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ صَاحِبَهُ إِلَى
الْأَجْلِ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمَا، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: كُلُّ شَأْنٍ وَلَدْتُ عَلَى غَيْرِ ثَوْبَيْهَا
فَلَكَ وَلَدُهَا، قَالَ: فَعَمَدَ فَوَضَعَ حَبَالًا عَلَى الْمَاءِ، فَلَمَّا رَأَتْ الْحَبَالُ
فَزَعَتْ، فَجَاءَتْ جَوْلَةً فَوَلَدَتْ كُلُّهُنَّ بُرْقًا إِلَّا شَاةً وَاحِدَةً، فَذَهَبَ
بِأَوْلَادِهِنَّ ذَلِكَ الْعَامَ ". وَعَنْ عَبْدِ بْنِ حَزْنٍ قَالَ: تَفَاخَرَ أَهْلُ الْإِبِلِ
وَأَهْلُ الشَّاءِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: " بَعَثَ اللَّهُ
مُوسَى وَهُوَ رَاعِي غَنَمٍ، وَبَعَثَ دَاوُدَ وَهُوَ رَاعِي غَنَمٍ، وَبَعَثْتُ أَنَا وَأَنَا أُرْعَى
غَنَمًا لِأَهْلِي بِأَجْيَادٍ "

كَذَلِكَ إِذْ {آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا} رَأَاهَا تُضِيءُ لَهُ
 عَلَى بُعْدٍ، فَأَخْبَرَ أَهْلَهُ بِذَلِكَ وَقَالَ لَهُمْ: {اْمْكُثُوا إِنِّي
 آنَسْتُ نَارًا} حَتَّى أَذْهَبَ إِلَيْهَا، {لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ}
 يَدُلُّنَا عَلَى الطَّرِيقِ {أَوْ جَذُوعٍ مِنَ النَّارِ} أَيُّ: قِطْعَةٍ مِنْهَا،
 {لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} أَيُّ: تَتَدَفَّؤُونَ بِهَا مِنَ الْبَرْدِ. {فَلَمَّا
 أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ} أَيُّ: مِنْ جَانِبِ
 الْوَادِي مِمَّا يَلِي الْجَبَلَ عَنْ يَمِينِهِ مِنْ نَاحِيَةِ الْغَرْبِ، لِأَنَّ
 مُوسَى قَصَدَ النَّارَ إِلَى جِهَةِ الْقِبْلَةِ، وَالْجَبَلُ الْغَرْبِيُّ عَنْ
 يَمِينِهِ، وَالنَّارُ وَجَدَهَا تَضْطَرِمُ فِي شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ فِي أَصْلِ
 الْجَبَلِ مِمَّا يَلِي الْوَادِي، فَوَقَفَ بَاهِتًا فِي أَمْرِهَا، فَنَادَاهُ
 رَبُّهُ: {مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ
 الشَّجَرَةِ} {أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} أَيُّ:

الَّذِي يُخَاطِبُكَ وَيُكَلِّمُكَ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، الْفَعَّالُ لِمَا
يَشَاءُ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ
عَنْ مِمَّا ثَلَّةِ الْمَخْلُوقَاتِ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَقْوَالِهِ
وَأَفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ!

وأمره بخلع نعليه^(١)، وَقَالَ لَهُ: {وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يَا
مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي
وَلِي فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَى} فأمره بقوله: {أَلْقِ عَصَاكَ} الَّتِي
فِي يَدِكَ وَتَعْرِفُهَا جِيدًا. {فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى}
فَعَرَفَ وَتَحَقَّقَ أَنَّ الَّذِي يُخَاطِبُهُ وَيُكَلِّمُهُ هُوَ الَّذِي يَقُولُ
لِلشَّيْءِ: كُنْ، فَيَكُونُ.

(١) قِيلَ: إِنَّمَا أَمْرُهُ بِخَلْعِ نَعْلَيْهِ نَعْظِيمًا لِلْبُقْعَةِ. كَمَا يُؤْمَرُ الرَّجُلُ أَنْ
يَخْلَعَ نَعْلَيْهِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ الْكَعْبَةَ. وَقِيلَ: لِبِطْأِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ
بِقَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ مُنْتَعِلٍ؛ فَيَنَالُ مِنْ بَرَكَتِهَا. وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ، وَاللَّهُ
أَعْلَمُ.

{ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ } وَتَضْطَرِبُ { كَأَنَّهَا جَانٌّ } فِي حَرَكَتِهَا
السَّرِيعَةِ مَعَ عِظَمِ خَلْقِ قَوَائِمِهَا وَاتِّسَاعِ فَمِهَا، وَاضْطِكَاكِ
أَنْيَابِهَا وَأَضْرَاسِهَا، بِحَيْثُ لَا تَمُرُّ بِصَخْرَةٍ إِلَّا ابْتَلَعَتْهَا،
فَتَنَحْدِرُ فِي فِيهَا تَتَقَعَّقُ، كَأَنَّهَا حَادِرَةٌ فِي وَادٍ. فَعِنْدَ ذَلِكَ
{ وَلَى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ } وَلَمْ يَلْتَفِتْ؛ لِأَنَّ طَبَعَ الْبَشَرِيَّةِ
يَنْفِرُ مِنْ ذَلِكَ. فَلَمَّا قَالَ اللَّهُ لَهُ: { يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا
تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ }، رَجَعَ فَوَقَفَ فِي مَقَامِهِ الْأَوَّلِ.
ثُمَّ قَالَ اللَّهُ لَهُ: { اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ
مِنْ غَيْرِ سُوءٍ } أَيُّ: إِذَا أَدْخَلْتَ يَدَكَ فِي جَيْبِ دِرْعِكَ
(ثوبك) ثُمَّ أَخْرَجْتَهَا فَإِنَّهَا تَخْرُجُ تَلَوَّالًا كَأَنَّهَا قِطْعَةُ قَمَرٍ
فِي لَمَعَانِ الْبَرْقِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: { مِنْ غَيْرِ سُوءٍ } أَيُّ: مِنْ
غَيْرِ بَرَصٍ.

وَأَمَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِذَا خَافَ مِنْ شَيْءٍ أَنْ يَضُمَّ إِلَيْهِ
جَنَاحَهُ مِنَ الرَّهْبِ، وَهِيَ يَدُهُ، فَيَضَعُهَا عَلَى صَدْرِهِ، فَإِذَا
فَعَلَ ذَلِكَ ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُهُ مِنَ الْخَوْفِ. ^(١)

وقال له ربه: {فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ} يَعْنِي: إِلْقَاءُ
الْعَصَا وَجَعْلُهَا حَيَّةً تَسْعَى، وَإِدْخَالُهُ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ
فَتَخْرُجُ بَيَضَاءً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ - دَلِيلَانِ قَاطِعَانِ وَاضِحَانِ
عَلَى قُدْرَةِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ، وَصِحَّةِ نُبُوءَةٍ مَنْ جَرَى هَذَا
الْحَارِيقُ عَلَى يَدَيْهِ؛ وَصِحَّةِ رِسَالَتِهِ {إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ}
أَيُّ: وَقَوْمِهِ مِنَ الرُّؤَسَاءِ وَالْكَبَرَاءِ وَالْأَتْبَاعِ، {إِنَّهُمْ كَانُوا

(١) وَرَبَّمَا إِذَا اسْتَعْمَلَ أَحَدٌ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْإِقْتِدَاءِ فَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى
فُؤَادِهِ، فَإِنَّهُ يَزُولُ عَنْهُ مَا يَجِدُ أَوْ يَخْفُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَبِهِ التَّضَمُّ.

قَوْمًا فَاسِقِينَ} أَي: خَارِجِينَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ، مُخَالِفِينَ
لدين الله.

فَشَكَاَ إِلَى رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَا يَتَخَوَّفُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ
فِي الْقَتْلِ، وَعَقْدِ لِسَانِهِ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي لِسَانِهِ عُقْدَةً تَمْنَعُهُ
مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْكَلَامِ^(١)، وَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُعِينَهُ بِأَخِيهِ
هَارُونَ، يَكُونُ لَهُ رِدْءًا وَيَتَكَلَّمُ عَنْهُ بِكَثِيرٍ مِمَّا لَا يُفْصِحُ
بِهِ لِسَانُهُ، فَآتَاهُ اللَّهُ سُؤْلَهُ^(٢)، وَحَلَّ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِهِ،
فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَارُونَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَلْقَاهُ، فَاذْدَفَعَ مُوسَى
بِعَصَاهُ حَتَّى لَقِيَ هَارُونَ، فَاذْطَلَقَا جَمِيعًا إِلَى فِرْعَوْنَ،

(١) قِيلَ أَنَّ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ فِي لِسَانِهِ لَشْغَةٌ فِي طِفُولَتِهِ بِسَبَبِ
تَنَاوُلِهِ تِلْكَ الْجُمُرَةَ، حِينَ خَبِرَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ التَّمْرَةِ أَوْ الدَّرَّةِ (الْمُلُوثَةِ)،
فَأَخَذَ الْجُمُرَةَ فَوَضَعَهَا عَلَى لِسَانِهِ، فَحَصَلَ فِيهِ شِدَّةٌ فِي التَّغْيِيرِ.
(٢) قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لَيْسَ أَحَدٌ أَعْظَمَ مِنَّةً عَلَى أَخِيهِ، مِنْ مُوسَى
عَلَى هَارُونَ، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَإِنَّهُ شَفَعَ فِيهِ حَتَّى جَعَلَهُ اللَّهُ نَبِيًّا
وَرَسُولًا مَعَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي حَقِّ مُوسَى: {وَكَانَ
عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا} .

فَأَقَامَا عَلَىٰ بَابِهِ حِينًا لَا يُؤْذَنُ لَهُمَا، ثُمَّ أُذِنَ لَهُمَا بَعْدَ حِجَابٍ شَدِيدٍ، فَقَالَا: إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ قَالَ: فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى؟، فَأَخْبَرَهُ بِالَّذِي قَصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا فِي الْقُرْآنِ، قَالَ: فَمَا تُرِيدُ؟ - وَذَكَرَهُ الْقَتِيلَ - فَأَعْتَذَرَ بِمَا ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ، وَقَالَ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَتُرْسَلَ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَبَى عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَقَالَ: أَنْتَ بَايَةٌ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فَالْتَقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ فَاعْرَضَهُ فَاهَا، مُسْرِعَةً إِلَىٰ فِرْعَوْنَ، فَلَمَّا رَأَاهَا فِرْعَوْنُ قَاصِدَةً إِلَيْهِ خَافَهَا، فَاقْتَحَمَ عَنْ سَرِيرِهِ، وَاسْتَعَاثَ بِمُوسَى أَنْ يَكْفِفَهَا عَنْهُ، فَفَعَلَ، ثُمَّ أَخْرَجَ يَدَهُ مِنْ جَيْبِهِ، فَرَأَاهَا بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ - يَعْنِي مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ - ثُمَّ رَدَّهَا فَعَادَتْ إِلَىٰ لَوْنِهَا الْأَوَّلِ، فَاسْتَشَارَ فِرْعَوْنُ الْمَلَأَ حَوْلَهُ فِيمَا رَأَى،

فَقَالُوا لَهُ: {إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ
أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى} يَعْنِي
مُلْكَهُمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ، وَالْعَيْشَ، فَأَبَوْا أَنْ يُعْطَوْهُ شَيْئًا
مِمَّا طَلَبَ، وَقَالُوا لَهُ: اجْمَعْ لَنَا السَّحْرَةَ، فَإِنَّهُمْ بِأَرْضِكَ
كَثِيرٌ، حَتَّى يَغْلِبَ سِحْرُهُمْ سِحْرَهُمَا، فَأَرْسَلَ فِي
الْمَدِينَةِ فَحْشَرَ لَهُ كُلُّ سَاحِرٍ مُتَعَالِمٍ، فَلَمَّا أَتَوْا فِرْعَوْنَ
قَالُوا: بِمَ يَعْمَلُ هَذَا السَّاحِرُ؟، قَالُوا: يَعْمَلُ بِالْحَيَاتِ،
قَالُوا: فَلَا وَاللَّهِ مَا أَحَدٌ فِي الْأَرْضِ يَعْمَلُ السَّحَرَ بِالْحَيَاتِ
وَالْعِصِيِّ الَّذِي نَعْمَلُ، فَمَا أَجْرُنَا إِنْ نَحْنُ غَلَبْنَا؟، فَقَالَ
لَهُمْ: إِنَّكُمْ أَقَارِبِي وَخَاصَّتِي، فَأَنَا صَانِعٌ إِلَيْكُمْ كُلِّ مَا
أَحْبَبْتُمْ، فَتَوَاعَدُوا يَوْمَ الزَّيْنَةِ^(١)، وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحَى

(١) يوم العيد. وعن ابن عباس أنه: يَوْمُ عَاشُورَاءَ.

فَلَمَّا اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ، قَالَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:
 انْطَلِقُوا فَلْنَحْضُرْ هَذَا الْأَمْرَ {لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا
 هُمُ الْغَالِبِينَ} يَعْثُونَ مُوسَى وَهَارُونَ، اسْتِهْزَاءً بِهِمَا،
 فَقَالُوا: يَا مُوسَى {إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ
 الْمُلْكَيْنِ} {قَالَ بَلْ أَلْقُوا} {فَالْقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ،
 وَقَالُوا بَعِزَّةٍ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ}. {فَلَمَّا أَلْقُوا
 سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ}
 {فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيَّتُهُمْ تُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا
 تَسْعَى} ^(١)، {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى} أَيُّ؛ خَافَ
 عَلَى النَّاسِ أَنْ يَفْتَتِنُوا بِسِحْرِهِمْ وَمَحَالِهِمْ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَ مَا

(١) قيل: أن السحرة كانوا قد عمدوا إلى حبال وعصي فأودعوها الزُّبُقَ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَلَاتِ الَّتِي تَضْطَرِبُ بِسَبَبِهَا تِلْكَ الْحِبَالُ وَالْعَصِيُّ اضْطِرَابًا يُخَيِّلُ لِلرَّائِي أَنَّهَا تَسْعَى بِاخْتِيَارِهَا، وَإِنَّمَا تَتَحَرَّكُ بِسَبَبِ ذَلِكَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ، وَأَلْقُوا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّتَهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ: {بَعِزَّةٍ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ} .

فِي يَدِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَضَعُ شَيْئًا قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ
 فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ: { لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى - وَأَلْقِ مَا
 فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٍ وَلَا
 يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى } فَعِنْدَ ذَلِكَ أَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ
 وَقَالَ: { مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا
 يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ - وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ
 كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ }، فَلَمَّا أَلْقَاهَا صَارَتْ حَيَّةً عَظِيمَةً ذَاتَ
 قَوَائِمٍ - فِيمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ - وَعُنُقِ
 عَظِيمٍ، وَشَكْلٍ هَائِلٍ مُزْعَجٍ، بِحَيْثُ إِنَّ النَّاسَ انْخَازُوا
 مِنْهَا، وَهَرَبُوا سِرَاعًا، وَتَأَخَّرُوا عَنْ مَكَانِهَا وَأَقْبَلَتْ هِيَ عَلَى
 مَا أَلْقَوْهُ مِنَ الْحَبَالِ وَالْعِصِيِّ، فَجَعَلَتْ تَلْقَفُهُ وَاحِدًا
 وَاحِدًا، فِي أَسْرَعِ مَا يَكُونُ مِنَ الْحَرَكَةِ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ

إِلَيْهَا، وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْهَا. وَأَمَّا السَّحَرَةُ فَإِنَّهُمْ رَأَوْا مَا هَالَهُمْ
وَحَيَّرَهُمْ فِي أَمْرِهِمْ، وَاطَّلَعُوا عَلَى أَمْرٍ لَمْ يَكُنْ فِي خَلْدِهِمْ
وَلَا بِأَلْفِهِمْ، وَلَا يَدْخُلُ تَحْتَ صِنَاعَاتِهِمْ وَأَشْغَالِهِمْ،
فَجَعَلَتِ الْعِصِيُّ بِدَعْوَةِ مُوسَى تَلَبَّسَ بِالْحِبَالِ، حَتَّى
صَارَتْ جُرْزًا (قِطْعًا) إِلَى الثُّعْبَانِ تَدْخُلُ فِيهِ، حَتَّى مَا
أَبْقَتْ عَصًا وَلَا حَبْلًا إِلَّا ابْتَلَعَتْهُ، فَلَمَّا عَرَفَ السَّحَرَةُ
ذَلِكَ قَالُوا: لَوْ كَانَ هَذَا سِحْرًا لَمْ يَبْلُغْ مِنْ سِحْرِنَا هَذَا،
وَلَكِنَّهُ أَمْرٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، آمَنَّا بِاللَّهِ وَمِمَّا جَاءَ
بِهِ مُوسَى، وَنُثُوبٌ إِلَى اللَّهِ - عز وجل - مِمَّا كُنَّا عَلَيْهِ،
وَكَسَرَ اللَّهُ ظَهَرَ فِرْعَوْنَ فِي ذَلِكَ الْمَوْطِنِ وَأَشْيَاعِهِ،
وَأَظْهَرَ الْحَقَّ {وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، فَعُلِبُوا هُنَالِكَ
وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ} وَامْرَأَةُ فِرْعَوْنَ بَارِزَةٌ مُتَبَدِّلَةٌ تَدْعُو اللَّهَ

بِالنَّصْرِ لِمُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ، فَمَنْ رَأَاهَا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ،
ظَنَّ أَنَّهَا ابْتَدَلَتْ لِلشَّفَقَةِ عَلَى فِرْعَوْنَ وَأَشْيَاعِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ
حُزْنُهَا وَهَمُّهَا لِمُوسَى.

تكذيب فرعون وقومه بالآيات

المعجزات

وَطَالَ مُكُثُ مُوسَى لِمَوَاعِيدِ فِرْعَوْنَ الْكَاذِبَةِ، كُلَّمَا
جَاءَهُ بَايَةٌ وَعَدَهُ عِنْدَهَا أَنْ يُرْسَلَ مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِذَا
مَضَتْ أَخْلَفَ مَوَاعِيدَهُ وَقَالَ: هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ
يَصْنَعَ غَيْرَ هَذَا؟، فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى قَوْمِهِ {الطُّوفَانَ
وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفْصَلَاتٍ}
فَابْتَلَاهُمْ بِنَقْصِ الثَّمَرَاتِ بِأَنْ تَمْنَعَ الْأَرْضُ خَيْرَهَا.

وبالطوفان الذي يتلف المزارع ويهدم المدن والقرى.
 وبالجراد الذي لا يدع خضراء ولا يابسة. وبالقمل، وهي
 حشرة تؤذي الناس في أجسادهم، وبالضفادع التي
 نغصت عليهم عيشتهم لكثرتها، وبالدم الذي يصيب
 طعامهم وشرابهم. كُلُّ ذَلِكَ يَشْكُو إِلَى مُوسَى، وَيَطْلُبُ
 إِلَيْهِ أَنْ يَكْفِّهَا عَنْهُ، وَيُؤَافِقُهُ وَيَعِدُّهُ أَنْ يُرْسِلَ مَعَهُ بَنِي
 إِسْرَائِيلَ، فَإِذَا كَفَّ ذَلِكَ عَنْهُ، أَخْلَفَ مَوْعِدَهُ، وَنَكَثَ
 عَهْدَهُ. وَإِنَّ فِرْعَوْنَ أَوْتَدَ لَامْرَأَتِهِ أَرْبَعَةَ أَوْتَادٍ فِي يَدَيْهَا
 وَرِجْلَيْهَا، فَكَانَ إِذَا تَفَرَّقُوا عَنْهَا ظَلَّلَتْهَا الْمَلَائِكَةُ،
 فَقَالَتْ: {رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَنَجِّنِي مِنْ
 فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ، وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} فَكَشَفَ لَهَا
 عَنْ بَيْتِهَا فِي الْجَنَّةِ.

وَتَمَادَى قَبْطٌ مِصْرَ عَلَى كُفْرِهِمْ، وَعُتُوِّهِمْ،
وَعِنَادِهِمْ، مُتَابَعَةً لِمَلِكِهِمْ فِرْعَوْنَ، وَلَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ إِلَّا
الْقَلِيلُ، قِيلَ: هُمْ امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ، وَمُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ،
الَّذِي سَتَأْتِي حِكَايَةُ مَوْعِظَتِهِ، وَمَشُورَتِهِ، وَحُجَّتِهِ
عَلَيْهِمْ، وَالرَّجُلُ النَّاصِحُ، الَّذِي جَاءَ يَسْعَى مِنْ أَقْصَى
الْمَدِينَةِ، وَالسَّحَرَةِ.

وأوحى الله إلى موسى وأخيه هارون عليهم السلام
أن اختارا واتَّخِذا لقومكما في «مصر» بيوتًا لعبادة الله
وحده، تكون مساكن وملاجئ تعتصمون بها، واجعلوا
بيوتكم أماكن تصلُّون فيها عند الخوف، وصيِّروا بيوتكم
متجهة إلى جهة القبلة (بيت المقدس)، واثتوا بالصلاة
كاملة في أوقاتها، وأن يبشِّرَ موسى - المؤمنين بما يسرهم

من نصر الله وتأييدهم، وإهلاك عدوهم، واستخلافهم
في الأرض.

إهلاك قارون

وكان قارون من قوم موسى عليه السلام - وقيل
أنه ابن عمه - وكان غنياً منافقاً متكبراً، وأعطاه الله
من كنوز الأموال ما إن مفاتيح خزائنه ليثقل حملها على
الجماعة القوية، وقال له الناصحون من قومه: لا تفرح
فرح البَطَر، إن الله لا يحب الفرحين فرح البَطَر. واطلب
فيما أعطاك الله من الأموال الثواب في الدار الآخرة،
بأن تنفقه في وجوه الخير، ولا تنس نصيبك من الأكل
والشرب واللباس وغير ذلك من النعم، في غير إسراف
ولا مخيلة، وأحسن التعامل مع ربك ومع عباده كما

أحسن سبحانه إليك، ولا تطلب الفساد في الأرض
بارتكاب المعاصي وترك الطاعات، إن الله لا يحب
المفسدين في الأرض بذلك، بل يبغضهم.

فقال قارون: إنما أُعْطِيت هذه الأموال لعلم عندي
وقدرة، فأنا أستحقها لذلك.

فخرج قارون في زينته مظهرًا أَبْهَتَهُ، قال الذين
يطمعون في زينة الحياة الدنيا من أصحاب قارون: يا
ليتنا أُعْطِينَا من زينة الدنيا مثل ما أُعْطِيَ قارون، إن
قارون لذو نصيب وافرٍ كبير.

وقال الذين أعطوا العلم حين رأوا قارون في زينته
وسمعوا ما تمناه أصحابه: ويلكم! ثواب الله في الآخرة،
وما أعده من النعيم لمن آمن به وعمل عملاً صالحاً، خيرٌ

مما أُعْطِيَ قَارُونُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا، وَلَا يُوْفِقُ لِقَوْلِ هَذِهِ
الكَلِمَةِ وَالْعَمَلِ بِمَا تَقْتَضِيهِ إِلَّا الصَّابِرُونَ الَّذِينَ يَصْبِرُونَ
عَلَى إِثَارِ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ ثَوَابٍ عَلَى مَا فِي الدُّنْيَا مِنْ
مَتَاعٍ زَائِلٍ.

وَلَمَّا أَمَرَ مُوسَى قَوْمَهُ بِالزَّكَاةِ؛ جَمَعَ قَارُونُ مَنْ
حَوْلَهُ فَقَالَ لَهُمْ مُحْرَضًا عَلَى مُوسَى: «جَاءَكُمْ بِالصَّلَاةِ
وَجَاءَكُمْ بِأَشْيَاءٍ فَاحْتَمَلْتُمُوهَا، فَتَحَمَّلُوا أَنْ تُعْطَوْهُ
أَمْوَالَكُمْ». فَقَالُوا: لَا نَحْتَمِلُ أَنْ نُعْطِيَهُ أَمْوَالَنَا فَمَا تَرَى؟
فَقَالَ لَهُمْ: أَرَى أَنْ أُرْسَلَ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فَتُرْسَلَهَا
إِلَيْهِ فَتَرْمِيَهُ بِأَنَّهُ أَرَادَهَا عَلَى نَفْسِهَا.

فَبَلَغَ ذَلِكَ مُوسَى فَدَعَا عَلَيْهِمْ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْأَرْضَ أَنْ
تُطِيعَهُ، فَأَتَاهُمْ وَقَالَ مُوسَى لِلْأَرْضِ: خُذِيهِمْ فَأَخَذَتْهُمْ

إِلَى أَعْقَابِهِمْ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: يَا مُوسَى يَا مُوسَى، ثُمَّ
 قَالَ لِلأَرْضِ: «خُذِيهِمْ»، فَأَخَذَتْهُمْ إِلَى رُكَبِهِمْ. فَجَعَلُوا
 يَقُولُونَ: يَا مُوسَى يَا مُوسَى، ثُمَّ قَالَ لِلأَرْضِ: "خُذِيهِمْ"
 فَأَخَذَتْهُمْ إِلَى أَعْنَاقِهِمْ فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: يَا مُوسَى يَا
 مُوسَى. فَقَالَ لِلأَرْضِ: "خُذِيهِمْ". فَأَخَذَتْهُمْ فَغَيَّبَتْهُمْ،
 فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى: يَا مُوسَى سَأَلَكَ عِبَادِي وَتَضَرَّعُوا
 إِلَيْكَ فَلَمْ تُجِبْهُمْ، وَعِزَّتِي لَوْ أَنَّهُمْ دَعَوْنِي لَأَجَبْتُهُمْ.

ولما خسف الله الأرض بقارون وبناديه ومن فيها؛
 أصبح الذين تمنوا ما كان فيه قارون من المال والزينة
 قبل الخسف به يقولون متحسرين معتبرين: ألم نعلم
 أن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده، ويضيقه على
 من يشاء منهم؟! لولا أن من الله علينا فلم يعاقبنا بما

قلنا؛ لحسف بنا مثل ما خسف بقارون، إنه لا يفلح الكافرون.

نصيحة مؤمن آل فرعون

وقال فرعون لجلسائه: اتركوني أقتل موسى عقاباً له، وليدع ربه أن يمنعه مني، إني أخاف أن يغيّر دينكم الذي أنتم عليه، أو أن يظهر في الأرض الفساد بالقتل والتخريب. وقال موسى عليه السلام لمّا علم بتهديد فرعون له: إني التجأت واعتصمت بربي وربكم من كل متكبر عن الحق والإيمان به، لا يؤمن بيوم القيامة، وما فيه من حساب وعقاب. وقال رجل مؤمن بالله من آل فرعون يكتُم إيمانه عن قومه منكرًا عليهم عزمهم على قتل موسى: أتقتلون رجلاً دون جرم غير أنه قال: ربي

الله، وقد جاءكم بالحجج والبراهين الدالة على صدقه في دعواه أنه مرسل من ربه؟! وإن قُدِّر أنه كاذب فضرر كذبه عائد عليه، وإن يكن صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم به من العذاب عاجلاً، إن الله لا يوفق للحق من هو متجاوز لحدوده، مفتر عليه وعلى رسله.

يا قوم، لكم الملك اليوم غالبين في أرض مصر، فمن ينصرنا من عذاب الله إن جاءنا بسبب قتل موسى؟! قال فرعون: الرأي رأيي والحكم حكمي، وقد رأيت أن أقتل موسى؛ دفعاً للشر والفساد، وما أرشدكم إلا الصواب والسداد.

وقال الذي آمن ناصحاً قومه: إني أخاف عليكم - إن قتلتم موسى ظلماً وعدواناً- عذاباً مثل عذاب

الأحزاب الذين تحزّبوا على رسلهم من السابقين فأهلكهم الله. مثل قوم نوح وعاد وثمود والذين جاؤوا من بعدهم، فقد أهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم لرسله، وما الله يريد ظلمًا للعباد، وإنما يعذبهم بذنوبهم؛ جزاءً وفاقًا. ويا قوم، إني أخاف عليكم يوم القيامة، ذلك اليوم الذي ينادي فيه الناس بعضهم بعضًا بسبب قرابة أو جاه ظنًا منهم أن هذا المسلك ينفعهم في هذا الموقف الرهيب. يوم تولون هارين خوفًا من النار، ما لكم من مانع يمنعكم من عذاب الله، ومن يخذله الله ولا يوفقه للإيمان فما له من هادٍ يهديه؛ لأن هداية التوفيق بيد الله وحده.

ولقد جاءكم يوسف من قبل موسى بالبراهين الواضحة على توحيد الله، فما زلتم في شك وتكذيب لما جاءكم به، حتى إذا توفيَّ ازددتم شكًا وارتيابًا، وقلتم: لن يبعث الله من بعده رسولاً. مثل ضلالكم هذا عن الحق يُضِلُّ الله كل من هو متجاوز لحدود الله، شاكٌّ في وحدانيته.

وقال فرعون لوزيره هامان: يا هامان، ابن لي بناءً عاليًا؛ رجاء أن أبلغ طرق السماوات الموصلة إليها، فأنظر إلى معبود موسى الذي يزعم أنه المعبود بحق، وإني لأظنُّ أن موسى كاذب فيما يدَّعيه. وقال الرجل الذي آمن من آل فرعون ناصحًا قومه ومرشدًا إياهم إلى طريق الحق: يا قوم، اتبعوني أدلكم وأرشدكم إلى

طريق الصواب، والهداية إلى الحق. يا قوم، إنما هذه الحياة الدنيا تمتع بملذات منقطعة، فلا تغرَّكُمْ بما فيها من متاع زائل، وإن الدار الآخرة بما فيها من نعيم دائم لا ينقطع هي دار الاستقرار والإقامة، فاعملوا لها بطاعة الله، واحذروا من الانشغال بحياتكم الدنيا عن العمل للآخرة.

فرفضوا نصحه، فقال: ستذكرون ما قدمت لكم من نصح، وتتحسَّرون على عدم قبوله، وأفوِّضُ أموري كلها إلى الله وحده، إن الله لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء. فحفظه الله من سوء مكرهم حين أرادوا قتله.

إصرار فرعون على استئصال المومنين

وَكَانَ فِرْعَوْنُ يَتَحَقَّقُ وَيَعْلَمُ فِي بَاطِنِهِ وَفِي نَفْسِهِ أَنَّ
هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَا مُحَالَةَ،
وَإِنَّمَا كَانَ يُظْهِرُ خِلَافَهُ بَغْيًا وَعُدْوَانًا، وَعُتُوا وَكُفِرَانًا.

وقد قال له مُوسَى: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا
رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ
مَثْبُورًا}. أي : هالكاً.

وعزم فرعون على ألا يبقى موسى ومن آمن معه في
أرض مصر إما بنفيهم أو قتلهم ليتمكن من استعباد
الباقيين.

فدعا موسى عليه وقال في دعائه: ربنا، إنك أعطيت فرعون والأشراف من قومه من زخرف الدنيا وبهارجها زينة، وأعطيتهم أموالاً في هذه الحياة الدنيا، فلم يشكروك على ما أعطيتهم، بل استعانوا بها على الإضلال عن سبيلك، ربنا ائح أموالهم وامحقها، واجعل قلوبهم قاسية، فلا يؤمنون إلا حين يشاهدون العذاب الموجه حين لا ينفعهم إيمانهم. وأمن هارون على دعائه.

قال الله: قد أجبتُ دعاءكما -يا موسى وهارون- على فرعون وأشراف قومه، فاثبتا على دينكما، ولا تنحرفا عنه إلى اتباع سبيل الجهال الذين لا يعلمون طريق الحق.

وَأَمَرَ اللَّهُ مُوسَى بِالْخُرُوجِ بِقَوْمِهِ مِنْ مِصْرَ لَيْلًا،

فلما كانت ليلة يوم عاشوراء، وكان يوم عيد في مصر

وهو يوم الزينة، وكان بعض قوم موسى قد استعار من

قوم فرعون الأقباط ذهبًا للذين به يوم العيد. فَخَرَجَ

موسى بقومه لَيْلًا دون أن يشعر فرعون وقومه مع

انشغالهم بالعيد، وحمل قوم موسى ما استطاعوا حمله

من أموالهم ومتاعهم وأسرعوا بالخروج في الظلام.

خروج موسى ببني إسرائيل من مصر

وَإِنَّ مُوسَى لَمَّا سَارَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ صَلُّوا

الطَّرِيقَ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟، فَقَالَ عُلَمَاؤُهُمْ: إِنَّ يُوسُفَ

لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ، أَخَذَ عَلَيْنَا مَوْتَنَا مِنَ اللَّهِ أَنْ لَا نُخْرِجَ

مِنْ مِصْرَ حَتَّى نَنْقُلَ عِظَامَهُ^(١) مَعَنَا، قَالَ: فَمَنْ يَعْلَمُ
مَوْضِعَ قَبْرِهِ؟، قَالُوا: عَجُوزٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَبَعَثَ
إِلَيْهَا، فَأَتَتْهُ، فَقَالَ: دُلِّينِي عَلَى قَبْرِ يَوْسُفَ، قَالَتْ: حَتَّى
تُعْطِيَنِي حُكْمِي، قَالَ: مَا حُكْمُكَ؟ قَالَتْ: أَكُونُ مَعَكَ
فِي الْجَنَّةِ، فَكَّرَ أَنْ يُعْطِيَهَا ذَلِكَ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ
أَعْطِيَهَا حُكْمَهَا فَانْطَلَقَتْ بِهِمْ إِلَى بُحَيْرَةٍ - مَوْضِعِ
مُسْتَنْقَعِ مَاءٍ - فَقَالَتْ: أَنْضِبُوا هَذَا الْمَاءَ، فَأَنْضَبُوهُ،
قَالَتْ: احْتَفِرُوا، فَاحْتَفَرُوا، فَاسْتَخْرِجُوا عِظَامَ^(٢)

(١) يعني : جسده وبدنه .

(٢) أي: جسده . وكانوا يطلقون " العظام " ويريدون البدن كله ، كما
في حديث ابن عمر: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما بدن قال
له تميم الداري: ألا أتخذ لك منبرا يا رسول الله يجمع أو يحمل
عظامك؟ ، قال: بلى فاتخذ له منبرا مرقاتين .

يُوسُفَ، فَلَمَّا أَقْلَوْهَا إِلَى الْأَرْضِ، إِذَا الطَّرِيقُ مِثْلُ ضَوْءِ
النَّهَارِ.

هلاك فرعون

فَلَمَّا أَصْبَحَ فِرْعَوْنُ وَرَأَى أَنَّهُمْ قَدْ مَضَوْا، أَرْسَلَ فِي
الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، يَتَّبِعُهُمْ بِجُنُودٍ عَظِيمَةٍ كَثِيرَةٍ، فَأَوْحَى
اللَّهُ إِلَى الْبَحْرِ: أَنْ إِذَا ضَرَبَكَ عَبْدِي مُوسَى بِعَصَاهُ،
فَانْفِرْ ائْتِي عَشْرَ فِرْقًا، حَتَّى يَجُوزَ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ، ثُمَّ
الْتَقِ عَلَى مَنْ يَبْقَى بَعْدَهُ مِنْ فِرْعَوْنَ وَأَشْيَاعِهِ {فَلَمَّا تَرَأَى
الْجَمْعَانِ} وَتَقَارَبَا، قَالَ قَوْمُ مُوسَى: {إِنَّا لَمُدْرِكُونَ}. فَقَالَ
مُوسَى: (كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى
مُوسَى (أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ) فَضْرَبَ مُوسَى الْبَحْرَ
بِعَصَاهُ حِينَ دَنَا أَوَائِلُ جُنْدِ فِرْعَوْنَ مِنْ أَوَاخِرِ جُنْدِ

مُوسَى، فَانْفَرَقَ الْبَحْرُ كَمَا أَمَرَهُ رَبُّهُ، فَلَمَّا أَنْ جَاوَزَ مُوسَى
وَأَصْحَابُهُ كُلُّهُمْ؛ أَرَادَ مُوسَى أَنْ يَضْرِبَهُ بِعَصَاهُ الْبَحْرَ حَتَّى
يَعُودَ كَمَا كَانَ، لِيَصِيرَ حَائِلًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ فِرْعَوْنَ، فَلَا
يَصِلُ إِلَيْهِمْ. فَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَتْرُكَهُ عَلَى حَالِهِ سَاكِنًا (وَاتْرِكَ
الْبَحْرَ رَهْوًا) وَبَشَّرَهُ بِأَنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ فِيهِ، وَأَنَّهُ لَا
يَخَافُ دَرَكًا وَلَا يَخْشَى. فَلَمَّا دَخَلَ فِرْعَوْنُ وَأَصْحَابُهُ التَّقَى
الْبَحْرَ عَلَيْهِمْ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ. وَلَمَّا أَغْرَقَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ قَالَ
فِرْعَوْنُ: {آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ
وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ} وَكَانَ جَبْرِيلُ يَأْخُذُ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ
فَيَدُسُّهُ فِيهِ، مَخَافَةً أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ.

بنو إسرائيل بعد نجاتهم من فرعون

فَلَمَّا أَنْ جَاوَزَ مُوسَى الْبَحْرَ قَالُوا: إِنَّا نَخَافُ أَنْ لَا يَكُونَ فِرْعَوْنُ غَرِقَ، فَلَا نُؤْمِنُ بِهَلَاكِهِ، فَدَعَا رَبَّهُ فَأَخْرَجَهُ لَهُ بِبَدَنِهِ، حَتَّى اسْتَيْقَنُوا بِهَلَاكِهِ. ثُمَّ {أَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكِفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ، قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ، إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَرِّءٌ مِمَّا هُمْ فِيهِ، وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} قَدْ رَأَيْتُمْ مِنَ الْعِبَرِ، وَسَمِعْتُمْ مَّا يَكْفِيكُمْ.

ذهاب موسى لميقات ربه

وَمَضَى مُوسَى فَأَنْزَلَهُمْ مَنَزِلًا، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: أَطِيعُوا هَارُونَ، فَإِنِّي قَدْ اسْتَخْلَفْتُهُ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى

رَبِّي، وَأَجَلَهُمْ ثَلَاثِينَ يَوْمًا أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ. فَلَمَّا أَتَى رَبَّهُ،
 أَرَادَ أَنْ يُكَلِّمَهُ فِي ثَلَاثِينَ، وَقَدْ صَامَهُنَّ، لَيْلَهُنَّ وَنَهَارَهُنَّ،
 كَرِهَ أَنْ يُكَلِّمَ رَبَّهُ وَيَخْرُجَ مِنْ فَمِهِ رِيحٌ فَمِ الصَّائِمِ، فَتَنَاولَ
 مُوسَى شَيْئًا مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ فَمَضَغَهُ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ
 حِينَ أَتَاهُ: أَفْطَرْتُ؟ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِالَّذِي كَانَ - قَالَ: رَبِّ
 كَرِهْتُ أَنْ أَكَلِّمَكَ إِلَّا وَفِي طَيِّبِ الرِّيحِ، قَالَ: أَوْ مَا
 عَلِمْتَ يَا مُوسَى أَنَّ رِيحَ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدِي مِنْ
 رِيحِ الْمِسْكِ؟، ارْجِعْ حَتَّى تَصُومَ عَشْرًا، ثُمَّ أَتْنِي، فَفَعَلَ
 مُوسَى مَا أَمَرَ بِهِ.

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى فِي الْوَقْتِ الَّذِي أَمَرَ بِالْمَجِيءِ فِيهِ،
 {وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، إِلَّا أَنَّهُ أَسْمَعَهُ الْخُطَابَ،

فَنَادَاهُ وَنَاجَاهُ، وَقَرَّبَهُ وَأَذْنَاهُ^(١)، فَلَمَّا أُعْطِيَ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ
 الْعَلِيَّةَ وَالْمُرْتَبَةَ السَّنِيَّةَ، وَسَمِعَ الْخُطَابَ، سَأَلَ رَفَعَ
 الْحِجَابَ، فَقَالَ لِلْعَظِيمِ الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ: {رَبِّي
 أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ. قَالَ لَنْ تَرَانِي} ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى لِمُوسَى أَنَّهُ
 لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَثْبُتَ عِنْدَ تَجَلِّيهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّ
 الْجَبَلَ الَّذِي هُوَ أَقْوَى وَأَكْبَرُ ذَاتًا، وَأَشَدُّ ثَبَاتًا مِنْ
 الْإِنْسَانِ، لَا يَثْبُتُ عِنْدَ التَّجَلِّيِ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ:
 {وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي}
 فَإِنَّهُ أَكْبَرُ مِنْكَ وَأَشَدُّ خَلْقًا، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ فَنَظَرَ
 إِلَى الْجَبَلِ لَا يَتِمَّالِكُ، وَأَقْبَلَ الْجَبَلُ فِدُكَّ عَلَى أَوَّلِهِ، وَرَأَى
 مُوسَى مَا يَصْنَعُ الْجَبَلُ، فَخَرَّ صَعِقًا مَغْشِيًّا عَلَيْهِ. {فَلَمَّا

(١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} قَالَ: «سَمِعَ صَرِيْفَ الْقَلَمِ حِينَ كَتَبَ فِي اللُّوحِ».

أَفَاقَ { قَالَ: سُبْحَانَكَ تَنْزِيَهُ، وَتَعْظِيمُ، وَإِجْلَالُ لِلَّهِ أَنْ
يَرَاهُ بِعَظَمَتِهِ أَحَدٌ. { تَبَّتْ إِلَيْكَ } فَلَسْتُ أَسْأَلُ بَعْدَ هَذَا
الرُّؤْيَا: { وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ } أَنَّهُ لَا يَرَاكَ حَيًّا إِلَّا مَاتَ،
وَلَا يَابِسُ إِلَّا تَدَهَّدَ. ذَاكَ نُورُهُ الَّذِي هُوَ نُورُهُ إِذَا تَجَلَّى
لِشَيْءٍ لَا يَقُومُ لَهُ شَيْءٌ « حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأُحْرِقَتْ
سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ ».

إنزال الله التوراة على موسى

وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ لَيْلَ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ، وَمَا أَهْلَكَ اللَّهُ قَوْمًا، وَلَا قَرْنًا، وَلَا أُمَّةً، وَلَا أَهْلَ قَرْيَةٍ بِعَذَابٍ مِنَ السَّمَاءِ مُنْذُ أُنْزِلَ التَّوْرَةُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، غَيْرَ أَهْلِ الْقَرْيَةِ الَّتِي مُسِخَتْ قِرْدَةً، {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}، فبعد نزول التوراة لم يهلك الله مكذبي الأمم بعذاب من السماء يعمهم، وإنما جاء في التوراة أمر المؤمنين بجهاد الكفار؛ كما أمر بني إسرائيل على لسان موسى بقتال الجبابرة.

وجاء في التوراة نصوص كثيرة تبين أن الله واحد أحد، منزه عن الصاحبة والولد، حي لا يموت، قادر

يفعل ما يشاء، ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته، وأن عبادة غير الله حرام، وصرحت التوراة بوجوب قتل من دعا إلى عبادة غير الله ولو كان هذا الداعي نبياً ذا معجزات عظيمة، وكذلك صرحت بوجوب رجم كل من عبد غير الله أو رغب في عبادة غير الله، وفيها التنزيه لله تعالى وأنه ليس له شبيه، وأن رؤية الله ممتنعة في الدنيا.

وَكَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَءُونَ التَّوْرَةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، ومما نزل فيها: (أن النفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بالأنف، والأذن بالأذن، والسن بالسن، والجروح قصاص)، وفيها: {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}، وفيها وعد الله: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ

بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ)،
 وجاء فيها صفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم:
 "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ، إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَحِزْرًا
 لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمِّيتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَيْسَ
 بِفِظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا صَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ
 بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ،
 حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعُوجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،
 وَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا"، وفيها
 من صفته أيضاً : (يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ
 الْمُنْكَرِ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ،
 وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ)، وفيها
 صفة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : (أَشِدَّاءُ

عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ
فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ
السُّجُودِ).

قصة السامري والعجل

وَلَمَّا رَأَى قَوْمُ مُوسَى أَنَّهُ لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِمْ لِلْأَجَلِ،
سَاءَ لَهُمْ ذَلِكَ. وَكَانَ هَارُونُ قَدْ خَطَبَهُمْ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ
خَرَجْتُمْ مِنْ مِصْرَ، وَلِقَوْمَ فِرْعَوْنَ عَوَارٍ وَوَدَائِعُ، وَلَكُمْ
فِيهِمْ مِثْلُ ذَلِكَ، وَأَنَا أَرَى أَنَّ تَحْتَسِبُوا مَا لَكُمْ عِنْدَهُمْ،
وَلَا أَحِلُّ لَكُمْ وَدِيعَةً وَلَا عَارِيَةً، وَلَسْنَا بِرَادِّينَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا
مِنْ ذَلِكَ، وَلَا مُمَسِكِيهِ لَأَنْفُسِنَا، فَحَفَرَ حَفِيرًا، وَأَمَرَ كُلَّ
قَوْمٍ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ مِنْ مَتَاعٍ أَوْ حِلْيَةٍ أَنْ يَقْدِفُوهُ
فِي ذَلِكَ الْحَفِيرِ، ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهِ النَّارَ فَأَحْرَقَهُ، فَقَالَ: لَا

يَكُونُ لَنَا وَلَا لَهُمْ. وَكَانَ السَّامِرِيُّ رَجُلًا مِنْ قَوْمٍ يَعْبُدُونَ
الْبَقَرَ، جِيرَانٍ لَهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَاحْتَمَلَ
مَعَ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ احْتَمَلُوا، فَقَضِيَ لَهُ أَنْ
رَأَى أَثَرًا، فَأَخَذَ مِنْهُ قَبْضَةً، فَمَرَّ بِهَارُونَ، فَقَالَ لَهُ
هَارُونَ: يَا سَامِرِيُّ، أَلَا تُلْقِي مَا فِي يَدِكَ؟ - وَهُوَ قَابِضٌ
عَلَيْهِ، لَا يَرَاهُ أَحَدٌ طَوَالَ ذَلِكَ - قَالَ: هَذِهِ قَبْضَةٌ مِنْ أَثَرِ
الرَّسُولِ الَّذِي جَاوَزَ بِكُمْ الْبَحْرَ، فَلَا أَلْقِيهَا بِشَيْءٍ، إِلَّا أَنْ
تَدْعُوا اللَّهَ إِذَا أَلْقَيْتُهَا أَنْ يَكُونَ مَا أُرِيدُ، فَأَلْقَاهَا، وَدَعَا لَهُ
هَارُونَ، وَقَالَ: أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ عَجَلًا، فَاجْتَمَعَ مَا كَانَ فِي
الْحُفْرَةِ مِنْ مَتَاعٍ أَوْ حَلِيَّةٍ أَوْ نُحَاسٍ أَوْ حَدِيدٍ، فَصَارَ عَجَلًا
أَجُوفَ، لَيْسَ فِيهِ رُوحٌ، لَهُ خُورٌ، وَمَا كَانَ لَهُ صَوْتُ
قَطُّ، إِنَّمَا كَانَتْ الرِّيحُ تَدْخُلُ مِنْ دُبُرِهِ، وَتَخْرُجُ مِنْ فِيهِ،

وَكَانَ ذَلِكَ الصَّوْتُ مِنْ ذَلِكَ، فَتَفَرَّقَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِرْقًا،
 فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: يَا سَامِرِيُّ، مَا هَذَا؟، فَأَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ؟،
 قَالَ: هَذَا رَبُّكُمْ، وَلَكِنَّ مُوسَى أَضَلَّ الطَّرِيقَ، وَقَالَتْ
 فِرْقَةٌ: لَا نَكْذِبُ بِهِذَا حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى، فَإِنْ كَانَ
 رَبَّنَا لَمْ نَكُنْ ضَيَّعْنَاهُ وَعَجَزْنَا فِيهِ حِينَ رَأَيْنَاهُ، وَإِنْ لَمْ
 يَكُنْ رَبَّنَا، فَإِنَّا نَتَّبِعُ قَوْلَ مُوسَى، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: هَذَا عَمَلُ
 الشَّيْطَانِ، وَلَيْسَ بِرَبَّنَا، وَلَا نُؤْمِنُ بِهِ، وَلَا نُصَدِّقُ،
 وَأَشْرَبَ فِرْقَةٌ فِي قُلُوبِهِمُ التَّصَدِيقَ بِمَا قَالَ السَّامِرِيُّ فِي
 الْعَجَلِ، فَقَالَ لَهُمْ هَارُونُ: {يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ
 الرَّحْمَنُ} لَيْسَ هَكَذَا، قَالُوا: فَمَا بَالُ مُوسَى وَعَدَنَا ثَلَاثِينَ
 يَوْمًا ثُمَّ أَخْلَفَنَا؟، هَذِهِ أَرْبَعُونَ قَدْ مَضَتْ، فَقَالَ
 سَفَهَاؤُهُمْ: أَخْطَأَ رَبَّهُ، فَهُوَ يَطْلُبُهُ وَيَتَّبَعُهُ.

رجوع موسى إلى بني إسرائيل

فَلَمَّا كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى وَقَالَ لَهُ مَا قَالَ، أَخْبَرَهُ بِمَا لَقِيَ قَوْمَهُ مِنْ بَعْدِهِ، (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ) وَلَيْسَ الْخَبْرُ كَالْمُعَايَنَةِ، إِنَّ اللَّهَ خَبَّرَ مُوسَى بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي الْعَجَلِ، فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاخَ، فَلَمَّا عَايَنَ مَا صَنَعُوا أَلْقَى الْأَلْوَاخَ، (وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجْحَرُ إِلَيْهِ، قَالَ ابْنَ أُمَّ: إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشِمْتُ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) ثُمَّ إِنَّهُ عَذَرَ أَخَاهُ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُ، وَانْصَرَفَ إِلَى السَّامِرِيِّ، فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟، قَالَ: قَبِضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ وَفَطِنْتُ لَهَا، وَعُمِّيتُ عَلَيْكُمْ

فَقَذَفْتُهَا، {وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي، قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ
لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ^(١)، وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ
تُخْلَفَهُ، وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا،
لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا} وَلَوْ كَانَ إِلَهًا لَمْ نَخْلُصْ
إِلَى ذَلِكَ مِنْهُ، فَاسْتَيْقَنَ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَاعْتَبَطَ الَّذِينَ
كَانَ رَأْيُهُمْ فِيهِ مِثْلَ رَأْيِ هَارُونَ، وَقَالُوا جَمَاعَتُهُمْ
لِمُوسَى: سَلْ لَنَا رَبَّكَ أَنْ يَفْتَحَ لَنَا بَابَ تَوْبَةٍ نَصْنَعُهَا،
فَتَكْفُرَ مَا عَمِلْنَا. فَاخْتَارَ قَوْمُهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِذَلِكَ،
لِإِثْنَيْنِ الْجَبَلِ، مِمَّنْ لَمْ يُشْرِكْ فِي الْعِجْلِ، فَاِنْطَلَقَ بِهِمْ
لِيَسْأَلَ لَهُمُ التَّوْبَةَ، فَرَجَفَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ، فَاسْتَحْيَا نَبِيُّ
اللَّهِ مِنْ قَوْمِهِ وَوَفَدِهِ حِينَ فَعَلَ بِهِمْ مَا فَعَلَ، فَقَالَ:

(١) أي أن تكون عقوبتك في الحياة الدنيا أن تعيش منبوءاً تقول لكل
أحد: لا أَمْسُ ولا أَمْسُ. قيل: أصيب بمرض في جلده.

{ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
السُّفَهَاءُ مِنَّا } وَفِيهِمْ مَنْ كَانَ اللَّهُ اطَّلَعَ عَلَى مَا أُشْرِبَ
مِنْ حُبِّ الْعِجْلِ إِيْمَانًا بِهِ، فَلِذَلِكَ رَجَعَتْ بِهِمُ الْأَرْضُ،
فَقَالَ: { عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ
شَيْءٍ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ
بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي
يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ } فَقَالَ: رَبِّ
سَأَلْتُكَ التَّوْبَةَ لِقَوْمِي، فَقُلْتَ: إِنَّ رَحْمَتَكَ كَتَبْتَهَا لِقَوْمٍ
غَيْرِ قَوْمِي، فَلَيْتَكَ أَخَّرْتَنِي حَتَّى تُخْرِجَنِي حَيًّا فِي أُمَّةٍ ذَلِكَ
الرَّجُلِ الْمَرْحُومَةِ، فَقَالَ اللَّهُ - عز وجل - لَهُ: إِنَّ تَوْبَتَهُمْ
أَنْ يَقْتُلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ كُلَّ مَنْ لَقِيَ مِنْ وَالِدٍ وَوَلَدٍ،
فَيَقْتُلُهُ بِالسَّيْفِ لَا يُبَالِي مَنْ قَتَلَ فِي ذَلِكَ الْمَوْطِنِ، وَأَتَى

أُولَئِكَ الَّذِينَ خَفِيَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ مَا أَطْلَعَ اللَّهُ عَلَيْهِ
 مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَاعْتَرَفُوا بِهَا، وَفَعَلُوا مَا أُمِرُوا بِهِ، فَغَفَرَ اللَّهُ
 لِلْقَاتِلِ وَالْمَقْتُولِ، ثُمَّ سَارَ بِهِمْ مُوسَى مُتَوَجِّهًا نَحْوَ الْأَرْضِ
 الْمُقَدَّسَةِ، وَأَخَذَ الْأَلْوَاحَ بَعْدَ مَا سَكَتَ عَنْهُ الْغَضَبُ،
 فَأَمَرَهُمْ بِالَّذِي أَمَرَ بِهِ أَنْ يُبَلِّغَهُمْ مِنَ الْوِظَائِفِ، فَثَقُلَ
 ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَأَبَوْا أَنْ يُقَرُّوا بِهَا، فَتَنَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَبَلَ
 {كَانَهُ ظِلَّةٌ} وَدَنَا مِنْهُمْ، حَتَّى خَافُوا أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِمْ،
 فَأَخَذُوا الْكِتَابَ بِأَيْمَانِهِمْ، وَهُمْ مُضْغُونٌ إِلَى الْجَبَلِ
 وَالْأَرْضِ، وَالْكِتَابُ بِأَيْدِيهِمْ، وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى الْجَبَلِ
 مَخَافَةً أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِمْ. ^(١)

(١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: وَأَنَا أَعْلَمُ لَمْ سَجَدَتِ الْيَهُودُ عَلَى حَرْفِ
 وَجْهِهَا، قَوْلُ اللَّهِ: وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ
 بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ. قَالَ: سَجَدُوا وَجَعَلُوا يَنْظُرُونَ إِلَى الْجَبَلِ

قصة موسى مع الخضر عليهما السلام

وَقَامَ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، يُذَكِّرُهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ - وَأَيَّامِ اللَّهِ نِعْمَاؤُهُ وَبَلَاؤُهُ - ذَكَرَ النَّاسَ يَوْمًا حَتَّى إِذَا فَاضَتْ الْعُيُونُ وَرَقَّتِ الْقُلُوبُ؛ وَلَّى. فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا. فَأَذْرَكَ رَجُلٌ فَقَالَ: أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ، هَلْ فِي الْأَرْضِ أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنْكَ؟ قَالَ: لَا. مَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ رَجُلًا خَيْرًا وَأَعْلَمَ مِنِّي. فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرِدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: إِنِّي أَعْلَمُ بِالْخَيْرِ عِنْدَ مَنْ هُوَ، إِنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ - عَبْدُنَا خَضِرٌ - هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ: يَا رَبِّ فدلّني على

فَوَقَّهْمُ بِحَرْفِ وَجْهَهُمْ -يَخَافُونَ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِمْ- ، كَانَتْ سَجْدَةً رَضِيَهَا اللَّهُ عَنْهُمْ، فَاتَّخَذُوهَا سَنَةً.
قَالَ : فَلَا تَرَى يَهُودِيًّا إِذَا سَجَدَ إِلَّا وَهُوَ يَسْجُدُ عَلَى حَاجِبِهِ.

هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي آتَيْتَهُ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ تُؤْتِنِي حَتَّى أَتَعَلَّمَ مِنْهُ، قَالَ: يَدُلُّكَ عَلَيْهِ بَعْضُ زَادِكَ. فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ الْحُوتَ آيَةً، فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتًا مَالِحًا فِي مِكْتَلٍ، فَإِذَا فَقَدْتَ الْحُوتَ؛ فَارْجِعْ فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ حَيْثُ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ. فَانْطَلَقَ بِفَتَاهُ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، وَحَمَلًا حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، وَقَالَ لِفَتَاهُ: لَا أَكْلَفُكَ إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنِي بِحَيْثُ يُفَارِقُكَ الْحُوتُ، قَالَ: مَا كَلَّفْتُ كَثِيرًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ}، حَتَّى إِذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا، فَرَقَدَ مُوسَى، وَأَصَابَ الْحُوتَ ثَرَى الْبَحْرِ وَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي ظِلِّ صَخْرَةٍ فِي مَكَانٍ ثَرَيَّانَ (مَبْلُولٍ) فَتَحَرَّكَ فِي الْمِكْتَلِ فَقَلَبَ الْمِكْتَلَ فَخَرَجَ

فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ وَانْسَرَبَ^(١) ، فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ
سَرَبًا، فَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنِ الْحُوتِ جِزْيَةَ الْمَاءِ، فَجَعَلَ لَا
يَلْتَمِعُ عَلَيْهِ، حَتَّى كَانَتْ أَثَرُهُ فِي حَجَرٍ، حَتَّى صَارَ مِثْلَ
الْكُوَّةِ^(٢). فَقَالَ فَتَاهُ: لَا أَوْقِظُهُ. فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ مُوسَى -
عليه السلام - نَسِيَ صَاحِبَهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالْحُوتِ فَأَنْطَلَقَا
بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتَهُمَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ مُوسَى قَالَ لِفَتَاهُ:
{ آتِنَا غَدَاءَنَا، لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا } وَلَمْ يَجِدْ
مُوسَى مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أَمْرَبَهُ،
فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ: { أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَإِنِّي نَسِيتُ
الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ

(١) قيل: أصل السرب الذهاب في انحدار. والسرب: المنحدر. وسرب
الدمع: سال. وانسربت الحبة إلى جحرها.

(٢) قال سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: قَالَ لِي عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ: هَكَذَا ، كَأَنَّ أَثَرَهُ فِي
حَجَرٍ، وَحَلَقَ بَيْنَ إِبْهَامَيْهِ وَالتَّتَيْنِ تَلْيَانَهُمَا.

فِي الْبَحْرِ عَجَبًا { فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا ^(١)، وَلِمُوسَى وَفَتَاهُ
عَجَبًا، فَقَالَ مُوسَى: {ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ، فَارْتَدَّا عَلَى
آثَارِهِمَا قَصَصًا}، فَرَجَعَا يُقْصَصَانِ آثَارَهُمَا حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى
الصَّخْرَةِ، فَوَجَدَا فِي الْبَحْرِ كَالطَّاغِي ^(٢) مَمَرَّ الْحُوتِ،
وَأَبْصَرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَثَرَ الْحُوتِ، فَأَخَذَا إِثْرَ الْحُوتِ
يَمْشِيَانِ عَلَى الْمَاءِ حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى جَزِيرَةٍ مِنْ جَزَائِرِ الْبَحْرِ
فَقَالَ مُوسَى: هَاهُنَا وَصِفَ لِي، فَأَطَافَ بِهَا، فَإِذَا هُوَ
بِالْخَضِرِ ^(٣)، مُسْتَلْقِيًا عَلَى الْقَفَا مُسَجًى بِثَوْبٍ . فَسَلَّمَ
عَلَيْهِ مُوسَى، فَكَشَفَ الْخَضِرُ عَنْ وَجْهِهِ وَقَالَ: هَلْ
بِأَرْضِي مِنْ سَلَامٍ؟، مَنْ أَنْتَ؟، فَقَالَ: أَنَا مُوسَى، فَقَالَ:

(١) أَي مَسْلَكًا كَالسَّرْبِ .

(٢) كَالْجِسْرِ الْمَقْوَسِ أَوْ الرِّفِّ الْمَقْوَسِ .

(٣) وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْخَضِرُ، لِأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى فُرْوَةٍ بَيْضَاءَ، فَاهْتَزَّتْ تَحْتَهُ
خَضِرَاءَ . وَالْفُرْوَةُ: أَرْضٌ بَيْضَاءَ لَيْسَ فِيهَا نَبَاتٌ، أَوْ الْحَشِيشُ الْأَبْيَضُ
وَمَا يَشْبَهُهُ .

مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَا جَاءَ بِكَ؟،
 قَالَ: {هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا؟،
 قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا} يَا مُوسَى، إِنِّي عَلَى عِلْمٍ
 مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ، لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ
 عَلَّمَكَهُ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ، أَمَا يَكْفِيكَ أَنَّ التَّورَةَ بِيَدَيْكَ، وَأَنَّ
 الْوَحْيَ يَأْتِيكَ؟ {وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا}،
 شَيْءٌ أَمَرْتُ بِهِ أَنْ أَفْعَلَهُ، إِذَا رَأَيْتَهُ لَمْ تَصْبِرْ، {قَالَ:
 سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا}، فَقَالَ
 لَهُ الْخَضِرُ: {فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى
 أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا} قَالَ: نَعَمْ. فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى
 سَاحِلِ الْبَحْرِ، لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ،
 فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعَرَفُوا الْخَضِرَ، فَقَالُوا: عَبْدُ اللَّهِ

الصَّاحُ خَضِرٌ؟، لَا نَحْمِلُهُ بِأَجْرٍ. فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ.
فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ
نَقْرَتَيْنِ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ الْخَضِرُ: يَا مُوسَى، مَا عَلِمِي
وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ، إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ
مِنْ هَذَا الْبَحْرِ. فَخَرَجَ مَنْ كَانَ فِيهَا وَتَخَلَّفَ لِيُخْرِقَهَا،
فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنَ الْأَوَاحِ السَّفِينَةِ فَزَرَعَهُ، فَخَرَقَهَا،
وَوَتَدَ فِيهَا وَتَدًا، فَقَالَ مُوسَى: {أَخَرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا؟}
قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتُهَا
لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا؟ {لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا} يعني: مُنْكَرًا .
{قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟}، قَالَ: لَا
تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ، وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا،
فَكَانَتْ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا، وَالْوُسْطَى شَرْطًا،

وَالثَّالِثَةُ عَمْدًا. فَلَمَّا خَرَجَا مِنَ الْبَحْرِ، مَرُّوا بِغُلَامٍ يَلْعَبُ
مَعَ الصَّبْيَانِ، فَأَضْجَعَهُ، ثُمَّ ذَبَحَهُ بِالسَّكِّينِ فَأَخَذَ الْخَضِرُ
بِرَأْسِهِ فَقَلَعَهُ بِيَدِهِ. فَذَعَرَ عِنْدَهَا مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ
- ذَعْرَةً مُنْكَرَةً، فَقَالَ: {أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً} مُسْلِمَةً لَمْ
تَعْمَلْ بِالْحِنْثِ {بِغَيْرِ نَفْسٍ، لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا، قَالَ:
أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟} (١).

قَالَ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عِنْدَ هَذَا
الْمَوْضِعِ لَمَّا حَكَاهُ لِأَصْحَابِهِ: رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى
مُوسَى (٢)، لَوْلَا أَنَّهُ عَجِلَ، لَرَأَى الْعَجَبَ، وَلَكِنَّهُ أَخَذَتْهُ
مِنْ صَاحِبِهِ ذِمَامَةً (٣)، {قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا

(١) قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنَ الْأُولَى.

(٢) قَالَ أَبِي: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِذَا ذَكَرَ أَحَدًا
مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بَدَأَ بِنَفْسِهِ، فَقَالَ: رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى أَخِي كَذَا . .

(٣) اسْتَحْيَاءً لَتَكَرَّارِ مَخَالَفَتِهِ.

فَلَا تُصَاحِبْنِي، قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا}، وَلَوْ صَبَرَ لَرَأَى
الْعَجَبَ.

{فَانْطَلَقَا، حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ { لِيَمَّا، فَطَافَا فِي
الْمَجَالِسِ وَ {اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا،
فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ}، مَائِلٌ {فَأَقَامَهُ} أَوْمًا
الْخَضِرُ بِيَدِهِ هَكَذَا^(١) فَاسْتَقَامَ. فَقَالَ لَهُ مُوسَى مِمَّا نَزَلَ
بِهِمْ مِنَ الْجَهْدِ : قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونَا وَلَمْ يُضَيِّفُونَا،
عَمَدْتَ إِلَى حَائِطِهِمْ؟ {لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ
أَجْرًا}؟^(٢). {قَالَ: هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ}، فَأَخَذَ مُوسَى
- عَلَيْهِ السَّلَام - بِطَرْفِ ثَوْبِهِ، فَقَالَ: حَدِّثْنِي، قَالَ:
{سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا، أَمَّا السَّفِينَةُ

(١) وَأَشَارَ سُفْيَانُ -رَاوِي الْحَدِيث- كَأَنَّهُ يَمْسَحُ شَيْئًا إِلَى فَوْقِ.

(٢) قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: أَجْرًا نَاكُلُهُ.

فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا
وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَضْبًا {^(١) فَأَرَدْتُ
إِذَا هِيَ مَرَّتْ بِهِ وَجَدَهَا مُنْخَرِقَةً فَيَدَعَهَا لِعِيبِهَا، فَإِذَا
جَاوَزُوا، أَصْلَحُوهَا فَاثْتَفَعُوا بِهَا، {وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ
أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ} وَأَمَّا الْغُلَامُ فَطُبِعَ يَوْمَ طُبِعَ كَافِرًا، وَكَانَ
أَبَوَاهُ قَدْ عَطَفَا عَلَيْهِ {فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا}
بَأَنْ يَحْمِلَهُمَا حُبُّهُ عَلَى أَنْ يُتَابِعَاهُ عَلَى دِينِهِ، فَلَوْ أَنَّهُ
أَدْرَكَ، أَرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا، {فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا
خَيْرًا مِنْهُ زَكَاتٍ} {وَأَقْرَبَ رُحْمًا} هُمَا بِهِ أَرْحَمُ مِنْهُمَا
بِالْأَوَّلِ. فَوَقَعَ أَبُوهُ عَلَى أُمِّهِ، فَعَلِقْتُ، فَوَلَدَتْ مِنْهُ خَيْرًا
مِنْهُ زَكَاتٍ وَأَقْرَبَ رُحْمًا، {وَأَمَّا الْجِدَارُ، فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ

(١) قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - يَقْرَأُ:
{وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَضْبًا}.

يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُ لَهُمَا، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا^(١)، فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا، وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا، رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي، ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا^(٢).

حياء موسى وإيذاء بني إسرائيل له

وَكَاثُ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَغْتَسِلُونَ عُرَاءً، يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى سَوَاةٍ بَعْضٍ، وَكَانَ نَبِيُّ اللَّهِ مُوسَى - عليه السلام - رَجُلًا حَيًّا سَتِيرًا، مَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتَحْيَاءً مِنْهُ، يَغْتَسِلُ وَحْدَهُ وَيَسْتَتِرُ إِذَا اغْتَسَلَ. فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا يَسْتَتِرُ

(١) قال ابن عباس رضي الله عنه : حفظهما بصلاح أبيهما، وما ذكر منهما صلاحاً.

(٢) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى صَبَرَ ، حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا .

مُوسَى هَذَا السَّتْرُ، إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ، إِمَّا بَرَصٌ، وَإِمَّا
أُذْرَةً^(١) وَإِمَّا آفَةً. وَإِنَّ اللَّهَ - عز وجل - أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ
مِمَّا قَالُوا؛ فَذَهَبَ مُوسَى - عليه السلام - يَوْمًا يَغْتَسِلُ
فَوَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَى حَجَرٍ ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَغَ، أَقْبَلَ إِلَى
ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا، فَفَرَّ الْحَجَرُ بِثَوْبِهِ، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ
فَخَرَجَ فِي إِثْرِهِ يَقُولُ: ثَوْبِي يَا حَجَرُ، ثَوْبِي يَا حَجَرُ. حَتَّى
انْتَهَى بِهِ إِلَى مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَتَوَسَّطَهُمْ فَرَأَوْهُ
عُرْيَانًا، فَإِذَا أَحْسَنُ النَّاسِ خَلْقًا وَأَعْدَلُهُمْ صُورَةً وَأَبْرَأَهُ
مِمَّا كَانُوا يَقُولُونَ. فَقَالَ الْمَلَأُ: قَاتَلَ اللَّهُ أَفَّاكِي بَنِي
إِسْرَائِيلَ، وَاللَّهِ مَا بِمُوسَى مِنْ بَأْسٍ. فَقَامَ الْحَجَرُ^(٢)،

(١) عَظْمُ الْخَصِيَّتَيْنِ.

(٢) أَي: تَوَقَّفَ، وَأَقَامَ فِي مَوْضِعِهِ. وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: (وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا). أَي: تَوَقَّفُوا.

وَأَخَذَ نَبِيُّ اللَّهِ ثَوْبَهُ وَلَبِسَهُ، وَطَفِقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بَعْصَاهُ،
فَقَالَ اللَّهُ إِنَّ بِالْحَجَرِ لِنَدْبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ، ثَلَاثًا، أَوْ أَرْبَعًا أَوْ
خَمْسًا. فَكَانَتْ بَرَاءَتُهُ الَّتِي بَرَّاهُ اللَّهُ - عز وجل - بِهَا،
فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
آذَوْا مُوسَى، فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا، وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا}.

قصة البقرة

وَكَانَتْ مَدِينَتَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ إِحْدَاهُمَا حَصِينَةٌ
وَلَهَا أَبْوَابٌ، وَالْأُخْرَى خَرِبَةٌ. فَكَانَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ
الْحَصِينَةِ إِذَا أُمْسُوا أَغْلَقُوا أَبْوَابَهَا وَإِذَا أَصْبَحُوا قَامُوا عَلَى
سُورِ الْمَدِينَةِ فَنَظَرُوا، هَلْ حَدَثَ فِيهَا حَوْلَةٌ حَدَثٌ؟
فَأَصْبَحُوا يَوْمًا فَإِذَا شَيْخٌ قَتِيلٌ مَطْرُوحٌ بِأَصْلِ مَدِينَتِهِمْ،
فَأَقْبَلَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ الْخَرِبَةِ فَقَالُوا: أَقْتَلْتُمْ صَاحِبَنَا؟ وَابْنُ

أَخٍ لَهُ شَابٌّ يَبْكِي عِنْدَهُ وَيَقُولُ: قَتَلْتُمْ عَمِّي قَالُوا: وَاللَّهِ
مَا فَتَحْنَا مَدِينَتَنَا مُنْذُ أَغْلَقْنَاهَا وَمَا نُدِينَا^(١) مِنْ دَمٍ
صَاحِبِكُمْ هَذَا بِشَيْءٍ فَأَتَوْا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَوْحَى
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {إِنَّ اللَّهَ
يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً}، {قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا}؛ نَحْنُ
نَسْأَلُكَ عَنْ أَمْرِ هَذَا الْقَتِيلِ، وَأَنْتَ تَقُولُ هَذَا. {قَالَ
أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} فَلَا أَقُولُ عَنْهُ غَيْرَ مَا
أَوْحَى إِلَيَّ. وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَجَابَنِي حِينَ سَأَلْتُهُ عَمَّا
سَأَلْتُمُونِي عَنْهُ أَنْ أَسْأَلَهُ فِيهِ.

وَلَوْ أَنَّهُمْ عَمَدُوا إِلَى أَيِّ بَقْرَةٍ فَذَبَحُوهَا لَحَصَلَ
الْمَقْصُودُ مِنْهَا، وَلَكِنَّهُمْ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ. {قَالُوا

(١) مِنَ النَّدَى وَالْبَلَلِ.

ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ}، فَسَأَلُوا عَنْ سِنَّهَا وَعَنْ
لَوْنِهَا وَعَنْ صِفَتِهَا فَأَجِيبُوا بِمَا عَزَّ وَجُودُهُ عَلَيْهِمْ. حيث
أَمَرُوا بِذَبْحِ بَقَرَةٍ عَوَانٍ؛ وَهِيَ الْوَسْطُ بَيْنَ الْفَارِضِ وَهِيَ
الْكَبِيرَةُ، وَالْبَكْرُ وَهِيَ الصَّغِيرَةُ. ثُمَّ شَدَّدُوا، وَضَيَّقُوا عَلَى
أَنْفُسِهِمْ، فَسَأَلُوا عَنْ لَوْنِهَا، فَأَمَرُوا بِصَفْرَاءٍ فَاقِعٍ لَوْنُهَا،
أَيُّ مُشْرَبٍ بِحُمْرَةٍ، تَسُرُّ النَّاطِرِينَ، وَهَذَا اللَّوْنُ عَزِيزٌ. ثُمَّ
شَدَّدُوا أَيْضًا فَقَالُوا: {ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ
الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ} {قَالَ إِنَّهُ
يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ
مُسْلِمَةً لَا شِيَةَ فِيهَا} وَهَذِهِ الصِّفَاتُ أَضِيقُ مِمَّا تَقَدَّمَ،
حَيْثُ أَمَرُوا بِذَبْحِ بَقَرَةٍ، لَيْسَتْ بِالذَّلُولِ، وَهِيَ الْمُدَلَّلَةُ
بِالْحِرَاثَةِ وَسَقَى الْأَرْضَ بِالسَّانِيَةِ، مُسْلِمَةً مِنَ الْعُيُوبِ.

{لَا شَيْءَ فِيهَا} أَيُّ؛ لَيْسَ فِيهَا لَوْنٌ يُخَالِفُ لَوْنَهَا. فَلَمَّا حَدَّدَهَا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ، وَحَصَرَهَا بِهَذِهِ النُّعُوتِ وَالْأَوْصَافِ، وَجَدُوهَا بَعْدَ مَشَقَّةٍ ثُمَّ {قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ} وَهَذَا مِنْ سُوءِ أَدْبِهِمْ.

وَكَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ غُلَامٌ شَابٌّ يَبِيعُ فِي حَانُوتٍ لَهُ، وَكَانَ لَهُ أَبٌ شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ بَلَدٍ آخَرٍ يَطْلُبُ سِلْعَةً لَهُ عِنْدَهُ فَأَعْطَاهُ بِهَا ثَمَنًا فَاِنْطَلَقَ مَعَهُ لِيَفْتَحَ حَانُوتَهُ فَيُعْطِيَهُ الَّذِي طَلَبَ وَالْمُفْتَاحُ مَعَ أَبِيهِ فَإِذَا أَبُوهُ الشَّيْخُ نَائِمٌ فِي ظِلِّ الْحَانُوتِ يَغْطِي نَوْمًا، فَقَالَ أَيْقِظْهُ فَقَالَ: وَاللَّهِ إِنَّ أَبِي لَنَائِمٌ كَمَا تَرَى وَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أُرْوَعَهُ مِنْ نَوْمِهِ. فَاِنْصَرَفَا، فَأَعْطَاهُ ضِعْفَ مَا أَعْطَاهُ، فَعَطَفَ عَلَى أَبِيهِ فَإِذَا هُوَ أَشَدُّ مَا كَانَ نَوْمًا، فَقَالَ: أَيْقِظْهُ

قَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا أُوقِظُهُ أَبَدًا وَلَا أُرَوِّعُهُ مِنْ نَوْمِهِ. فَلَمَّا
 انْصَرَفَ وَذَهَبَ طَالِبُ السِّلْعَةِ اسْتَيْقِظَ الشَّيْخُ فَقَالَ لَهُ
 ابْنُهُ: يَا أَبَتَاهُ وَاللَّهِ لَقَدْ جَاءَ هَاهُنَا رَجُلٌ يَطْلُبُ سِلْعَةً
 كَذًا وَكَذَا فَكَّرِهْتُ أَنْ أُرَوِّعَكَ مِنْ نَوْمِكَ، فَلَا مَهَ الشَّيْخُ،
 فَعَوَّضَهُ اللَّهُ مِنْ بَرِّهِ لِوَالِدِهِ أَنْ نَتَجَتْ^(١) بَقْرَةً مِنْ بَقَرِهِ
 تِلْكَ الْبَقْرَةُ الَّتِي يَطْلُبُهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ، فَأَتَوْهُ فَقَالُوا:
 بَعْنَاهَا، فَقَالَ: لَا أُبِيعُكُمْوهَا، قَالُوا: إِذَنْ نَأْخُذُهَا مِنْكَ،
 قَالَ: إِنْ غَضَبْتُمُونِي سِلْعَتِي فَأَنْتُمْ أَعْلَمُ، فَأَتَوْا مُوسَى عَلَيْهِ
 السَّلَامُ، فَقَالَ: اذْهَبُوا فَأَرْضَوْهُ مِنْ سِلْعَتِهِ، فَقَالُوا:
 حُكْمُكَ؟ قَالَ: حُكْمِي أَنْ تَضَعُوا الْبَقْرَةَ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ
 وَتَضَعُوا ذَهَبًا صَامِتًا فِي الْكِفَّةِ الْأُخْرَى، فَإِذَا مَالَ

(١) أي: أنتجت وولدت.

الذَّهَبُ أَخَذْتُهُ، قَالَ: فَفَعَلُوا وَأَقْبَلُوا بِالْبَقَرَةِ حَتَّى أَتَوْا
بِهَا إِلَى قَبْرِ الشَّيْخِ وَهُوَ بَيْنَ الْمَدِينَتَيْنِ، وَاجْتَمَعَ أَهْلُ
الْمَدِينَتَيْنِ {فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ} أَيُّ؛ وَهُمْ
يَتَرَدَّدُونَ فِي أَمْرِهَا. (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي
اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) وَابْنُ أَخِيهِ عِنْدَ
قَبْرِهِ يَبْكِي، فَضْرَبَ بِبَعْضَةٍ مِنْ لَحْمِهَا الْقَبْرَ، فَقَامَ الشَّيْخُ
يَنْفُضُ رَأْسَهُ يَقُولُ: "قَتَلَنِي ابْنُ أَخِي، طَالَ عَلَيْهِ عُمْرِي
وَأَرَادَ أَخَذَ مَالِي"، وَمَاتَ .

فجعل الله لهم هذه البقرة آية من آياته عز وجل،
بأن تكون البقرة التي تفارق الحياة سبباً لحياة هذا
القتيل؛ إذ لا رابطة في المعقول بين أن تُذبح البقرة،
ويُضرب القتيلُ ببعض أجزائها فيحيا، فلو قيل بضربه

بجزءٍ من بقرة حيةٍ لربما توهم متوهمٌ أَنَّهُ استمدَّ الحياةَ
من حياتها، ولكن أمرهم بضربه بجزءٍ من بقرة ميتة،
لتعود له الحياةُ بإذن الله. ثمَّ ذكَّروهم الله سبحانه أَنه
كما أحيَا هذا القتيلَ بقدرته، كذلك يُحيي الموتى بعد
مماتهم.

رفض بني إسرائيل دخول الأرض

المقدسة

ثُمَّ مَضُوا حَتَّى أَتَوْا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ، فَوَجَدُوا فِيهَا
مَدِينَةً فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارُونَ، فَقَالُوا: {يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا
جَبَّارِينَ} لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِمْ، وَلَا نَدْخُلُهَا مَا دَامُوا فِيهَا، فَإِنْ
يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ.

قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ اللَّهَ، وَهُمَا يُوشِعُ
 بن نون وَكَالِبُ يوفنا : إِنْ كُنْتُمْ إِنَّمَا تَخَافُونَ مِمَّا تَرَوْنَ مِنْ
 أَجْسَامِهِمْ وَعِدَّتِهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَا قُلُوبَ لَهُمْ، وَلَا مَنَعَةَ
 عِنْدَهُمْ، فَادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ، فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ
 غَالِبُونَ، فكان ردهم أنهم {قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا
 أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا، فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ، فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا
 قَاعِدُونَ}، فَأَغْضَبُوا مُوسَى، فَدَعَا عَلَيْهِمْ، وَسَمَّاهُمْ
 فَاسِقِينَ - وَلَمْ يَدْعُ عَلَيْهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ - لِمَا رَأَى مِنْهُمْ
 مِنَ الْمَعْصِيَةِ وَإِسَاءَتِهِمْ، حَتَّى كَانَ يَوْمَئِذٍ، فَاسْتَجَابَ
 اللَّهُ لَهُ، فَسَمَّاهُمْ كَمَا سَمَّاهُمْ مُوسَى : {فَاسِقِينَ}.

وَحَرَّمَهَا عَلَيْهِمْ {أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ}
 يُضْبِحُونَ كُلَّ يَوْمٍ، فَيَسِيرُونَ لَيْسَ لَهُمْ قَرَارٌ.

ثُمَّ ظَلَّلَ عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ فِي النَّهَارِ، وَجَعَلَ لَهُمْ ثِيَابًا لَا
تَبْلَى وَلَا تَتَّسَخُّ، وَجَعَلَ بَيْنَ ظُهُورِهِمْ حَجَرًا مَرْبَعًا، وَأَمَرَ
مُوسَى فَضْرَبَهُ بِعَصَاهُ، فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا،
فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ ثَلَاثَةُ أَغْنِي، وَأَعْلَمَ كُلَّ سَبْطٍ عَيْنَهُمُ الَّتِي
يَشْرَبُونَ مِنْهَا لَا يَزْتَحِلُونَ مِنْ مَنَقَلَةٍ إِلَّا وَجَدَ ذَلِكَ الْحَجَرُ
فِيهِمْ بِالْمَكَانِ الَّذِي كَانَ فِيهِ بِالْأَمْسِ.

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى^(١)، وَلَوْلَا بَنُو

إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْبَثِ الطَّعَامُ، وَلَمْ يَخْزِ اللَّحْمُ.^(٢)

(١) الْمَنَّ: الطَّلُّ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَى الشَّجَرِ كمثل الصمغ، أَشَدَّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ. وقيل: كَانَ يَسْقُطُ عَلَيْهِمْ سُقُوطُ الثَّلْجِ. وَالسَّلْوَى: نوع من الطَّيْرِ يُشَبِّهُ السَّمَاءِ. قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ: الْمَنَّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَكُنْ هَذَا الْحَلْوُ فَقَطْ، بَلْ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِهَا مِنَ النَّبَاتِ الَّذِي يُوجَدُ عَفْوًا مِنْ غَيْرِ صِنْعَةٍ وَلَا عِلَاجٍ وَلَا حَرِّ، فَإِنَّ الْمَنَّ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ أَيْ "مَمْنُونٌ" بِهِ فَكُلُّ مَا رَزَقَهُ اللَّهُ الْعَبْدَ عَفْوًا بِغَيْرِ كَسْبٍ مِنْهُ وَلَا عِلَاجٍ، فَهُوَ مَنَّ مُحَضَّرٌ، وَإِنْ كَانَتْ سَائِرُ نِعَمِهِ مَنَّاً مِنْهُ عَلَى عَبْدِهِ، فَخَصَّ مِنْهَا مَا لَا كَسْبَ لَهُ فِيهِ، وَلَا صُنْعَ بِاسْمِ "الْمَنَّ"، فَإِنَّهُ مَنَّ بِلَا وَاسِطَةِ الْعَبْدِ، وَجَعَلَ سُبْحَانَهُ قُوَّتَهُمُ بِالْتَّيِّهِ "الْكَمَاءُ"، وَهِيَ تَقُومُ مَقَامَ الْخَبْزِ، وَجَعَلَ أَدْمَهُمُ "السَّلْوَى"، وَهُوَ يَقُومُ مَقَامَ اللَّحْمِ، وَجَعَلَ حَلْوَاهُمْ "الطَّلُّ" الَّذِي يَنْزِلُ عَلَى الْأَشْجَارِ يَقُومُ لَهُمْ مَقَامَ الْحَلْوَى. فَكَمُلَ عَيْشُهُمْ.

وَتَأْمَلُ قَوْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْكَمَاءُ مِنَ الْمَنَّ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ" فَجَعَلَهَا مِنْ جَمَلَتِهِ، وَفَرَدًا مِنْ أَفْرَادِهِ، وَالتَّرَنْجِبِينَ الَّذِي يَسْقُطُ عَلَى الْأَشْجَارِ نَوْعٌ مِنَ الْمَنَّ، ثُمَّ غَلَبَ اسْتِعْمَالُ الْمَنَّ عَلَيْهِ عُرْفًا حَادِثًا.

(٢) قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعْنَاهُ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا نَزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى نَهَوْا عَنْ ادْخَارِهِمَا، فَادْخَرُوا فَفَسَدَ وَأَنْتَنَ، وَاسْتَمَرَّ مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتُ.

وفاة موسى عليه السلام

وَكَانَ مَلَكُ الْمَوْتِ يَأْتِي النَّاسَ عِيَانًا، فَأُرْسِلَ إِلَى
 مُوسَى - عليه السلام - فَقَالَ لَهُ: أَجِبْ رَبَّكَ، فَلَطَمَهُ
 مُوسَى^(١) - عليه السلام - فَقَالَ عَيْنَ مَلِكِ الْمَوْتِ، فَرَجَعَ
 الْمَلَكُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَقَالَ: يَا رَبِّ إِنَّكَ أَرْسَلْتَنِي إِلَى
 عَبْدٍ لَكَ لَا يُرِيدُ الْمَوْتَ، وَقَدْ فَقَأَ عَيْنِي، وَلَوْلَا كَرَامَتُهُ

(١) قيل: لأنه دخل عليه ولم يستأذن، ولم يعرفه كما لم يعرف
 إبراهيم ضيوفه من الملائكة، وقيل: لأنه لم يخيِّره والأنبياء تخيِّر.
 وقال ابن حبان: وَلَمَّا كَانَ مِنْ شَرِيعَتِنَا أَنَّ مَنْ فَقَأَ عَيْنَ الدَّاخلِ دَارَهُ
 بغيرِ إِذْنِهِ أَوْ النَّاطِرِ إِلَى بَيْتِهِ بغيرِ أَمْرِهِ جُنَاحٌ عَلَى فَاعِلِهِ، وَلَا حَرَجٌ
 عَلَى مُرْتَكِبِهِ، لِأَخْبَارِ الْجَمَّةِ الْوَاردَةِ فِيهِ الَّتِي أَمْلَيْنَاهَا فِي غيرِ مَوْضِعٍ
 مِنْ كُتُبِنَا: كَانَ جَائِزًا اتِّفَاقُ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ بِشَرِيعَةِ مُوسَى، بِإِسْقَاطِ
 الْحَرَجِ عَمَّنْ فَقَأَ عَيْنَ الدَّاخلِ دَارَهُ بغيرِ إِذْنِهِ، فَكَانَ اسْتِعْمَالُ مُوسَى
 هَذَا الْفِعْلِ مُبَاحًا لَهُ وَلَا حَرَجٌ عَلَيْهِ فِي فِعْلِهِ.

وفي شرح السنة للبخاري (٢٦٧ / ٥): وَقَدْ كَانَ فِي طَبَعِ مُوسَى صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَمِيَّةٌ، وَحِدَّةٌ، عَلَى مَا قَصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِ فِي
 كِتَابِهِ مِنْ وَكَرِهِ الْقَبْطِيِّ، وَالْقَائِهِ الْأَنْوَاحَ، وَأَخْذِهِ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجْرُهُ
 إِلَيْهِ.

عَلَيْكَ، لَعْنُفْتُ بِهِ، فَرَدَّ اللَّهُ - عز وجل - عَلَيْهِ عَيْنَهُ،
وَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ: الْحَيَاةَ تُرِيدُ؟، فَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ
الْحَيَاةَ؛ فَضَعْ يَدَكَ عَلَى مَثْنِ ثَوْرٍ فَلَكَ بِكُلِّ شَعْرَةٍ غَطَّتْهَا
يَدُكَ فَإِنَّكَ تَعِيشُ بِهَا سَنَةً. فَقَالَ مُوسَى: فَمَا بَعْدَ
ذَلِكَ؟، قَالَ: الْمَوْتُ، قَالَ: فَالآنَ إِذَا.

فَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يُدْنِيَهُ مِنَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمِيَّةً
بِحَجَرٍ^(١). فَشَمَّهُ مَلَكُ الْمَوْتِ شَمَّةً، فَقَبَضَ رُوحَهُ. وَقَبْرُهُ

(١) أَيُّ: قَدَر رَمِيَّة حَجَر ، وَالْحِكْمَةُ فِي أَنَّهُ لَمْ يَطْلُبْ دُخُولَهَا لِيُعْمِيَ
مَوْضِعَ قَبْرِهِ لئَلَّا تَعْبُدَهُ الْجُهَالُ مِنْ مِلَّتِهِ ، أَوْ أَنْ يَكُونَ سِرٌّ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ
لَمَّْا مَنَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ دُخُولِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ وَتَرْكِهِمْ فِي التَّيِّهِ أَرْبَعِينَ
سَنَةً إِلَى أَنْ أَفْنَاهُمُ الْمَوْتُ فَلَمْ يَدْخُلِ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ مَعَ يُوشَعَ إِلَّا
أَوْلَادَهُمْ، وَلَمْ يَدْخُلْهَا مَعَهُ أَحَدٌ مِمَّنْ امْتَنَعَ أَوَّلًا أَنْ يَدْخُلَهَا ، وَمَاتَ
هَارُونَ ثُمَّ مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قَبْلَ فَتْحِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَكَأَنَّ
مُوسَى لَمَّا لَمْ يَتَّهَيَّأْ لَهُ دُخُولُهَا لَغَلَبَةِ الْجَبَّارِينَ عَلَيْهَا ، وَلَا يُمَكِّنُ نَبْشُ
قَبْرِهِ بَعْدَ ذَلِكَ لِيُنْقَلَ إِلَيْهَا؛ طَلَبَ الْقُرْبَ مِنْهَا ، لِأَنَّ مَا قَارَبَ الشَّيْءُ
يُعْطَى حُكْمَهُ.

إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ عِنْدَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ، وَكَانَ مَلَكُ
الْمَوْتِ بَعْدَ ذَلِكَ يَأْتِي النَّاسَ فِي خَفِيَّةٍ.

يوشع بن نون عليه السلام

ثم صارت النبوة في يوشع بن نون بن أفرايم بن
يوسف بن يعقوب عليه السلام، فَعَزَا وَهُوَ نَبِيٌّ مِنْ
الْأَنْبِيَاءِ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لَا يَتَّبِعْنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ،
وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا، وَلَمَّا يَبْنِ بِهَا. وَلَا آخِرُ قَدْ بَنَى
بُنْيَانًا، وَلَمَّا يَرْفَعْ سَقْفُهَا، وَلَا آخِرُ قَدْ اشْتَرَى غَنَمًا، أَوْ
خَلِفَاتٍ ^(١) وَهُوَ مُنْتَظَرٌ وَلَادَهَا، قَالَ: فَعَزَا، فَأَذْنَى لِلْقَرْيَةِ
حِينَ صَلَاةِ الْعَصْرِ، أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، وَاتَّفَقَ ذَلِكَ فِي

(١) الخلفة: الناقة الحامل العشاء.

آخِرِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَكَانُوا لَا يُقَاتِلُونَ يَوْمَ السَّبْتِ، فَخَشِيَ
 إِنَّ دَخَلَتْ لَيْلَةُ السَّبْتِ أَنْ يَسْبُتُوا. فَقَالَ لِلشَّمْسِ: أَنْتِ
 مَأْمُورَةٌ، وَأَنَا مَأْمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيَّ شَيْئًا، فَحَبَسَتْ
 عَلَيْهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَ(إِنَّ الشَّمْسَ لَمْ تُحْبَسْ لِبَشَرٍ،
 إِلَّا لِيُوشَعَ، لِيَأْتِيَ سَارًا إِلَى بَيْتِ الْمُقَدِّسِ)، حَتَّى فُتِحَ
 لَهُمْ، فَجَمَعُوا مَا غَنِمُوا - وَكَانَتْ تَنْزِلُ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ
 عَلَى الْغَنَائِمِ فَتَأْكُلُهَا - فَجَاءَتْ النَّارُ لِتَأْكُلَهَا، فَلَمْ تَطْعَمْهَا،
 فَقَالَ: إِنَّ فِيكُمْ غُلُولًا، فَلْيُبَايِعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ،
 فَبَايَعُوهُ، فَلَصِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فِيكُمْ الْغُلُولُ،
 فَلْيُبَايِعْنِي قَبِيلَتَكَ، فَبَايَعَتْهُ فَلَصِقَتْ بِيَدِ رَجُلَيْنِ أَوْ
 ثَلَاثَةٍ، فَقَالَ: فِيكُمْ الْغُلُولُ، أَنْتُمْ عَلَّيْكُمْ، قَالَ: فَأَخْرَجُوا

لَهُ مِثْلَ رَأْسِ بَقْرَةٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَوَضَعُوهُ فِي الْمَالِ وَهُوَ
بِالصَّعِيدِ فَأَقْبَلَتِ النَّارُ فَأَكَلَتْهُ. (١)

(١) وَلَمْ تَحِلَّ الْغَنَائِمُ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِنَا ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَأَى
ضَعْفَنَا وَعَجْزَنَا فَأَحَلَّهَا وَطِيبَهَا لَنَا .

كَالِبُ بْنُ يُوفَنَّا

وكان الْقَيْمُ بِأُمُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ يُوشَعَ، كَالِبُ
 بْنُ يُوفَنَّا - أَحَدَ أَصْحَابِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهُوَ زَوْجُ
 أُخْتِهِ مَرْيَمَ، وَهُوَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ مِمَّنْ يَخَافُونَ اللَّهَ،
 وَهُمَا يُوشَعُ وَكَالِبُ، وَهُمَا الْقَائِلَانِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ
 نَكَلُوا عَنِ الْجِهَادِ: {ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ
 فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} .

حَزَقِيلُ بْنُ بُوَذَى

ثُمَّ مِنْ بَعْدِ كَالِبَ كَانَ الْقَائِمُ بِأُمُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ
 حَزَقِيلُ بْنُ بُوَذَى. وَهُوَ الَّذِي دَعَا اللَّهَ فَأَحْيَا الَّذِينَ
 خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ، وَكَانُوا قَدْ

فَرُّوا مِنَ الْوَبَاءِ، فَزَلُّوا بِصَعِيدٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَقَالَ لَهُمُ
 اللَّهُ: مُوتُوا. فَمَاتُوا جَمِيعًا، فَحَظَرُوا عَلَيْهِمْ حَظِيرَةً دُونَ
 السَّبَاعِ، فَمَضَتْ عَلَيْهِمْ دُحُورٌ طَوِيلَةٌ، فَمَرَّ بِهِمْ حَزَقِيلُ
 عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ مُتَفَكِّرًا، فَقِيلَ لَهُ: أَتُحِبُّ أَنْ
 يَبْعَثَهُمُ اللَّهُ وَأَنْتَ تَنْظُرُ؟ فَقَالَ: نَعَمْ. فَأَحْيَاهُمُ اللَّهُ
 جَمِيعًا وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ.

إِلْيَاسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

{وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ
 أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ
 آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ
 الْمُخْلَصِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِلَ يَاسِينَ
 إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ}

فَكَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ، وَأَرَادُوا قَتْلَهُ، فَيُقَالُ: إِنَّهُ هَرَبَ مِنْهُمْ،
وَاخْتَفَى عَنْهُمْ.

الْيَسَعُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَكَانَ الْيَسَعُ بَعْدَ إِيَّاسَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - فَمَكَثَ
مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمُوتَ؛ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ مُسْتَمْسِكًا
بِمِنْهَاجِ إِيَّاسَ وَشَرِيعَتِهِ، حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ،
إِلَيْهِ، ثُمَّ خَلَفَ فِيهِمُ الْخُلُوفُ، وَعَظُمَتْ فِيهِمُ الْأَحْدَاثُ
وَالْخُطَايَا، وَكَثُرَتْ الْجَبَابِرَةُ، وَقَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ، وَكَانَ فِيهِمْ
مَلِكٌ جَبَّارٌ عَنِيدٌ طَاغٍ.

من الأنبياء والأقوام الذين أشير إليهم

وقد ذكر بعض الأنبياء ولم تذكر أحداث وتفاصيل قصصهم، ومنهم شِيث^(١) بن آدم عليهما السلام، ومن بعده أَخْنُوخَ وَهُوَ إِدْرِيسُ عليه السلام. ومنهم ذُو الْكِفْلِ، زَعَمَ قَوْمٌ أَنَّهُ ابْنُ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَالظَّاهِرُ مِنْ ذِكْرِهِ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ مَقْرُونًا مَعَ السَّادَةِ الْأَنْبِيَاءِ أَنَّهُ نَبِيٌّ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ، وَقَدْ زَعَمَ آخَرُونَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا، وَإِنَّمَا كَانَ رَجُلًا صَالِحًا وَحَكَمًا مُقْسِطًا عَادِلًا.

(١) ومعنى شِيث: هبة الله، وسمياه بذلك لأنَّهما رزقاه بعد أن قُتِلَ هابيل. ويقال: إنَّ أنساب بني آدم اليوم كلها تنتهي إلى شِيث.

وَأَصْحَابُ الرَّسِّ، وَالرَّسُّ بُرُوسُوا فِيهَا نَبِيَّهُمْ. أَيُّ:
دَفَنُوهُ فِيهَا. وَكَانَ عَهْدُهُمْ قَبْلَ نَزُولِ التَّوْرَةِ؛ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ
تَعَالَى {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا
الْقُرُونَ الْأُولَى}.

وَأَصْحَابُ الْقَرْيَةِ -وهم الذين جاءت قصتهم في
سورة يس- واشْتَهَرَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ أَنَّ
هَذِهِ الْقَرْيَةَ أَنْطَاكِيَّةٌ، وَقَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ أَوَّلًا رَسُولَيْنِ
لِيَدْعُوهُمَا إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ، فَكَذَّبُوهُمَا،
فَقَوَاهُمَا اللَّهُ بِإِرْسَالِ رَسُولٍ ثَالِثٍ مَعَهُمَا، وَجَاءَ مِنْ
أَقْصَى الْقَرْيَةِ رَجُلٌ مُسْرِعٌ خَوْفًا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ تَكْذِيبِ
الرُّسُلِ وَتَهْدِيدِهِمْ بِالْقَتْلِ وَالْإِيذَاءِ، وَنَصَحَ قَوْمَهُ بِاتِّبَاعِ
الرُّسُلِ، فَمَا كَانَ مِنْ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَتَلُوهُ، فَأَدْخَلَهُ اللَّهُ

الجنة. وقال متمنياً: يا ليت قومي الذين كذبوني
وقتلوني يعلمون بما حصل لي من مغفرة الذنوب، وبما
أكرمني به ربي؛ ليؤمنوا مثلما آمنت.

قصة أصحاب الكهف

وكان فتيةٌ من أبناءِ ملوكِ الرُّومِ وسَادَتِهِمْ، حَرَجُوا
يَوْمًا فِي بَعْضِ أَعْيَادِ قَوْمِهِمْ، حَيْثُ كَانَ لَهُمْ مُجْتَمَعٌ فِي
السَّنَةِ يَجْتَمِعُونَ فِيهِ فِي ظَاهِرِ الْبَلَدِ، وَكَانَ قَوْمُهُمْ
يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَالطَّوَاعِيتَ، وَيَذْبَحُونَ لَهَا، وَكَانَ لَهُمْ
مَلِكٌ جَبَّارٌ عَنِيدٌ يُقَالُ لَهُ: "دَقْيَانُوسُ"، وَكَانَ يَأْمُرُ النَّاسَ
بِذَلِكَ وَيَحْتَشِمُهُمْ عَلَيْهِ وَيَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ. فَلَمَّا خَرَجَ النَّاسُ
لِمُجْتَمَعِهِمْ ذَلِكَ، وَخَرَجَ هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةُ مَعَ آبَائِهِمْ
وَقَوْمِهِمْ، وَنَظَرُوا إِلَى مَا يَصْنَعُ قَوْمُهُمْ بَعَيْنٍ بِصِيرَتِهِمْ،

عَرَفُوا أَنَّ هَذَا الَّذِي يَصْنَعُهُ قَوْمُهُمْ مِنَ السُّجُودِ
لِأَصْنَامِهِمْ وَالذَّبْحِ لَهَا، لَا يَنْبَغِي إِلَّا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ. فَجَعَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَتَخَلَّصُ مِنْ
قَوْمِهِ، وَيَنْحَازُ مِنْهُمْ وَيَتَبَرَّزُ عَنْهُمْ نَاحِيَةً. فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ
جَلَسَ مِنْهُمْ وَحْدَهُ أَحَدُهُمْ، جَلَسَ تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَةٍ،
فَجَاءَ الْآخَرُ فَجَلَسَ عِنْدَهُ، وَجَاءَ الْآخَرُ فَجَلَسَ إِلَيْهِمَا،
وَجَاءَ الْآخَرُ فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ، وَجَاءَ الْآخَرُ، وَجَاءَ الْآخَرُ،
وَجَاءَ الْآخَرُ، وَلَا يَعْرِفُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ الْآخَرَ، وَإِنَّمَا جَمَعَهُمْ
هُنَاكَ الَّذِي جَمَعَ قُلُوبَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، وَالْأَرْوَاحُ جُنُودُ
مُجَنَّدَةٍ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا اثْتَلَفَ، وَمَا تَنَازَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ.
وَجَعَلَ كُلُّ أَحَدٍ مِنْهُمْ يَكْتُمُ مَا هُوَ فِيهِ عَنْ أَصْحَابِهِ،
خَوْفًا مِنْهُمْ، وَلَا يَذَرِي أَنَّهُمْ مِثْلُهُ، حَتَّى قَالَ أَحَدُهُمْ:

تَعْلَمُونَ - وَاللَّهِ يَا قَوْمِ - إِنَّهُ مَا أَخْرَجَكُمْ مِنْ قَوْمِكُمْ
وَأَفْرَدَكُمْ عَنْهُمْ، إِلَّا شَيْءٌ فليظهر كل واحد منكم بأمريه.
فَقَالَ آخَرُ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي وَاللَّهِ رَأَيْتُ مَا قَوْمِي عَلَيْهِ،
فَعَرَفْتُ أَنَّهُ بَاطِلٌ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ
وَلَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ هُوَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ:
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا. وَقَالَ الْآخَرُ: وَأَنَا وَاللَّهِ
وَقَعَ لِي كَذَلِكَ. وَقَالَ الْآخَرُ كَذَلِكَ، حَتَّى تَوَافَقُوا كُلُّهُمْ
عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، فَصَارُوا يَدًا وَاحِدَةً وَإِخْوَانَ صِدْقٍ،
فَاتَّخَذُوا لَهُمْ مَعْبَدًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فِيهِ، فَعَرَفَ بِهِمْ
قَوْمُهُمْ، فَوَشَّوْا بِأَمْرِهِمْ إِلَى مَلِكِهِمْ، فَاسْتَحْضَرَهُمْ بَيْنَ
يَدَيْهِ فَسَأَلَهُمْ عَنْ أَمْرِهِمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ فَأَجَابُوهُ بِالْحَقِّ،
وَدَعَوْهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ وَلِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ:

{وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا} أَيُّ: لَا يَقَعُ مِنَّا هَذَا
أَبَدًا؛ لِأَنَّا لَوْ فَعَلْنَا ذَلِكَ لَكَانَ بَاطِلًا وَكَذِبًا وَبُهْتَانًا.
فَيُقَالُ: إِنَّ مَلِكَهُمْ لَمَّا دَعَوْهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، أَبِي عَلَيْهِمْ،
وَتَهَدَّدَهُمْ وَتَوَعَّدَهُمْ، وَأَمَرَ بِنَزْعِ لِبَاسِهِمْ عَنْهُمْ الَّذِي كَانَ
عَلَيْهِمْ مِنْ زِينَةِ قَوْمِهِمْ، وَأَجْلَهُمْ لِيَنْظُرُوا فِي أَمْرِهِمْ،
لَعَلَّهُمْ يُرَاجِعُونَ دِينَهُمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ. وَكَانَ هَذَا مِنْ
لُطْفِ اللَّهِ بِهِمْ، فَإِنَّهُمْ فِي تِلْكَ النَّظَرَةِ^(١) تَوَصَّلُوا إِلَى
الْهَرَبِ مِنْهُ. وَالْفِرَارِ بِدِينِهِمْ مِنَ الْفِتْنَةِ. وَأَخَذَ بَعْضُهُمْ
عَلَى بَعْضٍ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ وَدَخَلَ الْفِتْيَةُ الْكَهْفَ
سَائِلِينَ اللَّهَ تَعَالَى رَحْمَتَهُ وَلُطْفَهُ بِهِمْ، فَصَبَّرَهُمُ اللَّهُ

(١) الفترة والمهلة.

عَلَى مُخَالَفَةِ قَوْمِهِمْ وَمَدِينَتِهِمْ، وَمُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ
 الْعَيْشِ الرَّغِيدِ وَالسَّعَادَةِ وَالنَّعْمَةِ، وَضَرَبَ عَلَى آذَانِهِمْ
 فَنَامُوا، فَأَرْسَلَ اللَّهُ مَنْ يُقَلِّبُهُمْ وَحَوْلَ الشَّمْسِ عَنْهُمْ
 فَلَوْ طَلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَأَحْرَقَتْهُمْ وَلَوْ لَا أَنَّهُمْ يُقَلِّبُونَ لَأَكَلَتْهُمْ
 الْأَرْضُ، وَرَبَضَ كَلْبُهُمْ عَلَى الْبَابِ كَأَنَّهُ يَحْرُسُهُمْ كَمَا
 جَرَتْ بِهِ عَادَةُ الْكِلَابِ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ كَانَ كَلْبٌ صَيِّدٌ
 لِأَحَدِهِمْ. وَكَانَ جُلُوسُهُ خَارِجَ الْبَابِ؛ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا
 تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ. وَشَمَلَتْ كَلْبُهُمْ بَرَكَتَهُمْ، فَأَصَابَهُ
 مَا أَصَابَهُمْ مِنَ النَّوْمِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ. وَهَذَا فَائِدَةٌ
 صُحْبَةِ الْأَخْيَارِ؛ فَإِنَّهُ صَارَ لِهَذَا الْكَلْبِ ذِكْرٌ وَخَبَرٌ وَشَأْنٌ.
 وَأَلْقَى اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمَهَابَةَ بِحَيْثُ لَا يَقَعُ نَظَرُ أَحَدٍ عَلَيْهِمْ
 إِلَّا هَابَهُمْ؛ لِمَا أَلْبَسُوا مِنَ الْمَهَابَةِ وَالذُّعْرِ، لَيْلًا يَدْنُو

مِنْهُمْ أَحَدٌ وَلَا تَمْسَهُمْ يَدُ لَامِسٍ، حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، وَتَنْقُضِي رَقَدَتَهُمُ الَّتِي شَاءَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهِمْ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحُجَّةِ وَالْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، وَالرَّحْمَةِ الْوَاسِعَةِ. فَجَاءَ أَهَالِيهِمْ يَطْلُبُونَهُمْ فَفَقَدُوهُمْ فَأَخْبَرُوا الْمَلِكَ، وَتَطَلَّبَهُمُ الْمَلِكُ فَيُقَالُ: إِنَّهُ لَمْ يَظْفَرْ بِهِمْ، وَعَمَّى اللَّهُ عَلَيْهِ خَبَرَهُمْ. فَأَمَرَ بِكِتَابَةِ أَسْمَائِهِمْ فِي لَوْحٍ مِنْ رِصَاصٍ -وهو الرقيم- وَجَعَلَهُ فِي خِزَانَتِهِ، ثُمَّ ذَهَبَ ذَلِكَ الْمَلِكُ وَجَاءَ آخَرُ فَكَسَّرَ الْأَوْثَانَ وَعَبَدَ اللَّهَ وَعَدَلَ، فَبَعَثَ اللَّهُ أَصْحَابَ الْكَهْفِ صَحِيحَةً أَبَدَانَهُمْ وَأَشْعَارُهُمْ وَأَبْشَارُهُمْ، لَمْ يَفْقِدُوا مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَهَيْئَاتِهِمْ شَيْئًا، وَذَلِكَ بَعْدَ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ وَتِسْعِ سِنِينَ؛ وَلِهَذَا تَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ: {كَمْ لَبِثْتُمْ} ؟ أَيُّ: كَمْ رَقَدْتُمْ؟ {قَالُوا

لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ} وَكَانَ دُخُولُهُمْ إِلَى الْكَهْفِ فِي
أَوَّلِ نَهَارٍ، وَاسْتِيقَاضُهُمْ كَانَ فِي آخِرِ نَهَارٍ؛ ثُمَّ (قَالُوا رَبُّكُمْ
أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ} وَحَصَلَ احْتِيَاجُهُمْ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ،
فَأَرْسَلُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ يَأْتِيهِمْ بِمَا يَأْكُلُونَ، فَدَخَلَ الْمَدِينَةَ
مُسْتَخْفِيًا فَرَأَى هَيْئَةً وَنَاسًا أَنْكَرَهُمْ لَطُولِ الْمُدَّةِ فَدَفَعَ
دِرْهَمًا إِلَى خَبَّازٍ فَاسْتَنْكَرَ ضَرْبَهُ وَهَمَّ بِأَنْ يَرْفَعَهُ إِلَى
الْمَلِكِ، فَقَالَ : أَتُخَوِّفُنِي بِالْمَلِكِ وَأَبِي دِهْقَانُهُ^(١). فَقَالَ:
مَنْ أَبوك؟! قَالَ: فَلَانٌ. فَلَمْ يَعْرِفْهُ فَاجْتَمَعَ النَّاسُ،
فَرَفَعُوهُ إِلَى الْمَلِكِ، فَسَأَلَهُ فَقَالَ عَلَيَّ بِاللُّوحِ وَكَانَ قَدْ
سَمِعَ بِهِ، فَسَمَّى أَصْحَابَهُ فَعَرَفَهُمْ مِنَ اللُّوحِ، فَكَبَّرَ النَّاسُ
وَانْطَلَقُوا إِلَى الْكَهْفِ، وَسَبَقَ الْفَتَى لِيَلَّا يَخَافُوا مِنْ

(١) الدهقان: رئيس القرية وزعيم الفلاحين. والتاجر الكبير، ومن له مال عقار، ومدير الأعمال القوي على التصرف مع شدة خبرته.

الْجَيْشَ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِمْ عَمَّى اللَّهُ عَلَى الْمَلِكِ وَمَنْ مَعَهُ
الْمَكَانَ فَلَمْ يَدْرِ أَيْنَ ذَهَبَ الْفَتَى، فَاتَّفَقَ رَأْيُهُمْ عَلَى أَنْ
يَبْنُوا عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا فَجَعَلُوا يَسْتَغْفِرُونَ لَهُمْ وَيَدْعُونَ
لَهُمْ.

قصة أصحاب السبت

وكان أهلُ أيلةَ -بَيْنَ مَدْيَنَ وَالطُّورِ- مُتَمَسِّكِينَ بِدِينِ
التَّوْرَةِ فِي تَحْرِيمِ السَّبْتِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، فَكَانَتِ الْحِيتَانُ
قَدْ أَلِفَتْ مِنْهُمْ السَّكِينَةَ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ
كَانَ يَحْرُمُ عَلَيْهِمُ الْإِصْطِيَادُ فِيهِ وَكَذَلِكَ جَمِيعُ الصَّنَائِعِ
وَالتَّجَارَاتِ وَالْمَكَاسِبِ، فَكَانَتِ الْحِيتَانُ فِي مِثْلِ يَوْمِ
السَّبْتِ يَكْثُرُ غَشْيَانُهَا لِمَحَلَّتِهِمْ مِنَ الْبَحْرِ ؛ فَتَأْتِي مِنْ
هَاهُنَا وَهَاهُنَا ظَاهِرَةً آمِنَةً مُسْتَرْسِلَةً فَلَا يُهَيِّجُونَهَا وَلَا

يَذْعَرُونَهَا. {وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ} وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ
كَانُوا يَصْطَادُونَهَا فِيمَا عَدَا السَّبْتِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:
{كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ} أَي: نَحْتَبِّرُهُمْ بِكَثْرَةِ الْحَيَاتَانِ فِي يَوْمِ
السَّبْتِ. {بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} أَي: بِسَبَبِ فِسْقِهِمْ
الْمُتَقَدِّمِ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ اخْتَالُوا عَلَى اصْطِيَادِهَا فِي يَوْمِ
السَّبْتِ، بِأَنْ نَصَبُوا الْحِبَالَ وَالشَّبَاكَ وَالشُّصُوصَ،
وَحَفَرُوا الْحُفَرَ الَّتِي يَجْرِي مَعَهَا الْمَاءُ إِلَى مَصَانِعَ قَدْ
أَعَدُّوَهَا، إِذَا دَخَلَهَا السَّمَكَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا،
فَفَعَلُوا ذَلِكَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَإِذَا جَاءَتِ الْحَيَاتَانُ
مُسْتَرْسِلَةً يَوْمَ السَّبْتِ، عَلِقَتْ بِهَذِهِ الْمَصَايدِ، فَإِذَا
خَرَجَ سَبْتُهُمْ أَخَذَوْهَا، فَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ؛ لَمَّا
اخْتَالُوا عَلَى خِلَافِ أَمْرِهِ، وَانْتَهَكُوا مُحَارِمَهُ بِالْحِيلِ الَّتِي

هِيَ ظَاهِرَةٌ لِلنَّاطِرِ، وَهِيَ فِي الْبَاطِنِ مُخَالَفَةٌ مُحَضَّةٌ، فَلَمَّا
فَعَلَ ذَلِكَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ افْتَرَقَ الدِّينَ لَمْ يَفْعَلُوا فِرْقَتَيْنِ ؛
فِرْقَةً أَنْكَرُوا عَلَيْهِمْ صَنِيعَهُمْ هَذَا وَاحْتَيَالَهُمْ عَلَى مُخَالَفَةِ
اللَّهِ وَشَرْعِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَفِرْقَةً أُخْرَى لَمْ يَنْصَحُوا
وَلَمْ يَنْهَوْا، وَاکْتَفَوْا بِانْكَارِ قُلُوبِهِمْ ذَلِكَ الْفِعْلَ، وَقَالُوا
لِلنَّاصِحِينَ: {لَمْ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا} مَا الْفَائِدَةُ فِي نَهْيِكُمْ هَؤُلَاءِ وَقَدْ اسْتَحَقُّوا
الْعُقُوبَةَ لَا مَحَالَةَ؟ ، فَأَجَابَتْهُمْ الطَّائِفَةُ النَّاصِحَةُ بِأَنْ
قَالُوا: {مَعْدِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ} أَيُّ: فِيمَا أَمَرْنَا بِهِ مِنَ الْأَمْرِ
بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَتَقُومُ بِهِ خَوْفًا مِنْ
عَذَابِهِ. {وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} أَيُّ: وَلَعَلَّ هَؤُلَاءِ يَتْرَكُونَ مَا هُمْ
عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الصَّنِيعِ، فَيَقِيهِمُ اللَّهُ عَذَابَهُ وَيَعْفُو عَنْهُمْ

إِذَا هُمْ رَجَعُوا وَاسْتَمَعُوا. {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ} فَلَمْ
يَلْتَفِتُوا إِلَى مَنْ نَهَاَهُمْ عَنْ هَذَا الصَّنِيعِ الشَّنِيعِ الْفَظِيعِ
أَنْجَى اللَّهُ {الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ} وَهُمْ الْفِرْقَةُ الْأَمْرَةُ
بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِيَةِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَخَذَ {الَّذِينَ ظَلَمُوا}
وَهُمُ الْمُتْرِكُونَ الْمُعْصِيَةِ الْفَاحِشَةَ {بِعَذَابٍ بَئِيسٍ}
وَهُوَ الشَّدِيدُ الْمُؤْلِمُ الْمُوجِعُ {بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} وَقَالَ
لَهُمْ: {كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}. فَأَهْلَكَ اللَّهُ الظَّالِمِينَ،
وَنَجَّى الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّكِرِينَ. (١)

(١) وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي مَصِيرِ السَّاكِتِينَ عَلَى قَوْلَيْنِ؛ فَقِيلَ: إِنَّهُمْ مِنَ النَّاجِينَ. وَقِيلَ: إِنَّهُمْ مِنَ الْهَالِكِينَ. وَالصَّحِيحُ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ أَنَّهُمْ مِنَ النَّاجِينَ. وَهُوَ الَّذِي رَجَعَ إِلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ، إِمَامُ الْمُفَسِّرِينَ، وَذَلِكَ عِنْدَ مُنَاطَرَةِ مَوْلَاهُ عِكْرَمَةَ، فَكَسَاهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حُلَّةً سَنِيَّةً؛ تَكْرِمَةً. وَإِنَّمَا لَمْ يُذَكِّرُوا مَعَ النَّاجِينَ؛ لِأَنَّهُمْ وَإِنْ كَرِهُوا بِبَوَاطِنِهِمْ وَأَنْكَرُوا بِقُلُوبِهِمْ تِلْكَ الْفَاحِشَةَ، إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَحْمِلُوا ظَوَاهِرَهُمْ بِالْعَمَلِ الْمَأْمُورِ بِهِ مِنَ الْإِنْكَارِ الْقَوْلِيِّ، الَّذِي هُوَ أَوْسَطُ الْمَرَاتِبِ الثَّلَاثِ، الَّتِي

قصة طالوت وجالوت

ثم إن بني إسرائيل لَمَّا أَنهَكْتَهُمُ الْحُرُوبُ، وَقَهَرَهُمُ
الْأَعْدَاءُ، سَأَلُوا نَبِيَّ اللَّهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ^(١) وَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ
يُنْصَبَ لَهُمْ مَلِكًا يَكُونُونَ تَحْتَ طَاعَتِهِ؛ لِيُقَاتِلُوا مِنْ
وَرَائِهِ وَمَعَهُ وَبَيْنَ يَدَيْهِ الْأَعْدَاءَ.

فخشي عليهم ألا يَفُوقُوا بما وعدوا من القيام بالجهاد،
فأصروا وأجابوا بأنه لا شيء يحول بينهم وبين الجهاد في
سبيل الله، وخاصة أنهم أُخرجوا من ديارهم، وسُبي
أبناؤهم. فلمَّا فرض الله عليهم القتالَ لم يفوا بالوعد!
بل أدبروا ناكِلِينَ عن الجهاد إِلَّا عَدَدًا قَلِيلًا مِنْهُمْ، والله

أَعْلَاهَا الْإِنْكَارُ بِأَيْدِ ذَاتِ الْبَنَانِ، وَبَعْدَهَا الْإِنْكَارُ الْقَوْلِيُّ بِاللِّسَانِ،
وَتَالِثُهَا الْإِنْكَارُ بِالْجَنَانِ. فَلَمَّا لَمْ يُذَكِّرُوا، لَمْ يُذَكِّرُوا مَعَ النَّاجِينَ.
^(١) قيل أنه: شَمُوِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

تعالى يعلم مَنْ ظلم منهم، وأخلف وعده، وسيجزيه على ظلمه.

ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ نَبِيُّهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَجَابَهُمْ إِلَى مَا طَلَبُوا، وَعَيَّنَ لَهُمْ طَالُوتَ مَلِكًا عَلَيْهِمْ، وَكَانَ طَالُوتَ رَجُلًا مِنْ عَامَّتِهِمْ، لَا يَنْتَمِي إِلَى سِبْطِ مُلُوكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَمَّ يُسَلِّمُوا لِمَا اخْتَارَهُ اللَّهُ لَهُمْ! بَلْ اعْتَرَضُوا عَلَى ذَلِكَ فَقَالُوا: كَيْفَ يَكُونُ مَلِكًا عَلَيْنَا وَهُوَ دُونَنَا فِي الشَّرَفِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ أَصْحَابِ الْأَمْوَالِ، كَمَا هُوَ حَالُ الْمُلُوكِ؟! فَأَخْبَرَهُمْ نَبِيُّهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي اخْتَارَهُ لَهُمْ، وَاخْتَصَّه مِنْ بَيْنِهِمْ، وَأَعْطَاهُ زِيَادَةً فِي الْعِلْمِ، وَطُولَ قَامَةٍ، وَقُوَّةً فِي الْجَسَدِ، ثُمَّ إِنَّ الْمُلْكَ لِلَّهِ وَحْدَهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ وَاسِعُ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ، لَا

يَخْصُّ بِكَرْمِهِ شَرِيفًا عَنْ وَضِيعٍ، أَوْ غَنِيًّا عَنْ فَقِيرٍ، عَلِيمٌ
بِكُلِّ شَيْءٍ، وَمَنْ ذَلِكَ عِلْمُهُ بِمَنْ يَصْلُحُ لِلْمُلْكِ مِنْ غَيْرِهِ.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ أَيُّضًا: إِنَّ الْعَلَامَةَ الدَّالَّةَ عَلَى
صَحَّةِ تَنْصِيبِ طَالُوتَ مَلَكًا عَلَيْهِمْ هِيَ أَنْ يُرَدَّ إِلَيْهِمْ
التَّابُوتُ -الذي سُلِبَ مِنْهُمْ- حَاقِيًا مَا يُهْدَى نَفُوسُهُمْ
فَتَطْمَئِنُّ بِهِ قُلُوبُهُمْ، وَمِمَّا يَحْوِيهِ أَشْيَاءُ تَبَقَّتْ مِنْ تَرِكَةِ
مُوسَى وَهَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، يَحْمِلُ هَذَا التَّابُوتَ إِلَيْهِمْ
الْمَلَائِكَةُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَإِنَّ فِي هَذَا الْأَمْرِ لَعَلَامَةً
وَاضِحَةً لَكُمْ عَلَى اخْتِيَارِ اللَّهِ لَطَالُوتَ؛ لِيَكُونَ مَلَكًا
عَلَيْكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ، وَمُصَدِّقِينَ لِمَا أَخْبَرْتَكُمْ
بِهِ.

فَلَمَّا أَذْعَنُوا أَخِيرًا لِمُلْكِ طَالُوتَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ أَنْ
جَاءَهُمُ التَّابُوتُ، انْضَمُّوا إِلَيْهِ لِقِتَالِ عَدُوِّهِمْ.

فَلَمَّا جَاوَزُوا مَوْطَنَهُمْ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى مَلَاقَاةِ
الْعَدُوِّ، أَعْلَمَهُمْ طَالُوتُ أَنَّ اللَّهَ مُخْتَبِرُهُمْ بَنَهَرٍ؛ لِيُظْهِرَ
الكَاذِبَ مِنَ الصَّادِقِ، وَيُتَمَيِّزَ الصَّابِرُ مِنَ الْجَازِعِ، وَأَعْلَنَ
طَالُوتُ بَرَاءَتَهُ مِنْ كُلِّ مَنْ يَشْرَبُ مِنْهُ، وَأَنَّهُ لَنْ يَصْحَبَهُ
مَعَ الْجَيْشِ إِلَى الْقِتَالِ، وَأَنَّ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ - إِلَّا أَنْ يَغْتَرِفَ
بِكَفِّهِ غُرْفَةً وَاحِدَةً - فَإِنَّهُ مِنْهُ، فَشَرِبَ مُعْظَمُهُمْ، وَلَمْ
يُطْعِ الْأَمْرَ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ مِمَّنْ وَفَّقَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَثَبَّتَهُمْ.

فَلَمَّا تَعَدَّى طَالُوتُ النَّهْرَ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ، مِمَّنْ
أَطَاعُوهُ فَلَمْ يَشْرَبُوا مِنَ النَّهْرِ أَوْ شَرَبُوا غُرْفَةً وَاحِدَةً - قَالَ
بَعْضُهُمْ لَمَّا رَأَوْا مِنْ كَثَرَةِ أَعْدَائِهِمْ مَقَارَنَةً بَعْدَهُمْ

القليل: لا قُدرةَ لنا هذا اليوم بقتال جالوت وجُنوده؛
لكثرة عددهم وعَتادهم، فحينها قال لهم الموقِنون
بِرُجوعهم إلى الله تعالى: ما أكثر ما تغلبُ الجماعةُ
القليلة الجماعةَ الكثيرة! وذلك بمشيئة الله عزَّ وجلَّ؛
فلا تفيد الكثرةَ مَنْ خَذَلَهُ اللهُ، ولا تضرُّ القِلَّةُ مَنْ وَفَّقَهُ
الله، والله سبحانه مع الصَّابرين.

ولَمَّا ظَهَرَ المؤمنون- طالوتُ وجُنوده- لجالوتِ
وجُنوده، دعا أهلُ الإيمان ربَّهم أن يُلهمهم الصَّبْرَ،
ويثبَّت أقدامهم، وأن ينصرهم على أهل الكفر،
فاستجاب الله دُعَاءهم، وغلب المؤمنون عدوَّهم، وكان
داودُ عليه السلام من جنود طالوت، فسَلَّطه اللهُ على

جالوت فقتله، وأعطاه الله داودَ المُلْكَ والنبوةَ وآتاه من العلم ما يشاء سبحانه.

داود عليه السلام

وَكَانَ دَاوُدُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَعْبَدَ الْبَشَرِ، وَأَحَبُّ الصَّيَامِ إِلَى اللَّهِ؛ صِيَامُ دَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ يَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَلَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى، وَكَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ.

وَأُنْزِلَ الزَّبُورُ عَلَى دَاوُدَ لِثَمَانِ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَخَفَّفَ عَلَى دَاوُدَ قِرَاءَتَهُ، فَكَانَ مَا بَيْنَ أَنْ يَسْرَجَ دَابَّتَهُ عَلَى أَنْ يَرْكَبَهَا يَقْرَأُ قُرْآنَهُ وَهُوَ الزَّبُورُ.

وَأَتَى اللَّهُ دَاوُدَ نَبُوَّةً وَمَلَكًا، وَقَوَّى مَلَكُهُ بِمَا وَهَبَهُ
 مِنَ الْهَيْبَةِ وَالنَّصْرِ وَجَعَلَهُ ذَا قُوَّةٍ عَلَى مَقَارِعَةِ أَعْدَائِهِ
 وَالصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، وَأَعْطَاهُ الْحِكْمَةَ وَالْفَصْلَ فِي
 الْكَلَامِ وَالْحُكْمِ. وَجَعَلَ الْجِبَالَ وَالطَّيْرَ تَرْجِعُ مَعَهُ
 التَّسْبِيحَ، وَصَيَّرَ لَهُ الْحَدِيدَ لَيِّنًا لِيَصْنَعَ مِنْهُ مَا يَشَاءُ مِنْ
 أَدَوَاتٍ، وَعَلَّمَهُ اللَّهُ أَنْ يَصْنَعَ دُرُوعًا وَاسِعَةً تَقِي مَقَاتِلِيهِ
 بِأَسْعَدِ دَوَّهِمْ، وَيُصَيِّرَ الْمَسَامِيرَ مَنَاسِبَةً لِلْحِلْقِ فَلَا تَكُونُ
 دَقِيقَةً بِحَيْثُ لَا تَسْتَقَرُّ فِيهَا، وَلَا غَلِيظَةً بِحَيْثُ لَا تَدْخُلُ
 فِيهَا. وَإِنَّ لُقْمَانَ كَانَ عِنْدَ دَاوُدَ وَهُوَ يَسْرُدُ الدَّرْعَ فَجَعَلَ
 يَفْتِلُهُ بِيَدِهِ وَلُقْمَانُ يَتَعَجَّبُ وَيُرِيدُ أَنْ يَسْأَلَهُ وَمَتَنَعَهُ
 حِكْمَتُهُ أَنْ يَسْأَلَهُ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا صَبَّهَا عَلَى نَفْسِهِ فَقَالَ:
 نِعَمْ دِرْعُ الْحَرْبِ هَذِهِ، فَقَالَ لُقْمَانُ: الصَّمْتُ مِنَ

الْحِكْمَةِ، وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ، كُنْتُ أَرَدْتُ أَنْ أَسْأَلَكَ فَسَكَتُ
حَتَّى كَفَيْتَنِي.

سليمان عليه السلام

وَوُهِبَ لِدَاوُدَ ابْنُهُ سُلَيْمَانُ إِنْعَامًا مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِ
وَتَفَضُّلاً لَتَقَرَّ عَيْنُهُ بِهِ، وَكَانَ سُلَيْمَانُ كَثِيرَ التَّوْبَةِ
وَالرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَرُفِعَتْ لِدَاوُدَ وَابْنِهِ
سُلَيْمَانٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قَضِيَّةٌ بِشَأْنِ خَصْمَيْنِ؛ لِأَحَدِهِمَا
غَنَمٌ انْتَشَرَتْ لَيْلاً فِي حَرْثِ (زَرَع) الْآخَرِ فَأَفْسَدَتْهُ، وَكَانَ
حَرْثُهُمْ عِنَبًا نَفَسَتْ فِيهِ الْعَنَمُ أَيُّ: رَعَتْ لَيْلاً، فَقَضَى
دَاوُدُ بِالْغَنَمِ لَهُمْ، فَمَرُّوا عَلَى سُلَيْمَانَ فَأَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ فَقَالَ
سُلَيْمَانُ: لَا، وَلَكِنْ أَقْضِي بَيْنَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا الْعَنَمَ فَيَكُونَ

لَهُمْ لَبَنُهَا وَصُوفُهَا وَمَنْفَعَتُهَا، وَيَقُومُ هَؤُلَاءِ عَلَى حَرْتِهِمْ
حَتَّى إِذَا عَادَ كَمَا كَانَ رَدُّوا عَلَيْهِمْ غَنَمَهُمْ.

وَخَرَجَتْ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا صَبِيَّانِ لَهُمَا، فَعَدَا الذِّئْبُ
عَلَى إِحْدَاهُمَا فَأَخَذَ وَلَدَهَا. فَقَالَتْ هَذِهِ لِصَاحِبَتِيهَا: إِنَّمَا
ذَهَبَ بِابْنِكَ أَنْتِ، وَقَالَتْ الْأُخْرَى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكَ،
فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلَام - فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى،
فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلَام - فَأَخْبَرَتَاهُ،
فَقَالَ: ائْتُونِي بِالسَّكِّينِ أَقْطَعُهُ بَيْنَكُمَا نِصْفَيْنِ، لِهَذِهِ
نِصْفٌ، وَلِهَذِهِ نِصْفٌ فَقَالَتِ الْكُبْرَى: نَعَمْ، أَقْطَعُوهُ،
وَقَالَتِ الصُّغْرَى: لَا تَقْطَعُهُ يَرْحَمُكَ اللَّهُ، هُوَ ابْنُهَا.
فَقَالَ: هُوَ ابْنُكَ. فَقَضَى بِهِ لِلَّتِي أَبَتْ أَنْ يَقْطَعَهُ.

وورث سليمان أباه داود في النبوة والعلم والملك،
وقال متحدثاً بنعمة الله عليه وعلى أبيه: يا أيها الناس،
علّمنا الله فهم أصوات الطير، وأعطانا من كل شيء
أعطاه الأنبياء والملوك، إن هذا لهو الفضل المبين.

وكان لِنَبِيِّ اللَّهِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ - عليه السلام -
مِائَةُ امْرَأَةٍ. فَقَالَ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى نِسَائِي، فَلَتَحْمِلَنَّ
كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ وَلَتَلِدَنَّ فَارِسًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَقَالَ
لَهُ الْمَلِكُ: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَمْ يَقُلْ وَنَسِيَ. فَطَافَ
عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا، فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً، جَاءَتْ
بِنِصْفِ إِنْسَانٍ.^(١) وعرضت عليه عصراً الخيول الأصيلة

(١) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ،
لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ؛ لَحَمَلْتُ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ، فَوَلَدْتُ فَارِسًا، وَلَجَاهَدُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَجْمَعُونَ.

السريعة، تقف على ثلاث قوائم، وترفع الرابعة، فلم تزل تُعرض عليه تلك الخيول الأصيلة حتى غربت الشمس. فقال سليمان: إني أثرت حب المال -ومنه هذه الخيل- على ذكر ربي حتى غابت الشمس وتأخرتُ عن صلاة العصر، ردوا علي هذه الخيل. فردوها عليه، فبدأ يضرب بالسيف سوقها وأعناقها.^(١)

ولما فرغ سليمان بن داود عليه السلام من بناء بيت المقدس سأل الله عز وجل خلافاً لثلاثة: سأل الله حكماً يصادف حكمه؛ فأعطاه الله إياه. وسأل الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده؛ فأعطاه إياه. وألا يأتي هذا

(١) قيل أنه ذبحها وجعلها صدقة للفقراء، فلا يبقى منها شيء يشغله عن ذكر الله.

المسجد^(١) أحد لا يريد إلا الصلاة فيه ؛ أن يخرج من خطيئته كيوم ولدته أمه. قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: وأرجو أن يكون قد أعطي الثالثة.

وطوع الله لسليمان الريح شديدة الهبوب تجري بأمره إذا أمرها إلى أرض الشام . تسير في الصباح مسافة شهر، وتسير في المساء مسافة شهر، وتنقاد بأمره لينة لا زعزعة فيها مع قوتها وسرعة جريها، تحمله حيث أراد. وسيل الله له عين النحاس ليصنع من النحاس ما يشاء، وسخر له من الجن من يعمل بين يديه بأمره، وذل له الشياطين يأتمرون بأمره، فمنهم البناؤون يعملون له ما أراد من مساجد للصلاة ومن قصور، وما

(١) يعني المسجد الأقصى ببيت المقدس.

يشاء من صور، وما يشاء من قصاع مثل حياض الماء
الكبيرة، وقدور الطبخ الثابتات فلا يُحَرِّكَنَّ لِعَظَمِهِنَّ.
ومنهم الغواصون الذين يغوصون في البحار،
فيستخرجون الدرر منها. والذي يميل من الجن عَمَّا أُمِرَ
به من العمل يناله عذاب أليم. ومن الشياطين أيضاً
مردة سُخِّرُوا لَهُ، فهم بأمره موثقون في الأغلال لا
يستطيعون التحرك.

وقيل له : يا سليمان، هذا عطاؤنا الذي أعطيناكه
استجابة لما طلبت منا، فأعط من شئت، وامنع من
شئت، فلن نحاسب في إعطاء أو منع.

وقيل: اعملوا - يا آل داود - شكراً لله على ما أنعم به عليكم، وقليل من عباد الله هم الشكورون على ما أنعم الله عليهم.

وجُمع لسليمان جنوده من البشر والجن والطير، فهم يُساقون بنظام، حتّى إذا جاؤوا إلى وادي النمل (موضع بالشام) قالت نملة من النمل: يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم حتّى لا يهلككم سليمان وجنوده وهم لا يعلمون بكم، إذ لو علموا بكم لما داسوكم.

فلما سمع سليمان كلامها تبسّم ضاحكاً من قولها هذا، وقال داعياً ربه سبحانه: ربّ وفقني وألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمت بها عليّ وعلى والديّ، ووفقني

أن أعمل عملاً صالحاً ترتضيه، وأدخلني برحمتك في
جملة عبادك الصالحين.

وتعهد سليمان الطيرَ وتفقدهم فلم ير الهدهد،
فقال: ما لي لا أرى الهدهد؟ أمني من رؤيته مانع؟
أم كان من الغائبين؟

فلما تبين له غيابه قال: لأعذبه عذاباً شديداً، أو
لأذبحه عقاباً له على غيابه، أو ليأتيني بحجة واضحة
تبين عذره في الغياب.

فمكث الهدهد في غيابه زمناً غير بعيد، فلما جاء
قال لسليمان عليه السلام: اطلعت على ما لم تطلع
عليه، وجئتك من أهل سبأ بخبر صادق لا شك فيه.

إني وجدت امرأة تحكمهم، وأُعطيت هذه المرأة من كل شيء من أسباب القوة والملك، ولها سرير عظيم تدير من عليه شؤون قومها.

وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله سبحانه وتعالى، وحسّن لهم الشيطان ما هم عليه من أعمال الشرك والمعاصي، فصرفهم عن طريق الحق، فهم لا يهتدون إليه. وأضلهم لئلا يسجدوا لله الذي يُخْرِج ما ستره في السماء من المطر، وفي الأرض من النبات، ويعلم ما يخفيه الناس من الأعمال وما يظهرونه، لا يخفي عليه من ذلك شيء. الله الذي لا معبود بحق غيره، هو رب العرش العظيم.

قال سليمان عليه السلام للهدد: سننظر أصدقت
فيما تدعيه عن مملكة سبأ، أم كنت من الكاذبين.

ثم كتب سليمان كتاباً، وسلمه للهدد، وقال له:
اذهب بكتابي هذا فارمه إلى أهل سبأ وسلمهم إياه،
وتنح عنهم جانباً بحيث تسمع ما يرددون بشأنه.

واستلمت الملكة الكتاب، وقالت: يا أيها الأشراف
إني ألقى إلي كتاب كريم جليل. مضمون هذا الكتاب
المرسل من سليمان المفتوح بـ "بسم الله الرحمن
الرحيم" : ألا تتكبروا، وأتوني منقادين مستسلمين لما
أدعوكم إليه من توحيد الله وترك ما أنتم عليه من
الشرك به، حيث عبدتم الشمس.

ثم قالت الملكة: يا أيها الأشراف والسادة، بيّنوا لي وجه الصواب في أمري، ما كنت قاضية أمرًا حتّى تحضروني، وتظهروا رأيكم فيه.

فقال لها الأشراف من قومها: نحن أصحاب قوة عظيمة، وأصحاب بأس قوي في الحرب، والرأي ما ترينه فانظري ماذا تأمرينا به فنحن قادرون على تنفيذه.

قالت الملكة: إن الملوك إذا دخلوا قرية من القرى أفسدوها بما يقومون به من القتل والسلب والنهب، وصيّروا سادتها وأشرافها أذلاء بعد ما كانوا فيه من العزة والمنعة، وكذلك يفعل الملوك دائماً إذا تغلبوا على أهل قرية؛ ليزرعوا الهيبة والرعب في النفوس.

وإني مرسلة إلى صاحب الكتاب وقومه هدية،
وأنظر ماذا تأتي به الرسل بعد إرسال هذه الهدية.

فلما جاء رسولها ومن معه يحملون الهدية إلى
سليمان أنكر عليهم سليمان إرسال الهدية قائلاً:
أتمدوني بالأموال لتثنوني عنكم، فما أعطاني الله من
النبوة والملك والمال خير مما أعطاكم، بل أنتم الذين
تفرحون بما يُهدى إليكم من حطام الدنيا.

ثم قال سليمان عليه السلام لرسولها: ارجع إليهم بما
جئت من هدية، فلنأتينها وقومها بجنود لا طاقة لهم
بمواجهتهم، ولنخرجهم من سبأ وهم أذلة مهانون بعد
ما كانوا فيه من العزة إن لم يأتوني منقادين.

وقال سليمان عليه السلام مخاطباً أعيان أهل ملكه:
يا أيها الملأ، أيكم يأتيني بسرير ملكها قبل أن يأتوني
منقادين؟

أجابه مارد من الجن قائلاً: أنا آتيك بسريرها قبل أن
تقوم من مجلسك هذا الذي أنت فيه، وإني لقوي على
حملة أمين على ما فيه، فلن أنقص منه شيئاً.

قال الذي عنده علم من الكتاب: أنا آتيك بسريرها
قبل أن ترمش عينك؛ فلما رأى سليمان سريرها مستقراً
عنده قال: هذا من فضل ربي سبحانه؛ ليختبرني
أأشكر نعمه أم أكفرها؟ ومن شكر الله فإنما نفع شكره
عائد إليه، فالله غني لا يزيده شكر العباد، ومن جحد
نعم الله فلم يشكره له فإن ربي غني كريم، قال سليمان

عليه السلام: غيِّروا لها سرير ملكها عن هيئته التي كان عليها ننظر: هل تهتدي إلى معرفة أنَّه سريرها، أم تكون من الذين لا يهتدون إلى معرفة أشياءهم؟

فلما جاءت ملكة سبأ إلى سليمان قيل لها اختباراً لها: أهذا مثل عرشك؟ فأجابت طبق السؤال: كأنه هو، فقال سليمان: وأعطانا الله العلم من قبلها لقدرته على مثل هذه الأمور، وكنا منقادين لأمر الله مطيعين له، وصرفها عن توحيد الله ما كانت تعبد من دون الله اتباعاً لقومها، وتقليداً لهم، إنها كانت من قوم كافرين بالله، فكانت كافرة مثلهم.

ثم قيل لها: ادخلي الصرح وهو كهية السطح، فلما رآته ظنته ماءً فكشفت عن ساقها لتخوضه، قال سليمان

عليه السلام: إنه صرح مُمَلَّس من زجاج، ودعاها إلى الإسلام، فأجابته إلى ما دعاها إليه قائلة: رب إني ظلمت نفسي بعبادة غيرك معك، وانقذت مع سليمان لله رب المخلوقات جميعها.

ولما مات سليمان عليه السلام مَكَثَ مُتَوَكِّئًا عَلَى عَصَاهُ -وَهِيَ مِنْسَأَتُهُ- مُدَّةً طَوِيلَةً لَمْ تَحْدُدْ^(١)، فَلَمَّا أَكَلَتْهَا دَابَّةُ الْأَرْضِ، وَهِيَ الْأَرْضَةُ^(٢)، ضَعُفَتْ وَسَقَطَ إِلَى الْأَرْضِ، وَعِلِمَ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ قَبْلَ ذَلِكَ بِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ؛ فَتَبَيَّنَتِ الْجِنُّ -وَالْإِنْسُ أَيْضًا- أَنَّ الْجِنَّ لَا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ، كَمَا كَانُوا يَتَوَهَّمُونَ وَيُوهِمُونَ النَّاسَ ذَلِكَ؛ إِذْ

(١) قيل أنها : سنة. وأنهم لَمْ يَعْلَمُوا مُنْذُ كَمْ مَاتَ؟ فَوَضَعُوا الْأَرْضَةَ عَلَى الْعَصَا، فَأَكَلَتْ مِنْهَا يَوْمًا وَلَيْلَةً، ثُمَّ حَسَبُوا عَلَى ذَلِكَ النَّحْوِ، فَوَجَدُوهُ قَدْ مَاتَ مُنْذُ سَنَةٍ.

(٢) وهي: النمل الأبيض، الذي يأكل الخشب.

لو كانوا يعلمونه لما مكثوا في العذاب المذلّ لهم، وهو ما كانوا عليه من الأعمال الشاقة التي يعملونها لسليمان عليه السلام ظناً منهم أنه حيٌّ يراقبهم أو أنه في غفوة أو في سنة من النوم.

واليهود لما نبذوا كتاب الله تعالى، وانحرفوا عن عبادة الله وحده، ابتلوا بعبادة الشياطين والتقرب إليهم بالكفر وتعلم السحر منهم، واتبعوا ما تدعيه الشياطين التي كفرت وعلمت الناس السحر وادّعت أن سليمان كان ساحراً وأن ملكه قام على السحر، والحقيقة أن سليمان -عليه السلام- لم يكن ساحراً ولم يكفر، بل كان نبياً صالحاً آتاه الله ملكاً عظيماً، ولكن الشياطين هم الذين كفروا بتعلّم وتعليم الناس السحر.

كما ادعى اليهود كذلك أن سليمان بنى هيكلاً مزعوماً،
وإنما الذي بناه سليمان هو مسجد بيت المقدس - كما
تقدم-.

قصة يونس عليه السلام

وَبَعَثَ اللَّهُ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١)، إِلَى أَهْلِ نَيْنَوَى ؛ مِنْ
أَرْضِ الْمَوْصِلِ فَدَعَاَهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَانُوا مِائَةَ
أَلْفٍ وَزِيَادَةً، فَكَذَّبُوهُ وَتَمَرَّدُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ،
فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِهِمْ، خَرَجَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ،
وَوَعَدَهُمْ حُلُولَ الْعَذَابِ بِهِمْ بَعْدَ ثَلَاثٍ. فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ
بَيْنِ ظَهْرَانِيهِمْ وَتَحَقَّقُوا نُزُولَ الْعَذَابِ بِهِمْ، قَذَفَ اللَّهُ

(١) هو يُونُسُ بْنُ مَتَى، ومَتَى أبوه، ويقال أنه من نسل بنيامين بن يعقوب.

فِي قُلُوبِهِمُ التَّوْبَةُ وَالْإِنَابَةُ، وَنَدِمُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ إِلَى
نَبِيِّهِمْ، فَلَبِسُوا الْمُسُوحَ، وَفَرَّقُوا بَيْنَ كُلِّ بَهِيمَةٍ وَوَلَدِهَا،
ثُمَّ عَجُّوا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَصَرَخُوا وَتَضَرَّعُوا إِلَيْهِ،
وَتَمَسَّكُوا لَدَيْهِ، وَبَكَى الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ، وَالْبَنُونَ
وَالْبَنَاتُ، وَالْأُمَّهَاتُ، وَجَارَتِ الْأَنْعَامُ وَالِدَوَابُّ
وَالْمَوَاشِي، وَرَغَتِ الْإِبِلُ وَفُضِّلَانُهَا، وَخَارَتِ الْبَقَرُ
وَأَوْلَادُهَا، وَثَغَتِ الْغَنَمُ وَحُمَلَانُهَا، وَكَانَتْ سَاعَةً عَظِيمَةً
هَائِلَةً، فَكَشَفَ اللَّهُ الْعَظِيمُ، بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، وَرَأْفَتِهِ
وَرَحْمَتِهِ، عَنْهُمْ الْعَذَابَ الَّذِي كَانَ قَدْ اتَّصَلَ بِهِمْ
بِسَبَبِهِ.

وَلَمَّا ذَهَبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُغَاضِبًا بِسَبَبِ قَوْمِهِ { فَظَنَّ أَنْ
لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ } أَيِ ؛ نُضَيِّقَ. ^(١) رَكِبَ سَفِينَةً فِي الْبَحْرِ،
فَلَجَّتْ بِهِمْ وَاضْطَرَبَتْ، وَمَاجَتْ بِهِمْ وَثَقَلَتْ بِمَا فِيهَا،
وَكَادُوا يَغْرُقُونَ، فَاشْتَوَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى أَنْ يَقْتَرِعُوا،
فَمَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ الْقُرْعَةُ أَلْقَوْهُ مِنَ السَّفِينَةِ ؛ لِيَتَخَفَّفُوا
مِنْهُ، فَلَمَّا اقْتَرَعُوا وَقَعَتْ الْقُرْعَةُ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ يُونُسَ،
فَلَمْ يَسْمَحُوا بِهِ، فَأَعَادُوهَا ثَانِيَةً فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ أَيْضًا،
فَشَمَرَ لِيَخْلَعَ ثِيَابَهُ وَيُلْقِيَ بِنَفْسِهِ، فَأَبَوْا عَلَيْهِ ذَلِكَ، ثُمَّ
أَعَادُوا الْقُرْعَةَ ثَالِثَةً فَوَقَعَتْ عَلَيْهِ أَيْضًا ؛ لِمَا يُرِيدُهُ اللَّهُ
بِهِ مِنَ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ، وَلَمَّا وَقَعَتْ عَلَيْهِ الْقُرْعَةُ، أُلْقِيَ فِي
الْبَحْرِ، وَبَعَثَ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، حُوتًا عَظِيمًا مِنَ الْبَحْرِ

(١) وَقِيلَ: مَعْنَاهُ نَضَيِّقُ، مِنَ التَّقْدِيرِ.

الْأَخْضَرِ فَالْتَقَمَهُ، فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ -ظُلْمَةٌ بَطْنِ
 الْحُوتِ، وَظُلْمَةٌ الْبَحْرِ، وَظُلْمَةٌ اللَّيْلِ-: {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ
 سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}. فَلَوْلَا أَنَّهُ سَبَّحَ اللَّهَ
 هُنَالِكَ، وَقَالَ مَا قَالَ مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّسْبِيحِ، وَالْإِعْتِرَافِ
 لِلَّهِ بِالْخُضُوعِ، وَالتَّوْبَةِ إِلَيْهِ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ، لَلَيْتَ هُنَالِكَ
 إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَبِثْتَ مِنْ جَوْفِ ذَلِكَ الْحُوتِ. وَكَانَ
 مِنْ قَبْلِ أَخْذِ الْحُوتِ لَهُ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ أَيُّ؛ الْمُطِيعِينَ
 الْمُصَلِّينَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا.

فَأَلْقَاهُ الْحُوتُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ الْمَكَانُ الْقَفْرُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ
 شَيْءٌ مِنَ الْأَشْجَارِ، بَلْ هُوَ عَارٍ مِنْهَا {وَهُوَ سَقِيمٌ} أَيُّ؛
 ضَعِيفُ الْبَدَنِ. كَهَيْئَةِ الصَّبِيِّ حِينَ يُوَلَّدُ، وَهُوَ
 الْمُنْقُوسُ، لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ {وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ

يَقْطِينِ} وهي شَجَرَةُ الْقَرْعُ (الدَّبَّاءِ). وَقَالَ بَعْضُ
 الْعُلَمَاءِ: فِي إنبَاتِ الْقَرْعِ عَلَيْهِ حِكْمٌ جَمَّةٌ ؛ مِنْهَا أَنَّ
 وَرَقَهُ فِي غَايَةِ النُّعُومَةِ، وَكَثِيرٌ وَظَلِيلٌ، وَلَا يَقْرُبُهُ ذُبَابٌ،
 وَيُؤْكَلُ ثَمَرُهُ مِنْ أَوَّلِ طُلُوعِهِ إِلَى آخِرِهِ، نِيًّا وَمَطْبُوحًا،
 وَبِقَشَرِهِ وَبِبُزْرِهِ أَيْضًا، وَفِيهِ نَفْعٌ كَثِيرٌ، وَتَقْوِيَةٌ لِلدِّمَاغِ،
 وَلَمَّا طُرِحَ بِالْعَرَاءِ؛ هَيَأُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ أُرْوِيَّةً ^(١) وَحَشِيَّةً
 تَأْكُلُ مِنْ حَشِيشِ الْأَرْضِ، فَتَجِيءُ، فَتَفْشِجُ لَهُ ^(٢)، وَتَرْوِيهِ
 مِنْ لَبَنِهَا كُلَّ عَشِيَّةٍ وَبُكْرَةٍ، حَتَّى نَبْتَ ^(٣). وَهَذَا مِنْ
 رَحْمَةِ اللَّهِ بِهِ، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْهِ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ

(١) الأنثى من الوعول .

(٢) تفرج بين رجلَيْها .

(٣) يَعْنِي تَعَاثَى وَنَبَتَ لَحْمَهُ وَقْوِي .

تَعَالَى {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ} أَيِ ؛ الْكَرْبِ
وَالضَّيْقِ الَّذِي كَانَ فِيهِ {وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ} .

وَمَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ
مَتَّى؛ أَصَابَ ذَنْبًا، ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ.

وَنِعَمَ دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ هُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ {لَا
إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} فَإِنَّهُ لَمْ
يَدْعُ بِهَا مُسْلِمَ رَبِّهِ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ لَهُ .

قصة النبي شُعْيَا بْنُ أَمْصِيَا

وكان شُعْيَا بْنُ أَمْصِيَا من أنبياء بني إسرائيل قَبْلَ
زَكَرِيَّا وَيَحْيَى، وَهُوَ مِمَّنْ بَشَّرَ بِعِيسَى وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا

السَّلَامُ، وَكَانَ فِي زَمَانِهِ مَلِكٌ اسْمُهُ (صَدِيقَةُ)^(١) عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِلَادِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَكَانَ سَامِعًا مُطِيعًا لِشُعْيَا فِيمَا يَأْمُرُهُ بِهِ وَيَنْهَاهُ عَنْهُ مِنَ الْمَصَالِحِ، وَكَانَتْ الْأَحْدَاثُ قَدْ عَظُمَتْ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَمَرِضَ الْمَلِكُ وَخَرَجَتْ فِي رِجْلِهِ قُرْحَةٌ وَقَصَدَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ مَلِكُ بَابِلَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَهُوَ سَنَحَارِيبُ، بِجَيْشٍ عَظِيمٍ. وَفَزَعَ النَّاسَ فَزَعًا عَظِيمًا شَدِيدًا، وَقَالَ الْمَلِكُ لِلنَّبِيِّ شُعْيَا: مَاذَا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْكَ فِي أَمْرِ سَنَحَارِيبَ وَجُنُودِهِ؟ فَقَالَ: لَمْ يُوحَ إِلَيَّ فِيهِمْ شَيْئًا بَعْدُ. ثُمَّ نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ بِالْأَمْرِ لِلْمَلِكِ صَدِيقَةَ بِأَنْ يُوصِيَ وَيَسْتَخْلِفَ عَلَى مُلْكِهِ مَنْ يَشَاءُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ اقْتَرَبَ أَجَلُهُ، فَلَمَّا أَخْبَرَهُ بِذَلِكَ أَقْبَلَ الْمَلِكُ عَلَى

(١) فِي رَوَايَةِ الطَّبْرِيِّ: حَزَقِيَا بْنُ أَحَازَ. وَعَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ أَنَّهُ كَانَ يَدْعَى: صَدِيقَةَ. وَفِي بَعْضِ الْكُتُبِ: صِدْقِيَّةٌ.

الْقِبْلَةِ فَصَلَّى وَسَبَّحَ وَدَعَا وَبَكَى، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ
وَرَحِمَهُ، وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى شُعْيَا أَنْ يُبَشِّرَهُ بِأَنَّهُ قَدْ رَحِمَ
بُكَاءَهُ، وَقَدْ أَخَّرَ فِي أَجَلِهِ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَأَنْجَاهُ مِنْ
عَدُوِّهِ سَنَحَارِيبَ. فَلَمَّا قَالَ لَهُ ذَلِكَ ذَهَبَ مِنْهُ الْوَجَعُ
وَانْقَطَعَ عَنْهُ الشَّرُّ وَالْحُزْنُ، وَخَرَّ سَاجِدًا. فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ
أَوْحَى اللَّهُ إِلَى شُعْيَا أَنْ يَأْمُرَهُ أَنْ يَأْخُذَ مَاءَ التَّيْنِ فَيَجْعَلَهُ
عَلَى قُرْحَتِهِ، فَيَشْفَى وَيُصْبِحَ قَدْ بَرِيَ. فَفَعَلَ ذَلِكَ،
فَشَفِيَ، وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَى جَيْشِ سَنَحَارِيبَ الْمَوْتَ
فَأَصْبَحُوا وَقَدْ هَلَكُوا كُلُّهُمْ سِوَى سَنَحَارِيبَ وَخَمْسَةِ
مِنْ أَصْحَابِهِ، مِنْهُمْ بُحْتُ نَصْرَ فَأَرْسَلَ مَلِكُ بَنِي إِسْرَائِيلَ
فَجَاءَ بِهِمْ، فَجَعَلَهُمْ فِي الْأَعْلَالِ وَطَافَ بِهِمْ فِي الْبِلَادِ
عَلَى وَجْهِ التَّنْكِيلِ بِهِمْ وَالْإِهَانَةِ لَهُمْ سَبْعِينَ يَوْمًا،

وَيُطْعِمُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كُلَّ يَوْمٍ رَغِيفَيْنِ مِنْ شَعِيرٍ، ثُمَّ
أَوْدَعَهُمُ السَّجْنَ، وَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى شِيعِيَا أَنْ يَأْمُرَ
الْمَلِكَ بِإِرْسَالِهِمْ إِلَى بِلَادِهِمْ، لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ مَا قَدْ حَلَّ
بِهِمْ، فَلَمَّا رَجَعُوا جَمَعَ سَنَحَارِيبُ قَوْمَهُ وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا قَدْ
كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ، فَقَالَ لَهُ السَّحَرَةُ وَالْكَهَنَةُ: إِنَّا أَخْبَرْنَاكَ
عَنْ شَأْنِ رَبِّهِمْ وَأَنْبِيَائِهِمْ فَلَمْ تُطِئْنَا، وَهِيَ أُمَّةٌ لَا
يَسْتَطِيعُهَا أَحَدٌ مِنْ رَبِّهِمْ. فَكَانَ أَمْرُ سَنَحَارِيبَ مِمَّا
خَوَّفَهُمُ اللَّهُ بِهِ. ثُمَّ مَاتَ سَنَحَارِيبُ بَعْدَ سَبْعِ سِنِينَ. ثُمَّ
لَمَّا مَاتَ صَدِيقُهُ مَلِكُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَرَجَ أَمْرَهُمْ
وَاخْتَلَطَتْ أَحْدَاثُهُمْ، وَكَثُرَ شَرُّهُمْ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى
شِيعِيَا، فَقَامَ فِيهِمْ فَوْعَظُهُمْ وَذَكَرَهُمْ، وَأَخْبَرَهُمْ عَنِ اللَّهِ
بِمَا هُوَ أَهْلُهُ وَأَنْذَرَهُمْ بِأَسْهَ وَعِقَابِهِ إِنْ خَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ،

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ مَقَالَتِهِ عَدُوا عَلَيْهِ وَطَلَبُوهُ لِيَقْتُلُوهُ، فَهَرَبَ مِنْهُمْ، فَمَرَّ بِشَجَرَةٍ فَأَنْفَلَقَتْ لَهُ فَدَخَلَ فِيهَا، وَأَذْرَكَهُ الشَّيْطَانُ فَأَخَذَ بِهَذْبَةِ ثَوْبِهِ فَأَبْرَزَهَا، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ جَاءُوا بِالْمِنْشَارِ فَوَضَعُوهُ عَلَى الشَّجَرَةِ، فَنَشَرُوهَا وَنَشَرُوهُ مَعَهَا.

الخراب الأول لبيت المقدس

وَقَدْ كَانَ الْيَهُودُ مَعَ مُوسَى عِزَّةً وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ عَلَيْهِمْ يَدٌ، وَاسْتَمَرُّوا مَعَ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، طَالِبِينَ إِلَى بِلَادِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَهِيَ بِلَادُ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَانَ فِيهَا قَوْمٌ مِنَ الْعَمَالِقَةِ، فَكَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَنْ قِتَالِ الْعَمَالِقَةِ فَشَرَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الثَّيِّهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَمَاتَ فِيهِ هَارُونَ، ثُمَّ مُوسَى، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ثُمَّ خَرَجُوا بَعْدَهُمَا

مَعَ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بَيْتَ الْمَقْدِسِ،
وَأَسْتَقَرَّتْ أَيْدِيهِمْ عَلَيْهَا بَعْدَهُ إِلَى زَمَنِ دَاوُدَ، وَمَلَكَ
سُلَيْمَانُ الَّذِي لَمْ يُوْت أَحَدٌ مِثْلَ مُلْكِهِ، ثُمَّ تَمَرَدُوا عَلَى
شَرِيعَتِهِمْ وَعَبَدُوا الْأَصْنَامَ مَرَّاتٍ، وَقَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ. وَكَانَ
فِيهِمْ مِنَ التَّنْقِصِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي سَبِّهِمْ، وَذِكْرِ عُيُوبِ
نَزَّهَتِهِمْ اللَّهُ عَنْهَا، مَا هُوَ مَعْرُوفٌ. حَتَّى إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ
يَقُولُ أَنَّ سُلَيْمَانَ كَانَ سَاحِرًا، وَأَنَّ دَاوُدَ كَانَ مُنْجَمًا لَمْ
يَكُنْ نَبِيًّا، إِلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ. وَالْأَنْبِيَاءُ أَخْبَرُوا أَهْلَ الْكِتَابِ
بِمَا سَيَكُونُ مِنْهُمْ مِنَ الْإِحْدَاثِ، وَمَا يُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ مِنَ
الْمُلُوكِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَهُمْ وَيُخَرِّبُونَ بِلَادَهُمْ وَيَسْبُونَهُمْ.

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي
الْكِتَابِ لُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا}.

فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ
شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا . ثُمَّ رَدَدْنَا
لَكُمْ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ
أَكْثَرَ نَفِيرًا . إِنَّ أَحْسَنَئِمَّ أَحْسَنَئِمَّ لَأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا
فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا
الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا .
عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُذْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ
لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا } .

فحصل الخراب الأول لبيت المقدس لما جاء
بُخْتَنَصْرُ في عهد إرميا النبي، ودانيال، وحنانيا، وعزارياء،
وميشائيل، بعد أن قتل بنو إسرائيل نبيهم شمعيا في

الشَّجَرَةَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا مَاتَ مَلَكُهُمْ (صِدْقِيَّةٌ) ^(١) مَرَجَ
أَمْرَهُمْ وَتَنَافَسُوا عَلَى الْمُلْكِ وَقَتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَهُمْ لَا
يَسْمَعُونَ مِنْ نَبِيِّهِمْ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ قُمْ فِي قَوْمِكَ
أُوحِ عَلَى لِسَانِكَ، فَلَمَّا فَرَعَ مِمَّا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ عَدُوا
عَلَيْهِ لِيَقْتُلُوهُ فَهَرَبَ فَاِنْفَلَقَتْ لَهُ شَجَرَةٌ فَدَخَلَ فِيهَا،
وَأَذْرَكَهُ الشَّيْطَانُ فَأَخَذَ هُدْبَةً مِنْ ثَوْبِهِ فَأَرَاهُمْ إِيَّاهَا،
فَوَضَعُوا الْمِنْشَارَ فِي وَسْطِهَا فَنَشَرُوهَا حَتَّى قَطَعُوهَا
وَقَطَعُوهُ فِي وَسْطِهَا. وَكَذَبُوا إِرْمِيَا وَجَرَحُوهُ وَحَبَسُوهُ.

فَغَزَاهُمْ بِخُنْصَرٍ وَخَرَّبَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَأَمَرَهُ أَنْ
تُطْرَحَ فِيهِ الْجِيفُ، وَأَتْبَعَهُمْ إِلَى مِصْرَ. وَأَخْرَجَهُمْ مِنْهَا
وَسَبَّاهُمْ إِلَى بَابِلَ، وَكَانَ مِنْ أَوْلَيْكَ دَانِيَالُ النَّبِيِّ،

(١) وقيل اسمه: حزقيا، وقيل: صِدْقِيَا و صديقة وغيرها.

وَحَنَانِيَا، وَعَزَارِيَا، وَمِيشَائِيلُ، وَيَقِي بَيْتُ الْمَقْدِسِ خَرَابًا
سَبْعِينَ سَنَةً.

ثُمَّ إِنَّ بُحْتَنَصَرَ عَادَ إِلَى بَابِلَ وَأَقَامَ فِي سُلْطَانِهِ مَا شَاءَ
اللَّهُ أَنْ يُقِيمَ. ثُمَّ رَأَى رُؤْيَا، فَبَيْنَمَا هُوَ قَدْ أَعْجَبَهُ مَا رَأَى
إِذْ رَأَى شَيْئًا أَنْسَاهُ مَا رَأَى، فَدَعَا دَانِيَالَ، وَحَنَانِيَا،
وَعَزَارِيَا، وَمِيشَائِيلَ، وَقَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ رُؤْيَا رَأَيْتُهَا
فَأَنْسَيْتُهَا. وَلَئِنْ لَمْ تُخْبِرُونِي بِهَا وَبِتَأْوِيلِهَا لَأَنْزِعَنَّ
أَكْتَافَكُمْ! فَخَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ وَدَعَوْا اللَّهَ وَتَضَرَّعُوا إِلَيْهِ
وَسَأَلُوهُ أَنْ يُعَلِّمَهُمْ إِيَّاهَا، فَأَعْلَمَهُمُ الَّذِي سَأَلَهُمْ عَنْهُ،
فَجَاءُوا إِلَى بُحْتَنَصَرَ فَقَالُوا رَأَيْتَ تِمَثَالًا. قَالَ: صَدَقْتُمْ.
فَمَا تَأْوِيلُهَا؟

قَالَ دَانِيَالُ: " أَنْتَ الرَّأْسُ الَّذِي رَأَيْتَهُ مِنَ الذَّهَبِ،
وَيَقُومُ بَعْدَكَ وَلَدَاكَ اللَّذَانِ رَأَيْتَ مِنَ الْفِصَّةِ، وَهُمَا
دُونَكَ، وَيَقُومُ بَعْدَهُمَا مَمْلَكَةٌ أُخْرَى هِيَ دُونَهُمَا، وَهِيَ
شَبْهُ النُّحَاسِ، وَالْمَمْلَكَةُ الرَّابِعَةُ تَكُونُ قَوِيَّةً مِثْلَ الْحَدِيدِ
الَّذِي يَدُقُّ كُلَّ شَيْءٍ، فَأَمَّا الرَّجُلَانِ الَّتِي رَأَيْتَ مِنْ خَرْفٍ
فَمَمْلَكَةٌ ضَعِيفَةٌ وَكَلِمَتُهَا مُشْتَتَةٌ، وَأَمَّا الْحَجَرُ الَّذِي
رَأَيْتَ قَدْ صَكَ ذَلِكَ الصَّنَمَ الْعَظِيمَ فَفَتَّتَهُ فَهُوَ نَبِيٌّ يُقِيمُهُ
اللَّهُ إِلَهَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مِنْ قَبِيلَةٍ بِشَرِيعَةٍ قَوِيَّةٍ، فَيَدُقُّ
جَمِيعَ مُلُوكِ الْأَرْضِ وَأُمَمِهَا، حَتَّى تَمْتَلِئَ مِنْهُ الْأَرْضُ وَمِنْ
أُمَّتِهِ، وَيَدُومُ سُلْطَانُ ذَلِكَ النَّبِيِّ إِلَى انْقِضَاءِ الدُّنْيَا^(١)،

(١) وَقَالَ: دَانِيَالُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لما ذَكَرَ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِاسْمِهِ، فَقَالَ: " سَتَنْزَعُ فِي قَسِيكَ إِغْرَاقًا، وَتَرْثَوِي السَّهَامَ بِأَمْرِكَ يَا مُحَمَّدُ ارْتَوَاءً " .

فَهَذَا تَعْبِيرٌ عَنْ رُؤْيَاكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ ". فَقَالَ بَخْتُ نَصْرُ:
صَدَقَ.

فَلَمَّا عَبَرَ دَانِيَالُ وَمَنْ مَعَهُ رُؤْيَا بَخْتُنَصْرَ قَرَّبَهُمْ
وَأَذَنَاهُمْ وَاسْتَشَارَهُمْ فِي أَمْرِهِ، فَحَسَدَهُمْ أَصْحَابُهُ،
وَسَعَوْا بِهِمْ إِلَيْهِ، وَقَالُوا عَنْهُمْ مَا أَوْحَشَهُ مِنْهُمْ فَأَمَرَ،
فَحَفَرَ لَهُمْ أَخْدُودًا، وَأَلْقَاهُمْ فِيهِ، وَهُمْ سِتَّةُ رِجَالٍ، وَأَلْقَى
مَعَهُمْ سَبْعًا ضَارِيًا لِيَأْكُلَهُمْ، فَلَمْ يَخْدِشْ مِنْهُمْ أَحَدًا.

وَقِيلَ فِي سَبَبِ مَوْتِ بَخْتُنَصْرٍ إِنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ عَلَيْهِ
بُعُوضَةً فَدَخَلَتْ فِي مَنْخَرِهِ وَصَعِدَتْ إِلَى رَأْسِهِ، فَكَانَ
لَا يَقَرُّ وَلَا يَسْكُنُ حَتَّى يُدَقَّ رَأْسُهُ، إِلَى أَنْ مَاتَ.

وَأَمَّا دَانِيَالُ فَإِنَّهُ أَقَامَ بِأَرْضِ بَابِلَ، وَانْتَقَلَ عَنْهَا، وَمَاتَ
وَدُفِنَ بِالسُّوسِ مِنْ أَعْمَالِ خُوزِستَان. ^(١)

^(١) وروي عن: دَانِيَالُ النَّبِيُّ أَنَّهُ قَالَ: " سَأَلْتُ اللَّهَ وَتَضَرَّعْتُ إِلَيْهِ أَنْ يُبَيِّنَ لِي مَا يَكُونُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهَلْ يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَيَرُدُّ إِلَيْهِمْ مُلْكَهُمْ وَيَبْعَثُ فِيهِمُ الْأَنْبِيَاءَ، أَوْ يَجْعَلُ ذَلِكَ فِي غَيْرِهِمْ " قَالَ: دَانِيَالُ: " فَظَهَرَ لِي الْمَلِكُ فِي صُورَةِ شَابِّ حَسَنِ الْوَجْهِ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا دَانِيَالُ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَغْضَبُونِي وَتَمَرَّدُوا عَلَيَّ وَعَبَدُوا مِنْ دُونِي آلِهَةً أُخْرَى، وَصَارُوا مِنْ بَعْدِ الْعِلْمِ إِلَى الْجَهْلِ، وَمَنْ بَعْدَ الصِّدْقِ إِلَى الْكُذْبِ، فَسَلَّطْتُ عَلَيْهِمْ بُخْتَ نَصْرٍ فَقَتَلَ رِجَالَهُمْ وَسَبَى ذُرَارِيَهُمْ، وَهَدَمَ بَيْتَ مَقْدِسِهِمْ، وَحَرَقَ كُتُبَهُمْ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ مَنْ بَعْدَهُ بِهِمْ، وَأَنَا غَيْرُ رَاضٍ عَنْهُمْ وَلَا مُقْبِلُهُمْ عَثَرَاتِهِمْ، فَلَا يَزَالُونَ مِنْ سُخْطِي حَتَّى أَبْعَثَ مَسِيحِي ابْنَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ فَأُخْتِمَ عَلَيْهِمْ عِنْدَ ذَلِكَ بِاللَّعْنِ وَالسُّخْطِ، فَلَا يَزَالُونَ مَلْعُونِينَ، عَلَيْهِمُ الدَّهْلُ وَالْمُسْكَنَةُ حَتَّى أَبْعَثَ نَبِيَّ بَنِي إِسْمَاعِيلَ، الَّذِي بَشَّرْتُ بِهِ هَاجَرَ، وَأَرْسَلْتُ إِلَيْهَا مَلَائِكِي فَبَشَّرَهَا، فَأَوْحِي إِلَى ذَلِكَ النَّبِيِّ، وَأَعْلَمَهُ الْأَسْمَاءَ، وَأَرَيْنَهُ بِالتَّقْوَى، وَأَجْعَلَ الْبِرَّ شِعَارَهُ، وَالتَّقْوَى ضَمِيرَهُ، وَالصِّدْقَ قَوْلَهُ، وَالْوَفَاءَ طَبِيعَتَهُ، وَالْقَصْدَ سِيرَتَهُ، وَالرُّشْدَ سُنَّتَهُ، أَخْصَهُ بِكِتَابِ مُصَدِّقِ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكُتُبِ، وَنَاسِخِ لِبَعْضِ مَا فِيهَا، أُسْرِي بِهِ إِلَيَّ وَأَرْقِيهِ مِنْ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ حَتَّى يَعْלוْ، فَأَدْنِيَهُ وَأُسَلِّمَ عَلَيْهِ وَأَوْحِي إِلَيْهِ، ثُمَّ أَرُدُّهُ إِلَى عِبَادِي بِالسُّرُورِ وَالْغِبْطَةِ، حَافِظًا لِمَا اسْتَوْدَعْتُ، صَادِعًا بِمَا أَمَرَ، يَدْعُو إِلَى تَوْحِيدِي بِاللِّينِ مِنَ الْقَوْلِ وَالْمَوْعِظَةِ، لَا فَظًّا وَلَا غَلِيظًا وَلَا صَخَابًا فِي الْأَسْوَاقِ، رَءُوفًا بِمَنْ وَالَاهُ، رَحِيمًا بِمَنْ آمَنَ بِهِ، حَسَنًا عَلَى مَنْ عَادَاهُ، فَيَدْعُو قَوْمَهُ إِلَى تَوْحِيدِي وَعِبَادَتِي، وَيُخَبِّرُهُمْ بِمَا رَأَى مِنْ آيَاتِي، فَيَكْذِبُونَهُ وَيُؤْذِنُونَهُ.

قَالَ النَّاقِلُ لِهَذِهِ الْبَشَارَةِ: قَالُوا: ثُمَّ سَرَدَ دَانِيَالُ قِصَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَرْفًا حَرْفًا مِمَّا أَمْلَأَهُ عَلَيْهِ الْمَلِكُ، حَتَّى وَصَلَ آخِرَ أَيَّامِ أُمَّتِهِ بِالنُّصْحَةِ وَانْقِضَاءِ الدُّنْيَا، وَتُبُوثُهُ كَثِيرَةً، وَهِيَ الْآنَ فِي أَيْدِي النَّصَارَى وَالْيَهُودِ يَقْرَءُونَهَا.

فَهَذِهِ نُبُوءَةُ دَانِيَالٍ فِيهَا الْبَشَارَةُ بِالْمَسِيحِ، وَالْبَشَارَةُ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفِيهَا مِنْ وَصْفِ مُحَمَّدٍ وَأُمَّتِهِ بِالتَّفْصِيلِ مَا يَطُولُ وَضْفُهُ، وَقَدْ قَرَأَهَا الْمُسْلِمُونَ لَمَّا فَتَحُوا الْعِرَاقَ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الْعُلَمَاءُ، مِنْهُمْ أَبُو الْعَالِيَةِ: ذَكَرَ أَنَّهُمْ لَمَّا فَتَحُوا (تُسْتَر) وَجَدُوا دَانِيَالَ مَيِّتًا، وَوَجَدُوا عِنْدَهُ مُصْحَفًا. قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: أَنَا قَرَأْتُ ذَلِكَ الْمُصْحَفَ، وَفِيهِ صِفَتُكُمْ وَلُحُونٌ كَلَامُكُمْ، وَكَانَ أَهْلُ النَّاحِيَةِ إِذَا أَجْدَبُوا كَشَفُوا عَنْ قَبْرِهِ فَيَسْقُونَ، فَكَتَبَ أَبُو مُوسَى فِي ذَلِكَ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ: "أَنْ أَحْفَرُ بِالنَّهَارِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ قَبْرًا، وَأَدْفِنَهُ بِاللَّيْلِ فِي وَاحِدٍ مِنْهَا؛ لِنَلَّا يُفَتِّنَ النَّاسَ بِهِ".

وَعَنْ خَالِدِ بْنِ عَرْفُطَةَ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ إِذْ أَتَى بِرَجُلٍ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ مَسْكَنُهُ بِالسُّوسِ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَنْتَ فُلَانُ بْنُ فُلَانِ الْعَبْدِيِّ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وَأَنْتَ النَّازِلُ بِالسُّوسِ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَضْرِبَهُ بِقِنَاقَةٍ مَعَهُ فَقَالَ لَهُ: مَا ذَنْبِي؟ قَالَ فَقَرَأَ عَلَيْهِ {الر} {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ} {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ} فَقَرَأَهَا عَلَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَضْرِبَهُ ثَلَاثَ ضَرْبَاتٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ عُمَرُ: أَنْتَ الَّذِي انْتَسَخْتَ كِتَابَ دَانِيَالٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: اذْهَبْ فَاْمَحْهُ بِالْحَمِيمِ وَالصُّوفِ الْأَبْيَضِ وَلَا تَقْرَأْهُ وَلَا تُضَرِّهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ. فَقَرَأَ عَلَيْهِ عُمَرُ هَذِهِ الْآيَةَ لِيُبَيِّنَ لَهُ أَنَّ الْقُرْآنَ أَحْسَنُ الْقَصَصِ فَلَا يَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى غَيْرِهِ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقَصَصَ عَامٌّ لَا يَخْتَصُّ بِسُورَةٍ يُوسُفَ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْقُرْآنَ أَفْضَلُ مِنْ كِتَابِ دَانِيَالٍ وَنَحْوِهِ مِنْ كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ.

ثُمَّ فِي عَهْدِ « كِيرش بن أخشويرش » مَلِكِ بَابِلِ عَادَ
بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَكَانَتْ عِمَارَتُهُ آنَ ذَاكَ .
ثُمَّ مِنْ بَعْدِ عِمَارَتِهِ إِلَى ظُهُورِ الإسْكَندَرِ عَلَى بَيْتِ
الْمَقْدِسِ ثَمَانِيَّةٌ وَثَمَانِينَ سَنَةً ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِ مَمْلَكَةِ
الْإِسْكَندَرِ إِلَى مَوْلِدِ يَحْيَى بْنِ زَكْرِيَا ثَلَاثُمِائَةٍ وَثَلَاثًا وَسِتِّينَ
سَنَةً .

قصة عزيز

وَإِنَّ عَزِيزًا كَانَ عَبْدًا صَالِحًا حَكِيمًا خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ
إِلَى ضَيْعَةٍ لَهُ يَتَعَاهَدُهَا ، فَلَمَّا انْصَرَفَ انْتَهَى إِلَى خَرِبَةٍ ^(١)
حِينَ قَامَتِ الظَّهِيرَةُ وَأَصَابَهُ الْحَرُّ ، وَدَخَلَ الْخَرِبَةَ وَهُوَ

(١) قِيلَ أَنَّهَا بَيْتُ الْمَقْدِسِ بَعْدَ أَنْ خَرِبَهَا بَخْتَنْصَرُ . وَقِيلَ أَنَّ صَاحِبَ
هَذِهِ الْقِصَّةِ أَرْمِيَا النَّبِيَّ .

عَلَى حِمَارِهِ، فَنَزَلَ عَنْ حِمَارِهِ وَمَعَهُ سَلَّةٌ فِيهَا تَيْنٌ، وَسَلَّةٌ فِيهَا عِنَبٌ، فَنَزَلَ فِي ظِلِّ تِلْكَ الْخَرِيبَةِ وَأَخْرَجَ قَصْعَةً مَعَهُ، فَاعْتَصَرَ مِنَ الْعِنَبِ الَّذِي كَانَ مَعَهُ فِي الْقَصْعَةِ، ثُمَّ أَخْرَجَ خُبْزًا يَابِسًا مَعَهُ، فَأَلْقَاهُ فِي تِلْكَ الْقَصْعَةِ فِي الْعَصِيرِ؛ لِيَبْتَلَّ لِيَأْكُلَهُ، ثُمَّ اسْتَلْقَى عَلَى قَفَاهُ وَأَسْنَدَ رِجْلَيْهِ إِلَى الْحَائِطِ فَنَظَرَ سَقْفَ تِلْكَ الْبُيُوتِ وَرَأَى مَا فِيهَا وَهِيَ قَائِمَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَقَدْ بَادَ أَهْلُهَا، وَرَأَى عِظَامًا بَالِيَةً فَقَالَ: {أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا} فَلَمْ يَشْكُ أَنَّ اللَّهَ يُحْيِيهَا وَلَكِنْ قَالَهَا تَعَجُّبًا، فَبَعَثَ اللَّهُ مَلَكَ الْمَوْتِ، فَقَبَضَ رُوحَهُ، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ، فَلَمَّا أَتَتْ عَلَيْهِ مِائَةُ عَامٍ، وَكَانَتْ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أُمُورٌ وَأَحْدَاثٌ. قَالَ: فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَى عَزِيرٍ مَلَكًا فَخَلَقَ قَلْبَهُ

لِيَعْقِلَ بِهِ، وَعَيْنَيْهِ لِيَنْظُرَ بِهِمَا ؛ فَيَعْقِلَ كَيْفَ يُحْيِي اللَّهُ
 الْمَوْتَى، ثُمَّ رَكَّبَ خَلْقَهُ وَهُوَ يَنْظُرُ، ثُمَّ كَسَى عِظَامَهُ
 اللَّحْمَ، وَالشَّعْرَ، وَالْجِلْدَ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ، كُلُّ ذَلِكَ
 وَهُوَ يَرَى وَيَعْقِلُ، فَاسْتَوَى جَالِسًا، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ:
 { كَمْ لَبِثْتَ } ، قَالَ: { لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ } وَذَلِكَ
 أَنَّهُ كَانَ نَامَ فِي صَدْرِ النَّهَارِ عِنْدَ الظَّهِيرَةِ، وَبُعِثَ فِي آخِرِ
 النَّهَارِ وَالشَّمْسُ لَمْ تَغِبْ، فَقَالَ: أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ وَلَمْ يَتِمَّ لِي
 يَوْمٌ. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: { بَلْ لَبِثْتَ مِائَةً عَامٍ فَأَنْظُرْ إِلَى
 طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ } يَعْنِي الطَّعَامَ ؛ الْخُبْزَ الْيَابِسَ، وَشَرَابَهُ
 ؛ الْعَصِيرَ الَّذِي كَانَ اعْتَصَرَ فِي الْقُصْعَةِ، فَإِذَا هُمَا عَلَى
 حَالِهِمَا لَمْ يَتَغَيَّرِ الْعَصِيرُ وَالْخُبْزُ يَابِسَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: { لَمْ
 يَتَسَنَّهْ } يَعْنِي لَمْ يَتَغَيَّرْ، وَكَذَلِكَ التَّيْنُ وَالْعِنْبُ غَضُّ لَمْ

يَتَغَيَّرُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ حَالِهِمَا، فَكَأَنَّهُ أَنْكَرَ فِي قَلْبِهِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَنْكَرْتَ مَا قُلْتُ لَكَ؟ انْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ. فَنَظَرَ فَإِذَا حِمَارُهُ قَدْ بَلَيْتَ عِظَامُهُ وَصَارَتْ نَخْرَةً، فَنَادَى الْمَلِكُ عِظَامَ الْحِمَارِ، فَأَجَابَتْ وَأَقْبَلَتْ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ حَتَّى رَكِبَهُ الْمَلِكُ، وَعَزِيْزٌ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، ثُمَّ أَلْبَسَهَا الْعُرُوقَ وَالْعَصَبَ، ثُمَّ كَسَاهَا اللَّحْمَ، ثُمَّ أَنْبَتَ عَلَيْهَا الْجِلْدَ وَالشَّعْرَ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ الْمَلِكُ، فَقَامَ الْحِمَارُ رَافِعًا رَأْسَهُ وَأَذْنِيَهُ إِلَى السَّمَاءِ، نَاهِقًا يَظُنُّ الْقِيَامَةَ قَدْ قَامَتْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: {وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا} . يَعْنِي انْظُرْ إِلَى عِظَامِ حِمَارِكَ كَيْفَ نُرَكِّبُ بَعْضَهَا بَعْضًا فِي أَوْصَالِهَا، حَتَّى إِذَا صَارَتْ عِظَامًا مُصَوَّرًا حِمَارًا بِلَا لَحْمٍ، ثُمَّ انْظُرْ كَيْفَ نَكْسُوهَا لَحْمًا، {فَلَمَّا تَبَيَّنَ

لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ { مِنْ إِحْيَاءِ
 الْمَوْتَى وَغَيْرِهِ. قَالَ: فَرَكِبَ حِمَارَهُ حَتَّى أَتَى مَحَلَّتَهُ فَأَنكَرَهُ
 النَّاسُ، وَأَنكَرَ النَّاسُ، وَأَنكَرَ مَنَازِلَهُمْ، فَاذْطَلَقَ عَلَى وَهْمِ
 مِنْهُ، حَتَّى أَتَى مَنَزِلَهُ، فَإِذَا هُوَ بِعَجُوزٍ عَمِيَاءَ مُقْعَدَةٍ قَدْ
 أَتَى عَلَيْهَا مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً، كَانَتْ أُمَةً لَهُمْ، فَخَرَجَ
 عَنْهُمْ عَزِيرٌ وَهِيَ بِنْتُ عِشْرِينَ سَنَةً، كَانَتْ عَرَفَتْهُ
 وَعَقَلَتْهُ، فَلَمَّا أَصَابَهَا الْكِبَرُ أَصَابَهَا الزَّمَانَةُ فَقَالَ لَهَا
 عَزِيرٌ: يَا هَذِهِ أَهَذَا مَنَزِلُ عَزِيرٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ هَذَا مَنَزِلُ
 عَزِيرٍ. فَبَكَتْ وَقَالَتْ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا مِنْ كَذَا وَكَذَا سَنَةٍ
 يَذْكُرُ عَزِيرًا وَقَدْ نَسِيَهُ النَّاسُ. قَالَ: فَإِنِّي أَنَا عَزِيرٌ، كَانَ
 اللَّهُ أَمَاتَنِي مِائَةَ سَنَةٍ ثُمَّ بَعَثَنِي. قَالَتْ: سُبْحَانَ اللَّهِ! فَإِنَّ
 عَزِيرًا قَدْ فَقَدْنَاهُ مُنْذُ مِائَةِ سَنَةٍ، فَلَمْ نَسْمَعْ لَهُ بِذِكْرِ.

قَالَ: فَإِنِّي أَنَا عَزِيزٌ. قَالَتْ: فَإِنَّ عَزِيرًا رَجُلٌ مُسْتَجَابُ
الدَّعْوَةِ، يَدْعُو لِلْمَرِيضِ وَلِصَاحِبِ الْبَلَاءِ بِالْعَافِيَةِ
وَالشِّفَاءِ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ بَصْرِي حَتَّى أَرَكَ، فَإِنْ
كُنْتَ عَزِيرًا عَرَفْتُكَ. قَالَ: فَدَعَا رَبَّهُ وَمَسَحَ بِيَدِهِ عَلَى
عَيْنَيْهَا فَصَحَّحَتَا وَأَخَذَ بِيَدِهَا وَقَالَ: قُومِي بِإِذْنِ اللَّهِ.
فَأَطْلَقَ اللَّهُ رِجْلَيْهَا، فَقَامَتْ صَحِيحَةً كَأَنَّمَا نَشِطَتْ مِنْ
عِقَالٍ، فَنَظَرَتْ فَقَالَتْ: أَشْهَدُ أَنَّكَ عَزِيرٌ وَأَنْطَلَقْتُ إِلَى
مِحْلَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهُمْ فِي أُنْدِيَتِهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ، وَابْنُ
لِعَزِيرٍ شَيْخٌ ابْنُ مِائَةِ سَنَةٍ وَثَمَانِي عَشْرَ سَنَةً وَبَنُو بَنِيهِ
شُيُوخٌ فِي الْمَجْلِسِ، فَنَادَتْهُمْ فَقَالَتْ: هَذَا عَزِيرٌ قَدْ
جَاءَكُمْ. فَكَذَّبُوهَا، فَقَالَتْ: أَنَا فُلَانَةُ مَوْلَاتِكُمْ دَعَا لِي
رَبُّهُ، فَردَّ عَلَيَّ بَصْرِي وَأَطْلَقَ رِجْلَيَّ، وَزَعَمَ أَنَّ اللَّهَ أَمَاتَهُ

مِائَةَ سَنَةٍ ثُمَّ بَعَثَهُ. قَالَ: فَتَهَضَّ النَّاسُ، فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ،
فَنَظَرُوا إِلَيْهِ فَقَالَ ابْنُهُ: كَانَ لِأَبِي شَامَةٌ سَوْدَاءُ بَيْنَ
كَتِفَيْهِ. فَكَشَفَ عَنْ كَتِفَيْهِ، فَإِذَا هُوَ عُزَيْرٌ فَقَالَتْ بَنُو
إِسْرَائِيلَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيْنَا أَحَدٌ حَفِظَ التَّوْرَةَ فِيمَا
حَدَّثَنَا غَيْرُ عُزَيْرٍ وَقَدْ حَرَّقَ بُحْتُ نَصْرَ التَّوْرَةَ وَلَمْ يَبْقَ
مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا مَا حَفِظَتِ الرِّجَالُ فَاكْتُبْهَا لَنَا. وَكَانَ أَبُوهُ
سَرُوحًا قَدْ دَفَنَ التَّوْرَةَ أَيَّامَ بُحْتِ نَصْرَ فِي مَوْضِعٍ لَمْ
يَعْرِفْهُ أَحَدٌ غَيْرُ عُزَيْرٍ فَانْطَلَقَ بِهِمْ إِلَى ذَلِكَ الْمَوْضِعِ
فَحَفَرَهُ فَاسْتَخْرَجَ التَّوْرَةَ، وَكَانَ قَدْ عَفِنَ الْوَرَقُ، وَدَرَسَ
الْكِتَابُ. قَالَ: وَجَلَسَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ
حَوْلَهُ، فَجَدَّدَ لَهُمُ التَّوْرَةَ، وَنَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ شَهَابَانِ،
حَتَّى دَخَلَا جَوْفَهُ، فَتَذَكَّرَ التَّوْرَةَ، فَجَدَّدَهَا لِبَنِي

إِسْرَائِيلَ. فَمِنْ ثَمَّ قَالَتِ الْيَهُودُ: عَزِيزُ ابْنُ اللَّهِ - جَلَّ اللَّهُ
وَعَزَّ - لِلَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِ الشَّهَابِينَ وَتَجْدِيدِهِ التَّوْرَةَ
وَقِيَامِهِ بِأَمْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ بَنُو إِسْرَائِيلَ: لَمْ يَسْتَطِعْ
مُوسَى أَنْ يَأْتِيَنَا بِالتَّوْرَةِ إِلَّا فِي كِتَابٍ، وَإِنَّ عَزِيزًا قَدْ
جَاءَنَا بِهَا مِنْ غَيْرِ كِتَابٍ. فَرَمَاهُ طَوَائِفُ مِنْهُمْ، وَقَالُوا:
عَزِيزُ ابْنُ اللَّهِ. وَكَانَ جَدَّدَ لَهُمُ التَّوْرَةَ بِأَرْضِ السَّوَادِ بِدِيرِ
حَزْقِيلَ. وَالْقَرْيَةُ الَّتِي مَاتَ فِيهَا يُقَالُ لَهَا: سَايْرَابَادَ.
فَكَانَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ} يَعْنِي
لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَجْلِسُ مَعَ بَنِيهِ وَهُمْ شُيُوخٌ
وَهُوَ شَابٌّ؛ لِأَنَّهُ مَاتَ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَبَعَثَهُ اللَّهُ
شَابًّا، كَهَيْئَةِ يَوْمٍ مَاتَ.^(١)

(١) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بُعِثَ بَعْدَ بُخْتِ نَصْرٍ. وَكَذَلِكَ قَالَ الْحَسَنُ.

وَالْمَشْهُورُ أَنَّ عَزِيزًا نَبِيًّا مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنَّهُ كَانَ
فِيمَا بَيْنَ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ، وَبَيْنَ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى.

اختلاف بني إسرائيل

ثم إِنَّ بني إسرائيل اختلفوا وتفرقوا في اتباع الحقِّ
بَعْدَ أَنْ هَدَاهُمْ اللَّهُ وَبَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقَّ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ
وَأَنْزَالِ الْكُتُبِ عَلَيْهِمْ، وفضلهم على أهل زمانهم من
الأمم المعاصرة لهم وبعْدَ مَا قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ وَأَخَذَ
عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ، وَلَمْ يَكُنْ اخْتِلَافُهُمْ لِعَدَمِ الْعِلْمِ؛ بَلْ
عَلِمُوا الْحَقَّ وَلَكِنْ بَغَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ كَمَا يَبْغِي
الْحَاسِدُ عَلَى الْمَحْسُودِ. وكان اختلافهم لِتَحَاسُدِهِمْ
وَتَبَاغُضِهِمْ وَتَدَابُرِهِمْ، إِذْ كُلُّ فِرْقَةٍ تَرِيدُ الرِّئَاسَةَ
وَالسُّلْطَةَ الدِّينِيَّةَ وَالدُّنْيَوِيَّةَ لَهَا دُونَ غَيْرِهَا، وَحَمَلَهُمُ

البغى والعنادُ لغيرهم عَلَى مُخَالَفَتِهِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَإِنْ
كَانَتْ حَقًّا، فَيَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ هَوَاهُ وَيُخَالِفُ أَمْرَ اللَّهِ وَهُوَ
يَعْرِفُ الْحَقَّ وَيَزِيغُ عَنْهُ.

تحريف اليهود التوراة

وَكَانَ كُفْرُ الْيَهُودِ بِتَبْدِيلِهِمْ أَحْكَامَ التَّوْرَةِ قَبْلَ
مَبْعَثِ الْمَسِيحِ، وَتَصَرَّفُوا فِي بَعْضِ أَلْفَظِهَا بِالزِّيَادَةِ
وَالنَّقْصِ كَمَا تَصَرَّفُوا فِي مَعَانِيهَا^(١). وكما فِي قِصَّةِ
الدَّيِّحِ : (اذْبَحْ ابْنَكَ وَحِيدَكَ)؛ أَضَافُوا فِي نُسْخَةِ :
(بِكْرَكَ إِسْحَاقَ)، وَلَفْظَةُ "إِسْحَاقَ" مُحَرَفَةٌ بِلاشك؛ لِأَنَّ

(١) وفي بيت المدراس بالمدينة وَهُوَ الْبَيْتُ الَّذِي يَقْرَأُ فِيهِ الْيَهُودُ التَّوْرَةَ
ويتدارسونها؛ اعترف اليهود للنبي محمد صلى الله عليه وسلم
بتبديلهم حكم الرجم، وكتمانهم آية الرجم في التوراة. وكان ذلك
بحضور أعلمهم واسمه ابن سوريا، وعبدالله بن سلام رضي الله عنه
وكان قد أسلم وهو من أحبارهم.

الْوَحِيدَ وَهُوَ الْبِكْرُ إِسْمَاعِيلُ لِأَنَّهُ وَلَدَ قَبْلَ إِسْحَاقَ بِأَرْبَعِ
عَشْرَ سَنَةً فَكَيْفَ يَكُونُ الْوَحِيدُ الْبِكْرُ إِسْحَاقُ. وَإِنَّمَا
حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ حَسَدُ الْعَرَبِ أَنْ يَكُونَ أَبُوهُمْ
إِسْمَاعِيلُ هُوَ الذَّبِيحُ، فَأَرَادُوا أَنْ يَذْهَبُوا بِهَذِهِ الْفَضِيلَةِ
لَهُمْ فَزَادُوا ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ وَعَلَى
رَسُولِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

واليهود بأيديهم نسخة من التوراة تغاير نسخة
السامرة - وهم فرقة من اليهود -، والسامرة يخالفونهم
في ألفاظ كثيرة ومعان أيضاً، وَهَكَذَا فِي تَوْرَةِ السَّامِرَةِ
فِي الْعَشْرِ الْكَلِمَاتِ زِيَادَةُ الْأَمْرِ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الطُّورِ فِي
الصَّلَاةِ وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي سَائِرِ نُسَخِ الْيَهُودِ وَالتَّنْصَارَى،
وليس في توراة السامرة حرف الهمزة ولا حرف الياء،

والنصارى أيضا بأيديهم تورا يسمونها العتيقة، وهي مخالفة لنسختي اليهود والسامرة، وَأَمَّا التَّوْرَةُ الْمُعَرَّبَةُ فَلَا يَشْكُ عَاقِلٌ فِي تَبْدِيلِهَا وَتَحْرِيفِ كَثِيرٍ مِنْ أَلْفَظِهَا وَتَغْيِيرِ الْقَصَصِ وَالْأَلْفَازِ وَالزِّيَادَاتِ وَالنَّقْصِ الْبَيِّنِ الْوَاضِحِ وَفِيهَا مِنَ الْكَذِبِ الْبَيِّنِ وَالْخَطَأِ الْفَاحِشِ شَيْءٌ كَثِيرٌ جَدًّا. (١)

وإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ تَسْوِسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا مَاتَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، يُقِيمُ أَمْرَهُمْ وَيُزِيلُ مَا غَيَّرُوا مِنْ أَحْكَامِ التَّوْرَةِ.

(١) ومن الأصار التي لا يزال عليها المتدينون اليهود حتى اليوم أنهم لا يؤاكلون الحائض ولا يشاربونها ولا يساكنونها، ويوم السبت لا يعملون فيه شيئا حتى ركوب السيارة أو الطائرة، وفي السنة السابعة لا يزرعون فيها ويسموننها سنة التبوير، وإحدى فرق اليهود المعروفة اليوم ضمن طائفة (الحسيديم أو السيديم) تحرق الزانية ولا تفرق بين أن تكون بكرة أو محصنة.

زكريا ويحيى وآل عمران

وَكَانَ عِمْرَانُ بْنُ مَائِثَانَ مِنْ وَلَدِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ،
وَكَانَ آلُ مَائِثَانَ رُءُوسَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَحْبَارَهُمْ، وَكَانَ
مُتَزَوِّجًا بِحَنَّةَ بِنْتِ فَاقُودَ، وَكَانَ زَكَرِيَّا بْنُ بَرَخِيَّا - عَلَيْهِ
السَّلام - نَجَّارًا^(١)، مُتَزَوِّجًا مِنْ إِشْيَاعَ بِنْتِ عِمْرَانَ^(٢) أخت
مريم، وَكَانَتْ حَنَّةُ - امرأة عمران - قَدْ كَبُرَتْ وَاشْتَهَتْ
الْوَلَدَ، فَدَعَتْ اللَّهَ أَنْ يَهَبَ لَهَا وَلَدًا وَنَذَرَتْ إِنْ يَرْزُقُهَا
وَلَدًا أَنْ تَجْعَلَهُ مِنْ سَدَنَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَخَدَمِهِ،
فَحَرَّرَتْ مَا فِي بَطْنِهَا، وَلَمْ تَعْلَمْ مَا هُوَ، وَكَانَ النَّذْرُ
الْمُحَرَّرُ عِنْدَهُمْ أَنْ يُجْعَلَ لِلْكَنِيسَةِ يَقُومُ بِخِدْمَتِهَا وَلَا

(١) وهذا من فضائله، وفي الحديث: (ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده).

(٢) وقيل أنها إيشاع بنت فاقود وأنها خالة مريم، وقيل اسمها: أشياع.

يَبْرَحُ مِنْهَا حَتَّى يَبْلُغَ الْحُلُمَ، فَإِذَا بَلَغَ خَيْرٌ، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يُقِيمَ فِيهَا أَقَامَ، وَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَذْهَبَ ذَهَبَ حَيْثُ شَاءَ. وَلَمْ يَكُنْ يُحَرَّرُ إِلَّا الْغُلَمَانُ، لِأَنَّ الْإِنَاثَ لَا يَصْلَحْنَ لِذَلِكَ لِمَا يُصِيبُهُنَّ مِنَ الْحَيْضِ وَالْأَذَى.

ثُمَّ مَاتَ عِمْرَانُ وَحَنَّةٌ حَامِلٌ بِمَرْيَمَ، فَلَمَّا وَضَعَتْهَا إِذَا هِيَ أُنْثَى، فَقَالَتْ عِنْدَ ذَلِكَ {رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى} فِي خِدْمَةِ الْكَنِيسَةِ وَالْعِبَادِ الَّذِينَ فِيهَا، {وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ}، وَهِيَ بُلْغَتُهُمُ الْعِبَادَةُ.

ثُمَّ لَقَّتْهَا فِي خِرْقَةٍ وَحَمَلَتْهَا إِلَى الْمَسْجِدِ وَوَضَعَتْهَا عِنْدَ الْأَخْبَارِ أَبْنَاءِ هَارُونَ، وَهُمْ يَلُونُ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ مَا يَلِي بَنُو شَيْبَةَ مِنَ الْكُعْبَةِ. فَقَالَتْ: دُونَكُمْ هَذِهِ

الْمُنْدُورَةَ فَتَنَافَسُوا فِيهَا لِأَنَّهَا بِنْتُ إِمَامِهِمْ وَصَاحِبِ
قُرْبَانِهِمْ. فَقَالَ زَكَرِيَّا: أَنَا أَحَقُّ بِهَا فَقَالُوا لَكِنَّا نَقْتَرِعُ
عَلَيْهَا. فَأَلْقُوا أَقْلَامَهُمْ فِي نَهْرٍ جَارٍ، قِيلَ هُوَ نَهْرُ الْأُرْدُنِّ،
فَأَلْقُوا فِيهِ أَقْلَامَهُمُ الَّتِي كَانُوا يَكْتُبُونَ بِهَا التَّوْرَةَ، فَارْتَفَعَ
قَلَمُ زَكَرِيَّا فَوْقَ الْمَاءِ وَرَسَبَتْ أَقْلَامُهُمْ، فَأَخَذَهَا وَكَفَّلَهَا
وَضَمَّهَا إِلَى أُخْتِهَا (إِشَاع) أُمُّ يَحْيَى وَاسْتَرْضَعَ لَهَا حَتَّى
كَبُرَتْ، فَبَنَى لَهَا غُرْفَةً فِي الْمَسْجِدِ لَا يُرْقَى إِلَيْهَا إِلَّا بِسَلَمٍ
وَلَا يَصْعَدُ إِلَيْهَا غَيْرُهُ، وَكَانَ يَجِدُ عِنْدَهَا فَاكِهَةَ الشِّتَاءِ فِي
الصَّيْفِ، وَفَاكِهَةَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ، فَيَقُولُ: أَنَّى لَكَ
هَذَا؟ فَتَقُولُ: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. فَلَمَّا رَأَى زَكَرِيَّا ذَلِكَ
مِنْهَا دَعَا اللَّهَ تَعَالَى وَرَجَا الْوَلَدَ حَيْثُ رَأَى فَاكِهَةَ
الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ وَفَاكِهَةَ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ، فَقَالَ:

إِنَّ الَّذِي فَعَلَ هَذَا بِمَرْيَمَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُصْلِحَ زَوْجَتِي حَتَّى تَلِدَ. فَ {قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} فَبَيْنَمَا هُوَ يُصَلِّي فِي الْمَذْبَحِ الَّذِي لَهُمْ إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ شَابٍّ، وَهُوَ جَبْرَائِيلُ، فَفَزَعَ زَكْرِيَّا مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ: {أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى}، {مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنْ اللَّهِ}.^(١)

وَسَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى (يَحْيَى) وَلَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ مَنْ تَسَمَّى هَذَا الْإِسْمَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا} .
وَقَالَ تَعَالَى: {وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ

(١) يَعْنِي أَنْ يَحْيَى يَكُونُ مِمَّنْ يُؤْمِنُ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَيَحْيَى أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِعِيسَى وَصَدَّقَهُ، وَذَلِكَ أَنَّ أُمَّهُ كَانَتْ حَامِلًا بِهِ فَاسْتَقْبَلَتْ مَرْيَمَ وَهِيَ حَامِلٌ بِعِيسَى فَقَالَتْ لَهَا: يَا مَرْيَمُ أَحَامِلُ أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: لِمَذَا تَسْأَلِينِي؟ فَقَالَتْ إِنِّي أَرَى مَا فِي بَطْنِي يَسْجُدُ لِمَا فِي بَطْنِكَ، فَذَلِكَ تَصَدِيقُهُ .
وَقِيلَ: صَدَقَ الْمَسِيحُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَلَهُ ثَلَاثُ سِنِينَ .

يُبْعَثُ حَيًّا} ^(١) ، وَكَانَ لَا يَأْتِي النِّسَاءَ ، وَلَا يَلْعَبُ مَعَ الصَّبْيَانِ .

قَالَ زكريا: {رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ} ؟ فَقِيلَ لَهُ: {كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} .
وإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ اسْتِخْبَارًا هَلْ يُرْزَقُ الْوَلَدَ مِنْ امْرَأَتِهِ الْعَاقِرِ
أَمْ غَيْرَهَا ، لَا إِنْكَارًا لِقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى . {قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي
آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا} ^(٢) .
فَأَمْسَكَ اللَّهُ لِسَانَهُ عَنِ الْكَلَامِ مَعَ النَّاسِ .

فَلَمَّا وُلِدَ رَأَاهُ أَبُوهُ حَسَنَ الصُّورَةِ ، قَلِيلَ الشَّعْرِ ، قَصِيرَ
الْأَصَابِعِ ، مَقْرُونِ الْحَاجِبَيْنِ ، دَقِيقَ الصَّوْتِ ، قَوِيًّا فِي

(١) قِيلَ: أَوْحَسُ مَا يَكُونُ ابْنُ آدَمَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الثَّلَاثَةِ ، فَسَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ وَحْشَتِهَا .
(٢) الرَّمْرُ : الْإِشَارَةُ .

طَاعَةِ اللَّهِ مُذْ كَانَ صَبِيًّا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ
صَبِيًّا}.^(١)

قِيلَ: إِنَّهُ قَالَ لَهُ يَوْمًا الصَّبِيَانُ أَمْثَالُهُ: يَا يَحْيَى اذْهَبْ بِنَا
نَلْعَبُ. فَقَالَ لَهُمْ: مَا لِلْعِبِ خُلِقْتُ.

وَمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ وَلَدِ آدَمَ إِلَّا قَدْ أَخْطَأَ ، أَوْ هَمَّ
بِخَطِيئَةٍ، لَيْسَ يَحْيَى بِنُ زَكْرِيَّا.

المسيح عيسى بن مريم عليه السلام

و وُلِدَ الْمَسِيحُ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ الصَّدِيقَةِ بِمَعْجَزَةٍ
إِلَهِيَةٍ فَقَدْ خُلِقَ بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ، مِنْ غَيْرِ أَبٍ، حَيْثُ

(١) وَاخْتَلَفَ فِي تَفْسِيرِهِ، فَقِيلَ: نَبِيٌّ وَهُوَ ابْنُ تِسْعِ سِنِينَ. وَقِيلَ أَقْلٌ
مِنْ ذَلِكَ. وَالْمُرَادُ بِالْحُكْمِ: الْفَهْمُ فِي الدِّينِ.

تَنَحَّتْ مَرِيَمُ عَلَيْهَا السَّلَامُ عَنْ أَهْلِهَا^(١)، وَانْفَرَدَتْ بِمَكَانٍ عَلَى جِهَةِ الشَّرْقِ مِنْهُمْ. ^(٢) فَاتَّخَذَتْ لِنَفْسِهَا مِنْ دُونِ قَوْمِهَا سَاتِرًا يَسْتَرُهَا حَتَّى لَا يَرَوْهَا حَالُ عِبَادَتِهَا لِرَبِّهَا، فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَتَمَثَّلَ لَهَا فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ سَوِيٍّ الْخَلْقَةِ، فَخَافَتْ أَنَّهُ يَرِيدُهَا بِسُوءٍ. فَلَمَّا رَأَتْهُ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ سَوِيٍّ الْخَلْقِ يَتَّجِهَ إِلَيْهَا قَالَتْ: إِنِّي أَسْتَجِيرُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ أَنْ يَنَالَنِي مِنْكَ سُوءٌ - يَا هَذَا - إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا تَخَافُ اللَّهَ. فَقَالَ لَهَا: أَنَا لَسْتُ بِشَرًّا، إِنَّمَا أَنَا رَسُولٌ مِنْ رَبِّكَ أُرْسِلُنِي إِلَيْكَ لِأَهْبَ لَكَ

(١) رَوَى أَنَّهُ خَرَجَتْ إِلَى جَانِبِ الْمِحْرَابِ بِحَيْضٍ أَصَابَهَا فَلَمَّا طَهَّرَتْ إِذْ هِيَ بِرَجُلٍ مَعَهَا { فَأُرْسِلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا }، وَهُوَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٢) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: "أَنَا أَعْلَمُ النَّاسَ بِمِ اتَّخَذَتْ النَّصَارَى الْمَشْرِقَ قِبْلَةً، قَوْلُ اللَّهِ: انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا، وَاتَّخَذُوا مِيلَادَ عِيسَى قِبْلَةً". وَلَا يَعَارِضُ هَذَا مَا ذَكَرَهُ غَيْرُهُ: أَنَّ الْمَلِكَ قُسْطَنْطِينَ أَمَرَ النَّصَارَى بِجَعْلِ الْقِبْلَةِ لِمَشْرِقِ الشَّمْسِ لِمَا أَفْسَدَ عَلَى النَّصَارَى دِينَهُمْ.

ولداً طيباً طاهراً. قالت مريم متعجبة: كيف يكون لي ولد ولم يقربني زوج ولا غيره، ولست زانية حتى يكون لي ولد؟! فقال لها جبريل: الأمر كما ذكرت من أنك لم يمسسك زوج ولا غيره ولم تكوني زانية، لكن ربك سبحانه قال أن الخلق من غير أب هيّن عليه، وليكون الولد الموهوب لك علامة للناس على قدرة الله، ورحمة منه لك ولمن آمن به، وكان خَلَقَ ولدك هذا قضاء من الله مقدّراً، مكتوباً في اللوح المحفوظ. فَأَخَذَ بِكُمَّهََا فَنَفَخَ فِي جَيْبِ دِرْعِهَا وَكَانَ مَشْقُوقًا مِنْ قُدَّامِهَا فَدَخَلَتِ النَّفْخَةُ صَدْرَهَا فَحَمَلَتْ بِهِ بَعْدَ نَفْخِ الْمَلِكِ.

فَأَتَتْهَا أُخْتُهَا امْرَأَةٌ زَكْرِيَّا^(١) لَيْلَةً تَزُورُهَا فَلَمَّا فَتَحَتْ
لَهَا الْبَابَ التَّرَمَّتْهَا فَقَالَتْ امْرَأَةٌ زَكْرِيَّا: يَا مَرْيَمُ أَشَعَرْتَ
أَنِّي حُبْلَى؟ فَقَالَتْ مَرْيَمُ أَيْضًا: أَشَعَرْتَ أَنِّي حُبْلَى؟ ،
فَقَالَتْ امْرَأَةٌ زَكْرِيَّا: فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا فِي بَطْنِي يَسْجُدُ
لِلَّذِي فِي بَطْنِكَ. (٢)

فَوَلَدَتْ امْرَأَةً زَكْرِيَّا يَحْيَى^(٣)، وَلَمَّا بَلَغَ أَنْ تَضَعَ مَرْيَمُ
خَرَجَتْ إِلَى جَانِبِ الْمِحْرَابِ فَتَنَحَّتْ بِحَمْلِهَا إِلَى مَكَانٍ

(١) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ: «فَمَرَرْتُ بِابْنَيْ الْخَالَةِ: يَحْيَى وَعِيسَى» وَهُمَا ابْنَا الْخَالَةِ عَلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ كَمَا هُوَ ظَاهِرُ الْحَدِيثِ ؛ فَإِنَّ أُمَّ يَحْيَى أَشْيَاعُ بِنْتُ عِمْرَانَ أُخْتُ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ .
وَأَيْضًا جَاءَ التَّصْرِيحُ أَنَّهَا (أُخْتُهَا) فِيَمَا رَاوَهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ
عَلَى الصَّحِيحِينَ : (فَأَتَتْهَا أُخْتُهَا امْرَأَةٌ زَكْرِيَّا) وَقَالَ : حَدِيثٌ صَحِيحٌ
عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ، وَقَالَ الذَّهَبِيُّ : عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ .
خِلَافًا لِقَوْلِ بَعْضِ الْمُؤَرِّخِينَ أَنَّ أَشْيَاعَ هِيَ خَالَةُ مَرْيَمَ وَلَيْسَتْ خَالَةَ
عِيسَى .

(٢) قَالَ مَالِكٌ: أَرَاهُ لِفَضْلِ عِيسَى عَلَى يَحْيَى .

(٣) قَالَ الثَّعْلَبِيُّ: وُلِدَ يَحْيَى قَبْلَ عِيسَى بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ .

بعيد عن الناس. فألجأها المخاض إلى ساق نخلة،
 فقالت -اسْتَحْيَاءٌ مِنَ النَّاسِ- : يا ليتني متّ قبل هذا
 اليوم، وكنت شيئاً لا يُذكر حتى لا يُظنّ بي السوء.
 فنادها جبريل ^(١) من تحتها في أسفل الوادي : لا تحزني،
 قد جعل ربك تحتك جدول ماءٍ تشربين منه. وأمسكي
 بجذع النخلة وهزيه تساقط عليك رطباً طرياً يُجنى من
 ساعته. فكلي من الرطب، واشربي من الماء، وطيلي
 نفساً بمولودك ^(٢) ولا تحزني، فإن رأيت من الناس أحداً
 فسألك عن خبر المولود فقولي له: إني أوجبت على
 نفسي لربي صمتاً عن الكلام، فلن أكلّم اليوم أحداً من

(١) وقيل أن الذي نادها ابنها عيسى من تحت قدميها، وعلمت بذلك أنه يتكلم، وكان ذلك سبباً لإشارتها إليه حين سألتها قومها عن سبب حملها.

(٢) وروي أنه لما وُلِدَ عِيسَى لَمْ يَبْقَ فِي الْأَرْضِ صَنَمٌ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا وَقَعَ سَاجِداً لِرُوحِهِ.

الناس. فجاءت مريم بابنها إلى قومها تحمله، فقال لها قومها مستنكرين: يا مريم، لقد جئت أمراً عظيماً مفترى، حيث جئت بولد من غير أب. يا شبيهة هارون في العبادة^(١) ما كان أبوك زانياً، ولا كانت أمك زانية، فأنت من بيت طاهر معروف بالصلاح، فكيف تأتين بولد من غير أب؟! فأشارت إلى ابنها عيسى عليه السلام وهو في المهد، فقال لها قومها متعجبين: كيف نكلّم صبياً وهو في المهد؟! فقال عيسى عليه السلام: إني عبد الله، قد قضى أن ينزل عليّ كتابه الإنجيل، وجعلني نبياً من أنبيائه. وجعلني مباركاً كثير النفع للعباد أينما كنت، وأمرني بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة

(١) وهو رجل صالح، وكانوا يسمّون بأسماء أنبيائهم.

طيلة حياتي. وجعلني بارًّا بأمي، ولم يجعلني متكبرًا عن طاعة ربي، ولا عاصيًا له. والسلام عليّ والأمان من الشيطان وأعوانه يوم ميلادي ويوم موتي ويوم أُبعَثُ حيًّا يوم القيامة، فلا يتخبَّطني الشيطان ولا يضرني.

وقد بعثه الله نبيًّا ورسولاً إلى بني إسرائيل، يدعو إلى توحيد الله، ويبشر بمقدم خاتم النبيين، وأيّده بالمعجزات العظيمة، فكان يصنع من الطين ما يشبه الطيور ثمَّ ينفخ فيها فتصبح طيورًا بإذن الله وقدرته، ويمسح الأكمه -وهو من وُلد أعمى- فيبرأ بإذن الله، ويمسح الأبرص فيذهب الله عنه برصه، ويمرُّ على الموتى فيناديهم فيحييهم الله تعالى، والمائدة التي أنزلها الله من السماء عندما طلب الحواريون من عيسى

إنزالها، وكانت على الحال التي طلبها عيسى عيداً لأولهم
وآخرهم، ويخبرهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم
من طعام.

ورأى عيسى ابنُ مَرْيَمَ - عليه السلام - رجلاً
يَسْرِقُ، فَقَالَ لَهُ: أَسْرَقْتَ؟، قَالَ: كَلَّا، وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ، مَا سَرَقْتُ. فَقَالَ عِيسَى: آمَنْتُ بِاللَّهِ وَكَذَّبْتُ
بَصْرِي.

نزول الإنجيل على المسيح ابن مريم

وقد أُنْزِلَ الْإِنْجِيلُ عَلَى الْمَسِيحِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ
عليه السلام لِثَلَاثِ عَشْرَةِ لَيْلَةً مَضَتْ مِنْ رَمَضَانَ،
مصدقاً ومتمماً لما في التوراة وناسخاً لبعض شرائعها،

وجاء فيه البشارة برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) وجاء فيه صفة محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه: (وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ).

ميثاق الأنبياء بالإيمان بمحمد ونصرته

وَمَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ لِنِ بَيْعَتِ مُحَمَّدٍ وَهُوَ حَيٌّ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلِيَنْصُرَنَّهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمِيثَاقَ عَلَى أُمَّتِهِ لِنِ بَيْعَتِ مُحَمَّدٍ وَهُمْ أَحْيَاءُ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلِيَنْصُرَنَّهُ وَلَا تَكْتَفُوا بِمَا عِنْدَكُمْ عَمَّا جَاءَ بِهِ وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ

مَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ عَلَى أَنْ تَتْرَكُوا مُتَابَعَتَهُ بَلْ
عَلَيْكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِهِ وَتَنْصُرُوهُ، وَإِنْ كَانَ مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِهِ
مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ فَلَا يُغْنِيكُمْ مَا آتَيْتُكُمْ عَمَّا جَاءَ بِهِ،
فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ. ^(١)

كفر اليهود بالمسيح ابن مريم عليه

السلام

ثُمَّ أَنَّ الْيَهُودَ كَذَّبُوا الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَانُوا
يَزْعُمُونَ أَنَّ الْمَسِيحَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ، بَلْ يَقُولُونَ: إِنَّهُ وَلَدٌ

^(١) كانوا ينتظرون بعثته ويعرفون اسمه وأوصافه تماماً كما يعرفون
أبنائهم. فلما بُعث محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة الخاتمة
المتتمة لجميع الرسالات قبله وجاء أهل الكتاب العلم ببعثته؛ نقض
كثير منهم عهد الله وميثاقه الذي أخذ عليهم باتباعه؛ بغياً وحسداً
للعرب أولاد إسماعيل - عليه السلام - أن تكون النبوة فيهم.

غَيَّةٌ^(١)، وقالوا على أمه بهتاناً عظيماً، وحرّضوا عليه
وسعوا في قتله، و (كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ) وقالوا: إن النصارى ليسوا على شيء
من الدين الصحيح. (وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي
الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ) (وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ
فَسَادًا)، وزعموا مع ذلك أنهم (أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ) وأن
عزير ابن الله، وأن يد الله مغلولة، وأن الله فقير وهم
أغنياء، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

(١) زنية.

قتل يحيى بن زكريا

وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ يُحْيِي بَنَ زَكَرِيَّا - عَلَيْهِ السَّلَام - بِخَمْسِ
 كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا
 ، وَإِنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِئَ بِهَا ، فَقَالَ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَام -
 : إِنَّ اللَّهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا ، وَتَأْمُرَ بَنِي
 إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا ، فَإِمَّا أَنْ تَأْمُرَهُمْ ، وَإِمَّا أَنْ أَمُرَهُمْ
 ، فَقَالَ يُحْيِي: أَخَشَى أَنْ سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخَسَفَ بِي أَوْ
 أُعَذَّبَ ، فَجَمَعَ النَّاسُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَاِمْتَلَأَ
 الْمَسْجِدُ ، وَتَعَدَّوْا عَلَى الشُّرْفِ^(١) ، فَقَالَ: "إِنَّ اللَّهَ أَمَرَني
 بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ ، وَأَمُرْكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ
 ، أَوَّلَهُنَّ: أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَإِنَّ مَثَلَ

(١) جمع شُرْفَة.

مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ
 مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ^(١) فَقَالَ: هَذِهِ دَارِي ، وَهَذَا عَمَلِي
 ، فَأَعْمَلْ وَأَدِّ إِلَيَّ ، فَكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ ،
 فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ ؟ ، وَإِنَّ اللَّهَ - عز
 وجل - خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ ، فَأَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا
 ، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَكُمْ بِالصَّلَاةِ ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا ، فَإِنَّ
 اللَّهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لَوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ
 ، وَأَمَرَكُمْ بِالصَّيَامِ ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ فِي
 عِصَابَةٍ^(٢) مَعَهُ صُرَّةٌ فِيهَا مِسْكٌ ، فَكُلُّهُمْ يُعْجِبُهُ رِيحُهَا ،
 وَإِنَّ رِيحَ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ ،
 وَأَمَرَكُمْ بِالصَّدَقَةِ ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسْرَهُ

(١) الورق: الفضة.

(٢) العصابة: الجماعة من الرجال.

الْعَدُوُّ ، فَأَوْثَقُوا يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ ، وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ ،
فَقَالَ: هَلْ لَكُمْ أَنْ أَفْتَدِيَ نَفْسِي مِنْكُمْ؟ ، فَجَعَلَ
يَفْتَدِي نَفْسَهُ مِنْهُمْ بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ حَتَّى فَكَّ نَفْسَهُ ،
وَأَمْرُكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ كَثِيرًا ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ
خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا ^(١) فَأَتَى حِصْنًا حَصِينًا ^(٢)
فَتَحَصَّنَ فِيهِ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ ^(٣) ، وَكَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا
يُحْرَزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ .

وَبُعِثَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَيَحْيَى ابْنُ زَكَرِيَّا فِي اثْنَيْ
عَشَرَ أَلْفًا مِنَ الْخَوَارِجِ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ . وَكَانَ فِيمَا

(١) مسرعين .

(٢) الحصن: كل مكان محمي منيع لا يوصل إلى جوفه . والحصين من
الأماكن: المنيع، يقال: درع حصين: أي: محكمة ، وحصن حصين:
للمبالغة .

(٣) أي: حفظها منهم .

يَنْهَوْنَهُمْ عَنْهُ نِكَاحِ ابْنَةِ أَخِي. وَكَانَتْ لِمَلِكِهِمْ ابْنَةٌ أَخ
تُعِجُّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا فَكَانَتْ لَهَا كُلَّ يَوْمٍ حَاجَةٌ
يُقْضِيهَا. فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ أُمُّهَا؛ قَالَتْ لَهَا: إِذَا دَخَلْتَ عَلَى
الْمَلِكِ فَسَأَلِكِ حَاجَتِكَ؛ فَقُولِي حَاجَتِي أَنْ تَذْبَحَ لِي
يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا. فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ سَأَلَهَا حَاجَتَهَا فَقَالَتْ:
حَاجَتِي أَنْ تَذْبَحَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا فَقَالَ: سَلِينِي غَيْرَ هَذَا،
فَقَالَتْ: مَا أَسْأَلُكَ إِلَّا هَذَا. فَلَمَّا أَبَتْ عَلَيْهِ؛ دَعَا يَحْيَى
بْنَ زَكَرِيَّا، وَدُعِيَ بِطُشْتٍ فَذَبَحَهُ. ^(١)

(١) وَكَانَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ -. وَكَانَ يَحْيَى بْنُ
زَكَرِيَّا مِنْ ذُرِّيَةِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. وَقِيلَ أَنَّ زَكَرِيَّا قَتَلَ
أَيْضاً بَعْدَ ابْنِهِ يَحْيَى - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ -. وَقِيلَ: أَنَّ زَكَرِيَّا مَاتَ مَوْتاً
وَلَمْ يَقْتُلْ. وَأَنَّ الَّذِي نَشَرَ بِالْمِنْشَارِ هُوَ شَعِيَا عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قصة رفع المسيح عيسى ابن مريم عليه

السلام إلى السماء

واستمر المسيح عليه السلام في دعوته مراغماً
لليهود الذين أرادوا قتله، جرياً على عادتهم في قتل
الأنبياء. واستعانت اليهود -قَبَّحَهُمُ اللَّهُ -على مُعَادَاةِ
عِيسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِمَلُوكِ الْيُونَانِ، وَوَشَوْا عَنْدهُمْ،
وَأَوْحَوْا إِلَيْهِمْ أَنَّ هَذَا يُفْسِدُ عَلَيْكُمْ الرِّعَايَا فَبَعَثُوا مَنْ
يَقْبِضُ عَلَيْهِ. وَلَمَّا أَرَادَ الْيَهُودُ قَتْلَ الْمَسِيحِ عِيسَى بْنِ
مَرْيَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ،
خَرَجَ الْمَسِيحُ إِلَى أَصْحَابِهِ - وَهُمْ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا - مِنْ

عين^(١) في البَيْتِ، وَرَأْسُهُ يَقْطُرُ مَاءً، فَقَالَ لَهُمْ: أَمَا إِنَّ
 مِنْكُمْ مَنْ سَيَكْفُرُ بِي اثْنَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِي، ثُمَّ
 قَالَ: أَتَيْكُمْ سَيُلْقِي عَلَيْهِ شَبْهِي فَيُقْتَلُ مَكَانِي، وَيَكُونُ
 مَعِيَ فِي دَرَجَتِي؟، فَقَامَ شَابٌّ مِنْ أَحَدِهِمْ سِنًّا، فَقَالَ:
 أَنَا، فَقَالَ عِيسَى: اجْلِسْ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ، فَقَامَ الشَّابُّ
 فَقَالَ: أَنَا، فَقَالَ: نَعَمْ، أَنْتَ ذَاكَ. فَأُلْقِيَ عَلَيْهِ شَبْهُ
 عِيسَى، وَرُفِعَ عِيسَى - عليه السلام - مِنْ رَوْزَنَةٍ^(٢) كَانَتْ
 فِي الْبَيْتِ إِلَى السَّمَاءِ. وسيعود عليه السلام وينزل من
 السماء قبيل قيام الساعة حاكمًا بالإسلام.^(٣)

(١) يعني : عين الماء، مكان الاغتسال .

(٢) الروزنة : الطاق في أعلى الجدار. أي: النافذة الصغيرة القريبة
 إلى السقف في أعلى الجدار .

(٣) كما سيأتي بيان ذلك بمشيئة الله في فصول هذا الكتاب .

زعم اليهود أنهم قتلوا المسيح وصلبوه

وبعد رفع عيسى عليه السلام إلى السماء جاء
الطَّلَبُ مِنَ الْيَهُودِ، فَأَخَذُوا الشَّيْبَةَ فَقَتَلُوهُ، ثُمَّ صَلَّبُوهُ،
ثم زعم اليهود أنهم قتلوا عيسى وصلبوه وقالوا: (إِنَّا
قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ)، وحققة
الأمر أنهم (مَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَّبُوهُ وَلَكِنْ شُبَّهَ لَهُمْ).

الخراب الثاني لبيت المقدس

ثم كان الْخُرَابُ الثَّانِي بَعْدَ زَكْرِيَّا وَيَحْيَى وَالْمَسِيحِ
بِنَحْوِ سَبْعِينَ سَنَةً، لَمَّا رَفَعَ اللَّهُ عِيسَى مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ
وَقَتَلُوا يَحْيَى بْنَ زَكْرِيَّا الَّذِي يُسَمِّيهِ أَهْلُ الْكِتَابِ يُوْحَنَّا
الْمَعْمِدَانِيَّ. بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ مَلَكًا مِنْ مُلُوكِ بَابِلَ يُقَالُ

لَهُ: خَرَدُوسُ^(١) ، فَسَارَ إِلَيْهِمْ بِأَهْلِ بَابِلَ وَظَهَرَ عَلَيْهِمْ
بِالشَّامِ، وَقَدْ قِيلَ: هَذَا تَأْوِيلُ قَوْلِهِ: {لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا
مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} .

وَبَعْدَ الْحَرَابِ الثَّانِي تَفَرَّقُوا فِي الْأَرْضِ، وَمِنْ حِينِئذٍ
زَالَ مُلْكُهُمْ وَقَطَّعَهُمُ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا، وَكَانُوا تَحْتَ
حُكْمِ الرُّومِ وَالْفُرْسِ وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مُلْكٌ.

وَالْمَسِيحُ جَاءَ بِالْحَقِّ فَكَانَ نَسْخُ شَرِيعَةِ التَّوْرَةِ،
وَمَنْ اتَّبَعَ الْمَسِيحَ كَانَ عَلَى الْحَقِّ، وَهَذَا مِمَّا لَا يُنَازَعُ

(١) وفي بعض الطباعات أن اسمه : (جودرس) . وَكَثِيرٌ مِنَ الْمَذْكُورِينَ
بِالْعِلْمِ يَظُنُّ أَنَّ (بُخْتَ نَصْرَ) هُوَ الَّذِي قَدِمَ الشَّامَ لَمَّا قُتِلَ يَحْيَى بْنُ
زَكَرِيَّا، وَهَذَا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَعِنْدَ مَنْ لَهُ خِبْرَةٌ مِنْ
عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ بَاطِلٌ، وَالْمُتَوَاتِرُ أَنَّ (بُخْتَ نَصْرَ) هُوَ الَّذِي قَدِمَ فِي الْمَرَّةِ
الْأُولَى بَعْدَ مَقْتَلِ شَعِيَا عَلَيْهِ السَّلَامُ .

ويحتمل أن الملك الذي دمر بيت المقدس بعد زمن يحيى عليه السلام
كان يلقب بـ "بختنصر"، لمشابهته لبختنصر الأول في القسوة والشدة
والتخريب.

فِيهِ الْمُسْلِمُونَ فَإِنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ مَنْ كَانَ مُتَمَسِّكًا
بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمَسِيحُ فَإِنَّهُ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، وَلَكِنْ
مَنْ جَاءَ بِشَرِّ لَمْ يَأْتِ بِهِ الْمَسِيحُ أَوْ أَرَادَ اتِّبَاعَ شَرِّهِ
بَعْدَ النَّسْخِ؛ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْيَهُودِ الَّذِينَ نَسَخَ اللَّهُ مَا نَسَخَهُ
مِنْ شَرِّهِمْ وَأَزَالَ دَوْلَتَهُمْ. ^(١)

(١) وَكَذَلِكَ فَعَلَ بِالنَّصَارَى لَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
وَلَمْ يَتَّبِعُوهُ؛ فَأَزَالَ دَوْلَتَهُمْ عَنْ وَسْطِ الْأَرْضِ وَخَيَّرَهَا.

شاؤول اليهودي (بولس) يحرف دين

النصارى

ثم جاء بولس (شاؤول اليهودي) وهو أول من
حرف الديانة النصرانية، ولم يكن من تلاميذ المسيح،
ولم تثبت له رؤية المسيح عليه السلام في حياته، وكان
بولس عارفاً بالفلسفة الإغريقية ومدرسة الإسكندرية
متأثراً بالفلسفة الأفلاطونية والرواقية التي تنبذ المادة
والجسم وتعتبرهما شراً وخبثاً، وبالطقوس الوثنية في
التضحية الفدائية للتكفير عن خطايا الناس، حسب
عقيدة بلاد اليونان التي تؤمن بالآلهة التي ماتت
لتفتدي بموتها بني الإنسان.

وكان بولس من أشدّ الناس اضطهاداً وتعذيباً
لأتباع المسيح عليه السلام، ثم تظاهر بالنصرانية وادعى
أنه التقى مع المسيح وأن المسيح ظهر له فجأة في
الطريق، وتحول بولس من عدو لأتباع المسيح إلى مغيرٍ
لرسالة المسيح، واختلق عقيدة التثليث للنصارى،
ودعا إلى تأليه المسيح وأنه ابن الله، وزعم أن المسيح
صلب تكفيراً عن خطيئة آدم وفداء عن البشرية وإثماً
الذي تحمّله بعد ذلك، لكي يجد مبرراً لصلب المسيح
حسب ما توهمه، وكتب كتاباً يحوي ١٤ رسالة ادعى
أتباعه أنه كتبها بالإلهام، وهي التي تشكلت منها الديانة
النصرانية المحرفة، وأضيفت إلى ما يسمونه بـ (العهد
الجديد) في الكتاب المقدس، وكذلك نَسَخَ الختان،

واستبدل السبت بالأحد، وغير ذلك من تحريفاته، كما زعم بولس أن المسيح سيحاسب الناس يوم القيامة.

وعقيدة التثليث التي ابتدعها بولس لم يأت بها نبي من الأنبياء، ولا نزلت في كتاب من الكتب السماوية، ولم ترد في التوراة، وعلماء اليهود من عهد موسى عليه السلام إلى هذا الزمان لا يعترفون بعقيدة التثليث، ولا يرضون بنسبتها إلى كتبهم.

إنجيل برنابا ينقض تحريفات بولس

وأدت انحرافات (بولس) إلى افتراق (برنابا) ^(١) الحوارية عنه في رحلاته وكتابته لإنجيل برنابا والذي

(١) برنابا هو أحد الحواريين تلامذة عيسى عليه السلام.

صرح فيه بتوحيد الله تعالى وبالبشارة بالنبي محمد -
صلى الله عليه وآله وسلم- وقال ببشرية عيسى -عليه
السلام- وأنكر صلبه، وذكر أنه ألقى الشبه على يهوذا
الإسخریوطي؛ كما ذكر أن الذبيح هو إسماعيل وليس
إسحاق.

وأقدم خبر عن (إنجيل برنابا) كان قريباً من عام
(٤٩٢) م، حين أصدر البابا (جلاسيوس) الأول أمراً يحرم
فيه مطالعة عدد من الكتب، كان منها كتاب يسمّى
(إنجيل برنابا) وهذا كان قبل مبعث النبي محمد صلى
الله عليه وسلم، ثم لم يظهر له خبر بعد ذلك إلا في
أواخر القرن السادس عشر الميلادي حيث عثر الراهب
اللاتيني (فرامرينو) على رسائل (إلريانوس) يندد فيها

ببولس، وأسند (إريانوس) تنديده هذا إلى إنجيل برنابا،
فحرص هذا الراهب على الاطلاع على هذا الإنجيل
وبحث عنه إلى أن وجدته في مكتبة البابا (سكتس)
الخامس، وطالعه بشغف شديد ثم أسلم.

كما عثر (كرير) أحد مستشاري ملك بروسيا
على نسخة لإنجيل برنابا باللغة الإيطالية عند أحد
وجهاء مدينة أمستردام، وأهداها (كرير) إلى الأمير
(إيوجين سافوي) ثم انتقلت إلى مكتبة البلاط الملكي
في فينا، حيث هي موجودة الآن، وقد ترجمت إلى
الإنجليزية وغيرها.

تحريف الإنجيل واختلاف نُسَخه

وكان الإنجيل كتابًا موجودًا ومعروفًا لدى النصارى الأوائل بأنه (إنجيل الله) أو (إنجيل المسيح)، وقد ذكره بولس في رسائله، لكن النصارى لا يعرفون شيئاً عن مصير ذلك الإنجيل، ولا أين ذهب، وقد صار عند النصارى -بدل ذلك الإنجيل الواحد- أناجيل كثيرة مختلفة ومتناقضة، أشهرها أربعة أناجيل مِنْ طريق مُرْقُسٍ وَلُوقَا وَمَتَّى وَيُوحَنَّا، وليس لها سند متصل، وهي أَشَدُّ اخْتِلَافًا وتحريفًا وَأَكْثَرُ زِيَادَةً وَنَقْصًا وَأَفْحَشُ تَفَاوُتًا مِنَ التَّوْرَةِ المحرفة. ^(١)

(١) والأناجيل الأربعة الموجودة اليوم لا توجد فيها أحكام شرعية وقد اضطر النصارى المتأخرون ليأخذوا بعض أحكام الميراث الإسلامية من شرح مجلة الأحكام العدلية.

بنو إسرائيل كتبوا كتابًا فاتبعوه وتركوا

التوراة

ثم إنّ بني إسرائيل كتبوا كتابًا، فاتبعوه، وتركوا التوراة التي أنزلت على موسى، والكتاب المقدس عند اليهود والنصارى (البابيل) يتكون من قسمين:

القسم الأول : العهد القديم، وهو التوراة التي لم تسلم من التحريف والتبديل والتي يؤمن بها اليهود والنصارى وتتكون من الأسفار الخمسة المنسوبة لموسى، وأضيف معها الأسفار التاريخية المنسوبة لعدد من الأنبياء، وأسفار الشعر والحكمة وتنسب في غالبيتها إلى داود وسليمان، ومن المزامير ما ينسب إلى آخرين

مجهولين، والأسفار النبوية وتتكون من سبعة عشر سفرًا، وأسفار الأبوكريفا السبعة وبعض الكنائس المسيحية تزيد أسفارًا أخرى.

والقسم الثاني : العهد الجديد، هو مجموعة الأناجيل الأربعة والرسائل الملحقة بها، وينسب إلى ثمانية من المحررين ينتمون إلى الجيل الأول والثاني من النصرانية، وهم متى ومرقس ولوقا ويوحنا أصحاب الأناجيل، ثم بولس صاحب الأربع عشرة رسالة، ثم بطرس ويعقوب ويهوذا، تلاميذ المسيح الذين تنسب إليهم القليل من الرسائل. (١)

(١) ومما كتبه اليهود أيضاً كتاب التلمود، ومنه تلمود بابل وتلمود القدس.

(وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ
لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ
الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)، (يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ
يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا)،
(يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ)، وَيَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ
ويكتمون الحق وهم يعلمون.

ودل على تحريف كتبهم التي بين أيديهم : انقطاع
سندها، والتناقض الواضح بين نصوصها، واختلاف
نسخها وعدد أسفارها، وشهادة بعض علماء اليهود
والنصارى على وقوع التحريف في كتبهم؛ وخاصة من

رجع منهم إلى الحق واتبع شريعة محمد صلى الله عليه وسلم.

تحريف النصارى دينهم وتفرقهم

ثم إِنَّ النَّصَارَى -بعد فتنة بولس وتحريفه لدين المسيح عليه السلام- تفرقوا واختلفوا (فاختَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ)، فَتَفَرَّقُوا ثَلَاثَ فِرَقٍ، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِيْنَا اللّٰهُ مَا شَاءَ، ثُمَّ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ، وَهَؤُلَاءِ الْيَعْقُوبِيَّةُ أَصْحَابُ يَعْقُوبَ الْبَرَادِيعِيِّ (الأرثدوكس)، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِيْنَا ابْنُ اللّٰهِ مَا شَاءَ، ثُمَّ رَفَعَهُ اللّٰهُ إِلَيْهِ، وَهَؤُلَاءِ النَّسْطُورِيَّةُ أَصْحَابُ نَسْطُورَسَ (الكاثوليك)، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِيْنَا عَبْدُ اللّٰهِ وَرَسُولُهُ مَا شَاءَ اللّٰهُ، ثُمَّ رَفَعَهُ

اللَّهُ إِلَيْهِ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُسْلِمُونَ الْمُتَبِعُونَ لِلْمَسِيحِ عَلَيْهِ
السلام، ومنهم الْأَرِثُوسِيَّةُ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَرِثُوسَ.

فأما النسطورية والعقوبية وما تفرع عنهم من
فرق كافرة؛ فكلُّ فِرْقَةٍ مِنْ هَؤُلَاءِ تُكْفِّرُ الْأُخْرَى وَتَعْتَقِدُ
تَخْلِيدَهُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَلَا تَرَى مُجَامَعَتَهُمْ فِي الْمَعَادِ
وَالْكَنَائِسِ، وَكُلُّهُمْ يَقُولُ بِالتَّثْلِيثِ، وَلَكِنْ بَيْنَهُمْ
اخْتِلَافٌ فِي الْحُلُولِ وَالْإِتِّحَادِ فِيمَا بَيْنَ اللَّاهُوتِ
وَالنَّاسُوتِ هَلْ تَدَرَّعَهُ أَوْ حَلَّ فِيهِ أَوْ اتَّحَدَ بِهِ،
وَاخْتِلَافُهُمْ فِي ذَلِكَ شَدِيدٌ وَكُفْرُهُمْ بِسَبَبِهِ غَلِيظٌ.

تغيير الملك قسطنطين دين النصارى

وَبَعْدَ رَفْعِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِثَلَاثِائَةِ سَنَةٍ
 اِخْتَلَفَ الْبَتَارِكَةُ الْأَرْبَعَةُ وَجَمِيعُ الْأَسَاقِفَةِ وَالْقَسَاوِسَةِ
 وَالشَّامِسَةِ وَالرَّهَابِينَ فِي الْمَسِيحِ عَلَى أَقْوَالٍ مُتَعَدِّدَةٍ لَا
 تَنْحَصِرُ وَلَا تَنْضَبِطُ وَاجْتَمَعُوا وَتَحَاكَمُوا إِلَى الْمَلِكِ
 قُسْطَنْطِينَ -بَنِي الْقُسْطَنْطِينَةَ- فَلَجُّوا لِلتَّصَوُّيْتِ
 وَقَرَرُوا عَقِيدَةَ التَّثْلِيثِ فِي مَجْمَعِ نِيقِيَّةِ سَنَةِ ٣٢٥ م
 وَصَارَ الْمَلِكُ إِلَى قَوْلِ أَكْثَرِ فِرْقَةٍ اتَّفَقَتْ عَلَى قَوْلٍ مِنْ
 تِلْكَ الْمَقَالَاتِ، فَسُمُّوا: الْمَلَائِكَةُ، وَسَمُوا أَيْضًا: الْمَلَكِيَّةُ
 نِسْبَةً إِلَى الْمَلِكِ، فَنَصَرَهُمْ وَبَنَى لَهُمْ آلَافَ الْكَنَائِسِ
 ذَاتِ التَّصَاوِيرِ وَالتَّمَاثِيلِ وَدَحَضَ مَنْ عَدَاهُمْ.

وَخَالَفُ أَغْلَبَ النَّصَارَى أَحْكَامَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ
 فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ شَرَعُوهَا لِأَنْفُسِهِمْ، فَمِنْ ذَلِكَ صَلَاتُهُمْ
 إِلَى الشَّرْقِ وَلَيْسَتْ مَنْصُوصًا عَلَيْهَا وَلَا مَأْمُورًا بِهَا فِي
 شَيْءٍ مِنَ الْأَنْجِيلِ الْأَرْبَعَةِ، وَعَمَدُوا فِي بِنَاءِ كَنَائِسِهِمْ
 إِلَى مَا كَانَ مِنْ بِنَاءِ الْيُونَانِ وَحَوَّلُوا مُحَارِبَتَهَا إِلَى الشَّرْقِ
 لِأَنَّهَا مَطْلَعُ الْكَوَاكِبِ النَّيِّرَةِ وَقَدْ كَانَتْ تِلْكَ الْأَبْنِيَةُ إِلَى
 الشَّمَالِ إِلَى الْجُدِيِّ، وَصَلُّوا إِلَى الشَّرْقِ وَلَمْ يَكُنِ الْمَسِيحُ
 صَلَّى إِلَّا إِلَى صَخْرَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَهَكَذَا تَصَوِيرُهُمْ
 الصُّورَ وَالْأَصْنَامَ فِي كَنَائِسِهِمْ وَلَمْ تَكُنْ مُصَوَّرَةً قَبْلَ
 ذَلِكَ، وَتَرَكُّهُمْ الْحِثَّانَ، وَنَقَلُّهُمْ صِيَامَهُمْ إِلَى زَمَنِ الرَّبِيعِ،
 وَزِيَادَتَهُ إِلَى خَمْسِينَ يَوْمًا، وَأَحَلُّوا أَشْيَاءَ هِيَ حَرَامٌ بِنَصِّ
 التَّوْرَةِ وَمِنْ ذَلِكَ أَكْلُ الْخِنْزِيرِ، وَوَضْعُهُمْ عَقِيدَةَ الثَّلَاثِ

المتناقضة الَّتِي يحفظها أطفالهم ونساؤهم ورجالهم الَّتِي
يُسَمُّونَهَا بِـ (الْأَمَانَةِ) وَيَخْتَلِفُونَ فِي تَفْسِيرِهَا وَهِيَ فِي
الْحَقِيقَةِ أَكْبَرُ الْكُفْرِ وَالْخِيَانَةِ، وَابْتَدَعُوا (الرَّهْبَانِيَّةَ) وَهِيَ
تَرْكُ التَّزْوِيجِ لِمَنْ أَرَادَ التَّعَبُّدَ وَتَحْرِيمُهُ عَلَيْهِ، وَكَتَبُوا
الْقَوَانِينَ الَّتِي وَضَعَتْهَا لَهُمُ الْأَسَاقِفَةُ الثَّلَاثُمِائَةُ وَالشَّمَانِيَّةُ
عَشَرَ، فَكُلُّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ابْتَدَعُوهَا وَوَضَعُوهَا فِي أَيَّامِ
قُسْطَنْطِينِ بْنِ قُسْطَنْطِينِ بْنِ قُسْطَنْطِينِيَّةَ بِاتِّفَاقٍ مَعَهُ،
(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) يُحَرِّمُونَ
لَهُمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، وَيُحِلُّونَ لَهُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَتَّبِعُونَهُمْ.

(١)

(١) ويدعي البابوات في العصور الوسطى واليوم أنهم يملكون حق التحليل والتحرير ولو خالف ذلك شريعة التوراة؛ اتباعاً لما ادعاه بولس وما ينسبونه إلى بطرس، ثم في المجمع المسكوني الذي عقده

اضطهاد الأريوسيين الموحدين

ثُمَّ تَظَاهَرَتِ الْفِرْقُ الْكَافِرَةُ (الْمَلَكِيَّةُ وَالنَّسْطُورِيَّةُ
وَالْيَعْقُوبِيَّةُ) عَلَى الْمُسْلِمَةِ (الْأَرِيُوسِيَّةِ)، فَقَاتَلُوهَا
وَحَرَضُوا عَلَيْهَا الْمَلِكَ.

وَكَانَ فِي الْأَرِيُوسِيِّينَ النَّصَارَى مُؤْمِنُونَ مُوَحِدُونَ
يَقْرَءُونَ التَّوْرَةَ، فَقِيلَ لِلْمَلِكِ قِسْطَنْطِينَ: مَا نَجِدُ شَتْمًا
أَشَدَّ مِنْ شَتْمِ هَؤُلَاءِ، إِنَّهُمْ يَقْرَءُونَ: {وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا
أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} وَهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ يَعِيبُونَ
بِهَا أَعْمَالَنَا فِي قِرَاءَتِهِمْ، فَادْعُهُمْ فَلْيَقْرَءُوا كَمَا نَقْرَأُ،
وَلْيُؤْمِنُوا كَمَا آمَنَّا، فَدَعَاهُمْ فَجَمَعَهُمْ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ

البابوات في الستينيات من القرن العشرين أعلنوا براءة اليهود من
دم المسيح!! فخالضوا بذلك أناجيلهم ودينهم.

الْقَتْلَ، أَوْ يَتْرُكُوا قِرَاءَةَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ إِلَّا مَا بَدَّلُوا مِنْهَا،
فَقَالُوا: مَا تُرِيدُونَ إِلَى ذَلِكَ؟، دَعُونَا. فَقَالَتْ طَائِفَةٌ
مِنْهُمْ: ابْنُوا لَنَا أُسْطُوَانَةً، ثُمَّ ارْفَعُونَا إِلَيْهَا، ثُمَّ أَعْطُونَا
شَيْئًا نَرْفَعُ بِهِ طَعَامَنَا وَشَرَابَنَا، فَلَا نَرُدُّ عَلَيْكُمْ. وَقَالَتْ
طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: دَعُونَا نَسِيحُ فِي الْأَرْضِ وَنَهَيْمُ، وَنَشْرَبُ
كَمَا يَشْرَبُ الْوَحْشُ، فَإِنْ قَدَرْتُمْ عَلَيْنَا فِي أَرْضِكُمْ
فَاقْتُلُونَا. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: مِنْهُمْ ابْنُوا لَنَا دُورًا فِي الْفَيَافِي
وَنَحْتَفِرُ الْأَبَارَ، وَنَحْتَرِثُ الْبُقُولَ، فَلَا نَرُدُّ عَلَيْكُمْ وَلَا نَمُرُّ
بِكُمْ. - وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْقَبَائِلِ إِلَّا وَلَهُ حَمِيمٌ فِيهِمْ - .
فَفَعَلُوا ذَلِكَ، وَتَفَرَّقَ أَصْحَابُهَا فَسَكَنُوا الْبَرَارِي
وَالْبَوَادِي وَبَنَوْا الصَّوَامِعَ وَالْدِّيَارَاتِ وَالْقَلَالِيَاتِ وَقَنِعُوا
بِالْعَيْشِ الزَّهِيدِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ : {وَرَهْبَانِيَّةً

ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ، فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا { وَالْآخَرُونَ ^(١) قَالُوا: نَتَعَبُوكَ كَمَا تَعْبُدُ فُلَانٌ، وَنَسِيحُ كَمَا سَاحَ فُلَانٌ، وَنَتَّخِذُ دُورًا كَمَا اتَّخَذَ فُلَانٌ، وَهُمْ عَلَى شِرْكِهِمْ، لَا عِلْمَ لَهُمْ بِإِيمَانِ الَّذِينَ اقْتَدَوْا بِهِ. فَلَمْ يَزَلِ الْإِسْلَامُ طَامِسًا حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّ مُحَمَّد - صلى الله عليه وسلم - وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ؛ انْخَطَّ رَجُلٌ مِنْ صَوْمَعَتِهِ، وَجَاءَ سَاحِجٌ مِنْ سِيَاحَتِهِ، وَصَاحِبُ الدَّيْرِ مِنْ دَيْرِهِ، فَأَمَّنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ: { فَأَمَنْتُ طَائِفَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ } يَعْنِي: الطَّائِفَةُ الَّتِي آمَنْتُ فِي زَمَنِ عِيسَى { وَكَفَرْتُ طَائِفَةً } يَعْنِي: الطَّائِفَةُ الَّتِي كَفَرْتُ فِي زَمَنِ عِيسَى { فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا } وَهُمْ

(١) يعني : قلدتهم آخرون -من النصارى المشركين- في الرهينة دون أن يأخذوا منهم عقيدة التوحيد .

الموحدون من النصارى { عَلَى عَدُوِّهِمْ } بِإِظْهَارِ مُحَمَّدٍ -
صلى الله عليه وسلم - بدين التوحيد عَلَى دِينِ
المشركين من أهل الكتاب وغيرهم { فَأَصْبَحُوا
ظَاهِرِينَ } .^(١)

(١) النَّصَارَى كَانُوا مَقْهُورِينَ مَغْلُوبِينَ مُبَدَّدِينَ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى ظَهَرَ
قُسْطَنْطِينُ - وَهُوَ أَحَدُ مُلُوكِ الْيُونَانِ - بَعْدَ رَفْعِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ
بِنَحْوِ مِنْ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ، وَكَانَ فَيَلْسُوفًا قَبْلَ ذَلِكَ. فَدَخَلَ فِي دِينِ
النَّصَارَى قِيلَ: تَقِيَّةً، وَقِيلَ: حِيلَةً لِيُفْسِدَهُ، فَوَضَعَتْ لَهُ الْأَسَاقِفَةُ مِنْهُمْ
قَوَانِينَ وَشَرِيعَةً وَبَدَعًا أَحَدَثُوهَا، فَبَنَى لَهُمُ الْكَنَائِسَ وَالْبَيْعَ الْكِبَارَ
وَالصُّغَارَ، وَالصَّوَامِعَ وَالْهَيْكَلِ، وَالْمُعَابِدَ، وَالْقَلَايَاتِ. وَأَقَامَ دِينَ
النَّصْرَانِيَّةِ بِالسَّيْفِ، وَقَتَلَ مَنْ خَالَفَهُ مِنَ الْمَشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ. لَكِنْ أَظْهَرَ
دِينًا مُبَدَّلًا مُغَيَّرًا لَيْسَ هُوَ دِينُ الْمَسِيحِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، وَانْتَشَرَدِينُ
النَّصْرَانِيَّةِ الْمَحْرَفِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَاشْتَهَرَ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ تَبْدِيلٍ
وَتَغْيِيرٍ وَتَحْرِيفٍ، وَوَضَعَ وَكَذَبَ، وَمُخَالَفَةً لِدِينِ الْمَسِيحِ.
وَلَمْ يَبْقَ عَلَى دِينِ الْمَسِيحِ عَلَى الْحَقِيقَةِ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ الرُّهْبَانِ،
فَاتَّخَذُوا لَهُمُ الصَّوَامِعَ فِي الْبُرَارِيِّ وَالْمِهَامَةِ وَالْقِفَارِ، وَاسْتَحْوَذَتْ يَدُ
النَّصَارَى عَلَى مَمْلَكَةِ الشَّامِ وَالْجَزِيرَةِ وَبِلَادِ الرُّومِ، وَبَنَى هَذَا الْمَلِكُ
الْمَذْكُورُ مَدِينَةَ قُسْطَنْطِينِيَّةَ، وَالْقَمَامَةَ، وَبَنَى لَحْمَ، وَكَنَائِسَ بِلَادِ بَيْتِ
الْمُقَدَّسِ، وَمُدُنَ حُورَانَ كَبُصْرَى وَغَيْرَهَا مِنَ الْبُلْدَانِ بِنَاءَاتٍ هَائِلَةً
مَحْكَمَةً، وَعَبَدُوا الصَّلِيبَ مِنْ حِينَتِهِ، وَصَلُّوا إِلَى الشَّرْقِ، وَصَوَّرُوا
الْكَنَائِسَ، وَأَحْلَوْا لَحْمَ الْخَنَزِيرِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا أَحَدَثُوهُ مِنَ الْفُرُوعِ فِي
دِينِهِمْ وَالْأُصُولِ، وَوَضَعُوا لَهُ الْأَمَانَةَ الْحَقِيرَةَ، الَّتِي يُسَمُّونَهَا الْكَبِيرَةَ،

وَصَنَّفُوا لَهُ الْقَوَانِينَ، وَعَظَّمُوا دِينَ النَّصْرَانِيَّةِ، وَظَهَرَ أَمْرُهُ جَدًّا بِسَبَبِ الْمَلِكِ قُسْطَنْطِينِ وَقَدْ أَفْسَدَهُ عَلَيْهِمْ فَسَادًا لَا صَلَاحَ لَهُ وَلَا نَجَاحَ مَعَهُ وَلَا فَلَاحَ عِنْدَهُ.

وَمَعَ هَذَا فَكَانَتْ أَرْضُ الْعِرَاقِ وَفَارِسَ كُفَّارًا مَجُوسًا وَمُشْرِكِينَ. وَكَانُوا فِي بَعْضِ الْأَزْمَنَةِ يَقْهَرُونَ النَّصَارَى عَلَى بِلَادِهِمْ، وَأَمَّا أَرْضُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فَفِيهِمَا مِنْ أَنْوَاعِ الْمُشْرِكِينَ أُمَّةٌ، وَكَانَ الشَّرْكُ وَالْكُفْرُ ظَاهِرًا فِي أَرْضِ الْيَمَنِ وَالْحِجَازِ وَالشَّامِ وَالْعِرَاقِ.

فَأَهْلُ الْكِتَابِ وَإِنْ كَانُوا خَيْرًا مِنْ غَيْرِهِمْ فَلَمْ يَكُونُوا قَائِمِينَ بِمَا يَجِبُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا شَرَائِعِ دِينِهِ، وَلَا كَانُوا قَاهِرِينَ لِأَكْثَرِ الْكُفَّارِ، وَلَا كَانُوا مَنْصُورِينَ عَلَيْهِمْ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرُسُولُهُ وَلَا يُدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}.

حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا؛ الَّذِي دَعَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ حَيْثُ قَالَا: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَظْهَرَ بِهِ تَوْحِيدَ اللَّهِ وَعِبَادَتَهُ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ظَهُورًا لَمْ يَعْرِفْ فِي أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ، وَلَمْ يَحْصُلْ مِثْلُهُ لِنَبِيِّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَظْهَرَ بِهِ مِنْ تَصَدِيقِ الْكُتُبِ وَالرُّسُلِ وَالتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ، وَمُوسَى وَعِيسَى وَدَاوُدَ وَسَلِيمَانَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الرُّسُلِ مَا لَمْ يَكُنْ ظَاهِرًا لَا عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا غَيْرِهِمْ.

وَصَارَ يَدُ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ فَوْقَ الْجَمِيعِ، فَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ سُلْطَانٌ أَعَزُّ مِنْ سُلْطَانِهِمْ، وَقَهَرُوا فَارِسَ وَالرُّومَ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ، وَقَهَرُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالصَّابِئِينَ. فَظَهَرَ بِذَلِكَ تَحْقِيقُ قَوْلِهِ فِي التَّوْرَةِ "وَتَكُونُ يَدُهُ فَوْقَ الْجَمِيعِ وَيَدُ الْكُلِّ بِهِ". وَقَوْل: دَانِيَالُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَمَّا ذَكَرَ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِاسْمِهِ، فَقَالَ: "سَتَنْزِعُ فِي قَسِيكَ إِغْرَاقًا، وَتَرْتَوِي السَّهَامَ بِأَمْرِكَ يَا مُحَمَّدُ ارْتَوَاءً". وَقَدْ قَالَ: دَانِيَالُ النَّبِيُّ - أَيْضًا - حِينَ سَأَلَهُ بُخْت نَصَرَ عَنْ تَأْوِيلِ رُؤْيَا رَأَاهَا، ثُمَّ نَسِيَهَا: "رَأَيْتُ أَيُّهَا الْمَلِكُ صَنَمًا عَظِيمًا، قَائِمًا بَيْنَ يَدَيْكَ، رَأْسُهُ مِنْ ذَهَبٍ، وَسَاعِدَاهُ مِنَ الْفِضَّةِ، وَبِطْنُهُ وَفَخْدَاهُ مِنَ النُّحَاسِ،

قصة سبأ وسد مأرب

وكانت مملكة سبأ - في اليمن - في غبطة عظيمة

وأرزاق دارة وثمار وزروع كثيرة، وكانوا مع ذلك على

وساقاه من الحديد، ورجلاه من الخرف، ورأيت حجراً لم تقطعه يد إنسان، قد جاء وصك ذلك الصنم فتفتت وتلاشى وعاد رفاتاً، ثم نسفته الرياح، فذهب وتحول ذلك الحجر فصار جبلاً عظيماً حتى ملأ الأرض كلها، فهذا ما رأيت أيها الملك؟

فقال بخت نصر: صدق؛ فما تأويلها؟

قال دانيال: "أنت الرأس الذي رأيت من الذهب، ويقوم بعدك ولدك اللذان رأيت من الفضة، وهما دونك، ويقوم بعدهما مملكة أخرى هي دونهما، وهي شبه النحاس، والمملكة الرابعة تكون قوية مثل الحديد الذي يدق كل شيء، فأما الرجلان التي رأيت من خرف فمملكة ضعيفة وكلمتها مشتتة، وأما الحجر الذي رأيت قد صك ذلك الصنم العظيم ففتته فهو نبي يقيم الله إله السماء والأرض من قبيلة بشرية قوية، فيدق جميع ملوك الأرض وأممها، حتى تمتلئ منه الأرض ومن أمته، ويدوم سلطان ذلك النبي إلى انقضاء الدنيا، فهذا تعبير عن رؤياك أيها الملك".

فهذا نعت محمد صلى الله عليه وسلم، الذي بعث بشريعة قوية، ودق جميع ملوك الأرض وأممها، حتى امتلأت الأرض منه ومن أمته في مشارق الأرض ومغاربها، وسلطانه دائم، لم يقدر أحد أن يزيله كما زال ملك اليهود وزال ملك النصارى ودولتهم عن خيار الأرض وأوسطها وحيث بعثت الأنبياء كأرض الشام ومصر، فانتزعها منهم الصحابة، رضي الله عنهم، وكان فتح بيت المقدس على يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ولله الحمد والمنة.

الْإِسْتِقَامَةِ وَالسَّادِ وَطَرِيقِ الرَّشَادِ فَلَمَّا بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ
كُفْرًا؛ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ لَمَّا عَدَّلُوا عَنِ الْهُدَى إِلَى
الضَّلَالِ، وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ.

وذلك أَنَّ سَدَّ مَآرِبَ كَانَ صَنَعَتْهُ؛ أَنَّ الْمِيَاهَ تَجْرِي
مِنْ بَيْنِ جَبَلَيْنِ فَعَمَدُوا فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ فَسَدُّوا مَا بَيْنَهُمَا
بِبَنَاءٍ مُحْكَمٍ جِدًّا حَتَّى ارْتَفَعَ الْمَاءُ فَحَكَمَ عَلَى أَعَالِي
الْجَبَلَيْنِ، وَغَرَسُوا فِيهِمَا الْبَسَاتِينَ وَالْأَشْجَارَ الْمُثْمِرَةَ
الْأَنْيَقَةَ، وَزَرَعُوا الزُّرُوعَ الْكَثِيرَةَ. وَكَانُوا فِي غِبْطَةٍ عَظِيمَةٍ
وَعَيْشٍ رَغِيدٍ وَأَيَّامٍ طَيِّبَةٍ حَتَّى ذُكِرَ أَنَّ الْمَرْأَةَ كَانَتْ تَمُرُّ
بِالْمِكَتَلِ عَلَى رَأْسِهَا فَيَمْتَلِئُ مِنَ الثَّمَارِ مَا يَتَسَاقُطُ فِيهِ
مِنْ نَضْجِهِ وَكَثْرَتِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي بِلَادِهِمْ شَيْءٌ مِنْ

الْبَرَاعِيثِ وَلَا الدَّوَابِّ الْمُؤْذِيَةِ لِيَصِحَّهٗ هَوَائِهِمْ وَطِيبِ
فِنَائِهِمْ.

فَلَمَّا عَبَدُوا غَيْرَ اللَّهِ، وَبَطَرُوا نِعْمَتَهُ، وَسَأَلُوا -بَعْدَ
تَقَارُبِ مَا بَيْنَ قُرَاهُمْ، وَطِيبِ مَا بَيْنَهَا مِنَ الْبَسَاتِينِ،
وَأَمْنِ الطَّرِيقَاتِ- سَأَلُوا أَنْ يُبَاعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِهِمْ، وَأَنْ
يَكُونَ سَفَرُهُمْ فِي مَشَاقِّ وَتَعَبٍ، وَطَلَبُوا أَنْ يُبَدَّلُوا بِالْخَيْرِ
شَرًّا، كَمَا سَأَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بَدَلَ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى الْبُقُولَ
وَالْقِثَاءَ وَالْفُومَ وَالْعَدَسَ وَالْبَصَلَ؛ فَسَلِبُوا تِلْكَ النِّعْمَةَ
الْعَظِيمَةَ وَالْحَسَنَةَ الْعَمِيمَةَ بِتَخْرِيبِ الْبِلَادِ وَالشَّتَاتِ
عَلَى وُجُوهِ الْعِبَادِ، وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَى أَصْلِ السَّدِّ الْفَارِ وَهُوَ
الْجُرْدُ، وَيُقَالُ: الْخُلْدُ. فَلَمَّا فَطِنُوا لِذَلِكَ أَرْصَدُوا عِنْدَهَا
السَّنَانِيرَ (الْقَطَطَ) فَلَمْ تُغْنِ شَيْئًا إِذْ قَدْ حُمَّ الْقَدَرُ، وَلَمْ

يَنْفَعِ الْحَظْرُ كُلًّا لَا وَزَرَ، فَلَمَّا تَحَكَّمَ فِي أَصْلِهِ الْفَسَادُ
سَقَطَ وَانْهَارَ، فَسَلَكَ الْمَاءُ الْقَرَارَ، فَقُطِعَتْ تِلْكَ
الْجُدَاوِلُ وَالْأَنْهَارُ، وَانْقَطَعَتْ تِلْكَ الشُّمَارُ، وَبَادَتْ تِلْكَ
الزُّرُوعُ وَالْأَشْجَارُ، وَتَبَدَّلُوا بَعْدَهَا بِرِدِيءِ الْأَشْجَارِ
وَالْأَثْمَارِ.

وَلَمَّا هَلَكَتْ أَمْوَالُهُمْ، وَخَرِبَتْ بِلَادُهُمْ اِحتَاجُوا
أَنْ يَزْتَحِلُّوا مِنْهَا، وَيَنْتَقِلُوا عَنْهَا، فَتَفَرَّقُوا فِي غُورِ الْبِلَادِ
وَنَجَدَهَا أَيْدِي سَبَأٍ شَذَرَ مَذَرَ، فَنَزَلَتْ طَوَائِفُ مِنْهُمْ
الْحِجَازَ، وَهُمْ خُزَاعَةٌ نَزَلُوا ظَاهِرِ مَكَّةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ نَزَلَ
الْمَدِينَةَ النَّبَوِيَّةَ وَهُمْ الْأَوْسُ وَالخَزِجَ فَكَانُوا أَوَّلَ مَنْ
سَكَنَهَا، ثُمَّ نَزَلَتْ عَنْدهُمْ ثَلَاثُ قَبَائِلَ مِنَ الْيَهُودِ: بَنُو
قَيْنُقَاعَ، وَبَنُو قُرَيْظَةَ، وَبَنُو النَّضِيرِ، فَحَالَفُوا الْأَوْسَ

وَالْخُزْجَ وَأَقَامُوا عِنْدَهُمْ، وَنَزَلَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى مِنْهُمْ
السَّامَ، وَهُمْ الَّذِينَ تَنَصَّرُوا فِيمَا بَعْدُ، وَهُمْ غَسَّانُ وَعَامِلَةٌ
وَبَهْرَاءُ وَلَحْمٌ وَجُذَامٌ وَتَنُوحٌ وَتَغْلِبُ وَغَيْرُهُمْ.

وَلَيْسَ جَمِيعُ سَبَأٍ خَرَجُوا مِنَ الْيَمَنِ لَمَّا أُصِيبُوا
بِسَبِيلِ الْعَرَمِ؛ بَلْ أَقَامَ أَكْثَرُهُمْ بِهَا، وَذَهَبَ أَهْلُ مَأْرِبِ
الَّذِينَ كَانَ لَهُمُ السَّدُّ فَتَفَرَّقُوا فِي الْبِلَادِ ، وَبَقِيَ بِالْيَمَنِ
مَذْحِجٌ وَكَنْدَةُ وَأَنْمَارٌ وَالْأَشْعَرِيُّونَ، وَأَنْمَارٌ هُوَ أَبُو خَشْعَمٍ
وَبَجِيلَةٌ وَحَمِيرٌ. فَهَؤُلَاءِ سِتُّ قَبَائِلَ مِنْ سَبَأٍ أَقَامُوا
بِالْيَمَنِ، وَاسْتَمَرَّ فِيهِمُ الْمُلْكُ وَالتَّبَاعَةُ.

قِصَّةُ تُبَّعٍ أَبِي كَرِبٍ

ثم كانت قِصَّةُ تُبَّعٍ أَبِي كَرِبٍ، وهو تُبَّانٍ أَسْعَدُ،
 مَلِكِ الْيَمَنِ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ مَنْ مَلَكَ الْيَمَنَ
 مَعَ الشَّحْرِ وَحَضَرَمَوْتَ تُبَّعًا، كَمَا يُسَمُّونَ مَنْ مَلَكَ
 الشَّامَ مَعَ الْجَزِيرَةِ قَيْصَرَ، وَمَنْ مَلَكَ الْفُرْسَ كِسْرَى، وَمَنْ
 مَلَكَ مِصْرَ فِرْعَوْنَ، وَمَنْ مَلَكَ الْحَبَشَةَ النَّجَاشِيَّ، وَمَنْ
 مَلَكَ الْهِنْدَ بَطْلَيْمُوسَ، وَقَدْ كَانَ مِنْ جُمْلَةِ مُلُوكِ حَمِيرَ
 بِأَرْضِ الْيَمَنِ بَلْقَيْسُ، وَقَدْ قَدَّمْنَا قِصَّتَهَا مَعَ سُلَيْمَانَ
 عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ومر تُبَّعُ أَبِي كَرِبٍ بجيشه على المدينة وقاتل
 أهلها، فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ مِنْ قِتَالِهِمْ إِذْ جَاءَهُ حَبْرَانِ مِنْ
 أَحْبَارِ الْيَهُودِ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ عَالِمَانِ رَاسِخَانِ حِينَ سَمِعَا

بِمَا يُرِيدُ مِنْ إِهْلَاكِ الْمَدِينَةِ وَأَهْلِهَا فَقَالُوا لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا تَفْعَلْ فَإِنَّكَ إِنْ أَبَيْتَ إِلَّا مَا تُرِيدُ حِيلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا، وَلَمْ نَأْمَنْ عَلَيْكَ عَاجِلَ الْعُقُوبَةِ فَقَالَ لَهُمَا: وَلِمَ ذَلِكَ؟ قَالَا: هِيَ مُهَاجِرُ نَبِيِّ يَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْحَرَمِ مِنْ قُرَيْشٍ فِي آخِرِ الزَّمَانِ تَكُونُ دَارُهُ وَقَرَارُهُ فَتَنَاهَى وَرَأَى أَنَّ لَهُمَا عِلْمًا، وَأَعْجَبَهُ مَا سَمِعَ مِنْهُمَا فَانْصَرَفَ عَنِ الْمَدِينَةِ، وَاتَّبَعَهُمَا عَلَى دِينِهِمَا. وَقَدْ كَانَ تُبْعَ وَقَوْمُهُ أَصْحَابَ أَوْثَانٍ يَعْبُدُونَهَا فَتَوَجَّهَ إِلَى مَكَّةَ، وَهِيَ طَرِيقُهُ إِلَى الْيَمَنِ حَتَّى إِذَا كَانَ بَيْنَ عُسْفَانَ وَأَجَجٍ، أَتَاهُ نَفَرٌ مِنْ هَذِيلِ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِيَّاسَ بْنِ مُضَرِّ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدٍّ بْنِ عَدْنَانَ فَقَالُوا لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ أَلَا نَذُوكُكَ عَلَى بَيْتِ مَالٍ دَاثِرٍ أَغْفَلَتْهُ الْمُلُوكُ قَبْلَكَ فِيهِ اللَّوْلُؤُ وَالزَّبَرْجَدُ وَالْيَاقُوتُ وَالذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ؟

قَالَ: بَلَى قَالُوا بَيْتٌ بِمَكَّةَ ؛ يَعْبُدُهُ أَهْلُهُ وَيُصَلُّونَ عِنْدَهُ،
وَأِنَّمَا أَرَادَ الْهُذَلِيُّونَ هَلَاكَهُ بِذَلِكَ لَمَّا عَرَفُوا مِنْ هَلَاكِ
مَنْ أَرَادَهُ مِنَ الْمُلُوكِ وَبَعَا عِنْدَهُ فَلَمَّا أَجْمَعَ لِمَا قَالُوا
أَرْسَلَ إِلَى الْحَبْرَيْنِ فَسَأَلَهُمَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَا لَهُ مَا أَرَادَ
الْقَوْمُ إِلَّا هَلَاكَكَ، وَهَلَاكَ جُنْدَكَ مَا نَعْلَمُ بَيْتًا لِلَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ اتَّخَذَهُ فِي الْأَرْضِ لِنَفْسِهِ غَيْرُهُ، وَلَئِنْ فَعَلْتَ مَا
دَعَوَكَ إِلَيْهِ لَتَهْلِكَنَّ، وَلِيَهْلِكَنَّ مَنْ مَعَكَ جَمِيعًا فَمَاذَا
تَأْمُرَانِي أَنْ أَصْنَعَ إِذَا أَنَا قَدِمْتُ عَلَيْهِ؟ قَالَا: تَصْنَعُ عِنْدَهُ
مَا يَصْنَعُ أَهْلُهُ تَطُوفُ بِهِ وَتُعْظِمُهُ وَتُكْرِمُهُ، وَتَخْلُقُ
رَأْسَكَ عِنْدَهُ، وَتَذِلُّ لَهُ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ عِنْدِهِ قَالَ: فَمَا
يَمْنَعُكُمَا أَنْتُمَا مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَا: أَمَا وَاللَّهِ إِنَّهُ لَبَيْتٌ أَبِينَا
إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِنَّهُ لَكَمَا أَخْبَرْنَاكَ، وَلَكِنَّ أَهْلَهُ

حَالُوا بَيْنَنَا، وَبَيْنَهُ بِالْأَوْثَانِ الَّتِي نَصَبُوهَا حَوْلَهُ، وَبِالدِّمَاءِ
الَّتِي يُهْرِيقُونَ عِنْدَهُ، وَهُمْ نَجَسُ أَهْلِ شِرْكِ أَوْ كَمَا قَالَا
لَهُ فَعَرَفَ نُصَحَّهُمَا وَصِدْقَ حَدِيثِهِمَا، وَقَرَّبَ النَّفَرِ مِنْ
هُذَيْلٍ فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، ثُمَّ مَضَى حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ
فَطَافَ بِالْبَيْتِ، وَنَحَرَ عِنْدَهُ وَحَلَقَ رَأْسَهُ، وَأَقَامَ بِمَكَّةَ
سِتَّةَ أَيَّامٍ فِيمَا يَذْكُرُونَ يَنْحَرُ بِهَا لِلنَّاسِ، وَيُطْعِمُ أَهْلَهَا،
وَيَسْقِيهِمُ الْعَسَلَ.

وَكَانَ تَبَعٌ فِيمَا يَزْعُمُونَ أَوَّلَ مَنْ كَسَا الْبَيْتَ،
وَأَوْصَى بِهِ وُلَاتَهُ مِنْ جُرْهُمِ وَأَمَرَهُمْ بِتَطْهِيرِهِ، وَأَنْ لَا
يُقَرِّبُوهُ دِمًا وَلَا مَيْتَةً وَلَا مِثْلًا وَهِيَ الْمَحَايِضُ، وَجَعَلَ
لَهُ بَابًا، وَمِفْتَاحًا ثُمَّ خَرَجَ تَبَعٌ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْيَمَنِ مِمَّنْ مَعَهُ

مِنْ جُنُودِهِ، وَبِالْحَبْرَيْنِ حَتَّى إِذَا دَخَلَ الْيَمَنَ دَعَا قَوْمَهُ
إِلَى الدُّخُولِ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ فَأَبَوْا عَلَيْهِ .

وَقَدْ قَالَ تَبِعْ حِينَ أَخْبَرَهُ الْحَبْرَانِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شِعْرًا:

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدَ أَنَّهُ ** رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ بَارِي النَّسَمِ

فَلَوْ مَدَّ عُمَرِي إِلَى عُمُرِهِ ** لَكُنْتُ وَزِيرًا لَهُ وَابْنَ عَمِّ

وَجَاهَدْتُ بِالسَّيْفِ أَعْدَاءَهُ ** وَفَرَّجْتُ عَنْ صَدْرِهِ كُلَّ هَمِّ

وَلَمْ يَزَلْ هَذَا الشَّعْرُ تَتَوَارَثُهُ الْأَنْصَارُ وَيَحْفَظُونَهُ بَيْنَهُمْ

وَكَانَ عِنْدَ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَرْضَاهُ.

قِصَّةُ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ بَنَجْرَانَ

ثم كان الملك لذي نواس ابن تبّع المذكور ولم يكن مؤمناً^(١)، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبُرَ السَّاحِرُ، قَالَ لِلْمَلِكِ إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ سِنِّي وَحَضَرَ أَجَلِي فَادْفَعْ إِلَيَّ غُلَامًا فَلأَعْلَمُهُ السَّحْرَ. فَدَفَعَ إِلَيْهِ غُلَامًا فَكَانَ يُعَلِّمُهُ السَّحْرَ وَكَانَ بَيْنَ الْمَلِكِ وَبَيْنَ السَّاحِرِ رَاهِبٌ فَأَتَى الْغُلَامُ عَلَى الرَّاهِبِ فَسَمِعَ مِنْ كَلَامِهِ فَأَعْجَبَهُ نَحْوُهُ وَكَلَامُهُ، وَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرْبُهُ وَقَالَ: مَا حَبَسَكَ، وَإِذَا أَتَى أَهْلَهُ ضَرْبُوهُ وَقَالُوا: مَا حَبَسَكَ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ

(١) ذُو نُوَاسٍ، وَاسْمُهُ: زُرْعَةُ، وَيُسَمَّى فِي زَمَانِ مَمْلَكَتِهِ بِيُوسُفَ، وَهُوَ ابْنُ (تُبَّع) تَبَانِ أَسْعَدُ أَبِي كَرْبِ الَّذِي غَزَا الْمَدِينَةَ وَكَسَى الْكَعْبَةَ، وَاسْتَصْحَبَ مَعَهُ حَبْرَيْنِ مِنَ يَهُودِ الْمَدِينَةِ.

فَقَالَ: إِذَا أَرَادَ السَّاحِرُ أَنْ يَضْرِبَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي،
وَإِذَا أَرَادَ أَهْلُكَ أَنْ يَضْرِبُوكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ.

قَالَ: فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ فَطِيعَةٍ
عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَجُوزُوا
فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ أَمْرَ السَّاحِرِ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ أَمْ أَمْرُ
الرَّاهِبِ قَالَ: فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ
الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ وَأَرْضَى مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ
الدَّابَّةَ حَتَّى يَجُوزَ النَّاسُ، وَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى فَأَخْبَرَ
الرَّاهِبَ بِذَلِكَ فَقَالَ: أَيُّ بَنِي أَنْتَ أَفْضَلُ مِنِّي، وَإِنَّكَ
سَتُبْتَلَى فَإِنْ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ. فَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ
الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَسَائِرَ الْأَدْوَاءِ وَيَشْفِيهِمْ بِإِذْنِ اللَّهِ حِينَ
يَدْعُو اللَّهَ لَهُمْ.

وَكَانَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ فَعَمِيَ فَسَمِعَ بِهِ فَأَتَاهُ بِهِدَايَا
كَثِيرَةً فَقَالَ: أَشْفِينِي وَلَكَ مَا هَاهُنَا أَجْمَعُ. فَقَالَ: مَا أَنَا
أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنْ آمَنْتَ بِهِ،
وَدَعَوْتَ اللَّهَ؛ شَفَاكَ. فَأَمَنْ فَدَعَا اللَّهَ فَشَفَاهُ، ثُمَّ أَتَى
الْمَلِكَ فَجَلَسَ مِنْهُ نَحْوَ مَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: يَا
فُلَانُ مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ؟ فَقَالَ: رَبِّي قَالَ: أَنَا قَالَ: لَا.
رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ. قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: نَعَمْ رَبِّي
وَرَبُّكَ اللَّهُ. فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ، حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ فَأَتَى بِهِ
فَقَالَ: أَيُّ بَنِي بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ أَنْ تُبْرِئَ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ
وَهَذِهِ الْأَدْوَاءُ، قَالَ: مَا أَشْفِي أَنَا أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ عَزَّ
وَجَلَّ، قَالَ: أَنَا؟ قَالَ: لَا، قَالَ: أَوَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ:
رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ قَالَ: فَأَخَذَهُ أَيْضًا بِالْعَذَابِ، وَلَمْ يَزَلْ بِهِ

حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ فَأُتِيَ بِالرَّاهِبِ فَقَالَ: ارْجِعْ عَنْ
دِينِكَ فَأَبَى، فَوَضَعَ الْمُنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ حَتَّى وَقَعَ
شِقَاقُهُ، وَقَالَ لِلْأَعْمَى: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى، فَوَضَعَ
الْمُنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَاقُهُ.

وَقَالَ لِلْغُلَامِ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى، فَبَعَثَ بِهِ مَعَ
نَفَرٍ إِلَى جَبَلٍ كَذَا وَكَذَا، وَقَالَ: إِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ
عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَدَهْدِهْهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَلَمَّا عَلَوْا الْجَبَلَ
قَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ
فَدَهْدِهْهُوا أَجْمَعُونَ. وَجَاءَ الْغُلَامُ يَتَلَمَّسُ حَتَّى دَخَلَ
عَلَى الْمَلِكِ فَقَالَ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ فَقَالَ: كَفَانِيهِمْ
اللَّهُ فَبَعَثَ بِهِ مَعَ نَفَرٍ فِي قُرُقُورٍ فَقَالَ: إِذَا لَجَّجْتُمُ الْبَحْرَ
فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَأَغْرِقُوهُ فِي الْبَحْرِ، فَلَجَّجُوا بِهِ

الْبَحْرَ فَقَالَ الْغُلَامُ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ فَغَرِقُوا
أَجْمَعُونَ، وَجَاءَ الْغُلَامُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ فَقَالَ: مَا
فَعَلَ أَصْحَابُكَ فَقَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ.

ثُمَّ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا
أَمْرُكَ بِهِ فَإِنْ أَنْتَ فَعَلْتَ مَا أَمْرُكَ بِهِ قَتَلْتَنِي، وَإِلَّا فَإِنَّكَ
لَا تَسْتَطِيعُ قَتْلِي. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي
صَعِيدٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ تَصْلُبُنِي عَلَى جَذْعٍ، وَتَأْخُذُ سَهْمًا مِنْ
كِنَانَتِي، ثُمَّ قُلْ: "بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ"، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ
ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَفَعَلَ وَوَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ
رَمَاهُ وَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ
فَوَضَعَ الْغُلَامُ يَدَهُ عَلَى مَوْضِعِ السَّهْمِ وَمَاتَ. فَقَالَ
النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ. فَقِيلَ لِلْمَلِكِ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ

تَحَذَّرُ فَقَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ!. فَأَمَرَ
بِأَفْوَاهِ السَّكَّ فَحَفَرَ فِيهَا الْأَحَادِيدَ، وَأُضْرِمَتْ فِيهَا
النَّيْرَانُ، وَقَالَ: مَنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ فَدَعُوهُ، وَإِلَّا فَأَقْحِمُوهُ
فِيهَا. فَكَانُوا يَتَعَادَوْنَ فِيهَا، وَيَتَدَافِعُونَ، فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ
بِابْنٍ لَهَا تُرْضِعُهُ فَكَانَتْهَا تَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِي النَّارِ، فَقَالَ
الصَّبِيُّ: اصْبِرِي يَا أُمُّهُ فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ. (١)

(١) وأيضاً ثبت في الصحيح كلام ثلاثة آخرين في المهد غير هذا
الرضيع، وهم: المسيح عيسى بن مريم -عليه السلام- وورد ذكره في
القرآن، ومبرئ الراهب جريج حين اتهم بالزنا فتكلم الرضيع وأخبر
أن أباه هو الراعي، والرابع الصبي الذي كان يرضع من أمه، فمَرَّ رَجُلٌ
رَاكِبٌ عَلَى دَابَّةٍ فَارَاهُ وَشَارَهُ حَسَنَةً فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ
هَذَا، فَتَرَكَ الثَّدْيَ وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ.
هذا ما ثبت وصح إسناده.

ورويت أقوال أخرى في: شاهد يوسف، وابن مَاشِطَةَ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ
ويحيى عليه السلام، ومُبَارَكُ الْيَمَامَةِ، والخليان عليهما السلام.

تسلط الأحباش على اليمن بعد

الأخدود

ولما قتلَ ذو نُوَاسَ أَصْحَابَ الْأُخْدُودِ، وَكَانُوا
نَصَارَى، وَكَانُوا قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ أَلْفًا، فَلَمْ يُفْلِتْ مِنْهُمْ
إِلَّا دَوْسُ ذُو ثُعْلَبَانَ، فَذَهَبَ فَاسْتَعَاثَ بِقَيْصَرَ مَلِكِ
الشَّامِ -وَكَانَ نَصْرَانِيًّا- فَكَتَبَ لَهُ إِلَى النَّجَاشِيِّ مَلِكِ
الْحَبَشَةِ؛ لِكُونِهِ أَقْرَبَ إِلَيْهِمْ، فَبَعَثَ مَعَهُ أَمِيرَيْنِ: أَرِيَاطَ
وَأَبْرَهَةَ بْنَ الصَّبَّاحِ أَبَا يَكْسُومَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ، فَدَخَلُوا
الْيَمَنَ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، وَاسْتَلَبُوا الْمُلُوكَ مِنْ حَمِيرَ،
وَذَهَبَ ذُو نَوَاسَ هَارِبًا فَلَجَّجَ فِي الْبَحْرِ، فَغَرِقَ. وَاسْتَقَلَّ
الْحَبَشَةُ بِمُلِكِ الْيَمَنِ وَعَلَيْهِمْ هَذَانِ الْأَمِيرَانِ: أَرِيَاطَ

وَأَبْرَهُةُ، فَاخْتَلَفَا فِي أَمْرِهِمَا وَتَصَاوَلَا وَتَقَاتَلَا وَتَصَافَا،
فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ: إِنَّهُ لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى اضْطِدَامِ
الْجَيْشَيْنِ بَيْنَنَا، وَلَكِنْ ابْزُزْ إِلَيَّ وَأَبْزُزْ إِلَيْكَ، فَأَيْنَا قَتَلَ
الْآخَرَ، اسْتَقَلَ بَعْدَهُ بِالْمُلْكِ. فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ فَتَبَارَزَا،
وَخَلَفَ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فَتَاهُ، فَحَمَلَ أَرِيَاطَ عَلَى أَبْرَهُةَ
فَضْرَبَهُ بِالسَّيْفِ، فَشَرَمَ أَنْفَهُ وَفَمَهُ وَشَقَّ وَجْهَهُ، وَحَمَلَ
عَتُودَ مَوْلَى أَبْرَهُةَ عَلَى أَرِيَاطَ فَقَتَلَهُ، وَرَجَعَ أَبْرَهُةُ
جَرِيحًا، فَدَاوَى جُرْحَهُ فَبَرَأَ، وَاسْتَقَلَ بِتَدْبِيرِ جَيْشِ
الْحُبَشَةِ بِالْيَمَنِ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ النَّجَاشِيُّ يُلُومُهُ عَلَى مَا كَانَ
مِنْهُ، وَيَتَوَعَّدُهُ وَيَحْلِفُ لَيْطَانَ بِلَادَهُ وَيَجِرَّنَ نَاصِيَتَهُ.
فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَبْرَهُةُ يَتَرَقَّقُ لَهُ وَيُصَانِعُهُ، وَبَعَثَ مَعَ رَسُولِهِ
بِهَدَايَا وَتُحَفٍ، وَبِجِرَابٍ فِيهَا مِنْ تُرَابِ الْيَمَنِ، وَجَزَّ

نَاصِيَّتَهُ فَأَرْسَلَهَا مَعَهُ، وَيَقُولُ فِي كِتَابِهِ: لِيَطَأَ الْمَلِكُ عَلَى
 هَذَا الْجِرَابِ فَيَبْرُ قَسَمَهُ، وَهَذِهِ نَاصِيَّتِي قَدْ بَعَثْتُ بِهَا
 إِلَيْكَ. فَلَمَّا وَصَلَ ذَلِكَ إِلَيْهِ أَعْجَبَهُ مِنْهُ، وَرَضِيَ عَنْهُ،
 وَأَقْرَهُ عَلَى عَمَلِهِ. وَأَرْسَلَ أَبْرَهُةُ يَقُولُ لِلنَّجَاشِيِّ: إِنِّي
 سَأُبْنِي لَكَ كَنِيْسَةً بِأَرْضِ الْيَمَنِ لَمْ يُبْنَ قَبْلَهَا مِثْلَهَا.
 فَشَرَعَ فِي بِنَاءِ كَنِيْسَةٍ هَائِلَةٍ بِصَنْعَاءَ، رَفِيْعَةِ الْبِنَاءِ، عَالِيَةِ
 الْفِنَاءِ، مُزَخْرَفَةِ الْأَرْجَاءِ. سَمَّيْتُهَا الْعَرَبُ الْقُلَيْسَ؛
 لِارْتِفَاعِهَا؛ لِأَنَّ النَّاطِرَ إِلَيْهَا تَكَادُ تَسْقُطُ قُلُوسُوتُهُ عَنْ
 رَأْسِهِ مِنْ ارْتِفَاعِ بِنَائِهَا. وَعَزَمَ أَبْرَهُةُ الْأَشْرَمُ عَلَى أَنْ
 يَصْرِفَ حَجَّ الْعَرَبِ إِلَيْهَا كَمَا يُحْجِ إِلَى الْكَعْبَةِ بِمَكَّةَ،
 وَنَادَى بِذَلِكَ فِي مَمْلَكَتِهِ، فَكَرِهَتِ الْعَرَبُ الْعَدْنَانِيَّةُ
 وَالْقَحْطَانِيَّةُ ذَلِكَ، وَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ لِذَلِكَ غَضَبًا

شَدِيدًا، حَتَّى قَصَدَهَا بَعْضُهُمْ، وَتَوَصَّلَ إِلَى أَنْ دَخَلَهَا
 لَيْلًا. فَأُحْدِثَ فِيهَا وَكَّرَ رَاجِعًا. فَلَمَّا رَأَى السَّدَنَةَ ذَلِكَ
 الْحَدَثَ، رَفَعُوا أَمْرَهُمْ إِلَى مَلِكِهِمْ أَبْرَهَةَ، وَقَالُوا لَهُ: إِنَّمَا
 صَنَعَ هَذَا بَعْضُ قُرَيْشٍ غَضَبًا لِبَيْتِهِمُ الَّذِي ضَاهَيْتَ
 هَذَا بِهِ، فَأَقْسَمَ أَبْرَهَةُ لَيَسِيرَنَّ إِلَى بَيْتِ مَكَّةَ، وَلَيُخَرِّبَنَّ
 حَجْرًا حَجْرًا.

قصة أصحاب الفيل

وَتَأَهَّبَ أَبْرَهَةُ لِهَدْمِ الْكَعْبَةِ وَصَارَ فِي جَيْشٍ
 كَثِيفٍ عَزْمَرَمٍ؛ لَيْلًا يَصُدُّهُ أَحَدٌ عَنْهُ، وَاسْتَضَحَبَ مَعَهُ
 فِيلًا عَظِيمًا كَبِيرَ الْجُثَّةِ لَمْ يَرِ مِثْلَهُ، يُقَالُ لَهُ: مُحَمَّدٌ،
 وَكَانَ قَدْ بَعَثَهُ إِلَيْهِ النَّجَاشِيُّ مَلِكُ الْحَبَشَةِ لِذَلِكَ. -
 وَيُقَالُ: كَانَ مَعَهُ أَيْضًا أَفْيَالٌ أُخْرَى - لِيَهْدِمَ الْكَعْبَةَ، بِأَنْ

يَجْعَلُ السَّلَاسِلَ فِي الْأَرْكَانِ، وَتُوضَعُ فِي عُنُقِ الْفِيلِ، ثُمَّ يُزَجَرُ لِيُلْقِيَ الْحَائِطَ جُمْلَةً وَاحِدَةً. فَلَمَّا سَمِعَتِ الْعَرَبُ بِمَسِيرِهِ أَعْظَمُوا ذَلِكَ جِدًّا، وَرَأَوْا أَنَّ حَقًّا عَلَيْهِمُ الْمُحَاجَبَةُ دُونَ الْبَيْتِ، وَرَدَ مَنْ أَرَادَهُ بِكَيْدٍ. فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَجُلٌ كَانَ مِنْ أَشْرَافِ أَهْلِ الْيَمَنِ وَمُلُوكِهِمْ، يُقَالُ لَهُ "ذُو نَفَرٍ" فَدَعَا قَوْمَهُ وَمَنْ أَجَابَهُ مِنْ سَائِرِ الْعَرَبِ إِلَى حَرْبِ أَبْرَهَةَ، وَجِهَادِهِ عَنِ بَيْتِ اللَّهِ، وَمَا يُرِيدُ مِنْ هَدْمِهِ وَخَرَابِهِ. فَأَجَابُوهُ وَقَاتَلُوا أَبْرَهَةَ، فَهَزَمَهُمْ لِمَا يُرِيدُهُ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- مِنْ كَرَامَةِ الْبَيْتِ وَتَعْظِيمِهِ، وَأَسِرَ "ذُو نَفَرٍ" فَاسْتَصْحَبَهُ مَعَهُ. ثُمَّ مَضَى لَوَجْهِهِ حَتَّى إِذَا كَانَ بِأَرْضِ خَثْعَمٍ، عَرَضَ لَهُ نَفِيلُ بْنُ حَبِيبِ الْحَشَعَمِيِّ فِي قَوْمِهِ: شَهْرَانُ وَنَاهِسُ، فَقَاتَلُوهُ، فَهَزَمَهُمْ أَبْرَهَةُ، وَأَسَرَ نَفِيلُ بْنُ

حَبِيبٍ، فَأَرَادَ قَتْلَهُ ثُمَّ عَفَا عَنْهُ، وَاسْتَصْحَبَهُ مَعَهُ لِيَدُلَّهُ
 فِي بِلَادِ الْحِجَازِ. فَلَمَّا اقْتَرَبَ مِنْ أَرْضِ الطَّائِفِ، خَرَجَ
 إِلَيْهِ أَهْلُهَا ثَقِيفٌ وَصَانَعُوهُ خِيفَةً عَلَى بَيْتِهِمْ، الَّذِي
 عِنْدَهُمْ، الَّذِي يُسَمُّونَهُ اللَّاتَ. فَأَكْرَمَهُمْ وَبَعَثُوا مَعَهُ
 "أَبَا رَغَالٍ" دَلِيلًا. فَلَمَّا انْتَهَى أَبْرَهَةَ إِلَى الْمُغَمَّسِ - وَهُوَ
 قَرِيبٌ مِنْ مَكَّةَ - نَزَلَ بِهِ وَأَغَارَ جَيْشُهُ عَلَى سَرَحِ أَهْلِ
 مَكَّةَ مِنَ الْإِبِلِ وَغَيْرِهَا، فَأَخَذُوهُ. وَكَانَ فِي السَّرَحِ مَائَتًا
 بَعِيرٍ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وَكَانَ الَّذِي أَغَارَ عَلَى السَّرَحِ بِأَمْرِ
 أَبْرَهَةَ أَمِيرُ الْمُقَدَّمَةِ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: "الْأَسْوَدُ بْنُ
 مَفْصُودٍ" فَهَجَاهُ بَعْضُ الْعَرَبِ، وَبَعَثَ أَبْرَهَةَ حُنَاطَةَ
 الْحِمَيْرِيِّ إِلَى مَكَّةَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْتِيَهُ بِأَشْرَفِ قُرَيْشٍ، وَأَنْ
 يُخْبِرَهُ أَنَّ الْمَلِكَ لَمْ يَجِئْ لِقِتَالِكُمْ إِلَّا أَنْ تَصُدَّوه عَنْ

الْبَيْتِ. فَجَاءَ حُنَاطَةُ فُدُلَ عَلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ
وَبَلَّغَهُ عَنْ أَبْرَهَةَ مَا قَالَ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: وَاللَّهِ
مَا نُرِيدُ حَرْبَهُ، وَمَا لَنَا بِذَلِكَ مِنْ طَاقَةٍ، هَذَا بَيْتُ اللَّهِ
الْحَرَامُ، وَبَيْتُ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ، فَإِنْ يَمْتَنِعُهُ مِنْهُ فَهُوَ بَيْتُهُ
وَحَرْمُهُ، وَإِنْ يُخَلِّي بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، فَوَاللَّهِ مَا عِنْدَنَا دَفْعَ عَنْهُ.
فَقَالَ لَهُ حُنَاطَةُ: فَادْهَبْ مَعِيَ إِلَيْهِ. فَذَهَبَ مَعَهُ، فَلَمَّا
رَأَاهُ أَبْرَهَةُ أَجَلَّهُ، وَكَانَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ رَجُلًا جَمِيلًا حَسَنَ
الْمَنْظَرِ، وَنَزَلَ أَبْرَهَةُ عَنْ سَرِيرِهِ، وَجَلَسَ مَعَهُ عَلَى
الْبِسَاطِ، وَقَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: حَاجَتُكَ؟ فَقَالَ
لِلتَرْجُمَانِ: إِنَّ حَاجَتِي أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ الْمَلِكُ مَائَتِي بَعِيرٍ
أَصَابَهَا لِي. فَقَالَ أَبْرَهَةُ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: لَقَدْ كُنْتُ
أَعْجَبْتَنِي حِينَ رَأَيْتُكَ، ثُمَّ قَدْ زَهَدْتُ فِيكَ حِينَ كَلَّمْتَنِي،

أَتَكَلِّمُنِي فِي مَائَتِي بَعِيرٍ أَصْبَتْهَا لَكَ، وَتَتْرُكُ بَيْتًا هُوَ دِينُكَ
وَدِينُ آبَائِكَ قَدْ جِئْتُ لِهَدمِهِ، لَا تُكَلِّمُنِي فِيهِ؟! فَقَالَ لَهُ
عَبْدُ الْمُطَّلِبِ: إِنِّي أَنَا رَبُّ الْإِبِلِ، وَإِنَّ لِلْبَيْتِ رَبًّا
سَيَمْنَعُهُ. قَالَ: مَا كَانَ لِيَمْتَنَعَ مِنِّي! قَالَ: أَنْتَ وَذَاكَ.

وَرَدَّ أَبْرَهَةَ عَلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِبِلَهُ، وَرَجَعَ عَبْدُ
الْمُطَّلِبِ إِلَى قُرَيْشٍ فَأَمَرَهُمْ بِالْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ،
وَالْتَحَصُّنِ فِي رُءُوسِ الْجِبَالِ، تَخَوُّفًا عَلَيْهِمْ مِنْ مَعَرَّةِ
الْجَيْشِ. ثُمَّ قَامَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ فَأَخَذَ بِحُلْقَةِ بَابِ الْكَعْبَةِ،
وَقَامَ مَعَهُ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَدْعُونَ اللَّهَ وَيَسْتَنْصِرُونَهُ عَلَى
أَبْرَهَةَ وَجُنْدِهِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبْرَهَةُ تَهَيَّأَ لِدُخُولِ مَكَّةَ،
وَهَيَّأَ فِيهِ -وَكَانَ اسْمُهُ مُحَمَّدًا- وَعَبَّأَ جَيْشَهُ، فَلَمَّا
وَجَّهُوا الْفِيلَ نَحْوَ مَكَّةَ أَقْبَلَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ حَتَّى قَامَ

إِلَى جَنْبِهِ ثُمَّ أَخَذَ بِأُذُنِهِ وَقَالَ: ابْرُكْ مُحَمَّدٌ وَارْجِعْ رَاشِدًا
 مِنْ حَيْثُ جِئْتَ، فَإِنَّكَ فِي بَلَدِ اللَّهِ الْحَرَامِ. ثُمَّ أَرْسَلَ
 أُذُنَهُ، فَبَرَكَ الْفِيلُ. وَخَرَجَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ يَشْتَدُ حَتَّى
 أَصْعَدَ فِي الْجَبَلِ. وَضَرَبُوا الْفِيلَ لِيَقُومَ فَأَبَى. فَوَجَّهَهُ
 رَاجِعًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَامَ يُهْرُولُ. وَوَجَّهَهُ إِلَى الشَّامِ ففَعَلَ
 مِثْلَ ذَلِكَ. وَوَجَّهَهُ إِلَى الْمَشْرِقِ ففَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ
 وَوَجَّهَهُ إِلَى مَكَّةَ فَبَرَكَ. وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا مِنْ
 الْبَحْرِ جَمَاعَاتٍ يَتَّبِعُ بَعْضُهَا بَعْضًا، مَعَ كُلِّ طَائِرٍ مِنْهَا
 ثَلَاثَةُ أَحْجَارٍ يَحْمِلُهَا: حَجَرٌ فِي مَنْقَارِهِ، وَحَجَرَانِ فِي
 رِجْلَيْهِ، أَمْثَالُ الْحُمْصِ وَالْعَدَسِ، لَا تُصِيبُ مِنْهُمْ أَحَدًا
 إِلَّا هَلَكَ، وَلَيْسَ كُلُّهُمْ أَصَابَتْ. وَخَرَجُوا هَارِبِينَ
 يَبْتَذِرُونَ الطَّرِيقَ، وَيَسْأَلُونَ عَنْ نُفَيْلٍ لِيَدْلَهُمْ عَلَى

الطَّرِيقِ. هَذَا وَنُقِيلٌ عَلَى رَأْسِ الْجَبَلِ مَعَ قُرَيْشٍ وَعَرَبِ
الْحِجَازِ، يَنْظُرُونَ مَاذَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ مِنْ
النِّقْمَةِ، وَجَعَلَ نُقِيلٌ يَقُولُ:

أَيْنَ الْمَقَرُّ وَالْإِلَهُ الطَّالِبُ

وَالْأَشْرَمُ الْمَغْلُوبُ غَيْرُ الْغَالِبِ

وَلَيْسَ كُلُّهُمْ أَصَابَهُ الْعَذَابُ فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ، بَلْ
مِنْهُمْ مَنْ هَلَكَ سَرِيعًا، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ يَتَسَاقُطُ عُضْوًا
عُضْوًا وَهُمْ هَارِبُونَ، وَكَانَ أَبْرَهُةُ مِمَّنْ يَتَسَاقُطُ عُضْوًا
عُضْوًا، حَتَّى مَاتَ وَأَصَابَتْ قُرَيْشٌ مَالًا جَزِيلاً مِنْ
أَسْلَابِهِمْ، وَمَا كَانَ مَعَهُمْ، فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ فِيَمَا يُعَدُّ بِهِ عَلَى قُرَيْشٍ مِنْ نِعْمَتِهِ
عَلَيْهِمْ وَفَضْلِهِ، مَا رَدَّ عَنْهُمْ مِنْ أَمْرِ الْحَبْشَةِ، لِبَقَاءِ أَمْرِهِمْ

وَمُدَّتِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ
بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ
عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ
كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ} {لِإِيلَافٍ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ
وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ
جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} أَي: لئَلَّا يُغَيِّرَ شَيْئًا مِنْ حَالِهِمْ
الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، لِمَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِمْ مِنَ الْخَيْرِ لَوْ قَبِلُوهُ.^(١)

(١) وَمَلِكٌ بَعْدَ أُبْرَهَةَ فِي الْيَمَنِ ابْنُهُ يَكْسُومُ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ أَخُوهُ مَسْرُوقُ
بْنُ أُبْرَهَةَ، حَتَّى خَرَجَ سَيْفُ بْنُ ذِي يَزْنَ الْحَمِيرِيُّ إِلَى كَسْرَى فَاسْتَعَاثَهُ
عَلَى الْحَبَشَةِ، فَأَنْفَذَ مَعَهُ مِنْ جُيُوشِهِ فَقَاتَلُوا مَعَهُ، فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِمْ
مُلْكُهُمْ، وَمَا كَانَ فِي آبَائِهِمْ مِنَ الْمُلْكِ، وَجَاءَتْهُ وَقُودُ الْعَرَبِ لِلتَّهْنِئَةِ
بِعُودَةِ مُلْكِ الْيَمَنِ إِلَى حَمِيرٍ. وَكَانَ سَيْفُ بْنُ ذِي يَزْنَ قَدْ اصْطَفَى
جَمَاعَةً مِنَ الْأَحْبَاشِ، وَجَعَلَهُمْ مِنْ خَاصَّتِهِ، فَاغْتَالُوهُ وَقَتَلُوهُ، فَأَرْسَلَ
كَسْرَى حَاكِمًا لَهُ عَلَى الْيَمَنِ، وَاسْتَمَرَّ حَكَامُ كَسْرَى عَلَى الْيَمَنِ إِلَى أَنْ
كَانَ آخِرُهُمْ بِأَذَانَ الَّذِي كَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،
وَأَسْلَمَ، ثُمَّ صَارَتِ الْيَمَنِ لِلْإِسْلَامِ.

وَفَضَّلَ اللَّهُ قُرَيْشًا بِسَبْعِ خِصَالٍ: فَضَّلَهُمْ بِأَنَّهُمْ
عَبَدُوا اللَّهَ عَشْرَ سِنِينَ، لَا يَعْبُدُهُ إِلَّا قُرَيْشِيٌّ، وَفَضَّلَهُمْ
بِأَنَّهُ نَصَرَهُمْ يَوْمَ الْفِيلِ وَهُمْ مُشْرِكُونَ، وَفَضَّلَهُمْ بِأَنَّهُ
نَزَلَتْ فِيهِمْ سُورَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ، لَمْ يَدْخُلْ فِيهِمْ غَيْرُهُمْ -
لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ - وَفَضَّلَهُمْ بِأَنَّهُمْ فِيهِمُ النُّبُوَّةُ، وَالْخِلَافَةُ،
وَالْحِجَابَةُ، وَالسَّقَايَةُ. (١)

(١) في جزيرة العرب - وهي أكبر جزيرة في العالم - ولد صلى الله عليه وسلم وبعث فيها وهاجر فيها وغزا فيها ومات فيها، لتكون إسلامية صرفة لا يجتمع فيها دينان ولا قبلتان ولا يجوز بناء الكنائس فيها ولا بيوتاً للنار، وفيها مركز الدنيا الذي هو مكة المكرمة وقبلية المسلمين، وفيها الحرمان اللذان لا يجوز تنفير الطير منها، ولا يعضد شوكتهما، ولا يختلى خلاهما، وهما أسبق بيئة في العالم لحماية الحياة الفطرية، وسكانها هم أفصح الناس لساناً ومنطقاً، والقرآن الكريم نزل فيها وبلغه ساكنيها، وحدد الخليفة الراشد العادل عمر بن الخطاب مدة بقاء المشركين فيها بثلاثة أيام فقط لكي يشتري منهم المسلمون حاجتهم، وهي موطن الأمم القوية مثل عاد وثمود وسبأ، وهي مهد اللغة العربية القديمة (السامية)، وهي موطن قريش أشرف قبائل الدنيا والتي هي الأولى بالخلافة ما بقي من الناس اثنين، فالأئمة من قريش، وأهل الشورى من المسلمين

ولادة رسول الله محمد ونشأته

وُلد محمد - صلى الله عليه وسلم - في عام الفيل،

وهو مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، بْنِ هَاشِمِ بْنِ

عَبْدِ مَنَافٍ، بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ، بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ، بْنِ

لُؤَيٍّ بْنِ غَالِبٍ، بْنِ فِهْرٍ بْنِ مَالِكٍ، بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ،

يختارون الإمام العادل العالم المجتهد والخبير المستنبط للأُمور ويبايعونه من طريق الشورى وتعقد البيعة ببيان ماله وما عليه، وأهل الشورى هم أهل الشوكة ورؤساء الجند وشيوخ القبائل وأشرف الناس، وإن تولى على المسلمين حاكم فله السمع والطاعة في المعروف، ولو لم يكن من قريش، ولو كان عبداً. وكان عند العرب في الجاهلية من الأخلاق ما هو أنبل من أخلاق أهل الحضارة الغربية اليوم، فكان عندهم الكرم والنصرة والشجاعة، ولم يكن عند مشركي العرب نكاح المحارم الذي يفعله المجوس ولا نظام الطبقات كما عند الهنود، ولا ادعاء أن المسيح ابن مريم خلق السموات والأرض كما يقول النصارى، ولم يكن عندهم زنا المرأة الحرة. واختار الله لأمة الإسلام أفضل الرسل وأفضل الكتب، وأفضل اللغات والمواقع الجغرافية، وأفضل الكنوز والثروات والألوان وأفضل المقاييس والمعايير.

بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِيَّاسَ، بْنِ مُضَرَ، بْنِ نِزَارٍ، بْنِ
مَعَدٍّ، بْنِ عَدْنَانَ.

وهو مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ وَالْمَاجِي، الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِهِ
الْكُفْرَ، وَالْحَاشِرُ، الَّذِي يُخَشِّرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمِهِ، وَالْمُقَفِّي
وَالْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ
الرَّحْمَةِ، وَنَبِيُّ الْمَلَا حِمِ وَالنَّبِيُّ الْمُصْطَفَى وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ.

وقد ولد عليه الصلاة والسلام في يوم الإثنين من
شهر ربيع الأول قبل الهجرة بثلاث وخمسين سنة (٥٣ هـ -
ق هـ - ٥٧١ م تقريباً) وَحَبَسَ اللَّهُ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ عام
مولده صلى الله عليه وسلم، ومات أبوه عبدالله وهو

حمل^(١)، وَخَتَنَ يَوْمَ سَابِعِهِ عَلَى يَدِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ،
وَكَانَتْ هَذِهِ عَادَةُ الْعَرَبِ، وَعَقَّ عَنْهُ بِكَبْشٍ، وَجَعَلَ لَهُ
مَأْدُبَةً، وَسَمَّاهُ مُحَمَّدًا. وَأَرْضَعَتْهُ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةِ يَتِيمًا
وَرَأَتْ بَرَكَتَهُ عَلَيْهَا وَعَلَى أَهْلِهَا، وَمَاتَتْ أُمُّهُ آمَنَةُ وَهُوَ
صَغِيرٌ فَكَفَلَهُ جَدُّهُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ثُمَّ مَاتَ، فَكَفَلَهُ عَمُّهُ
أَبُو طَالِبٍ^(٢)، وَقَدْ اشْتَغَلَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-
فِي صِبَاهُ بِرَغِي الْغَنَمِ، وَرَعَاهَا لِبَعْضِ أَهْلِ مَكَّةَ.

(١) وَجَمِيعُ مَا خَلَفَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ خَمْسَةٌ مِنَ الْإِبِلِ ،
وَقِطْعَةٌ غَنَمٍ، وَجَارِيَةٌ حَبَشِيَّةٌ اسْمُهَا: "بَرْكَةٌ" وَهِيَ أُمُّ أَيْمَنَ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهَا.

(٢) وَيُرَوَّى أَنَّهُ أَخَذَهُ فِي تِجَارَةٍ إِلَى الشَّامِ وَهُوَ صَغِيرٌ فَرَأَاهُ بَحِيرًا الرَّاهِبَ
وَعَرَفَهُ بِأَوْصَافِهِ وَإِظْلَالِ الْغَمَامَةِ لَهُ وَمِيلِ أَغْصَانِ الشَّجَرَةِ لِإِظْلَالِهِ
حَتَّى نَظَرَ إِلَى خَاتَمِ النَّبُوَّةِ بَيْنَ كَتْفَيْهِ وَقَبَلَ مَوْضِعَهُ، وَصَحَّحَهَا بَعْضُ
الْمُحَقِّقِينَ وَأَنْكَرَهَا الْإِمَامُ الذَّهَبِيُّ.

يقول عن نفسه عليه الصلاة والسلام : إِنِّي عَبْدُ
 اللَّهِ، وَمَكْتُوبٌ فِي أُمِّ الْكِتَابِ : (خَاتَمُ النَّبِيِّينَ) -وَإِنَّ آدَمَ
 لَمُنْجَدِلٌ^(١) فِي طِينَتِهِ-، أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ
 عِيسَى، خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ، وَلَمْ أَخْرُجْ مِنْ سِفَاحٍ، مِنْ
 لَدُنْ آدَمَ إِلَى أَنْ وَلَدَنِي أَبِي وَأُمِّي فَلَمْ يُصْبِنِي مِنْ سِفَاحِ
 الْجَاهِلِيَّةِ شَيْءٌ. إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بَنِي
 كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ
 قُرَيْشِ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، وَرَأَتْ أُمِّي
 حِينَ حَمَلْتُ بِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَ لَهَا قُصُورَ
 بُصْرَى مِنْ أَرْضِ الشَّامِ، وَاسْتُرْضِعْتُ فَكَانَتْ حَاضِنَتِي

(١) يعني طريحاً ملقى على الأرض قبل نفخ الروح فيه.

مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ^(١)، فَأَنْطَلَقْتُ أَنَا وَابْنُ لَهَاءٍ فِي بَهْمٍ
لَنَا^(٢)، وَلَمْ نَأْخُذْ مَعَنَا زَادًا^(٣)، فَقُلْتُ: يَا أَخِي، اذْهَبْ
فَأْتِنَا بِزَادٍ مِنْ عِنْدِ أُمَّنَا، فَأَنْطَلَقَ أَخِي وَمَكَثْتُ عِنْدَ
الْبَهْمِ، فَأَتَانِي رَجُلَانِ -عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بَيْضٌ - بَطَسْتُ مِنْ
ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ ثُلْجًا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَهْوَهُو؟،
فَقَالَ الْآخَرُ: نَعَمْ، فَأَخَذَانِي فَبَطَحَانِي لِلْقَفَا، فَشَقَّاهُ بَطْنِي،
ثُمَّ اسْتَخْرَجَا قَلْبِي فَشَقَّاهُ، فَاسْتَخْرَجَا مِنْهُ عِلْقَةً سَوْدَاءَ
فَطَرَحَاهَا ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: ائْتِنِي بِمَاءٍ ثُلْجٍ،
فَغَسَلَ بِهِ جَوْفِي، ثُمَّ قَالَ: ائْتِنِي بِمَاءٍ بَرْدٍ، فَغَسَلَ بِهِ قَلْبِي،
ثُمَّ قَالَ: ائْتِنِي بِالسَّكِينَةِ، فَذَرَّهَا فِي قَلْبِي، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا

(١) وهي حليلة السعدية.

(٢) يعني خرج في رعاية الغنم.

(٣) طعاماً.

لِصَاحِبِهِ: حُصَّهٗ، فَحَاصَهُ^(١)، وَخَتَمَ عَلَيْهِ بِخَاتَمِ النَّبُوءَةِ^(٢)،
ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: اجْعَلْهُ فِي كِفَّةٍ، وَاجْعَلْ أَلْفًا
مِنْ أُمَّتِهِ فِي كِفَّةٍ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ -: فَإِذَا أَنَا أَنْظُرُ إِلَى الْأَلْفِ فَوْقِي أَشْفِقُ أَنْ يَخْرَّ
عَلَيَّ بَعْضُهُمْ، فَقَالَ: لَوْ أَنَّ أُمَّتَهُ وُزِنَتْ بِهِ لَمَالَ بِهِمْ. ثُمَّ
انْطَلَقَا وَتَرَكَانِي، إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلَّمُ عَلَيَّ
قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ.

ورعى الغنم بمكة، ووقع حلف الفضول في ذي
الْقَعْدَةِ -وهو من الأشهر الحرم- عام (٣٣ ق هـ)
وتداعت إليه قبائل من قريش: بنو هاشم، وبنو

(١) حاصه : خاطه . يعني يخييط الجرح .

(٢) خَاتَمُ النَّبُوءَةِ: هُوَ قِطْعَةٌ لَحْمٍ نَاتِيَةٌ، عَلَيْهَا شَعْرٌ عِنْدَ كَتِفِهِ الْأَيْسَرِ -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، حَجَمَهَا قَدْرُ بَيْضَةِ الْحَمَامَةِ.

المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة، فاجتمعوا في دار عبد الله بن جُدعان التيمي؛ لسنّهِ وشرفه، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، وشهد هذا الحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال بعد أن أكرمه الله بالرسالة: "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت".

زواج النبي من خديجة بنت خويلد

وسمعت خديجة رضي الله عنها بالنبي صلى الله عليه وسلم وبأمانته وأخلاقه الكريمة، فإن أخت

خديجة قد استكرت (استأجرت) إبلاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشريكه، فلما قضوا السفر بقي لهما عليها شيء، فجعل شريكه يأتيهم ويتقاضاهم، ويقول لمحمد صلى الله عليه وسلم: انطلق. فيقول: اذهب أنت، فإني أستحيي. فقالت مرة - وقد أتاها شريكه - : أين محمد لا يجيء معك؟ قال: قد قلت له، فزعم أنه يستحيي، فذكرت ذلك لأختها خديجة، فقالت: ما رأيت رجلاً قط أشد حياء ولا أعف من محمد، فوقع في نفس أختها خديجة، فبعثت إليه، فقالت: انت أبي فاخطب إليه، فقال: أبوك رجل كثير المال وهو لا يفعل، قالت: انطلق فאלقه وكلمه، ثم أنا أكفيك. وقد تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وهي

ثيب في سنة ٢٨ ق هـ . وَقَدْ مَاتَ بَنُوهُ -صلى الله عليه وسلم- من خديجة وَهُمْ صِغَارٌ، فَمَاتَ الْقَاسِمُ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ سِنًا تُمَكِّنُهُ مِنَ الْمَشْيِ، وَقِيلَ سِنًا تُمَكِّنُهُ مِنْ رُكُوبِ الدَّابَّةِ، ثُمَّ مَاتَ عَبْدُ اللَّهِ، وَهُوَ طِفْلٌ صَغِيرٌ.

وَأَمَّا بَنَاتُ الرَّسُولِ -صلى الله عليه وسلم- فَكُلُّهُنَّ من خديجة وقد أَدْرَكْنَ الْإِسْلَامَ، وَأَسْلَمْنَ، وَعِشْنَ حَتَّى تَزَوَّجْنَ ، وَكُلُّهُنَّ مِتْنَ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم-، مَا عَدَا فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَدْ تُوفِّيَتْ بَعْدَهُ بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ.

وضع الحجر الأسود في مكانه

وفي عام (١٨ ق هـ) أعادت قريش بناء الكعبة في

الجاهلية -بعد أن تهدم جزء منها من سيل أتاها-

فَهَدَمَتْهَا قُرَيْشٌ وَجَعَلُوا يَبْنُونَهَا بِحِجَارَةِ الْوَادِي وَبَلَّغُوا

موضع الحجر الأسود وما يرى الحجر أحد، فإذا هو

وسط حجارتهم مثل رأس الرجل يكاد يتراءى منه وجه

الرجل، فقال بطن من قريش: نحن نضعه. وقال

آخرون: نحن نضعه. فقالوا: اجعلوا بينكم حكماً. قالوا:

أول رجل يطلع من الفج^(١)، فجاء النبي صلى الله عليه

وسلم. فقالوا: أتاكم الأمين. وكانوا يسمونه الأمين، ولم

يجربوا عليه كذبة قط. فقالوا له، فوضعه في ثوب ثم

(١) الفج: الطريق الواسع.

دعا بطونهم^(١) فأخذوا بنواحيه معه، فوضعه هو صلى الله عليه وسلم بيديه.

لكنهم لما قَصَرَتْ بِهِمُ النَّفَقَةُ وَالْخَشَبُ؛ اقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ فلم يصلوا بركنين إلى أُسَاسِ إِبْرَاهِيمَ، وجعلوا بَابَ الكعبة مُرْتَفِعًا لَا يُصْعَدُ إِلَيْهِ إِلَّا بِسُلَّمٍ لِيَدْخُلُوا مَنْ شَاءُوا وَيَمْتَنِعُوا مَنْ شَاءُوا، تَعَزُّزًا أَنْ لَا يَدْخُلَهَا إِلَّا مَنْ أَرَادُوا، فَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا هُوَ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَهَا يَدْعُوهُ يَرْتَقِي، حَتَّى إِذَا كَادَ أَنْ يَدْخُلَ دَفَعُوهُ فَسَقَطَ. (٢)

(١) البطن: الجماعة من الأقارب، والبطن دون القبيلة، والفخذ دون البطن.

(٢) قالت عائشة - رضي الله عنها - : كنت أحب أن أدخل البيت فأصلي فيه، فقلت للنبي - صلى الله عليه وسلم - : ألا أدخل البيت؟ فأخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيدي فأدخلني الحجر، فقال: إذا أردت دخول البيت ، فصلي هاهنا، فإنما هو قطعة من البيت ، فقلت: فما لهم لم يدخلوه في البيت؟، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إن قومك لما بنوا الكعبة، قَصَرَتْ بِهِمُ النَّفَقَةُ وَالْخَشَبُ،

فَاقْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ، فَأَخْرَجُوهُ مِنَ الْبَيْتِ. فَقُلْتُ: فَمَا شَأْنُ بَابِهِ مَرْتَفَعًا، لَا يَصْعَدُ إِلَيْهِ إِلَّا بِسُلْمٍ؟ قَالَ: "فَعَلَ ذَلِكَ قَوْمُكَ لِيَدْخُلُوا مِنْ شَاءُوا وَيَمْنَعُوا مَنْ شَاءُوا، فَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا هُوَ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَهَا يَدْعُوهُ يَرْتَقِي، حَتَّى إِذَا كَادَ أَنْ يَدْخُلَ دَفَعُوهُ فَسَقَطَ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَرُدُّهَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟" فَقَالَ: "لَوْلَا أَنْ قَوْمُكَ حَدِيثُ عَهْدِهِمْ بِالْجَاهِلِيَّةِ بِالشُّرْكِ بِالْكَفْرِ لَفَعَلْتُ، فَأَخَافُ أَنْ تَنْكَرَ (تَنْفِرَ) قُلُوبُهُمْ أَنْ أَدْخُلَ الْجَدْرَ فِي الْبَيْتِ، وَأَنْ أُلْصِقَ بَابَهُ بِالْأَرْضِ، وَلَيْسَ عِنْدِي مِنَ النِّفَقَةِ مَا يَقْوِي عَلَى بِنَائِهِ؛ لَأَمُرْتُ بِالْبَيْتِ فَهَدَمَ، ثُمَّ لَبْنَيْتُهُ عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَأَعَدْتُ مَا تَرَكُوا مِنْهُ فَأَدْخَلْتُ فِيهِ مَا أَخْرَجَ مِنْهُ، وَلَكِنِّي أَدْخَلْتُ فِيهِ مِنَ الْحِجَرِ وَزِدْتُ فِيهَا سِتَّةَ أَذْرُعٍ (وَفِي رِوَايَةٍ خَمْسَ أَذْرُعٍ) مِنَ الْحِجَرِ فَبَلَغْتُ بِهِ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ. وَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ مَوْضُوعَيْنِ فِي الْأَرْضِ: بَابًا شَرْقِيًّا، وَبَابًا غَرْبِيًّا، بَابٌ يَدْخُلُ النَّاسُ مِنْهُ وَبَابٌ خَلْفًا يَخْرُجُونَ مِنْهُ، وَلَأَنْفَقْتُ كَنْزَ الْكَعْبَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنْ بَدَأَ لِقَوْمِكَ مِنْ بَعْدِي أَنْ يَبْنُوهُ فَهَلُمِّي لِأَرْيَاكَ مَا تَرَكُوا مِنْهُ"، فَأَرَاهَا قَرِيبًا مِنْ سَبْعَةِ أَذْرُعٍ. وَقَالَ لَهَا: إِذَا أَرَدْتَ دُخُولَ الْبَيْتِ فَصَلِّيْ هَا هُنَا، صَلِّيْ فِي الْحِجْرِ، فَإِنَّمَا هُوَ قِطْعَةٌ مِنَ الْبَيْتِ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: لَبِنٌ كَانَتْ عَائِشَةُ سَمِعَتْ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا أَرَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَكَ اسْتِلَامَ الرُّكْنَيْنِ اللَّذَيْنِ يَلِيَانِ الْحِجْرَ، إِلَّا أَنَّ الْبَيْتَ لَمْ يُتِمَّمْ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ. وَابْنُ عَبَّاسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، لَمْ يُرِدْ بِقَوْلِهِ الْحِجْرُ مِنَ الْبَيْتِ جَمِيعَ الْحِجْرِ وَإِنَّمَا أَرَادَ بَعْضَهُ عَلَى مَا خَبَرَتْ عَائِشَةُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ بَعْضَ الْحِجْرِ مِنَ الْبَيْتِ لَا جَمِيعَهُ. قَالَ يَزِيدُ: وَشَهِدْتُ ابْنَ الزُّبَيْرِ حِينَ هَدَمَهُ، وَبَنَاهُ، وَأَدْخَلَ فِيهِ مِنَ الْحِجْرِ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ حِجَارَةً، كَأَسْنَمَةِ الْإِبِلِ مُتَلَا حِكَةً.

حال أهل الأرض قبل بعثة محمد عليه

الصلاة والسلام

وكانَ العربُ عَلَى أمورٍ باقيةٍ من الحنيفية ملة إبراهيم ودين إسماعيل عليهما السلام. وكانوا على أمور من الفِطْرَةِ كنصرة المظلوم والشجاعة والكرم والضيافة، وكانوا أفصح الناس، واعتادوا القولَ السَّديدَ دونَ فَلَساتٍ فِكْريَّةٍ، وبِمَعْزِلٍ عَن أدْوَاءِ المَدَنِيَّةِ والتَّرفِ. إلا أنه دخل فيهم الشرك بالله وعبادة الأصنام التي أحضرها عمرو بن لحي الخزاعي من الشام، وتبع ذلك عبادات شركية قولية وفعلية كالذبح للأصنام وغيرها، وظهرت فيهم العصبية القبلية، وشُرِبَ الخَمْرُ والقِمَارُ

وَتَعَاطِي الرَّبَّيَا وَأَكْلُ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَزَّيْنُ الْبَغَايَا
وَالْإِمَاءِ، وَقَتْلُ الْأَوْلَادِ خَشْيَةَ الْفَقْرِ، وَوَادُ الْبَنَاتِ خَشْيَةَ
الْعَارِ، وَالطَّوَافُ بِالْبَيْتِ عَرَاةً، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ
الْمُنْكَرَةِ. وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَّتَهُمْ عَرَبَهُمْ
وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ^(١)، وَقَبْلَ مَبْعَثِ

(١) يعني بقايا الموحددين منهم، المستمسكين بالدين الحق. وكان في تلك الفترة أقليات يهودية مشتتة في الشام والعراق والحجاز وقد تحرفت تعاليم موسى عليه السلام، ودخل فيها آراء كتبها الأحرار ونسبوها إلى الدين، فجعلوا الله-سبحانه- إلهاً قومياً خاصاً باليهود وافتروا على أنبيائهم ما يشوه سمعتهم، وأحلوا التعامل مع غيرهم من الأميين بالرِّبا والغش وحرموه بينهم، وأبوا دعوة الناس إلى دينهم لئلا يحظوا- في زعمهم- بشرف الانتماء إلى شعب الله المختار.

وفي بلاد الروم وحكم النصارى كان الربا والاحتكارهما أساساً النظام، وفرض هرقل ضرائب جديدة على أهالي الولايات المستأين من الحكم الروماني لتسديد الدين الكبير لحروبه مع فارس، وكانت طبقات المجتمع البيزنطي جميعاً تؤمن بالتنجيم، والتنبيؤ بالغيب، والعرافة، والاتصال بالشياطين، والتماائم. وكان الامبراطور وقادة الجيش وكبار رجال الكنيسة يعيشون في أعلى السلم الاجتماعي، في حين يقبع آلاف العبيد في المزارع الضخمة حيث يعانون من سوء التغذية وتدني مستوى المعيشة. ويقرب من مستواهم المعيشي : الأحرار الذين يشتغلون في الصناعات، وهذه الطبقات من الفقراء

محمد صلى الله عليه وسلم خرجَ زَيْدُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ نَفِيلٍ
القرشي من مكة إِلَى الشَّامِ يَسْأَلُ عَنِ الدِّينِ وَيَتَّبِعُهُ.
فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ الْيَهُودِ، فَسَأَلَهُ عَنْ دِينِهِمْ، فَقَالَ: إِنِّي
لَعَلِّي أَنْ أَدِينَ دِينَكُمْ، فَأَخْبَرَنِي، فَقَالَ: لَا تَكُونُ عَلَى دِينِنَا
حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيْبِكَ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ، فَقَالَ زَيْدٌ: مَا أَفِرُّ

كانوا يحسون بسوء حالهم وكثيراً ما حاولوا القيام بثورات لم يوفقوا
فيها. وكان أصحاب الأعمال الذين يستخدمونهم يؤلفون من بينهم
طبقة وسطى كبيرة العدد.

وكانت البوذية تنتشر في الصين، فكانت التماثيل الخزفية المزججة
التي تمثل الخدم والذل والجمال تدفن مع الأموات في القبور، ثم
تحولت هذه العادة إلى ذبح العبيد والخيول الحيّة ودفنها مع الملوك
والرؤساء لخدمتهم في عالم ما بعد الموت. وكانت تماثيل بوذا (٥٦٣
- ٤٨٣ ق. م) تنتشر في الهند أيضاً، وتعتقد بخلود الحياة المستمرة
في دورة لانهاية من تناسخ الأرواح. وفي الهند سادت البرهمية بعد
أن زاحمت الديانة البوذية، والبرهمية تقوم على نظام الطبقات،
وزعامة البراهمة، وتقديس البقرة، وتناسخ الأرواح، وعبادات وحشية
مثل التضحية بأفراد من الإنسان، وإحراق الأرملة عند وفاة زوجها.
وكان اليابانيون قبل البوذية يعبدون إلهاً يدعونه كامى، ويتمثل في
عبادة ظواهر من الطبيعة كالشمس أو الأجداد الأسطوريين الذين
هم ظواهر من الطبيعة حسب معتقدهم وتعرف ديانتهم باسم
(الشنّتو) أي الطريق إلى الآلهة، وعند ظهور الإسلام كانت البوذية
قد انتصرت على الشنّتو.

إِلَّا مِنْ غَضَبِ اللَّهِ، وَلَا أَحْمِلُ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَأَنْتَى أَسْتَطِيعُهُ؟ فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ؟، قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ حَنِيفًا، فَقَالَ زَيْدٌ: وَمَا الْحَنِيفُ؟، قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ، لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا، وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ، فَخَرَجَ زَيْدٌ فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ النَّصَارَى، فَذَكَرَ مِثْلَهُ، فَقَالَ: لَنْ تَكُونَ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيكَ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ، قَالَ: مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ، وَلَا أَحْمِلُ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَلَا مِنْ غَضَبِهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَأَنْتَى أَسْتَطِيعُ؟، فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ؟، قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ حَنِيفًا، قَالَ: وَمَا الْحَنِيفُ، قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ، لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا، وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ، فَلَمَّا رَأَى زَيْدٌ قَوْلَهُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَام - خَرَجَ، فَلَمَّا بَرَزَ رَفَعَ

يَدِيهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُكَ أَنِّي عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ، وَكَانَ يُحْيِي الْمَوْتُودَةَ، يَقُولُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَ ابْنَتَهُ: لَا تَقْتُلْهَا، أَنَا أَكْفِيكَ مَوْتَنَهَا، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا تَرَعَرَعَتْ قَالَ لِأَبِيهَا: إِنْ شِئْتَ دَفَعْتُهَا إِلَيْكَ، وَإِنْ شِئْتَ كَفَيْتُكَ مَوْتَنَهَا، وَقَدْ لَقِيَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - زَيْدَ بَنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ بِأَسْفَلِ بَلَدِ حِ (١) قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْوَحْيُ، فَقُدِّمَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَفْرَةٌ (٢)، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا، وَقَدَّمَهَا إِلَى زَيْدٍ، فَأَبَى زَيْدٌ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا، ثُمَّ قَالَ زَيْدُ (٣) لِقَرِيشٍ: إِنِّي لَسْتُ أَكُلُ مِمَّا تَذْبَحُونَ عَلَى أَنْصَابِكُمْ، وَلَا

(١) واد في طريق التنعيم إلى مكة.

(٢) (سفرة) طعام يتخذه المسافر وأكثر ما يحمل في جلد مستدير ولذلك أصبح يطلق لفظ سفرة على ما يوضع فيه الطعام أو عليه.

(٣) وجه كلامه لقريش الذين قدموا السفرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

أَكْلُ إِلَّا مَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَكَانَ زَيْدٌ يَعِيبُ عَلَى
 قُرَيْشٍ ذَبَابَهُمْ، وَيَقُولُ: الشَّاةُ خَلَقَهَا اللَّهُ، وَأَنْزَلَ لَهَا مِنْ
 السَّمَاءِ الْمَاءَ، وَأَنْبَتَ لَهَا مِنَ الْأَرْضِ، ثُمَّ تَذْبَحُونَهَا عَلَى
 غَيْرِ اسْمِ اللَّهِ؟ -إِنْكَارًا لِذَلِكَ وَإِعْظَامًا لَهُ. وَإِنَّهُ يُبْعَثُ
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ، وله في الجنة درجتان.

بعثة محمد عليه الصلاة والسلام

قال عليه الصلاة والسلام: "إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كَنَانَةَ
 مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كَنَانَةَ، وَاصْطَفَى
 مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ".

وَكَانَ أَوَّلَ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الْوَحْيِ ^(١)؛ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ فَمَكَثَ عَلَى ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْكُثَ ثُمَّ حُبَّبَ إِلَيْهِ الْخُلُوةَ، فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَخْلُوَ فَكَانَ يَلْحَقُ بِغَارِ حِرَاءٍ، فَيَتَحَنَّنُ ^(٢) فِيهِ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى

(١) ثم بعد البعثة تنوعت صور الوحي إما بالرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ، أو بِمَا كَانَ يُلقِيهِ الْمَلَكُ فِي رُوعِهِ وَقَلْبِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَاهُ، أو يَتَمَثَّلَ لَهُ الْمَلَكُ رَجُلًا، فَيُخَاطِبُهُ حَتَّى يَعْيَ عَنْهُ مَا يَقُولُ لَهُ، أو يَأْتِيهِ الْوَحْيُ فِي مِثْلِ صَلَاسَةِ الْجَرَسِ، وَكَانَ أَشَدَّهُ عَلَيْهِ، فَيَتَلَبَّسُ بِهِ الْمَلَكُ حَتَّى إِنْ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، وَحَتَّى إِنْ نَاقَتَهُ لَتَبْرُكُ بِهِ إِلَى الْأَرْضِ إِذَا كَانَ رَاكِبَهَا، وَلَقَدْ جَاءَهُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الْوَحْيُ كَذَلِكَ، وَفَخَذَهُ عَلَى فَخْذِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فَثَقُلَتْ عَلَيْهِ حَتَّى كَادَتْ تَرُضُّهَا. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَخَافُ مِنْ نَسْيَانِ الْوَحْيِ، وَكَانَ يُحَرِّكُ شَفْتَيْهِ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} أي: جَمَعَهُ فِي صَدْرِكَ وَتَقْرَأَهُ، . . {فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} . .، أي: فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ، {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ}، بِأَنْ تَقْرَأَهُ.

(٢) أي يفعل فعلا يطرح عنه الحنث أي الإثم.

أَهْلِيهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا
 حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ^(١) وَهُوَ فِي غَارٍ حَرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ
 فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
 " مَا أَنَا بِقَارِيٍّ "، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 -: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي^(٢) حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي
 فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: " مَا أَنَا بِقَارِيٍّ "، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي
 الثَّانِيَةَ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ،
 قُلْتُ: " مَا أَنَا بِقَارِيٍّ "، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ
 مِنِّي الْجُهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي
 خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي
 عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ

(١) أَيُّ: الْأَمْرُ الْحَقُّ، وَسُمِّيَ حَقًّا لِأَنَّهُ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى .

(٢) أَيُّ: ضَمَّنِي وَعَصَرَنِي، وَالْغَطُّ: حَبَسَ النَّفْسَ .

الله - صلى الله عليه وسلم - يَرْجُفُ فُؤَادَهُ، فَدَخَلَ
 عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ - رضي الله عنها - فَقَالَ:
 "زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي" ^(١)، فَرَمَلُوهُ، حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوَغُ. ^(٢)
 قَالَ لِحَدِيجَةَ: "أَيُّ خَدِيجَةٍ، مَا لِي؟، لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى
 نَفْسِي"، فَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ، قَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا، أَبْشِرْ،
 فَوَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ،
 وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ^(٣) وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ^(٤)
 وَتَقْرِي ^(٥) الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ ^(٦)، فَانْطَلَقَتْ

(١) غَطُّونِي بِالشَّيَابِ وَلُفُّونِي بِهَا.

(٢) الخوف.

(٣) الْكَلُّ: الثَّقِيلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِي الْمَوْئِنَةِ وَالْجِسْمِ. وَالْبَيْتِيمُ، وَمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْعَمَلِ، وَمَنْ لَا يَسْتَقِلُّ بِأَمْرِهِ، قَالَ تَعَالَى: {أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كُلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ} [النحل/٧٦].

(٤) تَكْسِبُ الْفَقِيرَ مَا لَا.

(٥) تكرم.

(٦) تعين الناس في حاجاتهم ومصائبهم.

بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ - وَهُوَ ابْنُ عَمِّ
 خَدِيجَةَ أَخِي أَبِيهَا، وَكَانَ امْرَأً تَنْصَرَفِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ
 يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ، وَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعَرَبِيَّةِ مَا
 شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ
 لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ
 وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا
 النَّامُوسُ ^(١) الَّذِي نَزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى ^(٢) يَا لَيْتَنِي فِيهَا

(١) هُوَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالنَّامُوسُ فِي اللُّغَةِ: صَاحِبُ سِرِّ الْخَيْرِ.
 (٢) قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: وَقَوْلُهُ عَلَى مُوسَى وَلَمْ يَقُلْ عَلَى عِيسَى مَعَ كَوْنِهِ
 نَصْرَانِيًّا لِأَنَّ كِتَابَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُشْتَمِلٌ عَلَى أَكْثَرِ الْأَحْكَامِ.. أَوْ
 لِأَنَّ مُوسَى بُعِثَ بِالنِّعْمَةِ عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَنْ مَعَهُ .. أَوْ قَالَهُ تَحْقِيقًا
 لِلرِّسَالَةِ لِأَنَّ نَزُولَ جَبْرِيلَ عَلَى مُوسَى مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ
 بِخِلَافِ عِيسَى فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْيَهُودِ يُنْكِرُونَ نُبُوَّتَهُ ... نَعَمْ فِي دَلَائِلِ
 النُّبُوَّةِ لِأَبِي نُعَيْمٍ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ إِلَى هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ فِي هَذِهِ
 الْقِصَّةِ أَنَّ خَدِيجَةَ أَوَّلًا أَتَتْ بِنَ عَمَّهَا وَرَقَةَ فَأَخْبَرَتْهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ: "لَيْتَنِي
 كُنْتُ صَدَقْتَنِي إِنَّهُ لِيَأْتِيَهُ نَامُوسٌ عِيسَى الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ

جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " أَوْخْرِجِي هُمْ؟"،
فَقَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا
عُودِي وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمُكَ، أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَمْ
يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُؤْفَى. وَفَتَرَ الْوَحْيُ فِتْرَةً، لِيَذْهَبَ مَا كَانَ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجده من الروح، وليحصل له
التشوف إلى العود، فلما حصل له ذلك، وأخذ يرتقب
مجيء الوحي؛ أكرمه الله بالوحي مرة ثانية.

أَبْنَاءَهُمْ". فَعَلَى هَذَا فَكَانَ وَرَقَةُ يَقُولُ تَارَةً نَامُوسُ عِيسَى وَتَارَةً نَامُوسُ
مُوسَى، فَعِنْدَ إِخْبَارِ خَدِيجَةَ لَهُ بِالْقِصَّةِ قَالَ لَهَا نَامُوسُ عِيسَى بِحَسَبِ
مَا هُوَ فِيهِ مِنَ النَّصْرَانِيَّةِ، وَعِنْدَ إِخْبَارِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ
قَالَ لَهُ نَامُوسُ مُوسَى لِلْمُنَاسَبَةِ الَّتِي قَدَّمْنَاهَا، وَكُلُّ صَحِيحٍ وَاللَّهُ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

إرسال النبي للناس كافة

وأمر الله نبيه أن يدعو الناس كافة -ومنهم أهل الكتاب اليهود والنصارى- إلى الهدى فقال جل وعلا:

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ) (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا).

وأخبر الله نبيه أنّ من النصارى قوم هم أقرب مودة
 للذين آمنوا لأنّ منهم علماء وعبادًا متواضعون غير
 متكبرين كالنجاشي وأصحابه - قلوبهم لينة، يكون
 خشوعًا عند سماع ما أنزل من القرآن لمّا عرفوا أنه من
 الحق؛ لمعرفتهم بما جاء به عيسى - عليه السلام -،
 يقولون: يا ربنا آمنا بما أنزلت على رسلك محمد وعيسى
 -عليهما السلام-، فاكتبنا يا ربنا مع أمة محمد -صلى
 الله عليه وسلم- التي تكون حجة على الناس يوم
 القيامة.

وَأَنَّ مِنْ أَحْبَارِ أَهْلِ الْكِتَابِ كَعْبِدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ
 وَأَسَدِ بْنِ عُبَيْدٍ وَثَعْلَبَةَ بْنِ سَعْيَةَ وَأَسِيدَ بْنِ سَعْيَةَ
 وَغَيْرِهِمْ (لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ

خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ، يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ).

وبيّن الله جل وعلا في كتابه أنّ كثيراً من الأحرار والرهبان من اليهود والنصارى هم من المستكبرين على التحريف والكفر والكذب على الله وعلى الرسل وعلى الناس، وأكل أموال الناس بالباطل (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ).

معجزة القرآن الكريم الخالدة

وقال عليه الصلاة والسلام : مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنْ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ (القرآن)؛ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ^(١).

(١) القرآن هو المعجزة الباقية: لإثباته عجز البشر عن الإتيان بمثله أو بمثل بعضه، في ألفاظه ومعانيه.

وهذه الخصوصية جعلت القرآن أعظم الأدلة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم في رسالته، والحجة الباقية على الناس إلى أن تقوم الساعة. وقد قال الله عز وجل: (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ). فقد كان الله عز وجل يجري على أيدي رسله وأنبياؤه ويسوق لهم من البراهين ما يدل على صدقهم أنهم مبعوثون من عند الله، مما لا يقع مثله في العادة لغيرهم من البشر، وهو معجزاتهم، كعصا موسى، وإحياء عيسى للموتى، والإسراء والمعراج لنبيينا صلى الله عليه وسلم، لكن تلك المعجزات كانت أدلة لمن شهدها، ونصيب من لم يشهدا إنما هو الخبر الواجب التصديق، بخلاف القرآن، فإنه المعجزة الباقية، التي لم تزل حية بين الناس، لم يتبدل ولم يتغير، ولن يكون ذلك في يوم من الدهر.

وتحدّى الله عز وجلّ أرباب الفصاحة والبيان، بل جميع بني الإنسان، بل حتّى لو ظاهرهم عليه الجانّ، ولم يزل يتحدّى: أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو بمثل بعضه، فما فعلوا، ولن يفعلوا.

كما قال جلّ وعلا: (قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً)، وقال سبحانه: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ).

تحداهم بأن يأتوا بأقصر سورة من مثله، على مثاله في النظم والتأليف والإحكام، وفي المعاني والدلالات والأحكام، فعجزوا عن معارضته في كل ذلك، عن مماثلته بعباراتهم، أو مجاراته ببياناتهم، أو مسابقتها بقوانينهم وشرائعهم.

ذلك؛ لأنّه كلام ربّ العالمين تبارك وتعالى، وكلامه سبحانه من صفاته، وهو الذي لا مثل له في ذاته ولا في صفاته، كما قال: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) ، فكما لا مثل له سبحانه في سمعه، ولا مثل له في بصره، ولا مثل له في سائر صفاته، فكذا لا مثل له في كلامه.

فهذه- والله- هي العلة التي فارق بها كلامه سائر الكلام، وعجز لأجله الخلق عن معارضته، فليس كشرهم ولا كنشرهم، ولا كقوانينهم وشرائعهم، مع أن حروفه من حروف كلامهم، ومفرداته من مفردات قاموسهم، فلم يجدوا له في ألسنتهم مع الفصاحة، ولا في عقولهم مع الرّاحة، ما يمكنهم به أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه، فقد أبت قوانين الشّعر وأساليب النثر ولوائح الأنظمة أن يقايس بها ويجري عليها.

(وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ).

ويعسر أن تحدّ وجوه الإعجاز في القرآن العظيم، فكلّ شيء منه لا نظير له، فهو باهر في ألفاظه وأسلوبه، في تأليفه ونظمه، في بيانه وبلاغته، في تشريعه وحكمه التي حيّرت الألباب، في أنبائه وأخباره، في تاريخه وحفظه، في علومه التي لا تنقطع ولا تقف عند غاية. وقد أجمل وصفه وأحسنه من قال: «فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذّكر الحكيم، وهو الصّراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة؛ فإنّه تتلوّه ألسنة لم تفتق بالعربية، بل ربّما تعسر عليها قراءة سواه من الكلام العربيّ، أمّا هو فتنتلق به الألسنة مع عجمتها، فهو مُيسّر للذّكر، ولا يشبع منه العلماء، ولا تذهب لذّته بكثرة التكرار، بل هو في كل مرّة جديد، مهما تكرّرت تلاوته، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجنّ إذ سمعته حتّى قالوا: "إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ"، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم».

ومن الإعجاز القرآني:

الإعجاز اللّغويّ: وهو أبرز ما تحدّى به القرآن العرب في حياة النّبيّ صلى الله عليه وسلم، وهو التّحدّي في أبرز خصائصهم، فمع أنّه بلسانهم، وأتى بما لا يخرج عن وجوه فصاحتهم وأساليب بيانهم، وهم يومئذ في الذّروة في ذلك نشراً ونظماً.

ومنه الإعجاز الإخباريّ: فيما تضمّنه القرآن من الأنباء، ومنها:

١- الإخبار عن الغيب المطلق، كالخبر عن الله عزّ وجلّ وأسماؤه وصفاته، والملائكة، وصفة الجنّة وصفة النّار.

٢- الإخبار عن الأمور السّابقة، كالخبر عن بدء الخلق، وعن الأمم السّالفة.

٣- الإخبار عمّا يكون في مستقبل الزّمان، كالإخبار عن الشّيء قبل وقوعه في عهد النّبيّ صلى الله عليه وسلم، أو عمّا سيكون بعد ذلك.

٤- الإخبار عما تكنه النفوس وتخفيه الضمائر، مما لا يمكن أن يعلمه إلا الله، ولا يصل إلى علم النبي صلى الله عليه وسلم إلا بوحى الله.

ومنه الإعجاز التشريعي: فيما أودع الله في كتابه من القوانين التي تشهد في استقامتها وعدلها وصلاحها لكل زمان أنها من عند الله، وأن لا طاقة للخلق أن يوجدوا لها نظيراً، مهما بلغت العقول. ذلك أن التشريع مبني على تحقيق مصالح العباد في الدارين، ولا يحيط بتلك المصالح أحد من خلق الله؛ لقصور العلم، والنقص بالطبع، لكن الله سبحانه هو الخالق، فهو أعلم بخلقه وحاجتهم وما يكون به صلاحهم وفسادهم، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

ومنه الإعجاز العلمي: وذلك فيما بين الله في هذا الكتاب ودل عليه من الآيات في السماوات والأرض والأنفس، مما لم يكن ليحيط به علم بشر في عهد النبي صلى الله عليه وسلم من تلقاء نفسه، ثم يبقى الناس يكتشفون أسرارهم في الكون، والقرآن قد سبق به منذ دهر بعيد تصريحاً وتلويحاً، كان يتلوه على الناس نبي أمي، لم يدرس علوم الفضاء ولا البيئة ولا البحار ولا طبقات الأرض ولا الأجنة، لينبئ العالم أنه رسول رب العالمين، وأن هذا القرآن من علم الله الذي أحاط بكل شيء. وهو أكثر ما يدخل الناس في الإسلام.

وسمى الله تعالى القرآن العظيم بأسماء، ونعته بنعوت، منها: الكتاب، وكلام الله، والفرقان، والذكر.

أما تسمية القرآن بالمصحف، فهي تسمية ظهرت بعد أن جمع القرآن مكتوباً بين الدفتين. وجاءت من الصحف التي جمع بعضها إلى بعض فأصبحت على هيئة الكتاب.

وأما ما ذكر الله عز وجل من نعوت وأوصاف كلامه المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم فكثير، فهو: هدى، وشفاء، ورحمة، وموعظة، وذكرى، وبشرى، ونذير، وبيان، وروح، ونور، ومبين، ومفضل، ومبارك، وبصائر، وكريم، وعلي، وحكيم، وعزيز، ومجيد، وقيّم، وأحسن الحديث، وغير ذلك من الصفات الدالة على عظمته ومنزلته ورفيع قدره.

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ
وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)، (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا
مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ
تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ
يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ).

من معجزاته وخصاله عليه الصلاة

والسلام

يقول عن نفسه عليه الصلاة والسلام : أُعْطِيتُ
مَفَاتِيحَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ عَلَى الْعَدُوِّ بِالرُّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ
يَقْدِفُهُ اللَّهُ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِي، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ
تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا،

فَأَيْنَمَا أَذْرَكْتَنِي الصَّلَاةُ تَمَسَّحْتُ وَصَلَّيْتُ، وَكَانَ مَنْ
 قَبْلِي يُعَظِّمُونَ ذَلِكَ، إِنَّمَا كَانُوا يُصَلُّونَ فِي كَنَائِسِهِمْ
 وَبَيْعِهِمْ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ
 إِلَى النَّاسِ عَامَّةً، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ، وَالْخَامِسَةُ هِيَ مَا هِيَ،
 قِيلَ لِي: سَلْ، فَإِنَّ كُلَّ نَبِيٍّ قَدْ سَأَلَ، فَأَخَّرْتُ مَسْأَلَتِي
 إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ شَفَاعَةً لِأُمَّتِي وَهِيَ نَائِلَةٌ مِنْكُمْ إِنْ شَاءَ
 اللَّهُ مَنْ لَقِيَ اللَّهَ - عز وجل - لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَبَيْنَمَا
 أَنَا نَائِمٌ الْبَارِحَةَ، أُتِيتُ بِمِفْتَاحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ، فَوُضِعَتْ
 فِي يَدَيَّ".

وكان جميل الوجه حتى وصفوه بالبدر، وعرقه
 من أطيب الطيب، تنام عيناه ولا ينام قلبه، ويأخذ
 الهدية ولا يأكل الصدقة، ويرى المؤمنين في الصلاة

خلفه، ويواصل الصيام يبيت يطعمه ربه ويسقيه، عرفه أهل الكتاب في كتبهم باسمه ووصفه ومخرجه ومبعثه، وحاجّهم مراراً ونكسوا عن مباهلته، وصارع ركّانة فصرعه، وأمر جبل أحد أن يثبت لما اهتز، وخنق إبليس حتى أحس ببرد لعابه بين إصبعيه، وأعانه الله على شيطانه فأسلم، ومن رآه في المنام فقد رآه حقاً فإن الشيطان لا يتمثل به.

وشهد الله له أنه على خلق عظيم، وكان خلقه القرآن، وَمَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا أَمْرًا، وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ لَعْنَةٍ تُذَكَّرُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ يُؤْتَى إِلَيْهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ
 مِنْ صَاحِبِهِ، إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ - عز
 وجل - فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ، وَمَا خَيْرَ رَسُولٍ اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ
 كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَسَابَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَفْسِهِ عَلَى الْأَقْدَامِ ، وَخَصَفَ نَعْلَهُ
 بِيَدِهِ وَرَقَعَ ثَوْبَهُ بِيَدِهِ، وَرَقَعَ دَلْوُهُ وَحَلَبَ شَاتَهُ وَفَلَّى ثَوْبَهُ
 وَخَدَمَ أَهْلَهُ وَنَفْسَهُ، وَحَمَلَ مَعَهُمُ اللَّيْلَ فِي بِنَاءِ
 الْمَسْجِدِ، وَرَبَطَ عَلَى بَطْنِهِ الْحُجْرَ مِنَ الْجُوعِ تَارَةً وَشَبَعَ
 تَارَةً، وَأَضَافَ وَأَضِيفَ، وَاحْتَجَمَ فِي وَسْطِ رَأْسِهِ وَعَلَى
 ظَهْرِ قَدَمِهِ، وَاحْتَجَمَ فِي الْأَخْدَعَيْنِ وَالْكَاهِلِ وَهُوَ مَا بَيْنَ

الْكَتِفَيْنِ، وَتَدَاوَى وَكَوَى وَلَمْ يَكْتَوْ، وَرَقَى وَلَمْ يَسْتَرْقِ،
وَحَمَى الْمَرِيضَ مِمَّا يُؤْذِيهِ.

وجعل الله بعثته رحمة للعالمين، وما خاطبه في
كِتَابِهِ إِلَّا بِالْكِنَايَةِ الَّتِي هِيَ النُّبُوَّةُ وَالرَّسَالَةُ الَّتِي لَا أَجَلَ
مِنْهَا فَخْرًا، ونهى الناس أَنْ يُخَاطَبُوهُ بِاسْمِهِ، وندبهم إلى
تكنيته، ودافع الله عنه فبرأه في كتابه من كل ما رماه
به الكفار من السحر والكهانة والجنون، وزكاه بأنه لا
ينطق عن الهوى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيُ يُوحَى، وغفر له ما
تقدم من ذنبه وما تأخر، وأمر الناس بالتأسي به، وفرض
طاعته، وجعله أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وجعل
أزواجه أمهات للمؤمنين لا ينكحهن أحد بعده، وقرن
الله اسمه باسمه تعالى عند ذكر طاعته وأحكامه،

وأقسم الله بحياته، وأفرده بسيادة ولد آدم في القيامة، وحفظه من التدين بدين الجاهلية، ومن تعريضهم، ومن لهوهم، وحرست السماء من استراق السمع لثبوت بعثته وعلو دعوته^(١)، وأسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وعرج به إلى السماء، ورأى من آيات ربه الكبرى، وما زاغ بصره وما طغى، وعاد متواضعاً حريصاً على أمتة مشفقاً عليها بالمؤمنين رؤوف رحيم.

وانشق القمرُ بدُعائه فِلَقَتَيْنِ، وصبر على أذى المشركين وعنادهم بعدما رأوا الآيات والمعجزات،

(١) كَانَ الْجَنُّ يَسْتَمْعُونَ الْوَحْيَ فَيَسْتَمْعُونَ الْكَلِمَةَ فَيَزِيدُونَ فِيهَا عَشْرًا، فَيَكُونُ مَا سَمِعُوا حَقًّا، وَمَا زَادُوهُ بَاطِلًا، وَكَانَتِ النُّجُومُ لَا يُرْمَى بِهَا قَبْلَ ذَلِكَ، فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- كَانَ أَحَدُهُمْ لَا يَأْتِي مَقْعَدَهُ إِلَّا رُمِيَ بِشَهَابٍ يُحْرِقُ مَا أَصَابَ، فَشَكُّوا ذَلِكَ إِلَى إِبْلِيسَ، فَقَالَ: مَا هَذَا إِلَّا مِنْ أَمْرٍ قَدْ حَدَثَ. فَبَثَّ جُنُودَهُ، فَإِذَا هُمْ بِالنَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- يُصَلِّي بَيْنَ جَبَلَيْنِ نَخْلَةٍ، فَأَتَوْهُ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: هَذَا الْحَدَّثُ الَّذِي حَدَّثَ فِي الْأَرْضِ.

واستمع له نفر من الجن فأمنوا به، وعرض نفسه على القبائل ليبلغ دين الله، وأخبر بالمعجزات الغيبية كانتصار الروم على الفرس في بضع سنين، ولما تأمر الكفار على قتله حجه الله عنهم فلم يروه وأنجاه الله، وهاجر إلى المدينة، فبوركت غنم مر بها في طريقه، ونصره الله في الغار وحماه من المشركين وأنزل عليه سكينته وأيده بجنود من عنده، وصد عنه لحاق سراقه بن مالك، وصبر على مشقة الدعوة وجاهد المشركين، وشكت إليه بعض البهائم فنصرها وأوصى بها أصحابها، وتسابقت إليه الإبل يوم النحر أيها ينحر أولاً بيده الشريفة، وسلم عليه الحجر والشجر ليالي بعثته، وحن إليه الجذع الذي كان يستند إليه في

مسجده قبل أن يصنعوا له المنبر، وتبارك الطعام والماء بدعائه وبيده أو نفثه أو مجّه، وأهدت له يَهُودِيَّةٌ بِخَيْرِ شَاةٍ مَصْلِيَّةٍ (مشوية) سَمَّتْهَا فأخبرته الشاة أنها مسمومة، وتكلم الذئب شاهداً بنبوته، وسبح الحصى في يده، وقَدِمَ الشَّجَرُ إِلَيْهِ إذ دعاه، ونبع الماء من بين أصابعه، وشفى الله على يده جراحاً وأعيناً ومرضى، وأخبر بأشراط الساعة وما يكون إلى قيامها .

وما ترك خيراً إلا دل أُمته عليه، ولا شراً إلا حذرهما منه، وجعلها الله خير الأمم معصومة لا تجتمع على ضلالة، ولن تضل ما تمسكت بسنته وهديه، وشريعتها ناسخة لما قبلها، أمة شاهدة على الأمم يوم القيامة بتبليغ الرسل، وصفوفها كصفوف الملائكة، هو أول

شافع ومشفع، وصاحب الشفاعة العظمى، وأول من
تنشق الأرض عنه يوم القيامة، وأول من يقرع باب
الجنة وأول من يدخلها، وأكثر الأنبياء أتباعاً، أوتي
جوامع الكلم، وأنزل عليه القرآن معجزة خالدة إلى قيام
الساعة محفوظاً من التحريف والتبديل، تحدى الناس
أن يأتوا بسورة من مثله، وهو صاحب المقام المحمود
والحوض المورود.

الدَّعْوَةُ فِي مَكَّة

وَبَدَأَ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم- يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ
سِرًّا لِّئَلَّا يُفَاجِئَ أَهْلَ مَكَّةَ بِمَا يُهَيِّجُهُمْ عَلَيْهِ، فَجَعَلَ
يَعْرِضُ الْإِسْلَامَ عَلَى أَصْقِ النَّاسِ بِهِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ،
وَأَصْدِقَائِهِ. وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ زَوْجُهُ

خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ثُمَّ أَسْلَمَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ابْنُ عَمِّ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَلَمْ يَبْلُغِ الْحُلُمَ حِينَ أَسْلَمَ، وَكَانَ ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ، ثُمَّ أَسْلَمَ مَوْلَاهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ الْكَلْبِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْمَوَالِي

وَسَارَعَ إِلَى الْإِسْلَامِ بَنَاتُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَأَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ خَارِجِ بَيْتِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ.

وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مُؤَلَّفًا لِقَوْمِهِ، مُحِبًّا سَهْلًا، وَكَانَ أَنْسَبَ قُرَيْشٍ لِقُرَيْشٍ، وَأَعْلَمَ قُرَيْشٍ بِهَا وَبِمَا كَانَ فِيهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَكَانَ رَجُلًا تَاجِرًا، ذَا خُلُقٍ وَمَعْرُوفٍ، وَكَانَ رِجَالُ قَوْمِهِ يَأْتُونَهُ، وَيَأْلَفُونَهُ لِعَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الْأُمَرِ،

لِعِلْمِهِ، وَتِجَارَتِهِ، وَحُسْنِ مُجَالَسَتِهِ، فَجَعَلَ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ
تَعَالَى، وَإِلَى الْإِسْلَامِ مَنْ وَثِقَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ، مِمَّنْ يَغْشَاهُ،
وَيَجْلِسُ إِلَيْهِ. فَأَسْلَمَ بِدُعَائِهِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عُثْمَانُ بْنُ
عَفَّانَ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ،
وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدٍ اللَّهِ. فَكَانَ
هَؤُلَاءِ النَّفَرُ الَّذِينَ سَبَقُوا النَّاسَ هُمُ الرِّعِيلُ الْأَوَّلُ،
وَطَلِيعَةُ الْإِسْلَامِ. ثُمَّ بَدَأَ النَّاسُ يَتَسَامَعُونَ بِرِسَالَةِ
الْإِسْلَامِ، وَسَارَعَ الْفُقَرَاءُ إِلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ.

وَكَانَتْ الصَّلَاةُ الْمَفْرُوضَةُ قَبْلَ الْإِسْرَاءِ ثِنْتَيْنِ قَبْلَ
طُلُوعِ الشَّمْسِ فِي وَقْتِ الْفَجْرِ، وَقَبْلَ الْغُرُوبِ فِي وَقْتِ
الْعَصْرِ، {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ
الْغُرُوبِ}، وَقِيَامُ اللَّيْلِ كَانَ وَاجِبًا عَلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ

عليه وسلم-، وَعَلَى أُمَّتِهِ حَوْلًا، ثُمَّ نُسِخَ فِي حَقِّ الْأُمَّةِ
وُجُوبُهُ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَسَخَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ كُلَّهُ لَيْلَةَ
الْإِسْرَاءِ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ.

فكَانُوا إِذَا أَرَادُوا الصَّلَاةَ خَرَجُوا إِلَى الشَّعَابِ،
فَاسْتَخَفَّوْا فِيهَا بِصَلَاتِهِمْ عَنْ أَنْظَارِ قُرَيْشٍ.

وَبَيْنَمَا سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فِي نَفَرٍ
مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي
شِعْبٍ مِنْ شِعَابِ مَكَّةَ، إِذَا بِجَمَاعَةٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
يُظْهِرُونَ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ يُصَلُّونَ، فَاسْتَنَكَّرُوا عَمَلَهُمْ،
وَعَابَوْا عَلَيْهِمْ مَا يَصْنَعُونَ، فَلَمْ يَتْرَكْهُمْ الْمُشْرِكُونَ حَتَّى
قَاتَلُوهُمْ، وَاضْطَرَّ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يُدَافِعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ،
فَضْرَبَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَحَدَ

المُشْرِكِينَ بِلُحْيٍ بَعِيرٍ فَشَجَّهَهُ، فَكَانَ هَذَا أَوَّلَ دَمٍ أُهْرِيقَ
فِي الْإِسْلَامِ.

وَدَخَلَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَهِيَ تَبْكِي، فَقَالَتْ: هَؤُلَاءِ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ،
قَدْ تَعَاقَدُوا عَلَيْكَ لَوْ قَدْ رَأَوْكَ، . . . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "يَا بُنَيَّةُ، ائْتِينِي بِوَضُوءٍ"،
فَتَوَضَّأَتْ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِمُ الْمَسْجِدَ.

وَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَصْحَابُهُ
دَارَ الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ الْمَخْزُومِيِّ عَلَى الصَّفَا، وَكَانَتْ
بِمَعْزِلٍ عَنْ أَغْيُنِ الْمُشْرِكِينَ وَمَجَالِسِهِمْ، فَاتَّخَذَهَا مَرْكَزًا
لِلدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

واستمرت ثلاث سنّواتٍ، والدّعوة لم تزل سريّةً فرديّةً،
وخلال هذه الفترة تكوّنت جماعة من المؤمنين تقوم
على الأخوة والتّعاون.

ثم أمر بالجهر بالدّعوة لما نزل قوله تعالى: {فاصدع
بما تؤمر}. وقوله تعالى: {وانذر عشيرتك الأقربين} .
واخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين . فإن
عصوك فقل إني بريء مما تعملون}.

فصعد -صلى الله عليه وسلم- جبل الصّفا فقال:
"يا صباحاه" ، فقالوا: من هذا الذي يهتف ؟ ، قالوا:
محمّد، فاجتمعوا إليه، وجعل الرجل إذا لم يستطع أن
يخرج أرسل رسولاً لينظر، فجاء أبو لهب وقریش، فقال
رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "أرايتكم لو

أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغَيِّرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ
مُصَدِّقِي؟"، قالوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ:
"فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ"، فَقَالَ أَبُو
لَهَبٍ: تَبًا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ! إِلَهَذَا جَمَعْتَنَا؟، فَنَزَلَتْ
{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا
كَسَبَ . . .}.

وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قُرَيْشًا، فَعَمَّ
وَحْصًا، فَقَالَ: "يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! اشْتَرَوْا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي
عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ! لَا أُغْنِي عَنْكُمْ
مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي كَعْبٍ بَنِ لُؤَيٍّ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ
النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةٍ بَنِ كَعْبٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا
بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ

مَنَافٍ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ! أَنْقِذُوا
 أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ! يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ
 مِنَ النَّارِ، يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ
 اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةُ رَسُولِ اللَّهِ! لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ
 اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ! سَلِينِي مَا شِئْتَ مِنْ
 مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، أَنْقِذِي نَفْسَكَ مِنَ
 النَّارِ، فَإِنِّي لَا أُمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا
 سَأَبْلُغُهَا بِبِلَالِهَا".

الهجرة إلى الحبشة ومحاولة منعها

وفي رجب في السنة الخامسة من البعثة النبوية

(٨ ق هـ) خرج بعض الصحابة إلى الحبشة حيث أُذِنَ

لَهُمْ فِي الْهِجْرَةِ ، فَهَاجَرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا

وَأَرْبَعُ نِسْوَةٍ مِنْهُمْ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَرَجَ

وَمَعَهُ زَوْجَتُهُ رُقَيْيَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ. ثُمَّ أُذِنَ لَهُمْ فِي الْهِجْرَةِ ثَانِيًا إِلَى الْحَبَشَةِ فَهَاجَرَ

مِنَ الرِّجَالِ ثَلَاثَةٌ وَثَمَانُونَ رَجُلًا.

وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

- قَالَتْ: لَمَّا صَاقَتْ عَلَيْنَا مَكَّةَ، وَأُوذِيَ أَصْحَابُ

رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَفُتِنُوا، وَرَأَوْا مَا

يُصِيبُهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْفِتْنَةِ فِي دِينِهِمْ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -

صلى الله عليه وسلم - لَا يَسْتَطِيعُ دَفْعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ،
وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - فِي مَنَعَةٍ مِنْ
قَوْمِهِ وَمِنْ عَمِّهِ، لَا يَصِلُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا يَكْرَهُ مِمَّا يَنَالُ
أَصْحَابَهُ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - :
"إِنَّ بَارِضَ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، فَالْحَقُّوا
بِبِلَادِهِ، حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ"،
فَخَرَجْنَا إِلَيْهَا أَرْسَالًا حَتَّى اجْتَمَعْنَا، فَنَزَلْنَا بِخَيْرِ دَارٍ، وَإِلَى
خَيْرِ جَارٍ - النَّجَاشِيِّ - فَأَمَنَّا عَلَى دِينِنَا، وَلَمْ نَخْشَ مِنْهُ
ظُلْمًا وَعَبْدْنَا اللَّهَ، لَا نُؤْذِي وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ فَلَمَّا
رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّا قَدْ أَصَبْنَا دَارًا وَأَمْنًا ائْتَمَرُوا أَنْ يَبْعَثُوا إِلَى
النَّجَاشِيِّ فِينَا رَجُلَيْنِ جَلْدَيْنِ فَيُخْرِجَنَا مِنْ بِلَادِهِ، وَيُرَدِّدَنَا
عَلَيْهِمْ وَأَنْ يُهْدُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَا مِمَّا يُسْتَطَرَفُ مِنْ

مَتَاعِ مَكَّةَ، وَكَانَ مِنْ أَعْجَبِ مَا يَأْتِيهِ مِنْهَا إِلَيْهِ الْأَدَمُ^(١)
فَجَمَعُوا لَهُ أَدَمًا كَثِيرًا، وَلَمْ يَتْرَكُوا مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطَرِيقًا إِلَّا
أَهْدَوْا لَهُ هَدِيَّةً عَلَى حِدَةٍ، ثُمَّ بَعَثُوا بِذَلِكَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ
بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ، وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ
بْنِ وَائِلِ السَّهْمِيِّ، وَأَمَرُوهُمَا أَمْرَهُمْ، وَقَالُوا لَهُمَا: اذْفَعُوا
إِلَى كُلِّ بِطْرِيقٍ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمُوا النَّجَاشِيَّ فِيهِمْ، ثُمَّ
قَدَّمُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَاهُ، ثُمَّ سَلَوْهُ أَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَيْكُمْ قَبْلَ
أَنْ يُكَلِّمَهُمْ، فَخَرَجَا فَقَدِمَا عَلَى النَّجَاشِيِّ وَنَحْنُ عِنْدَهُ بِخَيْرِ
دَارٍ وَعِنْدَ خَيْرِ جَارٍ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطَرِيقٌ إِلَّا دَفَعَا
إِلَيْهِ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَا النَّجَاشِيَّ ثُمَّ قَالَا لِكُلِّ بِطْرِيقٍ
مِنْهُمْ: إِنَّهُ قَدْ صَبَأَ إِلَى بَلَدِ الْمَلِكِ مِنَّا غِلْمَانٌ سَفَهَاءُ

فَارْقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُّبْتَدِعٍ، لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتُمْ، وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَى الْمَلِكِ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ لِيُرِدَّهُمْ إِلَيْهِمْ، فَإِذَا كَلَّمْنَا الْمَلِكَ فِيهِمْ، فَأَشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَيْنَا وَلَا يُكَلِّمَهُمْ، فَإِنَّ قَوْمَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا لَهُمَا: نَعَمْ، ثُمَّ إِنَّهُمَا قَرَّبَا هَدَايَاهُمْ إِلَى النَّجَاشِيِّ، فَقَبِلَهَا مِنْهُمَا، ثُمَّ كَلَّمَاهُ فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّهُ قَدْ صَبَأَ إِلَى بَلَدِكَ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارْقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُّبْتَدِعٍ، لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ، وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَيْكَ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ، مِنْ آبَائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ لِيُرِدَّهُمْ إِلَيْهِمْ، فَهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ وَعَاتَبُوهُمْ فِيهِ فَقَالَتْ بَطَارِقَتُهُ: صَدَقُوا أَيُّهَا

الْمَلِكُ قَوْمُهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ
وَأَنَّهُمْ لَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ فَتَمَنَعَهُمْ بِذَلِكَ فَأَسْلَمَهُمْ
إِلَيْهِمَا، فَلِيرَدَّاهُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ وَقَوْمِهِمْ، فَغَضِبَ النَّجَاشِيُّ
ثُمَّ قَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا أَسْلِمُ قَوْمًا لَجْتُوْا إِلَى بِلَادِي، وَاخْتَارُوا
جَوَارِي عَلَى جَوَارِ غَيْرِي حَتَّى أَدْعُوهُمْ فَأَسْأَلَهُمْ مَاذَا
يَقُولُ هَذَانِ فِي أَمْرِهِمْ، فَإِنْ كَانُوا كَمَا تَقُولُونَ، أَسْلَمْتُهُمْ
إِلَيْهِمَا، وَرَدَدْتُهُمْ إِلَى قَوْمِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ
مَنْعْتُهُمْ مِنْهُمَا وَلَمْ أُخَلِّ مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ وَأَحْسَنْتُ
جَوَارَهُمْ مَا جَاوَرُونِي - قَالَتْ: وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ
عَبْدَ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ، وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ مِنْ أَنْ يَسْمَعَ
النَّجَاشِيُّ كَلَامَنَا - فَأَرْسَلَ النَّجَاشِيُّ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ
اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَدَعَاهُمْ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ

رَسُولُ النَّجَاشِيِّ اجْتَمَعُوا، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا تَقُولُونَ لِلرَّجُلِ إِذَا جِئْتُمُوهُ؟، قَالُوا: نَقُولُ وَاللَّهِ مَا عَلَّمَنَا وَمَا أَمَرَنَا بِهِ نَبِيُّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَائِنْ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنْ، فَلَمَّا جَاءُوهُ دَخَلُوا عَلَيْهِ وَقَدْ دَعَا النَّجَاشِيُّ أَسَاقِفَتَهُ فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ وَكَانَ الَّذِي يَكَلِّمُهُ مِنْهُمْ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَسَأَلَهُ النَّجَاشِيُّ، فَقَالَ لَهُ: مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي يَهُودِيَّةٍ وَلَا نَصْرَانِيَّةٍ وَلَا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ؟، فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا عَلَى الشِّرْكِ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَسْتَحِلُّ الْمَحَارِمَ بَعْضُنَا مِنْ بَعْضٍ، فِي سَفْكِ الدَّمَاءِ وَغَيْرِهَا، لَا نُحِلُّ شَيْئًا وَلَا نُحَرِّمُهُ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ،

وَنُسِيءُ الْجَوَارَ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى
 ذَلِكَ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ،
 وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوحِّدَهُ
 وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ
 الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرْنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ،
 وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجَوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ
 وَالِدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ
 الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرْنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا
 نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرْنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّيَامِ -
 قَالَتْ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ - فَصَدَّقْنَاهُ، وَآمَنَّا بِهِ،
 وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ، فَلَمْ نُشْرِكْ
 بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا

عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا، لِيَرُدُّونَا إِلَى
 عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا
 نَسْتَحِلُّ مِنَ الْحَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا عَلَيْنَا،
 وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ
 عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَيُّهَا الْمَلِكُ
 أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ، فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَكَ مِمَّا
 جَاءَ بِهِ عَنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟، فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ، فَقَالَ
 لَهُ النَّجَاشِيُّ: اقْرَأْهُ عَلَيَّ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ
 {كهيعص}، قَالَتْ: فَبَكَى وَاللَّهِ النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ
 لِحْيَتَهُ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ
 سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا وَاللَّهِ
 وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لِيَخْرُجَ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، إِنَّ هَذَا

الْكَلَامَ لِيُخْرِجُ مِنَ الْمَشْكَاةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا عِيسَى، انْطَلَقَا،
 فَوَاللَّهِ لَا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَدًا، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَخَرَجْنَا
 مِنْ عِنْدِهِ فَقَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: وَاللَّهِ لَا تَبْنِيَنَّ عَدَا
 وَلَا تَبْنِيَنَّ بَعْضُهُمْ عِنْدَهُ وَلَا تُخْبِرْنَهُ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ إِلَهَهُ
 الَّذِي يَعْبُدُ - عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ - عَبْدٌ ثُمَّ اسْتَأْصَلُ بِهِ
 خَضِرَاءُهُمْ قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ -
 وَكَانَ أَتَى الرَّجُلَيْنِ فِينَا -: لَا تَفْعَلْ، فَإِنَّ لَهُمْ أَرْحَامًا، وَإِنْ
 كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا، فَقَالَ عَمْرُو: وَاللَّهِ لَا تُخْبِرْنَهُ أَنَّهُمْ
 يَزْعُمُونَ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ قَالَتْ: فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ،
 دَخَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي
 عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلًا عَظِيمًا، فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلْهُمْ عَمَّا
 يَقُولُونَ فِيهِ، قَالَتْ: فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا يَسْأَلُنَا عَنْهُ - وَلَمْ يَنْزِلْ

بِنَا مِثْلُهُ - فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَاذَا
تَقُولُونَ فِي عِيسَى إِذَا سَأَلَكُم عَنْهُ؟، فَقَالُوا: نَقُولُ وَاللَّهِ
فِيهِ مَا قَالَ اللَّهُ، وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا كَانِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ
كَائِنٌ، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ وَعِنْدَهُ بَطَارِقَتُهُ، فَقَالَ لَنَا: مَا
تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؟ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي
طَالِبٍ: نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا، هُوَ عَبْدُ اللَّهِ
وَرَسُولُهُ، وَرُوحُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ
قَالَتْ: فَدَلَّى النَّجَاشِيُّ يَدَهُ إِلَى الْأَرْضِ فَأَخَذَ مِنْهَا عُودًا،
ثُمَّ قَالَ: مَا عَدَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا الْعُودَ،
فَتَنَاخَرْتُ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ، فَقَالَ: وَإِنْ
نَحَرْتُمْ وَاللَّهِ، اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ سَيُومٌ بِأَرْضِي - وَالسَّيُومُ:
الْأَمْنُونَ - مَنْ سَبَّكُمُ غُرَمَ، ثُمَّ مَنْ سَبَّكُمُ غُرَمَ، ثُمَّ مَنْ

سَبَّكُمُ غُرْمٌ، فَمَا أَحَبُّ أَنَّ لِي دَبْرًا ذَهَبًا، وَأَنِّي آذَيْتُ رَجُلًا
 مِنْكُمْ - وَالِدَبْرٌ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ: الْجَبَلُ - رُدُّوا عَلَيْهِمَا
 هَدَايَاهُمَا، فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِهَا، فَوَاللَّهِ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنِّي
 الرِّشْوَةَ حِينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي، فَأَخَذَ الرِّشْوَةَ فِيهِ وَمَا أَطَاعَ
 النَّاسَ فِيَّ، فَأُطِيعَهُمْ فِيهِ. قَالَتْ: فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ
 مَقْبُوحَيْنِ مَرْدُودَا عَلَيْهِمَا مَا جَاءَا بِهِ، وَأَقَمْنَا عِنْدَهُ بِخَيْرِ
 دَارٍ مَعَ خَيْرِ جَارٍ، فَوَاللَّهِ إِنَّا عَلَى ذَلِكَ، إِذْ نَزَلَ بِالنَّجَاشِيِّ
 مَنْ يُنَازِعُهُ فِي مُلْكِهِ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْنَا حُزْنًا قَطُّ كَانَ أَشَدَّ
 مِنْ حُزْنِ حَزْنَاهُ عِنْدَ ذَلِكَ، تَخَوُّفًا أَنْ يَظْهَرَ ذَلِكَ عَلَى
 النَّجَاشِيِّ، فَيَأْتِي رَجُلٌ لَا يَعْرِفُ مِنْ حَقِّنَا مَا كَانَ
 النَّجَاشِيُّ يَعْرِفُ مِنْهُ. وَسَارَ النَّجَاشِيُّ، وَبَيْنَهُمَا عُرْضُ
 النَّيْلِ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وسلم - : مَنْ رَجُلٌ يُخْرِجُ حَتَّى يَحْضُرَ وَقْعَةَ الْقَوْمِ، ثُمَّ يَأْتِينَا بِالْخَبَرِ؟، فَقَالَ الرَّبِيزُ بْنُ الْعَوَّامِ - رضي الله عنه - : أَنَا - وَكَانَ مِنْ أَحَدِثِ الْقَوْمِ سِنًّا - فَنفَخُوا لَهُ قِرْبَةً فَجَعَلَهَا فِي صَدْرِهِ، ثُمَّ سَبَحَ عَلَيْهَا، حَتَّى خَرَجَ إِلَى نَاحِيَةِ النَّيْلِ الَّتِي بِهَا مُلْتَقَى الْقَوْمِ، ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى حَضَرَهُمْ، قَالَتْ: وَدَعَوْنَا اللَّهَ لِلنَّجَاشِيِّ بِالظُّهُورِ عَلَى عُدُوِّهِ، وَالتَّمْكِينِ لَهُ فِي بِلَادِهِ، فَاسْتَوْثَقَ عَلَيْهِ أَمْرُ الْحَبَشَةِ، فَكُنَّا عِنْدَهُ فِي خَيْرِ مَنْزِلٍ، حَتَّى خَرَجَ مَنْ خَرَجَ مِنَّا رَاجِعًا إِلَى مَكَّةَ، وَأَقَامَ مَنْ أَقَامَ.

حصار الشَّعب

فَلَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى
الله عليه وسلم- قَدْ نَزَلُوا بَلَدًا، وَأَصَابُوا بِهِ أَمْنًا وَقَرَارًا،
وَأَنَّ النَّجَاشِيَّ قَدْ مَنَعَ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ، وَأَنَّ عُمَرَ بْنَ
الْخَطَّابِ -رضي الله عنه- قَدْ أَسْلَمَ، فَكَانَ هُوَ وَحَمْرَةُ
بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ -رضي الله عنه- مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صلى
الله عليه وسلم- وَأَصْحَابِهِ، وَجَعَلَ الْإِسْلَامُ يَفْشُو فِي
الْقَبَائِلِ، اجْتَمَعُوا وَاتَّمَمُوا بَيْنَهُمْ أَنْ يَكْتُبُوا كِتَابًا
يَتَعَاقِدُونَ فِيهِ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ، وَبَنِي الْمُطَّلِبِ: عَلَى أَنْ
لَا يُنْكِحُوا إِلَيْهِمْ، وَلَا يُنْكِحُوهُمْ، وَلَا يَبِيعُوهُمْ شَيْئًا، وَلَا
يَتَّبَعُوا مِنْهُمْ، وَأَنْ يُضَيِّقُوا عَلَيْهِمْ، وَلَا يُجَالِسُوهُمْ، وَلَا
يُخَالِطُوهُمْ حَتَّى يُسَلِّمُوا إِلَيْهِمْ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله

عليه وسلم- لِلْقَتْلِ. فَلَمَّا اجْتَمَعُوا لِذَلِكَ كَتَبُوهُ فِي
صَحِيفَةٍ، ثُمَّ تَعَاهَدُوا وَتَوَاقَعُوا عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ عَلَّقُوا
الصَّحِيفَةَ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ تَوْكِيدًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ. وَلَيْتَ
رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-، وَالْمُسْلِمُونَ فِي
الشَّعْبِ ثَلَاثَ سِنِينَ، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِمْ فِيهِنَّ الْبَلَاءُ وَالْجُهْدُ
فِي شَعْبِ أَبِي طَالِبٍ حَتَّى نُقِضَتِ الصَّحِيفَةُ وَفُكَ
الْحَصَارُ؛ وَذَلِكَ أَنَّ قَرِيشًا كَانُوا بَيْنَ رَاضٍ بِهَذَا الْمِيثَاقِ
وَكَارِهِ لَهُ، فَسَعَى فِي نَقْضِ الصَّحِيفَةِ مَنْ كَانَ كَارِهًا لَهَا،
فَاجْتَمَعُوا عِنْدَ الْحُجُونِ، وَتَعَاقَدُوا عَلَى الْقِيَامِ بِنَقْضِ
الصَّحِيفَةِ، وَأَبُو طَالِبٍ جَالِسٌ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ، إِذَا
جَاءَهُمْ لِأَنَّ اللَّهَ كَانَ قَدْ أَطْلَعَ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ عَلَى أَمْرِ الصَّحِيفَةِ، وَأَنَّهُ أَرْسَلَ عَلَيْهَا الْأَرْضَةَ،

فأكلت جميع ما فيها من جور وقطيعة وظلم إلا ذكر
 الله عز وجل، فأخبر بذلك عمه، فخرج إلى قريش
 فأخبرهم أن ابن أخيه قد قال كذا وكذا، فقام المطعم
 إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا
 (باسمك اللهم)، وما كان فيها من اسم الله فإنها لم
 تأكله. ثم نقض الصحيفة، وخرج رسول الله صلى الله
 عليه وسلم ومن معه من الشَّعب، وقد رأى المشركون
 آية عظيمة من آيات نبوته بإخباره عن حال الصحيفة،
 ولكنهم - كما أخبر الله عنهم : (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا
 وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ).

عام الحزن

وتوفيت زوج النبي صلى الله عليه وسلم، خديجة
التي آمنت به إذ كفر به الناس، وآوته إذ رفضه الناس،
وصدقته إذ كذبه الناس، ورزقه الله منها الولد. تُؤْفِيَتْ
قَبْلَ مَخْرَجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ
بِثَلَاثِ سِنِينَ. ^(١)

وبعد أن ألح المرض على أبي طالب عم النبي صلى
الله عليه وسلم وهو الذي كفله صغيراً، وآزره كبيراً،
وناصره على دعوته، وحماه من عوادي المشركين، دخل
عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل، فقال:

(١) فَلَبِثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَنَتَيْنِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ وَنَكَحَ
عَائِشَةَ وَهِيَ بِنْتُ سِتِّ سِنِينَ وَلَمْ يَبْنِ بِهَا. وَتَزَوَّجَ سُودَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ
الْقُرَشِيَّةَ، بِمَكَّةَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ.

"أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله". فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية: يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فلم يزالا يكلماه حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبدالمطلب. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لأستغفرن لك ما لم أنه عنه"، فنزلت: (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)، ونزلت: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ).

خروجه عليه الصلاة والسلام إلى

الطائف

وفي شوال سنة (٣ ق هـ) خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، وهي تبعد عن مكة نحو ستين ميلاً، سارهاً ماشياً على قدميه جيئةً وذهاباً، ومعه مولاه زيد بن حارثة، وكان كلما مر على قبيلة في الطريق دعاهم إلى الإسلام، فلم تجب إليه واحدة منها، فلما انتهى إلى الطائف عمد إلى رؤسائها فدعاهم فلم يستجيبوا له، فأقام بين أهل الطائف عشرة أيام، لا يدع أحداً من أشرافهم إلا جاءه وكلمه، فقالوا: اخرج من بلادنا. وأغروا به سفهاءهم، فلما أراد الخروج تبعه

سفهاؤهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به، حتى
اجتمع عليه الناس، فوقفوا له سَمَاطِينَ [أي صفين]
وجعلوا يرمونه بالحجارة، وبكلمات من السفه، ورجموا
عراقبه، حتى اختضب نعلاه بالدماء. وكان زيد بن
حارثة يقيه بنفسه حتى أصابه شَجَاج في رأسه، ولم
يزل به السفهاء كذلك حتى ألجأوه إلى حائط لعتبة
وشيبة ابني ربيعة على ثلاثة أميال من الطائف، ورجع
رسول الله صلى الله عليه وسلم في طريق مكة بعد
خروجه من الحائط كئيباً محزوناً كسير القلب، فلما بلغ
قرن المنازل بعث الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال،
يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة، فقال النبي
صلى الله عليه وسلم: "بل أرجو أن يخرج الله عز وجل

من أصلا بهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئاً". وفي هذا الجواب الذي أدلى به الرسول صلى الله عليه وسلم تتجلى رحمته وحرصه على أمته، وما كان عليه من خلق عظيم.

ولما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم من الطائف راجعاً إلى مكة، حتى إذا كان بنخلة^(١)، قام من جوف الليل يصلي، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تعالى، وكانوا سبعة نفر من جن أهل نصيبين^(٢)، فاستمعوا لتلاوة الرسول صلى الله عليه وسلم، فلما فرغ من صلاته، ولّوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا

(١) نَخْلَةٌ : مَوْضِعٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، على مسيرة ليلة من مكة.

(٢) نَصِيبِيْنُ: مَدِينَةٌ على جادة القوافل من الموصل إلى الشام بينها وبين الموصل ستة أيام.

وأجابوا إلى ما سمعوا، وبعد عدة أشهر من لقاء الوفد الأول من الجن برسول الله صلى الله عليه وسلم، جاء الوفد الثاني متشوقاً لرؤية الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، والاستماع إلى كلام رب العالمين.

بيعتا العقبة

وفي ليلة بيعة العقبة الأولى عام (٢ ق هـ) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَوْلَهُ عِصَابَةُ اثْنِي عَشَرَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ: "بَايَعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ

أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ".

وفي شوال من نفس العام تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة الصديقة رضي الله عنها وهي بنت ست سنين.^(١)

وكانت بيعة العقبة الثانية سنة (١ ق هـ) قال البراء بن عازب - رضي الله عنه -: أول من قدم علينا^(٢) من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - مصعب بن عمير وابن أم مكتوم - رضي الله عنهما - فجعلا يقرئان الناس القرآن، ثم قدم علينا بلال وسعد وعمار

(١) أي عقد نكاحه عليها، لكنه عليه الصلاة والسلام بنى بها بالمدينة في شوال في السنة الأولى من الهجرة وهي بنت تسع سنين، وكانت أحظى أزواجه عنده وأحبهم إليه، ولم يتزوج بكرة غيرها.

(٢) يعني إلى المدينة.

بن ياسر - رضي الله عنهم - ، ثم قدم عمر بن الخطاب
- رضي الله عنه - في عشرين من أصحاب النبي - صلى
الله عليه وسلم - .

قال جابر رضي الله عنه: مكث رسول الله صلى
الله عليه وسلم بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم
بعكاظ ومجنة^(١) وفي المواسم بمنى يقول: من يؤويني من
ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة. حتى أن الرجل
ليخرج من اليمن أو من مصر، فيأتيه قومه فيقولون:
احذر غلام قريش لا يفتنك. ويمشي بين رجالهم وهم
يشيرون إليه بالأصابع حتى بعثنا الله إليه من يثرب
فأويناه وصدقناه فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه

(١) كَانَتْ عُكَاظٌ وَمَجَنَّةٌ وَذُو الْمَجَازِ أَسْوَاقًا (موسمية) فِي الْجَاهِلِيَّةِ .

القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام ثم ائتمروا جميعاً فقلنا حتى متى نترك رسول الله صلى الله عليه وسلم يطرد في جبال مكة ويخاف فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم فواعدناه شعب العقبة فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين حتى توافينا فقلنا: يا رسول الله نبايعك. قال: تباعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم

وأبناءكم ولكم الجنة. قال فقمنا إليه فبايعناه. وأخذ بيده أسعد بن زرارة -وهو من أصغرهم- فقال: رويداً يا أهل يثرب فإننا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن إخراجَه اليوم مفارقة العرب كافةً وقتل خياركم وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جبينه، فبينوا ذلك فهو عذر لكم عند الله. قالوا: أمط عنا يا أسعد فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً ولا نسلبها أبداً. فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط، ويعطينا على ذلك الجنة.

انشقاق القمر

وسأل أهل مكة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يريهم آية؛ فأراهم انشقاق القمر بمكة فلقطين، حتى رأوا حراء بينهما، فستر الجبل فلقة ، وكانت فلقة فوق الجبل، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "اشهدوا، اشهدوا". فقال كفار أهل مكة: سحرنا محمد، هذا سِحْرٌ سَحَرَكُم به ابن أبي كبشة!، وقال بعضهم: لئن كان سحرنا فما يستطيع أن يسحر الناس. انْظُرُوا السُّقَّارَ؛^(١) فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق، وإن كانوا لم يروا ما رأيتم؛ فهو سحر سحركم به. فَقَدِمُوا فَسَأَلُوهُمْ فَقَالُوا قَدْ رَأَيْنَا قَدْ انْشَقَّ.

(١) يعني المسافرين خارج مكة.

فنزلت: {اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية

يعرضوا ويقولوا سحر مستمر }^(١).

(١) أشارت مقالات غربية معاصرة إلى أن الصور الحديثة للقمر أظهرت وجود حزام أخدودي يقطع القمر، افترض علماء الفلك أنه نتيجة لانفلاقه قديماً ثم عودته الى الالتحام ويطلق عليه اسم Lunar Rille، وذكرت مخطوطات قديمة من حضارة المايا في أمريكا الجنوبية وقوع انشقاق للقمر بالفعل -في نفس وقت وجود النبي محمد صلى الله عليه وسلم في مكة- وأن أغلب الأمم الموجودة حين ذاك قد رأته، بل إن بعض الشعوب قد غيرت تقويمها الفلكي بسببه ، وأن ذلك كان في القرن السابع (من ٦٠٠ إلى ٧٠٠م) حيث حدث تغيير شامل في التقويم في كل من الصين وبابل وكوبان التي توافق حسابات جانيس (وكوبان هي إحدى أشهر مدن حضارة المايا في العصر الحديث من ٣٠٠ إلى ٩٠٠م) ، وأن الانشقاق وافق العام ٦٢٣م ، وهو يوافق مكوث النبي صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة مباشرة. وبعض هذه المقالات تم حذفها لإثارتها ضجة كبيرة بأن ما فيها يوافق كلام المسلمين.

ونحن وإن حذفنا هذه المقالات والحقائق أو حرفت أو لم تكن؛ فلن تنقص من إيماننا شيئاً. فيكفينا يقيننا بكلام الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم.

رحلة الإسراء والمعراج (١ ق هـ)

وكانت في هذه الفترة رحلة الإسراء والمعراج، قال تعالى: {سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا، إنه هو السميع البصير}.

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: فرج سقف بيتي وأنا بمكة ليلة أسري بي من مسجد الكعبة فنزل جبريل - عليه السلام - ففرج صدري، ^(١) ثم غسله بماء زمزم حتى أنقى جوفه، ثم جاء بطست من ذهب، ممتلئ حكمة وإيماناً وعلماً فأفرغها في صدري

^(١) وفي رواية: (فشق جبريل ما بين نحره إلى لبتة، حتى فرغ من صدره وجوفه).

، ثم أطبقه. ثم أتيت بالبراق مسرجاً ، ملجماً، وهو دابة أبيض طويل ، فوق الحمار ، ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه ، فركبته، فاستصعب علي، فقال له جبريل: ما يملكك على هذا؟ أمحمد تفعل هذا؟ فوالله ما ركبك أحد أكرم على الله - عز وجل - منه. فافرض البراق عرقاً، فمررت على موسى وهو قائم يصلي في قبره ، عند الكثيب الأحمر، فلما انتهينا إلى بيت المقدس ، قال جبريل بإصبعه ، فخرق به الحجر ، وشد به البراق، فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء، ثم دخلت المسجد ، فصليت فيه ركعتين ، ثم خرجت، فجاءني جبريل بإناء من خمر ، وإناء من لبن، فقال: اشرب أيهما شئت ، فأخذت اللبن فشربته. فقال جبريل:

الحمد لله الذي هداك للفطرة ، لو أخذت الخمر ،
غوت أمتك.

وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء ، فحانت
الصلاة ، فأممتهم فلما فرغت من الصلاة ، قال قائل :
يا محمد ، هذا مالك صاحب النار فسلم عليه ، فالتفت
إليه ، فبدأني بالسلام ، ثم وضعت قدمي حيث توضع
أقدام الأنبياء من بيت المقدس ، ثم أخذ جبريل بيدي
، فخرج بي إلى السماء ، فلما جاء إلى السماء الدنيا ، قال
جبريل لخازن السماء : افتح ، قال : من هذا؟ ، قال :
هذا جبريل ، قال : معك أحد؟ ، قال : معي محمد ، قال :
أرسل إليه؟ - لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به في
الأرض حتى يعلمهم - قال : نعم ، فافتح . قال : مرحبا

به وأهلاً، فنعم المجيء جاء. واستبشر بي أهل السماء، فلما علونا السماء الدنيا ، إذا رجل عن يمينه أسودة^(١)، وعن يساره أسودة، وإذا نظر قبل يمينه تبسم، وإذا نظر قبل يساره بكى، فقلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا أبوك آدم. وهذه نسَم بنيه^(٢)، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، فسلم عليه، فسلمت عليه ، فرد السلام ، ثم قال: مرحبا بالابن الصالح ، والنبي الصالح. فإذا أنا في السماء الدنيا بنهرين يطردان،^(٣) فقلت: ما هذان النهران يا جبريل؟، قال:

(١) أسودة: أشخاص، والجمع من الناس، وكل شخص من إنسان وغيره يسمّى سواداً، وجمعه أسودة.

(٢) أي: أرواح ذريته.

(٣) يطرد: يجري ، ويتبع بعضه بعضاً.

هذا النيل والفرات عنصرهما، ثم مضى بي في السماء،
فإذا أنا بنهر آخر، عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد^(١) حافته
قباب الدر المجوف ، فقلت: ما هذا يا جبريل ؟ ، قال:
هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فضربت بيدي ، فإذا
طينه هو مسك أذفر^(٢)، ثم عرج بي إلى السماء الثانية،
فقلت الملائكة له مثل ما قالت له الأولى: من هذا؟ ،
قال: جبريل ، قالوا: ومن معك؟ ، قال: محمد ، قالوا:
وقد بعث إليه؟ ، قال: نعم ، قالوا: مرحباً به وأهلاً
ولنعم المجيء جاء، ففتح لنا ، فإذا أنا بابني الخالة ،
عيسى ابن مريم ، ويحيى بن زكرياء ، صلوات الله
عليهما، فقال جبريل: هذا يحيى وعيسى ، فسلم عليهما

(١) الزبرجد: حجر كريم من الجواهر ، وهو الزمرد .

(٢) الأذفر: الجيد إلى الغاية، رائحته شديدة .

، فسلمت ، فردا ، ثم قالوا: مرحبًا بالأخ الصالح ، والنبي الصالح، ودعوا لي بخير، وإذا عيسى رجل مربع الخلق، وفي رواية: (مبطن الخلق حديد البصر، إلى الحمرة والبياض ، سبط الرأس^(١))، كأنما خرج من ديماس - يعني الحمام -، أقرب الناس به شبها عروة بن مسعود الثقفي، ثم عرج بي جبريل إلى السماء الثالثة، فاستفتح فقيل: من أنت؟ ، قال: جبريل ، قيل: ومن معك؟ ، قال: محمد قيل: وقد بعث إليه؟ ، قال: قد بعث إليه، قيل: مرحبا به ، ولنعم المجيء جاء، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف - عليه السلام - وإذا هو قد أعطي شطر الحسن. فقال جبريل: هذا يوسف ، فسلم عليه ،

(١) وفي رواية: (جعد الرأس) .

فسلمت عليه ، فرد ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح ،
والنبي الصالح، ودعا لي بخير ، ثم عرج بنا جبريل إلى
السماء الرابعة ، فاستفتح ، فقيل: من هذا؟ ، قال:
جبريل، قيل: ومن معك؟ ، قال: محمد، قال: وقد بعث
إليه؟ ، قال: قد بعث إليه ، ففتح لنا، فإذا أنا بإدريس
- عليه السلام - فرحب ودعا لي بخير، قال الله - عز
وجل -: {ورفعناه مكانا علياً}. ثم عرج بنا إلى السماء
الخامسة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ ، قال:
جبريل، قيل: ومن معك؟ ، قال: محمد، قيل: وقد
بعث إليه؟ ، قال: قد بعث إليه ، ففتح لنا، فإذا أنا
بهارون - عليه السلام - فرحب ودعا لي بخير، ثم عرج
بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل - عليه

السلام - قيل: من هذا؟ ، قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ ، قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ ، قال: قد بعث إليه ، ففتح لنا، فإذا أنا بموسى - عليه السلام - ، فقال: مرحبا بالنبي الصالح ، والأخ الصالح ، قلت: من هذا؟ ، قال: هذا موسى، وإذا هو رجل ضرب^(١) أسحم، آدم ، كثير الشعر، رجل الرأس، جعد شديد الخلق كأنه من رجال شنوءة، ثم عرج بي إلى السماء السابعة، فلما جاوزت موسى بكى، فقيل: ما أبكاك؟، قال: يا رب ، هذا الغلام الذي بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر وأفضل مما يدخل من أمتي؟ رب لم أظن أن يرفع علي أحد، ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله، فاستفتح

(١) وفي رواية: (مضطرب). ومعنى "مضطرب" : ضرب، وهو النحيف الجسم.

جبريل ، فقيل: من هذا؟ ، قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ ، قال: محمد - صلى الله عليه وسلم - قيل: وقد بعث إليه؟ ، قال: نعم ، قال: مرحبا به ، فنعم المجيء جاء، ففتح لنا ، فإذا أنا بإبراهيم - عليه السلام - مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم، أشبه الناس به صاحبكم - يعني نفسه - قلت: من هذا؟ فقال جبريل: هذا أبوك ، فسلم عليه، قال: فسلمت عليه ، فرد السلام وقال: مرحبا بالابن الصالح ، والنبي الصالح، قال: ومررت بقوم لهم أظفار من نحاس ، يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ ، قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم

الناس^(١) ويقعون في أعراضهم ومررت على قوم تقرض شفاههم بمقاريض^(٢) من نار ، كلما قرضت وفت ، فقلت: من هؤلاء يا جبريل ؟ ، من هؤلاء ؟ ، قال: هؤلاء خطباء أمتك ، الذين يقولون ما لا يفعلون، ويقرؤون كتاب الله ولا يعملون به. الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم ، وهم يتلون الكتاب ، أفلا يعقلون؟. قال: ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ^(٣) اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك. ثم انطلق بي جبريل إلى سدرة المنتهى ، وإذا ورقها كآذان الفيلة ، وإذا ثمرها كأنه قلال هجر، يخرج من ساقها أربعة أنهار: نهران ظاهران، ونهران

(١) أي: يغتابون المسلمين.

(٢) المقاريض: جمع المقرض وهو المقص.

(٣) جمع جنبذة، وهو ما ارتفع من البناء.

باطنان، فسألت جبريل ، فقال: أما الباطنان ففي الجنة،
وأما الظاهران، فالنيل والفرات، قال: فلما غشيها من
أمر الله ما غشيها ، تحولت ياقوتًا ، أو زمردًا ، أو نحو
ذلك، وغشيها ألوان لا أدري ما هي، فما أحد من خلق
الله يستطيع أن ينعتها من حسنها. ثم عرج بي حتى
ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام، فأوحى الله
إليّ ما أوحى، ففرض على أمتي خمسين صلاة في كل
يوم وليلة. فرجعت بذلك حتى مررت على موسى،
فقال: يا محمد ، ماذا فرض ربك على أمتك؟، قلت:
فرض عليهم خمسين صلاة كل يوم وليلة، قال: ارجع
إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا يطيقون ذلك
، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم. فالتفت رسول

الله - صلى الله عليه وسلم - إلى جبريل كأنه يستشير
 في ذلك، فأشار إليه جبريل: أن نعم إن شئت ، فعلا به
 إلى الجبار، فقال وهو مكانه: يا رب، خفف عنا ، فإن
 أمتي لا تستطيع هذا، فوضع شطرها ، فرجعت إلى
 موسى ، فقلت: وضع شطرها ، فقال: راجع ربك، فإن
 أمتك لا تطيق ذلك ، فراجعته ، فوضع شطرها ،
 فرجعت إليه ، فقال: ارجع إلى ربك ، فإن أمتك لا
 تطيق ذلك يا محمد ، والله لقد راودت بني إسرائيل
 قومي على أدنى من هذا ، فضعفوا فتركوه، فأمتك
 أضعف أجسادا ، وقلوبا ، وأبدانا وأبصارا ، وأسماعا،
 فارجع فليخفف عنك ربك - كل ذلك يلتفت رسول
 الله - صلى الله عليه وسلم - إلى جبريل ليشير عليه ،

ولا يكره ذلك جبريل - فرفعه عند الخامسة ، فقال: يا رب، إن أمتي ضعفاء أجسادهم ، وقلوبهم وأسماعهم ، وأبصارهم ، وأبدانهم، فخفف عنا، فقال الجبار: يا محمد، قلت: لبيك وسعديك، قال: إنه لا يبدل القول لدي كما فرضته عليك في أم الكتاب، إني قد أمضيت فريضتي ، وخففت عن عبادي ، وأجزى الحسنة عشرًا، إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فهي خمسون في أم الكتاب ، وهي خمس عليك، ومن هم بحسنة فلم يعملها ، كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرًا ، ومن هم بسيئة فلم يعملها ، لم تكتب شيئًا ، فإن عملها ، كتبت سيئة واحدة، قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، فقال: كيف

فعلت؟ ، قلت: خفف الله عنا ، أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها، فقال موسى: قد والله راودت بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه ارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضاً، فقلت: يا موسى، قد والله استحييت من ربي مما اختلفت إليه ، قال: فاهبط باسم الله. فاستيقظ وهو في مسجد الحرام .

قال - صلى الله عليه وسلم - : لَمَّا كَانَ لَيْلَةُ أُسْرِي بِي، وَأَصْبَحْتُ بِمَكَّةَ، فَظَعْتُ بِأَمْرِي، وَعَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ مُكَذِّبِي فَقَعَدْتُ فِي الْحَجَرِ مُعْتَزِلًا حَزِينًا ، فَمَرَّ بِهِ عَدُوُّ اللَّهِ أَبُو جَهْلٍ، فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ كَالْمُسْتَهْزِي: هَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "نَعَمْ" قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: "إِنَّهُ أُسْرِي

بِی اللَّیْلَةِ " قَالَ: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: "إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟" قَالَ: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا؟ قَالَ: "نَعَمْ" قَالَ: فَلَمْ يُرِ أَنَّهُ يُكَذِّبُهُ، مَخَافَةً أَنْ يَجْحَدَهُ الْحَدِيثَ إِنْ دَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ تُحَدِّثُهُمْ مَا حَدَّثْتَنِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "نَعَمْ". فَقَالَ: هَيَّا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبٍ بْنِ لُؤَيٍّ حَتَّى قَالَ: فَانْتَفَضَتْ إِلَيْهِ الْمَجَالِسُ، وَجَاءُوا حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهِمَا، قَالَ: حَدَّثَ قَوْمَكَ بِمَا حَدَّثْتَنِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنِّي أُسْرِي بِی اللَّیْلَةِ، قَالُوا: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قَالُوا: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا؟" قَالَ: "نَعَمْ" قَالَ: فَمِنْ بَيْنِ مُصَفَّقٍ، وَمِنْ بَيْنِ وَاضِعٍ يَدُهُ عَلَى رَأْسِهِ، مُتَعَجِّبًا لِلْكَذِبِ زَعَمَ قَالُوا: وَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ

تَنَعَّتْ لَنَا الْمَسْجِدَ؟ وَفِي الْقَوْمِ مَنْ قَدْ سَافَرَ إِلَى ذَلِكَ
الْبَلَدِ، وَرَأَى الْمَسْجِدَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ: "فَذَهَبْتُ أَنْعْتُ، فَمَا زِلْتُ أَنْعْتُ حَتَّى سَأَلْتَنِي
قَرِيشَ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أَثْبِتْهَا، فَكَرِبْتُ
كَرْبَةً مَا كَرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ. فَرَفَعَهُ اللَّهُ لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ
فَنَعَّتُهُ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتُهُمْ
بِهِ". فَقَالَ الْقَوْمُ: أَمَّا النَّعْتُ فَوَاللَّهِ لَقَدْ أَصَابَ.

اتفاق مشركي قريش على قتل النبي

وَاسْتَمَرَّتْ الْفِتْرَةُ الْمَكِّيَّةُ مِنْذُ بَعَثَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً تَقْرِيْبًا. وَلَمَّا رَأَى الْمُشْرِكُونَ
أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ تَجَهَّزُوا
وَخَرَجُوا، وَحَمَلُوا وَسَاقُوا الذَّرَارِي وَالْأَطْفَالَ وَالْأَمْوَالَ

إلى الأوس والخزرج، أصابتهم الكآبة والحزن، وساورهم
القلق والهم. فاجتمع طواغيت مكة في دار الندوة
ليتخذوا قراراً حاسماً في هذا الأمر. وكان اجتماعهم في
شهر صفر بعد شهرين ونصف تقريباً من بيعة العقبة
وتوافد إلى هذا الاجتماع جميع نواب القبائل القرشية؛
ليتدارسوا خطة حاسمة، تكفل القضاء سريعاً على النبي
صلى الله عليه وسلم ودعوته، ولما جاءوا إلى دار الندوة
حسب الميعاد، اعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل،
ووقف على الباب، فقالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من
أهل نجد، سمع بالذي اتعدتم له فحضر معكم لسمع ما
تقولون، وعسى ألا يعدمكم منه رأياً ونصحاً. قالوا:
أجل، فادخل، فدخل معهم. وبعد أن تكامل الاجتماع،

ودار النقاش طويلاً. قال أبو الأسود: نخرجه من بين
أظهرنا وننفيه من بلادنا، ولا نبالي أين ذهب، ولا
حيث وقع، فقد أصلحنا أمرنا، وألفتنا كما كانت. قال
الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا
حسن حديثه، وحلاوة منطقته، وغلبته على قلوب
الرجال بما يأتي به، والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل
على حي من العرب، ثم يسير بهم إليكم - بعد أن يتبعوه
- حتى يطأكم بهم في بلادكم، ثم يفعل بكم ما أراد،
دبروا فيه رأياً غير هذا. قال أبو البختري: احبسوه في
الحديد وأغلقوا عليه باباً، ثم تربصوا به ما أصاب أمثاله
من الشعراء الذين كانوا قبله - زهيراً والنابعة - ومن
مضى منهم، من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم.

قال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، والله
لئن حبستموه - كما تقولون - ليخرجن أمره من وراء
الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلاؤشكوا أن
يثبوا عليكم، فينزعوهم من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى
يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره.
بعد ذلك تقدم كبير مجرمي مكة أبو جهل بن هشام
باقترح آثم وافق عليه جميع من حضر، قال أبو جهل:
والله إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد. قالوا: وما
هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتي
شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتي منهم
سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل
واحد، فيقتلوه، فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك

تفرق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل، فعقلناه لهم. قال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا رأي غيره. واتفقوا على ذلك.

قصة الهجرة

ثم أَذِنَ للنبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة، قال تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ، أَوْ يَقْتُلُوكَ ، أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}. وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَهَاجِرُ^(١) مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضِ

(١) أي: أمرني ربي بالهجرة.

بِهَا نُحْلُ، فَذَهَبَ وَهَلِي^(١) إِلَى أَنَّهَا الِيمَامَةُ أَوْ هَجَرُ، فَإِذَا
هِيَ الْمَدِينَةُ يَثْرِبُ ، أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى^(٢) ،
يَقُولُونَ: يَثْرِبُ، وَهِيَ الْمَدِينَةُ^(٣)، تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي
الْكِيرُ^(٤) خَبَثَ الْحَدِيدِ.

قالت عائشة - رضي الله عنها - : لم أعقل أبوي
قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا
فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طرفي النهار
بكرة وعشية ، فلما ابتلي المسلمون ، خرج أبو بكر

(١) أي: ظني واعتقادي.

(٢) أي: تغلبهم ، وكنى بالأكل عن الغلبة ، لأن الأكل غالب على المأكول.

أي: يفتح أهلها القرى ، فيأكلون أموالهم ، ويسبون ذراريهم.

(٣) أي: أن بعض المنافقين يسميها يثرب، واسمها الذي يليق بها

المدينة ، وفهم بعض العلماء من هذا كراهة تسمية المدينة يثرب ،

وقالوا: ما وقع في القرآن إنما هو حكاية عن قول غير المؤمنين.

(٤) الكير: قرية من جلد أو نحوه يستخدمها الحداد وغيره للنفخ في

النار لإذكاؤها .

مهاجرًا قبل الحبشة ، حتى إذا بلغ بَرَك الغَمَادِ^(١) ، لقيه
ابنُ الدَّغْنَةِ، وهو سيد القارة، فقال: أين تريد يا أبا بكر؟
فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض
فأعبد ربي. قال ابن الدغنة: إن مثلك يا أبا بكر لا يُخْرَجُ
وَلَا يُخْرَجُ ، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل
الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فارجع
فاعبد ربك ببلدك ، وأنا لك جار، فرجع ، وارتحل معه
ابنُ الدَّغْنَةِ، فطاف ابنُ الدَّغْنَةِ عشية في أشراف
قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله ، ولا يخرج،
أُتَخْرَجُونَ رجلا يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل
الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟، فلم

(١) (برك الغماد) - بكسر الباء وفتحها وإسكان الراء - في أقاصي
هجر، والغماد بضم الغين وكسرهما .

تكذب قريش بجوار ابن الدغنة، وقالوا لابن الدغنة: مر
أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصل فيها وليقرأ ما شاء،
ولا يؤذينا بذلك ، ولا يستعلن به، فإننا نخشى أن يفتن
نساءنا وأبناءنا، فقال ذلك ابنُ الدَّغِنَةِ لأبي بكر، فلبث
أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته، ولا
يقرأ في غير داره ، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدا بفناء
داره ، وكان يصلي فيه ، ويقرأ القرآن، فيقف عليه نساء
المشركين وأبنائهم ، وهم يعجبون منه وينظرون إليه
- وكان أبو بكر رجلا بكاء ، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن
- فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى
ابنِ الدَّغِنَةِ ، فقدم عليهم، فقالوا: إنا كنا أجرنا أبا بكر
بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى

مسجدا بفناء داره، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد
خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فانهه، فإن أحب أن
يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبي إلا أن
يعلن بذلك، فسله أن يرد إليك ذمتك، إنا قد كرهنا
أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان، قالت
عائشة: فأتى ابنُ الدَّغْنَةِ إلى أبي بكر، فقال: قد علمت
الذي عاقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما
أن ترجع إلي ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أنني
أخفرت في رجل عقدت له، فقال أبو بكر: فإني أرد
إليك جوارك، وأرضى بجوار الله - عز وجل - ورسول
الله - صلى الله عليه وسلم - يومئذ بمكة - فقال رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - للمسلمين: إني أريت دار

هجرتم ذات نخل بين لابتين - وهما الحرتان - ،
فهاجر من هاجر قبل المدينة، ورجع عامة من كان
هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة. فاستأذن أبو بكر النبي
- صلى الله عليه وسلم - في الخروج حين اشتد عليه
الأذى، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
" لا تعجل، لعل الله يجعل لك صاحبًا، فإني أرجو أن
يؤذن لي " ، فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟،
قال: " نعم، إني لأرجو ذلك " ، فحبس أبو بكر نفسه
على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليصحبه ،
وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر أربعة أشهر -
وهو الخبط - ، قالت: فلما أذن له في الخروج إلى
المدينة؛ أتاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذات

يوم ظهراً متقنعا في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فلما رآه أبو بكر جاء ظهراً قال: ما جاءنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في هذه الساعة ، إلا لأمر حدث ، فلما دخل عليه قال لأبي بكر: "أخرج من عندك " ، فقال أبو بكر: يا رسول الله ليس عليك عين، إنما هما ابتتاي - يعني عائشة وأسماء -، إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله ، قال: " فأني قد أذن لي في الخروج إلى المدينة "، فقال أبو بكر: يا رسول الله الصحبة؟، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " الصحبة "، قالت عائشة: فلقد رأيت أبا بكر يبكي من الفرح، قال: يا رسول الله، عندي ناقتان قد كنت أعددتهما للخروج فخذ إحداهما. قال: " قد أخذتها بالثمن ". فأعطى النبي -

صلى الله عليه وسلم - إحداهما - وهي الجدعاء - .
قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز، وضعنا لهما
سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة
من نطاقها، فربطت به على فم الجراب - فبذلك سميت
ذات النطاقين - ثم لحق رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - وأبو بكر بغار في جبل ثور فتواريا فيه ثلاث
ليال، يبيت عندهما عبدالله بن أبي بكر، وهو غلام
شاب ، ثقف ، لقن، فيرحل من عندهما سحرا،
فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمرا يُكادان
به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام،
ويرعى عليهما عامر بن فهيرة ، مولى أبي بكر ، منحة من
غنم، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء،

فبيتان في رسلهما^(١) ثم يسرح بها عامر بن فهيرة بغلس،
فلا يفطن به أحد من الرعاء، يفعل ذلك كل ليلة من
تلك الليالي الثلاث.

قال أبو بكر - رضي الله عنه -: نظرت إلى أقدام
المشركين على رءوسنا ونحن في الغار ، فقلت يا رسول
الله ، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه ؛ أبصرنا ، تحت قدميه
، فقال : " يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين ، الله ثالثهما ؟ " ،
قال تعالى : {إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه
الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول
لصاحبه لا تحزن ، إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته

(١) بِكْسُرِ الرَّاءِ: اللَّيْنِ.

عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم}.

واستأجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

وأبو بكر رجلاً من بني الدليل هادياً خريئاً^(١) قد غمس

يمين حلف في آل العاص بن وائل السهمي، وهو على

دين كفار قريش، فأمناه ، فدفعنا إليه راحلتيهما،

وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، فأتاهما براحتيهما

صبيحة ليال ثلاث، فارتحلا وانطلق معهما عامر بن

فهيرة ، والدليل الدليلي ، فأخذ بهم أسفل مكة، وهو

طريق الساحل.

(١) الخريت: الماهر في معرفة الطرق.

قال أبو بكر: أخذ علينا بالرصد ، فخرجنا ليلاً ،
فأسرينا ليلتنا ويومنا ، حتى أظهرنا وقام قائم الظهر ،
فعطش رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فرفعت
لنا صخرة طويلة لها ظل ، لم تأت عليه الشمس بعد ،
فنزّلنا عندها ، فأتيت الصخرة ، فسويت بيدي مكاناً
ينام فيه النبي - صلى الله عليه وسلم - في ظلها ، ثم
بسطت عليه فروة ، ثم قلت له : اضطجع يا رسول الله ،
فاضطجع النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ثم انطلقت
أنظر ما حولي ، هل أرى من الطلب أحداً ، فإذا أنا
براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة ، يريد منها الذي
أردنا ، فسألته : لمن أنت يا غلام ؟ ، فقال : لرجل من
قريش سماه ، فعرفته ، فقلت له : هل في غنمك من

لبن؟ ، قال: نعم ، قلت له: فهل أنت حالب لنا؟ ،
 قال: نعم. فأخذ شاة من غنمه ، فقلت له: انفض
 الضرع من التراب والشعر والقذى ، فحلب في قعب
 كثة من لبن ، ومعي إداوة من ماء عليها خرقة حملتها
 للنبي - صلى الله عليه وسلم - يرتوي منها ، يشرب
 ويتوضأ، فصببت على اللبن ، حتى برد أسفله، ثم أتيت
 به النبي - صلى الله عليه وسلم - فكرهت أن أوقفه،
 فقلت له حين استيقظ: اشرب يا رسول الله ، فشرب
 حتى رضيت. ثم ارتحلنا بعدما مالت الشمس، والقوم
 يطلبوننا ، فلم يدركنا أحد منهم غير سراقه بن مالك
 بن جعشم على فرس له. فقلت: أتينا يا رسول الله.
 فقال: " لا تحزن ، إن الله معنا".

فلما دنا ؛ التفت نبي الله - صلى الله عليه وسلم -
ودعا عليه فقال: اللهم اصصره "، فصصره الفرس، فساخ
في الأرض إلى بطنه ثم قامت تحمحم.

وحكى سراقه بن جعشم - رضي الله عنه - تلك
الواقعة وكان مشركاً قال: جاءنا رسل كفار قريش
يجعلون في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبي
بكر دية كل واحد منهما، من قتله أو أسره، فبينما أنا
جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج، أقبل رجل
منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقه ،
إني قد رأيت أنفا أسودة بالساحل، أراها محمداً
وأصحابه، قال سراقه: فعرفت أنهم هم، فقلت له:
إنهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً، انطلقوا

بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت،
فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة ،
فتحبسها علي، وأخذت رمحي، فخرجت به من ظهر
البيت فَحَطَطْتُ بِرُجِّهِ الْأَرْضَ وَخَفَضْتُ عَالِيَهُ حَتَّى
أَتَيْتُ فَرَسِي فَرَكْبَتَهَا فَرَفَعْتُهَا تَقْرِبَ بِي ^(١) ، حتى دنوت
منهم ، فعثرت بي فرسي فخررت عنها، ثم زجرتها
فنهضت فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة ، إذا
لأثر يديها عثان ^(٢) ساطع في السماء مثل الدخان،
فاستقسمت بالأزلام ، فخرج الذي أكره. فقامت
فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام،

(١) الزج : الحديد الذي في أسفل الرمح و (رفعته) أي أسرع بها
السير و (التقريب) السير دون العدو وفوق العادة. وهو أن ترفع
الفرس يديها وتضعهما معا .

(٢) العثان: هو الدخان من غير نار.

فاستقسمت بها ، أضرهم أم لا؟، فخرج الذي أكره أن
لا أضرهم فعصيت الأوامر ، وركبت فرسي تقرب بي ،
حتى إذا سمعت قراءة رسول الله - صلى الله عليه
وسلم- وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات-
ساخت يدا فرسي في الأرض ، حتى بلغتا الركبتين
فخررت عنها ، فناديتهم بالأمان فوقفوا.

ووثب سراقة عن فرسه ، وقال : يا محمد ، قد
علمت أن هذا عملك ، فادع الله أن يخلصني مما أنا
فيه ، ولك علي لأعمين على من ورائي ، وهذه كنانتي ،
فخذ سهمًا منها ، فإنك ستمر على إبلي وغلماني بمكان
كذا وكذا ، فخذ منها حاجتك ، قال : " لا حاجة لي

في إبلك"، ودعا له رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
فنجأ.

قال سراقه: فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في
نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر
أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت له: إن
قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد
الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزاني
ولم يسألاني شيئاً، فقلت: يا نبي الله، مرني بما شئت،
قال: " فقف مكانك، لا تترك أحداً يلحق بنا، أخف
عنا"، فسألته أن يكتب لي كتاب موادة آمن به، فأمر
عامر بن فهيرة فكتب لي في رقعة من أديم.

فجعل سراقه لا يلتقى أحداً إلا قال: قد كفيتكم ما هنا ، فلا يلتقى أحداً إلا رده ، قال أبو بكر: فوفى لنا. فكان أول النهار جاهدا على نبي الله - صلى الله عليه وسلم - وكان آخر النهار مسلحة له.

وأقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة وهو مردف أبا بكر - رضي الله عنه - وكان أبو بكر يختلف إلى الشام ، وكان يعرف ، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يعرف. فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر، من هذا الرجل الذي بين يديك؟ ، فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل، قال: فيحسب الحاسب أنه إنما يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير.

ثم مضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - و
لقي الزبير في ركب من المسلمين ، كانوا تجاراً قافلين من
الشام ، فكسا الزبير رسول الله - صلى الله عليه وسلم
- وأبا بكر ثياب بياض. وقدا المدينة ليلاً. ^(١) فلما دنوا
من المدينة، نزلا الحرة ، ثم بعثا رجلاً من أهل البادية
ليؤذن بهما الأنصار.

وكان المسلمون بالمدينة سمعوا مخرج رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - من مكة، فكانوا يغدون ^(٢) كل
غداة إلى الحرة فينتظرونه، حتى يردهم حر الظهيرة،

^(١) يعني: أنهم وصلوا إليها ليلاً، إلا أنهم أقاموا خارجاً منها، ثم
دخلوها نهاراً، وهذا مبينٌ في حديث عائشة رضي الله عنها . وقد أطبق
أهل السير على: أنه دخل المدينة يوم الإثنين، وأكثرهم يقول: لثنتي
عشرة ليلة خلت من ربيع الأول ضحى ذلك اليوم، وقيل: عند استواء
الشمس منه .

^(٢) الغدو: السير والذهاب أول النهار.

فانقلبوا يوماً بعدما أطلوا انتظارهم، فلما أورا إلى بيوتهم ، أوفى رجل من يهود على أطم^(١) من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب ، هذا جدكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح ، فتلقوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصاحبه بظهر الحرة ، واستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار، حتى انتهوا إليهما فجاءوا إلى نبي الله - صلى الله عليه وسلم - وأبي بكر فسلموا عليهما ، وقالوا: اركبا آمنين مطاعين، فركب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

(١) الأطم: البناء المرتفع.

وأبو بكر، وحفوا حولهما بالسلاح، فقبل في المدينة:
جاء نبي الله، جاء نبي الله - صلى الله عليه وسلم -
فأشرفوا ينظرون ويقولون: جاء نبي الله، جاء نبي الله.
فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني
عمرو بن عوف ، وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع
الأول، فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار
ممن لم ير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحيي
أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه،
فعرف الناس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عند
ذلك .

السنة الأولى من الهجرة (١هـ)

بناء مسجد قباء والمسجد النبوي

فلبت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في بني عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة وأسس المسجد الذي أسس على التقوى (مسجد قباء) ، وصلى فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم ركب راحلته ، فسار يمشي معه الناس ، فتنازعوا أيهم ينزل عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: " أنزل على بني النجار ، أخوال عبد المطلب ، أكرمهم بذلك " ثم أرسل إلى بني النجار ؛ فجاءوا متقلدي السيوف ، والنبي - صلى الله عليه وسلم - على راحلته ، وأبو بكر ردفه ،

وملاً بني النجار حوله ، فصعد الرجال والنساء فوق البيوت ، وتفرق الغلمان والخدم في الطرق ، ينادون: يا محمد ، يا رسول الله ، يا محمد ، يا رسول الله .

حتى بركت عند مسجد الرسول بالمدينة ، وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مِرْبَدًا^(١) لِلتَّمْرِ، لسهيل وسهل، غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين بركت به راحلته: "هذا إن شاء الله المنزل"، حتى ألقى بفناء أبي أيوب ، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحب أن يصلي حيث أدركته الصلاة ، ويصلي في مرابض الغنم، وإنه أمر ببناء المسجد، فأرسل إلى ملا

(١) الموضع الذي يجعل فيه التمر لينشف.

من بني النجار ، فقال: يا بني النجار، ثامنوني^(١)
بحائطكم^(٢) هذا "، قالوا: لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى
الله، ثم دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
الغلامين ، فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً ، فقالا:
لا، بل نهبه لك يا رسول الله ، فأبى رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه
منهما، فكان فيه قبور المشركين ، وفيه خرب ، وفيه
نخل، فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقبور
المشركين فنبشت، ثم بالخرب فسويت، وبالنخل
فقطع، فصفوا النخل قبلة المسجد ، وجعلوا

(١) أي: اذكروا لي ثمنه ، لأذكر لكم الثمن الذي أختاره ، قال ذلك على
سبيل المساومة ، فكأنه قال: ساوموني في الثمن .

(٢) الحائط: البستان من النخل ، إذا كان عليه حائط ، وهو الجدار .

عضادتيه^(١) الحجارة، فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يبنيه، وهم ينقلون الصخر، وطفق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ينقل معهم اللبن في بنيانه ويناولونه ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: "هذا الحمال لا حمال خبير، هذا أبر ربنا وأطهر، اللهم إن الأجر أجر الآخرة، فارحم الأنصار والمهاجرة، ألا إن العيش عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة". فتمثل بشعر رجل من المسلمين.^(٢) وهم يرتجزون^(٣) ويقولون: "اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة، فانصر الأنصار

(١) عضادتا الباب: الخشبستان المنصوبتان عن يمين الداخل منه وشماله.

(٢) وَهُوَ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أي: يتعاطون الرجز، وهو ضرب من الشعر.

والمهاجرة". ثم بناه مسجداً باللبن^(١) وسقفه مظلل
بجريد النخل، وعمده من خشب النخل.

فرح أهل المدينة

وما فرح أهل المدينة بشيء فرحهم برسول الله -
صلى الله عليه وسلم - حتى جعل الإمام والصبيان
يقولون: هذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد
جاء، ولعبت الحبشة لقدمه بحرابهم فرحاً بذلك،
وكانت الحبشة يَزْفُونُ^(٢) بين يدي رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - ويرقصون، ويتكلمون بكلام لا يفهمه

(١) اللبن: ما يعمل من الطين، يعني الطوب والآجر.

(٢) أي: يرقصون. من زفن يزفن: رقص.

، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " ما يقولون؟ " قالوا: يقولون: محمد عبد صالح.

وما عدوا^(١) من مبعث النبي - صلى الله عليه وسلم - ولا من وفاته ، ما عدوا إلا من مقدمه المدينة.

دعوة يهود المدينة للإسلام

فأقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يسير حتى نزل إلى جانب دار أبي أيوب ، فإنه ليحدث أهلها؛ إذ سمع به عبد الله بن سلام - رضي الله عنه - وهو في نخل لأهله يخترف لهم، فعجل أن يضع الذي يخترف لهم فيها ، فجاء وهي معه يسأله عن أشياء، فقال: إني

(١) يعني : ما أرخ الصحابة ببعثته عليه الصلاة والسلام ولا بوفاته، وإنما أرخوا بهجرته.

سألك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، فإن أخبرتني بها
 آمنت بك، وإن لم تعلمهن عرفت أنك لست بنبي.
 قال: " سل "، قال: ما أول أشراط الساعة؟ أول شيء
 يحشر الناس؟ وما أول ما يأكل منه أهل الجنة؟ ومن
 أين يشبه الولد أباه وأمه؟ من أي شيء ينزع الولد إلى
 أبيه، ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟، قال: " أخبرني
 بهن جبريل آنفاً. " فقال عبد الله: جبريل؟، قال: " نعم
 "، قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ رسول الله
 - صلى الله عليه وسلم - هذه الآية: {من كان عدواً
 لجبريل، فإنه نزل على قلبك بإذن الله}. أما أول أشراط
 الساعة، فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، تخرج
 من قبل المشرق، فتحشرهم إلى المغرب. وأما أول طعام

يأكله أهل الجنة ، فزيادة كبد حوت، رأس ثور وكبد حوت. وأما الشبه في الولد، فإن الرجل إذا غشي المرأة، فسبقها ماؤه ، كان الشبه له ، وإذا سبق ماؤها ، كان الشبه لها ". قال: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله، وأنت جئت بحق. ثم قال: يا رسول الله، قد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم؛ فأخبئي عندك وابعث إليهم واسألهم عني: أي رجل عبد الله بن سلام فيكم، قبل أن يعلموا أني قد أسلمت، فإن اليهود قوم بهت ، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم ، بهتوني عندك وقالوا في ما ليس في. فأرسل إليهم نبي الله - صلى الله عليه وسلم - فأقبلوا فدخلوا عليه، ودخل عبد الله البيت. فقال لهم رسول

الله - صلى الله عليه وسلم - : " يا معشر اليهود، ويلكم ، اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو ، إنكم لتعلمون ، أني رسول الله حقاً، وأني جئتكم بحق ، فأسلموا " ، فقالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم - : ما نعلمه. فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟ " ، قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وعالمنا وابن عالمنا ، وأفقهنا وابن أفقهنا وسيدنا وابن سيدنا. قال : " أفأريتم إن أسلم؟ " ، قالوا: حاشى لله ، ما كان ليسلم، قال : " أفأريتم إن أسلم؟ " ، قالوا: حاشى لله ، ما كان ليسلم، قال : " أفأريتم إن أسلم؟ " ، قالوا: حاشى لله ، ما كان ليسلم، قال : " يا ابن سلام، اخرج عليهم " ، فخرج عبد الله إليهم ، فقال: يا معشر

اليهود، اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو ، إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بحق، فقالوا: كذبت. فقال ابن سلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، فقالوا: هو شرنا وابن شرنا، وجاهلنا وابن جاهلنا. وانتقصوه ووقعوا فيه. فأخرجهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . فقال ابن سلام: هذا الذي كنت أتخوف منه يا رسول الله، قد أخبرتك يا رسول الله أن اليهود قوم بهت. ثم قال نبي الله - صلى الله عليه وسلم - : " أي بيوت أهلنا أقرب؟ " ، فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله ، هذه داري وهذا بابي، قال: " فانطلق فହିئ لنا مقیلاً " ، فقال أبو أيوب: قوما على بركة الله.

الدعاء للمدينة بالصحة

قالت عائشة - رضي الله عنها - : لما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة؛ اشتكى أصحابه فوعك^(١) أبو بكر وبلال وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، فاستأذنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في عيادتهم ، فأذن لي. قالت: فدخلت عليهم، فقلت: يا أبت ، كيف تجدك؟ فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرئ مصبح في أهله** والموت أدنى من شرك نعله
وسألت عامراً ، فقال:

(١) أي: أصابهم الوعك وهي الحمى.

إني وجدت الموت قبل ذوقه ** إن الجبان حتفه من فوقه

قالت: وسألت بلالاً كيف تجدك؟، فكان بلال إذا
أقلع عنه الحمى، يرفع عقيرته^(١) يقول:

ألا ليت شعري هل أبين ليلة ** بوادٍ^(٢) وحولي إذ خروجليل^(٣)

وهل أردن يوماً مياه مجنة^(٤) ** وهل يبدون لي شامة وطفيل^(٥)

ثم قال: اللهم العن شيبه بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة،
وأمية بن خلف ، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض
الوباء. قالت عائشة: فجئت رسول الله - صلى الله

(١) قال الأصمعي: أصله أن رجلاً انعقرت رجله، فرفعها على الأخرى
وجعل يصيح ، فصار كل من رفع صوته يقال: رفع عقيرته، وإن لم
يرفع رجله.

(٢) أي: بوادي مكة.

(٣) الجليل: نبت ضعيف ، يحشى به خصائص البيوت وغيرها .

(٤) موضع على أميال من مكة ، وكان به سوق .

(٥) جبلان بقرب مكة.

عليه وسلم - فأخبرته، فقال: " اللهم حبب إلينا المدينة
كحبنا مكة ، أو أشد. اللهم بارك لنا في صاعنا ، وفي
مدنا، وصححها لنا، وانقل حماها إلى الجحفة. ^(١)

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

وفي السنة الأولى من الهجرة آخى النبي صلى الله
عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم.
حتى كان يرث بعضهم بعضاً في أول الأمر. وأتاه
المهاجرون فقالوا: يا رسول الله ما رأينا قومًا أبذل من
كثير ولا أحسن مواساة من قليل من قوم نزلنا بين
أظهرهم لقد كفونا المؤنة وأشركونا في المهناً حتى لقد

^(١) قالت عائشة رضي الله عنها: فكان المولود يولد بالجحفة، فما يبلغ
الحلم حتى تصرعه الحمى، وقدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله، وكان
بطحان يجري نجلاً، تعني: ماء أجنا (أي: متغيراً).

خفنا أن يذهبوا بالأجر كله. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا ما دعوتكم الله لهم وأثنيتم عليهم.

كتابة الصحيفة

ونظم النبي صلى الله عليه وسلم العلاقات بين سكان المدينة، وكتب في ذلك صحيفة توضح التزامات جميع ساكني المدينة (المهاجرين والأنصار واليهود)، وتحدد الحقوق والواجبات، وأرسى بها قَوَاعِدَ مُجْتَمَعٍ جَدِيدٍ منظم يحكم بالحق والعدل، وتسمى بالكتاب والصحيفة والوثيقة.^(١)

(١) وقد وصفت بأنها أول دستور مكتوب في العالم ، وقد استفاد منها كثيراً الدستور الأمريكي الحديث. وجاء الإسلام بالعدالة الكاملة التي أدخلت كثيراً من الناس في دين الله. وأقر بعدالته حتى من عادى هذا الدين الحنيف. وقال المستشرقون عن كتاب "السير" لمحمد

ومما جاء فيها : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هَذَا
كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم-، بَيْنَ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَالْمَدِينَةِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ
فَلَحِقَ بِهِمْ، وَجَاهَدَ مَعَهُمْ: أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُونِ
النَّاسِ. الْمُهَاجِرُونَ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى رِبَاعَتِهِمْ يَتَعَاقِلُونَ
بَيْنَهُمْ، وَهُمْ يَفْدُونَ عَانِيَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ

بن الحسن تلميذ أبي حنيفة: "إنه أول كتاب في القانون الدولي".
وكتب نابليون قوانينه بعد الثورة الفرنسية واقتبس أكثرها من أحكام
الفقه المالكي خصوصاً مختصر خليل. وبعد معاناة تشريعية طويلة
اعترف القانوني الفرنسي الشهير "دوجي" بأفضلية الإسلام وأنه: "لا
يشرع للخلق إلا من خلقهم". وبين الإسلام الحقوق والحدود، وجعل
الحرية الصحيحة في طلب الحقوق وتحصيلها والوقوف عند
الحدود الشرعية، فلا ديموقراطية ولا ديكتاتورية ولا علمانية ولا
ليبرالية. ومن وسطية الإسلام أنه ليس فيه رهبانية مبتدعة ولا
إلحاد، ولا رأسمالية ولا شيوعية، ولا إباحية للفواحش ولا تعدد
مطلق للزوجات ولا إلزام بالاقتصار على زوجة واحدة يحرم غيرها.
وأهم واجبات الدولة الإسلامية إقامة الدين وعموده الصلاة، ولا
يصح تقسيم الإسلام إلى إسلام سياسي وإسلام غير سياسي؛ لأن
الإسلام دين مرتبط بالحياة.

الْمُؤْمِنِينَ، وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقِلُونَ
 مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى. أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتْرُكُونَ مُفْرَحًا بَيْنَهُمْ أَنْ
 يُعْطُوهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلِ. أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ
 الْمُتَّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ، أَوْ ابْتَغَى دَسِيعَةً ظُلْمٍ أَوْ إِثْمٍ
 أَوْ عُذْوَانٍ أَوْ فَسَادٍ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ
 جَمِيعًا، وَلَوْ كَانَ وَلَدٌ أَحَدِهِمْ. أَنَّ ذِمَّةَ اللَّهِ وَاحِدَةٌ، يُجْبَرُ
 عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَدْنَاهُمْ. الْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ مَوَالِي بَعْضٍ
 دُونَ النَّاسِ. مَنْ تَبَعَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ يَهُودٍ، فَإِنَّهُ لَهُ النَّصْرُ
 وَالْأَسْوَةُ، غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصِرِينَ عَلَيْهِمْ. أَنَّ
 الْمُؤْمِنِينَ يُبَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِمَا نَالَ دِمَاءَهُمْ فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ. مَنْ اعْتَبَطَ مُؤْمِنًا قَتْلًا عَنْ بَيِّنَةٍ، فَإِنَّهُ قَوْدٌ
 بِهِ، إِلَّا أَنْ يَرْضَى وَلِيُّ الْمَقْتُولِ. أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ كَافَّةٌ،

وَلَا يَحِلُّ لَهُمْ إِلَّا قِيَامٌ عَلَيْهِ. لَا يُجِيرُ مُشْرِكٌ مَالًا لِقُرَيْشٍ،
وَلَا نَفْسًا، وَلَا يَحُولُ دُونَهُ عَلَى مُؤْمِنٍ. لَا تُجَارُ قُرَيْشٌ وَلَا
مَنْ نَصَرَهَا. لِقُرَيْشٍ وَحُلَفَائِهَا حَقُّ الصُّلْحِ إِذَا طَلَبُوهُ، إِلَّا
مَنْ حَارَبَ مِنْهُمْ الْإِسْلَامَ. يُنْفِقُ الْيَهُودُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا
دَامُوا مُحَارِبِينَ. يَهُودُ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ،
لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ، وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ، مَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ،
إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ، فَإِنَّهُ لَا يُهْلِكُ إِلَّا نَفْسَهُ، وَأَهْلَ بَيْتِهِ.
لِبَقِيَّةِ الْيَهُودِ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، وَبَنِي الْحَارِثِ، وَبَنِي
سَاعِدَةَ، وَبَنِي جُشَمٍ، وَبَنِي الْأَوْسِ، وَبَنِي ثَعْلَبَةَ، وَجَفْنَةَ،
وَبَنِي الشُّطَيْبَةِ، مِثْلُ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ، وَأَنَّ بَطَانَةَ
يَهُودٍ كَأَنْفُسِهِمْ. لَا يُخْرِجُ مِنْ يَهُودٍ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِ مُحَمَّدٍ -
صلى الله عليه وسلم-. عَلَى الْيَهُودِ نَفَقَتُهُمْ، وَعَلَى

الْمُسْلِمِينَ نَفَقَتْهُمْ، وَإِنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ حَارَبَ
 أَهْلَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَأَنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْحَ وَالنَّصِيحَةَ،
 وَالْبِرَّ دُونَ الْإِثْمِ. الْمَدِينَةُ حَرَامٌ جَوْفُهَا لِأَهْلِ هَذِهِ
 الصَّحِيفَةِ، وَإِنَّ الْجَارَ كَالنَّفْسِ، غَيْرُ مُضَارٍّ، وَلَا آثِمٍ، وَإِنَّهُ
 لَا تَجَارُ حُرْمَةً إِلَّا بِإِذْنِ أَهْلِهَا. مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ
 الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ أَوْ اشْتِجَارٍ يُخَافُ فَسَادُهُ، فَإِنَّ
 مَرَدَّهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَإِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. أَنَّ بَيْنَهُمْ -أَيُّ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ- النَّصْرَ
 عَلَى مَنْ دَهَمَ الْمَدِينَةَ. مَنْ خَرَجَ آمِنٌ، وَمَنْ قَعَدَ آمِنٌ
 بِالْمَدِينَةِ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ أَوْ آثِمٌ، وَإِنَّ اللَّهَ جَارٌ لِمَنْ بَرَّ وَاتَّقَى،
 وَمُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

قصة سلمان الفارسي رضي الله عنه

وكان من الناس من يبحث عن الحق والهدى في تلك الفترة، ومنهم سلمان الفارسي حيث قال : كُنْتُ رَجُلًا فَارِسِيًّا مِنْ أَهْلِ أَصْبَهَانَ، مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ مِنْهَا يُقَالُ لَهَا: جِيٌّ، وَكَانَ أَبِي دِهْقَانَ قَرْيَتِهِ^(١)، وَكُنْتُ أَحَبَّ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حُبُّهُ إِيَّايَ حَتَّى حَبَسَنِي فِي بَيْتِهِ، أَلَا زِمُ النَّارِ، كَمَا تُحْبَسُ الْجَارِيَةُ، وَأَجْهَدْتُ فِي الْمَجُوسِيَّةِ، حَتَّى كُنْتُ قَطْنَ النَّارِ الَّذِي يُوقِدُهَا، لَا يَتْرُكُهَا تَحْبُو سَاعَةً، وَكَانَتْ لِأَبِي ضَيْعَةٌ عَظِيمَةٌ، فَشُغِلَ فِي بُنْيَانٍ لَهُ يَوْمًا، فَقَالَ لِي: يَا بُنَيَّ، إِنِّي قَدْ شُغِلْتُ فِي بُنْيَانٍ هَذَا الْيَوْمَ عَنْ ضَيْعَتِي، فَادْهَبْ فَاطْلِعْهَا، وَأَمْرِي

(١) رئيس القرية أو رئيس الفلاحين بالقرية.

فِيهَا بَعْضُ مَا يُرِيدُ فَخَرَجْتُ أُرِيدُ ضَيْعَتَهُ، فَمَرَرْتُ
بِكَنِيسَةٍ مِنْ كَنَائِسِ النَّصَارَى، فَسَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ فِيهَا
وَهُمْ يُصَلُّونَ - وَكُنْتُ لَا أَدْرِي مَا أَمْرُ النَّاسِ لِحُبْسِ أَبِي
إِيَّايَ فِي بَيْتِهِ - فَلَمَّا مَرَرْتُ بِهِمْ وَسَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ،
دَخَلْتُ عَلَيْهِمْ أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُونَ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ، أَعْجَبَنِي
صَلَاتُهُمْ وَرَغَبْتُ فِي أَمْرِهِمْ، فَقُلْتُ: هَذَا وَاللَّهِ خَيْرٌ مِنْ
الدِّينِ الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ فَوَاللَّهِ مَا تَرَكْتُهُمْ حَتَّى غَرَبَتْ
الشَّمْسُ، وَتَرَكْتُ ضَيْعَةَ أَبِي وَلَمْ آتِهَا، فَقُلْتُ لَهُمْ: أَيْنَ
أَصْلُ هَذَا الدِّينِ؟، فَقَالُوا: بِالشَّامِ، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى
أَبِي - وَقَدْ بَعَثَ فِي طَلَبِي، وَشَغَلْتُهُ عَنْ عَمَلِهِ كُلِّهِ - فَلَمَّا
جِئْتُهُ قَالَ: أَيُّ بَنِيٍّ، أَيْنَ كُنْتَ؟، أَلَمْ أَكُنْ عَاهِدْتُ إِلَيْكَ
مَا عَاهِدْتُ؟، فَقُلْتُ: يَا أَبَتِ، مَرَرْتُ بِنَاسٍ يُصَلُّونَ فِي

كَنِيْسَةٍ لَهُمْ، فَأَعْجَبَنِي مَا رَأَيْتُ مِنْ دِينِهِمْ، فَوَاللَّهِ مَا
زِلْتُ عِنْدَهُمْ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَقَالَ: أَيُّ بُنَيَّ، لَيْسَ
فِي ذَلِكَ الدِّينِ خَيْرٌ، دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ خَيْرٌ مِنْهُ،
فَقُلْتُ: كَلَّا وَاللَّهِ، إِنَّهُ خَيْرٌ مِنْ دِينِنَا، فَخَافَنِي، فَجَعَلَ
فِي رِجْلِي قَيْدًا ثُمَّ حَبَسَنِي فِي بَيْتِهِ، وَبَعَثْتُ إِلَى النَّصَارَى
فَقُلْتُ لَهُمْ: إِذَا قَدِمَ عَلَيْكُمْ رَكْبٌ مِنَ الشَّامِ مِنْ تُجَّارِ
النَّصَارَى فَأَخْبِرُونِي بِهِمْ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِمْ رَكْبٌ مِنْ
الشَّامِ مِنْ تُجَّارِ النَّصَارَى أَخْبَرُونِي بِهِمْ، فَقُلْتُ لَهُمْ: إِذَا
قَضَوْا حَوَائِجَهُمْ وَأَرَادُوا الرَّجْعَةَ إِلَى بِلَادِهِمْ فَأَذِنُونِي
بِهِمْ، فَلَمَّا أَرَادُوا الرَّجْعَةَ إِلَى بِلَادِهِمْ أَخْبَرُونِي بِهِمْ،
فَأَلْقَيْتُ الْحَدِيدَ مِنْ رِجْلِي، ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُمْ حَتَّى
قَدِمْتُ الشَّامَ، فَلَمَّا قَدِمْتُهَا قُلْتُ: مَنْ أَفْضَلُ أَهْلِ هَذَا

الدِّينِ؟، فَقَالُوا: الْأَسْقَفُ^(١) فِي الْكَنِيسَةِ، فَجِئْتُهُ فَقُلْتُ:
 إِنِّي قَدْ رَغِبْتُ فِي هَذَا الدِّينِ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ مَعَكَ
 أَخْدُمُكَ فِي كَنِيسَتِكَ، وَآتَعَلَّمُ مِنْكَ، وَأُصَلِّيَ مَعَكَ،
 قَالَ: فَادْخُلْ، فَدَخَلْتُ مَعَهُ، فَكَانَ رَجُلَ سَوْءٍ، يَأْمُرُهُمْ
 بِالصَّدَقَةِ وَيُرْغِبُهُمْ فِيهَا، فَإِذَا جَمَعُوا إِلَيْهِ مِنْهَا أَشْيَاءَ،
 اكْتَنَزَهُ لِنَفْسِهِ، وَلَمْ يُعْطِهِ الْمَسَاكِينَ، حَتَّى جَمَعَ سَبْعَ
 قِلَالٍ مِنْ ذَهَبٍ وَوَرِقٍ، فَأَبْغَضْتُهُ بَغْضًا شَدِيدًا لِمَا رَأَيْتُهُ
 يَصْنَعُ، ثُمَّ مَاتَ، فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ النَّصَارَى لِيَدْفِنُوهُ،
 فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا كَانَ رَجُلَ سَوْءٍ، يَأْمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ
 وَيُرْغِبُكُمْ فِيهَا فَإِذَا جِئْتُمُوهُ بِهَا، اكْتَنَزَهَا لِنَفْسِهِ، وَلَمْ
 يُعْطِ الْمَسَاكِينَ مِنْهَا شَيْئًا، فَقَالُوا: وَمَا عَلِمَكَ بِذَلِكَ؟،

(١) الأسقف : رئيس دين في النصارى ، فوق القسيس ودون المطران .

فَقُلْتُ لَهُمْ: أَنَا أَذُلُّكُمْ عَلَى كَنْزِهِ، فَأَرَيْتُهُمْ مَوْضِعَهُ،
فَاسْتَخْرَجُوا مِنْهُ سَبْعَ قِلَالٍ مَمْلُوءَةٍ ذَهَبًا وَوَرِقًا، فَلَمَّا
رَأَوْهَا قَالُوا: وَاللَّهِ لَا نَذِفْنُهُ أَبَدًا، فَصَلَبُوهُ، ثُمَّ رَجَمُوهُ
بِالْحِجَارَةِ ثُمَّ جَاءُوا بِرَجُلٍ آخَرَ، فَجَعَلُوهُ بِمَكَانِهِ، قَالَ
سَلَمَانُ: فَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا يُصَلِّيَ الْخُمْسَ أَرَى أَنَّهُ أَفْضَلُ
مِنْهُ، وَلَا أَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا، وَلَا أَرْغَبُ فِي الْآخِرَةِ، وَلَا أَذَابُ
لَيْلًا وَنَهَارًا مِنْهُ، قَالَ: فَأَحْبَبْتُهُ حُبًّا لَمْ أَحِبَّهُ مَنْ قَبْلَهُ،
وَأَقَمْتُ مَعَهُ زَمَانًا، ثُمَّ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا
فُلَانُ، إِنِّي كُنْتُ مَعَكَ، وَأَحْبَبْتُكَ حُبًّا لَمْ أَحِبَّهُ مَنْ
قَبْلَكَ، وَقَدْ حَضَرَكَ مَا تَرَى مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، فَإِلَى مَنْ تُوصِي
بِي؟، وَمَا تَأْمُرُنِي؟، فَقَالَ: أَيُّ بَنِيَّ، وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا
الْيَوْمَ عَلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ، لَقَدْ هَلَكَ النَّاسُ، وَبَدَّلُوا

وَتَرَكُوا أَكْثَرَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ، إِلَّا فَلَانًا بِالْمَوْصِلِ، فَهُوَ عَلَى
مَا كُنْتُ عَلَيْهِ، فَالْحَقُّ بِهِ، فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِّبَ، لَحِقْتُ
بِصَاحِبِ الْمَوْصِلِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا فَلَانُ، إِنَّ فَلَانًا أَوْصَانِي
عِنْدَ مَوْتِهِ أَنْ أَلْحَقَ بِكَ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّكَ عَلَى أَمْرِهِ، فَقَالَ
لِي: أَقِمْ عِنْدِي، فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ، فَوَجَدْتُهُ خَيْرَ رَجُلٍ، عَلَى
أَمْرِ صَاحِبِهِ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ
قُلْتُ لَهُ: يَا فَلَانُ، إِنَّ فَلَانًا أَوْصَى بِي إِلَيْكَ، وَأَمَرَنِي
بِاللُّحُوقِ بِكَ، وَقَدْ حَضَرَكَ مِنَ اللَّهِ - عز وجل - مَا
تَرَى، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي؟، وَمَا تَأْمُرُنِي؟، فَقَالَ: أَيُّ بُنَيَّ،
وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ رَجُلًا عَلَى مِثْلِ مَا كُنَّا عَلَيْهِ إِلَّا فَلَانًا
بِنَصِيبَيْنِ، فَالْحَقُّ بِهِ، فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِّبَ، لَحِقْتُ
بِصَاحِبِ نَصِيبَيْنِ، فَجِئْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبْرِي وَمَا أَمَرَنِي بِهِ

صَاحِبِي، فَقَالَ لِي: أَقِمْ عِنْدِي، فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ، فَوَجَدْتُهُ
 عَلَى أَمْرِ صَاحِبِيهِ، فَأَقَمْتُ مَعَ خَيْرِ رَجُلٍ، فَوَاللَّهِ مَا لَيْتَ
 أَنْ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ، فَلَمَّا حَضَرَ قُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ، إِنَّ
 فُلَانًا كَانَ أَوْصَى بِي إِلَى فُلَانٍ، ثُمَّ أَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَيْكَ،
 فَأِلَى مَنْ تُوصِي بِي؟، وَمَا تَأْمُرُنِي؟، فَقَالَ: أَيُّ بَنِيَّ، وَاللَّهِ
 مَا أَعْلَمُ أَحَدًا يَقِي عَلَى أَمْرِنَا آمُرَكَ أَنْ تَأْتِيَهُ إِلَّا رَجُلًا
 بَعْمُورِيَّةَ، فَإِنَّهُ بِمِثْلِ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ، فَإِنْ أَحْبَبْتَ فَاتِهِ، فَإِنَّهُ
 عَلَى أَمْرِنَا، قَالَ: فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِّبَ، لَحَقْتُ بِصَاحِبِ
 عَمُورِيَّةَ، وَأَخْبَرْتُهُ خَبْرِي، فَقَالَ لِي: أَقِمْ عِنْدِي، فَأَقَمْتُ
 مَعَ رَجُلٍ عَلَى هَدْيِ أَصْحَابِهِ وَأَمْرِهِمْ، وَاکْتَسَبْتُ حَتَّى
 كَانَ لِي بَقَرَاتٌ وَغَنِيْمَةٌ، ثُمَّ نَزَلَ بِهِ أَمْرُ اللَّهِ، فَلَمَّا حَضَرَ
 قُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ، إِنِّي كُنْتُ مَعَ فُلَانٍ، فَأَوْصَى بِي فُلَانٌ

إِلَى فُلَانٍ، وَأَوْصَى بِِي فُلَانٌ إِلَى فُلَانٍ، ثُمَّ أَوْصَى بِِي فُلَانٌ
إِلَيْكَ، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِِي؟ وَمَا تَأْمُرُنِي؟، فَقَالَ: أَيُّ
بُنَيَّ، وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُهُ أَصْبَحَ عَلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ
النَّاسِ أَمْرُكَ أَنْ تَأْتِيَهُ، وَلَكِنَّهُ قَدْ أَظْلَكَ زَمَانُ نَبِيِّ هُوَ
مَبْعُوثٌ بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ، يُخْرِجُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ، مُهَاجِرًا إِلَى
أَرْضٍ بَيْنَ حَرَّتَيْنِ بَيْنَهُمَا نَخْلٌ، بِهِ عِلَامَاتٌ لَا تَخْفَى: يَأْكُلُ
الْهَدِيَّةَ، وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ وَبَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ، فَإِنْ
اسْتَطَعْتَ أَنْ تَلْحَقَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ فَافْعَلْ، قَالَ: فَلَمَّا مَاتَ
وَعُيِّبَ، مَكَثْتُ بِعَمُورِيَّةَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَمُكُثَ، ثُمَّ مَرَّ
بِي نَفَرٌ مِنْ كُلِّ تُجَّارًا، فَقُلْتُ لَهُمْ: تَحْمِلُونِي إِلَى أَرْضِ
الْعَرَبِ وَأُعْطِيكُمْ بَقَرَاتِي هَذِهِ وَغَنِيمَتِي هَذِهِ؟، فَقَالُوا:
نَعَمْ، فَأَعْطَيْتُهُمُوهَا وَحَمَلُونِي، حَتَّى إِذَا قَدِمُوا بِِي وَادِي

الْقُرَى، ظَلَمُونِي، فَبَاعُونِي مِنْ رَجُلٍ مِنْ يَهُودَ عَبْدًا،
فَكُنْتُ عِنْدَهُ، وَرَأَيْتُ النَّخْلَ، فَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ الْبَلَدَ
الَّذِي وَصَفَ لِي صَاحِبِي، فَبَيْنَمَا أَنَا عِنْدَهُ، قَدِمَ عَلَيْهِ
ابْنُ عَمٍّ لَهُ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَأَتْبَاعَنِي مِنْهُ،
فَاخْتَمَلَنِي إِلَى الْمَدِينَةِ، فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُهَا،
فَعَرَفْتُهَا بِصِفَةِ صَاحِبِي، فَأَقَمْتُ بِهَا، وَبَعَثَ اللَّهُ
رَسُولَهُ، فَأَقَامَ بِمَكَّةَ مَا أَقَامَ، لَا أَسْمَعُ لَهُ بِذِكْرِ، مَعَ مَا أَنَا
فِيهِ مِنْ شُغْلِ الرِّقِّ، ثُمَّ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَوَاللَّهِ إِنِّي
لَفِي رَأْسِ عَذْقٍ لِسَيِّدِي أَعْمَلُ فِيهِ بَعْضَ الْعَمَلِ،
وَسَيِّدِي جَالِسٌ، إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ عَمٍّ لَهُ حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِ
فَقَالَ: يَا فَلَانُ، قَاتَلَ اللَّهُ بَنِي قَيْلَةَ، وَاللَّهِ إِنَّهُمْ الْآنَ
لَمُجْتَمِعُونَ بِقُبَاءَ عَلَى رَجُلٍ قَدِمَ عَلَيْهِمْ مِنْ مَكَّةَ الْيَوْمَ،

يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَبِيٌّ، قَالَ: فَلَمَّا سَمِعْتُهُ أَخَذْتَنِي الْعُرْوَاءُ^(١)،
 حَتَّى ظَنَنْتُ سَأَسْقُطُ عَلَى سَيِّدِي، فَنَزَلْتُ عَنْ النَّخْلَةِ،
 فَجَعَلْتُ أَقُولُ لِابْنِ عَمِّهِ: مَاذَا تَقُولُ؟، مَاذَا تَقُولُ؟،
 فَغَضِبَ سَيِّدِي، فَلَكَمَنِي لَكُمَّةً شَدِيدَةً، ثُمَّ قَالَ: مَا لَكَ
 وَلِهَذَا؟، أَقْبِلْ عَلَى عَمَلِكَ، فَقُلْتُ: لَا شَيْءَ، إِنَّمَا أَرَدْتُ
 أَنْ أَسْتَشِيبَ عَمًّا قَالَ، فَاسْتَأْذَنْتُ مَوْلَاتِي فَقُلْتُ لَهَا:
 هَبِي لِي يَوْمًا، فَقَالَتْ: نَعَمْ، فَأَنْطَلَقْتُ فَاحْتَطَبْتُ حَطَبًا
 فَبِعْتُهُ، فَاشْتَرَيْتُ طَعَامًا، فَلَمَّا أُمْسَيْتُ أَخَذْتُهُ ثُمَّ أَتَيْتُ
 بِهِ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ بِقُبَاءَ، فَدَخَلْتُ
 عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ رَجُلٌ صَالِحٌ، وَمَعَكَ
 أَصْحَابٌ لَكَ غُرَبَاءُ ذَوُو حَاجَةٍ، وَهَذَا شَيْءٌ كَانَ عِنْدِي

(١) أَي: الرُّعْدَةُ.

لِلصَّدَقَةِ، فَرَأَيْتُكُمْ أَحَقَّ بِهِ مِنْ غَيْرِكُمْ، فَقَرَّبْتُهُ إِلَيْهِ،
 فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - لِأَصْحَابِهِ:
 " كُلُوا، وَأَمْسَكَ هُوَ يَدُهُ فَلَمْ يَأْكُلْ ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي:
 هَذِهِ وَاحِدَةٌ، ثُمَّ انْصَرَفْتُ عَنْهُ فَجَمَعْتُ شَيْئًا، وَتَحَوَّلَ
 رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - إِلَى الْمَدِينَةِ ، ثُمَّ
 جِئْتُ بِهِ فَقُلْتُ: إِنِّي رَأَيْتُكَ لَا تَأْكُلُ الصَّدَقَةَ، وَهَذِهِ
 هَدِيَّةٌ أَكْرَمْتُكَ بِهَا، فَأَكَلَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -
 مِنْهَا، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ فَأَكَلُوا مَعَهُ ، فَقُلْتُ فِي
 نَفْسِي: هَاتَانِ اثْنَتَانِ، ثُمَّ جِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ بِبَقِيعِ الْغَرْقَدِ، وَقَدْ تَبَعَ جَنَازَةً مِنْ
 أَصْحَابِهِ، عَلَيْهِ شِمْلَتَانِ لَهُ، وَهُوَ جَالِسٌ فِي أَصْحَابِهِ،
 فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَدْرْتُ أَنْظُرُ إِلَى ظَهْرِهِ، هَلْ أَرَى

الْحَاتِمَ الَّذِي وَصَفَ لِي صَاحِبِي، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ -
 صلى الله عليه وسلم - اسْتَدْرَجْتُهُ ؛ عَرَفَ أَنِّي أُسْتَشِيتُ
 فِي شَيْءٍ وَوُصِفَ لِي، فَأَلْقَى رِذَاءَهُ عَنْ ظَهْرِهِ ، فَنَظَرْتُ إِلَى
 الْحَاتِمِ فَعَرَفْتُهُ، فَأَنْكَبْتُ عَلَيْهِ أَقْبَلُهُ وَأَبْكِي، فَقَالَ لِي
 رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - : "تَحَوَّلْ"^(١)،
 فَتَحَوَّلْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ حَدِيثِي، فَأَعْجَبَ
 رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - أَنْ يَسْمَعَ ذَلِكَ
 أَصْحَابُهُ.

(١) أي : تعال وانتقل لجهة الأمام.

مشروعية الأذان

وفي السنة الأولى من الهجرة شُرِعَ الأذان، فقد
 كَانَ الْمُسْلِمُونَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَجْتَمِعُونَ
 فَيَتَحَيَّنُونَ الصَّلَاةَ لَيْسَ يُنَادَى لَهَا فَتَكَلَّمُوا يَوْمًا فِي ذَلِكَ
 فَقَالَ بَعْضُهُمْ اتَّخِذُوا نَاقُوسًا مِثْلَ نَاقُوسِ النَّصَارَى وَقَالَ
 بَعْضُهُمْ بَلْ بُوقًا مِثْلَ قَرْنِ الْيَهُودِ . قال عبد الله بن زيد
 : لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناقوس
 يعمل ليضرب به للناس لجمع الصلاة طاف بي وأنا نائم
 رجل يحمل ناقوسًا في يده فقلت يا عبد الله أتبيع
 الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ فقلت: ندعو به إلى
 الصلاة. قال: أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك؟
 فقلت له: بلى. فقال: تقول: الله أكبر، الله أكبر، الله

أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله. ثم استأخر عني غير بعيد، ثم قال: وتقول إذا أقمت الصلاة: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، حي على الصلاة، حي على الفلاح، قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله. فلما أصبحت أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما رأيت فقال: "إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت، فليؤذن به، فإنه أندى صوتًا منك". فقمتم

مع بلال فجعلت ألقيه عليه ويؤذن به. فسمع ذلك
عمر بن الخطاب وهو في بيته فخرج يجر رداءه ويقول
: والذي بعثك بالحق يا رسول الله لقد رأيت مثل ما
رأى. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فلله
الحمد".

السنة الثانية من الهجرة

بدء الغزوات

وابتدأت الغزوات في السنة الثانية من الهجرة،
فأول ما غزا النبي صلى الله عليه وسلم الأبواء في شهر
صفر ، والأبواء بينها وبين الجحفة من جهة المدينة
ثلاثة وعشرون ميلاً. وكان ذلك على رأس اثني عشر

شهرًا من مقدمه المدينة يريد قريشًا، فوادع بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة من كنانة وادعه رئيسهم مجدي بن عمرو الضمري ورجع بغير قتال. وكان قد استعمل على المدينة سعد بن عباد. ولما وصل إلى الأبواء بعث عبيدة بن الحارث في ستين رجلاً فلقوا جمعًا من قريش فتراموا بالنبل فرمى سعد بن أبي وقاص بسهم وكان أول من رمى بسهم في سبيل الله.

ثم كانت غزوة بواط في ربيع الثاني حيث سار الصحابة مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ بَطْنِ بَوَاطٍ وَهُوَ يَطْلُبُ الْمَجْدِيَّ بْنَ عَمْرِو الْجُهَنِيِّ. وبواط: جبل من جبال جهينة، بقرب ينبع.

ثم غزا غزوة العُشَيْرَةِ، فنزل العشيرة من بطن ينبع
فأقام بها جمادى الأولى وليالي من جمادى الآخرة،
وإدع فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة ثم رجع
إلى المدينة ولم يلق كيدًا.

تحويل القبلة إلى الكعبة

ثم كان تحويل القبلة في شهر شعبان، فإنه لما قَدِمَ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ صَلَّى نَحْوَ بَيْتِ
الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُحِبُّ
أَنْ يُوجَّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ
وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا) فَوُجَّهَ نَحْوَ
الْكَعْبَةِ. وَصَلَّى مَعَهُ رَجُلٌ الْعَصْرَ ثُمَّ خَرَجَ فَمَرَّ عَلَى قَوْمٍ
مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ هُوَ يَشْهَدُ أَنَّهُ صَلَّى مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ

عليه وسلم وَأَنَّهُ قَدْ وُجِّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ. فَأُخْرِفُوا وَهُمْ
رُكُوعٌ فِي صَلَاةِ الْعَصْرِ.

فرض الصيام وزكاة الفطر

ويذكر أنه فرض في شهر شعبان صيام رمضان،
وفي رمضان فرضت زكاة الفطر. فهي واجبة على كل
مسلم حر أو عبد، ذكر أو أنثى، صغير أو كبير من
المسلمين قادر عليها. والحكمة منها تطهير الصائم مما
عسى أن يكون قد وقع فيه أثناء الصيام من لغو أو
رفث، وإعانة للفقراء على إدخال السرور عليهم في يوم
العيد.

غزوة بدر

ووقعت في رمضان منها غزوة بدر (الكبرى) حيث ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم نفراً من المسلمين لاعتراض قافلة قريش القادمة من الشام التي كان يرأسها أبو سفيان الذي علم بعد ذلك بخروج المسلمين، فأرسل إلى قريش يستنفرها لاستنقاذ تجارتهم كما غير طريقه لإنقاذ التجارة، ثم التقى المسلمون والمشركون عند ماء بدر وهي مكان بين مكة والمدينة وهو أقرب إليها من مكة وكان عدد المشركين يقارب الألف وعدد المسلمين أكثر من ثلاثمائة وبدأت المعركة بالمبارزة المشهورة ثم بدأ القتال وكان شديداً. وقتل فيها صناديد قريش كأبي جهل، وأمية بن خلف وغيرهما

حتى بلغ قتلاهم سبعون رجلاً ومثلهم من الأسرى
وقتل أربعة عشر من المسلمين، وقيل ستة عشر. فكان
النصر الكبير حليف المسلمين. حيث نصرهم الله تعالى
وأرسل ملائكة تقاتل معهم، أما الأسرى فأشار عمر
بقتلهم وأشار أبو بكر بفدائهم فأخذ النبي صلى الله عليه
وسلم برأي أبي بكر ولكن الوحي نزل موافقاً لرأي عمر،
أما الغنائم فنزلت فيها سورة الأنفال.

وفيه توفيت رقية بنت سيد البشر صلى الله عليه
وسلم، وهي زوج عثمان بن عفان. وكانت رقية أولاً
عند عتبة بن أبي لهب فلما بعث النبي صلى الله عليه
وسلم أمر أبو لهب ابنه بطلاقها فتزوجها عثمان
وهاجر بها إلى الحبشة. ولما ندب رسول الله الناس

للخروج لاعتراض قافلة أبي سفيان أمر عثماناً أن يبقى عند رقية يمرضها ويعتني بها وكان سبب تخلفه هو أمر النبي صلى الله عليه وسلم له بالبقاء وقد أسهم له النبي صلى الله عليه وسلم كما أسهم لمن حضر بدرًا ثم ما لبثت رقية في مرضها حتى توفيت رضي الله عنها.

ثم وقعت غزوة بني قينقاع في منتصف شوال، وكانوا حلفاء عبد الله بن أبي ابن سلول وكانوا أشجع اليهود وكانوا صاغة، فلما أظهروا صريح العداء والبغضاء، وخالفوا عهد الصحيفة، وخاف النبي صلى الله عليه وسلم خيانتهم، استخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر، وعقد لواء أبيض حملة حمزة بن عبد المطلب، وحاصره خمس عشرة ليلة إلى هلال ذي القعدة

فاشتد عليهم الحصار ونزلوا على حكم الرسول، على أن له أموالهم، وأن لهم النساء والذرية، فأمر بهم فكتفوا ثم كلمه فيهم حليفهم عبد الله بن أبي بن سلول، فأمر بهم أن يجلوا عن المدينة وتولى أمر جلائهم عبادة بن الصامت، فلحقوا بأذرعات، وتولى قبض أموالهم محمد بن مسلمة الأنصاري حيث تم تقسيمها بين الصحابة بعد إخراج الخمس للرسول صلى الله عليه وسلم. وفي ذي الحجة وقعت غزوة السويق (قرقرة الكدر) وكان أبو سفيان حين رجع إلى مكة، ورجع فل قريش من بدر؛ نذر أن لا يمس رأسه ماء من جنابة، حتى يغزو محمدًا، فخرج في مائتي راكب من قريش لتبر يمينه فسلك النجدية حتى نزل بصدرقناة إلى جبل يقال له:

نيب، من المدينة على بريد أو نحوه. ثم خرج من الليل حتى أتى بني النضير تحت الليل، فأتى حيي بن أخطب فضرب عليه بابه، فأبى أن يفتح له وخافه، فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم، وكان سيد بني النضير في زمانه ذلك وصاحب كنزهم، فاستأذن عليه فأذن له فقراه وسقاه وبطن له من خبر الناس، ثم خرج في عقب ليلته حتى أتى أصحابه فبعث رجالاً من قريش فأتوا ناحية منها يقال لها العريض، فحرقوا في أصوار من نخل بها، ووجدوا رجالاً من الانصار وحليفاً له في حرث لهما فقتلوهما، وانصرفوا راجعين. فنذر بهم الناس، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلبهم. فبلغ قرقرة الكدر، ثم انصرف راجعاً وقد فاته أبو سفيان وأصحابه،

ووجد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أزواداً
كثيرة قد ألقاها المشركون يتخفون منها وعامتها
سويق، فسميت غزوة السويق.

السنة الثالثة من الهجرة

مقتل كعب بن الأشرف

وفي ربيع الأول من السنة الثالثة من الهجرة كان
مَقْتَلُ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، حيث نقض عهد صحيفة
المدينة والتي نصت على : ألا تُجار قريش ولا تُنصر على
المسلمين. فساند قريشاً في حربها على المسلمين
وحرّضها على قتال المسلمين، وأفتاها أنها أهدى سبيلاً
من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنشد الأشعار في

هجاء الصحابة وتحدث بالفاحشة في أشعاره عن نساء
 الصحابة. فنقض الميثاق وأعلن حربه على المسلمين،
 وكان مِنْ أَشَدِّ الْيَهُودِ عَدَاوَةً لِلرَّسُولِ وَأَصْحَابِهِ، وَكَانَ
 أَبُوهُ عَرَبِيًّا مِنْ قَبِيلَةِ طِيٍّ، مِنْ بَنِي نَبْهَانَ، وَكَانَ أَصَابَ
 دَمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَتَى الْمَدِينَةَ فَحَالَفَ بَنِي النَّضِيرِ،
 فَشَرَفَ فِيهِمْ، وَتَزَوَّجَ عَقِيلَةَ بِنْتِ أَبِي الْحَقِّيقِ، فَوَلَدَتْ
 لَهُ كَعْبًا، وَكَانَ طَوِيلًا جَسِيمًا، وَكَانَ شَاعِرًا مُجِيدًا، سَادَ
 يَهُودَ الْحِجَازِ بِكَثْرَةِ مَالِهِ، فَكَانَ يُعْطِي أَحْبَارَ يَهُودِ
 وَيَصِلُهُمْ، وَكَانَ حِصْنُهُ شَرْقِيَّ جَنْوبِ الْمَدِينَةِ فِي
 خَلْفِيَّاتِ دِيَارِ بَنِي النَّضِيرِ .

وَكَانَ مِنْ عَدَاوَتِهِ أَنَّهُ لَمَّا بَلَغَهُ خَبْرُ انْتِصَارِ
 الْمُسْلِمِينَ، وَقَتْلُ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ فِي بَدْرٍ، قَالَ: أَحَقُّ

هَذَا؟ هَؤُلَاءِ أَشْرَافُ الْعَرَبِ وَمُلُوكُ النَّاسِ، وَاللَّهِ لَئِنْ
كَانَ مُحَمَّدٌ أَصَابَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَبَطْنُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لِي مِنْ
ظَهْرِهَا.

فَلَمَّا تَأَكَّدَ لَدَيْهِ الْخَبَرُ، انْبَعَثَ عَدُوُّ اللَّهِ يَهْجُو
رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَمْدَحُ
عَدُوَّهُمْ، وَيُحَرِّضُ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَرْضَ بِهَذَا الْقَدْرِ حَتَّى
رَكَبَ إِلَى قُرَيْشٍ، فَبَكَى قَتْلَاهُمْ فِي بَدْرٍ، وَحَرَّضَهُمْ عَلَى
قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، فَنَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى الْمُطَّلِبِ بْنِ أَبِي وَدَاعَةَ
السَّهْمِيِّ، فَأَنْزَلَهُ وَأَكْرَمَهُ، وَجَعَلَ يُنْشِدُ الْأَشْعَارَ، وَيُحَرِّضُ
عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- وَالْمُسْلِمِينَ.

وَلَمَّا قَدِمَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ مَكَّةَ أَتَوْهُ، فَقَالُوا:
نَحْنُ أَهْلُ السَّقَايَةِ ^(١) وَالسَّدَانَةِ ^(٢)، وَأَنْتَ سَيِّدُ أَهْلِ يَثْرِبَ،
يَثْرِبَ، فَنَحْنُ خَيْرٌ أَمْ هَذَا الصُّنْبِيرُ ^(٣) الْمُنْبِتَرُ ^(٤) مِنْ
قَوْمِهِ يَزْعُمُ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنَّا؟

فَقَالَ: أَنْتُمْ خَيْرٌ مِنْهُ، فَنَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ {إِنْ
شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} ^(٥)، وَنَزَلَتْ: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا

(١) السَّقَايَةُ: هي ما كانت قريش تَسْقِيهِ الْحُجَّاجَ مِنَ الرَّيِّبِ الْمُبْبُودِ فِي الْمَاءِ.

(٢) سَدَانَةُ الْكَعْبَةِ: هي خِدْمَتُهَا وَتَوَلَّى أَمْرَهَا.

(٣) الصُّنْبِيرُ: تصغيرُ الصُّنْبُورِ، وهو الْأَبْتَرُ، لَا عَقَبَ لَهُ، وَأَصْلُ الصُّنْبُورِ: سَعْفَةٌ تَنْبُتُ فِي جِذْعِ النَّخْلَةِ لَا فِي الْأَرْضِ، وَقِيلَ: هِيَ النَّخْلَةُ الْمُنْفَرِدَةُ الَّتِي يَدِقُّ أَسْفَلُهَا، أَرَادَ أَنَّهُ إِذَا قُلِعَ انْقَطَعَ ذِكْرُهُ، كَمَا يَذْهَبُ أَثَرُ الصُّنْبُورِ؛ لِأَنَّهُ لَا عَقَبَ لَهُ.

(٤) الْمُنْبِتَرُ: الَّذِي لَا وَلَدَ لَهُ، أَرَادُوا أَنَّهُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَمْ يَكُنْ يَعِشُ لَهُ وَلَدٌ.

(٥) فَتَوَهُمُوا -أَيَ هَؤُلَاءِ الْكَفَّارِ- لَجَهْلِهِمْ أَنَّهُ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِذَا مَاتَ بَنُوهُ يَنْقَطِعُ ذِكْرُهُ، وَحَاشَا وَكَلَّا، بَلْ قَدْ أَبْقَى اللَّهُ ذِكْرَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، وَأَوْجِبَ شَرْعَهُ عَلَى رِقَابِ الْعِبَادِ، مُسْتَمِرًّا عَلَى دَوَامِ

نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجُبَّتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا}.

ثُمَّ رَجَعَ كَعْبٌ إِلَى الْمَدِينَةِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، وَأَخَذَ
يُشَبِّبُ^(١) فِي أَشْعَارِهِ بِنِسَاءِ الصَّحَابَةِ، وَيُؤْذِيهِمْ بِسِلَاطَةِ
لِسَانِهِ أَشَدَّ الْإِيذَاءِ.

فَحِينَئِذٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-:
"مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ؟^(٢) فَإِنَّهُ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ"،
فَانْتَدَبَ لَهُ: مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ، وَعَبَّادُ بْنُ بَشِيرٍ، وَأَبُو نَائِلَةَ
سِلْكَانُ بْنُ سَلَامَةَ، وَهُوَ أَخُو كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ مِنْ

الآباد، إلى يوم الحشر والمعاد، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم
التناد.

(١) شَبَّبَ بالمرأة: قال فيها الغزل.

(٢) أي: من الذي ينتدب إلى قتله.

الرَّضَاعَةَ، وَالْحَارِثُ بْنُ أَوْسٍ، وَأَبُو عَبْسٍ بْنُ جَبْرِ، وَكَانَ
قَائِدَ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ -رضي الله عنه.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُحِبُّ أَنْ
أَقْتُلَهُ؟ قَالَ: "نَعَمْ".

فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ -رضي الله عنه-: فَأَذِّنْ
لِي أَنْ أَقُولَ ^(١) شَيْئًا، قَالَ: "قُلْ". فَذَهَبَ مُحَمَّدُ بْنُ
مَسْلَمَةَ إِلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، فَقَالَ لَهُ: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ
-أَيَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَدْ سَأَلَنَا

(١) كَأَنَّهُ اسْتَأْذَنَهُ أَنْ يَفْتَعَلَ شَيْئًا يَحْتَآلُ بِهِ، وَمِنْ ثَمَّ بَوَّبَ عَلَيْهِ الْبُخَارِيُّ
فِي صَحِيحِهِ: بَابُ الْكَذْبِ فِي الْحَرْبِ، كَأَنَّهُمْ اسْتَأْذَنُوا أَنْ يَشْكُوا مِنْهُ
وَيَعْيَبُوا رَأْيَهُ.

صَدَقَّةً، وَإِنَّهُ قَدْ عَنَّا^(١) وَإِنِّي قَدْ أَتَيْتُكَ أَسْتَسْلِفُكَ،
قَالَ: وَأَيْضًا وَاللَّهِ لَتَمْلِكُنَّهُ^(٢).

فَقَالَ مُحَمَّدٌ بْنُ مَسْلَمَةَ: إِنَّا قَدِ اتَّبَعْنَاهُ، فَلَا نُحِبُّ
أَنْ نَدْعَهُ حَتَّى نَنْظُرَ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ يَصِيرُ شَأْنُهُ، وَقَدْ أَرَدْنَا
أَنْ تُسَلِّفَنَا وَسَقَا أَوْ وَسَقَيْنَ^(٣).

قَالَ كَعْبٌ: نَعَمْ أَرْهِنُونِي^(٤).

قَالَ مُحَمَّدٌ بْنُ مَسْلَمَةَ: أَيِّ شَيْءٍ تُرِيدُ؟

قَالَ كَعْبٌ: أَرْهِنُونِي نِسَاءَكُمْ؟

(١) عَنَّا: بتشديد النون الأولى: من العناء وهو التعب. يعني: أتعبنا.

(٢) أي: يتضجرّون منه أكثر من هذا الضجر.

(٣) الوسق: بفتح الواو وسكون السين: ستون صاعاً.

(٤) أرهنوني: أي ادفعوا لي شيئاً يكون رهناً على التمر الذي تريدونه.

فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: كَيْفَ نَزَهْتُكَ نِسَاءَنَا
وَأَنْتَ أَجْمَلُ الْعَرَبِ؟

قَالَ كَعْبٌ: فَأَرْهِنُونِي أَبْنَاءَكُمْ.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: كَيْفَ نَزَهْتُكَ أَبْنَاءَنَا،
فَيَسِبُّ أَحَدُهُمْ؟ فَيَقَالُ: رُهْنٌ يَوْسُقِي أَوْ وَسْقَيْنِ هَذَا عَارٌّ
عَلَيْنَا، وَلَكِنَّا نَزَهْتُكَ اللَّأَمَةَ، يَعْنِي السَّلَاحَ.

فَوَاعَدَهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ أَنْ يَأْتِيَهُ بِالسَّلَاحِ.

وَصَنَعَ أَبُو نَائِلَةَ مِثْلَ مَا صَنَعَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ،
فَقَدْ جَاءَ كَعْبًا فَتَنَاشَدَ مَعَهُ أَطْرَافَ الْأَشْعَارِ سُوَيْعَةً، ثُمَّ
قَالَ لَهُ: وَيْحَكَ يَا ابْنَ الْأَشْرَفِ، إِنِّي قَدْ جِئْتُكَ لِحَاجَةٍ
أُرِيدُ ذِكْرَهَا لَكَ، فَاكْتُمْ عَنِّي. قَالَ كَعْبٌ: أَفْعَلُ.

قَالَ أَبُو نَائِلَةَ: كَانَ قُدُومُ هَذَا الرَّجُلِ -أَيِ رَسُولِ
 اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بَلَاءً، عَادَتْنَا الْعَرَبُ، وَرَمَتْنَا
 عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَقَطَعَتْ عَنَّا السُّبُلَ، حَتَّى ضَاعَ
 الْعِيَالُ، وَجَهَدَتِ الْأَنْفُسُ، وَأَصْبَحْنَا قَدْ جَهِدْنَا وَجَهَدَ
 عِيَالُنَا.

ثُمَّ قَالَ أَبُو نَائِلَةَ: إِنَّ مَعِيَ أَصْحَابًا لِي عَلَى مِثْلِ رَأْيِي،
 وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ آتِيكَ بِهِمْ، فَتَبِعَهُمْ وَتُحْسِنَ فِي ذَلِكَ.

وَهَكَذَا نَجَحَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ، وَأَبُو نَائِلَةَ فِي هَذَا
 الْحِوَارِ إِلَى مَا قَصَدَا، فَإِنَّ كَعْبًا لَنْ يُنْكَرَ مَعَهُمَا السَّلَاحَ،
 وَالْأَصْحَابَ بَعْدَ هَذَا الْحِوَارِ.

وَفِي لَيْلَةِ مُقَمَّرَةٍ -لَيْلَةِ الرَّابِعِ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَجَبٍ
 الْأَوَّلِ مِنَ السَّنَةِ الثَّالِثَةِ لِلْهِجْرَةِ- اجْتَمَعَتْ هَذِهِ

الْمَجْمُوعَةُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-،
فَمَشَى مَعَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- إِلَى
بَقِيعِ الْغَرَقَدِ، ثُمَّ وَجَّهَهُمْ قَائِلًا: "انْطَلِقُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ،
اللَّهُمَّ أَعِنَهُمْ".

ثُمَّ رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- إِلَى
بَيْتِهِ، وَطَفِقَ يُصَلِّي، وَيَدْعُو رَبَّهُ.

وَأَقْبَلُوا حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى حِصْنِ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ،
فَهَتَفَ بِهِ أَبُو نَائِلَةَ، فَقَامَ لِيَنْزِلَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ
-وَكَانَ حَدِيثَ عَهْدٍ بِعُرْسٍ- أَيْنَ تَخْرُجُ هَذِهِ السَّاعَةَ؟ .

فَقَالَ: إِنَّمَا هُوَ أَخِي مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ وَرَضِيعِي أَبُو
نَائِلَةَ، قَالَتْ: أَسْمِعْ صَوْتًا كَأَنَّهُ يَقْطُرُ مِنْهُ الدَّمُ.

قَالَ: إِنَّمَا هُوَ أَخِي مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ وَرَضِيعِي أَبُو نَائِلَةَ، إِنَّ الْكَرِيمَ لَوُدِّي إِلَى طَعْنَةٍ بَلِيلٍ لِأَجَابٍ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْهِمْ، وَهُوَ مُتَطَيَّبٌ يَنْفُحُ رَأْسَهُ.

وَكَانَ أَبُو نَائِلَةَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: إِذَا مَا جَاءَنِي فَإِنِّي أَخْذُ بِشَعْرِهِ فَأَشْمُهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمُونِي اسْتَمَكَنْتُ مِنْ رَأْسِهِ، فَدُونَكُمْ فَاضْرِبُوهُ.

فَلَمَّا نَزَلَ كَعْبٌ إِلَيْهِمْ تَحَدَّثَ مَعَهُمْ سَاعَةً، وَتَحَدَّثُوا مَعَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ أَبُو نَائِلَةَ: هَلْ لَكَ يَا ابْنَ الْأَشْرَفِ أَنْ نَتَمَاشَى إِلَى شَعْبِ الْعَجُوزِ، فَتَتَحَدَّثَ بَقِيَّةَ لَيْلَتِنَا؟.

قَالَ: إِنْ شِئْتُمْ، فَخَرَجُوا يَتَمَاشُونَ، فَقَالَ أَبُو نَائِلَةَ وَهُوَ فِي الطَّرِيقِ: مَا رَأَيْتُ كَاللَّيْلَةِ طِيبًا أَعْطَرَ قَطْ.

فَقَالَ كَعْبٌ: عِنْدِي أَعْطَرُ نِسَاءِ الْعَرَبِ، فَقَالَ أَبُو نَائِلَةَ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَشُمَّ رَأْسَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي رَأْسِهِ فَشَمَّهُ.

ثُمَّ مَشَى سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ أَبُو نَائِلَةَ: أَعُودُ -أَيُّ لِسَمِّ رَأْسِهِ- قَالَ كَعْبٌ: نَعَمْ، فَعَادَ لِمِثْلِهَا حَتَّى اطْمَأَنَّ: ثُمَّ مَشَى سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ أَبُو نَائِلَةَ: أَعُودُ -أَيُّ لِسَمِّ رَأْسِهِ- قَالَ كَعْبٌ: نَعَمْ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي رَأْسِهِ، فَلَمَّا اسْتَمَكَنَ مِنْهُ، قَالَ أَبُو نَائِلَةَ لِأَصْحَابِهِ: دُونَكُمْ عَدُوَّ اللَّهِ، فَاخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ أَسْيَافُهُمْ، لَكِنَّهَا لَمْ تُغْنِ شَيْئًا، فَأَخَذَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ مِعْوَلًا، فَوَضَعَهُ فِي ثَنَتَيْهِ^(١)، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ حَتَّى بَلَغَ عَانتَهُ، فَوَقَعَ عَدُوُّ اللَّهِ قَتِيلًا، وَكَانَ قَدْ

(١) الثَّنَةُ: بضم الثاء وتشديد النون: ما بين السرة والعانة من أسفل البطن.

صَاحَ صَیْحَةً شَدِيدَةً أَفْرَعَتْ مَنْ حَوْلَهُ، فَلَمْ يَبْقَ
حِصْنٌ إِلَّا أُوقِدَتْ عَلَيْهِ النَّيْرَانُ.

وَرَجَعَتْ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةُ، وَقَدْ أُصِيبَ الْحَارِثُ
بْنُ أُوَيْسٍ بِذُبَابٍ ^(١) بَعْضُ سُيُوفِ أَصْحَابِهِ، فَجُرِحَ
وَنَزَفَ الدَّمَ، فَلَمَّا بَلَغَتْ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةُ حَرَّةَ الْعَرِيضِ،
رَأَتْ أَنَّ الْحَارِثَ لَيْسَ مَعَهُمْ، فَوَقَفُوا سَاعَةً حَتَّى أَتَاهُمْ
يَتْبَعُ آثَارَهُمْ، فَاحْتَمَلُوهُ، حَتَّى إِذَا بَلَغُوا بَقِيعَ الْغَرَقَدِ
كَبَّرُوا، فَسَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-
تَكْبِيرَهُمْ، فَعَرَفَ أَنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوهُ، فَكَبَّرَ، فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى
رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-، وَذَلِكَ مِنْ آخِرِ
الَّيْلِ قَالَ -صلى الله عليه وسلم-: "أَفْلَحَتِ الْوُجُوهُ"،

(١) ذُبَابُ السَّيْفِ: طَرَفُهُ الَّذِي يَضْرِبُ بِهِ.

قَالُوا: وَوَجْهُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَحَمِدَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- اللهَ تَعَالَى عَلَى قَتْلِهِ، وَتَفَلَّ عَلَى جُرْحِ الْحَارِثِ فَبَرِئَ.

وفي جمادى الأولى كانت سرية زيد بن حارثة، حيث كان مشركو مكة بعد هزيمتهم في غزوة بدر، يبحثون عن طريق أخرى لتجارتهم للشام، فأشار بعضهم إلى طريق نجد العراق، وقد سلكوها بالفعل، وخرج منهم تجّار، فيهم أبو سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وحويطب بن عبد العزّي، ومعهم فضة وبضائع كثيرة، بما قيمته مائة ألف درهم؛ فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بواسطة سليط بن النعمان رضي الله عنه، فبعث زيد بن حارثة في مائة

راكب لاعتراض القافلة، فلقىها زيد عند ماء يقال له:
القردة، وهو ماء من مياه نجد، ففرّ رجالها مذعورين،
وأصاب المسلمون العير وما عليها، وأسروا دليلها فُرات
بن حَيّان الذي أسلم بين يدي النبي صلى الله عليه
وسلم، وعادوا إلى المدينة، فخمّسها رسول الله صلى
الله عليه وسلم ووزع الباقي بين أفراد السرية.

غزوة أحد

وكانت غزوة أحد يومَ السبت من شوال سنة
ثلاث من الهجرة، وكان سببها أن المشركين حين قُتل
من قتل من أشrafهم يومَ بدر، وسلّمت العيرُ بما فيها
من التجارة التي كانت مع أبي سُفيان، فلما رجع قفلهم
إلى مكة قال أبناء من قُتل، ورؤساء من بقي لأبي

سفيان: ارصد هذه الأموال لقتال محمد، فأنفقوها في ذلك، وجمعوا الجموع والأحاييش وأقبلوا في قريب من ثلاثة آلاف، حتى نزلوا قريباً من أحد تِلْقَاء المدينة، فصلى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يومَ الجمعة، فلما فَرَّغَ منها صَلَّى على رجل من بني النجار، يقال له: مالك بن عَمْرٍو، واستشار الناس: أَيْخِجْ إِلَيْهِمْ أَمْ يَمْكُثْ بِالْمَدِينَةِ؟ فَأَشَارَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ بِالْمَقَامِ بِالْمَدِينَةِ، فَإِنْ أَقَامُوا أَقَامُوا بِشَرِّ مَحْبَسٍ وَإِنْ دَخَلُوهَا قَاتَلَهُمُ الرِّجَالُ فِي وُجُوهِهِمْ، وَرَمَاهُمُ النِّسَاءُ وَالصَّبِيَّانُ بِالْحِجَارَةِ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَإِنْ رَجَعُوا رَجَعُوا خَائِبِينَ. وَأَشَارَ آخَرُونَ مِنَ الصَّحَابَةِ مِمَّنْ لَمْ يَشْهَدْ بَدْرًا بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِمْ، فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَبَسَ لَأَمَتَهُ وَخَرَجَ

عليهم، فسار في ألف من أصحابه، فلما كان بالشَّوط رجع عبد الله بن أبيّ في ثُلث الجيش مُغَضَّباً؛ لكونه لم يرجع إلى قوله، وقال هو وأصحابه: لو نعلم اليوم قتالاً لاتبعناكم، ولكننا لا نراكم تقاتلون اليوم. واستمر رسول الله صلى الله عليه وسلم سائراً حتى نزل الشَّعب من أحد في عَدْوَةِ الوادي. وجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وتهيأ رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتال وهو في سبعمئة من أصحابه، وأمّر على الرماة عبد الله بن جُبَيْر أخا بني عَمْرٍو بن عوف، والرماة يومئذ خمسون رجلاً. وظاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين درعين^(١)، وأعطى اللواء مُصْعَب بن عُمَيْر أخا بني عبد

(١) ظاهر: لبسهما فوق بعضهما. لبس درعاً فوق درع.

الدار. وأجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الغلمان يومئذ وأرجأ آخرين، حتى أمضاهم يوم الخندق بعد هذا اليوم بقريب من سنتين. وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف، ومعهم مائتا فارس قد جنّبوها فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، ودفعوا إلى بني عبد الدار اللواء. ثم كان بين الفريقين ما كان، وكانت بوادى النصر تلوح لصالح المسلمين فلما رأى المسلمون تقهقر المشركين أهمل الرماة وصية نبيهم لهم ونزلوا يحصدون الغنائم فانتهز خالد بن الوليد الفرصة فالتف خلفهم وأعمل الحرب فيهم مما أدى لقلب الموازين وانجلت المعركة عن

استشهاد سبعين رجلاً من المسلمين منهم سيد الشهداء
حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه.

وكانت بعدها مباشرة غزوة حمراء الأسد، وذلك
أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين يوم أحد؛
كثروا راجعين إلى بلادهم، فلما استمروا في سيرهم
تَنَدَّمُوا أنهم لم يغيروا على المدينة ويجعلوها الفيصلة.
فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ندب
المسلمين إلى الذهاب وراءهم لِيُرْعِبَهُمْ ويريهم أن بهم
قُوَّةٌ وجلَدَاءٌ، ولم يأذن لأحد سوى من حضر وقعة أُحُد
سوى جابر بن عبد الله رضي الله عنه، فانتدب
المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان طاعة لله -
عز وجل - ولرسوله صلى الله عليه وسلم. (الَّذِينَ

اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ) هذا كان يوم حمراء الأسد وهو موضع على ثمانية أميال من المدينة باتجاه مكة، ورجع المشركون إلى مكة قبل وصول جيش المسلمين.

السنة الرابعة من الهجرة

يوم الرجيع واستشهاد خبيب

وفي صفر من السنة الرابعة وقع يوم الرجيع، حيث بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَةَ رَهْطٍ سَرِيَّةً عَيْنًا وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ عَاصِمَ بْنَ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيَّ جَدَّ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ فَاَنْطَلَقُوا حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالْهَدَاةِ وَهُوَ بَيْنَ عُسْفَانَ وَمَكَّةَ ذُكِرُوا لِحَيٍّ مِنْ هَذِلٍ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو

لَحْيَانَفَنَفَرُوا لَهُمْ قَرِيبًا مِنْ مِثِّي رَجُلٍ كُلُّهُمْ رَامٍ فَاقْتَصَوْا
 آثَارَهُمْ حَتَّى وَجَدُوا مَا كُلُّهُمْ تَمَرًا تَزَوَّدُوهُ مِنَ الْمَدِينَةِ
 فَقَالُوا هَذَا تَمَرٌ يَثْرَبُ فَاقْتَصَوْا آثَارَهُمْ فَلَمَّا رَأَوْهُمْ عَاصِمٌ
 وَأَصْحَابُهُ لَجُّوا إِلَى فَدَدٍ^(١) وَأَحَاطَ بِهِمُ الْقَوْمُ فَقَالُوا
 لَهُمْ انْزِلُوا وَأَعْطُونَا بِأَيْدِيكُمْ وَلَكُمْ الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ، وَلَا
 نَقْتُلُ مِنْكُمْ أَحَدًا قَالَ عَاصِمٌ بِنُ ثَابِتٍ أَمِيرُ السَّرِيَّةِ أَمَّا أَنَا
 فَوَاللَّهِ لَا أَنْزِلُ الْيَوْمَ فِي ذِمَّةِ كَافِرٍ اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنَّا نَبِيَّكَ
 فَرَمَوْهُمْ بِالنَّبْلِ فَقَتَلُوا عَاصِمًا فِي سَبْعَةِ فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ ثَلَاثَةُ
 رَهْطٍ بِالْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ مِنْهُمْ خُبَيْبُ الْأَنْصَارِيِّ، وَابْنُ
 دَثَنَةَ وَرَجُلٌ آخَرُ فَلَمَّا اسْتَمَكَّنُوا مِنْهُمْ أَطْلَقُوا أَوْتَارَ
 قِسِيِّهِمْ فَأَوْثَقُوهُمْ فَقَالَ الرَّجُلُ الثَّلَاثُ هَذَا أَوَّلُ الْغَدْرِ

(١) هو الموضع المرتفع من الأرض.

وَاللّٰهِ لَا أَصْحَبُكُمْ إِنَّ فِي هَؤُلَاءِ لَأُسُوءَةً يُرِيدُ الْقَتْلَى
فَجَرَّرُوهُ وَعَاجَلُوهُ عَلَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ فَأَبَى فَقَتَلُوهُ فَانْطَلَقُوا
بِحُبَيْبٍ وَابْنِ دَثَنَةَ حَتَّى بَاعُوهُمَا بِمَكَّةَ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ
فَابْتَاعَ حُبَيْبًا بَنُو الْحَارِثِ بْنِ عَامِرٍ بْنُ نَوْفَلٍ بْنِ عَبْدِ
مَنَافٍ، وَكَانَ حُبَيْبٌ هُوَ قَتَلَ الْحَارِثَ بْنَ عَامِرٍ يَوْمَ بَدْرٍ
فَلَيْتَ حُبَيْبٌ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا. وَقَالَتْ بِنْتُ الْحَارِثِ: أَنَّهُمْ
حِينَ اجْتَمَعُوا اسْتَعَارَ مِنْهَا مُوسَى يَسْتَحِدُّ بِهَا فَأَعَارَتْهُ
فَأَخَذَ ابْنًا لِي وَأَنَا غَافِلَةٌ حِينَ أَتَاهُ قَالَتْ فَوَجَدْتُهُ مُجْلِسَهُ
عَلَى فَخِذِهِ وَالْمُوسَى بِيَدِهِ فَفَزِعْتُ فَزَعَةً عَرَفَهَا حُبَيْبٌ
فِي وَجْهِهِ فَقَالَ تَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ ذَلِكَ.
وَاللّٰهِ مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا قُطِّ خَيْرًا مِنْ حُبَيْبٍ وَاللّٰهِ لَقَدْ
وَجَدْتُهُ يَوْمًا يَأْكُلُ مِنْ قِطْفِ عِنَبٍ فِي يَدِهِ وَإِنَّهُ لَمَوْثِقٌ

فِي الْحَدِيدِ وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ ثَمَرٍ وَكَانَتْ تَقُولُ إِنَّهُ لَرِزْقٌ مِّنَ
 اللَّهِ رَزَقَهُ خُبَيْبًا فَلَمَّا خَرَجُوا مِنَ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ فِي الْحِلِّ
 قَالَ لَهُمْ خُبَيْبُ ذَرُونِي أَرْكَعَ رَكَعَتَيْنِ فَتَرَكُوهُ فَرَكَعَ
 رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ قَالَ: لَوْلَا أَن تَظُنُّوا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ لَطَوَّلْتُهَا
 اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا، وَقَالَ:

وَلَسْتُ أَبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَىِّ شِقِّ كَانَ لِلَّهِ مَضْرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُّمَرَّعٍ

فَقَتَلَهُ ابْنُ الْحَارِثِ فَكَانَ خُبَيْبٌ هُوَ سَنَ الرَّكَعَتَيْنِ
 لِكُلِّ امْرِئٍ مُّسْلِمٍ قُتِلَ صَبْرًا.

وَاسْتَجَابَ اللَّهُ لِعَاصِمِ بْنِ ثَابِتٍ يَوْمَ أُصِيبَ
 فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْحَابَهُ خَبَرَهُمْ وَمَا
 أُصِيبُوا وَبَعَثَ نَاسٌ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ إِلَى عَاصِمٍ حِينَ

حَدَّثُوا أَنَّهُ قُتِلَ لِيُؤْتُوا بِشَيْءٍ مِنْهُ يُعْرَفُ، وَكَانَ قَدْ قَتَلَ
رَجُلًا مِنْ عُظَمَائِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ فَبِيعَتْ عَلَى عَاصِمٍ مِثْلُ
الظِّلَّةِ مِنَ الدَّبْرِ^(١) فَحَمَتُهُ مِنْ رَسُولِهِمْ فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى
أَنْ يَقْطَعَ مِنْ لَحْمِهِ شَيْئًا.

حادثة بئر معونة

وفي صفر أيضاً وقعت حادثة بئر معونة، وفيها
جاء ناسٌ إلى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا أَنْ ابْعَثْ
مَعَنَا رَجُلًا يُعَلِّمُونَا الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ سَبْعِينَ
رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُمُ الْقُرَّاءُ - فِيهِمْ حَرَامُ بْنُ
مِلْحَانَ - يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَدَارِسُونَ بِاللَّيْلِ يَتَعَلَّمُونَ

(١) أي: الدبابير.

وَكَانُوا بِالنَّهَارِ يَجِئُونَ بِالْمَاءِ فَيَضَعُونَهُ فِي الْمَسْجِدِ
وَيَحْتَطِبُونَ فَيَبِيعُونَهُ وَيَشْتَرُونَ بِهِ الطَّعَامَ لِأَهْلِ الصَّفَةِ
وَالْفُقَرَاءِ فَبَعَثَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ
فَعَرَضُوا لَهُمْ فَقَتَلُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُوا الْمَكَانَ.
فَقَالُوا: "اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ
وَرَضِيتَ عَنَّا" ، وَأَتَى رَجُلٌ حَرَامًا خَالَ أَنَسٍ مِنْ خَلْفِهِ
فَطَعَنَهُ بِرُمْحٍ حَتَّى أَنْفَذَهُ. فَقَالَ حَرَامٌ فُزْتُ وَرَبِّ الْكُعْبَةِ
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِهِ «إِنَّ
إِخْوَانَكُمْ قَدْ قُتِلُوا وَإِنَّهُمْ قَالُوا اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ
لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ وَرَضِيتَ عَنَّا». وَفِي رَوَايَةٍ: أَنَّ
رِعْلًا وَذَكْوَانَ وَعُصَيَّةَ وَبَنِي لَحْيَانَ اسْتَمَدُّوا رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى عَدُوٍّ فَأَمَدَّهُمْ بِسَبْعِينَ مِنْ

الْأَنْصَارِ كُنَّا نُسَمِّيهِمُ الْقُرَّاءَ فِي زَمَانِهِمْ كَانُوا يَحْتَطِبُونَ
بِالنَّهَارِ وَيُصَلُّونَ بِاللَّيْلِ حَتَّى كَانُوا بِبِرٍّ مَعُونَةً قَتَلُوهُمْ
وَعَدَرُوا بِهِمْ فَبَلَغَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَنْتَ
شَهْرًا يَدْعُو فِي الصُّبْحِ عَلَى رِغْلٍ وَذُكُوانَ وَعُصَيَّةَ وَبَنِي
لَحْيَانَ وَأَنَّهُ نَزَلَتْ فِيهِمْ آيَاتٌ ثُمَّ رَفَعْتَ (بَلَّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا
أَنَا لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَأَرْضَانَا).

إجلاء يهود بني النضير

ثم كانت غزوة بني النضير في ربيع الأول، وكان
سببها أنه لما قُتِلَ أصحابُ بئر معونة، وأفلت منهم
عمرو بن أمية الضمري، فلما كان في أثناء الطريق
راجعاً إلى المدينة قتل رجلين من بني عامر، وكان معهما
عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمان لم يعلم

به عمرو، فلما رجع أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم. فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك الرجلين، للجوار الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد لهما. وكانت منازل بني النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقيها. فلما أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا: نعم، يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت، مما استعنت بنا عليه. ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب جدار من بيوتهم - فَمَنْ رجل يعلو على هذا البيت، فيلقي عليه صخرة، فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش

بن كعب أحدهم، فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه
 صخرة كما قال، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في
 نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلي، رضي الله
 عنهم. فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من
 السماء بما أراد القوم، فقام مُظْهِراً أَنَّهُ يَقْضِي حَاجَةً وَقَالَ
 لِأَصْحَابِهِ لَا تَبْرَحُوا وَرَجِعَ مُسْرِعاً إِلَى الْمَدِينَةِ ، فلما
 استلبث النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه قاموا في
 طلبه فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسأله عنه، فقال:
 رأيته داخلاً المدينة. فأقبل أصحاب رسول الله صلى
 الله عليه وسلم حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما
 كانت يهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله صلى
 الله عليه وسلم بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم. ثم سار

حتى نزل بهم فتحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع النخل والتَّحْرِيق فيها. فنادوه: أن يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها؟ وقد كان رهط من بني عوف بن الحزرج، منهم عبد الله ابن أبي بن سلول، ووديعة، ومالك بن أبي قوقل، وسُوَيْد وداعس، قد بعثوا إلى بني النضير: أن اثبتوا وَاثْبَتُوا فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خَرَجْنَا معكم فتربصوا ذلك من نصرهم، فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم، فأجلاهم، وفيهم نزلت سورة الحشر.

السنة الخامسة من الهجرة

غزوة دومة الجندل

ووقعت غزوة دومة الجندل في ربيع الأول سنة خمس من الهجرة، لخمس ليال بقين من ربيع الأول. ودومة الجندل: تقع شمالي نجد وهي طرف من أفواه الشام بينها وبين دمشق خمس ليال وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة. وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدنو إلى أداني الشام، وقيل له أن ذلك مما يفزع قيصر، وذكر له أن بدومة الجندل جمعاً كبيراً وأنهم يظلمون من مربهم، وكان لها سوق عظيم وهم يريدون أن يدنوا من المدينة، فندب رسول الله صلى

الله عليه وسلم الناس فخرج في ألف من المسلمين، فكان يسير الليل ويكمن النهار، ومعه دليل له من بني عذرة، يقال له: مذكور، هاد خريت. فلما دنا من دومة الجندل، أخبره دليله بسوائم بني تميم، فسار حتى هجم على ماشيتهم ورعائهم فأصاب من أصاب وهرب من هرب في كل وجه، وجاء الخبر أهل دومة الجندل فتفرقوا، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بساحتهم فلم يجد فيها أحداً، فأقام بها أياماً، وبث السرايا ثم رجعوا وأخذ محمد بن سلمة رجلاً منهم فأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأله عن أصحابه فقال: هربوا أمس، فعرض عليه رسول الله صلى الله

عليه وسلم الإسلام فأسلم، ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة.

غزوة المريسيع (بني المصطلق)

ثم في شعبان من السنة الخامسة الهجرية وقعت غزوة المريسيع (بني المصطلق)، وفيها أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَغَارَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُونَ وَأَنْعَمَهُمْ تُشْقَى عَلَى الْمَاءِ فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ وَسَبَى ذَرَارِيَّهُمْ وَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ جُؤَيْرِيَّةَ. وذلك أنه بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن بني المصطلق يجمعون له وقائدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية بنت الحارث زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم خرج إليهم حتى لقيهم على

ماء لهم يقال له المريسيع من ناحية قديد الى الساحل
فتزاحف الناس واقتتلوا فهزم الله بني المصطلق وقتل
من قتل منهم ونفل رسول الله صلى الله عليه وسلم
أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفأهم عليه. وقد كان من
بين السبي جويرية بنت الحارث سيد القوم فأسلمت
وتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم. وأُعتِقَ بتزويجه
إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فكانت من
أعظم الناس بركة على قومها.

حادثة الإفك

وفيها وقعت حادثة الإفك، وذلك أنه لما خرج
النبي صلى الله عليه وسلم إلى بني المصطلق لغزوهم
أقرع بين نسائه من يخرج معه فكانت القرعة على عائشة

الطاهرة رضي الله عنها وأرضاها وفي طريق العودة كانت تحمل على هودج، فقدر الله في ذلك اليوم أن تكون خارج هودجها لتبحث عن عقد سقط منها فلما أرادوا الرحيل لم يشعروا بعدم وجودها ورحلوا؛ فقد كانت صغيرة خفيفة الوزن، فلما رجعت لم ترهم. قالت عائشة رضي الله عنها: "فَتَيَمَّمْتُ مَنَزِلِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ وَظَنَنْتُ أَنَّ الْقَوْمَ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنَزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَظَّلِ السَّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ قَدْ عَرَّسَ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ فَادَّجَّ فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنَزِلِي فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَأَتَانِي فَعَرَفَنِي حِينَ رَأَى وَقَدْ كَانَ يَرَانِي قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ الْحِجَابُ عَلَيَّ فَاسْتَيْقِظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ

عَرَفَنِي فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي وَوَاللَّهِ مَا يُكَلِّمُنِي كَلِمَةً
وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ حَتَّى أَتَاخَ رَاحِلَتَهُ
فَوَطِئْتُ عَلَى يَدَيْهَا فَرَكِبْتُهَا فَأَنْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى
أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَ مَا نَزَلُوا مُوْغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ فَهَلَكَ
مَنْ هَلَكَ فِي شَأْنِي وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
أَبِي ابْنِ سَلُولٍ". فَاتَهَمُوهَا مَعَ صَفْوَانَ وَبَدَأَ هَذَا الْإِفْكَ
الْمُبِينُ يَنْتَشِرُ فِي الْمَدِينَةِ وَبَقِيَتْ عَائِشَةُ شَهْرًا لَا تَعْلَمُ
شَيْئًا عَنْ ذَلِكَ، حَتَّى عَلِمَتْ بِذَلِكَ صَرَاحَةً مِنْ أُمِّ
مَسْطُوحٍ، وَكُلَّ ذَلِكَ وَلَمْ تَتَبَيَّنِ الْحَقِيقَةُ. ثُمَّ نَزَلَتْ آيَاتُ
تَتْلَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا
بِالْإِفْكِ عَصَبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ

لكم) إلى قوله: (ولكن الله يزي من يشاء والله سميع
عليم) آيات تبرئ الطاهرة المطهرة مما افتراه المفترون.

غزوة الخندق (الأحزاب)

ثم في شوال وقعت غزوة الخندق (الأحزاب)،
وسبب هذه الغزوة هو إجلاء يهود بني النضير من
المدينة حيث أن الحسد والحقد قد تمكنا من قلوبهم
مما جعلهم يضمرون العدااء ويتحينون الفرص للتشفي
ممن طردهم من المدينة وما حولها. ولما لم يستطع
يهود خيبر وخاصة بني النضير مجابهة المسلمين لجأوا
إلى أسلوب المكر والتحريض. فالذين حزبوا الأحزاب
نفر من اليهود، وكان منهم سلام بن أبي الحقيق، وحيي
بن أخطب النضري، وكنانة بن أبي الحقيق النضري،

وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي، في نفر من بني النضير، فلما قدموا على قريش، دعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه، قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه!!! وكانت في سنة خمس. فقام النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم بحفر خندق في المنطقة المكشوفة أمام الغزاة، واستغرق حفر الخندق قريباً من عشرين ليلة. وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْخَنْدَقِ فَإِذَا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ يَخْفِرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ فَلَمْ يَكُنْ

لَهُمْ عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ لَهُمْ فَلَمَّا رَأَى مَا بِهِمْ مِنَ
النَّصَبِ وَالْجُوعِ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ
فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ. فَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ: نَحْنُ الَّذِينَ
بَايَعُوا مُحَمَّدًا عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدًا. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْقُلُ مِنْ تُرَابِ الْخُنْدَقِ وَيَرْتَجِرُ
بِكَلِمَاتِ ابْنِ رَوَاحَةَ وَهُوَ يَنْقُلُ مِنَ التُّرَابِ يَقُولُ: اللَّهُمَّ
لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا، وَلَا تَصَدَّقْنَا، وَلَا صَلَّيْنَا، فَأَنْزِلْ
سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتِ الْأَقْدَامَ إِنَّ لَاقِيَنَا، إِنَّ الْأَلَى قَدْ بَغَوْا
عَلَيْنَا وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبِينَا. قَالَ: ثُمَّ يَمُدُّ صَوْتَهُ بِآخِرِهَا.
وفيهما نزلت: (إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ
وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ) فَكَانَ ذَاكَ يَوْمَ الْخُنْدَقِ. ووصلت
الأحزاب المدينة ففوجئوا بوجود الخندق، فقاموا بعدة

محاولات لاقتحامه، ولكنهم فشلوا. واستمر الحصار أربعاً وعشرين ليلة. وثقل الأمر على قريش بسبب الرياح التي أكفأت قدورهم وخيامهم، كما قام المسلمون بالتخذيل بين اليهود والمشركين فأرغموا على الرحيل وهزمهم الله تعالى وكف شرهم عن المدينة.

نزول آية الحجاب

وفي ذي القعدة نزلت آية الحجاب، وكان سبب نزولها أن عمر رضي الله عنه كان يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لَوْ أَمَرْتَ نِسَاءَكَ أَنْ يَحْتَجِبْنَ؛ فَإِنَّهُ يُكَلِّمُهُنَّ الْبُرَّ وَالْفَاجِرُ؛ فَزَلَّ قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ) إِلَى

قوله تعالى: (وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ).

غزوة بني قريظة

ثم وقعت غزوة يهود بني قريظة بعد غزوة الأحزاب مباشرة، في آخر ذي القعدة، وأول ذي الحجة من السنة الخامسة الهجرية. وكان سبب الغزوة نقض بني قريظة العهد الذي بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم بتحريض من حيي بن أخطب النضري. وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أرسل الزبير لمعرفة نيتهم، ثم أتبعه بالسعد بن رواحة وخوات لذات الهدف ليتأكد من غدرهم. وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم، بقتالهم بعد عودته من الخندق ووضعه

السلاح، فأوصى عليه الصلاة والسلام أصحابه أن يتوجهوا إلى بني قريظة، وقال لهم: (لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة). ف ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم الحصار على بني قريظة لمدة خمس وعشرين ليلة على الأرجح، حتى نزلوا على حكم الرسول صلى الله عليه وسلم، فأحب أن يكل الحكم عليهم إلى واحد من رؤساء الأوس؛ لأنهم كانوا حلفاء بني قريظة، فجعل الحكم فيهم إلى سعد بن معاذ، فلما دنا من المسلمين قال الرسول صلى الله عليه وسلم للأنصار: قوموا إلى سيدكم أو خيركم، ثم قال: إن هؤلاء نزلوا على حكمك. قال -أي سعد بن معاذ-: تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم وتقسم أموالهم. فقال له النبي صلى الله عليه

وسلم: قضيت بحكم الله تعالى. ونفذ الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الحكم فيهم، وكانوا أربعمائة على الأرجح. ولم ينج إلا بعضهم، ثم قسم الرسول صلى الله عليه وسلم أموالهم وذراريهم بين المسلمين.

السنة السادسة من الهجرة

غزوة ذي قرد وقصة سلمة بن الأكوع

وفي المحرم منها وقعت غزوة ذي قرد ، وفيها أغار عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ الْفَزَارِيِّ فِي بَنِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ غَطَفَانَ عَلَى لِقَاحِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّتِي بِالْغَابَةِ، فَاسْتَأْقَمَهَا، وَقَتَلَ رَاعِيَهَا ، وَاحْتَمَلُوا امْرَأَتَهُ. ونودي: يَا خَيْلَ اللَّهِ ارْكَبِي، وَكَانَ أَوَّلُ مَا نُودِيَ بِهَا،

وَرَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُقَنَّعًا فِي
 الْحَدِيدِ، فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ إِلَيْهِ الْمُقَدَّادُ بْنُ عَمْرٍو فِي
 الدَّرْعِ وَالْمِغْفَرِ، فَعَقَّدَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ اللِّوَاءَ فِي رُحْمِهِ، وَقَالَ: "امْضِ حَتَّى تَلْحَقَكَ
 الْخِيُولُ، إِنَّا عَلَى أَثَرِكَ". وَأَدْرَكَ سَلْمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ الْقَوْمَ،
 وَهُوَ عَلَى رِجْلَيْهِ، فَجَعَلَ يَرْمِيهِمُ بِالنَّبْلِ وَيَقُولُ: خُذْهَا
 وَأَنَا ابْنُ الْأَكْوَعِ وَالْيَوْمَ يَوْمُ الرُّضْعِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى ذِي
 قَرْدٍ وَقَدْ اسْتَنْقَذَ مِنْهُمْ جَمِيعَ اللَّقَاحِ وَثَلَاثِينَ بُرْدَةً، قَالَ
 سَلْمَةُ: فَلَحِقْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْخَيْلُ
 عِشَاءً، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الْقَوْمَ عِطَاشٌ، فَلَوْ
 بَعَثْتَنِي فِي مَائَةِ رَجُلٍ اسْتَنْقَذْتُ مَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ
 السَّرْحِ، وَأَخَذْتُ بِأَعْنَاقِ الْقَوْمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى

الله عليه وسلم: "مَلَكْتُ فَأُسَجِّحُ"^(١)، ثم قال: إِنَّهُمْ
الآنَ لَيُقَرُّونَ فِي غَطَفَانَ، وذهب الصريحُ بالمدينة إلى بني
عَمْرُو بن عوف، فجاءت الأمدادُ ولم تزل الخيلُ تأتي،
والرجالُ على أقدامهم وعلى الإبل، حتى انتهوا إلى رسول
الله صلى الله عليه وسلم بذِي قَرَدٍ.

قصة صلح الحديبية

ولما أراد النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يعتمر
سنة ست من الهجرة في ذي القعدة قبل أن يحج؛
أرسل إلى أهل مكة يستأذنهم ليدخل مكة، فأبى أهل
مكة أن يدعوه يدخل مكة. وخرج رسول الله - صلى

(١) أُسَجِّحُ: أي: أحسن وارفق.

الله عليه وسلم - عام الحديبية^(١) في بضع عشرة مائة من أصحابه يريد زيارة البيت ، لا يريد قتالاً ، وساق معه الهدى^(٢) سبعين بدنة، فلما أتى ذا الحليفة؛ قلد الهدى وأشعره^(٣) وأحرم منها بعمره ، وأهدى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عام الحديبية في بُدنه جملاً كان لأبي جهل في رأسه برة^(٤) فضة يغيظ بذلك المشركين. وبعث عينا له من خزاعة بين يديه يخبره عن قريش ، وسار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى

(١) الحديبية: اسم بئر تقع على بعد اثنين وعشرين كيلاً إلى الشمال الغربي من مكة ، وتعرف الآن بالشميسي، وفيها حدائق الحديبية ، ومسجد الرضوان ، وأطرافها تدخل في حدود الحرم المكي ، ومعظمها من الحل خارجة.

(٢) الهدى: ما يهدى إلى الحرم من النعم والذبائح.

(٣) الإشعار: شق أحد جنبي البدنة ، حتى يسهل دمه ، وجعل ذلك لها علامة تعرف بها أنها هدى.

(٤) البرة: حلقة تجعل في أنف البعير.

إذا كان بغدير الأَشْطَاط - قريب من عسفان - " أتاه
 عينه الخزاعي، فقال: يا رسول الله ، هذه قريش قد
 سمعت بمسيرك ، فخرجت معها العُودُ المَطَافِيلُ^(١) ،
 قد لبسوا جلود النمر، وجمعوا لك الأحابيش^(٢) ،
 يعاهدون الله أن لا تدخلها عليهم عنوة أبداً ، وهذا
 خالد بن الوليد في خيلهم ، قدموا إلى كُرَاعِ الغَمِيمِ^(٣)
 وهم مقاتلوك ، وصادوك عن البيت ، ومانعوك. فقال
 رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " يا ويح قريش ،
 لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر

(١) جمع عائذ، وهي الناقة التي معها ولدها . يريد أنهم خرجوا بذوات
 الألبان ليزودوا بألبانها ولا يرجعوا حتى يناجزوك في زعمهم.

(٢) الأحابيش: هم أحياء من قبيلة القَارَةِ، انضموا إلى بني ليث في
 محاربتهم قريشاً، والتحبُّش: التَّجَمُّع، وقيل: حالفوا قُريشاً تحت
 جَبَل يُسمى حُبْشياً فسمُّوا بذلك.

(٣) كُرَاعِ الغَمِيمِ: اسمُ وادٍ أَمَامَ عُسْفَانَ.

الناس؟ ، فإن أصابوني كان الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم ، دخلوا في الإسلام وهم وافرون ، وإن لم يفعلوا ، قاتلوا وبهم قوة ، فماذا تظن قريش؟ ، والله إني لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله له ، حتى يظهره الله ، أو تنفرد هذه السالفة^(١) ، ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أشيروا علي أيها الناس ، أترون أن أميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانوهم أن يصدونا عن البيت فنصيبتهم؟ ، فإن قعدوا ، قعدوا موتورين^(٢) محروبين^(٣) ، وإن يجيئوا^(٤) ، تكن عنقاً قطعها

(١) السالفة: صفحة العنق ، وهما سالفتان من جانبيه ، أراد: حتى يفرق بين رأسي وجسدي .

(٢) الموتور: المقطوع ، أي: الذي قطع حقه ولم يدركه ، وقد تطلق على صاحب الدم الذي لم يأخذ بثأره .

(٣) المحروب: المهزوم المهموم .

(٤) في بعض النسخ : نَجَوْا . وفي بعضها: يحنون، وفي بعضها: يجيئون، من المجيء . وفي بعضها : جَأَوْا .

الله ، أوترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟" ،
فقال أبو بكر: يا رسول الله ، خرجت عامداً لهذا البيت
، لا تريد قتل أحد ، ولا حرب أحد ، فتوجه له ، فمن
صدنا عنه قاتلناه . فقال رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - : "امضوا على اسم الله".

قال جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - :
حضرت العصر^(١) يوم الحديبية وليس معنا ماء غير
فضلة، فجهش^(٢) الناس نحو رسول الله - صلى الله
عليه وسلم -، فقال: " ما لكم؟ " ، قالوا: يا رسول الله
، ليس عندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب. فقال رسول الله

(١) أي: وقت صلاتها .

(٢) الجهش: أن يفزع الإنسان إلى الإنسان ويلجأ إليه .

- صلى الله عليه وسلم -: " هل في القوم من ماء؟ " ،
فجاء رجل بإداة^(١) فيها شيء من ماء ، " فصبه رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - في قدح^(٢) ووضع كفه
في الماء والقدح ، ثم قال: بسم الله ، ثم قال: أسبغوا
الوضوء " ، قال جابر: فوالذي ابتلاني ببصري ، لقد
رأيت العيون عيون الماء يومئذ تخرج من بين أصابع
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فتوضأ الناس
وشربوا أجمعون ، لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا ألفا
وأربع مائة . ثم جاء بعد ذلك ثمانية فقالوا: هل من
طهور؟ ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "
فرغ الوضوء " .

(١) الإداة: إناء صغير من جلد يحمل فيه الماء وغيره .

(٢) القدح: من الآنية ، يروي الرجلين .

حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - : إن خالد بن الوليد بالغميم^(١)
في خيل لقريش طليعة^(٢) ؛ فخذوا ذات اليمين .
فسلكوا ذات اليمين ، بين ظهري الحمض^(٣) ، على
طريق تخرجه على ثنية المزار^(٤) والحديبية ، من أسفل
مكة ، فوالله ما شعر بهم خالد ، فلما رأت خيل قريش
قترة الجيش^(٥) قد خالفوا عن طريقهم ، نكصوا راجعين
إلى قريش نذيراً لقريش ، وسار رسول الله - صلى الله

(١) الغميم: موضع قريب من مكة بين رابغ والجحفة.

(٢) الطليعة: مقدمة الجيش ، أو الذي ينظر للقوم ، ثلثا يدهمهم
عدو .

(٣) الحمض: ما ملح وأمر من النبات، وهي كالفاكهة للإبل .

(٤) الثنية: هو الطريق العالي في الجبل . والمزار: بكسر الميم، وبضمها:
موضع بين مكة والمدينة من طريق الحديبية .

(٥) القترة: الغبار أو شبه الدخان .

عليه وسلم - حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها ، بركت به راحلته ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :- حل حل .^(١) فقال الناس : خلأت القصواء ، خلأت القصواء .^(٢) فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :- " ما خلأت القصواء ، وما ذلك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة ، ثم قال : والله لا تدعوني قریش اليوم إلى خطة^(٣) يعظمون بها حرمان الله^(٤) إلا أعطيتهم إياها ، ثم زجرها فوثبت فعدل عنهم

(١) حل: صوت تزجر به الدابة لتحمل على السير.

(٢) خلأت: بركت من غير علة . و خلأ: إذا برک فلم یقم . والقصواء: الناقة المقطوعة الأذن، وكان ذلك لقباً لنانة النبي - صلى الله عليه وسلم - وقيل أنها لم تكن مقطوعة الأذن، وقال بعضهم بل مقطوعة .
(٣) أي: خصلة .

(٤) أي: من ترك القتال في الحرم .

، حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد^(١) قليل الماء يتبرضه
الناس تبرضاً ، فلم يلبثه الناس أن نزحوه.

قال البراء بن عازب - رضي الله عنه - : كنا يوم
الحديبية أربع عشرة مائة - والحديبية بئر - فنزحناها
حتى لم نترك فيها قطرة فشكى إلى رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - العطش ، فانتزع رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - سهما من كنانته^(٢) ثم أمرهم أن
يجعلوه فيه ، فأعطاه رجلا من أصحابه فنزل في قلب^(٣)
من تلك القلب فغرزه فيه ، فجلس رسول الله - صلى

(١) أي: حفيرة فيها ماء قليل ، يقال: ماء مثمود: أي قليل ، فيكون
لفظ قليل بعد ذلك تأكيدا ، لدفع توهم أن يراد لغة من يقول: إن
الثمد الماء الكثير .

وقيل: الثمد: ما يظهر من الماء في الشتاء ، ويذهب في الصيف .

(٢) الكنانة: جعبة صغيرة من جلد ، تحمل فيها السهام .

(٣) القلب: البئر التي لم تطو .

الله عليه وسلم - على شفير^(١) البئر، ثم قال: "ائتوني بدلو من مائها"، فأتي به، فتمضمض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منه، ثم مجه في البئر ودعا. ثم قال: "دعوها ساعة". فتركناها غير بعيد، ثم استقينا فجاش الماء بالرواء، حتى ضرب الناس عنه بعطن^(٢)، حتى روينا وروت ركائبنا حتى ارتحلنا.

قال عبد الله بن مغفل المزني - رضي الله عنه -
: هبط ثمانون رجلاً من أهل مكة على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه يوم الحديبية من جبل التنعيم متسلحين عند صلاة الفجر يريدون غرة النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ليقتلوهم،

(١) الشفير: الجانب والناحية.

(٢) العطن: مبرك الإبل، يقول: حَتَّى رَوَيْتِ الْإِبِلَ فَأَنَاخَتْ.

فدعا عليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخذ
الله - عز وجل - بأبصارهم ، فقدمنا إليهم فأخذناهم
، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "هل جئتم
في عهد أحد ، أو هل جعل لكم أحد أماناً؟" ، قالوا: لا
، فخلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سبيلهم ،
فأنزل الله - عز وجل - : {وهو الذي كف أيديهم عنكم
وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ،
وكان الله بما تعملون بصيراً}.

فبينما هم كذلك ، إذ جاء بديل بن ورقاء
الخرافي في نفر من قومه من خزاعة - وكانوا عيبة

نصح^(١) لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أهل تهامة - فقال: إني تركت كعب بن لؤي^(٢) ، وعامر بن لؤي نزلوا أعداد^(٣) مياه الحديبية ، معهم العوذ المطافيل^(٤) وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إنا لم نجئ لقتال

(١) العيبة: ما توضع فيه الثياب لحفظها، أي أنهم موضع النصح له ، والأمانة على سره، كأنه شبه الصدر الذي هو مستودع السر، بالعبية التي هي مستودع الثياب .

(٢) إنما اقتصر على ذكر هذين ، لكون قريش الذين كانوا بمكة أجمع ، ترجع أنسابهم إليهما .

(٣) الأعداد: جمع عد ، وهو الماء الذي لا انقطاع له، وقول بديل هذا يشعر بأنه كان بالحديبية مياه كثيرة ، وأن قريشا سبقوا إلى النزول عليها ، فلهذا عطش المسلمون حيث نزلوا على الثمد المذكور .

(٤) العوذ: جمع عائد ، وهي الناقة ذات اللبن، والمطافيل: الأمهات اللاتي معها أطفالها، يريد أنهم خرجوا معهم بذوات الألبان من الإبل ، ليتزودوا بألبانها ، ولا يرجعوا حتى يمنعوهم، أو كنى بذلك عن النساء معهن الأطفال، والمراد أنهم خرجوا منهم بنسائهم وأولادهم ، لإرادة طول المقام ، وليكون أدعى إلى عدم الفرار، ويحتمل إرادة المعنى الأعم، وسميت كل أنثى بذلك وإن كان الولد هو الذي يعوذ بها ، لأنها تعطف عليه بالشفقة والحنو، كما قالوا: تجارة رابحة ، وإن كانت مربوحا فيها .

أحد ، ولكننا جئنا معتمرين ، وإن قريشا قد نهكتهم^(١)
الحرب فأضرت بهم ، فإن شاءوا ماددتهم مدة^(٢) ،
ويخلوا بيني وبين الناس^(٣) فإن أظهر ، فإن شاءوا أن
يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإلا فقد جموا^(٤)
وإن هم أبوا ، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري
هذا حتى تنفرد سالفتي ، ولينفذن الله أمره^(٥) " ، فقال
بديل: سأبلغهم ما تقول. فرجعوا إلى قريش ، فقالوا: يا
معشر قريش ، إنكم تعجلون على محمد ، وإن محمدا لم
يأت لقتال ، إنما جاء زائراً لهذا البيت ، معظما لحقه ،

(١) (نهكتهم) بكسر الهاء أي: أبلغت فيهم حتى أضعفتهم، إما
أضعفت قوتهم وإما أضعفت أموالهم.

(٢) أي: جعلت بيني وبينهم مدة يترك الحرب بيننا وبينهم فيها .

(٣) أي: من كفار العرب وغيرهم .

(٤) أي: إن أظهر أنا على غيرهم ، فإن شاءوا أطاعوني ، وإلا فلا تنقضي
مدة الصلح إلا وقد جموا، أي: استراحوا وقووا .

(٥) أي: في نصر دينه .

فاتهموهم - وكانت خزاعة في عيبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مسلمها ومشركها ، لا يخفون على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شيئاً كان بمكة - قالوا: وإن كان إنما جاء لذلك ، فلا والله لا يدخلها أبداً علينا عنوة ، ولا نتحدث بذلك العرب ، ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص بن الأخيف ، أحد بني عامر بن لؤي ، فلما رآه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "هذا رجل غادر" ، فلما انتهى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كلمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بنحو مما كلم به أصحابه ، ثم رجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فبعثوا إليه المجلس بن علقمة الكناني - وهو يومئذ

سيد الأحابيش - فلما رآه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "هذا من قوم يعظمون الهدى؛ فابعثوا الهدى في وجهه"، فبعثوا الهدى، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده، قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله، واستقبله الناس يلبنون، قال: سبحان الله، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت. فرجع ولم يصل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فرجع ولم يصل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إعظاماً لما رأى، فقال: يا معشر قريش، قد رأيت ما لا يحل صده الهدى في قلائده، قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله، فقالوا: اجلس: إنما أنت أعرابي لا علم لك، فبعثوا إليه عروة بن مسعود الثقفي، فقال: يا معشر قريش، إني قد رأيت ما يلقي منكم من

تبعثون إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم والد وأني ولد. ^(١) وقد سمعت بالذي نابكم ، فجمعت من أطاعني من قومي ، ثم جئت حتى آسيتكم بنفسي ، قالوا: صدقت. قال: فهل تتهمونني؟ ، قالوا: لا ، فقال: إِنَّ هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ، ودعوني آته ، قالوا: آته. فخرج حتى أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجلس بين يديه ، فجعل يكلم النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نحواً من قوله لبديل ^(٢) ، فقال عروة عند ذلك: أي محمد ، أرايت إن

(١) أم عروة هي سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف، فأراد بقوله: " أَلَسْتُمْ بِالْوَالِدِ ": أنكم حي قد ولدوني في الجملة ، لكون أُمي منكم .
 (٢) أي: أخبره أنه لم يأت يريد حرباً .

استأصلت قومك؟ ، هل سمعت بأحد من العرب
اجتاح أهله^(١) قبلك؟ ، وإن تكن الأخرى^(٢) فوالله إني
لأرى وجوها ، وأرى أوباشاً^(٣) من الناس لكأني بهم قد
انكشفوا عنك غداً - قال: وأبو بكر الصديق - رضي
الله عنه - خلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
قاعد - فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات^(٤)، أنحن
نفر عنه وندعه؟ فقال: من هذا يا محمد؟ ، قال: " هذا

(١) أي: أهلك أهله بالكلية .

(٢) قال: " وإن تكن الأخرى " تأدبا مع النبي - صلى الله عليه وسلم -
والمعنى: وإن تكن الغلبة لقريش لا آمنهم عليك .

(٣) الأوباش: الأخلاط من السفلة .

(٤) البظر: قطعة تبقى بعد الختان في فرج المرأة، واللات: اسم أحد
الأصنام التي كانت قريش وثقيف يعبدونها، وكانت عادة العرب الشتم
بذلك ، لكن بلفظ الأم ، فأراد أبو بكر المبالغة في سب عروة ، بإقامة
من كان يعبد مقام أمه ، وحمله على ذلك ما أغضبه به من نسبة
المسلمين إلى الفرار .

ابن أبي قحافة " ، قال: والله لولا يد^(١) كانت لك عندي لم أجرك بها لأجبتك، ولكن هذه بها^(٢) ، ثم تناول لحية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمغيرة بن شعبة قائم على رأس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومعه السيف^(٣) وعليه المغفر - فضرب يده بنصل السيف ، وقال: أخريدك عن لحية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل والله أن لا ترجع إليك. فرفع عروة رأسه ، فقال: ويحك ما أفظك وأغظك.

(١) أي: نعمة ومعروف.

(٢) أي: جازاه بعدم إجابته عن شتمه ، بيده التي كان أحسن إليه بها، وبين الزهري في هذا الحديث أن اليد المذكورة ، أن عروة كان تحمل بديّة ، فأعانه أبو بكر فيها بعون حسن.

(٣) فيه جواز القيام على رأس الأمير بالسيف بقصد الحراسة ونحوها من ترهيب العدو، ولا يعارضه النهي عن القيام على رأس الجالس ، لأن محله ما إذا كان على وجه العظمة والكبر.

فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فقال:
 من هذا يا محمد؟ ، قال: هذا ابن أخيك ، المغيرة بن
 شعبة ، فقال: أي غدر، ^(١) هل غسلت سواتك إلا
 بالأمس؟. وكان المغيرة صحب قومًا في الجاهلية ،
 فقتلهم وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم ، فقال له رسول
 الله - صلى الله عليه وسلم - : " أما الإسلام فقد قبلنا
 ، وأما المال ، فإنه مال غدر ، لا حاجة لنا فيه " ^(٢). فكلمه
 رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمثل ما كلم به

(١) (غدر) مبالغة في وصفه بالغدر.

(٢) يستفاد منه أنه لا يحل أخذ أموال الكفار في حال الأمن غدرًا ،
 لأن الرفقة يصطحبون على الأمانة ، والأمانة تؤدي إلى أهلها ،
 مسلما كان أو كافرا ، وأن أموال الكفار إنما تحل بالمحاربة والمغالبة ،
 ولعل النبي - صلى الله عليه وسلم - ترك المال في يده لإمكان أن
 يسلم قومه ، فيرد إليهم أموالهم ، ويستفاد من القصة أن الحربي إذا
 أتلّف مال الحربي ، لم يكن عليه ضمان ، وهذا أحد الوجهين
 للشافعية.

أصحابه ، فأخبره أنه لم يأت يريد حرباً ، فقام من عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد رأى ما يصنع به أصحابه؛ إذا توضعاً كادوا يقتتلون على وضوءه، ولا يبصق بصاقة إلا وقعت في كف رجل منهم ، فذلك بها وجهه وجلده، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذه، وإذا أمرهم؛ ابتدروا أمره ، وإذا تكلموا ، خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون إليه النظر ^(١) تعظيماً له. فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش، والله لقد وفدت على الملوك ، ووفدت على قيصر وكسرى ، والنجاشي ، والله ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدًا - صلى الله عليه وسلم -

(١) أحد البصر: نظر بامعان وتدقيق.

والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم ،
 فذلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ،
 وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلموا ،
 خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون إليه النظر تعظيماً
 له فلقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً، وإنه قد
 عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها. وقد كان رسول الله
 - صلى الله عليه وسلم - قبل ذلك بعث خراش بن
 أمية الخزاعي إلى مكة ، وحمله على جمل له يقال له:
 "الثعلب" ، فلما دخل مكة ، عقرت به قريش وأرادوا
 قتل خراش ، فمنعهم الأحابيش ، حتى أتى رسول الله
 - صلى الله عليه وسلم - ، فدعا رسول الله - صلى الله
 عليه وسلم - عمر ليعثه إلى مكة ، فقال: يا رسول

الله ، إني أخاف قريشاً على نفسي ، وليس بها من بني عدي أحد يمنعني ، وقد عرفت قريش عداوتي إياها ، وغلظتي عليها ، ولكن أدلك على رجل هو أعز مني ، عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ، فدعاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فبعثه إلى قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وأنه جاء زائراً لهذا البيت ، معظماً لحرمة ، فلو كان أحد أعز بطن مكة من عثمان لبعثه مكانه.

فخرج عثمان حتى أتى مكة ، فلقاه أبا بن سعيد بن العاص ، فنزل عن دابته ، وحمله بين يديه وردف خلفه ، وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فانطلق عثمان حتى أتى أبا

سفيان وعظماء قريش ، فبلغهم عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما أرسله به ، فقالوا لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به ، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، قال: فاحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين أن عثمان قد قُتل.

وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيده اليمنى: "هذه يد عثمان"، فضرب بها على يده.

قال جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - في قوله تعالى: {لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك

تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحاً قريباً}. قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربع مائة، فبايعنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تحت الشجرة وهي سمرة -. بايعناه على أن لا نفر ، ولم نبايعه على الموت. فبايعناه كلنا إلا الجد بن قيس ، اختبأ تحت بطن بعير ، ونحزنا يومئذ سبعين من البدن ، لكل سبعة جزور. فقال لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " أنتم اليوم خير أهل الأرض ". قال جابر: لو كنت أبصر ، لأريتكم موضع الشجرة. قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " لن يدخل النار رجل شهد بدرًا والحديبية، لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة ".

ثم إن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو - أحد بني عامر بن لؤي - فقالوا: ائت محمداً فصالحه ، ولا يكون في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً ، فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " سهل الله أمركم، لقد سهل من أمركم، قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل " ، فلما انتهى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تكلم وأطال الكلام ، وتراجعا ، حتى جرى بينهما الصلح ، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب ، وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر ، فقال: يا أبا بكر ، أوليس برسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ ، أولسنا بالمسلمين ؟ ، أوليسوا

بالمشركين؟ قال: بلى ، قال: فعلام نعطي الذلة في ديننا؟ ، فقال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه^(١) حيث كان ، فأني أشهد أنه رسول الله ، فقال عمر: وأنا أشهد ، ثم أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله ، أولسنا بالمسلمين؟ أوليسوا بالمشركين؟ ، قال: " بلى " ، قال: فعلام نعطي الذلة في ديننا؟ ، فقال: " أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره وهو ناصري " ، فقال له عمر: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ ، قال: " بلى ، أفأخبرتك أنك تأتيه العام؟ " ، قال: لا ، قال: " فإنك آتية ، ومتطوف به " ، ثم دعا

(١) المراد بـ "إلزم غرزه" : التمسك بأمره وترك المخالفة له كالذي يمسك بركاب الفارس فلا يفارقه. والغرزه هو: ركاب كور الجمل، وقيل: هو الكور مطلقاً مثل الركاب للسرّج.

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - علي بن أبي طالب
 - رضي الله عنه - فقال له رسول الله - صلى الله عليه
 وسلم - : اكتب: "بسم الله الرحمن الرحيم"، فقال
 سهيل بن عمرو: أما "بسم الله الرحمن الرحيم"، فما
 ندري ما "بسم الله الرحمن الرحيم"، أما "الرحمن"،
 فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب ما نعرف: باسمك
 اللهم، كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا
 نكتبها إلا "بسم الله الرحمن الرحيم"، فقال رسول
 الله - صلى الله عليه وسلم - : " اكتب باسمك اللهم،
 هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو."
 فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله،
 لاتبعناك وما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن

اكتب: اسمك واسم أبيك، محمد بن عبد الله ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " والله إني لرسول الله وإن كذبتُموني ، اكتب: هذا ما اصطُح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو على وضع الحرب عشر سنين ، يأمن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، وعلى أن بيننا عيبة مكفوفة، ^(١) وأنه لا إسلال ولا إغلال ^(٢) ، وعلى أنه من أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أصحابه بغير إذن وليه ، رده عليهم ، ومن أتى قريشاً ممن مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم

(١) أي: أمراً مطوياً في صدور سليمة، وهو إشارة إلى ترك المؤاخذة بما تقدم بينهم من أسباب الحرب وغيرها، والمحافظة على العهد الذي وقع بينهم.

(٢) أي: لا سرقة ، ولا خيانة، فالإسلال من السلة ، وهي: السرقة، والإغلال: الخيانة ، تقول: أغل الرجل ، أي: خان، أما في الغنيمة ، فيقال: غل ، بغير ألف.

والمراد: أن يأمن بعضهم من بعض في نفوسهم وأموالهم ، سرا وجهرا.

- لم يردوه عليه. فقالوا: يا رسول الله، أنكتب هذا؟ ،
قال: " نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن
جاءنا منهم ، سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً ".

وكان في شرطهم حين كتبوا الكتاب ، أنه من
أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن
أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه -
فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن مع عقد رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - وعهده ، وتواثبت بنو بكر فقالوا:
نحن في عقد قريش وعهدهم -. فقال رسول الله - صلى
الله عليه وسلم : "على أن تخلوا بيننا وبين البيت
فنطوف به" ، فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا
أخذنا ضغطة ، ولكن ترجع عنا عامنا هذا ، فلا تدخل

علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك ،
فتدخلها بأصحابك ، وأقمت فيهم ثلاثاً ، معك سلاح
الراكب ، لا تدخلها بغير السيوف في القرب^(١) فبينما
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يكتب الكتاب؛
إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في
قيوده^(٢) - وقد خرج من أسفل مكة ، حتى رمى بنفسه
بين أظهر المسلمين، وقد كان أصحاب رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - خرجوا وهم لا يشكون في الفتح
، لرؤيا رآها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فلما
رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع ، وما تحمل رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - على نفسه ، دخل الناس من

(١) جمع قراب ، وهو غمد السيف .

(٢) أي: يمشي مشياً بطيئاً بسبب القيد .

ذلك أمر عظيم ، حتى كادوا أن يهلكوا - فلما رأى سهيل أبا جندل ، قام إليه فضرب وجهه ، ثم قال: يا محمد ، قد لجت^(١) القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا ، قال: " صدقت. فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلي ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "إنا لم نقض الكتاب بعد" ، قال: فوالله إذا لم أصالحك على شيء أبداً ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " فأجزه لي " ، قال: ما أنا بمجيزه لك ، قال: " بلى فافعل " ، قال: ما أنا بفاعل. فقام إليه فأخذ بتليبيه،^(٢) فصرخ أبو جندل بأعلى

(١) أي: وجبت.

(٢) أخذ بتليبيه ، وتلابيه: إذا جمعت ثيابه عند صدره ونحره ، ثم جررته. وكذلك إذا جعلت في عنقه حبلا أو ثوبا ثم أمسكته به ، واللبة: موضع الذبح ، والتاء في التليب زائدة.

صوته: يا معاشر المسلمين ، أتردونني إلى أهل الشرك
 فيفتنوني في ديني وقد جئت مسلماً؟ ، ألا ترون ما قد
 لقيت؟ - وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله - فزاد
 الناس شراً إلى ما بهم، وقالوا: سبحان الله ، كيف يُرَدُّ
 إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟، فقال رسول الله -
 صلى الله عليه وسلم -: " يا أبا جندل ، اصبر
 واحتسب ، فإن الله - عز وجل - جاعل لك ولمن معك
 من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين
 القوم صلحاً ، فأعطيناهم على ذلك ، وأعطونا عليه
 عهداً ، وإنا لن نغدر بهم " ، فوثب عمر بن الخطاب
 إلى أبي جندل ، فجعل يمشي إلى جنبه وهو يقول: اصبر
 أبا جندل ، فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم

كلب ، قال: ويدني قائم السيف منه ، قال عمر:
رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه ، فضن الرجل
بأبيه. ونفذت القضية.

فلما فرغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
من قضية الكتاب؛ قال لأصحابه: "قوموا فانحروا ثم
احلقوا". قال: فوالله ما قام منهم رجل، ثم عاد بمثلها،
فما قام رجل، ثم عاد بمثلها ، فما قام رجل، حتى قال
ذلك ثلاث مرات. فرجع رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - فدخل على أم سلمة - رضي الله عنها - فقال:
يا أم سلمة ، ما شأن الناس؟ ، قالت: يا رسول الله ،
قد دخلهم ما قد رأيت ، فلا تكلمن منهم إنساناً ، واعمد
إلى هديك حيث كان ، فانحره واحلق ، فلو قد فعلت

ذلك فعل الناس ذلك. فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يكلم أحداً ، حتى أتى هديه فنحره بالحديبية قبل أن يخلق ، ثم دعا حالقه فخلق. فلما رأوا ذلك ، قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يخلق بعضاً. حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً. فخلق رجال يوم الحديبية ، وقصر آخرون ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "اللهم اغفر للمخلقين" ، قالوا: يا رسول الله ، وللمقصرين؟ ، قال: " اللهم اغفر للمخلقين " ، قالوا: يا رسول الله ، وللمقصرين؟ قال: " اللهم اغفر للمخلقين " ، قالوا: يا رسول الله ، وللمقصرين؟ قال: " وللمقصرين ". قالوا: فما بال المخلقين يا رسول الله

ظاهرت لهم الرحمة ثلاثاً^(١) وللمقصرين واحدة؟، قال:
"إنهم لم يشكّوا".^(٢)

نزول سورة الفتح

قال سهل بن حنيف - رضي الله عنه - : كنا
مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم الحديبية
، ولو نرى قتالا لقاتلنا، ولقد رأيتني يوم أبي جندل ،
ولو أستطيع أن أرد أمر النبي - صلى الله عليه وسلم -
لرددته، والله ورسوله أعلم، فجاء عمر بن الخطاب -
رضي الله عنه - فقال: يا رسول الله ، ألسنا على الحق

(١) أي: أعنتهم وأيدتهم بالدعاء لهم ثلاث مرات.

(٢) أي: ما عاملوا معاملة من يشك في أن الاتباع أحسن ، وأما من
قصر فقد عامل معاملة الشاك في ذلك ، حيث ترك فعله - صلى الله
عليه وسلم - .

وهم على الباطل؟ ، قال: " بلى " ، فقال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ ، قال: " بلى " ، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ ، أنرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
 "يا ابن الخطاب ، إني رسول الله ، ولن يضيعني الله أبداً". فرجع عمر متغيظاً ، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر ، فقال: يا أبا بكر، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ ، قال: يا ابن الخطاب، إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبداً.

قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : كنا نسير مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في بعض أسفاره ليلاً فسألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم

- عن شيء " فلم يجبني " ، ثم سأله ، " فلم يجبني " ،
ثم سأله " فلم يجبني " . فقلت لنفسي: ثكلتك أمك^(١)
يا ابن الخطاب؛ نزلت^(٢) رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - ثلاث مرات ، " كل ذلك لا يجيبك؟ " ، قال
عمر: فحركت بعيري ، ثم تقدمت أمام المسلمين ،
وخشيت أن ينزل في قرآن.

قال أنس - رضي الله عنه - : "نزلت على النبي -
صلى الله عليه وسلم - : {إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ،
ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته
عليك ، ويهديك صراطاً مستقيماً ، وينصرك الله نصراً
عزيزاً} مرجعه من الحديبية وأصحابه يخالطهم الحزن

(١) أي: فقدتك، وأصله الدعاء بالموت ، ثم استعمل في التعجب .

(٢) أي: ألححت .

والكآبة، قد حيل بينهم وبين مناسكهم ، ونحروا الهدى بالحديبية، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
" لقد نزلت علي آيتان ، هما أحب إلي من الدنيا جميعاً، فلما تلاهما قال رجل: هنيئاً مريئاً يا رسول الله، قد بين الله لك ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ ، فأنزل الله - عز وجل - الآية التي بعدها: {ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها ، ويكفر عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً}.

حتى إذا كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين مكة والمدينة في وسط الطريق ، نزلت سورة

الفتح^(١) قال عمر: فما نشبت أن سمعت منادياً ينادي:
يا عمر، أين عمر؟ ، قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل
في شيء. فجئت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم
- فسلمت عليه، فقال: "يا ابن الخطاب، لقد أنزل علي
هذه الليلة سورة، لهي أحب إلي مما طلعت عليه
الشمس، ثم قرأ: {إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً، ليغفر لك

(١) فما فُتِح في الإسلام فَتَحُ قبله كان أعظم من فتح الحديبية، إنما كان القتال حيث التقى الناس، ولما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمن الناس، كلم بعضهم بعضاً، والتقوا، وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً في تلك المدة إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر. وكان مقدمة الفتح الأعظم الذي دخل الناس عقبه في دين الله أفواجاً، وكانت الهدنة مفتاحاً لذلك، ولما كانت قصة الحديبية مقدمة للفتح، سميت فتحاً، فإن الفتح في اللغة: فتح المغلق، والصلح كان مغلقاً حتى فتحه الله، وكان من أسباب فتحه صد المسلمين عن البيت، وكان في الصورة الظاهرة ضيماً للمسلمين، وفي الصورة الباطنة، عزاً لهم، فإن الناس لأجل الأمن الذي وقع بينهم، اختلط بعضهم ببعض من غير نكير، وأسمع المسلمون المشركين القرآن، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين، وكانوا قبل ذلك لا يتكلمون عندهم بذلك إلا خفية، وظهر من كان يخفي إسلامه، فذل المشركون من حيث أرادوا العزة، وأقهروا من حيث أرادوا الغلبة.

الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ،
ويهديك صراطاً مستقيماً ، وينصرك الله نصراً عزيزاً} .
فقرأها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على عمر
إلى آخرها. فقال عمر: يا رسول الله ، أَوَ فتح هو؟ ،
قال: " نعم " . فطابت نفسه ورجع .

وأنزل الله - عز وجل - فيها : {هم الذين كفروا
، وصدوكم عن المسجد الحرام ، والهدي معكوفاً أن
يبلغ محله ، ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم
تعلموهم ، أن تطئوهم ، فتصيبكم منهم معرة^(١) بغير
علم ، ليدخل الله في رحمته من يشاء ، لو تزيلوا^(٢)
لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً ، إذ جعل الذين

(١) المعرة: الأمر القبيح المكروه ، والأذى .

(٢) أي: لو تميزوا .

كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية { وكانت
حميتهم أنهم لم يقرؤا أنه نبي الله ، ولم يقرؤا بـ "بسم
الله الرحمن الرحيم" ، وحالوا بينهم وبين البيت.

قدوم المهاجرات من مكة

ثم رجع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى
المدينة ، فجاءه نسوة مؤمنات مهاجرات - وكانت أم
كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - يومئذ وهي عاتق^(١) -
فجاء أهلها يسألون النبي - صلى الله عليه وسلم - أن
يرجعها إليهم ، فلم يرجعها إليهم ، لما أنزل الله فيهن:

(١) العاتق: الشابة أول ما تدرك ، وقيل: هي التي لم تبين من والديها ،
ولم تزوج وقد أدركت وشبت ، وتجمع على عواتق.

{يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ، الله أعلم بإيمانهن ، فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن إلى الكفار ، لا هن حل لهم ، ولا هم يحلون لهن ، وآتوهن ما أنفقوا ، ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتهن أجورهن ، ولا تمسكوا بعصم الكوافر}، فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك ، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أمية. {واسألوا ما أنفقتم ، وليسألوا ما أنفقوا} فنهاهم الله أن يردوهن ، وأمرهم أن يردوا الصداق. فلما أبى الكفار أن يقرؤا بأداء ما أنفق المسلمون على أزواجهم ، أنزل الله تعالى: {وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتهم} والعقب: ما

يؤدي المسلمون إلى من هاجرت امرأته من الكفار
{فآتوا الذين ذهب أزواجهم مثل ما أنفقوا} فأمر الله
أن يعطى من ذهب له زوج من المسلمين ، ما أنفق من
صداق نساء الكفار اللاتي هاجرن. (١)

قصة أبي بصير

ثم جاءه أبو بصير - رجل من قريش - وهو مسلم
، فأرسلوا في طلبه رجلين ، فقالوا: العهد الذي جعلت
لنا. فدفعه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى
الرجلين ، فخرجا به ، حتى بلغا ذا الحليفة ، نزلوا يأكلون
من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني

(١) أي : وإن فُرِضَ خروجُ بعض نسائكم إلى الكفار مُرْتَدَّاتٍ وطلبتن
مهورهن من الكفار ولم يعطوها، فغنمتن من الكفار فأعطوا الأزواج
الذين خرجت زوجاتهم مُرْتَدَّاتٍ مثل ما بذلوا من المهور.

لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً ، فاستله الآخر فقال:
 أجل قد جربت به ثم جربت ، فقال أبو بصير: أرني
 أنظر إليه ؟ ، فأمكنه منه ، فضربه حتى برد^(١) وفر الآخر
 حتى أتى المدينة ، فدخل المسجد يعدو ، فقال رسول
 الله - صلى الله عليه وسلم - حين رآه: " لقد رأى هذا
 ذعراً " ، فلما انتهى إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -
 قال: قُتِلَ والله صاحبي ، وإني لمقتول ، فجاء أبو بصير
 فقال: يا نبي الله ، قد والله أوفى الله ذمتك ، قد رددتني
 إليهم ، ثم أنجاني الله منهم ، فقال رسول الله - صلى
 الله عليه وسلم -: " ويل أمه ، مسعر^(٢) حرب لو كان

(١) أي: مات.

(٢) أي: يسعرها ، والمسعر: هو العود الذي يحرك به النار.

له أحد^(١) ، فلما سمع ذلك ، عرف أنه سيرده إليهم .
ولم يأت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أحد من
الرجال ، إلا رده في تلك المدة ، وإن كان مسلماً . فخرج
حتى أتى سيف البحر^(٢) وانفلت منهم أبو جندل بن
سهيل فلحق بأبي بصير ، فجعل لا يخرج من قريش
رجل قد أسلم ، إلا لحق بأبي بصير ، حتى اجتمعت
منهم عصابة ، فوالله ما يسمعون يعير^(٣) خرجت
لقريش إلى الشام ، إلا اعترضوا لها ، فقتلوهم وأخذوا
أموالهم ، فلما رأى ذلك كفار قريش ، ركب نفر منهم
إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا: إنها لا

(١) أي: ينصره ويعاضده ويناصره . كأنه يصفه بالإقدام في الحرب .

(٢) أي: ساحله . في العيص بكسر العين ، وهي طريق أهل مكة إذا
قصدوا الشام ويحاذي المدينة إلى جهة الساحل .

(٣) أي: قافلة .

تغني مدتك شيئاً ونحن نقتل وتنهب أموالنا ، وإنا
نسألك أن تدخل هؤلاء الذين أسلموا منا في صلحك ،
وتمنعهم وتحجز عنا قتالهم. فأرسل رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - إليهم.

وقيل أن الحج فرض هذا العام، وقيل غير ذلك.
وقد كان الحج معروفاً قبل الإسلام فإبراهيم أذن في
الناس بالحج وحج موسى وغيره من الأنبياء وبقي الحج
معروفاً ولكن بدل فيه المشركون ما بدلوا وأول من بدل
عمرو بن لحي ثم فرض الله تعالى الحج على المسلمين لمن
استطاع إليه سبيلاً (ولله على الناس حج البيت من
استطاع إليه سبيلاً) وبين الرسول صلى الله عليه وسلم
مناسكه بتمامها في حجة الوداع سنة ١٠هـ.

دعوة الملوك إلى الإسلام

وَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -
مِنَ الْحَدِيثَةِ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ سِتٍّ، أَرْسَلَ الرَّسُلَ
إِلَى الْمُلُوكِ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَتَبَ إِلَيْهِمْ كُتُبًا ،
فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الْمُلُوكَ لَا يَقْرَءُونَ كِتَابًا إِلَّا
مُخْتُومًا، " فَاتَّخَذَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -
يَوْمَئِذٍ خَاتَمًا مِنْ فِصَّةٍ، فَصَّهُ مِنْهُ، نَقَشَهُ ثَلَاثَةَ أَسْطُرٍ:
مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، وَخَتَمَ بِهِ الْكُتُبَ ، فَخَرَجَ سِتَّةَ نَفَرٍ فِي

يَوْمٍ وَاحِدٍ، وَذَلِكَ فِي الْمُحَرَّمِ سَنَةِ سَبْعٍ، وَأَصْبَحَ كُلُّ
رَجُلٍ مِنْهُمْ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِ الْقَوْمِ الَّذِينَ بَعَثَهُ إِلَيْهِمْ. (١) (٢)

(١) قال بعض العلماء أن ذلك كان معجزة من معجزاته عليه الصلاة والسلام.

(٢) هدفت الدعوة الإسلامية إلى تخفيف معاناة الإنسان في الحياة، وتحرير الإنسان من الأوهام والأساطير والخرافات والشعوذة التي يقوم بها منتفعون يزعمون أنهم وسطاء بين الله والناس. وفتحت بصيرة المؤمن على عاقبة ظلم الإنسان لترسي أساساً للعدل السياسي والاجتماعي، وبناء مجتمع العدل والقوة (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز) فالكتاب والميزان لإقامة العدل، والحديد لإيجاد القوة التي تحمي العدل وتكفل استمراره على مبدأ المساواة بين البشر دون اعتبار للثروة والجاه ولا اللون أو العرق. وجعلت الشورى أساساً للنظام السياسي والاجتماعي. كما توازن الدعوة الإسلامية بين المطالب الروحية والدينية، وتنظر إلى عمران الأرض وزينة الحياة وطيباتها نظرة متفائلة، فلا تطالب البشر بالتبتل والحرمان والنأي عن استثمار الطاقات المتنوعة لمصالحهم، وتربي الأتباع على الإتقان، والإتقان يقابل بمصطلحات العصر (التكنولوجيا)، والإحسان مرتبة عليا فوق الإسلام والإيمان.

وكان من مقاصد الدعوة الإسلامية حفظ النوع الإنساني واستمراره في الوجود، بتشريع الزواج وتحسين الأسرة وتحريم اتلاف النفس البشرية بالقتل أو الانتحار، وهي تفتح أبواب التوبة أمام العالمين مهما بلغت معاصيهم دون الحاجة إلى الاعتراف أمام وسيط أو كشف مستور للآخرين. وتؤكد على التكافل والتعاون بين الناس ابتداءً

الإرسال إلى ملك الحبشة وإسلامه

وَكَانَ أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمَرِيُّ - رضي الله عنه - إِلَى النَّجَاشِيِّ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابَيْنِ، يَدْعُوهُ فِي أَحَدِهِمَا إِلَى الْإِسْلَامِ، وَيَتْلُو عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، فَأَخَذَ كِتَابَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَوَضَعَهُ عَلَى عَيْنَيْهِ، وَنَزَلَ مِنْ سَرِيرِهِ فَجَلَسَ عَلَى الْأَرْضِ تَوَاضِعًا، ثُمَّ أَسْلَمَ وَشَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقِّ، وَقَالَ: لَوْ كُنْتُ أَسْتَطِيعُ أَنْ آتِيَهُ لَأَتَيْتُهُ،

بصلة الأرحام وانتهاءً بالمجتمع بالحث على السخاء والكرم والإيثار ومراعاة حقوق الجيران، وحماية الملكية الفردية، وحثت على دوام تداول الأموال بالاستثمار، ومنعت تبديدها حتى من قبل صاحبها فحجرت عليه إذا كان سفيهاً لا يدرك عواقب إتلاف الثروة، وحرمت الربا والاحتكار منعاً لانهصار المال بأيدي قليلة. وكانت عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر تحفز روح المغامرة الجهادية والعلمية والتجارية، وتدفع للبذل والتضحية لبناء الأمة وكيانها الحضاري. واهتمت الدعوة الإسلامية بالعلم فهو فريضة على كل مسلم، ووعدت بالأجر العظيم على طلبه.

وَكَتَبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِإِجَابَتِهِ
وَتَصَدِّقِهِ وَإِسْلَامِهِ عَلَى يَدَيِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ -
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَفِي الْكِتَابِ الْآخِرِ
يَأْمُرُهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يُزَوِّجَهُ أُمَّ
حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ ، وَأَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْكِتَابِ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِمَنْ
قَبْلَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَيَحْمِلَهُمْ ، فَفَعَلَ، فَزَوَّجَهُ أُمَّ حَبِيبَةَ
بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ، وَأَصْدَقَ عَنْهُ أَرْبَعِمِائَةَ دِينَارٍ، وَأَمَرَ
بِجَهَازِ الْمُسْلِمِينَ وَمَا يُصْلِحُهُمْ، وَحَمَلَهُمْ فِي سَفِينَتَيْنِ
مَعَ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ الصَّمْرِيِّ، وَدَعَا بِحُقٍّ مِنْ عَاجٍ، فَجَعَلَ
فِيهِ كِتَابِي رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَالَ:

لَنْ تَزَالَ الْحُبْشَةُ بِخَيْرٍ، مَا كَانَ هَذَانِ الْكِتَابَانِ بَيْنَ
أَظْهَرِهَا.

وكان عمرو بن العاص في وفد من أصحابه الكفار
من قريش ينتظرون الدخول على النجاشي ورأوا عمرو
بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ وهو يخرج من مجلس النجاشي، فقال
عمرو بن العاص لأصحابه: هَذَا عَمْرُو بْنِ أُمَيَّةَ
الضَّمْرِيُّ، لَوْ قَدْ دَخَلْتُ عَلَى النَّجَاشِيِّ فَسَأَلْتُهُ إِيَّاهُ
فَأَعْطَانِيهِ فَضَرَبْتُ عُنُقَهُ، فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ، رَأَتْ قُرَيْشٌ
أَنِّي قَدْ أَجَزْتُ عَنْهَا حِينَ قَتَلْتُ رَسُولَ مُحَمَّدٍ، قَالَ:
فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَسَجَدْتُ لَهُ كَمَا كُنْتُ أَصْنَعُ، فَقَالَ:
مَرْحَبًا بِصَدِيقِي، أَهْدَيْتَ لِي مِنْ بِلَادِكَ شَيْئًا؟، فَقُلْتُ:
نَعَمْ أَيُّهَا الْمَلِكُ، قَدْ أَهْدَيْتُ لَكَ أَدَمًا كَثِيرًا، ثُمَّ قَدَّمْتُهُ

إِلَيْهِ، فَأَعْجَبَهُ وَاشْتَهَاهُ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنِّي قَدْ
رَأَيْتُ رَجُلًا خَرَجَ مِنْ عِنْدِكَ، وَهُوَ رَسُولُ رَجُلٍ عَدُوٌّ لَنَا،
فَأَعْطَيْنِيهِ لِأَقْتُلَهُ، فَإِنَّهُ قَدْ أَصَابَ مِنْ أَشْرَافِنَا وَخِيَارِنَا،
فَغَضِبْتُ ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ فَضْرَبَ بِهَا أَنْفَهُ ضَرْبَةً ظَنَنْتُ أَنْ قَدْ
كَسَرَهُ، فَلَوْ انْشَقَّتْ لِي الْأَرْضُ، لَدَخَلْتُ فِيهَا فَرَقًا مِنْهُ،
ثُمَّ قُلْتُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، وَاللَّهِ لَوْ ظَنَنْتُ أَنَّكَ تَكْرَهُ هَذَا مَا
سَأَلْتُكَ، فَقَالَ لِي: أَتَسْأَلُنِي أَنْ أُعْطِيكَ رَسُولَ رَجُلٍ
يَأْتِيهِ النَّامُوسُ الْأَكْبَرُ الَّذِي كَانَ يَأْتِي مُوسَى لِتَقْتُلَهُ؟،
فَقُلْتُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، أَكْذَاكَ هُوَ؟، فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا عَمْرُو
أَطْعِنِي وَاتَّبِعْهُ، فَإِنَّهُ وَاللَّهِ لَعَلَى الْحَقِّ، وَلَيُظْهِرَنَّ عَلَى مَنْ
خَالَفَهُ كَمَا ظَهَرَ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ، فَقُلْتُ:
فَبَايِعْنِي لَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، قَالَ: نَعَمْ، فَبَسَطَ يَدَهُ، وَبَايَعْتُهُ

عَلَى الْإِسْلَامِ، ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى أَصْحَابِي وَقَدْ حَالَ رَأْيِي
عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ، وَكُتِمْتُ أَصْحَابِي إِسْلَامِي، ثُمَّ خَرَجْتُ
عَامِدًا لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِأُسْلِمَ .

الإرسال إلى ملك الغساسنة في الشام

وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
شُجَاعَ بْنَ وَهَبٍ الْأَسَدِيَّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِلَى
الْحَارِثِ بْنِ أَبِي شِمْرٍ الْغَسَّانِيِّ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكُتِبَ
مَعَهُ كِتَابًا ، قَالَ شُجَاعُ: فَاتَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ بِغَوْطَةِ
دِمَشْقَ، وَهُوَ مَشْغُولٌ بِتَهْيِئَةِ الْإِنْزَالِ وَالْإِلْطَافِ لِقَيْصَرَ
وَهُوَ جَاءٍ مِنْ حِمَصَ إِلَى إِيْلِيَاءَ، فَأَقَمْتُ عَلَى بَابِهِ يَوْمَيْنِ
أَوْ ثَلَاثَةً، فَقُلْتُ لِحَاجِبِهِ: إِنِّي رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَيْهِ، فَقَالَ: لَا تَصِلْ إِلَيْهِ حَتَّى يُخْرِجَ

يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، وَجَعَلَ حَاجِبُهُ - وَكَانَ رُومِيًّا - يَسْأَلُنِي
 عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَكُنْتُ أُحَدِّثُهُ
 عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَا
 يَدْعُو إِلَيْهِ فَيَرْقَى حَتَّى يَغْلِبَهُ الْبُكَاءُ، وَيَقُولُ: إِنِّي قَدْ قَرَأْتُ
 الْإِنْجِيلَ، فَأَجِدُ صِفَةَ هَذَا النَّبِيِّ بِعَيْنِهِ، فَأَنَا أَوْمِنُ بِهِ
 وَأُصَدِّقُهُ، وَأَخَافُ مِنَ الْحَارِثِ أَنْ يَقْتُلَنِي، قَالَ شُجَاعٌ:
 وَكَانَ يُكْرِمُنِي وَيُحْسِنُ ضِيَافَتِي، وَخَرَجَ الْحَارِثُ يَوْمًا،
 فَجَلَسَ وَوَضَعَ التَّاجَ عَلَى رَأْسِهِ، فَأَذِنَ لِي عَلَيْهِ، فَدَفَعْتُ
 إِلَيْهِ كِتَابَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَرَأَهُ
 ثُمَّ رَمَى بِهِ وَقَالَ: مَنْ يُنْتَزِعُ مِنِّي مُلْكِي؟، أَنَا سَائِرُ إِلَيْهِ،
 وَلَوْ كَانَ بِالْيَمَنِ جِسْمُهُ، عَلَيَّ بِالنَّاسِ، فَلَمْ يَزَلْ يَفْرِضُ حَتَّى
 قَامَ، وَأَمَرَ بِالْخِيُولِ تُنْعَلُ، ثُمَّ قَالَ: أَخْبِرْ صَاحِبَكَ مَا تَرَى،

وَكُتِبَ إِلَى قَيْصَرَ يُخْبِرُهُ خَبْرِي وَمَا عَزَمَ عَلَيْهِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ
 قَيْصَرٌ: أَلَّا تَسِيرَ إِلَيْهِ، وَالْهَ عَنْهُ، وَوَافِنِي بِإِيلِيَاءَ، فَلَمَّا
 جَاءَهُ جَوَابُ كِتَابِهِ دَعَانِي فَقَالَ: مَتَى تُرِيدُ أَنْ تَخْرُجَ إِلَى
 صَاحِبِكَ؟، فَقُلْتُ: غَدًا، فَأَمَرَ لِي بِمَائَةٍ مِثْقَالٍ ذَهَبٍ،
 وَوَصَّلَنِي حَاجِبُهُ، وَأَمَرَ لِي بِنَفَقَةٍ وَكَسْوَةٍ، وَقَالَ لِي:
 أَقْرِئْ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنِّي السَّلَامَ،
 فَقَدِمْتُ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَخْبَرْتُهُ،
 فَقَالَ: "بَادَ مُلْكُهُ" وَأَقْرَأْتُهُ مِنْ حَاجِبِهِ السَّلَامَ، وَأَخْبَرْتُهُ
 بِمَا قَالَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -:
 "صَدَقَ".

الإرسال إلى قيصر ملك الروم

وَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى
 قَيْصَرَ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَبَعَثَ بِكِتَابِهِ إِلَيْهِ مَعَ دَحِيَّةِ
 الْكَلْبِيِّ وَأَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ
 يَدْفَعَهُ إِلَى عَظِيمِ بَصْرَى لِيَدْفَعَهُ إِلَى قَيْصَرَ، وَكَانَ قَيْصَرُ
 لَمَّا كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُ جُنُودَ فَارِسَ، مَشَى مِنْ حِمَصَ إِلَى
 إِيلِيَاءَ عَلَى الزَّرَّابِيِّ تَبَسُّطَ لَهُ شُكْرًا لِمَا أَبْلَاهُ اللَّهُ، وَكَانَ
 ابْنُ النَّاطُورِ صَاحِبُ إِيلِيَاءَ وَهَرَقْلُ سُقْفًا عَلَى نَصَارَى
 الشَّامِ، فَأَصْبَحَ هَرَقْلُ يَوْمًا حِينَ قَدِمَ إِيلِيَاءَ حَيْثَ
 النَّفْسِ، فَقَالَ بَعْضُ بَطَارِقَتِهِ : قَدْ اسْتَنْكَرْنَا هَيْئَتَكَ -
 قَالَ ابْنُ النَّاطُورِ: وَكَانَ هَرَقْلُ حَزَاءً يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ -
 فَقَالَ لَهُمْ حِينَ سَأَلُوهُ: إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِي

النُّجُومِ مَلِكِ الْخِتَانِ قَدْ ظَهَرَ فَمَنْ يَخْتِئُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ
 ؟، فَقَالُوا: لَيْسَ يَخْتِئُ إِلَّا الْيَهُودُ، فَلَا يُهِمُّكَ شَأْنُهُمْ،
 وَاكْتُبْ إِلَى مَدَائِنِ مُلْكِكَ فَيَقْتُلُوا مَنْ فِيهِمْ مِنَ الْيَهُودِ،
 فَلَمَّا جَاءَ قَيْصَرُ كِتَابُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ - قَالَ حِينَ قَرَأَهُ: اذْهَبُوا فَانظُرُوا أَمْخَتِئَ هُوَ أَمْ لَا،
 فَانظُرُوا إِلَيْهِ، فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُخْتِئٌ وَسَأَلَهُ عَنِ الْعَرَبِ
 فَقَالَ: هُمْ يَخْتِئُونَ، فَقَالَ هِرْقُلُ: هَذَا مَلِكُ هَذِهِ الْأُمَّةِ
 قَدْ ظَهَرَ، التَّمِسُّوا لِي هَاهُنَا أَحَدًا مِنْ قَوْمِهِ لِأَسْأَلَهُمْ عَنْ
 رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ
 بْنُ حَرْبٍ بِالشَّامِ فِي رِجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ، قَدِمُوا تِجَارًا فِي
 الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 - وَبَيْنَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَوَجَدْنَا رَسُولُ

قَيْصَرَ بَعْضِ الشَّامِ فَانْطَلَقَ بِي وَبِأَصْحَابِي، حَتَّى قَدِمْنَا
إِلَيْيَاءَ، فَأَدْخَلْنَا عَلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ فِي مَجْلِسِ مُلْكِهِ
وَعَلَيْهِ التَّاجُ، وَإِذَا حَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ، فَقَالَ لِرَجْمَانِهِ:
سَلُّهُمْ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ
نَبِيٌّ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: أَنَا أَقْرَبُهُمْ إِلَيْهِ نَسَبًا، قَالَ: مَا
قَرَابَةُ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ؟، فَقُلْتُ: هُوَ ابْنُ عَمِّي - وَلَيْسَ فِي
الرَّكْبِ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ غَيْرِي - فَقَالَ
قَيْصَرُ: أَذْنُوهُ، وَأَمَرَ بِأَصْحَابِي فَجُعِلُوا خَلْفَ ظَهْرِي عِنْدَ
كَتِفِي ثُمَّ قَالَ لِرَجْمَانِهِ: قُلْ لِأَصْحَابِهِ: إِنِّي سَائِلٌ هَذَا
الرَّجُلَ عَنِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ، قَالَ
أَبُو سُفْيَانَ: فَوَاللَّهِ لَوْلَا الْحَيَاءُ يَوْمَئِذٍ مِنْ أَنْ يَأْثُرَ أَصْحَابِي
عَنِّي الْكَذِبَ، لَكَذَّبْتُهُ حِينَ سَأَلَنِي عَنْهُ، وَلَكِنِّي

اسْتَحْيَيْتُ أَنْ يَأْثُرُوا الْكَذِبَ عَنِّي فَصَدَّقْتُهُ، ثُمَّ قَالَ
لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ: كَيْفَ نَسَبُ هَذَا الرَّجُلِ فِيكُمْ؟،
قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ، قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ
مِنْكُمْ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لَا، فَقَالَ: كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ عَلَى الْكَذِبِ
قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟، قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ
آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟، قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَأَشْرَفُ النَّاسِ
يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟، قُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ، قَالَ:
فَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟، قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ، قَالَ: فَهَلْ
يَزِيدُ أَحَدٌ سَخَطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟، قُلْتُ: لَا،
قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟، قُلْتُ: لَا، وَنَحْنُ الْآنَ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ،
وَنَحْنُ نَخَافُ أَنْ يَغْدِرَ. - قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: وَلَمْ تُمَكِّنِي كَلِمَةٌ
أَدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا أَنْتَقِصُهُ بِهِ، لَا أَخَافُ أَنْ تُؤَثِّرَ عَنِّي

غَيْرَهَا - قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ أَوْ قَاتَلَكُمْ؟، قُلْتُ: نَعَمْ،
 قَالَ: فَكَيْفَ كَانَتْ حَرْبُهُ وَحَرْبُكُمْ؟، قُلْتُ: كَانَتْ دُولًا
 وَسِجَالًا، يُدَالُ عَلَيْنَا الْمَرَّةَ، وَنُدَالُ عَلَيْهِ الْأُخْرَى، قَالَ:
 فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ؟، قُلْتُ: يَأْمُرُنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا
 نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَانَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، وَيَأْمُرُنَا
 بِالصَّلَاةِ، وَالصَّدَقَةِ، وَالْعَفَافِ، وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَأَدَاءِ
 الْأَمَانَةِ، فَقَالَ لِيَرْجُمَانِي حِينَ قُلْتُ ذَلِكَ لَهُ: قُلْ لَهُ: إِنِّي
 سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فَبَيَّكُمُ، فَرَعَمْتُ أَنَّهُ ذُو نَسَبٍ، وَكَذَلِكَ
 الرُّسُلُ، تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَالَ أَحَدٌ
 مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ؟، فَرَعَمْتُ أَنْ لَا، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ
 أَحَدٌ مِنْكُمْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ، لَقُلْتُ: رَجُلٌ يَأْتِمُّ بِقَوْلِ
 قَدْ قِيلَ قَبْلَهُ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ

قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟، فَرَعَمْتَ أَنْ لَا، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ
يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ، وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ،
وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟، فَرَعَمْتَ أَنْ لَا،
فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ، لَقُلْتُ: يَطْلُبُ مُلْكَ
آبَائِهِ، وَسَأَلْتُكَ: أَشَرَفُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضَعَفَاؤُهُمْ؟،
فَرَعَمْتَ أَنْ ضَعَفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ،
وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَزِيدُونَ أَوْ يَنْقُصُونَ؟، فَرَعَمْتَ أَنَّهُمْ
يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حَتَّى يَتَّمَ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَرْتَدُّ
أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ، فَرَعَمْتَ أَنْ لَا،
فَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بِشَاشَتِهِ الْقُلُوبَ لَا يَسْخُطُهُ
أَحَدٌ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَغْدِرُ؟، فَرَعَمْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ
الرُّسُلُ لَا يَغْدِرُونَ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ وَقَاتَلَكُمْ؟،

فَزَعَمْتَ أَنْ قَدْ فَعَلَ، وَأَنَّ حَرْبَكُمْ وَحَرْبَهُ تَكُونُ دُولًا،
وَيُدَالُ عَلَيْكُمْ الْمَرَّةَ، وَتُدَالُونَ عَلَيْهِ الْأُخْرَى، وَكَذَلِكَ
الرُّسُلُ، تُبْتَلَى، ثُمَّ تَكُونُ لَهَا الْعَاقِبَةُ، وَسَأَلْتُكَ: بِمَاذَا
يَأْمُرُكُمْ؟، فَزَعَمْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا
بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَأَكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُكُمْ
بِالصَّلَاةِ، وَالصَّدَقَةِ وَالْعَفَافِ، وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، وَأَدَاءِ
الْأَمَانَةِ، قَالَ: وَهَذِهِ صِفَةُ النَّبِيِّ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ
خَارِجٌ، وَلَكِنْ لَمْ أَظَنَّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، وَإِنْ يَكُ مَا قُلْتُ حَقًّا،
فَيُوشِكُ أَنْ يَمْلِكَ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ وَلَوْ أَرْجُو أَنْ
أَخْلَصَ إِلَيْهِ، لَتَجَسَّمْتُ لِقِيَّهِ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ، لَغَسَلْتُ
قَدَمَيْهِ. قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: ثُمَّ دَعَا هِرْقُلَ بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ
- صلى الله عليه وسلم - فَقَرَأَ، فَإِذَا فِيهِ: " بِسْمِ اللَّهِ

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ
عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي
أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمَ، أَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ
أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ، فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْأَرِيسِيِّينَ^(١)، وَ
{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، أَلَّا
نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا
أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا: اشْهَدُوا بِأَنَّا
مُسْلِمُونَ}. قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَلَمَّا أَنْ قَضَى مَقَالَتَهُ، عَلَتْ
أَصْوَاتُ الَّذِينَ حَوْلَهُ مِنْ عُظَمَاءِ الرُّومِ، وَكَثُرَ لَغْطُهُمْ،
فَلَا أَدْرِي مَاذَا قَالُوا، وَأَمْرٌ بِنَا فَأُخْرِجْنَا، فَلَمَّا أَنْ خَرَجْتُ
مَعَ أَصْحَابِي وَخَلَوْتُ بِهِمْ، قُلْتُ لَهُمْ: لَقَدْ أَمَرَ أَمْرٌ ابْنِ

(١) الأريسيون قيل هم الفلاحون وقيل الأتباع عموماً، وقيل: الموحدين
من النصراني المنتسبين إلى أريوس.

أَبِي كَبْشَةَ، هَذَا مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ يَخَافُهُ. قَالَ أَبُو
سُفْيَانَ: فَوَاللَّهِ مَا زِلْتُ مُسْتَيْقِنًا بِأَنَّ أَمْرَهُ سَيُظْهِرُ، حَتَّى
أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ وَأَنَا كَارِهٌ.

ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ بِرُومِيَّةٍ - وَكَانَ
نَظِيرُهُ فِي الْعِلْمِ - وَسَارَ هِرَقْلُ إِلَى حِمَصَ، فَلَمْ يَرَمْ
حِمَصَ حَتَّى أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ، يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ
عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَنَّهُ نَبِيٌّ،
فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسَكْرَةٍ^(١) لَهُ بِحِمَصَ، ثُمَّ
أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَعُلِّقَتْ، ثُمَّ أَطْلَعَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ

(١) الدَّسَكْرَةُ: الْقَصْرُ الَّذِي حَوْلَهُ بُيُوتٌ، وَكَأَنَّهُ دَخَلَ الْقَصْرَ ثُمَّ أَغْلَقَهُ
، وَفَتَحَ أَبْوَابَ الْبُيُوتِ الَّتِي حَوْلَهُ، وَأَذِنَ لِلرُّومِ فِي دُخُولِهَا، ثُمَّ أَغْلَقَهَا
، ثُمَّ أَطْلَعَ عَلَيْهِمْ فَخَاطَبَهُمْ، وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ خَشْيَةً أَنْ يَثْبُتُوا بِهِ
فَيَقْتُلُوهُ، كَمَا وَثَبُوا بِضُغَاطَرٍ وَهُوَ الْأَسْقَفُ الرُّومِيُّ نَظِيرُ هِرَقْلَ فِي
الْعِلْمِ وَالَّذِي اسْتَشَارَهُ فَأَقْرَبَ بَبْعَثَةِ النَّبِيِّ وَأَسْلَمَ ثُمَّ خَرَجَ عَلَى الرُّومِ
وَأُظْهِرَ لَهُمْ إِسْلَامَهُ فَقَتَلُوهُ.

لَكُمْ فِي الْفَلَّاحِ وَالرُّشْدِ؟، وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ؟ فَتَبَايَعُوا
هَذَا النَّبِيَّ؟، فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ
فَوَجَدُوهَا قَدْ عُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هِرْقْلُ نَفَرَتَهُمْ وَأَيْسَ مِنْ
الْإِيمَانِ؛ قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ، فَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آيْنًا
أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ، فَسَجَدُوا لَهُ
وَرَضُوا عَنْهُ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرْقْلَ.

ولما كان من قيصر ما كان أجاز دحية بن خليفة
الكلبي ببال وكسوة، ولما كان دحية بحسَمي في الطريق
لقيه ناس من جُذام، فقطعوها عليه، فلم يتركوا معه
شيئاً، فجاء دحية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
قبل أن يدخل بيته فأخبره، فبعث رسول الله صلى الله
عليه وسلم زيد بن حارثة إلى حِسمي، وهي وراء وادي
القرى، في خمسمائة رجل، فشن زيد الغارة على جذام،
فقتل فيهم قتلاً ذريعاً، واستاق نَعْمهم ونساءهم، فأخذ
من النعم ألف بعير، ومن الشاة خمسة آلاف، والسبي
مائة من النساء والصبيان. وكان بين النبي صلى الله
عليه وسلم وبين قبيلة جذام موادة، فأسرع زيد بن
رِفاعة الجذامي أحد زعماء هذه القبيلة بتقديم

الاحتجاج إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وكان قد أسلم هو ورجال من قومه، ونصروا دحية حين قطع عليه الطريق فقبل النبي صلى الله عليه وسلم احتجاجه، وأمر برد الغنائم والسبي.

وفي شعبان بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في ثلاثين رجلاً إلى عَجْز محل بينه وبين مكة أربع ليال بطريق صنعاء يقال له ثُرْبَة وأرسل صلى الله عليه وسلم دليلاً من بني هلال فكان يسير الليل ويكمن النهار فأتى الخبر لهوازن فهربوا فجاء عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه محالهم فلم يجد منهم أحداً فانصرف راجعاً إلى المدينة فلما كان بمحل بينه وبين المدينة ستة أميال قال له

الدليل هل لك جمع آخر من خثعم فقال له عمر رضي الله تعالى عنه لم يأمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم إنما أمرني بقتال هوازن.

وفي شعبان أيضاً بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مرة بناحية فدك، في ثلاثين رجلاً. وخرج إليهم واستاق الشاء والنعم، ثم رجع فأدركه الطلب عند الليل، فرموهم بالنبل حتى فني نبل بشير وأصحابه، فقتلوا جميعاً إلا بشير، فإنه ارتثَّ إلى فدك، فأقام عند يهود حتى برأت جراحه، فرجع إلى المدينة.

وفي رمضان بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية غالب بن عبد الله الليثي، إلى بني عُوال وبني عبد

بن ثعلبة بالمَيْفَعَة، وقيل إلى الحُرَقَات من جُهَيْنَة في
 مائة وثلاثين رجلاً؛ فهجموا عليهم جميعاً، وقتلوا من
 أشرف لهم، واستاقوا نعماً وشاءً، وفي هذه السرية قتل
 أسامةُ بن زيد نَهْيَك بن مِرْدَاس بعد أن قال: لا إله إلا
 الله، فلما قدموا وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم، كبر
 عليه وقال: (أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟) فقال:
 إنما قالها متعوذاً قال: (فهلأ شققت عن قلبه فتعلم
 أصادق هو أم كاذب؟).

وفي شوال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم
 سرية عبدالله بن رواحة إلى خيبر، في ثلاثين راكباً.
 وذلك أنَّ أسير أو بشير بن زارم كان يجمع غطفان لغزو
 المسلمين، فأخرجوا أسيراً في ثلاثين من أصحابه،

وأطمعوه أن الرسول صلى الله عليه وسلم يستعمله على خير، فلما كانوا بقرقرة نيار وقع بين الفريقين سوء ظن أفضى إلى قتل أسير وأصحابه الثلاثين.

وفي ذي القعدة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية أبي حذرّد الأسلمي إلى الغابة وسبب ذلك أن رجلاً من جُشَم بن معاوية أقبل في عدد كبير إلى الغابة، يريد أن يجمع قيساً على محاربة المسلمين. فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا حذرّد مع رجلين ليأتوا منه بخبر وعلم، فوصلوا إلى القوم مع غروب الشمس، فكنّ أبو حذرّد في ناحية، وصاحباؤه في ناحية أخرى، وأبطأ على القوم راعيهم حتى ذهبت فحمة العشاء، فقام رئيس القوم وحده، فلما مرّ بأبي حذرّد

رماه بسهم في فؤاده فسقط ولم يتكلم، فاحتز أبو حدر
رأسه، وشد في ناحية العسكر وكبر، وكبر صاحبه
وشدا، فما كان من القوم إلا الفرار، واستاق المسلمون
الثلاثة الكثير من الإبل والغنم.

وكانت عمرة القضية (عمرة القضاء) في ذي القعدة
سنة سبع. وَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَأَصْحَابُهُ مَكَّةَ وَقَدْ وَهَنْتَهُمْ حُمَّى يَثْرِبَ. قَالَ الْمُشْرِكُونَ
إِنَّهُ يَقْدُمُ عَلَيْكُمْ عَدَا قَوْمٍ قَدْ وَهَنْتَهُمُ الْحُمَّى وَلَقُوا مِنْهَا
شِدَّةً. فَجَلَسُوا مِمَّا بَلَى الْحِجَرَ وَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَرْمُلُوا ثَلَاثَةَ أَشْوَاطٍ وَيَمِشُوا مَا بَيْنَ
الرُّكْنَيْنِ لِيَرَى الْمُشْرِكُونَ جَلَدَهُمْ فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ هَؤُلَاءِ
الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّ الْحُمَّى قَدْ وَهَنْتَهُمْ، هَؤُلَاءِ أَجْلَدُ مِنْ كَذَا

وَكَذَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَلَمْ يَمْنَعُهُ أَنْ يَأْمُرَهُمْ أَنْ يَرْمُلُوا
الْأَشْوَاطَ كُلَّهَا إِلَّا الْإِبْقَاءَ عَلَيْهِمْ. وفي هذه العمرة تزوج
النبي صلى الله عليه وسلم بميمونة رضي الله عنها.

وفي ذي الحجة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم
إلى بني سُلَيْمٍ سرية ابن أبي العوجاء، في خمسين رجلاً،
وذلك ليدعوهم إلى الإسلام؛ فقالوا: لا حاجة لنا إلى
ما دعوتنا، ثم قاتلوا قتالاً شديداً. جرح فيه أبو العوجاء،
وأُسِرَ رجلان من العدو.

الإرسال إلى كسرى ملك الفرس

وأهل فارس لما مات نبيهم، كتب لهم إبليس
المجوسية، وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -

عَبَدَ اللَّهُ بَنَ حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ إِلَى كِسْرَى يَدْعُوهُ إِلَى
 الْإِسْلَامِ، وَكَتَبَ مَعَهُ كِتَابًا ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَدَفَعْتُ
 إِلَيْهِ كِتَابَ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - ، فَقَرِئَ
 عَلَيْهِ ثُمَّ أَخَذَهُ فَمَزَقَهُ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ - صلى
 الله عليه وسلم - قَالَ: "اللَّهُمَّ مَزَّقْ مُلْكَهُ " ، وَكَتَبَ
 كِسْرَى إِلَى بَاذَانَ عَامِلِهِ عَلَى الْيَمَنِ أَنْ ابْعَثْ مِنْ عِنْدِكَ
 رَجُلَيْنِ جَلْدَيْنِ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي بِالْحِجَازِ فَلْيَأْتِيَانِي
 بِخَبْرِهِ، فَبَعَثَ بَاذَانُ قَهْرْمَانَهُ وَرَجُلًا آخَرَ، وَكَتَبَ مَعَهُمَا
 كِتَابًا، فَقَدِمَا الْمَدِينَةَ وَفَرَّضَهُمَا تُرْعُدُ، فَدَفَعَا كِتَابَ
 بَاذَانَ إِلَى النَّبِيِّ - صلى الله عليه وسلم - فَتَبَسَّمَ رَسُولُ
 اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - وَدَعَاهُمَا إِلَى الْإِسْلَامِ،
 وَقَالَ: ارْجِعَا عَنِّي يَوْمَكُمَا هَذَا حَتَّى تَأْتِيَانِي الْغَدَ

فَأُخْبِرَكُمَا بِمَا أُرِيدُ ، فَجَاءَاهُ مِنَ الْغَدِ ، فَقَالَ لَهُمَا : " أَبْلِغَا
صَاحِبَكُمَا أَنَّ رَبِّي قَدْ قَتَلَ رَبَّهُ كِسْرَى فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ
لِسَبْعِ سَاعَاتٍ مَضَتْ مِنْهَا ، (وَهِيَ لَيْلَةُ الثَّلَاثَاءِ لِعَشْرِ
لَيَالٍ مَضَيْنَ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى سَنَةِ سَبْعٍ) وَإِنَّ اللَّهَ
تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَلَّطَ عَلَيْهِ ابْنَهُ شَيْرَوَيْهَ فَقَتَلَهُ " ، فَرَجَعَا
إِلَى بَاذَانَ بِذَلِكَ ، فَأَسْلَمَ هُوَ وَالْأَبْنَاءُ الَّذِينَ بِالْيَمَنِ .

الإرسال إلى ملك القبط في مصر

وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ اللَّخْمِيَّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِلَى
الْمُقَوْقِسِ صَاحِبِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ ، عَظِيمِ الْقِبْطِ ، يَدْعُوهُ
إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَكَتَبَ مَعَهُ كِتَابًا ، فَأَوْصَلَ إِلَيْهِ كِتَابَ
رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَرَأَهُ وَقَالَ لَهُ

خَيْرًا، وَأَخَذَ الْكِتَابَ فَجَعَلَهُ فِي حُقٍّ مِنْ عَاجٍ، وَخَتَمَ عَلَيْهِ، وَدَفَعَهُ إِلَى جَارِيَّتِهِ، وَكَتَبَ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ نَبِيًّا قَدْ بَقِيَ، وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهُ يَخْرُجُ بِالشَّامِ، وَقَدْ أَكْرَمْتُ رَسُولَكَ، وَبَعَثْتُ إِلَيْكَ بِجَارِيَّتَيْنِ لَهُمَا مَكَانٌ عَظِيمٌ فِي الْقِبْطِ، وَقَدْ أَهْدَيْتُ لَكَ كِسْوَةً، وَبَغْلَةً تَرْكَبُهَا، وَلَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا، وَلَمْ يُسَلِّمْ، فَقَبِلَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هَدِيَّتَهُ، وَأَخَذَ الْجَارِيَتَيْنِ ؛ مَارِيَّةَ^(١) أُمَّ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَخْتَهَا سِيرِينَ، وَبَغْلَةً بَيْضَاءَ،

(١) هِيَ مَارِيَّةُ بِنْتُ شَمْعُونِ أَهْدَاهَا الْمُقَوْسُ صَاحِبُ الْإِسْكَندَرِيَّةِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي سَنَةِ سَبْعٍ مِنَ الْهَجْرَةِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَطُورُهَا بِمَلِكِ الْيَمِينِ، وَضَرَبَ عَلَيْهَا مَعَ ذَلِكَ الْحِجَابِ، فَحَمَلَتْ مِنْهُ، وَوَضَعَتْ ابْنَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِبْرَاهِيمَ، وَتُوفِّيَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي خِلَافَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، وَذَلِكَ فِي الْمَحْرَمِ سَنَةِ ١٦ هـ.

لَمْ يَكُنْ فِي الْعَرَبِ يَوْمَئِذٍ غَيْرُهَا، وَهِيَ: دُلْدُلٌ. قَالَ حَاطِبٌ: كَانَ لِي مُكْرِمًا فِي الصَّيَافَةِ، وَقِلَّةِ اللَّبَثِ بِبَابِهِ، مَا أَقَمْتُ عِنْدَهُ إِلَّا خَمْسَةَ أَيَّامٍ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: " ضَنَّ الْخَبِيثُ بِمُلْكِهِ، وَلَا بَقَاءَ لِمُلْكِهِ".

الإرسال إلى ملك اليمامة بنجد

وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سَلِيطَ بْنَ عَمْرِو الْعَامِرِيِّ - رضي الله عنه - إِلَى هَوْذَةَ بْنِ عَلِيٍّ الْحَنْفِيِّ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَتَبَ مَعَهُ كِتَابًا "، فَقَدِمَ عَلَيْهِ، فَأَنْزَلَهُ وَحَبَّاهُ، وَقَرَأَ كِتَابَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَرَدَّ رَدًّا دُونَ رَدٍّ، وَكَتَبَ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: مَا أَحْسَنَ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ وَأَجْمَلَهُ، وَأَنَا

شَاعِرُ قَوْمِي وَخَطِيبُهُمْ، وَالْعَرَبُ تَهَابُ مَكَانِي، فَاجْعَلْ
 لِي بَعْضَ الْأَمْرِ، أَتَّبِعُكَ، وَأَجَازَ سَلِيطَ بَنِ عَمْرِو بِجَائِزَةٍ،
 وَكَسَاهُ أَثْوَابًا مِنْ نَسِجِ هَجَرَ، فَقَدِمَ بِذَلِكَ كُلَّهُ عَلَى النَّبِيِّ
 - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَخْبَرَهُ عَنْهُ بِمَا قَالَ، " فَقَرَأَ
 رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كِتَابَهُ، وَقَالَ: لَوْ
 سَأَلَنِي سَيَابَةٌ مِنَ الْأَرْضِ مَا فَعَلْتُ، بَادَ وَبَادَ مَا فِي يَدَيْهِ،
 فَلَمَّا انْصَرَفَ مِنْ عَامِ الْفَتْحِ، جَاءَهُ جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَدْ
 مَاتَ .

الإرسال إلى ملك عُمان

وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَمْرُو
 بَنَ الْعَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ ثَمَانٍ
 إِلَى جَيْفَرٍ، وَعَبْدٍ، ابْنِي الْجُلَنْدِيِّ - وَهُمَا مِنَ الْأَزْدِ،

وَالْمَلِكُ مِنْهُمَا جَيْفَرُ - يَدْعُوهُمَا إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَتَبَ
مَعَهُ إِلَيْهِمَا كِتَابًا، وَخَتَمَ الْكِتَابَ "، فَأَجَابَا إِلَى الْإِسْلَامِ،
وَصَدَقَا بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

الإرسال إلى ملك البحرين (الأحساء)

وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -
 مُنْصَرَفَهُ مِنَ الْجُعْرَانَةِ الْعَلَاءِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ - رضي الله
 عنه - إِلَى الْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَى الْعَبْدِيِّ، وَهُوَ بِالْبَحْرَيْنِ
 يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابًا ، فَكَتَبَ إِلَى
 رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - بِإِسْلَامِهِ
 وَتَصَدِيقِهِ، "وَإِنِّي قَدْ قَرَأْتُ كِتَابَكَ عَلَى أَهْلِ هَجَرَ،
 فَمِنْهُمْ مَنْ أَحَبَّ الْإِسْلَامَ وَأَعْجَبَهُ وَدَخَلَ فِيهِ، وَمِنْهُمْ
 مَنْ كَرِهَهُ، وَبَارِضِي مَجُوشَ وَيَهُودَ، فَأُحْدِثُ إِلَيْكَ فِي ذَلِكَ
 أَمْرًا". فَكَتَبَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -
 : "إِنَّكَ مَهْمَا تُصْلِحْ، فَلَنْ نَعْزِلَكَ عَنْ عَمَلِكَ، وَمَنْ أَقَامَ
 عَلَى يَهُودِيَّةٍ أَوْ مَجُوسِيَّةٍ، فَعَلَيْهِ الْجَزْيَةُ". وَكَتَبَ رَسُولُ

اللّٰهُ - صلى الله عليه وسلم - إِلَى مَجُوسِ هَجَرَ يَعْزُضُ
عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ، فَإِنْ أَبَوْا؛ أَخَذْتُ مِنْهُمْ الْجُزْيَةَ، وَبِأَنْ لَا
تُنْكَحُ نِسَاؤُهُمْ، وَلَا تُؤْكَلُ ذَبَائِحُهُمْ.

السنة السابعة من الهجرة

غزوة خيبر

ولما كانت خيبر معقل خيانة وعداوة من اليهود
الذين تم إجلاؤهم من المدينة فقاموا بدعم قريش
والأحزاب وتحريضهم على غزو المدينة وحرصوا ببقية
يهود المدينة، واستمروا في إعلان العداء والتأليب على
المسلمين بكل ما استطاعوا؛ خَرَجَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَوَّلِ السَّنَةِ السَّابِعَةِ بِجَيْشٍ مِنَ الصَّحَابَةِ

وسار إلى خيبر فجاءها ليلاً، وكان الله سبحانه وتعالى،
 قد وعد رسوله - صلى الله عليه وسلم - عند انصرافه
 من الحديبية بفتحها، فقال سبحانه: {وَعَدَكُمُ اللَّهُ
 مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا} ، وكان إذا جاء قومًا بليل لا يغير
 عليهم حتى يصبح. قال أنس: فصلينا عندها صلاة
 الغداة بغلس فركب نبي الله صلى الله عليه وسلم
 وركب أبو طلحة وأنا رديف أبي طلحة فأجرى نبي الله
 صلى الله عليه وسلم في زقاق خيبر وإن ركبتى لتمس
 فخذ نبي الله صلى الله عليه وسلم وانحسر الإزار عن
 فخذ نبي الله صلى الله عليه وسلم فأني لأرى بياض
 فخذ نبي الله صلى الله عليه وسلم فلما دخل القرية
 قال: «اللَّهُ أَكْبَرُ خَرِبْتُ خَيْبَرُ إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ

فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ». قَالَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ . وَقَدْ خَرَجَ
الْقَوْمُ إِلَى أَعْمَالِهِمْ بِمَسَاحِيهِمْ وَمَكَاتِلِهِمْ، فَقَالُوا: مُحَمَّدٌ
وَاللَّهِ. ^(١) قَالَ: وَأَصْبَنَاهَا عَنُوءَةً وَجُمِعَ السَّبِيُّ فَجَاءَهُ
دِحْيَةُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْطِنِي جَارِيَةً مِنَ السَّبِيِّ.
فَقَالَ: «اذهُبْ فَخُذْ جَارِيَةً». فَأَخَذَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حَيٍّ
فَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا
نَبِيَّ اللَّهِ أَعْطَيْتَ دِحْيَةَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حَيٍّ سَيِّدَ قُرَيْظَةَ
وَالنَّضِيرِ مَا تَصْلُحُ إِلَّا لَكَ. قَالَ «ادْعُوهُ بِهَا». قَالَ فَجَاءَ
بِهَا فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «خُذْ
جَارِيَةً مِنَ السَّبِيِّ غَيْرَهَا». وَأَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا.

(١) وفي رواية: قالوا : محمد والخميس .

وقد جعل الله تعالى فتح خيبر على يد علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وَأَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْبَرَ أَنْ يَعْمَلُوهَا وَيَزْرَعُوهَا وَلَهُمْ شَطْرُ مَا يُخْرَجُ مِنْهَا. فَأَبْقَاهُم النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَرْضِهِمْ وَلَهُمُ النِّصْفُ.

وفي أثناء غزوة خيبر حرّم رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوم الحمر الأهلية، وأخبر أنها رجس، وأمر بالقدور فألقيت وهي تفور بلحومها، وأمر بغسل القدور بعد، وأحل حينئذ لحوم الخيل وأطعمهم إياها، كما نهى صلى الله عليه وسلم عن متعة النساء.

تسميم اليهود طعام النبي في خيبر

ولما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر
 بعد فتحها أهدت زينب بنت الحارث اليهودية - امرأة
 سلام بن مشكم - شاة مِصْلِيَّة (مشوية) للنبي صلى الله
 عليه وسلم، وكانت قد سألت: أَيُّ: عُضْوٍ مِنَ الشَّاةِ
 أَحَبُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - ؟ فَقِيلَ
 لَهَا: الذَّرَاعُ، فَأَكْثَرَتْ فِيهَا مِنَ السَّمِّ، وَسَمَّمَتْ سَائِرَ
 الشَّاةِ، ثُمَّ جَاءَتْ بِهَا، - وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله
 عليه وسلم - يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ، وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ - فَلَمَّا
 وَضَعَتْهَا بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم -
 تَنَاوَلَ الذَّرَاعَ فَلَاكَ مِنْهَا مُضْغَةً، فَلَمْ يُسْغَهَا (لم
 يبتلعها)، وَمَعَهُ بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ، وَقَدْ أَخَذَ مِنْهَا

كَمَا أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَمَّا بَشَرٌ
فَأَسَاغَهَا، وَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
فَلَفَظَهَا، ثُمَّ قَالَ: ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ، فَإِنَّهَا أَخْبَرْتَنِي أَنَّهَا
مَسْمُومَةٌ. فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
إِلَى الْيَهُودِيَّةِ، فَاعْتَرَفَتْ، فَقَالَ: "مَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟"،
فَقَالَتْ: بَلَغَتْ مِنْ قَوْمِي مَا لَمْ يَخَفَ عَلَيْكَ، فَقُلْتُ: إِنْ
كُنْتَ نَبِيًّا، لَمْ يَضُرَّكَ الَّذِي صَنَعْتُ، وَإِنْ كُنْتَ مَلِكًا،
أَرَحْتُ النَّاسَ مِنْكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ -: "مَا كَانَ اللَّهُ لِيُسَلِّطَكَ عَلَيَّ"، فَقَالُوا: أَلَا
نَقُتْلُهَا؟، قَالَ: "لَا، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ -: "اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَاهُنَا مِنَ الْيَهُودِ"،
فَجَمِعُوا لَهُ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وسلم - : " إِنِّي سَأَلْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْهُ؟"، قَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - : " مَنْ أَبُوكُمْ؟"، قَالُوا: أَبُونَا فَلَانٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - : " كَذَبْتُمْ، بَلْ أَبُوكُمْ فَلَانٌ"، قَالُوا: صَدَقْتَ وَبَرَرْتَ، قَالَ: " فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟"، قَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، وَإِنْ كَذَبْنَاكَ عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي أَبِيْنَا، فَقَالَ لَهُمْ: " مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟"، قَالُوا: نَكُونُ فِيهَا بَيْسِيرًا، ثُمَّ تَخَلَّفُونَا فِيهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - : " اخْسَئُوا فِيهَا، وَاللَّهِ لَا نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا، ثُمَّ قَالَ: هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟"، فَقَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: " هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟"،

قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: " مَا حَمَلَكُم عَلَى ذَلِكَ ؟ " ، قَالُوا: أَرَدْنَا
 إِنَّ كُنْتَ كَاذِبًا أَنْ نَسْتَرِيحَ مِنْكَ ، وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ
 يَضُرَّكَ . فَمَاتَ بَشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ الْأَنْصَارِيُّ -
 رضي الله عنه - مِنْ أَكْلَتِهِ الَّتِي أَكَلَ . فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ -
 صلى الله عليه وسلم - بِالْيَهُودِيَّةِ فَقَتِلَتْ . قَالَ أَنَسٌ :
 فَمَا زِلْتُ أَعْرِفُهَا فِي لَهَوَاتِ^(١) رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله
 عليه وسلم - وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم
 - إِذَا وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا اخْتَجَمَ ، فَسَافَرَ مَرَّةً ، فَلَمَّا
 أُحْرِمَ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ، فَاخْتَجَمَ .

(١) لهوات: جمع لهاة ، وهي سقف الفم ، أو اللحمية المشرفة على
 الحلق، أو ما يبدو من الفم عند التبسم . كأنه بقي للسم علامة وأثر
 من سواد أو غيره .

تحريم المدينة والدعاء لأهلها بالبركة

وفي مرجعه من خير نظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى أُحُد وقال : **إِنْ أُحُدًا هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنَحْبُهُ**. ثم أشار بيده إلى المدينة فقال: **اللهم إني أحرم ما بين لابتيها^(١)، ما بين جبلَيْها، بمثل ما حرم إبراهيم مكة، أن يقطع عضاهها، أو يقتل صيدها، اللهم بارك لهم في مكيالهم، وبارك لهم في صاعهم، وبارك لهم في مدهم - يعني أهل المدينة - اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما جعلت بمكة من البركة.**

(١) لابتيها: حرتي المدينة.

عودة المهاجرين من الحبشة

ثم كانت عودة المهاجرين من الحبشة، قال أبو موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَلَّغَنَا مَخْرُجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ بِالْيَمَنِ فَخَرَجْنَا مُهَاجِرِينَ إِلَيْهِ أَنَا وَأَخَوَانِ لِي أَنَا أَصْغَرُهُمْ أَحَدُهُمَا أَبُو بُرْدَةَ وَالْآخَرُ أَبُو رُهْمٍ - إِمَّا قَالَ فِي بَضْعٍ وَإِمَّا قَالَ فِي ثَلَاثَةِ وَخَمْسِينَ، أَوْ اثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ رَجُلًا مِنْ قَوْمِي - فَرَكَبْنَا سَفِينَةً فَأَلْقَيْنَا سَفِينَتَنَا إِلَى النَّجَاشِيِّ بِالْحَبَشَةِ وَوَافَقْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأَصْحَابَهُ عِنْدَهُ فَقَالَ جَعْفَرُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَنَا هَاهُنَا وَأَمَرَنَا بِالْإِقَامَةِ فَأَقِيمُوا مَعَنَا فَأَقَمْنَا مَعَهُ حَتَّى قَدِمْنَا جَمِيعًا فَوَافَقْنَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ افْتَتَحَ خَيْبَرَ فَأَسْهَمَ لَنَا، فَأَعْطَانَا مِنْهَا

وَمَا قَسَمَ لِأَحَدٍ غَابَ عَنْ فَتْحِ خَيْبَرَ مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا لِمَنْ
شَهِدَ مَعَهُ إِلَّا أَصْحَابَ سَفِينَتِنَا مَعَ جَعْفَرٍ وَأَصْحَابِهِ
قَسَمَ لَهُمْ مَعَهُمْ.

غزوة ذات الرقاع جهة نجد

ثم كانت غزوة ذات الرقاع، وَهِيَ بَعْدَ خَيْبَرَ لِأَنَّ أَبَا
مُوسَى جَاءَ بَعْدَ خَيْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فِي الْحَبْشَةِ
وَشَهِدَهَا . فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى ذَاتِ
الرَّقَاعِ مِنْ مَخْلٍ قَبْلَ نَجْدٍ ، فَلَقِيَ جَمْعًا مِنْ غَطَفَانَ فَلَمْ
يَكُنْ قِتَالٌ وَأَخَافَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَصَلَّى النَّبِيُّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُكْعَتَيِ الْخَوْفِ . قَالَ أَبُو مُوسَى
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
فِي غَزَاةٍ وَنَحْنُ سِتَّةٌ نَقَرُ بَيْنَنَا بَعِيرٌ نَعْتَقِبُهُ فَنَقِبْتُ أَقْدَامُنَا

وَنَقِبْتُ قَدَمَايَ وَسَقَطْتُ أَظْفَارِي وَكُنَّا نُلْفُ عَلَى
أَرْجُلِنَا الْحَرِيقَ فَسُمِّيتْ غَزْوَةَ ذَاتِ الرِّقَاعِ لِمَا كُنَّا
نَعِصِبُ مِنَ الْحَرِيقِ عَلَى أَرْجُلِنَا. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ صَلَّى
النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخَوْفَ بِذِي قَرْدٍ. صَلَّى
صَلَاةَ الْخَوْفِ أَنَّ طَائِفَةً صَفَّتْ مَعَهُ وَطَائِفَةٌ وَجَّاهَ
الْعَدُوَّ ، فَصَلَّى بِالنِّيِّ مَعَهُ رَكْعَةً ثُمَّ ثَبَتَ قَائِمًا وَأَمَّمُوا
لأنفُسِهِمْ، ثُمَّ انْصَرَفُوا فَصَفُّوا وَجَّاهَ الْعَدُوَّ. وَجَاءَتِ
الطَّائِفَةُ الْأُخْرَى فَصَلَّى بِهِمُ الرُّكْعَةَ الَّتِي بَقِيَتْ مِنْ
صَلَاتِهِ ثُمَّ ثَبَتَ جَالِسًا وَأَمَّمُوا لأنفُسِهِمْ ثُمَّ سَلَّمَ بِهِمْ.

وفي ربيع الأول منها بعث رسول الله صلى الله عليه
وسلم سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى بني المُلُوح
بُقْدَيْدٍ. وكان بنو المُلُوح قد قتلوا أصحاب بشير بن

سُوَيْد، فبعثت هذه السرية لأخذ الثأر، فشنوا الغارة في الليل فقتلوا من قتلوا، وساقوا النعم، وطاردتهم جيش كبير من العدو، حتى إذا قرب من المسلمين نزل مطر، فجاء سيل عظيم حال بين الفريقين. ونجح المسلمون في بقية الانسحاب.

السنة الثامنة من الهجرة

تُوَفِّيتُ فِي أَوَّلِ سَنَةِ ثَمَانٍ زَيْنَبَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَكْبَرُ أَخَوَاتِهَا، مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ
 السَّيِّدَاتِ. تَزَوَّجَهَا فِي حَيَاةِ أُمِّهَا - أَيِ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهَا - : ابْنُ خَالَتِهَا أَبُو الْعَاصِ؛ فَوَلَدَتْ لَهُ أُمَامَةَ ^(١) ،
 وَوَلَدَتْ لَهُ: عَلِيٌّ بْنُ أَبِي الْعَاصِ. وَقَدْ أَسْلَمَتْ زَيْنَبُ،
 وَهَاجَرَتْ قَبْلَ إِسْلَامِ زَوْجِهَا بِسِتِّ سِنِينَ. قَالَتْ أُمُّ
 عَطِيَّةَ: لَمَّا مَاتَ زَيْنَبُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ، قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
 «اغْسِلْنَهَا وَتَرًا ثَلَاثًا أَوْ خَمْسًا وَاجْعَلْنَ فِي الْخَامِسَةِ

(١) أُمَامَةُ هِيَ الَّتِي تَزَوَّجَ بِهَا: عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بَعْدَ فَاطِمَةَ.

كَافُورًا أَوْ شَيْئًا مِنْ كَافُورٍ فَإِذَا غَسَلْتُهَا فَأَعْلِمْنِي». قَالَتِ: فَأَعْلَمْنَاهُ، فَأَعْطَانَا حِقُّوهُ وَقَالَ «أَشْعِرْنَهَا إِيَّاهُ»^(١).

وفي شهر صفر أسلم عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة، ولما حضروا عند النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن مكة قد ألفت إلينا أفلاذ كبدها).

وفيه بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد بفدك سرية غالب بن عبد الله، في مائتي رجل؛ فأصابوا من العدو نعمًا، وقتلوا منهم قتلى.

(١) (حِقُّوهُ) تَعْنِي: إِزَارُهُ. و"أَشْعِرْنَهَا" أَي: اجْعَلْنَاهُ شَعَارًا لَهَا، وَالشَّعَارُ: مَا يَلْبَسُ الْجَسَدُ مِنَ الثِّيَابِ، وَالدِّثَارُ مَا فَوْقَهُ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : "الْأَنْصَارُ شَعَارُ النَّاسِ دِثَارٌ".

وفي ربيع الأول بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية ذات أطلح بقيادة كعب بن عمير الأنصاري في خمسة عشر رجلاً إلى بني قُضَاعَة حيث كانت قد حشدت جموعاً كبيرة للإغارة على المسلمين، فلقوا العدو، فدعوههم إلى الإسلام، فلم يستجيبوا لهم، وأرشقوهم بالنبل حتى قتلوا كلهم إلا رجل واحد، فقد ارْتُثَّ من بين القتلى.

وكانت بنو هوازن قد مدت يد المعونة للأعداء المسلمين مراراً، فأرسل إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شُجَاع بن وهب الأسدي في خمسة وعشرين رجلاً، وهم بِالسَّيِّ^(١) ، ناحية ركة، من وراء المعدن،

(١) السَّيِّ: بكسر السين وتشديد الياء: ماء بين ذات عِرْق ووجرة على ثلاث مراحل من مكة إلى البصرة.

وهي من المدينة على خمس ليال، وأمره أن يغير عليهم، فكان يسير الليل ويكمن النهار، حتى صبحهم وهم غارون، وقد أوعز إلى أصحابه ألا يمعنوا في الطلب، فأصابوا نعمًا كثيرًا وشاء، ولم يلقوا كيدًا، واستاقوا ذلك حتى قدموا المدينة، واقتسموا الغنيمة، فكانت سهمانهم خمسة عشر بعيرًا لكل رجل، وعدلوا البعير بعشر من الغنم، وكان مغيبهم خمس عشرة ليلة.

غزوة مؤتة

وفي جمادى الأولى من سنة ثمان للهجرة أرسل النبي صلى الله عليه وسلم سرية إلى مؤتة. وكان عدة هذه السرية ثلاثة آلاف مقاتل، بينما روي أن عدة الروم كانت مائة ألف مقاتل. وقد أمر صلى الله عليه وسلم

على الجيش زيد بن حارثة، ثم قال عليه الصلاة والسلام:
 إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن
 رواحة. وقد قتل الثلاثة كلهم في أرض المعركة التي
 دارت بينهم وبين الروم، فأخذ الراية ثابت بن أقرم،
 فقال: يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم،
 قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل. فاصطلح الناس على
 خالد بن الوليد. فلما أخذ الراية دافع القوم، وحاشى
 بهم، ثم انحاز وانحيز عنه، حتى انصرف بالناس، فتمكن
 من الانسحاب بمن معه من المسلمين. ونعى النّبيُّ صلى
 الله عليه وسلم زَيْدًا وَجَعْفَرًا وَابْنَ رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ قَبْلَ
 أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبَرُهُمْ فَقَالَ: "أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ ثُمَّ
 أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ -

وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ - حَتَّى أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سَيْوِفِ اللَّهِ
 حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ". قال خالد بن الوليد رضي الله
 عنه: "لَقَدْ انْقَطَعَتْ فِي يَدِي يَوْمَ مُوتَةِ تِسْعَةِ أَسْيَافٍ
 فَمَا بَقِيَ فِي يَدِي إِلَّا صَفِيحَةٌ يَمَانِيَّةٌ". وهذا يقتضي أنهم
 أثنوا فيهم قتلاً، ولو لم يكن كذلك لما قدروا على
 التخلص منهم، ولهذا السبب ولغيره ذهب بعض
 المحققين إلى أن المسلمين قد انتصروا في هذه المعركة،
 ولم يهزموا.

وفي جمادى الآخرة وقعت غزوة ذات السلاسل.
 قيل سميت ذات السلاسل؛ لأن المشركين ارتبط
 بعضهم إلى بعض مخافة أن يفروا، وقيل لأن بها ماء
 يقال له السلسل . وكانت بعد غزوة مؤتة ، وفيها أن

جمعاً من قضاة تجمعوا وأرادوا أن يدنوا من أطراف المدينة فدعا النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص فعقد له لواء أبيضاً وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار . قال عمرو بن العاص رضي الله عنه : بعث إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (خذ عليك ثيابك، وسلاحك، ثم اتني، فأتيته، وهو يتوضأ، فصعد فيّ النظر، ثم طأطأ، فقال: (إني أريد أن أبعثك على جيش، فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة) قال: قلت: يا رسول الله ما أسلمت من أجل المال، ولكني أسلمت رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (يا عمرو نعم المال الصالح للمرء الصالح).

ولما بعثه في ذات السلاسل سأله أصحابه أن يوقدوا ناراً فمنعهم فكلّموا أبا بكر فكلّمه في ذلك فقال: لا يُوقَدُ أحد منهم ناراً إلا قذفته فيها قال: فلقوا العدو فهزموهم فأرادوا أن يتبعوهم فمنعهم فلما انصرف ذلك الجيش ذكروا للنبي صلى الله عليه وسلم وشكوه إليه فقال: يا رسول الله إني كرهت أن آذن لهم أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قِلَّتَهُمْ وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد فيعطفوا عليهم. فحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره.

وفي رجب بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة بن الجراح على رأس ثلاثمائة رجل إلى سيف البحر، وكان الغرض من هذه السرية رصد عير لقريش

ومحاربة حي من جهينة، وزودهم جراباً من تمر، فجعل أبو عبيدة يقوتهم إياه، حتى صار إلى أن يعده لهم عددًا، حتى كان يعطي كل رجل منهم كل يوم ثمرة، فقسمها يوماً فنقصت ثمرة عن رجل، فوجد فقدها ذلك اليوم، فلما نفذ ما كان معهم من الزاد أكلوا الخبط وهو ورق السلم، فسمي الجيش لذلك "جيش الخبط"، وأصابهم جوع شديد، فنحر قيس بن سعد بن عبادة وكان أحد جنود هذه السرية ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نهاه، فألقى إليهم البحر دابة يقال لها: العنبر، فأكلوا منها عشرين ليلة، وادَّهَنُوا منه، حتى ثابت منه أجسامهم، وصلحت، وأخذ أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعه، فنظر إلى أطول رجل في

الجيش وأطول جمل، فحُمِلَ عليه، ومر تحتَه، وتزودوا من لحمه وَشَائِق، فلما قدموا المدينة، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له ذلك، فقال: (هو رزق أخرجَه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء تطعمونا؟) فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه.

وفي شعبان بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا قتادة بن ربعي رضي الله عنه في سرية إلى خَضِرَة؛ وذلك لأن بني غَطَفَان كانوا يحتشدون في خَضِرَة - وهي أرض مُحَارِب بَنَجْد - فبعثه صلى الله عليه وسلم في خمسة عشر رجلاً، فقتل منهم، وسَبَى وَغَنِم، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة.

غزوة فتح مكة

ثم كانت غزوة فتح مكة في رمضان، وكان سببها أن المشركين قد نقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأغاروا على إحدى القبائل المحالفة للرسول عليه الصلاة والسلام، وهي قبيلة خزاعة ولما علم النبي صلى الله عليه وسلم بالأمر أمر الناس بالتجهز دون أن يخبرهم بوجهته. وقال: (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها)، وزيادة في الإخفاء والتعمية بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية قوامها ثمانية رجال، تحت قيادة أبي قتادة بن ربعي، إلى بطن إضم، فيما بين ذي خشب وذي المروة، على ثلاثة بُرْد من المدينة، في أول هذا

الشهر الكريم؛ ليظن الظان أنه صلى الله عليه وسلم يتوجه إلى تلك الناحية، ولتذهب بذلك الأخبار، وواصلت هذه السرية سيرها، حتى إذا وصلت حيثما أمرت بلغها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى مكة، فسارت إليه حتى لحقته. وقد خَرَجَ صلى الله عليه وسلم في عاشر رَمَضَانَ مِنَ الْمَدِينَةِ وَمَعَهُ عَشْرَةُ آلَافٍ، وَذَلِكَ عَلَى رَأْسِ ثَمَانِ سِنِينَ وَنِصْفٍ مِنْ مَقْدَمِهِ الْمَدِينَةَ فَسَارَ هُوَ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَكَّةَ يَصُومُ وَيَصُومُونَ حَتَّى بَلَغَ الْكَدِيدَ، وَهُوَ مَاءٌ بَيْنَ عُسْفَانَ وَقُدَيْدٍ - فَأَفْطَرَ وَأَفْطَرُوا. ثم مضى حتى نزل بمر الظهران وهو واد قريب من مكة. وكان أبو سفيان قد رأى جيش النبي صلى الله عليه وسلم قبل دخوله

مكة، فهاله ما رأى. ثم أسلم في أثناء ذلك. ثم جاء إلى قومه وصرخ فيهم محذراً لهم بأن لا قبل لهم بجيش محمد صلى الله عليه وسلم، وقال لهم ما قاله عليه الصلاة والسلام: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه داره فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن". فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد. ودخل مكة من كداء التي بأعلى مكة لتسع عشرة ليلة خلت من رمضان وسمي عام الفتح. وقد أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دم بعض المشركين يوم الفتح. ووجد عليه الصلاة والسلام حول البيت ثلاثمائة وستين نصباً، فجعل يطعن بها بعود في يده ويقول: (جاء الحق وزهق الباطل، جاء الحق وما يبدي الباطل وما يعيد). وأقام

صلى الله عليه وسلم عام الفتح بمكة تسعة عشر يوماً
على الأرجح.

وفي رمضان بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم
عمرو بن العاص إلى سواع ليهدمه وسواع صنم لقوم
نوح عليه السلام، ثم صار بعد ذلك لقبيلة هذيل
المضرية، وظل هذا الوثن منصوباً تعبده هذيل
وتعظمه، حتى إنهم كانوا يحجون إليه حتى فتحت مكة
ودخلت هذيل فيمن دخل في دين الله أفواجا، وكان
موضعه برهاط على قرابة ١٥٠ كيلو مترا شمال شرقي
مكة، فلما انتهى إليه عمرو قال له السادن: ما تريد؟
قال: أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهدمه
قال: لا تقدر على ذلك قال: لم؟ قال تمنع قال: حتى

الآن أنت على الباطل؟ ويحك فهل يسمع أو يبصر؟ ثم دنا فكسره، وأمر أصحابه فهدموا بيت خزانته فلم يجدوا فيه شيئاً، ثم قال للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله.

ولما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفتح بعث خالد بن الوليد إلى العزى لخمس ليال بقين من هذا الشهر الكريم ليهدمها وكانت بنخلة، وكانت لقريش وجميع بني كنانة، وهي أعظم أصنامهم. وكان سدنتها بني شيبان؛ فخرج إليها خالد في ثلاثين فارساً حتى انتهى إليها، فهدمها. ولما رجع إليها سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم (هل رأيت شيئاً؟) قال: لا، قال: (فإنك لم تهدمها فارجع إليها فاهدمها) فرجع

خالد متغيظًا قد جرد سيفه فخرجت إليه امرأة عريانة
سوداء ناشرة الرأس فجعل السادن يصيح بها، فضربها
خالد فجزلها باثنتين، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم فأخبره، فقال: (نعم، تلك العزى، وقد
أيست أن تعبد في بلادكم أبدًا).

غزوة حنين

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين
لخمس خلت من شوال. وحنين: واد إلى جنب ذي
المجاز، قريب من الطائف، وبينه وبين مكة بضعة
عشر ميلاً من جهة عرفات. وكان النبي صلى الله عليه
وسلم قد أقام بمكة ١٩ يوماً، حتى جاءت هوازن
وثقيف، فنزلوا بحنين يريدون قتال النبي صلى الله عليه

وسلم، وكانوا قد جمعوا قبل ذلك حين سمعوا بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة، وهم يظنون أنه إنما يريدهم، فلما أتاهم أنه قد نزل مكة، أخذوا في الاستعداد لمواجهته. وقد أرادوها موقعة حاسمة، فحشدوا الأموال والنساء والأبناء حتى لا يفر أحدهم ويترك أهله وماله. وكان يقودهم مالك بن عوف النضري، واستنفروا معهم غطفان وغيرها. فاستعد الرسول صلى الله عليه وسلم لمواجهتهم، فاستعار من يعلى بن أمية ثلاثين بعيراً وثلاثين درعاً، واستعار من صفوان بن أمية مائة درع. واستعمل عتّاب بن أسيد بن أبي العاص أميراً على مكة. وخرج الطلقاء معه إلى حنين. واستقبل الرسول صلى الله

عليه وسلم بجيشه وادي حنين في عماية الصبح،
 وانحدروا فيه، وعند دخولهم إلى الوادي حملوا على
 هوازن فانكشفوا، فأكب المسلمون على ما تركوه من
 غنائم، وبينما هم على هذه الحال استقبلتهم هوازن،
 وأمطرتهم بوابل من السهام. ولم يكن المسلمون
 يتوقعون هذا فضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فولوا
 مدبرين لا يلوي أحد على أحد. وانحاز الرسول صلى الله
 عليه وسلم ذات اليمين وهو يقول: (أين الناس؟ هلموا
 إلي أنا رسول الله، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله).
 وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم عمه العباس - وكان
 قوي الصوت - أن ينادي الناس بالثبات، وخص منهم
 أصحاب بيعة الرضوان، فأسرعوا إليه، ثم خص

الأنصار بالنداء، ثم بني الحارث بن الخزرج، فطاروا إليه قائلين: لبيك، لبيك. ودارت المعركة قوية ضد هوازن. وقال الرسول صلى الله عليه وسلم عندما رأى المعركة تشتد: (هذا حين حمي الوطيس). ثم أخذ حصيات أو تراباً فرمى به وجوه الكفار وهو يقول: (شاهت الوجوه)، فما خلق الله تعالى منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة، فولوا مدبرين، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: (انهزموا ورب محمد)، وقال: (انهزموا ورب الكعبة) مرتين.

وَلَمَّا فَرَغَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حُنَيْنٍ بَعَثَ أَبَا عَامِرٍ عَلَى جَيْشٍ إِلَى أُوطَاسٍ فَلَقِيَ دُرَيْدَ بْنَ الصَّمَّةِ فَقُتِلَ دُرَيْدٌ وَهَزَمَ اللَّهُ أَصْحَابَهُ.

وفي شوال بعد أن تعقب المسلمون فلول الهاريين من هوازن في أوطاس ونخلة، توجهوا للقضاء على ثقيف التي فرت من حنين وأوطاس، وتحصنت بحصونها المنيعة في الطائف. وحاصروا المشركين في الطائف أربعين ليلة. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من بلغ بسهم فله درجة في الجنة"^(١). وقد هرب من ذلك الحصن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة وعشرون رجلاً. وَلَمَّا حَاصَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطَّائِفَ فَلَمْ يَنْلُ مِنْهُمْ شَيْئًا قَالَ: إِنَّا قَافِلُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَثَقُلَ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا نَذْهَبُ، وَلَا نَفْتَحُهُ، فَقَالَ: اغْدُوا عَلَى الْقِتَالِ. فَعَدُّوا فَأَصَابَهُمْ جِرَاحٌ. فَقَالَ:

(١) المعنى من رمى بسهم بنية جهاد الكفار.

إِنَّا قَافِلُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَأَعْجَبَهُمْ. فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي شوال لما رجع خالد بن الوليد من هدم العزى بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني جذيمة داعياً إلى الإسلام لا مقاتلاً، فخرج في ثلاثمائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار وبني سليم، فانتهى إليهم، فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صباءنا، صباءنا. فجعل خالد يقتلهم ويأسرهم، ودفع إلى كل رجل ممن كان معه أسيراً، فأمر يوماً أن يقتل كل رجل أسيره، فأبى ابن عمر وأصحابه حتى قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم، فذكروا له، فرفع صلى الله عليه وسلم يديه

وقال: (اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد) مرتين.
وكانت بنو سليم هم الذين قتلوا أسراهم دون المهاجرين
والأنصار، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً،
فودى لهم قتلهم وما ذهب منهم.

وفي ذي القعدة اعتمر النبي صلى الله عليه وسلم من
الجعرانة عام حنين وهي العمرة الثالثة بعد عمرة
الحديبية وعمرة القضاء.^(١)

السنة التاسعة من الهجرة (عام الوفود)

سميت السنة التاسعة من الهجرة: عام الوفود،
حيث كان من أبرز نتائج فتح مكة أن أخذت قبائل

(١) ولم يعلم ابن عمر رضي الله عنهما بوقوعها فأنكرها.

العرب وأفرادها يبادرون بإسلامهم؛ لأنهم كانوا ينتظرون نتيجة الصراع بين المسلمين وقريش.

وفي رجب منها توفي أصحمة بن أبحر ملك الحبشة. والنجاشي لقب له وملك الحبشة. وقد أسلم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وأحسن إلى المسلمين الذين هاجروا إلى أرضه. ونعى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَهُمُ النَّجَاشِيَّ صَاحِبَ الْحَبَشَةِ فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ وَصلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة صلاة الغائب. وَقَالَ: "قَدْ تُؤْفَى الْيَوْمَ رَجُلٌ صَاحِبٌ مَاتَ بِغَيْرِ أَرْضِكُمْ"، فَقَالُوا: مَنْ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، قَالَ: "النَّجَاشِيُّ، فَقُومُوا فَصَلُّوا عَلَى أَخِيكُمُ أَصْحَمَةَ، اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُم". فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْمُصَلَّى وَصَلَّى عَلَيْهِ
كَمَا يُصَلِّي عَلَى الْجَنَائِزِ، وَكَبَّرَ عَلَيْهِ أَرْبَعَ تَكْبِيرَاتٍ .

غزوة تبوك

وفي رجب أيضاً وقعت غزوة تبوك وجيش العسرة.
وكانت غزوة تبوك في شهر رجب من سنة تسع قبل
حجة الوداع بلا خلاف. وسميت بغزوة جيش العسرة،
قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : أرسلني
أصحابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله
الحملان لهم إذ هم معه في جيش العسرة، وهي غزوة
تبوك. وفيه دلالة على ما كان عليه الصحابة من العسر
الشديد في المال والزاد والركائب، وما وقع للمسلمين في
طريق هذه الغزوة من نقص في الزاد حتى مصوا النوى

وشربوا عليه الماء، واستأذنوا الرسول صلى الله عليه وسلم في نحر مطاياهم ليأكلوا. وقد قال الله تعالى: (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة). وعزم رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم على قتال الروم؛ لأنهم أقرب الناس إليه؛ وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله، وقد قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين) وقد بين صلى الله عليه وسلم وجهة هذه الغزوة، وقال: (ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يس من مائها شيئاً حتى آتي). وكان

جيش تبوك ثلاثين ألفاً، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يلق حرباً من الأعداء، فرجع إلى المدينة منتصراً بعد أن أقام بتبوك عشرين ليلة. ولما أقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غزوة تبوك ؛ أمر منادياً فنادى: إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخذ العقبة فلا يأخذها أحد ، فبينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقوده حذيفة ، ويسوق به عمار - رضي الله عنهما - ، إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل فغشوا عماراً وهو يسوق برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لحذيفة: " قد ، قد " ، حتى هبط رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

فلما هبط رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نزل،
ورجع عمار، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم
:- " يا عمار، هل عرفت القوم؟ " ، فقال: قد عرفت
عامة الرواحل ، والقوم متلثمون ، قال: " هل تدري ما
أرادوا؟ " ، قال: الله ورسوله أعلم ، قال: " أرادوا أن
ينفروا برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيطرحوه"
، قال: فسأل عمار رجلاً من أصحاب رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - فقال: نشدتك بالله ، كم تعلم
كان أصحاب العقبة؟ ، فقال: أربعة عشر، فقال: إن
كنت فيهم ، فقد كانوا خمسة عشر. فعذر رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - منهم ثلاثة قالوا: والله ما
سمعنا منادي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وما

علمنا ما أراد القوم. فقال عمار: أشهد أن الاثني عشر
الباقيين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم
الأشهاد.

قصة الثلاثة الذين خَلَفُوا

قال كعب بن مالك رضي الله عنه : لم أتخلف عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها إلا في
غزوة تبوك -وهو يريد الروم ونصارى العرب بالشام-
غير أنني كنت تخلفت في غزوة بدر ، ولم يعاتب أحداً
تخلف عنها ، إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم
يريد عير^(١) قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم

(١) العير: كل ما جلب عليه المتاع والتجارة ، من قوافل الإبل والبغال
والحمير.

على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين توثقنا^(١) على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر^(٢) في الناس منها ، كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة ، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان^(٣) قط ، حتى جمعتهما في تلك الغزوة ، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورّى^(٤) بغيرها ، وكان يقول: "الحرب خدعة " ، حتى كانت تلك الغزوة ، غزاها رسول

(١) توثقنا: تعاهدنا .

(٢) أي: أعظم ذكرا .

(٣) الراحلة: البعير القوي على الأسفار والأحمال ، ويقع على الذكر والأنثى .

(٤) ورّى: أخفى مراده ، وستر غايته ، وأوهمهم بأمر آخر .

الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد حين طابت
 الثمار والظلال، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازاً^(١) وعدواً
 كثيراً، فجلى^(٢) للمسلمين أمرهم ، ليتأهبوا أهبة^(٣)
 غزوهم ، فأخبرهم بوجهه الذي يريد ، والمسلمون مع
 رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير يزيدون على عشرة
 آلاف، ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - فما
 رجل يريد أن يتغيب ، إلا ظن أن سيخفى له - ما لم
 ينزل فيه وحي الله - ، وتجهز رسول الله صلى الله عليه
 وسلم والمسلمون معه ، فطفقت^(٤) أغدو لكي أ تجهز
 معهم ، فأرجع ولم أقض شيئاً ، فأقول في نفسي: أنا

(١) المفازة: البرية القفر، سميت مفازة تفاضلاً .

(٢) جلى: أظهر وأبان .

(٣) التأهب والأهبة: التجهز والاستعداد .

(٤) طفق يفعل الشيء: أخذ في فعله واستمر فيه .

قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي ، حتى اشتد بالناس
الجد ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم
والمسلمون معه يوم الخميس - ولقما كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم يخرج إذا خرج في سفر، إلا خرج
يوم الخميس - وأنا لم أقض من جهازي شيئاً ، فقلت:
أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم ، فغدوت^(١) بعد أن
فصلوا^(٢) لأتجهز ، فرجعت ولم أقض شيئاً ، ثم غدوت
، ثم رجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل بي حتى أسرعوا
وتفارط^(٣) الغزو ، وهممت أن أرتحل فأدركهم - وليتني
فعلت - فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في

(١) الغدو: السير أول النهار.

(٢) (فصلوا) أي: خرجوا من المدينة. كقوله تعالى: {ولما فصلت العير}

أي: خرجت منطلقاً من مصر إلى الشام.

(٣) أي: فات وسبق، والفرط: السبق.

الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم
 فطفت فيهم، أحزنتني أني لا أرى لي أسوة ، إلا رجلاً
 مغموصاً^(١) عليه النفاق ، أو رجلاً ممن عذر الله من
 الضعفاء ، ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم
 حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما
 فعل كعب بن مالك؟ ، فقال رجل من بني سلمة: يا
 رسول الله ، حبسه بُرداه^(٢) ونظره في عطفه^(٣) ، فقال
 معاذ بن جبل رضي الله عنه: بئس ما قلت ، والله يا
 رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً ، فسكت رسول الله
 صلى الله عليه وسلم ، فبينما هو على ذلك ، رأى رجلاً

(١) مغموصاً: مطعوناً في دينه ، متهماً بالنفاق.

(٢) البرد والبردة: الشملة المخططية، وقيل : كساء أسود مربع فيه صور.

(٣) عطف الإنسان (بالكسر): جانبه ، من رأسه إلى وركه أو قدمه ، ومنه: هم ألين عطفاً .

مبيضاً يزول به السراب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كن أبا خيثمة" ، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري رضي الله عنه - وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون - قال كعب: فلما بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلاً^(١) من تبوك حضرنى همى ، وطفقت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطه غداً؟ ، واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلى ، فلما قيل: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظلم قادماً ، زاح عني الباطل ، وعرفت أنى لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب ، فأجمعت صدقه ، وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادماً

(١) أي: راجعاً.

، وكان قلما يقدم من سفر سافره إلا ضحىً ، وكان يبدأ
بالمسجد فيركع ركعتين ثم يجلس فيه للناس ، فلما فعل
ذلك؛ جاءه المخلفون ، فطفقوا يعتذرون إليه ،
ويحلفون له - وكانوا بضعة وثمانين رجلاً - فقبل منهم
رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم وبايعهم ،
واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله ، فجئته ، فلما
سلمت عليه ، تبسّم تبسّم المغضب ، ثم قال: "تعال"
، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي: "ما
خلفك؟ ، ألم تكن قد ابتعت^(١) ظهرك^(٢)؟ " ، فقلت:
بلى ، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا ،
لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت

(١) ابتاع: اشترى .

(٢) الظهر: الإبل تعد للركوب وحمل الأثقال .

جدلاً ، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم
حديث كذب ترضى به عني ، ليوشكن الله أن
يسخطك علي ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي^(١)
فيه إني لأرجو فيه عفو الله ، لا والله ما كان لي من عذر
، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت
عنك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أما
هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضي الله فيك " ، فقامت
، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني ، فقالوا لي: والله
ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزت
أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم بما اعتذر إليه المتخلفون ، قد كان كافيك ذنبك

(١) تجد علي: تغضب مني.

استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك ، فوالله
 ما زالوا يؤنبوني ، حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي ،
 ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ ، قالوا: نعم ،
 رجلان قالوا مثل ما قلت ، فقليل لهما مثل ما قيل لك
 ، فقلت: من هما؟ ، قالوا: مرارة بن الربيع العمري ،
 وهلال بن أمية الواقفي ، فذكروا لي رجلين صالحين ،
 قد شهدا بدرا فيهما أسوة ، فمضيت حين ذكروهما لي
 ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن
 كلامي وكلام صاحبي ، ولم ينه عن كلام أحد من
 المتخلفين غيرنا فاجتنبنا الناس ، وتغيروا لنا ، حتى
 تنكرت في نفسي الأرض ، فما هي التي أعرف ، فلبثنا
 على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي ، فاستكانا

وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا ، فكنت أشب القوم
وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين
، وأطوف في الأسواق ، ولا يكلمني أحد ، وآتي رسول
الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه
بعد الصلاة ، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد
السلام علي أم لا؟ ، ثم أصلي قريباً منه ، فأسارقه النظر
، فإذا أقبلت على صلاتي ، أقبل إليّ ، وإذا التفتُ نحوه
أعرض عني فلبثت كذلك ، حتى طالت عليّ جفوة
الناس وما من شيء أهم إليّ من أن أموت ، فلا يصلي
عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يموت رسول
الله صلى الله عليه وسلم فأكون من الناس بتلك
المنزلة ، فلا يكلمني أحد منهم ، ولا يصلي ولا يسلم عليّ،

فمشيت حتى تسورت^(١) جدار حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي ، وأحب الناس إلي - فسلمت عليه ، فوالله ما رد علي السلام ، فقلت: يا أبا قتادة ، أنشدك بالله ، هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ ، فسكت ، فعدت فناشدته فسكت ، فعدت فناشدته ، فقال: الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار ، فبينما أنا أمشي في سوق المدينة ، إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدلُّ على كعب بن مالك ، فطفق الناس يشيرون له إليّ ، حتى جاءني ، دفع إلي كتاباً من ملك غسان - وكنت كاتباً - فقرأته ، فإذا فيه: أما بعد ،

(١) تسور: تسلق وصعد السور أو الحائط.

فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله
 بدار هوان ولا مضیعة، فالحق بنا نؤاسك. فقلت حين
 قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء ، فتيمنت بها التنور
 فسجرتة^(١) بها ، حتى إذا مضت أربعون ليلة من
 الخمسين ، إذا رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم
 يأتيني فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرُك
 أن تعتزل امرأتك ، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل ؟ ، قال:
 لا ، بل اعتزلها ولا تقربها ، وأرسل إلى صاحبيّ مثل ذلك
 ، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى
 يقضي الله - عز وجل - في هذا الأمر . قال كعب:
 فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه

(١) التنور: ما يخبز فيه. وسجرتة، أي: أوقدته.

وسلم فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟، قال: "لا، ولكن لا يقربك"، قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدريني ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب؟، فلبثت بعد ذلك عشر ليال، حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صبح

خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، وبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله ، قد ضاقت علي نفسي ، وضاقت علي الأرض بما رَحَّبَتْ؛ سمعت صوت صَارِخٍ أَوْفَى على جبلٍ سَلَعٍ بأعلى صوته: يا كعب بن مالك ، أبشر ، قال: فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء فرج ، وآذن^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبي مبشرون ، وركض إلي رجل فرساً، وسعى ساع من أسلم ، فأوفى على الجبل ، وكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرنى نزعته له ثوبِي ، فكسوته إياهما

(١) آذن: أخبر وأعلم.

ببشراه - والله ما أملك غيرهما يومئذ - واستعرت
 ثوبين فلبستهما ، وانطلقت إلى رسول الله صلى الله
 عليه وسلم فتلقاني الناس فوجاً فوجاً ، يهنوني بالتوبة
 ، يقولون: لتهنك توبة الله عليك ، قال كعب: حتى
 دخلت المسجد ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم
 جالس ، حوله الناس ، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله
 رضي الله عنه يهرول حتى صافحني وهنّاني ، والله ما
 قام إليّ رجل من المهاجرين غيره ، ولا أنساها لطلحة ،
 فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبرق وجهه من
 السرور - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر
 ، استنار وجهه ، حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف

ذلك منه : "أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك " ،
 ، فقلت: أمن عندك يا رسول الله ؟ ، أم من عند الله ؟
 ، قال: "لا ، بل من عند الله" ، فلما جلست بين يديه
 قلت: يا رسول الله ، إن من توبتي أن أنخلع من مالي ،
 صدقةً إلى الله وإلى رسوله^(١) ، فقال رسول الله صلى
 الله عليه وسلم: " أمسك عليك بعض مالك ، فهو خير
 لك " ، فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخير ، فقال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يجزئ عنك الثلث
 " ، وقلت: يا رسول الله ، إن الله إنما نجاني بالصدق ،
 وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت ، فوالله
 ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث

(١) وفي رواية: قال كعب: إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب ، وأن أنخلع من مالي كله صدقة .

منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم
أحسن مما أبلاني ، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول
الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا كذباً ، وإني
لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت ، وأنزل الله على
رسوله صلى الله عليه وسلم: {لقد تاب الله على النبي
والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ،
من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم
، إنه بهم رءوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا ،
حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضائق
عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم
تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم ، يا أيها
الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ، ما كان

لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ، ولا نصب ، ولا مخمصة في سبيل الله ، ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلاً ، إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون وادياً ، إلا كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) فوالله ما أنعم الله عليّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام ، أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أكون كذبتة ، فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، فإن الله قال للذين كذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من المتخلفين

واعتذروا بالباطل حين أنزل الوحي ، شر ما قال لأحد ،
 فقال تبارك وتعالى : {يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ،
 قل لا تعتذروا ، لن تؤمن لكم ، قد نبأنا الله من أخباركم
 ، وسيرى الله عملكم ورسوله ، ثم تردون إلى عالم
 الغيب والشهادة ، فينبئكم بما كنتم تعملون ، سيحلفون
 بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم ، فأعرضوا
 عنهم ، إنهم رجس ، ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا
 يكسبون ، يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم
 ، فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين} ، قال كعب :
 وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم
 رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له ،
 فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه

وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله:
{وعلى الثلاثة الذين خلفوا} وليس الذي ذكر الله مما
خلفنا عن الغزو ، وإنما هو تخليفه إيانا ، وإرجاؤه أمرنا
عمن حلف له واعتذر إليه ، فقبل منه.

وفي شَعْبَانَ من السنة التاسعة توفيت أُمُّ كُلْثُومٍ
رضي الله عنها بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
وفي ذي القعدة توفي رأس المنافقين عبدالله بن أبي
بن سلول، حيث مرض في ليالٍ بقين من شوال.

حج أبي بكر بالناس

وفي ذي القعدة خرج أبو بكر للحج بالناس، فإن
النبي صلى الله عليه وسلم أقام بعد أن رجع من تبوك

رمضان وشوالا وذا القعدة، ثم بعث أبا بكر أميرا على
الحج من سنة تسع ليقم للمسلمين حجهم - والناس
من أهل الشرك على منازلهم من حجهم - فخرج أبو
بكر رضي الله عنه ومن معه من المسلمين. وقد بعث
عليه الصلاة والسلام عليا رضي الله عنه بعد أبي بكر
الصديق رضي الله عنه ليكون معه، ويتولى علي بنفسه
إبلاغ البراءة إلى المشركين نيابة عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم لكونه ابن عمه، من عصبته. وبعث أبو
بكر أبا هريرة في تلك الحجة في مؤذنين يوم النحر
يؤذنون يميني أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف
بالبيت عريان. ولما أزدف رسول الله صلى الله عليه
وسلم عليا وأمره أن يؤذن بالبراءة؛ أذن معهم علي في

أَهْلٍ مِنِّي يَوْمَ النَّحْرِ : لَا يَحْجُجُ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا
يُطَوِّفُ بِالْبَيْتِ عُزَيَّانٌ.

وبقيت الوفود تتابع إلى رسول الله ، وجاء وفد نصارى
نَجْرَانَ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-
كَتَبَ إِلَيْهِمْ كِتَابًا يَدْعُوهُمْ فِيهِ إِلَى الْإِسْلَامِ، أَوِ الْجُزْيَةِ،
وَالْأَذْنَهُمْ بِحَرْبٍ، فَدَعَرَ أَهْلُ نَجْرَانَ دُعْرًا شَدِيدًا، فَبَعَثُوا
إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- وَفَدَهُمْ، وَكَانُوا
سِتِّينَ رَجُلًا، فِيهِمْ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ إِلَيْهِمْ يُؤُولُ أَمْرَهُمْ، وَكَانَ
بَيْنَهَا وَفَدِ نَصَارَى نَجْرَانَ فِدَاعُهُمْ لِلْإِسْلَامِ وَحَاجَجُهُمْ ،
وَجَاءَ رَاهِبًا نَجْرَانَ إِلَى النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم-،
فَقَالَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: "أَسْلِمَا
تَسْلَمَا". فَقَالَا: قَدْ أَسْلَمْنَا قَبْلَكَ. فَقَالَ النَّبِيُّ -صلى الله

عليه وسلم:- "كَذَبْتُمَا، مَنَعَكُمَا مِنَ الْإِسْلَامِ ثَلَاثٌ:
سُجُودُكُمَا لِلصَّلَيبِ، وَقَوْلُكُمَا: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَشُرْبُكُمَا
الْخَمْرَ"، فَقَالُوا: مَا تَقُولُ فِي عِيسَى؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -
صلى الله عليه وسلم:- "هُوَ رُوحُ اللَّهِ، وَكَلِمَتُهُ، وَعَبْدُ
اللَّهِ وَرَسُولُهُ". ونزلت بضع وثمانون آية من سورة آل
عمران قرأها عليهم، فلم يقبلوا، وباهلهم فنكصوا عن
المباهلة، ثم رغبوا في الصلح والجزية فجعل لهم ذمة،
فَلَمَّا قَبِضَ أَهْلُ نَجْرَانَ كِتَابَهُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله
عليه وسلم-، وَأَرَادُوا الْأَنْصِرَافَ إِلَى نَجْرَانَ، طَلَبُوا مِنْ
رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَنْ يَبْعَثَ مَعَهُمْ
رَجُلًا أَمِينًا، لِيَقْبِضَ مَالَ الصُّلْحِ، وَلِيَحْكَمَ بَيْنَهُمْ فِي
أَشْيَاءِ اخْتَلَفُوا فِيهَا فِي أَمْوَالِهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ -

صلى الله عليه وسلم:- "لَأُبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ
أَمِينٍ"، ثم قال: "قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنُ الْجُرَّاحِ"، فَلَمَّا قَامَ،
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: "هَذَا أَمِينٌ
هَذِهِ الْأُمَّةُ".

السنة العاشرة من الهجرة

وفاة إبراهيم ابن النبي عليه الصلاة

والسلام

وفي السنة العاشرة كانت وفاة إبراهيم ابن النبي عليه
الصلاة والسلام حيث مَاتَ طِفْلاً قَبْلَ الْفِطَامِ، قَالَ
أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ

رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَرْضِعًا
لَهُ فِي عَوَالِي الْمَدِينَةِ فَكَانَ يَنْطَلِقُ وَنَحْنُ مَعَهُ فَيَدْخُلُ
الْبَيْتَ وَإِنَّهُ لَيُدَّخِنُ وَكَانَ ظِئْرُهُ قَيْنًا فَيَأْخُذُهُ فَيَقْبَلُهُ ثُمَّ
يَرْجِعُ. ولما كانت وفاة إبراهيم في السنة العاشرة من
الهجرة جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدعا
بالصبي فضمه إليه وقبله وهو يجود بنفسه فجعلت
عيننا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تذرْفان، فقال
له عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه -: وأنت يا
رسول الله؟، فقال: " يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ " ، ثم قال
رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ابْنِي
وَإِنَّهُ مَاتَ فِي التَّذْيِ وَإِنَّ لَهُ لَظِئْرَيْنِ تُكْمَلَانِ رِضَاعَهُ فِي
الْجَنَّةِ، إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا

يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ، ولولا أنه
وعد صادق ، وموعد جامع ، وأن الآخر تابع للأول ،
لوجدنا عليك يا إبراهيم أفضل مما وجدنا".^(١)

كسوف الشمس

وركب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مركباً
في يوم شديد الحر، فانكسفت الشمس وكان ذلك اليوم
الذي مات فيه إبراهيم ابن رسول الله - صلى الله عليه
وسلم ، فقال الناس: إنما انكسفت الشمس لموت

(١) وقد وُلِدَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ مِنْ
سُرِّيَّتِهِ مَارِيَةَ الْقُبْطِيَّةِ سَنَةَ ثَمَانٍ مِنَ الْهَجْرَةِ. وَكَانَ لَمَّا وُلِدَ إِبْرَاهِيمُ
قَالَ نَبِينَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "وُلِدَ لِي اللَّيْلَةُ غُلَامٌ، فَسَمَّيْتُهُ بِاسْمِ
أَبِي إِبْرَاهِيمَ" ثُمَّ دَفَعَهُ إِلَى أُمِّ سَيْفٍ - امْرَأَةٍ حَدَادٍ يَقَالُ لَهُ: أَبُو سَيْفٍ -
فِي عَوَالِي الْمَدِينَةِ - فَكَانَ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَرْضِعًا لَهُ فِي عَوَالِي الْمَدِينَةِ.
وَجَمِيعُ أَوْلَادِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُمُ مِنْ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهَا، مَا عَدَا إِبْرَاهِيمَ.

إبراهيم. فرجع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

ضحى فخرج فزعاً يجرُّ رداءه من العجلة، حتى انتهى إلى

المسجد وثاب الناس إليه وبعث منادياً: أن الصلاة

جامعة ، فاجتمع الناس فصفهم وراءه وتقدم فكبر

وجهر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالقراءة فيها

فاقتراً قراءة طويلة حتى إن رجالاً يومئذ ليغشى عليهم

مما قام بهم، حتى إن سجال الماء لتصب عليهم، ثم

ركع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ركوعاً طويلاً

ثم رفع رأسه فقال: سمع الله لمن حمده ، وقام كما هو

ولم يسجد، وقرأ قراءة طويلة هي أدنى من القراءة

الأولى، ثم ركع ركوعاً طويلاً، وهو أدنى من الركوع الأول

ثم رفع رأسه، كلما رفع رأسه قال: سمع الله لمن حمده،

ربنا ولك الحمد، ثم سجد سجدتين فأطال السجود ،
 ثم فعل في الركعة الثانية مثل ما فعل في الأولى فقام
 قياماً طويلاً وهو دون القيام الأول ، ثم ركع ركوعاً طويلاً
 وهو دون الركوع الأول ، ثم قام قياماً طويلاً وهو دون
 القيام الأول ثم ركع ركوعاً طويلاً وهو دون الركوع الأول
 ، ثم سجد وهو دون السجود الأول، ثم تأخر رسول الله
 - صلى الله عليه وسلم - وتأخرت الصفوف خلفه
 حتى انتهى إلى النساء، فجعل ينفخ ويبكي ويقول: لم
 تعدني هذا وأنا فيهم ، لم تعدني هذا ونحن نستغفرك.
 ثم تقدم وتقدم الناس معه، حتى قام في مقامه،
 فاستكمل أربع ركعات في أربع سجادات ثم جلس ففرغ
 من صلاته وقد انجلت الشمس فقعده على المنبر

فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: " إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتموهما كذلك فافزعوا إلى المساجد، فافزعوا إلى الصلاة، فادعوا الله، وكبروا، وصلوا، وتصدقوا، حتى ينجليا، حَتَّى يَكْشِفَ مَا بِكُمْ أَوْ يُحَدِّثَ اللَّهُ أَمْرًا. ثم قال وهو ينادي بأعلى صوته محمرة عيناه: أيها الناس يا أمة محمد، والله ما من أحد أغير من الله أن يزني عبده ، أو تزني أمته ، أظلتكم الفتن كقطع الليل المظلم، يا أمة محمد ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً. فقالوا: يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئاً في مقامك، ثم رأيناك تكعكت، فقال رسول الله - صلى

الله عليه وسلم -:" ما من شيء توعدونه إلا قد رأيته في صلاتي هذه فعرضت علي الجنة، فرأيت أكثر أهلها الفقراء، فتناولت منها عنقوداً حين رأيتهموني جعلت أتقدم، فقصرت يدي عنه، ولو أصبته لأكلت منه ما بقيت الدنيا. ثم عرضت علي جهنم يحطم بعضها بعضاً، وذلك حين رأيتهموني تأخرت، حتى لقد جعلت أتقيها مخافة أن يصيبني من لفحها، ورأيت أكثر أهلها النساء"، قالوا: لم يا رسول الله؟، قال: " بكفرهن "، قيل: يكفرن بالله؟، قال: "يكفرن العشير ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر، ثم رأت منك شيئاً؛ قالت: ما رأيت منك خيراً قط. ورأيت فيها عمرو بن

لحي يجر قُصْبَهُ^(١) - وهو الذي سيب السوائب ، ورأيت فيها امرأة من بني إسرائيل تعذب في هرة لها ربطتها، فلم تطعمها ولم تسقها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت جوعاً فهي إذا أقبلت تنهشها ، وإذا أدبرت تنهشها. ورأيت فيها صاحب المحجن متكئاً على محجنه في النار ، يقول: أنا سارق المحجن - وكان يسرق الحجيج بمحجنه، فإن فطن له قال: لست أنا أسرقكم، إنما تعلق بمحجني وإن غفل عنه ذهب به- ، والذي سرق بدنتي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلم أر منظرًا كالיום قط أفضع. ولقد أوحى إلي أنكم

(١) يَجْرُ قُصْبُهُ (أمعاءه) فِي النَّارِ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِسْمَاعِيلَ فَتَنَصَّبَ الْأَوْثَانَ وَسَيَّبَ السَّائِبَةَ وَبَحَرَ الْبَحِيرَةَ وَوَصَلَ الْوَصِيلَةَ وَحَمَى الْحَامِيَ.

تفتنون في القبور قريباً من فتنة الدجال ، يؤتى أحدكم
فيقال له: ما علمك بهذا الرجل ؟ ، فأما المؤمن فيقول:
هو محمد رسول الله ، جاءنا بالبينات والهدى ، فأجبنا
، وآمنا ، واتبعنا - ثلاث مرار - فيقال: قد كنا نعلم
إنك لتؤمن به ، فخم صالحاً ، وأما المنافق أو المرتاب
فيقول: لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته.
فاستعينوا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق.
والذي نفسي بيده إن الموتي ليعذبون في قبورهم عذاباً
تسمعه البهائم كلها. قالت عائشة: فما رأيت رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - بعد ذلك صلى صلاة إلا تعوذ
من عذاب القبر.

حجة الوداع

وكانت حجة الوداع في سنة عشر. وسميت حجة الوداع لأنه عليه الصلاة والسلام ودع الناس فيها ولم يحج بعدها. وسميت حجة الإسلام لأنه عليه السلام لم يحج من المدينة غيرها، ولكن حج قبل الهجرة مرات، قبل النبوة وبعدها.

وعندما أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم عزمه على الحج في هذا العام، قدم المدينة بشر كثير، كلهم يلتمس أن يأتيهم برسول الله صلى الله عليه وسلم، ويعمل مثل عمله. وخرج من المدينة لخمس بقين من ذي القعدة. وقد وقعت للنبي صلى الله عليه وسلم في مسيره هذا ورجوعه أحداث كثيرة.

وسميت حجة البلاغ لأنه عليه السلام بلغ الناس شرع الله في الحج قولاً وفعلاً.

اكتمال الشريعة وإبلاغ الدين

ولم يكن بقي من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلا وقد بينه عليه السلام، فلما بين لهم شريعة الحج ووضحه وشرحه أنزل الله عز وجل عليه وهو واقف بعرفة: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً).

وقد قال خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - : " مَا تَرَكْتُ شَيْئًا يُقَرِّبُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَيُبَاعِدُكُمْ عَنِ النَّارِ ، إِلَّا وَقَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ ، وَمَا

تَرَكْتُ شَيْئًا يُقَرِّبُكُمْ مِنَ النَّارِ، وَيُبَاعِدُكُمْ عَنِ الْجَنَّةِ، إِلَّا
وَقَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَصِلُوا
بَعْدَهُمَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي".

وقال عمرو بن أخطب - رضي الله عنه -: "صَلَّى
بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْفَجْرَ، وَصَعِدَ
الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ، فَنَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ
صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ، ثُمَّ نَزَلَ
فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ،
فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ، فَأَعْلَمْنَا أَحْفَظْنَا".

وقال حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه -: "خَطَبَنَا
رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خُطْبَةً مَا تَرَكَ فِيهَا
شَيْئًا يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا ذَكَرَهُ،

حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ، وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ، قَدْ عَلِمَهُ أَصْحَابِي
هَؤُلَاءِ، فَمَا مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا قَدْ سَأَلْتُهُ عَنْهُ، إِلَّا أَنِّي لَمْ أَسْأَلُهُ:
مَا يُخْرِجُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَإِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْهُ
الشَّيْءُ قَدْ نَسِيْتُهُ، فَأَرَاهُ، فَأَذْكُرُهُ كَمَا يَذْكُرُ الرَّجُلُ وَجْهَ
الرَّجُلِ إِذَا غَابَ عَنْهُ، ثُمَّ إِذَا رَأَاهُ عَرَفَهُ".

حتى قَالَ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ لِسَلْمَانَ -رضي الله عنه-
وَهُمْ يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ : قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْخِرَاءَةَ. فَقَالَ: أَجَلُ "لَقَدْ نَهَاَنَا أَنْ
نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ لِعَائِطٍ، أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِالْيَمِينِ،
أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقْلٍ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ
بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ".

وقال أبوذر - رضي الله عنه - : تَرَكْنَا رَسُولَ اللَّهِ - صلى
الله عليه وسلم - وَمَا طَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي الْهَوَاءِ ،
إِلَّا ذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عِلْمًا.

السنة الحادية عشر من الهجرة

وفاة النبي صلى الله عليه وسلم

واشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد
عودته من حجة الوداع، حتى اشتد وجعه وهو في
بيت ميمونة رضي الله عنها، فدعا نساءه فاستأذنهن
في أن يُمرَّضَ في بيت عائشة رضي الله عنها. وَكَانَ النَّبِيُّ
صلى الله عليه وسلم يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ:
"يَا عَائِشَةُ مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ

فَهَذَا أَوَانُ انْقِطَاعِ أَبْهَرِي^(١) مِنْ ذَلِكَ السَّمِّ. واستغرق مرضه عشرة أيام.

حَتَّى دَخَلَتْ أُمُّ بَشْرِ بْنِ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - تَعَوُّدُهُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي تُوفِّي فِيهِ، فَقَالَ: "يَا أُمَّ بَشْرٍ، مَا زِلْتُ أَجِدُ أَلَمَ الْأَكْلَةِ الَّتِي أَكَلْتُ مَعَ ابْنِكَ بِخَيْرٍ، تُعَاوِدُنِي كُلَّ عَامٍ، حَتَّى كَانَ هَذَا أَوَانُ انْقِطَاعِ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السَّمِّ".^(٢)

(١) قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ : (الْأَبْهَرُ) عَرَقٌ مُسْتَبِطٌ بِالظَّهْرِ مُتَّصِلٌ بِالْقَلْبِ إِذَا انْقَطَعَ مَاتَ صَاحِبُهُ .

(٢) فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَرَوْنَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - مَاتَ شَهِيدًا، مَعَ مَا أَكْرَمَهُ اللَّهُ مِنَ النُّبُوَّةِ .

وَلَمَّا احْتَجَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ احْتَجَمَ فِي الْكَاهِلِ، وَهُوَ أَقْرَبُ الْمَوَاضِعِ الَّتِي يُمَكِّنُ فِيهَا الْحِجَامَةُ إِلَى الْقَلْبِ، فَخَرَجَتِ الْمَادَّةُ السَّمِّيَّةُ مَعَ الدَّمِّ لَا خُرُوجًا كَلِيًّا، بَلْ بَقِيَ أَثَرُهَا مَعَ ضَعْفِهِ لَمَّا يُرِيدُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ تَكْمِيلِ مَرَاتِبِ الْفَضْلِ كُلِّهَا لَهُ، فَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ إِكْرَامَهُ بِالشَّهَادَةِ، ظَهَرَ تَأْثِيرُ ذَلِكَ الْأَثَرِ الْكَامِنِ مِنَ السَّمِّ الَّذِي وَضَعَهُ لَهُ يَهُودُ خَبِيرٍ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا، وَظَهَرَ سِرُّ قَوْلِهِ تَعَالَى لِأَعْدَائِهِ مِنْ

قال عليه الصلاة والسلام لأصحابه : "وَدِدْتُ أَنِّي لَقِيتُ إِخْوَانِي"، فَقَالَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : أَوَلَيْسَ نَحْنُ إِخْوَانُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، قَالَ: "أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَلَكِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ آمَنُوا بِي وَلَمْ يَرَوْنِي". وَكَانَ آخِرُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ حَضَرَهُ الْمَوْتُ وَهُوَ يُعْرِغُ بِهَا فِي صَدْرِهِ، وَمَا كَانَ يُفِيضُ بِهَا لِسَانُهُ: "الصَّلَاةُ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ، اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ". وتوفاه الله تعالى يوم

اليهود: {أَفَكَلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ} فَجَاءَ بِلْفُظِ كَذَبْتُمْ بِالْمَاضِي الَّذِي قَدْ وَقَعَ مِنْهُ وَتَحَقَّقَ، وَجَاءَ بِلْفُظِ " تَقْتُلُونَ " بِالْمُسْتَقْبَلِ الَّذِي يَتَوَقَّعُونَهُ وَيَنْتَظِرُونَهُ.

وهو عليه الصلاة والسلام يبلغه سلام الناس عليه بعد موته، ومن صلى عليه صلاة واحدة؛ صلى الله بها عليه عشرًا، فصلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً، ورزقنا شفاعته وورود حوضه والشرب من يده، وحشرنا في زمرة.

الإثنين في الثاني عشر من ربيع الأول. وقد تمَّ له من
العمر ٦٣ سنة. وكفن عليه الصلاة والسلام في ثلاثة
أثواب بيض سحولية من كرسف، ليس فيها قميص
ولا عمامة، وصلى الناس عليه أرسالاً، ودفن في مكان
موته في حجرة عائشة رضي الله عنها. وجزاه الله تعالى
عن المسلمين خير ما جرى نبياً عن أمته.

من جوامع ما أخبر به

النبي أصحابه

صلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله، ورضي عن أصحابه، وجزاهم
جميعاً عنا خير الجزاء.

لكل نبي حواريون يخلفهم مُبدّلون

أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أنه مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ، وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ، لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةٌ خَرْدَلٍ. وَلَيَحْمِلَنَّ شِرَارُ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى سَنَنِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ حَذْوَ الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عِلَانِيَةً، لَكَانَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ. وَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى

دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجُمْرِ لِلْمُتَمَسِّكِ فِيهِنَّ يَوْمَئِذٍ بِمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ.

افتراق هذه الأمة

وَإِنَّ الْيَهُودَ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَإِنَّ النَّصَارَى افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَأِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَتَفْتَرِقَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ؛ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي، وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ.

حفظ الإسلام بعلماء ربانيين مجددین

وَيَرِثُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ

تَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَحْرِيفَ الْغَالِينَ^(١).

(١) وقد اهتمَّ الصحابة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرحلة في طلب العلم لما فرقتهم الفتوحات في الأمصار، فرحل جابر بن عبد الله إلى عبد الله بن أنيس في الشام واستغرق شهراً ليسمع منه حديثاً واحداً لم يبق أحدٌ يحفظه غير ابن أنيس. ورحل أبو أيوب الأنصاري إلى عقبة بن عامر بمصر، فلما لقيه قال: حدثنا ما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم في ستر المسلم لم يبق أحدٌ سمعه غيري وغيرك، فلما حدثه ركب أبو أيوب راحلته وانصرف عائداً إلى المدينة ولم يحل رحله.

ثم لما تتابعت الفتن والبدع بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وجيل الصحابة رضوان الله عليهم وظهرت بدعة القول بالقدر، ثم التجهم والرفض فالاعتزال وغيرها؛ سلكت الأجيال التالية لجيل الصحابة الأخيار من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم من أهل القرون المفصلة طرقاً لحفظ السُّنة والعناية بها تمثلت في: العناية بحفظها، والسؤال عن الإسناد، والبحث في أحوال الرجال ونقله الأخبار. فنتج عن ذلك (علم الرجال والإسناد) الذي أصبح ميزة هذه الأمة المسلمة عن غيرها من الأمم. وعلى أثره كانت الرحلة في طلب الحديث وكان تدوين السُّنة الذي بدأ بصحفٍ وأجزاء ثم تطور إلى مصنفات مبنوّة ومرتبّة إما على الأبواب كالكتب الستة والموطأ وغيرها، وإما على المسانيد كمسند أحمد وغيره.

وإِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةٍ سَنَةٍ مِّنْ
يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا.

ولم يكن هناك خلاف بين أحد من السلف في القرون الثلاثة المفضلة في وجوب العمل بالسُّنة دون تفريق بين ما سُمِّي فيما بعد بخبر الأحاد وما سُمِّي بالمتواتر، ولا ما يسمَّى بأصول الدين وفروعه - وكلها تقسيمات محدثة مبتدعة - بل لما بزغت بعض رؤوس الفتنة في عصور السلف الأولى وردَّت السُّنة أو بعضها هبوا جميعاً في وجوهم، وحذروا منهم، وكان أيوب السخيتاني يقول: "إذا حدثت الرجل بالسُّنة فقال: دعنا من هذا وحدثنا بالقرآن، فاعلم أنه ضالٌّ مضلٌّ". ثم اتسع العلماء في كتابة السُّنة في عصر ما بعد التابعين، وعوّلوا على تدوينها في الصحف؛ لأن الروايات انتشرت والمسانيد طالت، وأسماء الرجال وكناهم وأنسابهم كثرت، والعبارات بالألفاظ اختلفت، فعجزت القلوب عن حفظ كل ذلك، فانتشر تدوين السُّنة وصار علم السُّنة أكثر ثباتاً وحفظاً وتدويناً. ووفق الله لها حفاظاً عارفين، وجهابذة عالمين، ينفون عنها تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، فتنوعوا في تصنيفها وتفننوا في تدوينها على أنحاء كثيرة حرصاً على حفظها وخوفاً من إضاعتها، وكان من أحسنها تصنيفاً وأجودها تأليفاً وأكثرها صواباً وأقلها خطأ، وأعمها نفعاً، وأعودها فائدة وأعظمها بركة، وأيسرها مؤونة، وأحسنها قبولاً، عند الموافق والمخالف، وأجلها موضعاً عند الخاصة والعامة: "صحيح البخاري"، ثم "صحيح مسلم"، ثم بعدهما كتاب "السنن" لأبي داود، ثم كتاب "الجامع" للترمذي، ثم كتاب "السنن" للنسائي، ثم كتاب "السنن" لابن ماجه القزويني، وغيرها.

دين الإسلام ناسخ ومتمم للرسالات

والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار. (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) (إن الدين عند الله الإسلام).

ولادة الإنسان وحياته

وما من مولود إلا يولد على الفطرة^(١) ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة

(١) وهي الإسلام لله والإقرار بربوبيته وحده.

جمعاء^(١) هل تحسون فيها من جدعاء؟^(٢). {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}. قال الله : (إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم^(٣) وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً).

وإن الإنسان يُجمِعُ خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يُرسلُ الله إليه الملك، فينفخ فيه الروح، ويؤمرُ بأربع كلمات: بكتب رزقه وعمله وأجله، وشقي

(١) سليمة مجتمعة الأعضاء .

(٢) مقطوعة الأذن .

(٣) أي: أزالوهم عما كانوا عليه .

أَوْ سَعِيدٌ، وَمَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَّا يَطْعُنُ
الشَّيْطَانُ فِي جَنْبَيْهِ بِأَصْبَعِهِ حِينَ يُوَلَّدُ فَيَسْتَهْلُ صَارِحًا
مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ إِلَّا مَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ وَابْنَهَا عِيسَى
عَلَيْهِمَا السَّلَامُ؛ ذَهَبَ يَطْعُنُ، فَطَعَنَ فِي الْحِجَابِ. إِنَّ
أُمَّهَُا حِينَ وَضَعَتْهَا قَالَتْ: {وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا
مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}. وَمَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ
مِنَ الْجِنِّ ^(١) وَقَرِينُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ^(٢).

الذرية تتأثر بصفات الوالدين

ونسي آدم فنسيت ذريته، وسمي الإنسان لِأَنَّهُ
عُهِدَ إِلَيْهِ فَنَسِيَ، وَخَطِئَ آدَمَ، فَخَطِئَتْ ذَرِيَّتُهُ. وَلَوْلَا

(١) شيطان يغويه ويسول له ويشككه في الدين.

(٢) يسدده ويرشده.

حواء ، لم تكن أنثى زوجها الدهر^(١) ، وكل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون.

وإذا أراد الله أن يخلق النسمة، فجامع الرجل المرأة، طار ماؤه في كل عِرْقٍ وَعَصَبٍ منها، فإذا كان يوم السابع أحضر الله - عز وجل - له كُلَّ عِرْقٍ بينه وبين آدم، {في أي صورة ما شاء ركبك}.^(٢)

(١) يعني: لولا أن حواء خانت آدم في إغرائه وتحريضه على مخالفة الأمر بتناول الشجرة وسنت هذه السنة لما سلكتها أنثى مع زوجها أبداً. ولذا فإن بناتها أشبهنّها بالولادة ونزع العرق مما كتبه الله على البشر. وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال الله تبارك وتعالى لِآدَمَ: "يَا آدَمُ مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ أَكُلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نَهَيْتُكَ عَنْهَا؟" قَالَ: (فَاعْتَلَى) آدَمُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ زَيْنْتَهُ لِي حَوَاءُ، قَالَ: فَإِنِّي (عَاقَبْتُهَا) بِأَنْ لَا تَحْمِلَهَا إِلَّا كُرْهًا، وَلَا تَضَعَهَا إِلَّا كُرْهًا، وَدَمِيتُهَا فِي كُلِّ شَهْرٍ مَرَّتَيْنِ . قَالَ: فَرَنْتُ حَوَاءُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَقِيلَ لَهَا: عَلَيْكَ الرِّثَّةُ، وَعَلَى بَنَاتِكَ.

(٢) وظهر مؤخراً من العلوم البشرية علم الحمض النووي DNA والجينات التي تحمل الصفات الوراثية.

الوصية بحسن معاشرّة النساء

رفقاً بالقوارير^(١)، استوصوا بالنساء خيراً، فإن
المرأة خلقت من ضِلَعٍ، وإن أعوج شيء في الضِلَعِ أعلاه،
لن تستقيم لك على طريقة واحدة، فإن استمتعت بها؛
استمتعت بها وفيها عَوَجٌ، وإن ذهبت تقيمها كسرتها،
وكسرهما طلاقها، فدارها تَعِشْ بها، وخيركم خيركم
لأهله، لا يَفْرُكُ^(٢) مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ
مِنْهَا آخَرَ.^(٣)

(١) يعني النساء.

(٢) لا يبغض.

(٣) وقد جاء الإسلام بحماية المرأة المسلمة وفرض الحجاب على نساء
المؤمنين صيانة لهن، وحثاً على قرار المرأة في بيتها، فلا يجوز دعوتها
للتبرج في أي وسيلة، ويجب كفالتها والإنفاق عليها وصيانتها
وحفظها وإكرامها، ولا يجوز إحواجاها للعمل مطلقاً.

عمل الإنسان في الحياة وقدره ومصيره

إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ فَمَنْ
كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَمَنْ كَانَ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا
فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ. اْعْمَلُوا؛ فكلُّ ميسر لما خُلِقَ
لَهُ، فَأَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ، فييسرون لعمل أهل السعادة،
وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ، فييسرون لعمل أهل الشقاوة، وَإِنَّ
الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ
مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا
يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ
بِالْخَوَاتِيمِ، إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا
يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ

بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ
النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسِيقُ عَلَيْهِ
الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا.

وَإِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ؛ عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا
فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ
حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ
يَرْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النَّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ
بِعَمَلِ فَلَانٍ فَهُوَ بِنَيْتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ
مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَا يَتَّقِي
فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا،
فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا

فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ
بِنَيْتِهِ فَوَزَّرَهُمَا سَوَاءً.

وَإِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ أَضْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ
الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يَصْرِفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ،
"اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ".
احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظُكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تَجَاهَكَ، إِذَا
سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، تَعَرَّفْ
إِلَى اللَّهِ فِي الرِّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَّةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ
لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَاعْلَمْ
أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ
يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى
أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ

عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ، وَاعْلَمْ أَنَّ
النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ
يُسْرًا، وَلَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى
يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ
وَجِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ^(١)، وَعَنْ
مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ.

(١) حث الإسلام على العلم والتعلم، وإضافة لعلوم القرآن والسنة -
التي هي أشرف العلوم- فقد نبغ المسلمون في مختلف العلوم
الدنيوية النافعة وأثروها بالمؤلفات والاختراعات.
ومما سبق المسلمون غيرهم في معرفته: الساعات الحائطية،
والبريد، والورق، والمدافع، والتكييف عن طريق الجدران، وفن
الهندسة المعمارية في الأسقف والقناطر والأنفاق. وعلى تصويبات
ابن الهيثم في البصريات استطاع الغرب أن يصنع النظارات،
ونسبها إلى "جون ويلسون" الإنجليزي، وكذلك الصفر والكسور
العشرية والكسور الاعتيادية لم يعرفها الغرب إلا من المسلمين. هذا
عدا ما سبق أن أشرنا له في أول الكتاب -في خلق السموات والأرض-
من تفوق المسلمين في علم الفلك والتأريخ والأرض والخرائط.

عدل الله ورحمته وكرمه وغناه عن

خلقه

قال الله تعالى : يا عبادي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى
نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالُمُوا، يا عبادي كُلُّكُمْ
ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يا عبادي كُلُّكُمْ
جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعَمُونِي أَطْعِمْكُمْ، يا عبادي
كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكَسُونِي أَكْسِكُمْ، يا
عبادي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ
جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ. يا عبادي إِنَّكُمْ لَنْ
تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي. يا
عبادي لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى

أَتَقَى قَلْبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا،
 يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى
 أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي
 شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ
 قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ
 مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ
 الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ. يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ
 أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ
 اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ.

وَإِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ
 بَيَّنَّ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا، فَعَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُ
 قَدْ أَشْعَرَهَا قَلْبُهُ، وَحَرَصَ عَلَيْهَا ؛ كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ

حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ
عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ،
وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً،
وَإِنْ هَمَّ بِهَا، فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً أَوْ مَحَاها
اللَّهُ، وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ.

ركائز دين الإسلام

الإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، أَنْ تَشْهَدَ أَنْ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنْ تُتِمَّ الْوُضُوءَ^(١)،

(١) وسئل عثمان بن عفان - رضي الله عنه - عن الوضوء ، فدعا بماء ، فأتي بمِيضَاءٍ، فسكب على يمينه فغسلها ، ثم أدخل يمينه في الإناء ، فغسل كفيه إلى الكوعين ثلاثاً، ثم أدخل يمينه في الإناء فتمضمض ثلاثاً واستنشق واستنثر ثلاثاً، ثم غسل وجهه ثلاث مرات ، ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاث مرات ، ثم غسل يده اليسرى مثل ذلك، ثم أدخل يده فأخذ ماء ، فمسح برأسه وأذنيه ، فغسل بطونهما وظهورهما مرة واحدة، ثم غسل رجله اليمنى إلى الكعبين

وَأَنْ تُقِيمَ الصَّلَاةَ ^(١) الْمَكْتُوبَةَ ^(٢) ؛ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ
الْمَفْرُوضَةَ ^(٣) ؛ وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحَجَّ الْبَيْتَ إِنْ

ثلاث مرات ، ثم غسل اليسرى مثل ذلك . ثم قال: أين السائلون عن الوضوء ؟ ، هكذا رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتوضأ . وقال عليه الصلاة والسلام: "الطَّهَوْرُ شَطْرُ الْإِيمَانِ" . قيل المراد بالإيمان هنا: الصلاة ، كما قال الله تعالى: {وما كان الله ليضيع إيمانكم} ، والطهارة شرط في صحة الصلاة ، فصارت كالشطر ، وليس يلزم في الشطر أن يكون نصفاً حقيقياً ، وهذا القول أقرب الأقوال . ويحتمل أن يكون معناه أن الإيمان تصديق بالقلب ، وانقياد بالظاهر ، وهما شطران للإيمان ، والطهارة متضمنة الصلاة ، فهي انقياد في الظاهر .

^(١) وقال عليه الصلاة والسلام: "إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَاَسْبِغِ الْوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ بِمَا تيسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَسْتَوِيَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا" .

^(٢) المكتوبة هي الصلوات المفروضة .

^(٣) أمر الإسلام بالزكاة وحث على الصدقة، وشرع الوقف الذي هو من أحكام الشريعة الإسلامية التي لم تشرع في غيره، وحرّم الإسلام الضرائب التي تؤخذ من الفقراء وتعطى للأغنياء، وحرّم الربا والميسر وأكل أموال الناس بالباطل، وليس في الإسلام شح يهودي ولا تقشف بوذي ولا احتكار وقرصنة كما عند الغرب، والمسلمون لا يعبدون المال، ولا يلغون الملكية الفردية .

اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَتَعْتَمِرَ وَتَغْتَسِلَ مِنَ الْجَنَابَةِ،
وَالْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ
وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الْآخِرِ (بَعْدَ الْمَوْتِ) وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ،
وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ
اسْتَقِمْ. وَالْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَتَعْمَلَ لِلَّهِ وَتَخْشَى اللَّهَ
كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ^(١). اتَّقِ اللَّهَ
حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ
النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ.

(١) تعبدك كأنك تشاهده، فإن كان الحال أنك لا تشاهده فتوقن أنه يراك ويعلم ما في نفسك فتخشاه وتتقيه وتخلص له في كل أمورك.

عماد الدين وقوامه : النصيحة

الدين : النصيحة^(١)، لله^(٢) ولكتابه^(٣) ولرسوله^(٤)
ولأئمة المسلمين^(٥) وعامتهم^(٦).

-
- (١) أي: عماد الدين وقوامه النصيحة ، كقوله: " الحج عرفة " أي: عماده ومعظمه عرفة. والنصيحة هي فعل وبذل الخير تجاه الغير والخلوص من الشوائب وحفظ النفس.
- (٢) وتكون لله الغني عن عباده بتوحيده وطاعته وتعود منفعتها للعبد، (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ).
- (٣) وتكون لكتاب الله بتدبره وتعظيمه وحسن تلاوته والعمل به.
- (٤) ولرسوله بتوقيره ونصرته وطاعته وإحياء سنته.
- (٥) ولأئمة المسلمين بمعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وتذكيرهم به وتنبيههم برفق ومنهم العلماء ببث علومهم ونشر مناقبهم وتحسين الظن بهم.
- (٦) ولعامتهم بإرشادهم لمصالحهم وحب الخير لهم.
- ولا يكون ناصحاً لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم إلا من بدأ بالنصيحة لنفسه، واجتهد في طلب العلم والفقه، ليعرف به ما يجب عليه، ويعلم عداوة الشيطان له وكيف الحذر منه، ويعلم قبيح ما تميل إليه النفس حتى يخالفها بعلم، ومن تدين بالدين الحق فقد نصح نفسه.

دين الإسلام كامل . . فاسألوا أهلَ

الذِّكْرِ

إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ فَرَائِضَ، فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ، فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ، فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا، (الْيَوْمَ يَأْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) وَإِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ، لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرَعَى حَوْلَ

الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَى، أَلَا
وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مُحَارِمُهُ، (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ، بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ) وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، فَاجْتَنِبُوهُ،
وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ، فَاتُّوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ.

الزهد يورث النجاة وغنى القلب

كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ، وَازْهَدْ فِي
الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبَّكَ
النَّاسُ، لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا
يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا، وَمَنْ كَانَتْ
الْآخِرَةُ هَمَّهُ؛ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي
قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ؛

فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ .

صلاح القلب والأخلاق

أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ، فَدَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطَيْتَهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَنَّهُ. وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُذَرِّكَ بِحُسْنِ

خُلِقَ دَرَجَاتِ الصَّائِمِ وَالْقَائِمِ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ
 دَرَجَةِ الصَّلَاةِ وَالصَّيَامِ وَالصَّدَقَةِ؟: إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ؛
 فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ. وَإِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ
 مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ، فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ.
 لَا تَغْضَبْ، لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ؛ وَإِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي
 يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ. الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ: مَا
 حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ. وَإِذَا
 سَرَّتْكَ حَسَنَتُكَ، وَسَاءَتْكَ سَيِّئَتُكَ؛ فَأَنْتَ مُؤْمِنٌ. ذَاقَ
 طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ
 رَسُولًا. وَلَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ^(١) أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ
 وَلَدِهِ، وَوَالِدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ. وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ

(١) أي: محمد صلى الله عليه وسلم.

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ، (لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ
مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ
بَيْنَ النَّاسِ)، وَمَنْ قَالَ: هَلَكَ النَّاسُ؛ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ.

حق المسلم على المسلم

لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا ^(١)، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا
تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ
اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ،
وَلَا يَكْذِبُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، بِحَسَبِ امْرَأٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ
أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ
وَعَرْضُهُ، وَلَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ

(١) يعني : في مزادات البيع، نهى أن يزيد أحد في سعر سلعة لا يريد
شراءها.

لِنَفْسِهِ، وَمِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَغْنِيهِ،
وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ
أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ
مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ
اللَّهِ - عز وجل .

وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ،
وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَإِذَا
كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الثَّالِثِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ
يُحْزِنُهُ، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَرْوَعَ مُسْلِمًا، لَا ضَرَرَ ^(١) وَلَا
ضِرَارَ. ^(٢)

(١) لَا يَضُرُّ الرَّجُلَ أَخَاهُ.

(٢) (وَلَا ضِرَارَ) يَعْنِي: لَا يُضَارُّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ وَيُدْخَلُ الضَّرَرُ عَلَى الَّذِي ضَرَّهُ؛ وَلَكِنْ يَعْضُو عَنْهُ {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}.

ذم صفات المنافقين

يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ،
لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ
عَوْرَاتِهِمْ، تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ
يُفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ، أَرْبَعُ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا وَإِنْ صَامَ
وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، وَإِنْ كَانَتْ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ فِيهِ
كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا: مَنْ إِذَا
حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ، وَإِذَا
عَاهَدَ غَدَرَ أَوْ إِذَا اتَّخَذَ خَانَ .

النسب والميراث

أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا أَبَقَتِ الْفَرَائِضُ فَلأَوَّلَى
رَجُلٍ ذَكَرٍ، وَالرَّضَاعَةُ تُحَرِّمُ مَا تَحَرِّمُ الْوَلَادَةُ، وَيَحْرُمُ مِنَ
الرَّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ.

القضاء والحكم

لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ، لَادَّعَى رِجَالٌ أَمْوَالَ قَوْمٍ
وِدِمَاءَهُمْ وَلَكِنِ الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ
أَنْكَرَ. وَإِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ، فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ،
وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ، وَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ
مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ ثُمَّ^(١) دِينَارٌ وَلَا

(١) يعني يوم القيامة.

دِرْهَمٌ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لِأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ لَمْ
يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ،
وَإِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ، وَمَا
اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ.

أعمال تورث الرضا وأخرى تسخط

إِذَا صَلَّيْتَ الْمَكْتُوبَاتِ، وَصُمْتَ رَمَضَانَ، وَأَحْلَلْتَ
 الْحَلَالَ، وَحَرَّمْتَ الْحَرَامَ، وَلَمْ تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ شَيْئًا، فَإِنَّكَ
 تَدْخُلُ الْجَنَّةَ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يَدْخُلُ
 الْجَنَّةَ عَاقٍ، وَلَا قَاطِعُ رَحِمٍ، وَلَا مُؤْمِنٌ بِسِحْرِ، وَلَا مُدْمِنٌ
 خَمْرٍ، وَلَا مُكَذِّبٌ بِقَدَرٍ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ
 جَارُهُ بِوَائِقِهِ، وَلَا مَنَانٌ وَلَا نَمَامٌ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ جَسَدٌ
 غُذِيَ بِحَرَامٍ وَلَا لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ
 مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ، وَلَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى
 تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا
 فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ. تَهَادَوْا تَحَابُّوا.

إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ،
وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُو أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ، مَا مِنْ أَحَدٍ
يُدْخِلُهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي رَبِّي بِمَغْفِرَةٍ
مِنْهُ وَرَحْمَةٍ وَفَضْلٍ، فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَاسْتَعِينُوا
بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ، وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ، وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ^(١)
تَبَلَّغُوا، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُحْصُهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى
مَعْصِيَتُهُ.

وَالْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ،
وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ
مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا
مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ

(١) يعني: الوُسْطَ الْمُعْتَدِلَ، لَا إِفْرَاطَ وَلَا تَفْرِيطَ.

قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ مِنَ الْخَطَايَا ؛ أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ
فَطَرَحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طَرَحَ فِي النَّارِ.

أهمية طيب المطعم والمكسب

إِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَةَ، وَلِيَحِدَّ أَحْدَكُمْ شَفْرَتَهُ،
وَلِيُرِخْ ذَبِيحَتَهُ. وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمَتْهَا رَحِمَكَ اللَّهُ. قَاتَلَ
اللَّهُ الْيَهُودَ، إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمُ الْإِنْتِفَاعَ بِشُحُومِ
الْمَيْتَةِ؛ جَمَلُوهُ^(١)، ثُمَّ بَاعُوهُ، فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ
لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ
الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ
وَاعْمَلُوا صَالِحًا}، وَقَالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا

(١) يعني : أذابوا الشحم بالتسخين.

مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} . وَإِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ
الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ.

من وصايا المأكل والمشرب

سم الله ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك . ومن نسي
أن يذكر اسم الله في أول طعامه ، فليقل حين يذكر:
"بسم الله في أوله وآخره" ، فإنه يستقبل طعاماً جديداً،
ويمنع الخبيث ما كان يصيب منه. والبركة تنزل وسط
الطعام، فكلوا من حافتيه ، ولا تأكلوا من وسطه.

وإذا سقطت من أحدكم اللقمة فليأخذها فليمسح
ما عليها من الأذى وليأكلها ولا يدعها للشيطان. ولا
يرفع الصحيفة حتى يلعقها أو يلعقها ؛ فإنه لا يدري في

أي طعامه تكون البركة. ومن أكل طعاماً ثم قال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة ، غفر له ما تقدم من ذنبه. وما عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاماً قط، كان إن اشتهاه أكله ، وإن كرهه تركه.

وما مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءَ شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أَكَلَاتٍ يُقَمِّنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ، فَثُلُثَ لِطْعَامِهِ، وَثُلُثَ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثَ لِنَفْسِهِ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ.

وإذا شرب أحدكم ، فلا يشرب نفساً واحداً، ولا يتنفس أحدكم في الإناء إذا كان يشرب منه، ولكن إذا أراد أن يتنفس، فليؤخره عنه ، ثم يتنفس.

ونهى عن الشرب من ثلثة (كسر) القدح أو أذنه.
 وأن يشرب من فم القربة أو السقاء؛ لأن ذلك ينتنه.
 وكان يأكل بثلاث أصابع ، فإذا فرغ لعقها قبل أن
 يمسخها. ^(١)

^(١) ومن وصايا أهل الطب قولهم : مَنْ سَرَّهُ الْبَقَاءُ - وَلَا بَقَاءَ - فليباكر
 الغداء، وليعجل العشاء، وَلَا تَأْكُلُوا الْجَوْزَ عِنْدَ الْمَسَاءِ، وَأَكُلْ الْقَدِيدَ
 الْيَابِسَ بِاللَّيْلِ مُعِينٌ عَلَى الْفَنَاءِ. وَلَا تَأْكُلَنَّ حَتَّى تَجُوعَ، وَلَا تَأْكُلَنَّ
 طَعَامًا، وَفِي مَعِدَتِكَ طَعَامٌ، وَلَا يَأْكُلْ مَنْ بِهِ غَمٌّ حَامِضًا. وَأَجِدْ مَضْغَ
 الطَّعَامِ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَأْكُلَ مَا تَعْجُرُ أَسْنَانُكَ عَنْ مَضْغِهِ، فَتَعْجُرَ مَعِدَتَكَ
 عَنْ هَضْمِهِ. واحذَرُ أَنْ تَجْمَعَ الْبَيْضَ وَالسَّمَكَ أَوِ اللَّبَنَ وَالسَّمَكَ أَوِ
 اللَّبَنَ وَالنَّبِيذَ . وَاسْتَدِيمُوا الصَّحَّةَ بِتَرْكِ الْإِمْتِلَاءِ مِنَ الطَّعَامِ
 وَالشَّرَابِ، وَلِتَأْكُلْ عَلَى نَقَاءٍ، وَلِتَشْرَبْ عَلَى ظَمَأٍ، وَلَا تَأْكُلُوا فَوْقَ
 شَبْعِكُمْ، وَالْأَكْلُ الْكَثِيرُ يُفْسِدُ فَمَ الْمَعِدَةِ، وَيُضْعِفُ الْجِسْمَ، وَيُولِّدُ الرِّيَّاحَ
 الْغَلِيظَةَ، وَالْأَدْوَاءَ الْعَسِرَةَ، وَمَنْ أَكَلَ بَيْضًا مَسْلُوقًا بَارِدًا، وَامْتَلَأَ مِنْهُ،
 فَأَصَابَهُ رَبْوٌ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ.

وَإِذَا أَكَلْتَ نَهَارًا فَلَا بَأْسَ أَنْ تَنَامَ، وَلِتَتَمَدَّدَ بَعْدَ الْغَدَاءِ وَلِتَنَمْ عَلَى
 إِثْرِ غَدَائِكَ سَاعَةً ، وَإِذَا أَكَلْتَ لَيْلًا فَلَا تَنَمْ حَتَّى تَمْشِيَ بَعْدَ الْعُشَاءِ وَلَوْ
 أَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسِينَ خُطْوَةً. وعماد طعام العرب: التمر واللبن والسمن
 ودقيق البر والشعير والشحوم والعسل واللحم والسمن والجراد
 والأقط. و"الثريد" سيد الطعام ويهيا بسلق قطع اللحم الملقاة في
 الماء، وقد يضاف إليه البصل والحمص، فإذا سلق اللحم ونضج وتولد
 منه مرق، ألقى مع مرقه على الخبز المشرود.

وكان عليه الصلاة والسلام لا يأكل متكئاً^(١). ونهى
أن يأكل الرجل وهو منبطح على وجهه. وعن النفخ في
الطعام والشراب.

من وصايا حفظ الصحة والتداوي

تداووا عباد الله، فما أنزل الله داءً إلا أنزل له دواءً،
علمه من علمه، وجهله من جهله، إلا الهرم، إلا السام
وهو الموت. فتداووا، ولا تتداووا بحرام^(٢).

(١) اتكأ: اضطجع، والاضطجاع: الميل على أحد جنبيه.

(٢) ونهى عليه الصلاة والسلام عن الدواء الخبيث.

ومن خلاصة ما نصح به قدماء الأطباء قولهم: لَا تَشْرَبِ الدَّوَاءَ إِلَّا مِنْ عِلَّةٍ، وَلَا يَتَعَاجَزْ أَحَدُكُمْ مَا احْتَمَلَ بَدَنُهُ الدَّاءَ. وَاسْتَدِيمُوا الصَّحَّةَ بِتَرْكِ التَّكَاسُلِ عَنِ التَّعَبِ. وَلَا تَحْبِسِ الْبَوْلَ، فَإِنْ طَوَّلَ الْكُثْرَ فِي الْمَخْرَجِ يُؤَلِّدُ الدَّاءَ الدَّوِيَّ. وَلَا يَنْمِ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَعْضُ نَفْسَهُ عَلَى الْخَلَاءِ، وَإِيَّاكَ وَالنَّوْمَ الْكَثِيرَ، وَلَا يَنْمِ مَنْ بِهِ زَكَمَةٌ عَلَى قَفَاهُ، وَالنَّوْمُ عَلَى الْقَفَا يَضُرُّ الدَّهْنَ، وَلَا يَنْمِ صَاحِبُ الْحُمَى الْبَارِدَةِ فِي الشَّمْسِ.

وَمَنْ أَرَادَ الصَّحَّةَ، فَلْيَجُودِ الْغِذَاءَ، وَالْإِقْلَالَ مِنَ الضَّارِّ خَيْرٌ مِنَ الْإِكْثَارِ مِنَ النَّافِعِ.

وعليك بالعسل من الداخل والزيت من الخارج، وَلَا تَأْكُلْ مِنَ الْفَاكِهَةِ إِلَّا فِي أَوَانٍ نَضِجَهَا، وَلَا تَأْكُلْ مِنَ اللَّحْمِ إِلَّا فَتِيًّا، وَلَا تَأْكُلْ فِي الصَّيْفِ لَحْمًا كَثِيرًا، وَمَنْ شَرِبَ كُلَّ يَوْمٍ فِي الشِّتَاءِ قَدْحًا مِنْ مَاءٍ حَارٍّ، أَمِنَ مِنَ الْأَعْلَالِ، وَلَا تَقْرَبِ الْبَاذِنَجَانَ الْعَتِيقَ الْمُبَرَّرَ.

وَعَلَيْكُمْ بِتَنْظِيفِ الْمَعْدَةِ فِي كُلِّ شَهْرٍ، فَإِنَّهَا مُذِيبَةٌ لِلْبَلْغَمِ، مهلكة للمرة، منبئة للحم، وَعَلَيْكَ فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ بِقِيَّةٍ تَنْقِي جِسْمَكَ، وَعَلَيْكَ بِالْقِيءِ فِي الصَّيْفِ، وَلَا يَتَقَيَّأُ مَنْ تَوَلَّاهُ عَيْنُهُ، وَلَا تَحْبِسْ فِي الْمَعْدَةِ طَعَامًا تَأَذَّيْتُ بِهِ.

وَعَلَيْكَ بِدُخُولِ الْحَمَّامِ (مكان الاغتسال) فَإِنَّهُ يُخْرِجُ مِنَ الْأَطْبَاقِ مَا لَا تَصِلُ الْأَدْوِيَةُ إِلَى إِخْرَاجِهِ، وَمَرَّةً فِي الصَّيْفِ خَيْرٌ مِنْ عَشْرِ فِي الشِّتَاءِ، وَخُذْ مِنَ الْحَمَّامِ قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَ مِنْكَ، وَمَنْ دَلَكَ جِسْمَهُ فِي الْحَمَّامِ بِقُشُورِ الرُّمَّانِ أَمِنَ مِنَ الْجَرَبِ وَالْحَكَّةِ، وَالْإِغْتِسَالُ بِالْمَاءِ الْبَارِدِ بَعْدَ أَكْلِ السَّمَكِ الطَّرِيّ يُوَلِّدُ الْفَالِجَ، وَأَكْلُ الْمَلُوحَةِ وَالسَّمَكِ الْمَالِحِ وَالْإِفْتِصَادُ بَعْدَ الْحَمَّامِ يُوَلِّدُ الْبَهَقَ وَالْجَرَبَ. وَدُخُولُ الْحَمَّامِ عَقِيبَ الْإِمْتِلَاءِ؛ يَهْدِمُ الْبَدَنَ وَقَدْ يَصِيبُ بِالْفَالِجِ.

وَنِعْمَ الْكَثْرُ الدَّمُ فِي جَسَدِكَ، فَلَا تُخْرِجْهُ إِلَّا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَإِيَّاكَ وَالْفُضْدَ إِلَّا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَالْإِفْتِصَادُ بَعْدَ الْحَمَّامِ يُوَلِّدُ الْبَهَقَ وَالْجَرَبَ، وَلَا يُسْرِعُ الْمَشْيَ مَنْ افْتَصَدَ، فَإِنَّهُ مُخَاطَرَةٌ الْمَوْتِ، وَمَنْ افْتَصَدَ، فَأَكَلَ مَالِحًا فَأَصَابَهُ بَهَقٌ أَوْ جَرَبٌ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ.

ومما يقوي الجِسْمَ: لُبْسُ الثَّوبِ النَّاعِمِ وَلُبْسُ الْكَتَّانِ وَتَخْفِيفُ الرِّدَاءِ، وَدُخُولُ الْحَمَّامِ الْمَعْتَدِلِ، وَأَكْلُ اللَّحْمِ وَأَكْلُ الطَّعَامِ الْحَلْوِ الدَّسَمِ، وَشَمُّ الرُّوَاحِ الطَّيِّبَةِ، وَكَثْرَةُ الْغُسْلِ مِنْ غَيْرِ جَمَاعٍ. وَأَرْبَعَةٌ تُفْرَحُ: النَّظَرُ إِلَى الْخَضِرَةِ، وَإِلَى الْمَاءِ الْجَارِي، وَالْمَحْبُوبِ، وَالتَّمَارِ.

ومما يُوْهِنُ الْبَدَنَ ويمرضه: كَثْرَةُ الْجَمَاعِ، وَكَثْرَةُ الْهَمِّ، وَكَثْرَةُ شَرْبِ الْمَاءِ عَلَى الرِّيقِ، وَكَثْرَةُ أَكْلِ الْحَامِضِ، وَالْكَلامُ الْكَثِيرُ، وَالْأَكْلُ الْكَثِيرُ، وَالنُّومُ الْكَثِيرُ، وَالْحُزْنُ، وَالْجُوعُ، وَالسَّهَرُ، وَالْغَبَارُ، وَالدَّخَانُ، وَالتَّنُّ، وَالتَّخَلُّلُ بِالرَّيْحَانِ.

"بسم الله، تربة أرضنا، بريقة بعضنا^(١)، ليشفى به
سقيمنا بإذن ربنا".

السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب^(٢). وخير ماء على
وجه الأرض ماء زمزم ، فيه طعام من الطعم ، وشفاء
من السقم.

وإن أفضل ما تناوئتم به: الحجامة^(٣) ، والقسط
البحري . وإذا هاج بأحدكم الدم فليحتجم، فإن الدم

(١) المعنى: إذا اشتكى الإنسان الشيء منه، أو كانت به قرحة أو جرح؛
فيأخذ من ريق نفسه على أصبعه السبابة ، ثم يضعها على التراب ،
فيعلق بها منه شيء، فيمسح به على الموضع الجريح أو العليل،
ويقول هذا الكلام في حال المسح. والله أعلم.

(٢) السواك يعود الأراك هو أفضل ما استيك به لأنه يفصح الكلام
ويطلق اللسان ويطيب النكهة ويشهي الطعام وينقي الدماغ وأجود
ما استعمل مبلولاً بماء الورد .

(٣) الحجم: لغة المص. والمحجمة هي الآلة التي يمس بها الدم
ويحجم بها المريض . والحجامة: هي ما يفعله الحجام وهو المصاص

إذا تبيغ^(١) بصاحبه يقتله. وقال لمن شكا وجعاً في رأسه: "اذهب فاحتجم". ولمن شكا وجعاً في رجله: "اذهب فاخضبها بالحناء"^(٢). وقال: الشَّفاءُ في ثلاث:

وسمي بذلك لأنه يمس الدم الفاسد من المحجوم عن طريق المحجمة أو المحجم: وهو مشرط الحجام الذي يشرط به الجلد. والحجامة يفضل أن تكون على الريق وبعد منتصف الشهر وأفضلها يوم ١٧ أو ١٩ أو ٢١ ويحتاج إليها أكثر في وقت الحر وتفيد في قوة الحفظ والبصر وعلاج الأمراض والصداع والبلغم. ^(١) باغ الدم: ثار وهاج، كما يكون الحال عند من به ارتفاع في ضغط الدم.

^(٢) وقد يتأثر لون البول من الصبغ بالحناء أو أكل الشمندر والزعفران وغيره. علماً أن فحص البول قد روي عن مالك وعمر بن عبد العزيز والزهري.

شَرْبَةِ عَسَلٍ^(١)، وَشَرْطَةِ مُحْجَمٍ، وَكَيْتَةِ نَارٍ تَوَافِقُ الدَّاءَ،
وَمَا أَحَبُّ أَنْ أَكْتُوِي، وَأَنْهِيَ أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّ^(١) .

(١) قال ابن القيم: "والعسل فيه منافع عظيمة، فإنه جلاءٌ للأوساخ التي في العروق والأمعاء وغيرها، محللٌ للرطوبات أكلاً وطلاءً، نافعٌ للمشايخ وأصحاب البلغم، ومن كان مزاجه بارداً رطباً، وهو مغذٍ ملين للطبيعة، حافظٌ لقوى المعاجين ولما استودع فيه، مُذهِبٌ لكيفيات الأدوية الكريهة، منقٍّ للكبد والصدر، مُدرٌّ للبول، موافقٌ للسعال الكائن عن البلغم.

وإذا شُربَ حاراً بدَّهن الورد، نفع من نهش الهوام، وشرب الأفيون، وإن شُربَ وحده ممزوجاً بماء نفع من عضه الكلب الكلب، وأكل الفطُر القتال، وإذا جُعِلَ فيه اللَّحْمُ الطري، حَفِظَ طراوته ثلاثة أشهر، وكذلك إن جُعِلَ فيه القثاء، والخيار، والقرع، والبادنجان، ويحفظ كثيراً من الفاكهة ستة أشهر، ويحفظ جثة الموتى، ويُسمى الحافظ الأمين. وإذا لطخ به البدن المقمل والشعر، قتل قملَه وصئبانه، وطوّل الشعر، وحسّنه، ونعّمه، وإن اكتحل به، جلا ظلمة البصر، وإن استنّ به بيض الأسنان وصقلها، وحَفِظَ صحتها، وصحة اللثة، ويفتح أفواه العروق، ويُدِرُّ الطَّمثَ، ولعقه على الريق يُذهب البلغم، ويُغسل خُمَلُ المعدة، ويدفع الفضلات عنها، ويسخنها تسخيناً معتدلاً، ويفتح سُدَّهَا، ويفعل ذلك بالكبد والكلى والمثانة، وهو أقلُّ ضرراً لسُدِّ الكبد والطحال من كل حلو.

وهو مع هذا كله مأمونٌ الغائلة، قليل المضار، مُضِرٌّ بالعرض للصفاويين، ودفعها بالخل ونحوه، فيعود حينئذ نافعاً له جداً. وهو غذاء مع الأغذية، ودواء مع الأدوية، وشراب مع الأشربة، وحلو مع الحلوى، وطلاء مع الأطلية، ومُفَرِّج مع المُفَرِّحات، فما خُلِقَ لنا شيءٌ في معناه أفضل منه، ولا مثله، ولا قريباً منه، ولم يكن معولٌ

القدماء إلا عليه، وأكثرُ كتب القدماء لا ذكر فيها للسُّكر ألبتة، ولا يعرفونه، فإنه حديثُ العهد حدث قريباً، وكان النُّبى صلى الله عليه وسلم يشربه بالماء على الرِّيق، وفي ذلك سرُّ بديع في حفظ الصحة لا يُدرّكه إلا الفطن الفاضل" انتهى.

ويوصف الماء المغلي والعسل لأوجاع الخاصرة والكلية. وملعقة عسل صغيرة للطفل قبل النوم لمساعدته على عدم التبول أثناء النوم بالليل، أما لكبار السن فملعقة عسل مع الحليب الدافئ. وماء الشعير مع العسل لإخراج حصوات الكلى. ويعالج العسل كثيراً من الجروح والحروق دون ترك أثر بطلائه عليها.

(١) في الحديث إشارة جامعة إلى أصول العلاجات الثلاث: وهي بإدخال مادة دوائية تواجه السموم و تسهل خروجها كالعسل. أو بإخراج واستئصال السموم والمادة الفاسدة من الجسم كما في الحمامة. أو بالتأثير الخارجي على العضو المصاب بمؤثر يغير حالته كما في الكي. وفيه إشارة إلى أن يؤخَّر العلاج بالكي حتى تدفع الضرورة إليه، ولا يعجل التداوي به لما فيه من استعجال الألم الشديد في دفع ألم قد يكون أضعف من ألم الكي. وفي حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب أنهم لا يكتوون. قيل: كانوا في الجاهلية يكتوون وهم صحاح حتى لا يصيبهم المرض، وحمل بعضهم النهي عن الكي على ذلك.

إن في الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام^(١).
عليكم بالسنى والسنت^(٢) فإن فيهما شفاء من كل داء
إلا السام (الموت). مَنْ تَصَبَّحَ بِسَبْعِ تَمَرَاتٍ عَجَوَّةً، لَمْ
يُضِرَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ سُمٌّْ، وَلَا سِحْرٌ^(٣). كلوا الزيت وادهنوا

(١) الحبة السوداء (الشونيز) هي من أفضل مقويات المناعة. ومن طرق استخدامها: أن تؤخذ سبع حبات أو وترّاً إلى إحدى وعشرين ثم تدق في خرقة، فيما تشم باستمرار أو تنقع في ماء ليلة ثم يقطر بها في الأنف. كما أن باحثين مصريين استخلصوا مركباً رائعاً من زيت الحبة السوداء وسموه نيجلون Ni gel l one على شكل نقط أو أقراص.

(٢) الأقرب إلى الصواب في معنى (السنت) أنه العسل الذي يكون في زقاق السمن. ويدل عليه رواية: (ثَلَاثُ فِيْهِنَّ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلَّا السَّامَ: السنا والسنت) فأشار إلى ثلاثة أدوية وذكر اثنين، فدل أن السنت مركب من دوائين. واستعماله بأن يخلط السنا مدقوقاً بالعسل المخالط السمن ثم يلحق فيكون أصلح من استعماله مفرداً لما في العسل والسمن من إصلاح السنا وإعانتة على الإسهال. وقيل: أن السنت هو الشبت، وقيل: الكمون. وقيل غيرها.

(٣) تمر العجوة شفاء من السموم. ومن طرق الاستشفاء به: أن تؤخذ من العجوة سبع تمرات فتدق بنواها ويدلك بها الموضع على البطن أو جهة القلب. والرطب مفيدة للحامل والنفساء، ومن لا تجد رطباً فتمر مبلول.

به؛ فإنه من شجرة مباركة. تداووا بألبان البقر فإني أرجو أن يجعل الله فيها شفاء، فإنها تأكل من كل الشجر. لو خرجتم إلى إبل الصدقة فشربتم من أبوالها وألبانها. الكمأة من المن الذي أنزل الله تبارك وتعالى على بني إسرائيل، وماؤها شفاء للعين^(١). عليكم بالإثم فإنه خير أكالكم؛ يجلو البصر وينبت الشعر^(٢).

(١) الكمأة وتسمى : (الفقع) ، وتسميها العرب: نبات الرعد؛ لأنها تكثر بكثرتة، وتنفطر عنها الأرض، وهي تشبه البطاطس وليس لها شجرة. وهي من أطعمة أهل البوادي، وتكثر بأرض العرب، وأجودها ما كانت أرضها رملية قليلة الماء. وقيل: سبب تكونها من اختلاط غاز احتراق البرق مع ماء المطر مع توافق مادة التربة. وللإفادة منها: تقشر وتسلق قليلاً ثم تعصر ويجمع ماؤها في قارورة ويكتحل به لشفاء العين، أو تشوى ويستقطر ماؤها. ويمكن عجن الإثم بماء الكمأة لتعظيم الفائدة الشفائية.

(٢) الاكتحال بالإثم يفضل قبل النوم والأفضل أن يضاف له قليل من المسك. والنظر إلى الخضرة وإلى الماء الجاري يقوي البصر. ولا تمس العين باليد مباشرة، وإنما تكون اليد مبلولة بالماء لتغسل العين.

شفاء عرق النساء: آلية شاة أعرابية تذاب ثم تجزأ ثلاثة أجزاء، ثم يشرب على الريق في كل يوم جزء.

لا تكرهوا مرضاكم على الطعام ، فإن الله يطعمهم ويسقيهم. و التلبينة^(١) مجمة^(٢) لفؤاد المريض وتذهب ببعض الحزن^(٣). عليكن بهذا العود الهندي فإن فيه

(١) التلبينة: طعام يتخذ من دقيق أو نخالة وربما جعل فيها عسل، وسميت بذلك لشبهها باللبن في البياض والرقّة، والنافع منه ما كان رقيقاً نضيجاً ، لا غليظاً نيئاً .

(٢) المجمة: مكان الاستراحة، وجم الفرس: إذا ذهب إعياءه. والمعنى أنها تريح فؤاده ، وتزيل عنه الهم وتنشطه .

(٣) وكانت عائشة - رضي الله عنها - إذا مات الميت من أهلها ، فاجتمع لذلك النساء ثم تفرقن إلا أهلها وخاصتها، أمرت ببرمة (قدر) من تلبينة فطبخت، ثم صنع ثريد (خلط اللحم والخبز المفّت مع المرق) فصبت التلبينة عليها ، ثم قالت: كلن منها، فإني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " التلبينة مجمة لفؤاد المريض ، وتذهب ببعض الحزن" وتقول: هو البغيض النافع (أي: يبغضه المريض مع كونه ينفعه كسائر الأدوية).

سبعة أشفية، يستعط^(١) به من العذرة^(٢) ، ويُلدُّ^(٣) به من ذات الجنب^(٤). علام تعذب أولادكن؟! إنما يكفي إحداكن أن تأخذ قسطاً هندياً فتحكه بماء سبع مرات ثم توجره إياه^(٥). الحمى من فيح جهنم ، فأبردوها بالماء^(٦). إذا حم أحدكم فليسن عليه الماء البارد ثلاث ليال من السَّحَر.

(١) مأخوذ من السعوط ، وهو ما يصب في الأنف ، بأن يدق العود ناعماً ، ويدخل في الأنف. أو يبيل ويقطرفه.

(٢) العذرة وهي اللهاة. فالقسط الهندي علاج لالتهاب اللوزتين سعوطاً أو شرباً بماء. فلا تقطع اللهاة ولكن تعالج بالقسط الهندي. (٣) اللد: صب الدواء في أحد شقي الفم.

(٤) ذات الجنب: قرحة أو قروح تصيب الإنسان داخل جنبه ثم تفتح ويسكن الوجع وذلك وقت الهلاك ومن علاماتها الوجع تحت الأضلاع وضيق النفس مع ملازمة الحمى والسعال وهي في النساء أكثر.

(٥) الوجور: الدواء يوجر في وسط الفم ، وتوجر الدواء: بلعه شيئاً بعد شيء ، والرجل إذا شرب الماء كارها فهو التوجر والتكاره. وفي رواية: ثم تسعطه إياه. يعني عن طريق الأنف.

(٦) وكانت أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - إذا أتيت بالمرأة قد حمت تدعو لها ، أخذت الماء فصبته بينها وبين جيبها ، وقالت: " كان

لا يوردن ممرض على مصح^(١). لا تديموا النظر إلى
المجذومين^(٢) ، فر من المجذوم فرارك من الأسد.
الطاعون^(٣) رَجَزُ أُرْسِلَ عَلَى طائفةٍ من بني إسرائيل،
وَعَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، ثم بقي منه بقية، فيذهب المرة
ويأتي الأخرى، غُدَّةٌ^(٤) كَغُدَّةِ البعيرِ يُخْرَجُ فِي الْمَرَاقِ^(٥)
وَالْإِبْطِ، فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بَارِضٌ، فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا

رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا أن نبردها بالماء. والحمى لا
يجوز سبها، وهي تنفي الذنوب.

(١) الممرض: صاحب الإبل المراض، والمصح: صاحب الإبل الصحاح،
فمعنى الحديث: لا يورد صاحب الإبل المراض إبله على إبل صاحب
الإبل الصحاح؛ لأنه ربما أصابها المرض بفعل الله تعالى وقدره الذي
أجرى به العادة لا بطبعها، فيحصل لصاحبها ضرر بمرضها. وكان
في وفد ثقيف رجل مجذوم ، فأرسل إليه رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - أن ارجع ، فإننا قد بايعناك .

(٢) الجذام: علة رديئة تحدث من انتشار المرة السوداء في البدن كله ،
فتفسد مزاج الأعضاء حتى تتآكل. وتجنم الأصابع وتقطعها .

(٣) جاء في رواية قال: (وخز أعدائكم من الجن).

(٤) الغدة: الورم في الجسد ، وهو قطعة صلبة يركبها الشحم، تكون
في العنق وغيره.

(٥) المراق: ما سفلى من البطن فما تحته من المواضع التي ترق جلودها.

وَقَعَ بَارِضٌ وَأَنْتَمَ بِهَا، فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا فِرَارًا مِنْهُ.
الطَّاعُونَ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ.

غطوا الإناء ، ولو أن تعرض عليه عودًا، وأوكوا
السقاء ، فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء^(١) ، لا يمر بإناء
ليس عليه غطاء ، أو سقاء ليس عليه وكاء ، إلا وقع
فيه من ذلك الوباء.

وإذا وقع الذباب في طعام أحدكم أو شرابه فليغمسه
كله فيه ثم لينزعه ، فإن في إحدى جناحيه داء
والأخرى شفاء، وإنه يتقي بجناحه الذي فيه الداء ،
فليغمسه كله، فيذهب شفاؤه بدائه.

(١) قال الليث: فالأعاجم عندنا يتقون ذلك في كانون الأول.

لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله ،
 اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا ثم
 قدر بينهما ولد ، لم يضره شيطان^(١) أبداً ولم يسلط
 عليه.

يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة^(٢)
 فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم
 يستطع ، فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء.

(١) أي: لم يضر الولد المذكور ، بحيث يتمكن من إضراره في دينه أو بدنه، وليس المراد رفع الوسوسة من أصلها .

(٢) الباءة: النكاح ، لأن من تزوج امرأة بوأها منزلاً ، والوطء سمي باءة أيضاً ، والمني أيضاً سمي باءة كذلك .

ومما جاء عن قدماء الأطباء قولهم : وَطْءُ الْمَرْأَةِ الْحَائِضِ يُؤَلِّدُ الْجَذَامَ، وَالْجَمَاعُ مَنْ غَيْرِ أَنْ يُهْرِيقَ الْمَاءَ عَقِيْبَهُ يُؤَلِّدُ الْحَصَاةَ. وَمُجَامَعَةُ الْعَجَائِزِ تَهْرِمُ أَعْمَارَ الْأَحْيَاءِ، وَتُسَقِّمُ أَبْدَانَ الْأَصْحَاءِ، وَلَا تَنْزَوِّجُوا مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا شَابَةً، وَلِيَقْلَ غَشْيَانِ النِّسَاءِ، وَالْجَمَاعُ عَلَى الْبِطْنَةِ يَهْدِمُ الْبَدَنَ، وَلَا تَتَكَارَهَنَّ عَلَى الْجَمَاعِ. وَأَرْبَعَةٌ تَزِيدُ فِي الْجَمَاعِ: أَكْلُ الْعَصَافِيرِ، وَالْإِطْرِيفِلِ، وَالْفُسْتَقِ، وَالْخَرْوْبِ.

استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي
 نعمة محسود. لا رقية إلا من عين أو حمة^(١). إذا
 اشتكيت من وجع؛ فضع يدك اليمنى على الذي تألم
 من جسدك وقل: بسم الله - ثلاثاً - وامسحه بيمينك
 سبع مرات وقل في كل مسحة: أعوذ بالله وقدرته من
 شر ما أجد وأحاذر في كل مسحة.

وقل: {قل هو الله أحد} والمعوذتين حين تسمي
 وحين تصبح ثلاث مرات ، تكفيك من كل شيء^(٢).

(١) الحُمة: السم. يعني: سموم الحيات وما يلسع.

(٢) وكان عليه الصلاة والسلام يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى
 نزلت المعوذتان فلما نزلتا ، أخذ بهما وترك ما سواهما. وله أن يقرأ
 على نفسه بالمعوذات وينفث على يديه ، ثم يمسح بهما وجهه
 وجسده. وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: فلما اشتد وجعه ،
 كنت أقرأ عليه، وأمسح بيده رجاء بركتها. وعن عائشة قالت: " دخل علي
 رسول الله صلى الله عليه وسلم وامرأة ترقيني، فقال: عالجها بكتاب
 الله.

ولما جُرْحُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحُدٍ ورأت فاطمة الدمَ لا يزيد إلا كثرةً، أخذت قطعةً حصيرِ البرْدَى، فأحرقَتْها حتى إذا صارت رماداً ألصقته بالجرح فاستمسك .
وعن أم سلمة - رضي الله عنها - قالت: كنا نطلي وجوهنا بالورس (الكركم) من الكلف (وهو شيء يعلو الوجه كالسمسم ، وهو لون بين السواد والحمرة ، وهي حمرة كدرة).

والثفاء (حب الرشاد) والكندر (اللبان) من الأدوية المفيدة .
و السنا : (السنامكي) مفيد في تنقية الجسم من السموم، لكن الإكثار منه خطر جداً .

والصحيح عدم تناول الطعام أو الشراب وهو شديد السخونة .
وعدم شرب الماء المغلي وهو ساخن، إلا ما كان فيه عسل .
والحلبة مفيدة جداً ويمكن أن تؤكل مطبوخة بالتمر أو العسل أو التين . ويمكن أن تطبخ ومعها سمن بقري لعلاج الخاصرة والكلى .
وماء الحلبة المغلي يعالج الجلد المتشقق والتهاب الحلق واللوزتين .
والرجلة مفيدة وتقلع الثآليل إذا حكّت بها .

والبصل والكراث والثوم مقاومة لكثير من الأمراض .
والصبر مفيد جداً وهو من النبات المعروف حديثاً باسم : الصبار .
لكن اسم (الصبار) قديماً يطلق على التمر الهندي .

والمريض من الحمى في طور النقاهة والحفاظ على مناعته قد يمنع من الرطب والتمر والحلو، والمريض من الرمء يمنع من الإكثار منها ويقتصر على ٧ تمرات كحد أقصى . والسفر قد يكون من أسباب الصحة .

من أسباب إجابة الدعاء ومنعه

وإن الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ: أَشَعْتَ أَغْبَرَ، يُمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ قَلْبُهُ وَسَمِعُهُ وَبَصَرُهُ وَفَرْجُهُ، فَأَنَّى يُسْتَجَابَ لِذَلِكَ؟، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوَلَيْوَشَكَنَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ .

وَمَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةٌ رَحِمَ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ الشُّؤْمِ مِثْلَهَا. يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ

يَعَجَلُ يَقُولُ: دَعَوْتُ وَدَعَوْتُ وَلَا أُرَاهُ يُسْتَجَابُ لِي،
ثَلَاثَ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٍ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ
الْمَظْلُومِ وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ، أَوْ عَلَى
وَلَدِهِ، رَبِّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طَمَرَيْنِ، مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ،
لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَيٌّ كَرِيمٌ،
يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا
خَائِبَتَيْنِ. قَالَ اللَّهُ عز وجل: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي
وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ
آدَمُ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي،
غَفَرْتُ لَكَ.

أعمال تكفر الذنوب وترفع الدرجات

يا ابن آدم إِنَّكَ لو أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقَيْتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتِيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً.

وَمَا مِنْ أَمْرٍ مُسْلِمٍ تَخْضَرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ، فَيُحْسِنُ
وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا
مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَمْ يُؤْتَ كَبِيرَةٌ، وَذَلِكَ الدَّهْرُ كُلُّهُ. كُلُّ
سَلَامِي ^(١) مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، وَكُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ
الشَّمْسُ تَعْدِلُ بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ: صَدَقَةٌ. وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي
دَابَّتِهِ، فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ،

(١) السَّلَامِي: بضم السين: المفاصل، وهي ثلاثمائة وستون مفصلاً. لا تتأتى الحركة والسكون إلا بها، فهي من أعظم نعم الله - عز وجل - على الإنسان، وحق المنعم عليه أن يقابل كل نعمة منها بشكري يخصها فيعطي صدقته - على وجه الاستحباب -، كما أعطي منفعته.

وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ
 صَدَقَةٌ، وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ، وَمَا مِنْ
 مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ إِنْسَانٌ أَوْ
 طَيْرٌ أَوْ دَابَّةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ. وَإِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ
 صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ
 تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ مُنْكَرٍ
 صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعٍ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكَمَا لَوْ وَضَعَ شَهْوَتَهُ
 فِي حَرَامٍ يَكُونُ عَلَيْهِ وَزْرٌ؛ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ
 كَانَ لَهُ أَجْرٌ.

وَمَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا، نَفَسَ
 اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى
 مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ

مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ
 مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ
 فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا جَلَسَ
 قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ،
 وَيَتَدَارِسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ
 الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ،
 وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ. وَالصَّلَاةُ نَوْرٌ^(١)
 وَالصَّدَقَةُ وَالزَّكَاةُ بُرْهَانٌ^(٢)، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ^(٣)، وَالصَّوْمُ

(١) (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)، وَ "بَشِّرِ الْمُشَاقِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

(٢) برهان (كوهج الشمس) عَلَى إِيْمَانِ فَاعِلِهَا.

(٣) يَعْنِي أَنَّ الصَّبْرَ الْمُحْمُودَ (ضِيَاءٌ) لَا يَزَالُ صَاحِبُهُ مُسْتَضِيًّا بِهِ مُهْتَدِيًّا عَلَى الصَّوَابِ مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْحَرَارَةِ وَالْأَلَمِ.

جَنَّةٌ^(١)، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ،
وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ^(٢)، { تَتَجَافَى
جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ، فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ
أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }.

ورَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ
الْجِهَادُ، وَمِلَاكُ ذَلِكَ كُلِّهِ: "كُفَّ عَلَيْكَ لِسَانُكَ"، وَهَلْ
يَكْبُ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ -أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ-
إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟! وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ
النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا^(٣)، أَوْ مُوْبِقُهَا^(٤). اغْتَنِمْ

(١) أي : هو مَانِعٌ مِنَ الْمُعَاصِي بِكُسْرِ الْقُوَّةِ وَالشَّهْوَةِ.

(٢) يعني هي من أبواب الخير ومما يدخل الجنة ويباعد عن النار.

(٣) إما يبيعها لله تَعَالَى بِطَاعَتِهِ فَمُعْتِقُهَا مِنَ الْعَذَابِ.

(٤) أو يبيعها لِلشَّيْطَانِ وَالْهَوَى بِاتِّبَاعِهَا فَمُهْلِكُهَا وَمُوْبِقُهَا.

خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ، وَلَآنَ يَهْدِي اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ.

من فضائل ذكر الله

أَفَلَا أَعَلَّمَكُم شَيْئًا تَذَرُكُونَ بِهِ مَنْ قَدْ سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلَا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ؟ ؛ تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُونَ وَتَحْمَدُونَ دُبْرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً. {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ} . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، تَمْلَأَنِ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِكِكُمْ، وَأَرْفَعَهَا

فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَّكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ،
وَحَيْرٌ لَّكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ،
وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟ : ذِكْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

ولا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ - عز وجل - ،
سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ (الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ)، وَمَنْ
تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ^(١) فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ
لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ،
سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ،
وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي - أَوْ
دَعَا - اسْتَجِيبَ لَهُ، فَإِنْ عَزَمَ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ صَلَّى قُبِلَتْ
صَلَاتُهُ. وَمَنْ أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ طَاهِرًا يَذْكُرُ اللَّهَ حَتَّى

(١) أي استيقظ بصوت من استغفار أو تسبيح أو نحوه.

يُذِرْكَ النُّعَاسُ، لَمْ تَمُضْ سَاعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ يَسْأَلُ اللَّهُ فِيهَا شَيْئًا مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ .

مَنْ قَالَ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ (ثلاثًا) غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ وَإِنْ كَانَ فَرًّا مِنَ الرَّحْفِ . وَسَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»، قُلِ : اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» . .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ
فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ.
(١) مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ
اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ
أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا يَصْعَدُونَ فَيَسْتَقُونَ
الْمَاءَ، فَيَصُبُّونَ عَلَى الَّذِينَ فِي أَعْلَاهَا، فَأَذَوْهُمْ، فَقَالُوا:
لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا فَاسْتَقَيْنَا مِنْهُ، وَلَمْ نَمُرَّ عَلَى

(١) وتغيير المنكر بالقلب، لا بد أن يصحبه تمعر الوجه أو تقطيب
الجبين وما أشبه ذلك، ومن المصالح المرجوة في إنكار المنكر: أن يتوب
صاحب المنكر ويتغير إن شاء الله، وأن تقوم الحجة على المنكر عليه،
وأن يسقط الإثم عمن أنكر عليه ويعذر بذلك إلى الله، وترتفع
العقوبة عمن أنكر.

أَصْحَابِنَا فَنُؤْذِيهِمْ، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا، هَلَكُوا
جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ، نَجَّوْا، وَنَجَّوْا جَمِيعًا.

التحذير من الابتداع في الدين

إِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَمَنْ
أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ.^(١)

(١) المسلمون المهتدون هم أهل السنة والجماعة المستمسكون بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وهم الأمة الوسط؛ فلا يكفرون المسلمين بمجرد ارتكاب أي ذنب، ولا يستحلون دماءهم، ولا يخرجون على الحاكم الشرعي أو يقاتلونه كالخوارج المارقين؛ بل يولونه السمع والطاعة في المعروف ما دام مقيماً للدين والصلاة في الناس ولم يظهر كفراً بواحاً، وأن من نقض البيعة فميته جاهلية، ويجوز قتل الخارج الذي يشق الصف ويفرق الأمة.

ومن أعظم البدع في الدين : بدع المنافقين من الشيعة الرافضة وهم طوائف عديدة متفاوتة؛ فكما عُرِفَ نِفَاقُ جَمَاعَةٍ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بِنِ سُلُوفٍ وَذَوْبِهِ؛ فَإِنَّهُ مَعْلُومٌ لِلْمُسْلِمِينَ نِفَاقُ سَائِرِ الشَّيْعَةِ الرَّافِضَةِ؛ فَقَدْ حَرَفُوا قِصَّةَ الثَّامِنِ عَشَرَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ الَّذِي خَطَبَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيهِ بِغَدِيرِ خَمٍّ حِينَ رَجَعَ مِنْ حِجَّةِ الْوُدَاعِ؛ فَإِنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَطَبَ فِيهِ خُطْبَةً وَصَّى فِيهَا بِاتِّبَاعِ كِتَابِ اللَّهِ، وَوَصَّى فِيهَا

بأهل بيته كما روى ذلك مسلم في (صحيحه) عن زيد بن أرقم رضي الله عنه، فزاد بعض أهل الأهواء منهم في ذلك حتى زعموا أنه عهد إلى علي رضي الله عنه بالخلافة بالنص الجلي بعد أن فرش له وأقعده على فراش عالية، وذكروا كلاماً وعملاً قد عُلم بالاضطرار أنه لم يكن من ذلك شيء، وزعموا أن الصحابة تمالؤوا على كتمان هذا النص، وغصبوا الوصي حقه، وفسقوا وكفروا إلا نفرًا قليلاً.

ومن هؤلاء الرافضة من يزعم أن القرآن ناقص أو محرف بل يستخفون بالمصحف ويهينوه، وَقَدْ اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ مَنْ اسْتَخَفَّ بِالْمُصْحَفِ مِثْلَ أَنْ يُلْقِيَهُ فِي الْحُشِّ أَوْ يَرْكُضَهُ بِرِجْلِهِ إِهَانَةٌ لَهُ إِنَّهُ كَافِرٌ مُبَاحٌ الدَّمُ.

وهم يتركون اتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم، ويكفرون الصحابة، ويطعنون في أمهات المؤمنين. وينشرون الزنا والفساد والدعارة باسم المتعة. ويتحالفون مع الكفار ضد المسلمين. ويحيون عبادة النار. ويعتقدون عصمة أئمتهم، ويعتقدون أن التقية تسعة أعشار الدين. ويحبون الحسين أكثر من أي إنسان لأنه تزوج بنت كسرى، ويقصدون قبر أبي لؤلؤة المجوسي لأنه قتل خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ويحزنون الحزن الشديد يوم عاشوراء كما يفعل النصارى في الشعانين. ويكرهون الرقم ١٠ كما يكره النصارى الرقم ١٣. وعندهم عقيدة المخلص المنتظر كما أن عند المجوس المخلص "شوشن". والإثنا عشرية منهم يكفرون النصيرية لأن مؤسس النصيرية محمد بن نصير يكفر بمهديهم الموهوم الذين يزعمون اختفائه في سرداب سامراء. والنصيريون الباطنيون يشهدون أن لا إله إلا حيدرة الأنزع البطين، ويؤلهون علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد سماهم العثمانيون "العلي إلهية"، ثم حرفها الفرنسيون إلى "العلوية". والشيعا الباطنية وغيرهم من المنافقين هم أشد عداوة وخطراً على المسلمين من الخوارج والزيدية. ومنهم الملاحدة وَتَارَةً يُسَمَّوْنَ الْقَرَامِطَةَ أَوْ الْبَاطِنِيَّةَ أَوْ الْإِسْمَاعِيلِيَّةَ أَوْ النَّصِيرِيَّةَ أَوْ الْخَرْمِيَّةَ أَوْ الْمُحَمَّرَةَ ؛ ظَاهِرُ مَذْهَبِهِمُ الرِّفْضُ وَبَاطِنُهُ الْكُفْرُ الْمُحْضُ. وَقَدْ اتَّفَقَ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ لَا تَجُوزُ

مُنَاكَحَتْهُمْ، وَلَا تَبَاحَ ذِبَائِحُهُمْ، وَلَا يَجُوزُ دَفْنُهُمْ فِي مَقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا يُصَلَّى عَلَى مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ.

وَأَمَّا اسْتِخْدَامُ مِثْلِ هَؤُلَاءِ فِي تَغُورِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ حُصُونِهِمْ أَوْ جُنْدِهِمْ فَإِنَّهُ مِنَ الْكِبَائِرِ وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَسْتَحْدِمُ الذَّنَابَ لِرَعْيِ الْغَنَمِ؛ فَإِنَّهُمْ مِنْ أَغْشَى النَّاسِ لِلْمُسْلِمِينَ وَلِوَلَاةِ أُمُورِهِمْ وَهُمْ أَحْرَصُ النَّاسِ عَلَى فُسَادِ الْمَمْلَكَةِ وَالِدَوْلَةِ، وَالْوَاجِبُ عَلَى وَلَاةِ الْأُمُورِ قَطْعُهُمْ مِنْ دَوَاوِينِ الْمُقَاتِلَةِ فَلَا يُتْرَكُونَ فِي ثَعْرٍ وَلَا فِي غَيْرِ ثَعْرٍ، فَإِنَّهُمْ إِذَا أَخَذُوا فَإِنَّهُمْ يُظْهِرُونَ التَّوْبَةَ؛ لِأَنَّ أَصْلَ مَذْهَبِهِمُ التَّقِيَّةَ وَكَيْتَمَانَ أَمْرِهِمْ وَفِيهِمْ مَنْ يُعْرِفُ وَفِيهِمْ مَنْ قَدْ لَا يُعْرِفُ. فَالطَّرِيقُ فِي ذَلِكَ أَنْ يُحْتَاطَ فِي أَمْرِهِمْ فَلَا يُتْرَكُونَ مُجْتَمِعِينَ وَلَا يُمْكِنُونَ مِنْ حَمْلِ السَّلَاحِ وَلَا أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُقَاتِلَةِ وَيَلْزَمُونَ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ: مِنَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ. وَيُتْرَكُ بَيْنَهُمْ مَنْ يُعَلِّمُهُمْ دِينَ الْإِسْلَامِ وَيُحَالُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُعَلِّمِهِمْ.

وأهل السنة والجماعة يحبون آل البيت ويعرفون لهم فضلهم وحقهم ومنزلتهم، دون أن يغفلوا فيهم أو يقدسوهم أو يعبدوهم، ويحبون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ويترضون عنهم ويقتفون هديهم ولا يكفرونهم كما يفعل الروافض من الشيعة، بل يحبون الصالحين ولا يغفلون فيهم ولا يدعونهم من دون الله ولا يطوفون بقبورهم وأضرحتهم ولا ينسبون لهم العصمة أو رفع التكليف أو حق التشريع أو التحكم بالكون بدعوى الولاية كما يفعل القبوريون والزنادقة وغلاة المتصوفة.

وليس الإيمان عند أهل السنة والجماعة مجرد النطق أو المعرفة دون الانقياد بالعمل الصالح كما هو حال جماعة ممن أضلهم الهوى. ومنهم طائفة يقدسون آراء وأهواء أوليائهم ويقدمونها على نصوص الوحي الصريحة، ويدورون مع رأي أوليائهم حيث داروا ويوجبون التسليم لهم مطلقاً. ويشغلون ألسنتهم وأقلامهم بأعراض من خالفهم من أهل العلم والدعوة والنصح والاحتساب أو يصفونه بهتاناً بصفات المارقين من الدين وأصحاب الخروج والفتن، فيستبيحون غيبته والبحث عن عيوبه وأخطائه وتتبع زلاته

وجوب اتباع السُّنة

وإنَّه من يَعِشْ مِنْكُمْ بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً،
فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي ^(١) وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ،

والافتراء عليه ويفجرون في الخصومة معه ويبهتونه ويوشون به وقد يستحلون دمه ويستعدون أهل السلطة عليه. فمن وافق ضلالهم وأهواءهم وصفوه بالإيمان، ومن خالفهم فهو عندهم ضال مارق من الدين. بل تجد منهم من يوالون المخالف لهم في أصل الدين، ويعادون أهل الملة والإيمان. ويصل بهم الأمر للتنازع بينهم في السيادة والظهور والتملق وتضليل بعضهم البعض وتحذير بعضهم من بعض، وأقوالهم تدعوا إلى الجماعة ويعنون جماعتهم، وأفعالهم تمزق الجماعة المسلمين وتورث الفرقة، حتى صاروا موضع مدح وإطراء من أعداء الدين، نسأل الله أن يهدي ضال المسلمين.

(١) السُّنة هي : كل ما صدر عن النَّبي صلى الله عليه وسلم من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ مما يصلح أن يكون دليلاً لحكمٍ شرعي. والسُّنة مع الكتاب (القرآن) في مرتبة واحدة من حيث الاعتبار والاحتجاج بهما على الأحكام الشرعية، مع أن الكتاب يمتاز عن السُّنة بأن لفظه منزل من عند الله سبحانه، متعبداً بتلاوته، معجزٌ للبشر أن يأتوا بمثله بخلافها. وقد روي عن عمران بن الحصين أنه كان جالساً ومعه أصحابه فقال رجل من القوم: لا تحدثونا إلا بالقرآن، فقال له: أذن فدنا، فقال: "أرأيت لو وُكِّلت أنت وأصحابك إلى القرآن أكنت تجد فيه صلاة الظهر أربعاً، وصلاة العصر أربعاً والمغرب ثلاثاً تقرأ في اثنتين. أرأيت لو وُكِّلت أنت وأصحابك إلى القرآن، أكنت تجد الطواف سبعاً، والطواف بالصفاء والمروة؟، ثم قال: أي قوم خذوا عنَّا، فإنَّكم والله إن

عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ
وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ، وَلَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي
مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ.

يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ، فَتَعْرِفُونَ وَتُشْكِرُونَ، فَمَنْ أَنْكَرَ،
فَقَدْ بَرِيءٌ، وَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ،
وَلَا يَقَاتِلُونَ مَا صَلَّوْا، وَيَكُونُ بَعْدِي أُمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ
بِهَدَايَ، وَلَا يَسْتَتُونَ بِسُنَّتِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ^(١)، دُعَاةٌ
عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا، قَذَفُوهُ فِيهَا، هُمْ

لَا تَفْعَلُوا لِتَضْلُنَ". وَقَدْ بَلَغَ مِنْ اقْتِدَاءِ الصَّحَابَةِ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ كَانُوا يَفْعَلُونَ مَا يَفْعَلُ، وَيَتْرَكُونَ مَا يَتْرَكُ دُونَ أَنْ يَعْلَمُوا
لِذَلِكَ سَبَباً، أَوْ يَسْأَلُوهُ عَنْ عِلَّتِهِ أَوْ حِكْمَتِهِ. وَبَلَغَ حِرْصُهُمْ عَلَى
تَتَبُعِهِمْ لِأَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ أَنْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَتَنَاوَبُونَ مَلَازِمَةَ مَجْلِسِهِ
يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، ثُمَّ يَأْتِي بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ بِمَا تَعَلَّمُوهُ.

(١) يَعْنِي: تَرَى فِيهِمْ مَا تَعْرِفُهُ أَنَّهُ مِنْ دِينِي، وَتَرَى فِيهِمْ مَا تَنْكِرُ كَوْنَهُ
مِنْ دِينِي.

رِجَالٌ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا، قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ
 الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ، إِنْ كَانَ لِلَّهِ خَلِيفَةٌ فِي
 الْأَرْضِ ^(١) فَالزَّمْ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ وَاسْمَعْ وَأَطِعْ
 لِلْأَمِيرِ وَإِنْ جَلَدَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ، وَأَفْضَلُ الْجِهَادِ
 كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ
 وَلَا إِمَامٌ فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرْقَ كُلَّهَا وَاهْرُبْ حَتَّى تَمُوتَ،
 فَإِنْ مِتَّ وَأَنْتَ عَاظٌ بِجَذْلِ شَجَرَةٍ ^(٢) خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ
 تَتَّبِعَ أَحَدًا مِنْهُمْ ^(٣).

(١) يعني : خليفة من الله . وليس خليفة عن الله ؛ لأن الله حي شاهد لا يغيب .

(٢) أَي: بِأَصْلِهَا .

(٣) الإعلام الغربي يدعم الترويج لرؤوس أهل البدع والضلال من الزنادقة والغلاة من الشيعة والمتصوفة والمرجئة ويبرز أفعال الفرق المنحرفة كالخوارج وغيرهم من الضالين المنتسبين للإسلام بقصد تشويه دين الإسلام والصد عنه، ويدعمون الاستشراق والمستشرقين لدراسة الإسلام من أجل تشويهه وإبراز وتمجيد الشخصيات الضالة

حرمة دم المسلم

المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ أَوْ دُونَ دَمِهِ أَوْ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ . وَلَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِأَحَدٍ ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ. إِذَا التَقَى الْمُسْلِمَانِ

في تاريخ الإسلام، مثل: الحلاج، ورابعة والتوحيدي والجاحظ وابن عربي والخيام وغيرهم.

والأئمة المضلون المنتسبين للإسلام هم أخطر على أمة الإسلام من المسيح الدجال. ولا يجوز تولية أهل البدع المضلين المناصب السيادية، وإنما يعاملون بين العقوبة والحد، ولا يتركون مجتمعين فتقوى شوكتهم؛ بل يفرقون بين أهل الإسلام ويُعلِّمون الدين. ويجب التفريق في المعاملة بين المبتدع الساكت والمبتدع الداعي لبدعته.

بِسَيْفَيْهِمَا، فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ^(١)، إِذِ الْمَقْتُولُ كَانَ
حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ.

(١) سماهما (مسلمين) مع التواعد بالنار. وهذا الوعيد لمن قاتل على
عداوة دينوية ، أو طلب ملك مثلاً ، فأما من قاتل أهل البغي ، أو دفع
الصائل فقتل ، فلا يدخل في هذا الوعيد ، لأنه مأذون له في القتال
شرعاً .

قتال الطائفة التاركة للصلاة أو الزكاة

أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا
 اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا
 الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؛ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ،
 إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى. ^(١)

الإخبار بوقوع الفتن

لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريب
 من ثلاثين -منهم أربع نسوة- كلهم يزعم أنه رسول

^(١) الشهادتان مع إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة تَعَصِمُ دَمَ صاحبها وماله في الدنيا إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ مَا يُبَيِّحُ دَمَهُ، وأما في الآخرة، فحسابه على الله - عز وجل -، فَإِنْ كَانَ صَادِقًا، أدخله الله بذلك الجنة، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَإِنَّهُ مِنْ جَمَلَةِ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ. {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ} أي: لستَ مسلطاً على إدخال الإيمان في قلوبهم قهراً ولا مكلفاً بذلك، إِنَّ مَرْجِعَ الْعِبَادِ كُلِّهِمْ إِلَى اللَّهِ وَحِسَابُهُمْ عَلَيْهِ.

الله، يكذب على الله وعلى رسوله، وإني خاتم النبيين،
 لا نبي بعدي . وبينما أنا نائم رأيت في يدي سوارين من
 ذهب فكرهتهما وأهمني شأنهما، فأوحي إلي في المنام
 أن انفخهما، فنفختهما فطارا ، فأولتهما الكذابين
 اللذين أنا بينهما : العنسي صاحب صنعاء^(١)، ومسيلمة
 صاحب اليمامة^(٢).

(١) كانت فتنة خروج الأسود العنسي وادعائه النبوة قبل حجة الوداع
 في العام العاشر، ودامت أربعة أشهر، وكانت أول ردة في الإسلام، وقد
 أثار الأسود موضوع أخذ الزكاة من اليمن، وتمكن المسلمون من قتله
 في قصره، وإعلان العودة إلى الاسلام.

(٢) وقد قال عليه الصلاة والسلام لمسيلمة: (لو سألتني هذه القطعة
 ما أعطيتها، ولن تعدو أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ، ليعقرنك الله،
 وإني لأراك الذي أريت فيه ما أريت).

والصحابه بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بايعوا أبا بكر
 الصديق على الخلافة عبر مجلس شورى من كبار الصحابة في
 سقيفة بني ساعدة. وظهرت ردة مسيلمة الكذاب وقبائل عديدة في
 خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وامتنعت بعض القبائل عن
 دفع الزكاة، فأوضح الصديق للصحابة رضوان الله عليهم بقوله:
 "والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله

لو منعوني عناقاً- أي معزةً- كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها". ووافقه الصحابة، واعتمد أبو بكر رضي الله عنه على أهل المدينة ومكة والطائف وما حولها من قبائل في تجهيز الجيوش للقضاء على المرتدين. ونصره الله عليهم وعادت تلك القبائل إلى الإسلام. وترجع عوامل الردة إلى عدم تغلغل الإيمان في القلوب لتأخر إسلامهم وبسبب قصر الزمن الذي تم فيه تبليغ الدعوة، وطبيعة الأعراب المتسمة بالجفاء مع ضعف المستوى الثقافي مما جر إلى ضعف فقه تعاليم الدين وخاصة بالنسبة للزكاة التي اعتبرها البعض ضريبة مهينة، واستثقلوا الصلاة والعبادات الأخرى، كما أن العصبية القبلية لا زالت عميقة في تلك البلاد النائية ووسط نجد حيث ترى القبائل أنها أضخم عدداً وعُدداً من قريش وبالتالي فهي أولى بالزعامة، وعلى الأقل لم تكن ترضى بالخضوع لحكم قريش. ولم يشرك الصديق رضي الله عنه أحداً من المرتدين في الفتوح الإسلامية في خلافته، بل جردهم من السلاح لأنه لم يأمنهم لحدثة عهدهم بالردة، وعقوبة لهم بإظهار الاستغناء عنهم، ثم لأنه لم يشأ أن يكونوا طلائع الفتح الإسلامي فلا يقدمون لسكان المناطق المفتوحة المثال الصالح للجندي المسلم.

(جمع القرآن في صحف بعد استشهاد كثير من قراء الصحابة)

الصحابة الذين كان يتنزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلمهم ومشاهدتهم، كان لهم الأسوة الحسنة برسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم بالإسراع إلى حفظ القرآن واستظهار آياته، وقد ساعدتهم نزول القرآن منجماً على الحفظ.

وعلموا ما كان من وقوع النسخ في القرآن، قال تعالى: {ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها} وقال: {وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر، بل أكثرهم لا يعلمون} وقال: {يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب}. وهو ثلاثة أنواع: أحدها: ما نسخ حكمه وتلاوته، كعشر رضعات. والثاني: ما نسخت

تلاوته دون حكمه ، كخمس رضعات ، والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما . والثالث: ما نسخ حكمه ، وبقيت تلاوته ، وهذا هو الأكثر ، ومنه قوله تعالى: {والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم . . الآية} والله أعلم .

وعلم قراء الصحابة أوجه القراءات التي نزل بها القرآن وقال فيها عليه الصلاة والسلام: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، على أي حرف قرأتم فقد أصبتم".

وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن المراد بالأحرف السبعة سبع لغات من لغات (لهجات) العرب في المعنى الواحد، على معنى أنه حيث تختلف لغات (لهجات) العرب في التعبير عن معنى من المعاني يأتي القرآن مُنَزَّلًا بألفاظ على قدر هذه اللغات لهذا المعنى الواحد، وحيث لا يكون هناك اختلاف فإنه يأتي بلفظ واحد أو أكثر. نحو: أَقْبَلْ وتعال، وهلم، وعَجَلْ، وأسرع، فهي ألفاظ مختلفة لمعنى واحد، وإليه ذهب أكثر العلماء ويدل له ما جاء في حديث أبي بكر: "أن جبريل قال: يا محمد، اقرأ القرآن على حرف، فقال ميكائيل: استزده، فقال: على حرفين، حتى بلغ ستة أو سبعة أحرف، فقال: كلها شاف كاف، ما لم يختم آية عذاب بآية رحمة، أو آية رحمة بآية عذاب، كقولك: هلم وتعالى وأقبل واذهب وأسرع وعَجَلْ. وقد لقي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جبريل فقال: يا جبريل إني بعثت إلى أمة أميين، منهم العجوز والشيخ الكبير، والغلام، والجارية، والرجل الذي لم يقرأ كتابا قط، قال: فمرهم فليقرءوا القرآن على سبعة أحرف.

ومن حكم نزول القرآن على سبعة أحرف:

١- تيسير القراءة والحفظ على قوم أميين، لكل قبيل منهم لسان.
٢- إعجاز القرآن للفترة اللغوية عند العرب، حتى يستطيع كل عربي أن يوقع بأحرفه وكلماته على لحنه الفطري، وأنه لا يمكن مضاهاته بأي لسان.

٣- إعجاز القرآن في معانيه وأحكامه -فإن تقلب الصور اللفظية في بعض الأحرف والكلمات يتهياً معه استنباط الأحكام التي تجعل

القرآن ملائماً لكل عصر- ولذا احتج الفقهاء في الاستنباط والاجتهاد بقراءات الأحرف السبعة.

وقد قتل يوم اليمامة سبعون من القراء، وقتل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ببئر معونة مثل هذا العدد من القراء الذين عرضوه على النبي صلى الله عليه وسلم، واتصلت بنا أسانيدهم، وأما من جمعه منهم ولم يتصل بنا سندهم فكثير.

والاعتماد على الحفظ في النقل من خصائص هذه الأمة، يقول ابن الجوزي شيخ القراء في عصره: إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور، لا على خط المصاحف- الكتب- أشرف خبيصة من الله تعالى لهذه الأمة. وقد ورد في صفة هذه الأمة: أناجيلهم صدورهم، بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظونه إلا في الكتاب، ولا يقرءونه كله إلا نظرا لا عن ظهر قلب.

وأرسل أبو بكر - رضي الله عنه - إلى زيد بن ثابت - رضي الله عنه - بعد مقتل أهل اليمامة وعنده عمر - رضي الله عنه - فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس، وإني أخشى أن يستحرق القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن، إلا أن تجمعوه، وإني لأرى أن تجمع القرآن، قال أبو بكر: فقلت لعمر: كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري، ورأيت الذي رأى عمر - قال زيد بن ثابت: وعمر عنده جالس لا يتكلم - فقال لي أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل، ولا نتهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتتبع القرآن فأجمعه، قال زيد: فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال، ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن، فقلت لهما: كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ فقال أبو بكر: هو والله خير، فلم أزل أراجع حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر، فقمت فتتبع القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعصب (وهو جريد من النخل) وصدور الرجال، ففقدت آية من سورة الأحزاب، كنت أسمع رسول الله - صلى

الله عليه وسلم - يقرأ بها، وهي قوله: {من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه} فلم أجدها إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري - رضي الله عنه - " الذي جعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شهادته شهادة رجلين. وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر - رضي الله عنهما .

(ترتيب الآيات والسور)

والنبي - صلى الله عليه وسلم - قرأ في صلاته في الليل بسورة النساء قبل آل عمران ، وفيه حجة لمن يقول إن ترتيب السور اجتهاد وليس بتوقيف من النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وهو قول جمهور العلماء ، واختاره القاضي الباقلاني قال: وترتيب السور ليس بواجب في التلاوة ولا في الصلاة ولا في الدرس .

قال ابن بطال: لا نعلم أحدا قال بوجوب ترتيب السور في القراءة لا داخل الصلاة ولا خارجها، بل يجوز أن يقرأ الكهف قبل البقرة ، والحج قبل الكهف مثلاً، وأما ما جاء عن السلف من النهي عن قراءة القرآن منكوساً ، فالمراد به أن يقرأ من آخر السورة إلى أولها، وكان جماعة يصنعون ذلك في القصيدة من الشعر مبالغة في حفظها ، وتذليلاً للسانه في سردها، فمنع السلف ذلك في القرآن ، فهو حرام فيه .

أما عن سبب نزول بعض الآيات والسور قبل بعض؛ فقد أشارت عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - إلى شيء من الحكمة الإلهية في أسبقية النزول، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة وللكاfer والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك ، أنزلت الأحكام، ولهذا قالت: " ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر، لقالوا لا ندعها " وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف .

أما عن ترتيب الآيات في كل سورة؛ فلا خلاف أن ترتيب آيات كل سورة على ما هي عليه الآن في المصحف توقيف من الله تعالى ، وعلى ذلك نقلته الأمة عن نبيها - صلى الله عليه وسلم .

وصعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أُحُدًا
ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد
أبي وقاص - رضي الله عنهم - فرجف بهم، فضربه
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - برجله وقال: اثبت
أُحُد، فما عليك إلا بني أو صديق أو شهيد.

وقال: (خالد بن الوليد سيف من سيوف الله)^(١).
وقال لعدي بن حاتم - رضي الله عنه - " (فإن طالت
بك حياة لترين الظعينة^(٢) ترتحل من الحيرة ، حتى
تطوف بالكعبة ، لا تخاف أحدا إلا الله ، ولئن طالت

(١) وفي عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه تمت فتوح في العراق
والمشرق وأجزاء من الشام أشهرها بقيادة خالد بن الوليد الذي لم
يهزم في أي معركة.

(٢) الظعينة: المرأة المسافرة في الهودج على ظهر البعير، و الظعينة
في الأصل: اسم للهودج.

بك حياة لتفتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت

بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو

فضة يطوف بصدقته ، فلا يجد من يقبلها منه. (١).

(١) وقد وقعت هذه الأمور ، فقال عدي: "فهذه الظعينة تخرج من الحيرة ، فتطوف بالبیت في غير جوار ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز". ففي خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) تم فتح بلاد فارس (إيران). وقد سمح للمرتدين التائبين بالاشتراك بالفتوح في زمن خلافته بعد ثباتهم على الدين وحسن إسلامهم. واتجه عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى بيت المقدس فحاصرها، واشترط سفرونيوس بطريق المدينة أن يتولى الصلح الخليفة عمر رضي الله عنه بنفسه ليكون أوكد، فقدم عمر بنفسه إلى الجابية وكتب كتاب الصلح للقدس، وسلمت مفاتيحها إليه. ثم تم فتح مصر التي كانت مصدر تموين القسطنطينية عاصمة الروم. وساعد القبط المسلمين بإصلاح الطرق وإقامة الجسور وإمدادهم بالمؤونة، وكان اضطهاد البيزنطيين لهم دينياً وإجحافهم لهم بالضرائب، وصورة الحرية الدينية التي أتاحتها المسلمون لنصارى الشام جعلتهم يرحبون بالمسلمين .

وقد غلبت الدولة الإسلامية في عهده الفرس والروم وحررت الهلال الخصيب ومصر، ومصرت الكوفة والبصرة والفسطاط، وما زالت في صعود وامتداد. حتى اغتاله أبو لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة بن شعبة وهو يؤم المسلمين في صلاة الفجر ليلة الأربعاء لأربع ليال بقين من ذي الحجة سنة ٢٣ للهجرة، بعد خلافة دامت عشر سنين وستة أشهر، وكان عمره ثلاثاً وستين سنة.

وقال: "إنكم تلقون بعدي اختلافا وفتنة" ، فمر
 عثمان بن عفان - رضي الله عنه - فقال عليه الصلاة
 والسلام: " يقتل فيها هذا يومئذ مظلوماً، هذا يومئذ
 ومن اتبعه على الهدى، عليكم بالأمين وأصحابه " وهو
 يشير إلى عثمان بذلك . وقال لعثمان لما كلمه وضرب
 منكبه: (يا عثمان إن ولاك الله هذا الأمر يوما فأرادك
 المنافقون أن تخلع قميصك الذي قمصك الله فلا
 تخلعه حتى تلقاني) يقول ذلك ثلاث مرات^(١).

وفي عهد عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله - عمّ الخير أرجاء بلاد
 المسلمين حتى أنهم لم يجدوا من يقبل الصدقة.
 (١) في خلافة عثمان (رضي الله عنه) اتسعت الفتوح واهتم المسلمون
 ببناء الأسطول البحري مستفيدين من خبرة سكان الاسكندرية،
 وتمكن الأسطول الاسلامي من إحراز نصر على أسطول الروم في
 موقعة ذات الصواري في البحر المتوسط على مقربة من الاسكندرية
 سنة (٣٤) هـ وقد استولى المسلمون على بعض سفن الروم فأضافوها
 إلى أسطولهم. وتوجه عقبة بن نافع الفهري إلى بلاد النوبة السودان

لكنه لم يتمكن من التوغل فيها، ثم صالحهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح وتبادل معهم الهدايا .

وتعتبر فتنة مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه من أخطر الأحداث التي مرت بها الدولة الإسلامية في عصر الخلافة الراشدة، وأصلها أن ابن سبأ يهودي من صنعاء ادعى الإسلام في خلافة عثمان، وقام ببث الدعاية ضده في الحجاز والعراق والشام ومصر وكان الولاة إذا أحسوا به طردوه إلى بلد آخر. فتبادل أشياعه الرسائل التي يوضحون فيها تذرهم وشكاواهم من عمال عثمان، وكانت هذه الرسائل تقرأ في الأمصار المختلفة، فتثير الفتن، وينشأ عند العامة تصور للسوء والفضى والظلم الذي انحدرت إليه الدولة!! وكان ابن سبأ وراء الوفود المصرية والعراقية التي قدمت المدينة وحاصرت دار عثمان وقتلته.

وكان مما أثاروه من القضايا الدينية قضية تدوين المصحف واعتماد النسخة المدونة وإحراق ما سواها من النسخ.

وكان قد قدم حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق - فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالمصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان.

واستشار عثمان واستفتى الصحابة، وقال: ما تقولون في هذه القراءة، فقد بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد أن يكون كفراً؟

قلنا: فما ترى؟

قال: نرى أن نجتمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة، ولا يكون اختلاف.

قلنا: فنعم ما رأيت.

قال- يعني علي رضي الله عنه:- فقل: أي الناس أفصح؟ وأي الناس أقرأ؟

قالوا: أفصح الناس سعيد بن العاص، وأقرأهم زيد بن ثابت. فقال: ليكتب أحدهما، ويملي الآخر. ففعلا، وجمع الناس على مصحف قال علي: والله لو وُلِّيتُ لفعلتُ مثل الذي فعل.

وقد عهد عثمان اعتماد النسخة الموحدة من المصحف إلى أربعة من الصحابة هم: زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وقال لهم: "إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن، فاكتبوها بلسان قريش، فإن القرآن أنزل بلسانهم". ففعلوا، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق. منعاً لاختلاف القراءات والزيادة والنقص في كتاب الله تعالى.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يا أيها الناس لا تغلوا في عثمان، ولا تقولوا له إلا خيراً في المصاحف وإحراق المصاحف، فوالله ما فعل الذي فعل إلا عن ملأ منا جميعاً.

ومن المسائل التي أثرت ضد عثمان رضي الله عنه بعد مقتله وتبناها الخوارج عدم شهوده بديراً وعدم ثباته يوم أحد وعدم اشتراكه فيبيعة الرضوان، فقد سأل أحد الخوارج- قيل أنه العلاء بن عرار- عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في المسجد الحرام بمكة عن مواقف عثمان هذه، فبين له ابن عمر ذلك معللاً بأن عدم شهود عثمان بديراً كان بأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمرض زوجته رقية، وأنه وعده: "إن لك أجرة رجل ممن شهد بديراً وسهمه"، وأما فراره مع الفارين يوم أحد فقد عفا الله عنهم جميعاً، وأما تغيبه عنبيعة الرضوان فلأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسله من الحديبية إلى مكة رسولاً، ووقعت البيعة بسبب حجز قريش له، وضرب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده وقال: "هذه لعثمان" وبذلك قطع ابن عمر على الخارجي سبيل التلبيس على الناس بأمور لا يعلمون حقيقتها.

وتكلم جماعة من " قراء أهل الكوفة " بكلام قبيح في مجلس سعيد بن العاص (أمير الكوفة من جهة عثمان) فكتب إلى عثمان في أمرهم ، فكتب إليه عثمان أن يجلبهم عن بلده إلى الشام ، وكتب عثمان إلى معاوية أمير الشام أنه قد خرج إليك قراء من أهل الكوفة ، فأنزلهم وأكرمهم وتألفهم .

فلما قدموا أنزلهم معاوية وأكرمهم ، واجتمع بهم ، ووعظهم ونصحهم فيما يعتمدونه من اتباع الجماعة وترك الانفراد والابتعاد ، فأجاب متكلمهم والمترجم عنهم بكلام فيه بشاعة وشناعة ، فاحتملهم معاوية لحلمه ، وأخذ في مدح قريش - وكانوا قد نالوا منهم - وأخذ في المدح لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - والثناء عليه ، والصلاة والتسليم ، فإذا هم يتمادون في غيهم ، ويستمررون على جهالتهم وحمافتهم ، فعند ذلك أخرجهم من بلده ، ونفاهم عن الشام لئلا يشوشوا عقول الطغام ، وذلك أنه كان يشتمل مطاوي كلامهم على القدح في قريش ، كونهم فرطوا وضيعوا ما يجب عليهم من القيام فيه من نصرة الدين وقمع المفسدين ، وإنما يريدون بهذا التنقيص والعيب ورجم الغيب . وكانوا يشتمون عثمان ، وسعيد بن العاص ، ثم تكتب المنحرفون عن طاعة عثمان ، " وكان جمهورهم من أهل الكوفة " ، وثاروا على سعيد بن العاص أمير الكوفة ، وتألبوا عليه ، ونالوا منه ومن عثمان ، وبعثوا إلى عثمان من يناظره فيما فعل ، وفيما اعتمد من عزل كثير من الصحابة ، وتولية جماعة من بني أمية من أقربائه ، وأغلظوا له في القول ، وطلبوا منه أن يعزل عماله ، ويستبدل أئمة غيرهم من السابقين ومن الصحابة ، حتى شق ذلك عليه جدا ، وبعث إلى أمراء الأجناد فأحضرهم عنده ليستشيرهم ، فاجتمع إليه معاوية بن أبي سفيان أمير الشام ، وعمرو بن العاص أمير مصر ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح أمير المغرب ، وسعيد بن العاص أمير الكوفة ، وعبد الله بن عامر أمير البصرة ، فاستشارهم فيما حدث من الأمر وافتراق الكلمة . فعند ذلك قرر عثمان عماله على ما كانوا عليه ، وتألف قلوب أولئك بالمال ، وأمر بأن يبعثوا إلى الغزو إلى الثغور . ولما رجعت العمال إلى أقاليمها

امتنع أهل الكوفة من أن يدخل عليهم سعيد بن العاص ، ولبسوا السلاح ، وحلفوا أن لا يمكنوه من الدخول فيها حتى يعزله عثمان ، ويولي عليهم أبا موسى الأشعري ، وكان اجتماعهم بمكان يقال له: الجرعة ، وقد قال يومئذ الأشتر النخعي: والله لا يدخلها علينا ما حملنا سيوفنا ، " وتواقف الناس بالجرعة " ، وأحجم سعيد عن قتالهم ، وصمموا على منعه ، فرجع سعيد بن العاص إلى المدينة ، وكسر الفتنة ، فأعجب ذلك أهل الكوفة ، وكتبوا إلى عثمان أن يولي عليهم أبا موسى الأشعري بذلك ، فأجابهم عثمان إلى ما سألوا إزاحة لعذرهم ، وإزالة لشبههم ، وقطعا لعللهم .

ومما أثير ضد الخليفة أنه أتم الصلاة بمنى أواخر خلافته خلافاً لسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعمل أبي بكر وعمر . وكان عثمان يتأول ذلك ويرى أن له حكم المقيم كذلك كانت عائشة رضي الله عنها تتم الصلاة بمنى بل إن عبد الله بن مسعود فعل ذلك وهو لا يراه صحيحاً - فقهيّاً - لأنه لم يشأ أن يخالف فعل عثمان - وهو الخليفة الشرعي وكان ابن عمر إذا صلى مع الإمام صلى أربعاً وإذا صلاها وحده صلى ركعتين .

وورد في كلام لعائشة رضي الله عنها مع الثائرين ما يحدد أهم الانتقادات التي وجهوها إلى سياسة عثمان رضي الله عنه ، قالت: "اسمعوا نحدثكم عما جئتمونا له، إنكم عتبتم على عثمان في ثلاث خلال، في إمارة الفتى، وموضع الغمامة- تريد الحمى- وضربه بالسوط والعصا . حتى إذا مصتموه- تريد غسلتموه - موص الثوب بالصابون عددتم عليه الفقر الثلاث، حرمة البلد، وحرمة الخلافة، وحرمة الشهر الحرام، وإن كان عثمان لأحصنهم فرجاً وأوصلهم للرحم".

وبعث عثمان إلى المعارضين علي بن أبي طالب ورجلاً معه فاصطلحوا على خمس: أن المنفي يُقلب، والمحروم يُعطى، ويوفر الفيء، ويعدل في القسم، ويُستعمل ذو الأمانة والقوة. كتبوا ذلك في كتاب، وأن يرد ابن عامر على البصرة، وأبو موسى الأشعري على الكوفة .

وقد أثار وفد مصر عندما استقبلهم عثمان بالمدينة حمايته الحمى، فوضَّح لهم أن عمر حماه قبله لإبل الصدقة، وأنه زاد فيه لما زادت إبل الصدقة .

وكان الوفد المصري قد ناقش عثمان رضي الله عنه في الأمور التي أخذوها عليه، ثم "أخذوا ميثاقه وكتبوا عليه شرطاً، وأخذ عليهم إلا يشقُّوا عصاً ولا يفارقوا جماعة ما أقام لهم شرطهم، ثم رجعوا راضين. فبينما هم بالطريق إذا راكب يتعرض لهم ويفارقهم، ثم يرجع إليهم ثم يفارقهم.
قالوا: مالك؟

قال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر. ففتشوه فإذا هم بالكتاب على لسان عثمان، عليه خاتمه، إلى عامل مصر: أن يُصلَّبهم، أو يقتلهم، أو يقطع أيديهم وأرجلهم. فأقبلوا حتى قدموا المدينة، فأتوا علياً فقالوا: ألم تر إلى عدو الله، كتب فينا بكذا وكذا، وإن الله قد أحلَّ دمه فقم معنا إليه.
قال: والله لا أقوم معكم.
قالوا: فلم كتبت إلينا؟
قال: والله ما كتبت إليكم كتاباً.

فنظر بعضهم إلى بعض، وخرج علي من المدينة. فانطلقوا إلى عثمان فقالوا: كتبت فينا بكذا وكذا. فقال: إنهما اثنتان، أن تقيموا رجلين من المسلمين، أو يميني بالله الذي لا إله إلا هو ما كتبت ولا أملت ولا علمت. وقد يكتب الكتاب على لسان الرجل ويُنقش الخاتم على الخاتم.
قالوا: قد أحل الله دمك، ونقضت العهد والميثاق وحصلوه في القصر".

وكان عثمان رضي الله عنه يتربص وقوع الفتنة، حيث أخبره النبي صلى الله عليه وسلم بفتنة تقع له وأنه يستشهد فيها، وكان يخرج على المعارضين يحاججهم بالقرآن والسنة ويذكرهم بمواقفه في خدمة الاسلام والمسلمين: "إن وجدتم في كتاب الله أن تضعوا رجلي في قيود فضعوها".

"ولما حُصِرَ عثمان أشرف عليهم فوق داره ثم قال: أذكركم بالله هل تعلمون أن حراء فليس عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد؟ قالوا: نعم. قال: أذكركم بالله هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في جيش العسرة: من ينفق نفقة متقبلة؟ والناس مجهدون معسرون، فجهزت ذلك الجيش؟ قالوا: نعم. ثم قال: أذكركم بالله هل تعلمون أن بئر رومة لم يكن يشرب منها أحد إلا بثمن، فابتعتها فجعلتها للغني والفقير وابن السبيل؟ قالوا: نعم. وأشياء عددها. فانتشد له رجال، وكان يخص بمناشدته الصحابة، ويلاحظ أن مخاطبته للثائرين كانت تحدث أثراً مؤقتاً حتى انتشر النهي عنه بينهم مرةً "وجعل الناس يقولون: مهلاً عن أمير المؤمنين". "وقام الأشر فقال: لعله لقد مكربه وبكم. قال- يعني أبا أسيد -: فوطئه الناس حتى لقد لقي كذا وكذا- يعنى من الأذى والشدّة-. قال: فرأيته أشرف عليهم مرة أخرى فوعظهم وذكرهم، فلم تأخذ فيهم الموعظة، وكان الناس تأخذ فيهم الموعظة أول ما يسمعونها فإذا أعيدت عليهم لم تأخذ فيهم، ثم إنه فتح الباب ووضع المصحف بين يديه".

واتخذ عثمان موقفاً واضحاً وحاسماً بعدم المقاومة، وألزم به الصحابة، كما رفض عثمان رضي الله عنه التنازل عن الخلافة، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أوصاه بقوله: "يا عثمان إن ولاك الله هذا الأمر يوماً فأرادك المنافقون أن تخلع قميصك الذي قمصك الله فلا تخلعه حتى تلقاني".

ولما قُتل رضي الله عنه انتضح دمه على المصحف الذي كان يقرأ فيه فوق الآية (فسيكفيهم الله وهو السميع العليم).

وأشرف^(١) رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على
أطم^(٢) من أطام المدينة ،

فقال: "هل ترون ما أرى؟" ، قالوا: لا.

قال: " إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع
القطر".

وقال: " اللهم بارك لنا في شامنا، وبارك لنا في يمننا "،
فقال رجل: وفي عراقنا (وفي نجدنا) (وفي مشرقنا) يا
رسول الله؟

فقال عليه الصلاة والسلام: "هناك الزلازل والفتن،

(١) يعني: نظر من مكان مرتفع .

(٢) الأطم: هو القصر والحصن، وجمعه أطام.

ومن هنالك يطلع قرن الشيطان^(١).

(١) قرن الشيطان وقرناه: أمته والمتبعون لرأيه ، وانتشاره وتسليطه .
وقيل: يحتمل أن يريد بالقرن: قوة الشيطان ، وما يستعين به على الإضلال ، وكان أهل المشرق يومئذ أهل كفر ، فأخبر - صلى الله عليه وسلم - أن الفتنة تكون من تلك الناحية ، فكان كما أخبر ، وأول الفتن كان من قبل المشرق ، فكان ذلك سببا للفرقة بين المسلمين ، وذلك مما يحبه الشيطان ويفرح به ، وكذلك البدع ، نشأت من تلك الجهة حيث حدثت وقعة صفين ، ثم ظهور الخوارج في أرض نجد والعراق ، وما ورائها من المشرق ، وكانت الفتنة الكبرى التي كانت مفتاح فساد ذات البين: قتل عثمان - رضي الله عنه - .

وبعض المبتدعة المحاربين للسنّة والمنحرفين عن التوحيد يطعنون في الإمام محمد بن عبد الوهاب مجدد دعوة التوحيد في الجزيرة العربية، ويحملون الحديث عليه باعتباره من بلاد (نجد) المعروفة اليوم بهذا الاسم، وجعلوا أو تجاهلوا أنها ليست هي المقصودة بهذا الحديث، وإنما هي (العراق) كما دل عليه أكثر طرق الحديث، وبذلك قال العلماء قديماً ، كالإمام الخطابي ، وابن حجر العسقلاني ، وغيرهم . وقد جعلوا أيضاً أن كون الرجل من بعض البلاد المذمومة ، لا يستلزم أنه هو مذموم أيضاً ، إذا كان صالحاً في نفسه، والعكس بالعكس ، فكم في مكة والمدينة والشام من فاسق وفاجر، وفي العراق من عالم وصالح ، وما أحكم قول سلمان الفارسي لأبي الدرداء حينما دعاه أن يهاجر من العراق إلى الشام: " أما بعد، فإن الأرض لا تقديس أحداً، وإنما يقديس الإنسان عمله " .

وقال لنسائه وفيهن عائشة رضي الله عنهن: (أيتكن

تنبح عليها كلاب الحوآب؟)^(١).

(١) قال قيس بن أبي حازم البجلي: "لما أقبلت عائشة بلغت مياه بني عامر ليلاً نبحت الكلاب. قالت: أي ماء هذا؟ قالوا ماء الحوآب. قالت: ما أظنني إلا أني راجعة. إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا: (كيف يا حداكن تنبح عليها كلاب الحوآب؟!). فقال لها الزبير: ترجعين! عسى الله عز وجل أن يصلح بك بين الناس". حيث كان طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم قادة المطالبين بإنفاذ القصاص بقتلة عثمان مشترطين ذلك للدخول في طاعة علي الخليفة الجديد. وهذا النص يكشف عن أمور مهمة، منها ما هو من أعلام النبوة، حيث أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بأمر غيبي فوق وقع كما أخبر، ومنها تردد عائشة رضي الله عنها في المضي إلى البصرة، ومنها أن المعارضين كانوا يرغبون في الإصلاح بين الناس مع تصميمهم على إنفاذ القصاص بقتلة عثمان.

وكان علي بن تيارين قوين، فالشاركون والمحرضون على قتل عثمان منهم حكيم بن جبلة العبدي زعيم الثوار البصريين، ومنهم عبد الرحمن بن عديس البلوي وكنانة بن بشر من زعماء الثوار المصريين، ومنهم مالك الأشتر النخعي من زعماء الثوار الكوفيين، ومنهم محمد بن أبي حذيفة الذي غلب على مصر، ومحمد بن أبي بكر، وكلهم لهم اختلاط بجيشه وتأثير على قبائلهم، وبعضهم ترك المدينة إلى الأمصار عقب بيعة علي، فلم يكن قادراً على إنفاذ القصاص مع اختلاف الناس عليه.

وكان التيار الآخر ممثلاً بطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعائشة أم المؤمنين، وكانوا يضغطون بقوة لإنفاذ القصاص بقتلة عثمان، ويرون أن علياً قد تخلى عن القصاص. ولم يعذروه في

سياسته التي تميل إلى إمالة الفتنة وتخطيها بتأخير إيقاع القصاص حتى يستتب له الأمر ويدخل في بيعته الناس جميعاً، وليتأكد من تحديد القتلة بأعيانهم، وقال: "والله لوددت أن بني أمية رضوا لنفلناهم خمسين رجلاً من بني هاشم يحلفون: ما قتلنا عثمان، ولا نعلم له قاتلاً". ولما مضت أربعة أشهر على بيعة علي دون أن ينفذ القصاص خرج طلحة والزبير إلى مكة ومنها جمعوا مؤيديهم الذين بلغ عددهم سبعمائة رجل وانطلقوا إلى البصرة مستهدفين القبض على القتلة من أهلها وإنفاذ القصاص فيها وقد بلغ عددهم عند وصولهم البصرة ثلاثة آلاف رجل، وذلك لالتحاق الناس بهم في الطريق إليها، وقد أنفق عبد الله بن عامر بن كريز ويعلى بن أمية أموالاً كثيرة في تجهيز هذا الجيش بمكة، حيث قدم يعلى بن أمية وحده أربعمائة بعير. وكان معظم أهل البصرة يؤيدون إيقاع القصاص بالقتلة.

(موقعة الجمل)

وقد وصل المعارضون إلى البصرة، وغلبوا عليها، وألقي القبض على الوالي، ثم أطلق سراحه ليلتحق بعلي. واتجه المعارضون إلى بيت المال ودار الرزق فاعترضهم حكيم بن جبلة العبدي أحد الثوار المشاركين في حصار الدار بالمدينة، ومعه سبعمائة من قومه وجرت معركة قتل فيها حكيم بن جبلة وسبعون من قومه كانوا قد شاركوا في حصار دار عثمان رضي الله عنه بالمدينة.

وسيطر المعارضون بقيادة الزبير بن العوام على البصرة، وقوي موقفهم باستيلائهم على بيت المال، وفيه الذهب والفضة.

وأدرك علي رضي الله عنه خطورة الموقف، وما يمكن أن يجرّ إليه الخلاف من تمزيق الدولة الإسلامية، فعزم على إعادة المعارضين إلى الطاعة، واستنفر أهل المدينة للخروج معه فاجتمع معه حوالي سبعمائة رجل، وتناقل عنه عدد من كبار الصحابة إذ رأوا أنها أحداث فتنة ينبغي عدم الخوض فيها. وقد اختص النبي صلى الله عليه وسلم بعضهم بالتحذير من المشاركة في الفتن الداخلية، فاعتذروا لعلي بذلك.

وقد حاول عبد الله بن سلام أن يثني علياً عن عزمه على الخروج من المدينة إلى العراق، فقال رجال من حول علي: دعنا فلنقتله. فأجابهم: إن عبد الله بن سلام منا رجل صالح. كما حاول الحسن بن علي ثني أبيه عن الذهاب إلى العراق وهو يبكي لما أصاب المسلمين من الفرقة والاختلاف، لكن علياً رفض ذلك، وأصر على إعادة المعارضين له إلى الطاعة محتجاً ببيعتهم له بالمدينة.

ثم إن أبا موسى الأشعري والي الكوفة لعلي التزم موقف اعتزال الفتنة وحذر الناس من المشاركة فيها، فعزل علي أبا موسى الأشعري عن الكوفة وولى عليها قرظلة بن كعب.

ولم يتأثر عمار بن ياسر بملامة أبي موسى الأشعري وأبي مسعود الأنصاري له لتسرع في الأمر، بل صعد يوم الجمعة إلى المنبر وخاطب الناس قائلاً: "أما والله إنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم ليعلم إياه تطيعون أم هي". وهكذا شهد لعائشة رضي الله عنها بالجنة، وبصّر الناس بأن هذا امتحان لهم من الله.

وكانت المواجهة بين علي من ناحية والزبير وأصحابه من ناحية أخرى قرب قصر عبيد الله، وجرت محاولات لمنع القتال قام بها المعتزلون للقتال، وخرج كعب بن سور ناشراً مصحفه، يُذكَر هؤلاء، ويذكر هؤلاء، حتى أتاها سهم فقتله.

وكان الصحابي عمران بن الحصين أرسل إلى بني عدي رسولاً ينصحهم باعتزال الفريقين: "إني لكم ناصح، ويحلف بالله لأن يكون عبداً حبشياً مجدعاً يرعى أعنزاً في رأس جبل حتى يدركه الموت أحب إليه من أن يرمي في أحد من الفريقين بسهم أخطأ أو أصاب فأمسكوا". فأجابوا رسوله: "دعنا منك أيها الغلام، فإننا والله لا ندع ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم لشيء أبداً".

وكان الناس يحددون موقفهم من الصراع بسؤال كبار الصحابة أحياناً، وقد تأتي الفتوى ضد مصلحة المفتي، فقد سأل ممالك بقبيلة ربيعة الزبير عن موقفهم: "مع من تكون العبيد؟ قال: مع مواليتهم. قلنا: فإن موالينا مع علي. قال: فكأنما ألقمنا حجراً".

وقبل نشوب القتال بثلاثة أيام نصبت خيمة بين المعسكرين، التقى فيها علي وطلحة والزبير في محاولة لإيجاد حلٍّ سلمي للموقف، كما أرسل علي عبدالله بن عباس إلى طلحة والزبير يسألهم: "هل أحدث ما يوجد السخط على خلافته، كحيف في حكم، أو استئثار بفيء؟ أو في كذا؟ فقال الزبير: ولا في واحدة منها".

وقد أخفق الطرفان في التوصل إلى حلٍّ خلال الأيام الثلاثة، وعرض رجل على الزبير أن يغتال علياً بعد التظاهر بالالتحاق به، فرفض الزبير ذاكراً حديث: "لا يفتك مؤمن".

وفي اليوم الرابع حدث الالتحام بين الجيشين، وتؤكد رواية صحيحة أن جيش الزبير وطلحة هو الذي بدأ القتال، وأن علياً أصدر أمره بالقتال بعد صلاة الظهر، واستمر القتال ساعات "فما غربت الشمس وحول الجمل عين تطرف ممن كان يذبُّ عنه". ويتضح الموقف المأساوي أكثر فأكثر، فيشك الزبير وهو القائد الأول بشرعية الموقف ويلاحظ عظم المصائب واختلاف الناس فينصرف عن الميدان دون أن يقاتل، ولحق به عمير بن جرموز وآخران إلى سفوان فاغتالوه. وهكذا انتهت حياة القائد الأول، وتبعه القائد الثاني طلحة بن عبيد الله فقد رماه مروان بن الحكم بسهم فقتله فدفن على شط الكلاء. وأثخن الجراح عبد الله بن الزبير فأخذ من وسط القتلى وبه بضع وأربعون طعنة وضربة.

"وقد قتل بشر كثير حول عائشة يومئذ، سبعون كلهم قد جمع القرآن، ومن لم يجمع القرآن أكثر".

قال أبو رجاء عمران بن ملحان العطاردي: "لقد رأيت الجمل يومئذ كأنه قنفذ من النبل، ورجل أخذ بالخطام وهو يقول:

نحن بنو ضبة أصحاب الجمل . . . ننازل الموت إذا الموت نزل

والموت أحلى عندنا من العسل . . . نبغي ابن عفان بأطراف الأسل

وكانت عائشة على جمل أحمر في هودج أحمر، وقد تكلمت في المريد لأعنة قتلة عثمان، فلما سمع علي ذلك لعن قتلة عثمان. وكان مؤيدوها "يهتفون بقتلة عثمان" فلما نقل ذلك لعلي قال: "اللهم أحلل بقتلة عثمان خزيًا".

وارتفعت أصوات الدعاء في المعسكرين . . يقول الحارث بن سويد الكوفي- شاهد عيان ثقة ثبت:- "لقد رأيتنا يوم الجمل، وإن رماحنا ورماحهم لمتشاجرة، ولو شاءت الرجال لمشت عليه، يقولون: الله أكبر، سبحانه الله، الله أكبر. وترتفع أصوات تؤكد سلامة موقف المقاتلين دينياً "ليس فيها شك"- أي لا يشكون في شرعية قتالهم للطائفة الأخرى- و"ليتني لم أشهد"- موقف الندم للشعور بأنها فتنة والشك في شرعية القتال- و"ما سرنى أني لم أشهد"- مؤكداً على وضوح الرؤية الشرعية في القتال إلى جانب علي- . ويتساقط القتلى من الجانبين بالآلاف، وفقد جيش المعارضين قادته . . واشتد القتال حول جمل عائشة رضي الله عنها فأمر عبد الله بن بديل بعقر الجمل لينتهي القتال، ثم نزل مع أخيها محمد بن أبي بكر الصديق فاحتملا الهودج حتى وضعاه بين يدي علي، فأمر به فأدخل في منزل- خباء- عبد الله بن بديل.

فلم ينشب أهل البصرة أن انهزموا، فصرخ صارخ لعلي: "لا يقتل مُدبر، ولا يدفع على جريح، ومن أغلق باب داره فهو آمن، ومن طرح السلاح آمن".

وأدرك الطرفان خسارتهم، وحلّت مراجعة النفس محل الغضب، وفتّت الندم قلوبهم، وذابت نفوسهم حسرة على ما حدث حيث التقى المسلمان بسيفيهما في فتنة داخلية اتضحت معالمها، ولم يتمكنوا من تجنبها، فمضوا لا يغالبون أقدارهم حتى انجلت عن صرعى من خيرة المسلمين من الطرفين، دون إنجاز لصالح دنياهم أو دينهم .

بل إن الأثم والندم تملكا القادة خلال القتال، قال الحسن بن علي يصور الحالة النفسية لعلي رضي الله عنه: "لقد رأيته حين اشتد القتال يلوذُ بي ويقول: يا حسن لو ددْتُ أني متُّ قبل هذا بعشرين حجة- أو سنة-".

ولما رأى علي محمد بن طلحة بن عبيد الله قتيلاً قال: "إنا لله وإنا إليه راجعون، أما والله لقد كان شاباً صالحاً" ثم قعد كئيباً حزيناً .

وقد زاره عمران بن طلحة بن عبيد الله بعد سنين فرحب به علي قائلاً: "إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله (إخواناً) على سرر متقابلين) .

وأعاد إليه أراضيه قائلاً: "أما إنا لم نقبض أرضكم هذه السنين ونحن نريد أن نأخذها، إنما أخذناها مخافة أن ينتهبها الناس". وكثيراً ما ردّد هذه الآية وأظهر محبته لطلحة والزبير رغم اختلافهما معه. وأما الابن الثالث لطلحة فقد بايع علياً بعد الجمل مباشرة ورجع إلى أهله وماله، واطمأن المعارضون فدخلوا إلى علي وبايعوه. وهكذا كان علي باراً بأخيه الذي خاصمه وقاتله متأولاً .

وأما نظرتة للزبير بن العوام فقد عقب على مقتله بقوله: "بشر قاتل ابن صفية بالنار".

ولم تكن الحسرة على ما حدث تخص بعلي رضي الله عنه، فهذه عائشة رضي الله عنها تقول: "وددت أني كنت غصناً رطباً ولم أسر مسيري هذا". وتقول: "وددت أني كنت قد ثكلت عشرة مثل الحارث بن هشام، وأنني لم أسر مسيري مع ابن الزبير"، وتقول: إنه كان قدراً .

وكانت تترحم على قتلى الطرفين إذا ذكروا، وقد ترحمت على طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وزيد بن صوحان، والأخير كان في صفّ علي، فقال خالد بن الواشمة: يرحمك الله تترحمين عليهم وقد قتل بعضهم بعضاً والله لا يجمعهم الله في الجنة أبداً!! قالت: أولاً تدري أن رحمة الله واسعة وهو على كل شيء قدير. فقال خالد: فكانت أفضل مني .

وسئل علي رضي الله عنه عن أهل الجمل فقال: "إخواننا بغوا علينا فقاتلناهم وقد فاؤا وقد قبلنا منهم".

وقال عمار لعلي يوم الجمل: ما ترى في سبي الذرية؟ فقال: إنما قاتلنا من قاتلنا - أي أنه استجاز القتال دفاعاً عن النفس لأن خصومه شرعوا في قتاله - قال عمار: لو قلت غير هذا لخالفتك".

وتتضافر روايات تؤكد أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر علياً بما سيكون بينه وبين عائشة وأوصاه بها خيراً، فكانت أحداث الفتنة من أعلام النبوة التي تحققت في جيل الصحابة رضوان الله عليهم .

وقال: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتِيلَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ
دَعَوَاهُمَا وَاحِدَةً، فَيَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ، ويح
عمار، تقتله الفئة الباغية^(١).

(١) أصاب المسلمون بلاء عظيم بسبب مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه، إذ كان المسلمون قد مرّوا بانتقال السلطة سلماً بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وبعد وفاة الصديق رضي الله عنه، لكنهم الآن أمام تجربة جديدة تمثلت باستخدام العنف في تغيير السلطة ونجم عن ذلك مقتل الخليفة، وبقاء المنصب شاغراً.

ثم إن جمهور الصحابة من المهاجرين والأنصار بايعوا علياً، وتبعهم الناس، وكانتبيعة علي بعد سبعة أيام من مقتل عثمان. وبقيت جماعات تطالب بالقصاص من قتلة عثمان.

وكانت أخطر قضية تواجه الخليفة الجديد هي مقاضاة قتلة عثمان وإنفاذ القصاص فيهم، وكان ابن عباس قد نبّه علياً إلى خطورة الموقف قبل توليه الخلافة بقوله لعلي رضي الله عنهما: "إن الناس سيلزموك دم عثمان". فقد كانت المأساة الدامية تملأ النفوس بالحزن والندم على عدم بذل الوسع في الذود عن الخليفة وإن كان ذلك يعني عدم التقيد بأوامر عثمان بالكف عن القتال.

معركة صفّين (بين جيش علي وجيش معاوية)

وقد رأى معاوية أنه ولي دم عثمان، لأنه صار رأس بني أمية مكانة، والأحاديث النبوية تدل على أن عثمان يُقتل مظلوماً، بل تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصاه بأن لا يخلع نفسه من الخلافة، ووصف الثائرين عليه بالمنافقين. وشهد الصحابي كعب بن مرة البهزي أمام معسكر معاوية بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال عن عثمان بن عفان: "لتخرجنّ فتنة من تحت قدمي هذا- أو من بين

رجلي هذا-، هذا ومن اتبعه يومئذ على الهدى"، وإذا كان المدافعون عن عثمان كانوا على الهدى خلافاً للثائرين عليه الذين سيكونون أصحاب ضلالة، فإن الموقف في نظر معسكر معاوية ينسحب عليهم ليصبحوا أصحاب الهدى ويصبح خصمهم على ضلالة وهكذا استحلوا القتال متأولين، ولم يتبين خطأهم إلا فيما بعد مقتل عمار بن ياسر في صفين ومقتل المخدج في النهروان.

وقد وصف أبو العالية الرفاعي المعركة بقوله: "لما كان زمن علي عليه السلام ومعاوية، واني لشاب القتال أحب إلي من الطعام الطيب، تجهزت بجهاز حسن حتى أتيتهم، فإذا صفان لا يرى طرفاهما، إذا كبر هؤلاء كبر هؤلاء، وإذا هلل هؤلاء هلل هؤلاء. قال: فراجعت نفسي فقلت: أي الفريقين أنزلته كافراً، وأي الفريقين أنزلته مؤمناً؟ فما أمسيت حتى رجعت وتركتهم".

ولم ينفرد أبو العالية الرياحي بالتردد والشك ثم التوقف عن القتال، فهذا عبد الله بن عمرو بن العاص يُصرح بحقيقة مشاعره وهو يقف إلى جوار أبيه بيده الراية ويتقدم في الجيش الشامي منزلة أو منزلتين: "مالي ولصفيين!! مالي وقاتل المسلمين!! لوددتُ أني متُّ قبله بعشر سنين أما والله على ذلك ما ضربتُ بسيف ولا طعنتُ برمح، ولا رميتُ بسهم". وعبد الله بن عمرو بن العاص عالم محدث، وتعتوره الشكوك- في صحة موقفه من الفتنة دون أن يحسم الأمر مع نفسه أولاً ثم في الميدان فقد أرغمه أبوه على الاشتراك مع الجيش الشامي مذكراً إياه بحديث: "أطع أباك مادام حياً" فاشترط أن يقف معهم ولا يقاتل، فهل نسي أن الطاعة بالمعروف؟ . . . بالله كيف كانت حالة عامة الجند الإسلامي!! قاتل الله الفتن تدع الحليم حيرانا.

لم يكن الطرفان يكفران بعضهما، لكن بعض الجند المتحمس في جيش علي رضي الله عنه كان يلعن ويكفر الشاميين، فلا يلقي من قاداته إلا النهر والتوضيح "قال رجل يوم صفين: اللهم العن أهل الشام. فقال علي رضي الله عنه: لا تسب أهل الشام جمعاً غفيراً، فإن بها الأبدال، فإن بها الأبدال، فإن بها الأبدال".

وقال زياد بن الحارث الصدائي- صحابي شاهد عيان-: "كنت إلى جنب عمار بن ياسر بصفين، وركبتي تمسُّ ركبته. فقال رجل: كضر أهل الشَّام. فقال عمار: لا تقولوا ذلك، نبينا ونبههم واحد، وقبلتنا وقبلتهم واحدة، ولكنهم قوم مفتونون جاروا عن الحق، فحقُّ علينا أن نقاتلهم حتى يرجعوا إليه".

ولم تكن بين الجيشين أحقاد، بل كان كل طرف ينافح عما يعتقدُه حقاً، فلا غرابة إذا قال شاهد عيان هو عبد الرحمن السلمي: "شهدنا صفين مع علي فكنا إذا توادعنا دخل هؤلاء في عسكر هؤلاء، وهؤلاء في عسكر هؤلاء". ولا غرابة إذا ما صرح عبد الله بن عمرو بن العاص أمام معاوية، ورجلان يختصمان في قتل عمار بن ياسر كل واحد يزعم أنه قتله: "إني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: تقتله الفئة الباغية" ويستغرب معاوية من هذا التصريح فيقول: فما بالك معنا؟ قال: إن أبي شكاني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أطلع أباك مادام حياً ولا تعصه، فأنا معكم ولست أقاتل". وهكذا تتجلى الصراحة في الحق وتتخطى المعوقات من المجاملات والمواريات . . فقد كان الحديث الذي رواه عبد الله بن عمرو بن العاص من أقوى الحجج على أن الحق مع علي وأن معاوية بغى عليه لكن معاوية تأول الحديث: "لما قتل عمار بن ياسر دخل عمرو بن حزم على عمرو بن العاص فقال: قُتل عمار وقد سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: تقتله الفئة الباغية. فقام عمرو يرجع فرعاً حتى دخل على معاوية. فقال له معاوية: ما شأنك؟ فقال: قُتل عمار. فقال له معاوية: قُتل عمار فماذا؟ قال عمرو: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: تقتله الفئة الباغية. فقال له معاوية: دحضت في قولك أنحن قتلناه؟ إنما قتله علي وأصحابه، جاؤا به حتى ألقوه تحت رماحنا".

وقد أنقذ معاوية بتأويله للنص معنويات الجند الشامي، كما أنقذ معنويات قائده عمرو بن العاص الذي تبنى هذا التأويل بعد أن كان قد تملكته الرهبة، بل مضى يتأول حديثاً آخر كان يرويه: "إن قاتله وسالبه في النار. ف قيل له: هو ذا أنت تقاتله؟ فقال: إنما قال قاتله

وسأله". أي أن النص مخصص بالقاتل الفعلي وحده وإذا نفع التأويل في إقناع الشاميين، فإن مقتل عمار أذكى حماسة العراقيين فقد بان لهم بمقتله أن علياً محق، وأن معاوية باغ، وما في ذلك من دلائل النبوة. ويبدو أن النصر لاح لهم بعد قتال شديد دام ثلاثة أيام بلياليها. وقد التزم كل من الطرفين بأحكام قتال البغاة، قال أبو أمامة - رضي الله عنه - : "شهدت صفين فكانوا لا يجهزون على جريح ولا يطلبون مؤثماً ولا يسلبون قتيلاً".

وقال أبو فاخنة : "حدثني جاري قال: أتيت علياً بأسير يوم صفين، فقال لي: أرسله، لا أقتله صبراً، إني أخاف الله رب العالمين، أفيك خير؟ بايع. وقال للذي جاء به: لك سلبه".

وسئل علي رضي الله عنه عن قتلى يوم صفين فقال: "قتلنا وقتلهم في الجنة، ويصير الأمر إلي وإلى معاوية". أي أنه يرى نفسه ومعاوية مسؤولين عما حدث وهما يحاسبان على ذلك.

ويصف شاهد عيان هو الصحابي سالم بن عبيد الأشجعي موقف علي رضي الله عنه فيقول: "رأيت علياً بعد صفين، وهو آخذ بيدي، ونحن نمشي في القتلى، فجعل علي يستغفر لهم حتى بلغ أهل الشام، فقلت له: يا أمير المؤمنين، إننا في أصحاب معاوية!؟ فقال علي: إنما الحساب علي وعلى معاوية".

(قصة وثيقة التحكيم)

لما طحنت المعركة ألوفاً من الجانبين، وكلّ الباقيون من القتال، تفتق ذهن عمرو بن العاص عن فكرة التحكيم التي أنقذت الجيش الشامي من الهزيمة فأرسل معاوية رجلاً يحمل المصحف إلى علي ويقول له: بيننا وبينكم كتاب الله، فقال علي: إنا أولى بذلك بيننا كتاب الله. ويبدو أن معظم الجند العراقي جنحوا إلى التحكيم، لكن كثيراً من القراء أنكروا عليه قبوله بالتحكيم وقالوا: لا حكم إلا لله. فقال علي: كلمة حق أريد بها باطل.

وقد انشق المحتجون من القراء واعتزلوا جيش علي محتجين بأنه محاسنهم من إمرة المؤمنين. وقد مثل أبو موسى الأشعري علياً، ومثل عمرو بن العاص معاوية في اجتماع الحكمين بدومة الجندل،

وحضر الاجتماع جمع من الصحابة فيهم عبد الله بن عمر. ورغم اعتزال ابن عمر الفتنة، إلا أنه كان يصرح بأن الحق مع علي فيقول: "ما آسى على شيء، كما آسى أني لم أقاتل مع علي رضي الله عنه". ولعل من عوامل اختيار أبي موسى للتحكيم مهارته في القضاء وممارسته الطويلة في هذا الميدان في عهد النبوة وخلافة أبي بكر وعمر وعثمان.

ولا يرجع فشل التحكيم إلى شخصية أبي موسى بل إلى صعوبة حل الخلاف وإصرار الطرفين على مواقفهما السابقة، وعدم حيافة المحكمين على قوة محايدة تنفذ القرار. ومما يوضح سلامة التحكيم وحياده نص الوثيقة التي أقرها، بما في ذلك التسامح في رفض عمرو بن العاص صيغة أول وثيقة التحكيم التي تشير إلى إمرة علي للمؤمنين، لأن الشاميين لم يبايعوه على ذلك.

ولا يبت نص وثيقة التحكيم في القضية بل يوضح الإطار العام الذي يحكم المباحثات ويوضح الهدف منها وهو الإصلاح بين الأمة وعدم ردها إلى الفرقة والحرب، ويحدد زمناً لانتهائها، كما يحدد مكان التحكيم وأنه متوسط بين الكوفة والشام والحجاز، واشترطاً رضا الطرفين عن حضور المباحثات، أما الشهود فيختار كل طرف شهوده، وتلتزم الأمة بنصره قرارات التحكيم، كما يلتزم بذلك الشهود.

وقد بقيت هذه الوثيقة محفوظة حيث اطلع عليها أبو اسحق الشيباني ووصفها بقوله: "صحيفة صفراء عليها خاتم من أسفلها وخاتم من أعلاها، وهما ختما علي ومعاوية ونقشهما - محمد رسول الله-".

وقد اجتمع الحكمان في دومة الجندل ولم يتوصلا إلى اتفاق، وكان معاوية حاضراً اجتماع الدومة، ولم يحضر علي، ولعل لتحركات الخوارج أثراً في ذلك، فخطب معاوية في الناس قائلاً: "من كان يريد أن يتكلم في هذا الأمر فليطلع لنا قرنه، فلنحن أحق به ومن أبيه. قال ابن عمر: فحللتُ حبوتي وهممت أن أقول: أحق بهذا الأمر من قاتلك وأباك على الإسلام. فخشيتُ أن أقول كلمة تفرق بين الجمع وتسفك الدماء، ويحمل عني غير ذلك، فذكرتُ ما أعد الله في

الجنان". فبقيت الأوضاع على حالها، عليّ خليفة المسلمين، ومعاوية أمير الشام ولم يبايع معاوية رضي الله عنه بالخلافة إلا بعد استشهاد علي رضي الله عنه على يد الخوارج، وكانت بيعته في بيت المقدس في شهر رمضان سنة (٤٠) هـ، بعد وصول خبر استشهاد علي رضي الله عنه.

وَمَمَرُ مَارِقَةٍ عِنْدَ فُرْقَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، يَقْتُلُهَا أُولَى
الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ، يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ،
يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ
صِيَامِهِمْ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَدْعُونَ إِلَى
كِتَابِ اللَّهِ وَلَيْسُوا مِنْهُ فِي شَيْءٍ، يَمَرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا
يَمَرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَيَدْعُونَ
أَهْلَ الْأَوْثَانِ، هُمْ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ، طُوبَى لِمَنْ قَتَلَهُمْ
وَقَتْلُوهُ، مَنْ قَاتَلَهُمْ كَانَ أَوْلَى بِاللَّهِ مِنْهُمْ، لَيْتَ أَنَا أَدْرَكْتُهُمْ
لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ، سَيَمَاهُمْ التَّحْلِيقُ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ
أَسْوَدُ، إِحْدَى عَصْدِيهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ، أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ
تَدَرَدَرُ. (١)

(١) أي: قطعة لحم تترجرج وتضطرب.

وقد حصلت موقعة النهروان بين جيش علي رضي الله عنه والخوارج، فقد كان عدد القراء الذين اعترضوا على التحكيم في صفين أربعة آلاف، وكان عروة بن حدير التميمي (وهو عروة بن أذية) يقول: "أتحكمون في أمر الله الرجال، لا حكم إلا لله". وهذه المقولة صارت شعار الحركة الخارجية ولذلك سموا بالمحكمة كما سموا بالخوارج لخروجهم على الخليفة الشرعي علي رضي الله عنه، كما سموا بالحرورية نسبة إلى قرية حروراء قرب الكوفة حيث انشقوا عن جيش علي العائد إلى الكوفة.

وهذا التطور الأخير جعل ابن عباس يستأذن علياً في محاورتهم في إحدى اجتماعاتهم الضخمة في حروراء، موضحاً لهم أن التحكيم نص عليه القرآن وأن محو لقب أمير المؤمنين من نص وثيقة الهدنة له سابقة من السنة في حادثة الحديبية، وأن قتال علي لمخالفه دون أن يستحل أموالهم وأعراضهم هو الحكم الشرعي الصحيح، فرجع منهم ألفان بعد أن تبين لهم الحق.

وحاول زعماءهم أن يثنوا علياً عن إرسال أبي موسى الأشعري إلى التحكيم، وأن يقودهم لقتال أهل الشام، فأبى عليهم نقض العهد مع الشاميين: "فارقنا القوم فلا يجوز نقضه".

وأرادوا مبايعة أحد زعمائهم أميراً، فلم يقبلها أحد منهم، ثم قبلها عبد الله بن وهب الراسبي، وبذلك نكثوا بيعتهم لعلي، وذلك في العاشر من شوال سنة (٣٧) هـ، ونقضوا مبدأ "الخلافة في قريش" فصار من مقولاتهم جواز خلافة غير القرشي.

وقد خرج عبد الله بن وهب الراسبي الأزدي بأتباعه إلى النهروان خفية، وفي هذه الفترة قتل الخوارج عبد الله بن خباب بن الارت ومعه أم ولده، كما قتلوا آخرين، فقد صاروا يكفرون من خالفهم ويستبيحون دمه وماله. فسار إليهم علي رضي الله عنه بجيشه في محرم عام (٣٨) هـ.

ونظراً لأن مناطق نشاط الخوارج التي تعرضت لضيع الأمن وقطع الطرق ضمن مسؤولية علي رضي الله عنه، فقد طلب من الخوارج تسليم القتلة لإقامة الحد عليهم، فأجابوه: كلنا قتلناه. وبذلك

استحل علي قتالهم، وبين لجنده أجر مقاتلهم، معتمداً على حديث: "يخرج قوم من أمتي يقرءون القرآن، ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية". ثم قال علي معقباً: "لو يعلم الجيش الذي يصيبونهم ما قضى لهم على لسان نبيهم صلى الله عليه وسلم لاتكلوا عن العمل"، ثم ذكر لهم العلامات التي تنطبق على الخوارج مثل وجود المخدج فيهم "له عضد وليس له ذراع، على رأس عضده مثل حلمة الثدي عليه شعيرات بيض. فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام وتتركون هؤلاء يخلفونكم في ذرائعكم وأموالكم، والله إنني لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم، فإنهم قد سفكوا الدم الحرام، وأغاروا في سرح الناس، فسيروا على اسم الله".

وقد أرسل علي اليهم الرسل يدعونهم، فقتلوا رسوله، وعبروا إليه النهر، فأمر بقتالهم. يقول شاهد عيان ثقة هو زيد بن وهب الجهني: "لما التقينا وعلى الخوارج يومئذ عبد الله بن وهب الراسبي فقال لهم: ألقوا الرماح وسلوا السيوف من جفونها، فإني أخاف أن يناشدوكم كما ناشدوكم يوم حروراء". واشتبك الجيشان في معركة خاطفة وغير متكافئة، انتهت بالإجهاز على الخوارج رغم ما أبدوه من جلد وشجاعة، فقد أفناهم جيش علي الكبيردون أن يصيبوا منه إلا بضعة عشر رجلاً. ولم يعيش من جيش الخوارج إلا الجرحى ومن فرّ وهم عدد يسير.

واهتم علي بالتفتيش عن المخدج ذي الشدية حتى وقف عليه، فكان شاهداً على صحة موقف علي، وآية على ضلال الخوارج.

وقد عامل علي رضي الله عنه الخوارج معاملة البغاة، فلم يكفرهم، ومنع جنده من تعقيب فاريهم، والإجهاز على جريحهم، ولم يغنم أموالهم، ولما قيل له: "يا أمير المؤمنين أكفأهم؟ قال: من الكفر فروا. فقيل: منافقون؟ قال: المنافقون لا يذكرهم الله إلا قليلاً. قيل: فمن هم؟ قال: قوم بغوا علينا فقاتلناهم. وفي رواية: قوم بغوا

وكان عليه الصلاة والسلام عَلَى الْمِنْبَرِ وَالْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ إِلَى جَنْبِهِ، فَقَالَ: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»^(١).

علينا فنصرنا عليهم. وفي رواية: قوم أصابتهم فتنة فعموا فيها وصموا. وهكذا صرَّح بأنهم مؤمنون ليسوا كفاراً ولا منافقين. ونصح الأمة في التعامل معهم بقوله: "إن خالفوا إماماً عادلاً فقاتلوهم، وإن خالفوا إماماً جائراً فلا تقاتلوهم فإن لهم مقالاً".
استشهد علي رضي الله عنه

وأمام الوهن والشقاق وضعف الطاعة في جيش علي لم يجد قوة تشد من أزره، وبيّنت خطبه الأخيرة مدى ما عاناه من الملل والألم إذ كان يقول: "اللهم إني قد سئمتهم وسئمونني، ومللتهم وملؤوني فأرحني منهم وأرحهم مني، فما يمنع أشقاكم أن يخضبها بدم ووضعه يده على لحيته". فكانت هذه الإشارة بأن ثمة من يسعى لقتله، أول إعلان عما بلغه من محاولة عبد الرحمن بن ملجم المرادي قتله، وكان قد حذّر من التآمر لقتله "جاء رجل من مراد إلى علي- وهو يصلي في المسجد- فقال: احترس فإن ناساً من مراد يريدون قتلك".

ولما طعنه ابن ملجم في صلاة الفجر صبيحة إحدى وعشرين من رمضان، لم يمت حتى أوصى بقاتله خيراً: "إنه أسير فأحسنوا نُزْله وأكرموا مثواه، فإن بقيتُ قتلْتُ أو عفوتُ، وإن متُ فاقتلوه قتلتي ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين".

^(١) بعد اغتيال الخوارج أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، تنازل ابنه الحسن بن علي رضي الله عنهما عن الخلافة لمعاوية رضي الله عنه، ليعيد الأمة إلى الجماعة بعد أن مرت بتجارب جديدة قاسية تركت

وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: "قام من

عندي جبريل قبل ، فحدثني أن الحسين يقتل بشط

الفرات"^(١).

آثاراً عميقة في مخيلة الجماعة لأجيالها المتلاحقة حتى الوقت الحاضر.

(١) كان خليفة المسلمين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قد دَعَا أَهْلَ الشَّامِ إِلَى الْبَيْعَةِ بِوِلَايَةِ الْعَهْدِ مِنْ بَعْدِهِ لِابْنِهِ يَزِيدَ فَبَايَعُوهُ، فتولى بعده ابنه يزيد، والحسين رضي الله عنه لم يبايع يزيد بن معاوية ، بل سعى لتصحيح خطأ توريث الخلافة، ودافع عن الشورى ومبادئ الإسلام الداعمة لحق الأمة في اختيار الأصلاح لها، وخرج معه إلى مكة عبدالله بن الزبير وذهباً لأجل جمع الأتباع وحث المسلمين على الوقوف في وجه الانحراف الذي أحدث في نظام الحكم وقلبه من الشورى إلى الوراثة، واستنهض الهمم لتصحيح هذا الخلل الذي استجد في عالم الإسلام وبدأت رحلة الحسين لجمع الأنصار نحو تصحيح وإعادة نظام الشورى ومنهاج الخلافة الراشدة والمبادئ الكريمة، لا كما يزعم البعض من كونه خرج طمعاً في الحكم والسلطة لأنه ينبغي أن تكون فيه وفي ذريته.

وقد نصح الصحابة الحسين بعدم الخروج إلى الكوفة، ولم يكن ذلك لأنهم يرونه خارجاً على الإمام؛ بل خشية عليه من خذلان أهل الكوفة وكذبهم في نصرته لما عرفوه عنهم ، وقد حملت تعابير نصائحهم هذه المفاهيم . والصحابة رضوان الله عليهم الذين كانوا بالحجاز ومصر والعراق والشام والذين لم يتابعوا الحسين رضوان الله عليه، فلم ينكروا عليه، ولا أثموا، لأنه مجتهد، وهو أسوة للمجتهدين به. يقول ابن خلدون: فتبين بذلك غلط الحسين، إلا

أنه في أمر دنيوي لا يضره الغلط فيه، وأما الحكم الشرعي فلم يغلط فيه، لأنه منوط بظنه، وكان ظنه القدرة على ذلك .

وقد ظن أن الناس يطيعونه وينصرونه في إصلاح الأمر وإعادة الشورى، فلما رأى انصرافهم عنه، طلب الرجوع إلى وطنه أو الذهاب إلى الثغر، أو إتيان يزيد ، ولقد تعنت ابن زياد أمام مرونة الحسين وسهولته وكان من الواجب عليه أن يجيبه لأحد مطالبه، ولكن ابن زياد طلب أمراً عظيماً من الحسين، وهو أن ينزل على حكمه، وحُقَّ للحسين أن يرفض ذلك، لأن النزول على حكم ابن زياد لا يعلم نهايته إلا الله، ولربما كان حكمه فيه القتل، ثم إن هذا العرض إنما كان يعرضه رسول الله صلى الله عليه وسلم على الكفار المحاربين أعداء الإسلام، والحسين رضي الله عنه ليس من هذا الصنف بل هو من أفاضل المسلمين وسيدهم ، ولهذا قال ابن تيمية: وطلبه أن يستأسر لهم، وهذا لم يكن واجباً عليه . والحقيقة أن ابن زياد خالف الوجهة الشرعية والسياسية حين أقدم على قتل الحسين رضي الله عنه . فالظالم هو ابن زياد وجيشه الذين قدموا على قتل الحسين رضي الله عنه بعد أن رفضوا ما عرض الحسين من الصلح . وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم التي يأمر فيها بقتل المفارق للجماعة لم تتناوله، فإنه رضي الله عنه لم يفارق الجماعة، ولم يقتل إلا وهو طالب للرجوع إلى بلده، أو إلى الثغر، أو إلى يزيد، داخلاً في الجماعة، معرضاً عن تفريق الأمة، ولو كان طالب ذلك أقل الناس لوجب إجابته إلى ذلك، فكيف لا تجب إجابة الحسين ، ولم يقاتل وهو طالب الولاية، بل قتل بعد أن عرض الانصراف بإحدى ثلاث . . . بل قتل وهو يدفع الأسر عن نفسه، فقتل مظلوماً .

وقضى الله . عز وجل أن يكون مقتل قاتله عبید الله بن زياد في نفس يوم عاشوراء بعد ست سنين من قتله للحسين، فقتله إبراهيم بن الأشتر في الحرب، وبعث برأسه إلى المختار، وبعث به المختار إلى ابن الزبير وبعث به ابن الزبير إلى علي بن الحسين .

وأما يزيد بن معاوية فقد وُلِدَ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَلَمْ يُدْرِكِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا كَانَ مِنَ الصَّحَابَةِ

بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ؛ وَلَا كَانَ مِنَ الْمَشْهُورِينَ بِالدِّينِ وَالصَّلَاحِ وَكَانَ مِنْ شَبَابِ الْمُسْلِمِينَ؛ وَلَا كَانَ كَافِرًا وَلَا زَنْدِيقًا؛ وَتَوَلَّى بَعْدَ أَبِيهِ عَلَى كِرَاهَةِ مَنْ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ وَرَضًا مِنْ بَعْضِهِمْ وَكَانَ فِيهِ شَجَاعَةٌ وَكِرَمٌ وَلَمْ يَكُنْ مُظْهِرًا لِلْفَوَاحِشِ كَمَا يَحْكِي عَنْهُ خُصُومُهُ.

وَجَرَتْ فِي إِمَارَتِهِ أُمُورٌ عَظِيمَةٌ: - أَحَدُهَا مَقْتَلُ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ لَمْ يَأْمُرْ بِقَتْلِ الْحُسَيْنِ وَلَا أَظْهَرَ الْفَرْحَ بِقَتْلِهِ؛ وَلَا نَكَتَ بِالْقَضِيبِ عَلَى ثَنَائِيهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَلَا حَمَلَ رَأْسَ الْحُسَيْنِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِلَى الشَّامِ، لَكِنْ أَمَرَ بِمَنْعِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَبِدَفْعِهِ عَنِ الْأَمْرِ. وَلَوْ كَانَ بِقِتَالِهِ فَرَادَ الثُّوَابُ عَلَى أَمْرِهِ؛ وَحَصَّ الشَّامُ بِنَ ذِي الْجَوْشَنِ عَلَى قَتْلِهِ لِعُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ؛ فَاعْتَدَى عَلَيْهِ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ فَطَلَبَ مِنْهُمْ الْحُسَيْنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَجِيءَ إِلَى يَزِيدٍ؛ أَوْ يَذْهَبَ إِلَى الشَّعْرِ مُرَابِطًا؛ أَوْ يَعُودَ إِلَى مَكَّةَ. فَمَنْعُوهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَّا أَنْ يَسْتَأْذِنَ لَهُمْ وَأَمَرَ عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ بِقِتَالِهِ - فَقَتَلُوهُ مَظْلُومًا - لَهُ وَلِطَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَكَانَ قَتْلُهُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مِنْ الْمَصَائِبِ الْعَظِيمَةِ فَإِنَّ قَتْلَ الْحُسَيْنِ، وَقَتْلَ عُثْمَانَ قَبْلَهُ؛ كَانَا مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْفِتَنِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ وَقَتَلَتْهُمَا مِنْ شَرَارِ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ. وَلَمَّا قَدِمَ أَهْلُهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ أَكْرَمَهُمْ وَسَيَّرَهُمْ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَرَوِي عَنْهُ أَنَّهُ لَعَنَ ابْنَ زِيَادٍ عَلَى قَتْلِهِ. وَقَالَ: كُنْتُ أَرْضَى مِنْ طَاعَةِ أَهْلِ الْعِرَاقِ بِدُونِ قَتْلِ الْحُسَيْنِ. لَكِنَّهُ مَعَ هَذَا لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ إِنْكَارُ قَتْلِهِ. وَالْإِنْتِصَارُ لَهُ وَالْأَخْذُ بِثَارِهِ كَانَ هُوَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ فَصَارَ أَهْلُ الْحَقِّ يُلُومُونَهُ عَلَى تَرْكِهِ لِلْوَاجِبِ مُضَافًا إِلَى أُمُورٍ أُخْرَى. وَأَمَّا خُصُومُهُ فَيَزِيدُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْفِرْيَةِ أَشْيَاءَ.

وَأَمَّا الْأَمْرُ الثَّانِي: فَإِنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ نَقَضُوا بَيْعَتَهُ وَأَخْرَجُوا نَوَابِهِ وَأَهْلَهُ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ جَيْشًا؛ وَأَمَرَهُ إِذَا لَمْ يُطِيعُوهُ بَعْدَ ثَلَاثِ أَنْ يَدْخُلَهَا بِالسَّيْفِ وَيُبِيحَهَا ثَلَاثًا فَصَارَ عَسْكَرُهُ فِي الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ ثَلَاثًا يَقْتُلُونَ وَيَنْهَبُونَ وَيَفْتَضُونَ الْفُرُوجَ الْمُحَرَّمَةَ. ثُمَّ أَرْسَلَ جَيْشًا إِلَى مَكَّةَ الْمَشْرِفَةِ فَحَاصِرُوا مَكَّةَ وَتَوَفَّى يَزِيدٌ وَهُمْ مُحَاصِرُونَ مَكَّةَ وَهَذَا مِنَ الْعُدْوَانِ وَالظُّلْمِ الَّذِي فَعَلَ بِأَمْرِهِ. وَلِهَذَا كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ مُعْتَقَدُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَأُئِمَّةِ الْأُمَّةِ أَنَّهُ لَا يُسَبُّ وَلَا يُحَبُّ. لَا يُخْصُ بِمَحَبَّةٍ وَلَا يُلَعَنُ.

فَيَزِيدُ عِنْدَ عُلَمَاءِ أُمَّةِ الْمُسْلِمِينَ مَلِكٌ مِنَ الْمُلُوكِ. لَا يُحِبُّونَهُ مَحَبَّةَ الصَّالِحِينَ وَأَوْلِيَاءِ اللَّهِ؛ وَلَا يَسُبُّونَهُ، فَإِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ لَعْنَةَ الْمُسْلِمِ الْمُعِينِ. وَمَعَ هَذَا فَإِنْ كَانَ فَاسِقًا أَوْ ظَالِمًا قَالَ اللَّهُ يَغْفِرُ لِلْفَاسِقِ وَالظَّالِمِ لَا سِيَّمَا إِذَا أَتَى بِحَسَنَاتٍ عَظِيمَةٍ. وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: {أَوَّلُ جَيْشٍ يَغْزُو الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ مَغْفُورٌ لَهُ} وَأَوَّلُ جَيْشٍ غَزَاهَا كَانَ أَمِيرُهُمْ يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ وَكَانَ مَعَهُ أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبَت النجوم أتى السماء ما
توعد. ^(١) وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبْتُ أتى أصحابي
ما يوعدون ^(٢) ! وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب
أصحابي أتى أمتي ما يوعدون ^(٣) .

إن الله تعالى زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها
ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها. ^(٤)

(١) الأمنة: الأمن والأمان. والمعنى أن النجوم ما دامت باقية، فالسماء باقية، فإذا انكدرت النجوم وتناثرت في القيامة، وهنت السماء فانفطرت وانشقت وذهبت.

(٢) أي: من الفتن والحروب، وارتداد من ارتد من الأعراب، واختلاف القلوب ونحو ذلك مما أُنذِر به صريحا، وقد وقع كل ذلك.

(٣) أي: من ظهور البدع، والحوادث في الدين، والفتن فيه، وطلوع قرن الشيطان، وظهور الروم وغيرهم عليهم، وانتهاك المدينة ومكة، وغير ذلك.

(٤) وقال عليه الصلاة والسلام: (لا يزال هذا الدين عزيزا منيعا، ولا يزال الناس بخير ينصرون على من ناوأهم عليه، إلى اثني عشر خليفة كلهم تجتمع عليه الأمة وكلهم من قريش).

قيل: المراد بالاجتماع: انقيادهم لبيعته، وقد اجتمع الناس على أبي بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، ثم اجتمع الناس على معاوية

تداعي الأمم على المسلمين

يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ مِنْ كُلِّ أَفْقٍ كَمَا

تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا^(١)، أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ

عند صلح الحسن، ثم اجتمعوا على ولده يزيد ، ثم اجتمعوا على عبد الملك بن مروان ، ثم أولاده الأربعة: الوليد ثم سليمان ثم يزيد ثم هشام، وتخلل بين سليمان ويزيد: عمر بن عبد العزيز، فهؤلاء سبعة بعد الخلفاء الراشدين، والثاني عشر هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك لما مات عمه هشام، فولي نحو أربع سنين ، ثم قاموا عليه فقتلوه، وانتشرت الفتن وتغيرت الأحوال من يومئذ . وكانت الأمور في غالب أزمدة هؤلاء الاثني عشر منتظمة ، وإن وجد في بعض مدتهم خلاف ذلك، فهو بالنسبة إلى الاستقامة نادر والله أعلم .

(١) الأكلة: جمع آكل . والقصة: وعاء يؤكل فيه . والمعنى أن الكفرة يدعوا بعضهم بعضاً للأخذ من بلاد المسلمين بلا مانع ولا منازع ، فيأكلونها عفوا وصفوا ، ويأخذون ما في أيدي المسلمين بلا تعب ينالهم ، أو ضرر يلحقهم ، أو بأس يمنعهم . يقول الله جل وعلا: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ} {وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَزِدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا} {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} .

ومن المهم أن يعرف المسلم كيف اجتمع اليهود والنصارى على حرب المسلمين مع أن اليهود والنصارى كانوا يعادون بعضهم البعض؟!

فاليهود ملعونون في الإنجيل عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ، وعند النصارى فإن أعظم جرائم اليهود ليست مجرد الكفر بالله وشتيم المسيح واتهامه بالسحر والكذب وشتيم أمه واتهامها في عرضها وقتل الأنبياء وإنكار التثليث وتضليل النصارى والوعد بقتلهم فقط؛ بل يرون أعظمها: قتل ربهم المسيح (كما يزعمون)!!! (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ) .

وهكذا ظلت العداوة لا تنطفئ بين الطائفتين -اليهود والنصارى-، واستمرت الكنيسة البابوية التي مقرها روما في لعن وعداوة اليهود، وقامت حملات عارمة تزعمها البابا لتنظيف المجتمعات الأوروبية من اليهود، وفي القرن الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر استمرت حملات التنظيف؛ فنظفت بريطانيا وألمانيا وفرنسا وكثير من دول أوروبا من اليهود؛ لأنهم يرونهم أخطر خلق الله وأكثرهم شراً -وهم كذلك- .

ومن جحيم أوروبا في عصور ظلماتها لجأ اليهود إلى كنف الأندلس وأواهم المسلمون، وبعدما احتل النصارى مدريد الإسلامية وشنوا حربهم الإبادية الشاملة على المسلمين في الأندلس شمل ذلك اليهود معهم؛ فلجئوا إلى الولايات التركية وخاصة اليونان .

ثم لما ظهرت الحركة البروتستانتية النصرانية ابتهج اليهود بهذه الحركة ووجدوا فيها متنفساً لهم وفرصة للانتقام من البابا وأتباعه وضرب النصارى بعضهم ببعض؛ فسخروا مكرهم ودهاءهم وأموالهم لنشرها، والبروتستانت؛ هي الطائفة النصرانية التي تحتج على البابا - زعيم الكاثوليك -، وتخرج عليه وتؤمن بأن البشر لا يتوسطون بين الناس وبين الله، وقالوا: إن على كل إنسان أن يقرأ الكتاب المقدس مباشرة ويطبقه مباشرة، وترفض احتكار رجال الكهنوت لتعليم الدين وتفسير الإنجيل، وقد تأثروا في ذلك بالمسلمين إبان الحروب الصليبية؛ إذ رأوا أن المسلمين يتعاملون مع كتاب الله مباشرة، ولا يتوسط أحد بينهم وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

والذي حدث في أوروبا أنه بعد ظهور هذه العقيدة بدأ الناس يرجعون إلى الأصول التوراتية اليهودية المحرفة، وقام مارتن لوتر صاحب حركة البروتستانت بترجمة التوراة المحرفة إلى اللغة الألمانية، وكذلك الإنجليزية، وقد انتشرت الحركة البروتستانتية أكثر ما انتشرت في ألمانيا وبريطانيا وآمن هؤلاء بحرفية الكتاب المقدس وعصمة التوراة المحرفة، وأن كل حرف في التوراة المحرفة هو حق من عند الله، فأمنوا به وبضرورة تحقيقه، وأعرضوا عن تفسيرات البابا ورجاله للعلاقة مع اليهود.

وقد خرج النصراني البروتستانت من أوروبا بروح التدين التوراتي المحرف، فلما دخلوا أمريكا تفاءلوا بأن هذا خروج كخروج بني إسرائيل من التيه ودخلهم إلى الأرض المقدسة، وأخذوا يسمون المدن والمناطق في أمريكا بأسماء من التوراة المحرفة، واعتقدوا أن هذه الأرض البكر بشرى بشرهم الله بها في الدنيا، وتأسس المجتمع الأمريكي على أساس بروتستانتية توراتي، وكان ذلك من آثار استغلال اليهود الكتاب المحرف الذي يؤمن به اليهود والنصارى معاً، وهو القسم الأول من الكتاب المقدس الذي يتكون من قسمين يسمون كلا منهما عهداً، فالأول هو العهد القديم وهو التوراة التي تشتمل على النصوص المحرفة التي تمجد اليهود والمتناقضة مع ما في الإنجيل من لعن اليهود وعداوتهم، والآخر هو العهد الجديد وهو الأناجيل والرسائل المحرفة.

ولذلك يتعاون اليهود والنصارى على حرب الإسلام والمسلمين، ومن الناحية السياسية يتفقون على أهمية إقامة دولة موالية للغرب في قلب العالم الإسلامي بعد سقوط الخلافة تقوم بإثارة المشاكل وإشغال دول المسلمين وإضعافهم دينياً وفكرياً واقتصادياً وتفصل مشرقهم عن مغربهم وتعمل على عدم اتحادهم حتى لا تعود الخلافة الإسلامية من جديد.

وقد تعهد اليهود أن يقوموا بهذه المهام مقابل دعم النصارى لهم لتحقيق المصلحة للطرفين. كما يتفق اليهود والنصارى أيضاً من الناحية العقدية على أن قيام دولة إسرائيل وتجمع بني إسرائيل في

فلسطين هو تمهيد لنزول المسيح المنتظر الذي يحالفه النصر ويحكم العالم ويقضي على أعدائه، كما يفسره كل منهما، وأنه ستكون هناك حرب لا هوادة فيها ببلاد الشام وهي (معركة هرمجدون).

لكنهم يختلفون في من هو هذا المسيح المنتظر؟ هل هو عيسى ابن مريم كما يؤمن النصارى وأنه سيقتل اليهود والمسلمين؟ أم هو ملك يهودي من نسل داود (المسيح الدجال) كما يزعم اليهود وأنه سيقتل النصارى والمسلمين؟!

ويعتقد كل من الطائفتين أنه سينتصر بقيادة المسيح الذي ينتظره ويفني الآخرين تماماً!!.

واليهود (كتبت عليهم الذلة إلا بحبل من الله وحبل من الناس) وهم بحاجة إلى من يساندتهم من الناس، ولذا ابتدع حاخامات صهيون حيلة أقرهم عليها قادة الإنجيليين النصارى وهي تأجيل الخوض في نتيجة (معركة هرمجدون) التي ينتظرها كل منهما ليهلك الآخر، وأن تظل هذه المسألة معلقة تماماً ولا يتم التطرق لها، وأن يكون التعاون بينهما على مبدأ التهيئة لنزول المسيح المنتظر بإقامة دولة تجمع بنى إسرائيل في فلسطين، فإذا نزل المسيح فعندها يرى؛ أهو مسيح اليهود أم مسيح النصارى. لأن الخوض في نتيجة المعركة حالياً ليس من مصلحة الطائفتين معاً!! لكن المصلحة المحققة لهما تكون بأن يعملوا سوياً للقضاء على العدو المشترك لهما وهو (المسلمون)!!

وهم يسعون بجهود حثيثة سياسياً وعسكرياً إلى إخضاع بلاد العرب والمسلمين للرهبة اليهودية العسكرية، وفرض الحماية الغربية على المنطقة، ثم من خلال ما يسمى بمنظورهم (عملية السلام) مع العرب؛ يسعون إلى التضيق على الدعوة الإسلامية وتغيير المناهج الإعلامية والتعليمية لمحو كل ما يثير العداء نحو اليهود، وفرض السيطرة المالية الاقتصادية ونشر الثقافة اليهودية والنصرانية ونهب ثروات المنطقة النفطية والمائية وإفساد المنطقة أخلاقياً عن طريق السياحة والآثار والترفيه، وفتح الباب لغزو الجاسوسية لأماكن ما كانت تحلم بها من قبل.

غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ يَنْتَزِعُ اللَّهُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَيَقْدِفُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ.

إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ ^(١)، وَأَخَذْتُمْ بِأَذْنَابِ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ ^(٢)، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغِيرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يَغِيرُوا مَا بَأَنْفُسِهِمْ، أُمَّتِي هَذِهِ أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ، لَيْسَ عَلَيْهَا عَذَابٌ فِي الْآخِرَةِ، عَذَابُهَا فِي الدُّنْيَا: الْفِتْنُ وَالزَّلَازِلُ وَالْقَتْلُ. ^(٣)

(١) العينة : بيع ربوي ، حيث يبيع البائع شيئاً للمشتري بثمن مؤجل ثم يشتريه منه قبل قبض الثمن بثمن أقل .

(٢) حمل هذا على الاشتغال بالزراع في زمن يتعين فيه الجهاد .

(٣) على ضعف تمسك المسلمين بدينهم وميلهم للدنيا وتركهم لأسباب القوة والجهاد وتفرقهم في فترات مضت؛ سقطت خلافتهم

وحضارتهم التي أنارت قلب العالم ونشرت العلم والمعرفة في عصور ظلمات أوروبا .

ثم قامت على إثرها الحضارة الغربية التي اكتسبت من علوم ونبوغ المسلمين وأنظمتهم إلا أنها مزجتها بأفات العنصرية وابتدأت بالتطهير العرقي والتفنن في التعذيب وإقامة محاكم التفتيش وإبادة غير النصارى وسلبهم . وظهر فيها نظام الطبقة والاستئثار والعنصرية والحروب النووية المدمرة، ونواصي العراة وزواج المثليين . وفي أمريكا تقع الجرائم الكبيرة في كل وقت تقريباً، وذلك من تأثير أفلام الرعب وأفلام الجنس التي تقدمها هوليوود وغيرها .

وتعاني أوروبا من تفكك لغوي وتفكك عرقي وبيئة شتائية قاسية . وتجبر الولايات المتحدة الدول الأوروبية بأن تبور ١٥ ٪ من الأراضي لكي تبقى أسعار قمحها على ما هي عليه .

ومن آفات الحضارة الغربية نشر المسكرات والمخدرات، وأكل الخنزير وهو حيوان مستقذراً يأكل العذرة وينشر الأمراض، ويسبب الدياثة . وله دهون ضارة، وحذرت من أكله وزارة الزراعة الأمريكية، وقال الدكتور "جايلورد هاووزر" الملقب زعيم التغذية في العصر الحديث : "لا يدخل الخنزير في أي نظام صحي" .

ولا يأكل المسلمون المستقذرات في حين تأكل بعض الشعوب الشرقية -كاليابانيين- : الصراصير والخنافس، وبعضهم يأكل البراز .

ومما يناقض الحرية المزعومة في بعض الدول الغربية منع المرأة المسلمة من لبس الحجاب أو لبس البوركي .

وكذلك يمنعون انتقاد عريضة اليهود وظلمهم، مع أن النصارى هم الذين اتهموا اليهود أنهم سبب الوباء الأسود .

وسويسرا البلد الذي يوصف بالحياد وليس فيه إلا ثلاث مآذن فقط، صوّت أكثر شعبه لمنع بناء المآذن .

ويتغاضى الغربيون المتشدقون بحقوق الإنسان عن مآسي المسلمين في تركستان من قبل الصينيين وعن مآسي المسلمين في بورما من قبل البوذيين وعن مآسي المسلمين فلسطين والعراق وسوريا وغيرها .

ومن يعارض المصالح الأمريكية المخالفة للإسلام يتم وضعه في قائمة الإرهاب.

وفي الغرب أكثر من ١٤٠٠ تنظيم متطرف، منها: النازيون الجدد وحليقو الرؤوس والذئاب الغبر، والألوية الحمراء، والصليبيون الجدد، وأصحاب القمصان الزرق، وفيها العديد من المنظمات والحركات السرية الهدامة كـ "الصليب الوردي" و "اليسوعية" و"أصحاب الأيكة" و"البنائي برث" و نوادي "اليوغا".

وأما تنظيم داعش الذي ينسبونه للمسلمين فهو تنظيم عميل مصنع، شهد بذلك الرئيس الأمريكي ترمب حيث قال إن الذي صنع داعش هو: "أوباما"، وقالت هيلاري كلينتون إن الذي صنع داعش هو: "أمريكا"، وقال السيناتور الأمريكي جون ماكين إن الذي صنع داعش هو: "بشار". فهم جميعاً متفقون على أن (داعش) مصنوعة وليست تنظيمياً حقيقياً، وإنما يختلفون فيمن صنعها ويقف وراءها. والدول الغربية تنحاز دائماً للصهاينة وتعمل على إنهاك اقتصاد الدول الإسلامية وتفتعل الإرهاب وتشغل المسلمين به.

ويركز الغرب على اتهام هتلر بالإبادة لأنه قتل اليهود، ويتغاضون عن إبادات "ستالين" و"روزفلت" و"تشرشل" و"ماوتسي تونغ". والأمريكيون أبادوا وقتلوا المدنيين بتدمير دوسلدورف الألمانية وهيروشيما وناجازاكي اليابانيتين والصومال والعراق وأفغانستان وغيرها.

وتظهر عدوانية الغرب للمسلمين في الحروب الصليبية والاستعمار العسكري ونهب الثروات والغزو الفكري والسلوكي وتدبير الانقلابات على الحكومات الإسلامية المنتخبة ودعم الإنقلابيين الذي يوالون الغرب وينفذون مخططاته بإضعاف التدين ونشر الثقافة الغربية. وعملوا على نبذ التعامل بالتقويم الهجري في البلاد الإسلامية وتقديم الأفضلية للغات الأجنبية على العربية.

وسعوا في تدبير الحروب الاقتصادية وإبقاء هيمنة الدولار الذي أصبح ورقاً ولم يعد له أي تغطية حقيقية، ومنع الدول الإسلامية من التفوق العسكري أو الاقتصادي.

واجتهدوا في محاربة الإعلام الإسلامي المحافظ والمستقل وإغلاق العديد من قنواته، ودعم الإعلام المنحل دينياً وثقافياً.

وكذلك تشويه ومحاربة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمعات المسلمة، والضغط على الحكومات الإسلامية لتقليص تحكيم القضاء الإسلامي إلى تحكيم القوانين الوضعية المخالفة، وتغيير المناهج التعليمية بما يوافق الأهواء الغربية، وفرض الفساد الأخلاقي والانحلال الفطري باسم الحرية والترفيه ومقاومة ما يسمونه: التشدد والوصاية.

وجاهدوا لتقليص المشاريع الإسلامية الخيرية الداعمة للعمل الخيري الإغاثي وفرض مراقبة حساباتها واتهامها والضغط لإغلاق الكثير منها. وتجريم الجهاد المشروع ومقاومة الاحتلال والعدوان كما في فلسطين وتصنيفه إرهاباً، ومحاولة عزل احتلال فلسطين والمسجد الأقصى عن بقية المسلمين وجعله مجرد قضية بين دولتين. وعملوا على مسخ العلاقات الدولية المعاصرة لتقوم على المصالح المادية للدول وليس على الحق والمبدأ. وجعلوا حق النقض "الفيتو" حكراً على الدول التي هزمت "هتلر" وعدم تغيير ذلك منذ عقود وهو ظلم لبقية شعوب الأرض ومما يطالب الأكثر بتعديله في ميثاق الأمم المتحدة.

وينادي الغربيون بمبادئ ومعايير غير منضبطة لديهم ويفسرها كل منهم على ما يهوى، ومن أمثلة ذلك: الحشمة والاعتدال والمعقولية والترشيد والشفافية والعدالة الانتقالية، والإرهاب. واستخدموا قوة الإعلام في التلاعب بالمصطلحات؛ فيسمون احتلالهم "مطلباً حكومياً" ويسمون حربهم على الإسلام "مكافحة الإرهاب" ويسمون إقصاء المنتخبين "قضاءً على الديكتاتورية" ويسمون دعمهم للصهاينة "نشراً للديمقراطية" ويسمون غزوهم لبلاد المسلمين "تحريراً" ويسمون الدياثة "تطوراً" ويسمون الهيمنة الاقتصادية "استثماراً" ويسمون احتكارهم "تسويقاً" ويسمون النهب "تنمية". وقد قال كبير فلاسفة القرن العشرين "برتراند رسل": "إن نظامي

قتال الكفار المعادين والمعتدين

إذا لقيتم العدو فادعوهم إلى الإسلام، فإن أجابوا
وإلا فالجزية، فإن أعطوا وإلا فقاتلوهم، وإنَّ الله كَتَبَ
الإِحْسَانَ على كُلِّ شيءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ. (١)

روما وموسكو -يعني الرأسمالية والشيوعية- لم يجلبا للبشرية إلا
الدمار".

والله جل وعلا يقول: (يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْبَى
اللَّهُ إِلَّا أَن يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى
وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)، (وَلَقَدْ سَبَقَتْ
كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ، وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ
الْغَالِبُونَ) (إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَالْعَاقِبَةُ
لِلْمُتَّقِينَ).

(١) من أخلاق المسلمين في الحرب: عدم قتل من لم يقاتل كالنساء
والأطفال والرهبان وكبار السن والمدنيين، والوفاء بالعهود، والصدقة
على الأسير، ومنع التعذيب، وتخيير الطرف الآخر قبل قتاله والنبد
إليه. والمسلمون الأوائل مع قلة العدد والعدة وفي نحو ربع قرن طبقوا
الإسلام وشريعته العادلة وجاهدوا في سبيل الله ونشرو دينه وأسقطوا
الامبراطوريتين الفارسية والرومية وأوقفوا ظلمها واستبدادها
ونشروا فيها العدل والمعرفة والقوانين والأنظمة العادلة تأكيداً
للمفهوم الإسلامي (هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم؟) وأن البقاء
للأتقى، وليس للأقوى كما يزعم داروين.

(وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) .

بقاء طائفة منصوره من المسلمين

وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَوَّامَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ، ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَاهُمْ قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ مَنْصُورِينَ لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يُبَالُونَ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ

وحكم عمر بن عبد العزيز لأهل سمرقند لما علم أن قتيبة بن مسلم الباهلي دخل مدينتهم غدراً . وأنكر عمرو بن عبسة على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أن يهاجم الروم قبل أن ينبذ إليهم . وأنكر أبو عبيدة أن يقام أهل الذمة في الشمس . بل قال امبراطور بيزنطي للسلطان محمد الفاتح : "لأن أرى العمائم العثمانية أحب إلي من أن أرى الصليبان البابوية" . وقد شهد المؤرخ الفرنسي الشهير غوستاف لوبون بقوله : "ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب" يعني : المسلمين . ومن عدل المسلمين أنهم فرحوا بانتصار الروم النصارى على الفرس المجوس لأن النصارى أهل كتاب ، كما كتب شيخ الإسلام ابن تيمية لملك قبرص يحثه على إطلاق أهل الذمة مع المسلمين . وفي المقابل فرح النصارى بانتصار المجوسي "جنكيز خان" على المسلمين ، وتحالفوا مع "هولاكو ضد المسلمين" .

خَالَفَهُمْ وَلَا مَنْ نَصَرَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ، يُزِغُ اللَّهُ لَهُمْ قُلُوبَ أَقْوَامٍ فَيَقَاتِلُونَهُمْ وَيَرْزُقُهُمُ اللَّهُ مِنْهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَيُنْزِلَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ - عَلَيْهِ السَّلَام - ، حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرَهُمْ - وَهُمْ أَهْلُ الشَّامِ - الْمَسِيحَ الدَّجَالَ .

أمور ستقع قبل قيام الساعة

{إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} .

وَلَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ :

الدُّخَانُ، وَالْدَّجَالُ، وَالْدَّابَّةُ وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا،

وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ - عَلَيْهِ السَّلَام - وَيَأْجُوجَ
وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ : خَسَفَتْ بِالْمَشْرِقِ،
وَخَسَفَتْ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسَفَتْ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ
نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ مِنْ قَعْرِ عَدْنٍ تَسُوقُ النَّاسَ إِلَى
مَحْشَرِهِمْ فَتَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ
قَالُوا، وَالشَّامُ أَرْضُ الْمَحْشَرِ وَالْمَنْشَرِ^(١).

أَمَارَاتُهَا: (٢) إِذَا رَأَيْتَ الْأُمَّةَ (٣) تَلِدُ رَبَّهَا وَرَبَّتَهَا، وَإِذَا
رَأَيْتَ الْعَرَبَ أَهْلَ الْبَادِيَةِ الْعَالَةَ الْحُقَاةَ الْعُرَاةَ الْجِيَاعَ

(١) أَي: الْبُقْعَةُ الَّتِي يَجْمَعُ النَّاسُ فِيهَا إِلَى الْحِسَابِ وَيَنْشُرُونَ مِنْ
قُبُورِهِمْ ثُمَّ يَسَاقُونَ إِلَيْهَا.

(٢) أَي: عِلَامَاتُ قَرِيبِهَا.

(٣) الْأُمَّةُ : هِيَ مَنْ ثَبَتَ عَلَيْهَا الرِّقُّ فَتَكُونُ مَمْلُوكَةً لِسَيِّدِهَا، وَلَا يَثْبُتُ
الرِّقُّ بِالْإِخْتِطَافِ أَوْ بِبَيْعِ الْأَبِ بِنْتَهُ بِسَبَبِ الْفَقْرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ كَمَا فِي
الْجَاهِلِيَّةِ، وَإِنَّمَا يَثْبُتُ الرِّقُّ فِي الْإِسْلَامِ بِأَحَدِ طَرِيقَيْنِ:

الأول: أَنْ يَقَعَ الْكَافِرُ أُسِيرًا فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ إِثْرَ حَرْبٍ بَيْنَ دَوْلَةِ
الْإِسْلَامِ وَدَوْلَةِ الْكُفْرِ، وَيَأْذَنُ إِمَامُ الْمُسْلِمِينَ بِاسْتِرْقَاقِهِ لِمَصْلَحَةٍ أَوْ

معاملة بالمثل مع فارق إكرام الرقيق في الإسلام، وله أن يأمر بقتل الأسير، أو إطلاق سراحه بمال أو بدون مال، حسب ما يراه من المصلحة للمسلمين، وهذه الأحكام سارية في هذا العصر وإلى يوم القيامة.

الثاني: أن يكون مستولداً من أمة مستركة، إذا كان من غير سيدها فيكون رقيقاً- يعني العبد أو الأمة- حتى تتاح له فرصة فيعتق مجاناً أو بمكاتبة.

وعلى هذا فلا يثبت الرق في حرب وقعت بين طائفتين من المسلمين في أي عصر من العصور، ولا يثبت الرق على الأسير الكافر إذا أمر إمام المسلمين بقتله أو إطلاق سراحه بمال أو مجاناً، لمصلحة المسلمين، ولا يثبت الرق على العبد المعتق، ولا على الحر. والرقيق يتملكه سيده ويباع ويشترى ممن يملكه ملكاً صحيحاً مُعْتَرَفاً بِهِ شَرْعاً، وَكَذَا بِالْهَبَةِ وَالْوَصِيَّةِ وَالصَّدَقَةِ وَالْمِيرَاثِ وَغَيْرِهَا مِنْ صُورِ انْتِقَالِ الْأَمْوَالِ مِنْ مَالِكٍ إِلَى آخَرَ.

وجاء الإسلام وأقر الرق لمصالح كثيرة، منها: أن الأسير الكافر إذا استرق وبقي بين أظهر المسلمين فإنه يبدأ حياة جديدة يتعرف فيها على أحكام الإسلام وآدابه، وعلى عدله وسماحته، فيشرح صدره للإسلام، ويحبب الله إليه الإيمان، ويكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، لا سيما إذا كان أهل الإسلام على قدر من الخلق وحسن المعاملة، فإذا خالط الإيمان بشاشة قلبه، كان ممن يتشوق الإسلام إلى مكاتبته أو عتقه مجاناً، كما دل على ذلك تشريع سائر الكفارات، ككفارة القتل الخطأ والإفطار في رمضان والحنث في اليمين والظهار وشجع على مكاتبته الرقيق وتيسير دفع ما يلزمه، وجعل عتق الرقاب من الكفارات، وأمر بالإحسان إلى الرقيق حتى تحين الفرصة لعتقه، والوصايا في ذلك كثيرة يكفى منها مراعاة شعوره، فلا يقال له: عبيد أو أمتي، بل يقال فتاي وفتاتي، أو غلامي وجاريتي، وإكرامه في مطعمه وملبسه كما في الحديث "هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، ويلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم

فأعينوهم". فلا يأمر السيد عبده أو أمته بمعصية الله ولا ينهيه عن طاعته، ويحافظ على حياة عبده، فلا يقتله أو يجرحه، أو يؤذيه في بدنه، ولا يكلفه بأعمال شاقة فوق طاقته، ولا يجبره على تغيير دينه، وعليه إطعامه وكسوته وإسكانه، قدر حاجته وكفايته، وأن ينفق عليه إذا مرض عبده، أو عجز عن العمل أو كان صغيراً، وأن يسعى في إعفائه إذا كان أعزباً فيزوجه خشية انحرافه، ولا يجبره على الزواج بمن لا يرضاها، وإذا كان العبد متزوجاً فعليه أن يمكنه من الاستمتاع بزوجه ليلاً، ولا يجبره على تطليق زوجته.

ومما يجب معرفته من أحكام الإماء: أن من تُسبى من النساء لا تكون متعة مشاعة لكل أحد من المسلمين، بل هي لمن تقع في سهمه من المسلمين فقط، فهي رقيقة مملوكة لسيد واحد منهم، لا يجوز له أن يُجبرها على معاشرة غيره من المسلمين. وشرع ملك اليمين واسترقاق الجوارى؛ حرصاً عليهن من أن يتشردن فيتعرضن للإهانة في شرفهن وكرامتهن، ومن انتشار الفساد إذا تُركن بغير مُعيل يعيلهن ولا راع يرعى شؤونهن. وأُبيح التسري بالإماء دون تحديد بعدد؛ فلمالك الأمة أن يطأها (يجامعها) بملكه إياها - أي: بلا عقد زواج عليها - فهذا معنى وطء الأمة بملك اليمين، وهو (التسري)، ويكون بعد الاستبراء بحيضة؛ للتأكد من عدم حصول حمل من زوجها قبل معاشرة مالكتها لها. وشرع تسري السيد بأمته لأنها غالباً ستتنضم إلى عياله وأهله، وليحصل الإعفاف لكل منهما بدلاً أن يقعاً في الحرام أو تلجأ الجارية إلى فعل الفواحش والمنكرات في المجتمع، وفي هذا معاملة كريمة لها إذ إنها بذلك تعامل معاملة سيدتها، فيستمتع بها كما يستمتع الزوج بزوجه، سواء ولد له منها أم لا، والأمة إذا عاشرها مالكتها فحملت منه وولدت؛ فقد صارت أم ولد، وأم الولد تخرج من الرق الكامل خروجاً جزئياً بمجرد الوضع للمولود فلا يجوز بيعها لأنه يؤدي إلى التفريق بينها وبين ولدها، ثم إنها تعتق عتاقاً كاملاً وتُصبح حرة بمجرد موت سيدها. وقد تسرى النبي - صلى الله عليه وسلم - بأمته مارية القبطية، وولد له منها إبراهيم، وليست من زوجاته، وليست من أمهات المؤمنين. وروي أن هاجر كانت

أمة لسارة فوهبتها لإبراهيم عليه السلام، وكان التَّسْرِي على الزوجة مباحا في شريعة إبراهيم، وقد فعله الخليل إبراهيم في هاجر لما تَسْرَى بها على سارة، وقد حُرِّم مثل هذا في التوراة عليهم. وكذلك كان الجمع بين الأختين شائعاً، وقد فعله يعقوب عليه السلام، جمع بين الأختين ثم حُرِّم ذلك عليهم في التوراة.

وإذا سُبي الرجل مع زوجه ووقعا تحت ملك رجل واحد من المسلمين، فيبقى زواجهما على ما هو عليه، ولا يجوز للمالك الأمة حينئذ معاشرتها، بل عليه أن يمكنها من معاشرة زوجها ليلاً، إلا أن يفرق بينهما ببيع أحدهما للمالك آخر، فيكون هذا كالطلاق، ولا يجوزُ لِلْعَبْدِ أَنْ يَتَسْرَى جَارِيَةً، وإنما يتزوجها بإذن سيدها. ولا يجوز للمسلم الحر أن يتزوج أمة إلا إذا لم يجد مهراً يتزوج به حرة مؤمنة عفيفة، فبذلك يجوز له أن يتزوج أمة بإذن سيدها، بشرط أن تكون مؤمنة، عفيفة، فلا يتزوج أمة كافرة كتابية أو غير كتابية، ولا أمة غير عفيفة، وولدها يكون رقيقاً تابعاً لسيدها.

ولما كانت الإماء تكثرُ إليهن الحاجة في الاستخدام وأُمُورِ المهنة وكنَّ مبتذلاتٍ بكثرة الذهاب والمجيء وبالبيع والشراء وهن يحتجن في مثل هذا إلى أن كشف الوجه والرأس والكفين ولكون فرض الحجاب عليهن مما يشقُّ مشقةً بالغة؛ كان من رحمة الله بعباده أنه لم يفرض عليهن الحجاب كما فرضه على الحرائر، ودليل ذلك النص واتفاق السلف، والإماء في عهد الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام كُنَّ لا يحتجن كالحرائر؛ لأن الفتنة بهنَّ أَقْلُ، فَهُنَّ يُشْبِهْنَ الْقَوَاعِدَ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً، وقد فرق العلماء بين الأمة البُرْزَة (وهي التي تبرز كثيراً كالرجل) وبين الأمة الخَفْرة (وهي التي لا تظهر غالباً، وإنما تكون في البيت). وروي عن عمر أنه كان إذا رأى أمةً مُخْتَمِرةً، ضربها وقال: أنتشبهين بالحرائر؟ وهذا في إماء الاستخدام والابتذال اللاتي يبرزن ولا يفتتن بهن. وأما إماء التسري اللاتي جرت العادة بصونهن وحجبهن والإماء الحِسان الوجوه، فلسن كالإماء المبتذلات، ويجب عليهن ستر كل بدنهن عن النُّظَر، لأن المقصود من الحجاب في باب عورة النظر هو ستر ما يُخاف منه

الفِتنة، ولم يطلق الله ورسوله للأعين النظر إلى الإماء البارعات الجمال، وإذا خشي الناظر الفتنة بالنظر إلى الأمة حرم عليه بلا ريب.

واتفق العلماء على وجوب احتجاب المرأة أمام العبيد الأجانب الذين لا تملكهم ، أما بالنسبة لعبدها الذي تملكه فقد أجاز فريق من العلماء أن ينظر المملوك إلى الوجه والكفين من مولاته للحاجة فقط ما دامت مالكة له كله ، فإذا زال الملك أو بعضه لم يجز النظر، وأنه بذلك لا يعد كمحارمها، فلا يجوز له الخلوة بها ولا السفر معها ، ولأنها لا تحرم عليه على التأييد ، ولا يحل له استمتاعها ، فلم يكن محرماً كزوج أختها ؛ ولأنه غير مأمون عليها ، إذ ليست بينهما نفرة المحرمة ، والملك لا يقتضي النفرة الطبيعية ، بدليل السيد مع أمته ، وإنما أبيح له من النظر ما تدعو الحاجة إليه ، كالشاهد والمبتاع ونحوهما، وليس في هذا ما يوجب أن يكون محرماً يسافر بها ، كغير أولي الإربة ، فإنهم يجوز لهم النظر وليسوا محارم يسافرون بها ، فليس كل من جاز له النظر جاز له السفر بها ولا الخلوة بها ، بل عبدها ينظر إليها للحاجة وإن كان لا يخلو بها ولا يسافر بها ، فإنه لم يدخل في قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تسافر امرأة إلا مع زوج أو ذي محرم) فإنه يجوز له أن يتزوجها إذا عتق، كما يجوز لزوج أختها أن يتزوجها إذا طلق أختها ، والمحرم من تحرم عليه على التأييد . وإذا تحرر العبد ولم يعد ملكاً للمرأة فلا خلاف في وجوب احتجاب المرأة منه ، وأنه لا يجوز له أن ينظر إليها ، بل يحرم عليه ذلك ؛ لأنه صار كغيره من الرجال الأجانب ، إلا إن كان من التابعين غير أولي الإربة أو من الأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء . والرق في الإسلام حكم شرعي لا يجوز إلغاؤه بالكلية وإنما تلغى أسبابه غير الشرعية، وكانت آخر وصية للنبي عليه الصلاة والسلام (الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم). وانظر إلى روعة مقولة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا"، ويقصد عتق سيدنا بلال رضي الله عنهم أجمعين. وكان آخر وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حضره الموت وهو يُعَرِّغُ

الصَّمُّ الْبُكْمَ رُعَاةَ الشَّاءِ رُعَاةَ الْإِبِلِ الْبُهْمَ يَتَطَاوُلُونَ فِي
الْبُنْيَانِ، وَكَانُوا مُلُوكَ الْأَرْضِ وَرُؤُوسَ النَّاسِ.

وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبِضَ الْعِلْمُ وَيُظْهَرَ الْجَهْلُ
وَيَنْقُصَ الْعَمَلُ وَيُلْقَى الشُّحُّ وَيَكْثُرَ الْكَذِبُ، وَتَقَارِبَ
الْأَسْوَاقُ وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ، وَتَقَارِبَ الزَّمَانُ فَتَكُونَ السَّنَةُ
كَالشَّهْرِ، وَالشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ، وَتَكُونَ الْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ،
وَيَكُونُ الْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ، وَتَكُونُ السَّاعَةُ كَاخْتِرَاقِ السَّعْفَةِ

بَهَا فِي صَدْرِهِ، وَمَا كَانَ يُفِيضُ بِهَا لِسَانُهُ: الصَّلَاةُ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ،
الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ، اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ" فأوصى بالإمام
والعبيد والتأكيد على حسن معاملتهم.

أما في الحضارة الغربية فظهرت أنظمة الطباقية وتقسيم الناس إلى
رجال دين ونبلاء وعامة، وتم فيها المتاجرة بالبشر في الدعارة
والجنس وبيع الأعضاء، وتم اصطياد واستعباد ذوي البشرة السوداء
واقتيادهم مسلسلين في البواخر، والزعم بأن السود عبيد، وتم نهب
ثروات بلدانهم، وتقطيع أرجل السود في مزارع القطن حتى يعملوا
ولا يهربوا، وقد قدر البروفيسور الفرنسي "تزفيان" في كتابه "مصرع
الديمقراطية" عدد من استعبدتهم الغرب من الأفارقة السود بمائة
مليون إنسان، ثم بعد ذلك كله يتفاخر الغرب زوراً بأنه حرر الرقيق
وألغى الرق !!

وَتَظْهَرُ الْفِتْنُ، وَيَكْثُرُ الْقَتْلُ، وَحَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمْ الْمَالُ
فَيَفِيضَ، حَتَّى يُهِمَّ رَبَّ الْمَالِ مَنْ يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ يُخْرِجُ
بِرِّكَاتِهِ مَالَهُ، فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهَا مِنْهُ، يَقُولُ الَّذِي يَعْرِضُهُ
عَلَيْهِ: لَا أَرَبَ لِي بِهِ. وَحَتَّى يَتَطَاوَلَ النَّاسُ فِي الْبُنْيَانِ
وَحَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا، وَحَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ
بِقَبْرِ الرَّجُلِ فَيَتَمَرَّغُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَكَانَ
صَاحِبِ هَذَا الْقَبْرِ، لَيْسَ بِهِ الدِّينُ، مَا بِهِ حُبُّ لِقَاءِ
اللَّهِ، مَا بِهِ إِلَّا الْبَلَاءُ. وَيُلْقَى بَيْنَ النَّاسِ التَّنَاكُرُ فَلَا يَكَادُ
أَحَدٌ يَعْرِفُ أَحَدًا، وَحَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا،
وَحَتَّى يُحَاصِرَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ حَتَّى يَكُونَ أَبْعَدَ

مَسَاحِيهِمْ^(١): سَلَا ح^(٢). والمدينة يَدْعُهَا أَهْلُهَا أَئِنَعَ مَا
يَكُونُ مُذَلَّلَةً أَرْبَعِينَ عَامًا يَأْكُلُ ثَمَرَهَا عَافِيَةُ الطَّيْرِ
وَالسَّبَاعِ، حَتَّى يَدْخُلَ الذُّبُّ فَيَعْوِي عَلَى بَعْضِ سَوَارِي
الْمَسْجِدِ أَوْ عَلَى الْمِنْبَرِ.

ظهور المهدي

الْمَهْدِيُّ مِنْ عِثْرَتِي^(٣) مِنْ وَلَدِ فَاطِمَةَ يُوَاطِيُ اسْمُهُ
اسْمِي، وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمُ أَبِي، أَجَلِي الْجَبْهَةِ^(٤) أَقْنَى

(١) الْمُسْلَحَةُ: الثَّغْرُ مِنَ الْبِلَادِ ، وَهُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يُخَافُ مِنْهُ هُجُومُ الْعَدُوِّ.

(٢) مَوْضِعُ أَسْفَلَ خَيْرٍ.

(٣) عترة الرجل: أخص أقاربه، وعترة النبي - صلى الله عليه وسلم - بنو عبد المطلب ، وقيل: قريش والمشهور المعروف أنهم الذين حرمت عليهم الزكاة.

(٤) أي: منحسر الشعر من مقدم رأسه ، أو واسع الجبهة.

(٥) القنا في الأنف: طوله ودقة أرنبته ، مع حذب في وسطه.

يُصْلِحُهُ اللَّهُ فِي لَيْلَةٍ يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا، كَمَا
مِلَيْتُ جَوْرًا وَظُلْمًا.

يَلْبَثُ فِيكُمْ سَبْعًا أَوْ ثَمَانِيًا، فَإِنْ كَثُرَ فَتِسْعًا، فَتَنْعَمُ
فِيهِ أُمَّتِي نِعْمَةً لَمْ يَنْعَمُوا مِثْلَهَا قَطُّ، وَلَا تَمْتَنِعُ السَّمَاءُ
شَيْئًا مِنْ قَطْرِهَا وَلَا الْأَرْضُ شَيْئًا مِنْ نَبَاتِهَا.

وَالْمَالُ يَوْمَئِذٍ كُدُوسٌ ^(١) فَيَجِيءُ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَيَقُولُ: يَا
مَهْدِيٌّ أَعْطِنِي، أَعْطِنِي. فَيَحْثِي لَهُ فِي ثَوْبِهِ مَا اسْتَطَاعَ
أَنْ يَحْمِلَهُ.

(١) أي: كثير فائض.

أحداث آخر الزمان

عُمَرَانُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ: خَرَابُ يَثْرِبَ، وَخَرَابُ
يَثْرِبَ : خُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ، وَخُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ : فَتْحُ
قُسْطَنْطِينِيَّةَ، وَفَتْحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ : خُرُوجُ الدَّجَالِ .

مصالحة الروم والغزو معهم ثم غدرهم

سَتُصَالِحُكُمُ الرُّومَ صُلْحًا آمِنًا، ثُمَّ تَغْزُونَ أَنْتُمْ وَهُمْ
عَدُوًّا مِنْ وَرَائِكُمْ فَتُنْصَرُونَ، وَتَغْنَمُونَ، وَتَسْلَمُونَ، ثُمَّ
تَرْجِعُونَ حَتَّى تَنْزِلُوا بِمَرْجٍ ذِي ثُلُولٍ فَيَرْفَعُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ
النَّصْرَانِيَّةِ الصَّلِيبَ فَيَقُولُ: غَلَبَ الصَّلِيبُ فَيَغْضَبُ
رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَيَقُومُ إِلَيْهِ فَيَقْتُلُهُ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَغْدِرُ

الرُّومُ وَيَجْتَمِعُونَ لِلْمَلْحَمَةِ فَيَأْتُونَكُمْ حِينَدٍ فِي ثَمَانِينَ
غَايَةٍ تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا .

الْمَلْحَمَةُ الْكُبْرَى فِي الْغُوطَةِ

فَيَثُورُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى أَسْلِحَتِهِمْ، فَيَقْتَتِلُونَ، فَيُكْرِمُ
اللَّهُ تِلْكَ الْعِصَابَةَ بِالشَّهَادَةِ، وَتَكُونُ عِنْدَ ذَاكُمْ الْقِتَالِ
رَدَّةٌ شَدِيدَةٌ^(١)، فَسَطَاطُ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ الْمَلْحَمَةِ الْكُبْرَى
بَارِضٌ يُقَالُ لَهَا (الْغُوطَةُ) إِلَى جَانِبِ مَدِينَةِ يُقَالُ لَهَا
(دِمَشْقُ) خَيْرُ مَنَازِلِ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ، فَيَشْتَرِطُ
الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لَا تَرْجِعُ إِلَّا غَالِبَةً^(٢)، فَيَقْتَتِلُونَ

(١) بفتح الراء، أي: عطفة قوية ورجوع قوي بعد الفر أو صولة شديدة.

(٢) يعني : يقتطع المسلمون من عسكرهم طائفة للتضحية؛ إما الاستشهاد أو النصر، ويعزمون على أن هذه الطائفة لا ترجع إلا بالنصر أو تموت.

حَتَّى يَحْجُزَ بَيْنَهُمُ اللَّيْلُ، فَيَفِيءُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ كُلُّ غَيْرٍ
 غَالِبٍ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ، ثُمَّ يَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً
 لِلْمَوْتِ لَا تَرْجِعُ إِلَّا غَالِبَةً، فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يَحْجُزَ بَيْنَهُمُ
 اللَّيْلُ، فَيَفِيءُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ، كُلُّ غَيْرٍ غَالِبٍ، وَتَفْنَى
 الشُّرْطَةُ، ثُمَّ يَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لَا تَرْجِعُ
 إِلَّا غَالِبَةً، فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يُمْسُوا، فَيَفِيءُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ،
 كُلُّ غَيْرٍ غَالِبٍ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الرَّابِعِ، نَهَدَ
 إِلَيْهِمْ بَقِيَّةَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ^(١)، فَيَجْعَلُ اللَّهُ الدَّبْرَةَ عَلَيْهِمْ^(٢)،
 فَيَقْتَتِلُونَ^(٣) مَقْتَلَةً لَمْ يُرْ مِثْلُهَا^(٤)، حَتَّى إِنَّ الطَّائِرَ لَيَمُرُّ
 بِجَنَابَتِهِمْ فَمَا يَخْلِفُهُمْ حَتَّى يَخِرَّ مَيِّتًا، فَيَتَعَادُّ بَنُو الْأَبِ

(١) أي بقيتهم من الأشرار الثلاثة .

(٢) أي: تكون الدائرة والهزيمة على الروم الكفار .

(٣) المسلمون والروم الكفار .

(٤) أو (لا يرى مثلها) أي نظيرها ومثيلها في المستقبل .

كَانُوا مِائَةً، فَلَا يَجِدُونَهُ بَقِيَ مِنْهُمْ إِلَّا الرَّجُلُ الْوَاحِدُ فَبَئِيَ
غَنِيمَةً يُفْرَحُ؟، أَوْ أَيُّ مِيرَاثٍ يُقَاسَمُ؟ .

فتح القسطنطينية

وَيَنْزِلَ الرُّومُ بِالْأَعْمَاقِ أَوْ بِدَابِقٍ - مَوْضِعَانِ بِالشَّامِ
بِقُرْبِ حَلَبَ - فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ
خِيَارِ أَهْلِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ، فَإِذَا تَصَافَوْا قَالَتِ الرُّومُ: خَلُّوا
بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَوْا مِنَّا نُقَاتِلَهُمْ، فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ:
لَا وَاللَّهِ لَا نُخْلِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا، فَيَقَاتِلُونَهُمْ، فَيَنْهَزِمُ
ثُلُثٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَا يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا لَا يُلْهِمُهُمُ
اللَّهُ التَّوْبَةَ، بَلْ يَصْرُونَ عَلَى الْفِرَارِ، وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُمْ، هُمْ
أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللَّهِ، وَيَفْتَتِحُ الثُّلُثُ، لَا يُفْتَنُونَ
أَبَدًا، فَيَفْتَتِحُونَ قُسْطَنْطِينِيَّةَ مَدِينَةَ جَانِبِ مِنْهَا فِي الْبَرِّ،

وَجَانِبٌ مِنْهَا فِي الْبَحْرِ يَغْرُوهَا سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْ بَنِي إِسْحَاقَ^(١)، فَإِذَا جَاءُوهَا نَزَلُوا، فَلَمْ يُقَاتِلُوا بِسِلَاحٍ، وَلَمْ يَرْمُوا بِسَهْمٍ، قَالُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، فَيَسْقُطُ أَحَدٌ جَانِبَيْهَا الَّذِي فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ يَقُولُونَ الثَّانِيَةَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، فَيَسْقُطُ جَانِبُهَا الْآخَرُ، ثُمَّ يَقُولُونَ الثَّالِثَةَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، فَيَفْرَجُ لَهُمْ، فَيَدْخُلُوهَا فَيَغْنَمُوا^(٢)، فَبَيْنَمَا هُمْ يَفْتَسِمُونَ الْمَغَانِمَ إِذْ جَاءَهُمُ الصَّرِيحُ فَقَالَ: إِنَّ الدَّجَالَ قَدْ خَرَجَ، فَيَتْرَكُونَ كُلَّ شَيْءٍ وَيَرْجِعُونَ، فَيَبْعَثُونَ عَشْرَةَ فَوَارِسَ طَلِيعَةٍ، إِنِّي لَأَعْرِفُ

(١) ولعلمهم أكراد الشام، وهم من نسل إسحاق النبي عليه السلام، وهم مسلمون.

(٢) وليس المراد من هذا الفتح ما وقع بيد السلطان محمد فاتح في سنة (٨٥٧) هـ وإنما يقع هذا الفتح قبل خروج الدجال بقليل بجيش فيهم المهدي.

أَسْمَاءَهُمْ، وَأَسْمَاءَ آبَائِهِمْ، وَالْوَانَ خِيُولِهِمْ، هُمْ خَيْرُ
فَوَارِسَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ.

خروج الدجال يتبعه يهود وشياطين

ثُمَّ يَخْرُجُ الدَّجَالُ. ^(١)

(١) وهو أَوَّلُ الْآيَاتِ الْعِظَامِ الْمُؤَذِّنَةِ بِتَغْيِيرِ أَحْوَالِ الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ.
ووردت أحاديث في (ابن صياد) فهل هو الدجال؟ أم الدجال هو الوارد
في حديث الجساسة؟

ابن صياد أو ابن صائد : اسمه: صافي وقيل: عبد الله بن صياد أو
صائد. كان من يهود المدينة، وكان صغيراً عند قدوم النبي صلى الله
عليه وسلم إلى المدينة.

و روت فاطمة بنت قيس وأبو هريرة وعائشة وجابر -رضي الله
عنهم- حديث النبي صلى الله عليه وسلم أن تميم الداري ذكر له أنه
رأى الدجال في الدَّيرِ في جزيرة الجساسة على هيئة جاء في وصفها
أنه : أَكْظَمُ إِنْسَانٍ رَأَيْتَاهُ خَلْقًا قَطُّ، وَأَشَدُّ وَثَاقًا، يَجْرُ شَعْرُهُ، مُسَلْسَلٌ
فِي الْأَغْلَالِ مَا بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى كَعْبَيْهِ بِالْحَدِيدِ، يَنْزُو فِيمَا بَيْنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ، مَجْمُوعَةٌ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ، وَأَنَّ أَحَدَ مَنْخَرَيْهِ مَهْدُودٌ وَإِحْدَى
عَيْنَيْهِ مَطْمُوسَةٌ، وَأَنَّهُ شَيْخٌ.

وكان جابر بن عبد الله -مع أنه من رواة حديث تميم الداري
(حديث الجساسة)- يَحْلِفُ بِاللَّهِ: أَنَّ ابْنَ الصَّائِدِ الدَّجَالَ، ويقول:

إِنِّي سَمِعْتُ عُمَرَ يَخْلِفُ عَلَى ذَلِكَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمْ يُنْكِرْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وروي كذلك عن أبي ذر -رضي الله عنه- قوله: لَأَنْ أَحْلِفَ عَشْرَ مَرَارٍ أَنْ ابْنَ صَيَّادٍ هُوَ الدَّجَالُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ وَاحِدَةً أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ. ولا شك أن ابن صياد دجال من الدجاللة، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من الدجالين وقال: (لا تقوم الساعة حتى يُبْعَثَ دَجَالُونُ كَذَّابُونَ قَرِيبًا مِنْ ثَلَاثِينَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ)، وابن صياد منهم وقد قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟، فادعى الرسالة بذلك. ومن دجله دَعَاوَاهُ أَنَّهُ يَأْتِيهِ صَادِقٌ وَكَاذِبٌ وَأَنَّهُ يَرَى عَرْشًا فَوْقَ الْمَاءِ.

وقد ألمح ابن صياد بنفسه أنه هو المسيح الدجال؛ حيث قال: وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَعْرِفُهُ، وَأَعْرِفُ مَوْلَدَهُ، وَأَبْنُ هُوَ السَّاعَةِ مِنَ الْأَرْضِ، وَأَعْرِفُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ، وَقِيلَ لِي: أَيَسْرُكَ أَنَّكَ ذَاكَ الرَّجُلُ؟، فَقُلْتُ: لَوْ عَرَضَ عَلَيَّ مَا كَرِهْتُ.

والنبي عليه الصلاة والسلام قال لعمر رضي الله عنه: إِنْ يَكُنْهُ، فَلَنْ تُسَلِّطَ عَلَيْهِ. فلم يستطع عمر -رضي الله عنه- أَنْ يَتَسَلَّطَ عَلَيْهِ مع قوة عمر في الحق حتى في خلافته ومع حلفه أن ابن صياد هو الدجال، ومع تسلط عمر على أهل الريبة والإفساد كصبيغ وغيره. وهذا مما يقوي القول بأن ابن صياد هو المسيح الدجال.

وعن ابن عمر -رضي الله عنهما- قَالَ: لَقِيتُ ابْنَ صَائِدٍ مَرَّتَيْنِ، فَأَمَّا مَرَّةٌ، فَلَقِيتُهُ وَمَعَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ، فَقُلْتُ لِبَعْضِهِمْ: نَشَدْتُكُمْ بِاللَّهِ، إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ لَتَصْدُقُنِي؟، قَالُوا: نَعَمْ، فَقُلْتُ: هَلْ تَحَدَّثُونِي أَنَّهُ هُوَ؟، قَالُوا: لَا وَاللَّهِ، فَقُلْتُ: كَذَبْتُمْ، وَاللَّهِ لَقَدْ حَدَّثَنِي بَعْضُكُمْ - وَهُوَ يَوْمَئِذٍ أَقْلُكُمْ مَا لَا وَوَلَدًا - أَنَّهُ لَا يَمُوتُ حَتَّى يَكُونَ أَكْثَرُكُمْ مَا لَا وَوَلَدًا، وَهُوَ الْيَوْمَ كَذَلِكَ، قَالَ: فَتَحَدَّثْنَا، ثُمَّ فَارَقْتُهُ. ثُمَّ لَقِيتُهُ مَرَّةً أُخْرَى يَوْمًا وَمَعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ وَقَدْ نَضَرَتْ عَيْنُهُ، قَدْ طَفِنَتْ وَهِيَ خَارِجَةٌ مِثْلَ عَيْنِ الْجَمَلِ، فَقُلْتُ لَهُ: مَتَى فَعَلْتَ عَيْنُكَ مَا أَرَى؟ مَتَى طَفِنَتْ عَيْنُكَ؟، قَالَ: لَا أَدْرِي (وَالرَّحْمَنُ)، قُلْتُ: كَذَبْتَ، لَا تَدْرِي وَهِيَ فِي رَأْسِكَ؟، فَقَالَ: مَا تَرِيدُ مِنِّي يَا ابْنَ عُمَرَ؟ إِنْ شَاءَ اللَّهُ خَلَقَهَا فِي عَصَاكَ هَذِهِ.

فَمَسَحَهَا وَنَخَرَ ثَلَاثًا، وَنَخَرَ كَأَشَدِّ نَخِيرِ حِمَارٍ سَمِعْتُهُ قَطُّ، وَانْتَفَخَ حَتَّى سَدَّ الطَّرِيقَ. فَزَعَمَ الْيَهُودِيُّ أَنِّي ضَرَبْتُ بِيَدَيَّ صَدْرَهُ وَقُلْتُ لَهُ اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُو قَدْرَكَ، وَزَعَمَ أَصْحَابِي أَنِّي ضَرَبْتُهُ بَعْضًا كَأَنَّهُ مَعِيَ حَتَّى تَكْسُرَتْ، وَأَمَّا أَنَا، فَوَاللَّهِ مَا شَعُرْتُ، فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - فَحَدَّثْتُهَا، فَقَالَتْ لِي: رَحِمَكَ اللَّهُ، مَا أَرَدْتُ مِنْ ابْنِ صَائِدٍ؟ أَمَّا عَلِمْتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: إِنَّمَا يَخْرُجُ الدَّجَالُ عَلَى النَّاسِ مِنْ غَضَبَةٍ يَغْضِبُهَا.

وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: "فَقَدْنَا بَنَ صَيَّادٍ يَوْمَ الْحَرَّةِ". فَلَمْ يَثْبُتْ أَنَّهُ مَاتَ أَوْ دُفِنَ، مَعَ اشتهار أمره.

وَأَخْرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ الْأَصْبَهَانِيُّ فِي تَارِيخِ أَصْبَهَانَ مَا يُؤَيِّدُ كَوْنَ بَنِ صَيَّادٍ هُوَ الدَّجَالُ فَسَاقَ مِنْ طَرِيقِ شُبَيْلِ بْنِ عَزْزَةَ عَنْ حَسَّانَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ لَمَّا افْتَتَحْنَا أَصْبَهَانَ كَانَ بَيْنَ عَسْكَرِنَا وَبَيْنَ الْيَهُودِيَّةِ فَرَسَخٌ فَكُنَّا نَأْتِيهَا فَنَمْتَارُ مِنْهَا فَأَتَيْتُهَا يَوْمًا فَإِذَا الْيَهُودُ يَرْفُونَ وَيَضْرِبُونَ فَسَأَلْتُ صَدِيقًا لِي مِنْهُمْ فَقَالَ مَلِكُنَا الَّذِي نَسْتَفْتِي بِهِ عَلَى الْعَرَبِ يَدْخُلُ فَبِتَ عِنْدَهُ عَلَى سَطْحٍ فَصَلَّيْتُ الْغَدَاةَ فَلَمَّا طَلَعَتِ الشَّمْسُ إِذَا لِرَهْجٍ مِنْ قَبْلِ الْعَسْكَرِ فَتَنَظَّرْتُ فَإِذَا رَجُلٌ عَلَيْهِ قُبَّةٌ مِنْ رِيحَانٍ وَالْيَهُودُ يَرْفُونَ وَيَضْرِبُونَ فَتَنَظَّرْتُ فَإِذَا هُوَ بَنُ صَيَّادٍ فَدَخَلَ الْمَدِينَةَ فَلَمْ يَعْذُ حَتَّى السَّاعَةِ. قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَسَّانٍ مَا عَرَفْتُهُ وَالْبَاقُونَ ثَقَاتٌ.

وقال أبو عبد الله القرطبي: الصحيح أن ابن صياد هو الدجال . . وما يبعد أن يكون بالجزيرة في ذلك الوقت، ويكون بين أظهر الصحابة في وقت آخر.

وَأَخْرَجَ نُعَيْمُ بْنُ حَمَادٍ شَيْخُ الْبُخَارِيِّ فِي كِتَابِ الْفِتَنِ مِنْ طَرِيقِ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ وَشُرَيْحِ بْنِ عُبَيْدٍ وَعَمْرُو بْنُ الْأَسْوَدِ وَكَثِيرُ بْنُ مَرْهٍ (وكلهم ثقات) قَالُوا جَمِيعًا: "الدَّجَالُ لَيْسَ هُوَ إِنْسَانٌ وَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ مُوْتَقٌ بِسَبْعِينَ حَلَقَةً فِي بَعْضِ جَزَائِرِ الْيَمَنِ لَا يَعْلَمُ مَنْ أَوْثَقَهُ سُلَيْمَانُ النَّبِيُّ أَوْ غَيْرُهُ فَإِذَا آنَ ظُهُورُهُ فَكَأَنَّ اللَّهَ عَنْهُ كُلَّ عَامٍ حَلَقَةً فَإِذَا بَرَزَ أَتَتْهُ أَنَاثٌ عَرَضُ مَا بَيْنَ أَذُنَيْهَا أَرْبَعُونَ ذِرَاعًا فَيَضَعُ عَلَى ظَهْرِهَا

مَنْبَرًا مِنْ نَحَاسٍ وَيَقْعُدُ عَلَيْهِ وَيَتَّبَعُهُ قَبَائِلُ الْجِنِّ يُخْرِجُونَ لَهُ خَزَائِنَ الْأَرْضِ".

قال الحافظ ابن حجر: وَأَقْرَبُ مَا يُجْمَعُ بِهِ بَيْنَ مَا تَضَمَّنَهُ حَدِيثُ تَمِيمٍ وَكَوْنِ ابْنِ صَيَّادٍ هُوَ الدَّجَالُ أَنَّ الدَّجَالَ بَعِيْنُهُ هُوَ الَّذِي شَاهَدَهُ تَمِيمٌ مَوْتًا وَأَنَّ ابْنَ صَيَّادٍ شَيْطَانٌ تَبَدَّى فِي صُورَةِ الدَّجَالِ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ إِلَى أَنْ تَوَجَّهَ إِلَى أَصْبَهَانَ فَاسْتَتَرَ مَعَ قَرِيْنِهِ إِلَى أَنْ تَجِيءَ الْمُدَّةُ الَّتِي قَدَّرَ اللَّهُ تَعَالَى خُرُوجَهُ فِيهَا.

قلت: تعذر على بعض العلماء الجمع بين حيث تميم الداري (حديث الجساسة) وأحاديث ابن صياد وروايات الثقات بأن الدجال شيطان وليس إنسان، ولعل الإمام ابن حجر -رحمه الله- أصاب في جمعه بين الأحاديث والروايات باجتماع إنسي وشيطان جني في حادثة خروج الدجال، وقد يشبهه -والله أعلم- ما جاء في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما ذَكَرَ حَدِيثَ الْمُخْدَجِ وَوَجَدَهُ فِي قَتْلِ الْخَوَارِجِ، قَالَ عَلِيٌّ: قَوْلَ اللَّهِ مَا كَذَبْتُ وَلَا كُذِّبْتُ ثَلَاثًا، فَقَالَ عَلِيٌّ: أَمَّا إِنَّ خَلِيلِي أَخْبَرَنِي أَنَّهُمْ: "ثَلَاثَةُ إِخْوَةٍ مِنَ الْجِنِّ، هَذَا أَكْبَرُهُمْ، وَالثَّانِي لَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ، وَالثَّلَاثُ فِيهِ ضَعْفٌ". قلت: ويحتمل -والله أعلم- أن ابن صياد هو الدجال الإنسي وأن الذي رآه تميم الداري في الجزيرة هو شيطانه الجني، وأن خروج الدجال الإنسي يكون مع شيطانه من قبل المشرق لما يؤذن بخروجه، وبهذا تجتمع جميع الأقوال، ويؤيد هذا ما صح من أن أصحاب المهدي الذين يقاتلون الدجال بالشام يقولون عن الدجال لما يحاصره: (هَذَا رَجُلٌ جَنِّيٌّ).

وحيث لم يرو عن صحابي واحد فيما أعلم أنه ينفي عن ابن صياد كونه الدجال مستنداً إلى حديث تميم الداري (حديث الجساسة)، بل حتى ابن صياد نفسه حين أراد أن ينفي عن نفسه أنه الدجال؛ لم يستند على حديث تميم الداري، وإنما تحجج بأمر آخرى كإسلامه ودخوله المدينة وسلامة عينيه وأن له ذرية وليس عقيماً، وكل ذلك قد يزول ويمنع عنه لما يؤذن له بالخروج، ولكون الصحابة إما بين جازم ومؤكد بالحلف أو ظان في كون ابن صياد هو الدجال، كما جاء عن عمر الجرم بذلك وحلفه على ذلك أمام النبي صلى الله عليه وسلم

مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الْأَعْوَرَ الْكَذَّابَ،
 أَنْذَرَهُ نُوحٌ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ بَعْدِهِ، وَإِنِّي أَنْذِرُكُمْوهُ، وَلَكِنِّي
 سَأَقُولُ لَكُمْ فِيهِ قَوْلًا لَمْ يَقُلْهُ نَبِيٌّ لِقَوْمِهِ، إِنَّهُ يَقُولُ: أَنَا
 رَبُّكُمْ، وَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ - عز وجل

وسكوت النبي عليه الصلاة والسلام وعدم تخطئته لعمر، وحلف جابر أيضاً على ذلك مع أنه من رواة حديث الجساسة، وهو الظاهر أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري كما في حديث سفره مع ابن صياد، وكذلك جزم ابن عمر بقوله: "والله ما أشك أن ابن صياد هو المَسِيحُ الدَّجَالُ"، وسبق ذكر قصته مع ابن صياد وفيها ظهور العلامات والقرائن كنفور عين ابن صياد وانتفاخه حتى ملأ السكة ونخيره وتعليق حفصة أم المؤمنين على تلك الواقعة بما يشبه الجزم بأنه الدجال، وقول أبي ذر كذلك، وأن أغلب حديث الناس في عهد الصحابة والتابعين أن ابن صياد هو الدجال كما هو الظاهر من قصته مع أبي سعيد وأن الناس تفرقوا عن ابن صياد لما نزلوا في ذلك السفر لظنهم فيه، وكون ذلك مستمراً بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وبعد انتشار حديث تميم الذي كان على الملأ في المسجد وجمع له الناس ونودي عليهم بـ (الصلاة جامعة)، ورواه عدد من الصحابة منهم فاطمة بنت قيس وثلاثة من المكثرين من رواية الحديث وهم : أبو هريرة وعائشة وجابر، ومع ذلك بقي جزم من علمنا خبرهم من الصحابة أو غلبة ظنهم في ابن صياد أنه هو المسيح الدجال، وحيث يتبعه قبائل الجن ويبعث الله معه شياطين تكلم الناس، ولعل منهم شيطان جزيرة الجساسة، والله أعلم.

- حَتَّى يَمُوتَ، رَأَيْتُهُ^(١) فَيَلْمَانِيَا^(٢) أَقْمَرَ هِجَانًا^(٣)، وَإِنَّهُ
 أَعْوَرَ عَيْنِ الْيُمْنَى وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، إِحْدَى عَيْنَيْهِ
 قَائِمَةٌ كَأَنَّهَا زُجَاجَةٌ خَضْرَاءُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ، كَانَ
 عَيْنُهُ عِنَبَةً طَافِيَةً، مَمْسُوحُ الْعَيْنِ الْيُسْرَى، مَطْمُوسُ
 الْعَيْنِ لَيْسَ بِنَاتِيَةٍ وَلَا حَجْرَاءُ، عَلَيْهَا ظَفَرَةٌ^(٤) غَلِيظَةٌ،
 وَإِنَّهُ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كُفْرٌ، كَفَرْتُ بِمَا كُفِّرْتُ بِهَا كُلُّ
 مُؤْمِنٍ، أُمِّي وَكَاتِبٌ، قَارِئٌ وَغَيْرُ قَارِئٍ، هِجَانٌ أَزْهَرُ^(٥)
 كَأَنَّ رَأْسَهُ أَصْلَةٌ^(٦) وَكَأَنَّ شَعْرَ رَأْسِهِ أَغْصَانُ شَجَرَةٍ،

(١) وذلك حين أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٢) عظيم الجسم.

(٣) أبيض البشرة.

(٤) أي : جلدة.

(٥) يعني : شديد البياض.

(٦) الأصله هي : الحية.

حُبُّكَ حُبُّكَ حُبُّكَ^(١)، قَصِيرٌ أَفْحَجُ^(٢)، يَهُودِيٌّ، عَقِيمٌ
لَا يُوَلِّدُ لَهُ، وَلَا يُسَخَّرُ لَهُ مِنَ الْمَطَايَا إِلَّا الْحِمَارُ، حِمَارٌ
يَرْكَبُهُ عَرَضٌ مَا بَيْنَ أَذُنَيْهِ أَرْبَعُونَ ذِرَاعًا، فَهُوَ رَجِسٌ عَلَى
رَجِسٍ، وَأَنَا آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنْتُمْ آخِرُ الْأُمَمِ، وَهُوَ خَارِجٌ
فِيكُمْ لَا مُحَالَةَ، فَإِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ، فَأَنَا حَاجِبُهُ
دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ؛ فَكُلُّ امْرِئٍ حَاجِبُ
نَفْسِهِ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ.

يَخْرُجُ فِي بَعْضِ مِنَ النَّاسِ، وَخِفَّةٍ مِنَ الدِّينِ، وَسُوءِ
ذَاتِ بَيْنٍ، وَيَذْهَبُ مَاءُ بُحَيْرَةِ الطَّبْرِیَّةِ وَعَيْنِ زُعَرَ، وَلَا
يُثْمِرُ نَخْلُ بَيْسَانَ الَّذِي بَيْنَ الْأُرْدُنِّ وَفِلَسْطِينَ، وَيَمُرُّ بِكُلِّ
مَاءٍ وَمَنْهَلٍ إِلَّا الْمَدِينَةَ وَمَكَّةَ حَرَّمَهُمَا اللَّهُ عَلَيْهِ، يَسِيرُ

(١) يعني: شَعْرُ رَأْسِهِ مُتَكَسِّرٌ مِنَ الْجُعُودَةِ.

(٢) يعني: إِذَا مَشَى بَاعَدَ بَيْنَ رِجْلَيْهِ.

مَعَهُ جِبَالُ الْخُبْزِ، وَأَنْهَارُ الْمَاءِ، وَالنَّاسُ فِي جَهْدٍ إِلَّا مَنْ
تَبِعَهُ، وَمَعَهُ نَهْرَانِ يَجْرِيَانِ، أَنَا أَعْلَمُ بِهِمَا مِنْهُ، نَهْرٌ يَقُولُ:
الْجَنَّةُ، وَنَهْرٌ يَقُولُ: النَّارُ، أَحَدُهُمَا رَأَى الْعَيْنِ مَاءً أَبْيَضُ،
وَالْآخَرُ رَأَى الْعَيْنِ نَارًا تَأْجَجُ، فَأَمَّا الَّذِي يَرَى النَّاسَ أَنَّهَا
النَّارُ، فَمَاءٌ بَارِدٌ عَذْبٌ، وَأَمَّا الَّذِي يَرَى النَّاسَ أَنَّهُ مَاءٌ
بَارِدٌ، فَنَارٌ تُحْرِقُ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلَا يَهْلِكَنَّ بِهِ،
فَلَيَاتِ النَّهْرَ الَّذِي يَرَاهُ نَارًا وَلْيَغْمِضْ عَيْنَيْهِ ثُمَّ لِيُطَاطِئِ
رَأْسَهُ فَيَشْرَبُ مِنْهُ، فَإِنَّهُ مَاءٌ بَارِدٌ، فَمَنْ أُدْخِلَ الَّذِي
يُسَمِّيهِ الْجَنَّةَ، فَهُوَ النَّارُ، وَمَنْ أُدْخِلَ الَّذِي يُسَمِّيهِ النَّارَ،
فَهُوَ الْجَنَّةُ، فَنَارُهُ جَنَّةٌ، وَجَنَّتُهُ نَارٌ، فَمَنْ وَقَعَ فِي نَارِهِ
وَجَبَ أَجْرُهُ وَحُطَّ وَزُرُّهُ، وَمَنْ وَقَعَ فِي نَهْرِهِ، وَجَبَ
وِزْرُهُ، وَحُطَّ أَجْرُهُ.

وَيَبْعَثُ اللَّهُ مَعَهُ شَيَاطِينَ تُكَلِّمُ النَّاسَ، فَيَقُولُ
لِلْأَعْرَابِيِّ: أَرَأَيْتَ إِنْ بَعَثْتُ لَكَ أَبَاكَ وَأُمَّكَ؟، أَتَشْهَدُ أَنِّي
رَبُّكَ؟، فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُ شَيْطَانَانِ فِي صُورَةِ أَبِيهِ
وَأُمِّهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: يَا بُنَيَّ اتَّبِعْهُ، فَإِنَّهُ رَبُّكَ، وَيَأْتِي عَلَى
الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ
السَّمَاءَ أَنْ تُمَطِّرَ، فَتُمْطِرُ، وَيَأْمُرُ الْأَرْضَ أَنْ تُنْبِتَ،
فَتُنْبِتُ، حَتَّى تَرَوْحَ مَوَاشِيَهُمْ مِنْ يَوْمِهِمْ ذَلِكَ أَسْمَنَ مَا
كَانَتْ، وَأَعْظَمَهُ، وَأَمَدَهُ خَوَاصِرَ وَأَدْرَهُ ضُرُوعًا، ثُمَّ يَأْتِي
الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ، فَيَكْذِبُونَهُ وَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَلَا تَبْقَى
لَهُمْ سَائِمَةٌ إِلَّا هَلَكَتْ، وَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ، فَتَتَّبِعُهُ أَمْوَالُهُمْ،
فَيُصْبِحُونَ مُمَحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ،
وَيَمُرُّ بِالْخَرِيبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكَ وَيَنْطَلِقُ، فَتَتَّبِعُهُ

كُنُوزَهَا كَيْعَاسِيبِ النَّحْلِ، فِي زَمَنِ لَا يَكَادُ يَجِدُ النَّاسُ
فِيهِ مَا يَتَقَوَّتُونَ بِهِ، وَيَكُونُ التَّسْبِيحُ وَالتَّهْلِيلُ يَغْنِي عَنْ
الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ.

مَنْ سَمِعَ بِالْذَّجَالِ فَلْيُنَأْ عَنْهُ؛ فَوَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ
لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنََّّهُ مُؤْمِنٌ، فَلَا يَزَالُ بِهِ حَتَّى يَتَّبِعَهُ،
لَمَّا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ، فَمَنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ فَلْيَتَّقِلْ فِي
وَجْهِهِ، وَلْيَقْرَأْ فَوَاتِحَ سُورَةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ.

لَبِثُهُ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعُونَ يَوْمًا: يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ
كَشَهْرٍ وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ وَيَوْمٌ كَالْأَيَّامِ، ثُمَّ سَائِرُ أَيَّامِهِ
كَأَيَّامِكُمْ، فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ؛ لَا تَكْفِي فِيهِ صَلَاةُ
يَوْمٍ، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ، وَآخِرُ أَيَّامِهِ كَالسَّرَابِ، يُصْبِحُ
الرَّجُلُ عِنْدَ بَابِ الْمَدِينَةِ فَيُمْسِي قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ بَابَهَا

الْآخِرَةَ، تَقْدُرُونَ فِيهَا ثُمَّ تُصَلُّونَ، كَمَا تَقْدُرُونَ فِي الْأَيَّامِ
الطَّوَالِ، وَإِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرْتُهُ الرِّيحُ،
وَتُطَوَّى لَهُ الْأَرْضُ طَيِّ فَرْوَةِ الْكَبِشِ.

وَلَا يَقْرُبُ أَرْبَعَةَ مَسَاجِدَ: مَسْجِدَ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدَ
الْمَدِينَةِ، وَالْمَسْجِدَ الْأَقْصَى، وَمَسْجِدَ الطُّورِ، وَلَا يَدْخُلُ
الْمَدِينَةَ رُغْبُ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ، فَلَا يَقْرُبُهَا الدَّجَالُ، وَلَا
الطَّاعُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَيَأْتِي الْمَسِيحُ الدَّجَالُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ وَهَمَّتُهُ
الْمَدِينَةُ فَيَغْلِبُ عَلَى خَارِجِهَا وَيَمْنَعُ دَاخِلَهَا، وَقَامَتْ
الْمَلَائِكَةُ بِأَبْوَابِهَا - وَلَهَا يَوْمٌ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ - عَلَى كُلِّ
نَقْبٍ مِنْهَا مَلَكَانِ، فَلَا يَأْتِيهَا مِنْ نَقْبٍ مِنْ نِقَابِهَا، إِلَّا
لَقِيَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِالسُّيُوفِ صَلْتَةً، حَتَّى يَنْزِلَ دُبُرُ أَحَدٍ،

فَيَصْعَدُ أَحَدًا فَيَطَّلِعُ فَيَنْظُرُ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَيَقُولُ
لِأَصْحَابِهِ أَلَا تَرَوْنَ إِلَى هَذَا الْقَصْرِ الْأَبْيَضِ، هَذَا مَسْجِدُ
أَحْمَدَ، فَيَأْتِي سَبْخَةَ الْجُرْفِ فَيَضْرِبُ رِوَاقَهُ ثُمَّ تَرْتَجِفُ
الْمَدِينَةُ ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ، فَلَا يَبْقَى مُنَافِقٌ وَلَا مُنَافِقَةٌ، وَلَا
فَاسِقٌ وَلَا فَاسِقَةٌ إِلَّا خَرَجَ إِلَيْهِ، فَتَخْلُصُ الْمَدِينَةُ وَذَلِكَ
يَوْمُ الْخَلَاصِ.

وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يُسَلِّطَ عَلَى نَفْسٍ وَاحِدَةٍ مِنْ بَنِي
آدَمَ فَيَقْتُلُهَا، ثُمَّ يُحْيِيهَا، وَأَنَّهُ لَا يَعْدُو ذَلِكَ، وَلَا يُسَلِّطُ
عَلَى نَفْسٍ غَيْرِهَا، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ يَوْمَئِذٍ رَجُلٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
مُتَمَلِّئًا شَبَابًا، هُوَ خَيْرُ النَّاسِ، أَوْ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ، فَتَلْقَاهُ
مَسَاحُ الدَّجَالِ، فَيَقُولُونَ لَهُ: أَيْنَ تَعْمِدُ؟ فَيَقُولُ: أَعْمِدُ
إِلَى هَذَا الَّذِي خَرَجَ، فَيَقُولُونَ لَهُ: أَوْ مَا تُؤْمِنُ بِرَبِّنَا؟

فَيَقُولُ: مَا بِرَبَّنَا خَفَاءُ، فَيَقُولُونَ: اقْتُلُوهُ، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَلَيْسَ قَدْ نَهَاكُم رَبُّكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا أَحَدًا دُونَهُ؟، فَيَنْطَلِقُونَ بِهِ إِلَى الدَّجَالِ، فَإِذَا رَأَاهُ الْمُؤْمِنُ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، هَذَا الدَّجَالُ الَّذِي ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَيَأْمُرُ الدَّجَالُ بِهِ فَيُشَبِّحُ^(١)، فَيَقُولُ: خُذُوهُ فَشُجُّوهُ فَيُوسِعُ ظَهْرُهُ وَبَطْنُهُ ضَرْبًا، فَيَقُولُ: أَوْ مَا تُؤْمِنُ بِي؟، فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّكَ الدَّجَالُ الَّذِي حَدَّثَنَا عَنْكَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَدِيثَهُ، فَيَقُولُ الدَّجَالُ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ قَتَلْتُ هَذَا ثُمَّ أَحْيَيْتُهُ؟، هَلْ تَشْكُونَ فِي الْأَمْرِ؟، فَيَقُولُونَ: لَا، فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ رَمِيَةً الْغَرَضَ فَيَقْطَعُهُ جَزَلَتَيْنِ، فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُنْشَرُ بِالْمِنْشَارِ مِنْ

(١) أَي: يَمْدُ لِلضَّرْبِ. وَالشَّبْحُ: مَدُّ الشَّيْءِ بَيْنَ أَوْتَادٍ كَالْجُلْدِ وَالْحَبْلِ.

مَفْرَقِهِ حَتَّى يُفَرِّقَ بَيْنَ رِجْلَيْهِ حَتَّى يُلْقَى شِقَّتَيْنِ، ثُمَّ يَمْشِي
الدَّجَالُ بَيْنَ الْقِطْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَقُولَ: انظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا،
فَإِنِّي أَبْعَثُهُ الْآنَ، ثُمَّ يَزْعُمُ أَنَّ لَهُ رَبًّا غَيْرِي، ثُمَّ يَدْعُوهُ يَقُولُ
لَهُ: قُمْ، فَيَبْعَثُهُ اللَّهُ، فَيَسْتَوِي قَائِمًا، وَيَقُولُ لَهُ الْخَبِيثُ
مَنْ رَبُّكَ؟ أَتُؤْمِنُ بِي؟ أَيُّهَا النَّاسُ، هَلْ يَفْعَلُ مِثْلَ هَذَا
إِلَّا الرَّبُّ؟، فَيَقْبِلُ إِلَيْهِ يَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ فَيَقُولُ:
رَبِّي اللَّهُ، وَأَنْتَ عَدُوُّ اللَّهِ، أَنْتَ الدَّجَالُ، وَاللَّهِ مَا أَرْدَدْتُ
فِيكَ إِلَّا بِصِيرَةٍ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَا يَفْعَلُ
بِعَدِي بِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ. فَيَأْخُذُهُ الدَّجَالُ لِيَذْبَحَهُ،
فَيَجْعَلُ مَا بَيْنَ رَقَبَتِهِ إِلَى تَرْقُوتِهِ نُحَاسًا، فَلَا يَسْتَطِيعُ إِلَيْهِ
سَبِيلًا، فَيَأْخُذُ بِيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ فَيَقْدِفُ بِهِ، فَيَحْسِبُ

النَّاسُ أَمَّا قَدْفَهُ إِلَى النَّارِ، وَإِنَّمَا أُلْقِيَ فِي الْجَنَّةِ، فَهَذَا أَعْظَمُ
النَّاسِ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

ثُمَّ تَصَرَّفُ الْمَلَائِكَةُ وَجْهَهُ قِبَلَ الشَّامِ، ثُمَّ يَسِيرُ
حَتَّى يَأْتِيَ الشَّامَ، وَيَتَّبِعُ الدَّجَالَ مِنْ يَهُودِ أَصْبَهَانَ
سَبْعُونَ أَلْفًا، عَلَيْهِمُ الطَّلَاسَةُ^(١)، عَلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ
سَاجٌ^(٢) وَسَيْفٌ مُحَلَّى.

ثُمَّ يَأْتِي إِبِلْيَاءَ (القدس)، وَالْعَرَبُ يَوْمَئِذٍ قَلِيلٌ،
وَجُلُّهُمْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَإِمَامُهُمْ رَجُلٌ صَالِحٌ، فَيَفِرُّ
الْمُسْلِمُونَ إِلَى جَبَلِ الدُّحَانِ بِالشَّامِ، فَيَأْتِيهِمْ
فَيَحَاصِرُهُمْ، فَيَشْتَدُّ حِصَارُهُمْ، وَيُجْهِدُهُمْ جَهْدًا شَدِيدًا،

(١) جمع طيلسان وهو كساء يغطي به الرأس أو على الكتف يلبس فوق الثياب يشبه الغترة.

(٢) هو الطيلسان الأخضر أو الأسود أو المدور.

فَيَقُولُ لَهُمُ الَّذِينَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّحَرِ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، مَا
يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَخْرُجُوا إِلَى الْكَذَّابِ الْخَبِيثِ ؟ مَا تَنْتَظِرُونَ
بِهَذَا الطَّاعِيَةِ أَنْ يُقَاتِلُوهُ حَتَّى تَلْحَقُوا بِاللَّهِ أَوْ يُفْتَحَ
لَكُمْ ، فَيَقُولُونَ : هَذَا رَجُلٌ جَنِّيٌّ ، فَيَأْتِمِرُونَ أَنْ يُقَاتِلُوهُ إِذَا
أَصْبَحُوا .

نزول عيسى ابن مريم وقتله الدجال

فَبَيْنَمَا إِمَامُهُمْ قَدْ تَقَدَّمَ يُصَلِّي بِهِمُ الصُّبْحَ ، إِذْ نَزَلَ
عَلَيْهِمْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ - عَلَيْهِ السَّلَام - عِنْدَ الْمَنَارَةِ
الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ ، بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ ^(١) وَاضِعًا كَفَّهُ
عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَينِ ، إِذَا طَاطَأَ رَأْسَهُ قَطْرٌ ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ

(١) ثوبين مصبوغين بالهَرْد وهو : الكركم .

مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ، وَيُحَدِّثُهُمْ
بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ تَقَدَّمْ يَا رُوحَ اللَّهِ،
صَلِّ لَنَا، فَيَقُولُ: لَا، لِيَتَقَدَّمَ إِمَامُكُمْ فَلْيُصَلِّ بِكُمْ، إِنَّ
بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ، تَكْرِمَةُ اللَّهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ، فَيُصَلِّي
بِهِمْ إِمَامُهُمْ، فَإِذَا انْصَرَفَ قَالَ عِيسَى: افْتَحُوا الْبَابَ،
فَيُفْتَحُ وَوَرَاءَهُ الدَّجَالُ، مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ يَهُودِيٍّ، كُلُّهُمْ
ذُو سَيْفٍ مُحَلَّى وَسَاجٍ، فَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ الدَّجَالُ، ذَابَ كَمَا
يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ، وَيَنْطَلِقُ هَارِبًا، فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ
يَجِدُ رِيحَ نَفْسِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إِلَّا مَاتَ، وَنَفْسُهُ يَنْتَهِي
حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ فَيَطْلُبُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ الدَّجَالُ
حَتَّى يُدْرِكَهُ بِفِلَسْطِينَ عِنْدَ بَابِ اللِّدِّ الشَّرْقِيِّ فَيَقْتُلُهُ.

انهزام اليهود وقتلهم

وَيَهْزِمُ اللَّهُ الْيَهُودَ، فَلَا يَبْقَى شَيْءٌ مِمَّا خَلَقَ اللَّهُ
يَتَوَارَى بِهِ يَهُودِيٌّ، إِلَّا أَنْطَقَ اللَّهُ ذَلِكَ الشَّيْءَ، لَا حَجَرَ
وَلَا شَجَرَ، وَلَا حَائِطَ، وَلَا دَابَّةً إِلَّا قَالَ: يَا مُسْلِمُ، يَا عَبْدَ
اللَّهِ، هَذَا يَهُودِيٌّ يَخْتَبِئُ وَرَائِي، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ. إِلَّا الْغَرَقَدَ
لَا تَنْطِقُ فَإِنَّهَا مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ، فَلَا يَتْرُكُ مِمَّنْ كَانَ
يَتَّبِعُهُ أَحَدًا إِلَّا قَتَلَهُ.

خروج يأجوج ومأجوج

فَيَلْبَثُ كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُوحِي اللَّهُ إِلَيْهِ أَنِّي
قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرَّزُ
عِبَادِي إِلَى الطُّورِ، وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ

كَمَا قَالَ اللَّهُ: (مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ)، فَيَعْمُونَ
 الْأَرْضَ، وَيَنْحَازُ مِنْهُمْ الْمُسْلِمُونَ، وَلَا يَبْقَى مِنَ النَّاسِ
 أَحَدٌ إِلَّا فِي حِصْنٍ أَوْ مَدِينَةٍ، وَيَضُمُّونَ إِلَيْهِمْ مَوَاشِيَهُمْ،
 وَيَشْرَبُونَ مِيَاهَ الْأَرْضِ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبْرِيةَ
 فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، ثُمَّ يَمُرُّ بِهَا آخِرُهُمْ، فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ
 بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ، ثُمَّ يَسِيرُونَ حَتَّى يَنْتَهَوْا إِلَى جَبَلٍ بَيْتِ
 الْمَقْدِسِ، فَيَقُولُونَ: لَقَدْ قَتَلْنَا مَنْ فِي الْأَرْضِ، هَلُمَّ
 فَلْنَقْتُلْ مَنْ فِي السَّمَاءِ، فَيَرْمُونَ بِنُشَابِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ،
 فَيَرُدُّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نُشَابَهُمْ مَخْضُوبَةً دَمًا لِلْبَلَاءِ وَالْفِتْنَةِ
 فَيَقُولُونَ: قَدْ قَتَلْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ، وَيُحَاصِرُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى
 وَأَصْحَابُهُ، حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ
 دِينَارٍ لِأَحَدِكُمْ الْيَوْمَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ

إِلَى اللَّهِ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّعْفَ^(١) فِي رِقَابِهِمْ فَيَقْتُلُهُمْ
بِهَا، فَيُضْبِحُونَ فَرَسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، يَرْكَبُ
بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَيُضْبِحُ الْمُسْلِمُونَ لَا يَسْمَعُونَ لَهُمْ
حِسًّا، فَيَقُولُونَ: مَنْ رَجُلٌ يَشْرِي نَفْسَهُ وَيَنْظُرُ مَا
فَعَلُوا؟، فَيَنْزِلُ رَجُلٌ مِنْهُمْ لِذَلِكَ مُحْتَسِبًا لِنَفْسِهِ، قَدْ
وَطَّنَهَا عَلَى أَنَّهُ مَقْتُولٌ، فَيَجِدُهُمْ مَوْتَى بَعْضُهُمْ عَلَى
بَعْضٍ، فَيُنَادِي يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أَلَا أَبْشَرُوا، فَإِنَّ اللَّهَ
قَدْ كَفَاكُمْ عَدُوَّكُمْ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ
إِلَى الْأَرْضِ، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ
زَهْمُهُمْ وَنَشْتُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى

(١) النَّعْفُ: دود يكون في أنوف الإبل والغنم، الواحدة: نغفة.

اللَّهُ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَغْنَقِ الْبُخْتِ^(١)، فَتَحْمِلُهُمْ
فَتَطْرَحُهُمْ بِالْمَهِيلِ^(٢).

جمال الحياة في زمن المسيح ابن مريم

ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا لَا يَكُنُّ^(٣) مِنْهُ بَيْتٌ مَدَرٍ وَلَا
وَبَرٍّ، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَقَةِ^(٤)، كَفَاثُورِ^(٥)
الْفِضَّةِ، وَيَسْتَوْقِدُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ قِسِيِّهِمْ وَنَشَابِهِمْ
وَأَتْرَسَتِهِمْ سَبْعَ سِنِينَ، وَيُقَالُ لِلْأَرْضِ: أَنْبِي ثَمَرَتِكَ
وَرُدِّي بَرَكَتَكَ بِعَهْدِ آدَمَ فَلَوْ بَذَرْتَ حَبَّكَ عَلَى الصِّفَا

(١) البخت: نوع من الجمال طوال الأعناق.

(٢) الهوة الداهية في الأرض والهوي من رأس الجبل. وقيل: مطلع الشمس، أو اسم لموضع، وقيل: مكان بيت المقدس.

(٣) أي: لا يمنع من نزول الماء بيت، والمدر هو الطين الصلب.

(٤) الزلقة: المرأة، وشبهها بالمرأة في صفاتها ونظافتها.

(٥) الفاثورة: المائدة، أو الطست، والإناء الواسع.

لَتَبْتَ فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ
 بِقِحْفِهَا ^(١) وَيَجْتَمِعُ النَّفَرُ عَلَى الْقُطْفِ مِنَ الْعِنَبِ
 فَيُشْبِعُهُمْ، وَيَكُونُ الثَّوْرُ بِكَذَا وَكَذَا مِنَ الْمَالِ، وَتَكُونُ
 الْفَرَسُ بِالذَّرِيهَمَاتِ وَيُبَارِكُ فِي الرِّسْلِ ^(٢) حَتَّى إِنَّ
 الْفَنَامَ ^(٣) مِنَ النَّاسِ لَيَكْتَفُونَ بِاللَّقْحَةِ ^(٤) مِنَ الْإِبِلِ، وَإِنَّ
 الْقَبِيلَةَ لَيَكْتَفُونَ بِاللَّقْحَةِ مِنَ الْبَقَرِ، وَإِنَّ الْفُخْدَ مِنَ
 النَّاسِ لَيَكْتَفُونَ بِاللَّقْحَةِ مِنَ الْغَنَمِ.

(١) القشر المقعر.

(٢) اللبن.

(٣) الفئام: الجماعة الكثيرة.

(٤) الحلوب.

المسيح ابن مريم يحكم العالم بالإسلام

فَيَمُوتُ عِيسَى - عليه السلام - فِي أُمَّتِي أَرْبَعِينَ سَنَةً
 حَكَمًا عَدْلًا، وَإِمَامًا مُقْسِطًا فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ
 الْخِنْزِيرَ وَيَضَعُ الْجُزْيَةَ وَتُجْمَعُ لَهُ الصَّلَاةُ وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى
 الْإِسْلَامِ وَيُهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الْمَلَلَ كُلَّهَا غَيْرَ الْإِسْلَامِ،
 وَيَنْزِلُ بِفَجِّ الرُّوحَاءِ^(١)، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لِيُهْلَنَ^(٢)
 مِنْهَا حَاجًا أَوْ مُعْتَمِرًا، أَوْ لِيُثْنِيَهُمَا جَمِيعًا، ثُمَّ لئن قَامَ عَلَى
 قَبْرِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، لَأُجِيبَنَّه، وَيَتْرَكَ الصَّدَقَةَ، فَلَا
 يُسْعَى عَلَى شَاةٍ وَلَا بَعِيرٍ، وَتُرْفَعُ الشَّحَنَاءُ وَالتَّبَاغُضُ لَيْسَ
 بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ وَتُمْلَأُ الْأَرْضُ مِنَ السَّلَامِ كَمَا يُمْلَأُ الْإِنَاءُ

(١) (فَجِّ الرُّوحَاءِ): بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَكَانَ طَرِيقُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى بَدْرٍ وَإِلَى مَكَّةَ عَامَ الْفَتْحِ، وَعَامَ حَجَّةِ الْوُدَاعِ.
 (٢) الْإِهْلَالُ: رَفْعُ الصَّوْتِ بِالتَّلْبِيَةِ.

مِنَ الْمَاءِ، وَتَضَعُ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا وَتَكُونُ الْكَلِمَةُ وَاحِدَةً،
 فَلَا يُعْبَدُ إِلَّا اللَّهُ، وَتَسْلُبُ قُرَيْشٌ مُلْكَهَا^(١)، وَتُنَزَعُ حُمَةٌ
 كُلُّ ذَاتِ حُمَةٍ حَتَّى يُدْخَلَ الْوَلِيدُ يَدَهُ فِي فِي الْحَيَّةِ فَلَا
 تَضُرُّهُ، وَتُفَرِّ الْوَلِيدَةُ الْأَسَدَ كَمَا تُفَرُّ وَلَدَ الْكَلْبِ الصَّغِيرِ
 فَلَا يَضُرُّهَا، وَيَكُونُ الذُّبُّ فِي الْغَنَمِ كَأَنَّهُ كَلْبُهَا، طُوبَى
 لِعَيْشٍ بَعْدَ الْمَسِيحِ، طُوبَى لِعَيْشٍ بَعْدَ الْمَسِيحِ، وَيَمُكُّثُ
 فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، ثُمَّ يُتَوَفَّى وَيُصَلَّى عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ
 وَيَدْفِنُونَهُ {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ
 مَوْتِهِ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} .

(١) (وَتَسْلُبُ) أي: تأخذ (قُرَيْشٌ مُلْكَهَا) من أيدي الكفرة والظلمة؛
 لأن المهدي من سلالة قريش؛ مِنْ سَلَبِ الْمُجَاهِدِ سَلَبَ قَتِيلَهُ .

طلوع الشمس من مغربها

ثلاث إذا خرجن ، لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن
آمنت من قبل ، أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع
الشمس من مغربها^(١) ، والدجال ودابة الأرض.

والشمس كُلَّمَا غَرَبَتْ فَإِنَّهَا تَعْرُبُ فِي عَيْنِ حَامِيَةٍ
تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ فَسَجَدَتْ
وَاسْتَأْذَنْتْ فِي الرُّجُوعِ^(٢)، فَأُذِنَ لَهَا، حَتَّى إِذَا بَدَأَ لِلَّهِ أَنْ
تَطْلُعَ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَعَلَتْ كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ، أَتَتْ تَحْتَ
الْعَرْشِ فَسَجَدَتْ، فَاسْتَأْذَنْتْ فِي الرُّجُوعِ، فَلَمْ يُرَدَّ عَلَيْهَا

(١) وهي أَوَّلُ الآيَاتِ العظام المؤذنة بتغيير أحوال العالم العلوي خُرُوجًا .

(٢) قال القرطبي: عبارة عن انتهائها إلى أن تُسامت جزءاً من العرش معلوماً بحيث تخضع عنده وتذل، وهو المعبر عنه بسجودها، وتستأذن في سيرها المعتاد لها من ذلك المحل .

شَيْءٌ، ثُمَّ تَسْتَأْذِنُ فِي الرُّجُوعِ فَلَا يُرَدُّ عَلَيْهَا شَيْءٌ، ثُمَّ
تَسْتَأْذِنُ، فَلَا يُرَدُّ عَلَيْهَا شَيْءٌ، حَتَّى إِذَا ذَهَبَ مِنَ اللَّيْلِ
مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَذْهَبَ، وَعَرَفَتْ أَنََّّهُ إِنْ أُذِنَ لَهَا فِي
الرُّجُوعِ لَمْ تُدْرِكِ الْمَشْرِقَ، قَالَتْ: رَبِّ مَا أَبْعَدَ الْمَشْرِقَ،
مَنْ لِي بِالنَّاسِ؟، فَيُقَالُ لَهَا: مِنْ مَكَانِكَ فَاطْلُعِي،
فَطَلَعَتْ عَلَى النَّاسِ مِنْ مَغْرِبِهَا فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى:
{وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}،
فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَأَاهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَذَاكَ حِينَ {لَا
يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي
إِيْمَانِهَا خَيْرًا} .

خروج الدابة

وُخْرِجَ الدَّابَّةُ عَلَى النَّاسِ ضُحَى^(١) تَكَلَّمَ النَّاسُ
وَتَسَمَّ النَّاسَ عَلَى خِرَاطِمِهِمْ^(٢)، ثُمَّ يَغْمُرُونَ فِيكُمْ حَتَّى
يَشْتَرِي الرَّجُلُ الْبَعِيرَ فَيَقُولُ: اشْتَرَيْتَهُ مِنْ أَحَدِ
الْمَخْطَمِينَ^(٣).

وَإِنَّهَا تَخْرُجُ ثَلَاثَ خَرْجَاتٍ فِي بَعْضِ الْبَوَادِي، ثُمَّ
تَكْمُنُ، ثُمَّ تَخْرُجُ فِي بَعْضِ الْقُرَى حَتَّى يُدْعَرُوا وَحَتَّى
تُهْرِيقَ فِيهَا الْأَمْرَاءُ الدَّمَاءَ، ثُمَّ تَكْمُنُ، فَبَيْنَمَا النَّاسُ عِنْدَ
أَعْظَمِ الْمَسَاجِدِ وَأَفْضَلِهَا وَأَشْرَفِهَا؛ إِذِ ارْتَفَعَتِ الْأَرْضُ

(١) تلي طلوع الشمس.

(٢) أنوفهم.

(٣) الخطم والمخطم: الأنف. ومنه سمي : الخطام. والمقصود
بالمخطم : الموسوم بعلامة على أنفه.

وَيَهْرُبُ النَّاسُ، وَيَبْقَى عَامَّةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَقُولُونَ: إِنَّهُ
لَنْ يُنَجِّينَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ شَيْءٌ، فَتَخْرُجُ فَتَجْلُو وَجُوهَهُمْ
حَتَّى تَجْعَلَهَا كَالْكَوَاكِبِ الدَّرِّيَّةِ، ثُمَّ تَنْطَلِقُ تَتَّبِعُ النَّاسَ
فَتَخْطِمُ الْكَافِرَ وَتَجْلُو وَجْهَ الْمُؤْمِنِ، وَتَأْتِي الرَّجُلَ وَهُوَ
يُصَلِّي فَتَقُولُ: وَاللَّهِ مَا كُنْتُ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ، فَيَلْتَفِتُ
إِلَيْهَا فَتَخْطِمُهُ، ثُمَّ لَا يَنْجُو مِنْهَا هَارِبٌ وَلَا يَدْرِكُهَا
طَالِبٌ. وَالنَّاسُ يَوْمَئِذٍ حَيْرَانٌ فِي الرَّبَاعِ^(١)، شُرَكَاءُ فِي
الْأَمْوَالِ، أَصْحَابٌ فِي الْأَسْفَارِ.

(١) الرَّبَاعُ: -بكسر الراء، وتخفيف الموحدة: جمع رَبْع - بفتح، فسكون،
كسهم وسهم: وهي محلة القوم، ومنزلهم، وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى الْقَوْمِ
مَجَازًا.

نار تخرج من عدن تحشر الناس للشام

ثُمَّ تَخْرُجُ نَارٌ مِنَ الْيَمَنِ مِنْ قَعْرِ عَدْنٍ تَسُوقُ النَّاسَ
إِلَى مُحَشَرِهِمْ (أرض الشام) فَتَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا،
وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا.

الريح الطيبة تقبض أرواح المؤمنين

ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحًا كَرِيحِ الْمِسْكِ، مَسُّهَا مَسُّ
الْحَرِيرِ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، فَلَا تَتْرُكُ
عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدًا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ
إِلَّا قَبَضَتْهُ، تَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاتِهِمْ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ
دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ، لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ.

اختفاء أثر الإسلام ورفع القرآن

وَيَدْرُسُ^(١) الْإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ^(٢)، لَا يَدْرِي مَا صِيَامٌ وَلَا صَدَقَةٌ وَلَا نَسْكَ، وَيَسْرَى عَلَى كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي لَيْلَةٍ فَيَرْفَعُ إِلَى السَّمَاءِ فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَلَا مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَلَا الزَّبُورِ^(٣)، وَيُنْتَزَعُ مِنْ قُلُوبِ الرِّجَالِ فَيُضْبِحُونَ وَلَا يَدْرُونَ مَا هُوَ، وَيَبْقَى طَوَائِفٌ مِنَ النَّاسِ الشَّيْخَ الْكَبِيرَ وَالْعَجُوزَ الْكَبِيرَةَ يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَنَحْنُ نَقُولُهَا، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يَحْجِجَ الْبَيْتَ.

(١) تختفي معالمه.

(٢) وَشْيُ الثَّوْبِ: نَقْشُهُ. وَالْوَشْيُ خَلْطُ لَوْنٍ بِلَوْنٍ.

(٣) فِيهِ إِشَارَةٌ أَنَّهُ بَاقٍ مِنْهَا شَيْءٌ مِمَّا لَمْ يَحْرَفْ مِنَ الْحَقِّ.

تقوم الساعة على شرار الناس

ثُمَّ يَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ، فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ، وَأَحْلَامِ
السَّبَاعِ، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا يَتَسَاءَدُونَ
فِي الطَّرِيقِ تَسَاءَدَ الْحَمِيرِ^(١)، هُمْ شَرُّ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ،
فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَجِيبُونَ؟،
فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرُنَا؟، فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَهُمْ فِي
ذَلِكَ دَارٌ رَزَقَهُمْ حَسَنٌ عَيْشُهُمْ، لَا يَدْعُونَ اللَّهَ بِشَيْءٍ إِلَّا
رَدَّهُ عَلَيْهِمْ^(٢) فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ .

(١) أي: يجامع الرجال النساء بحضرة الناس كما يفعل الحمير، ولا يكثرثون لذلك .

(٢) لا يستجيب دعاءهم لقبح حالهم وسوء صنيعهم .

وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا،
 فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ وَلَا يَطْوِيَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انْصَرَفَ
 الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِفَحْتِهِ ^(١) فَلَا يَطْعُمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ
 يُلِيطُ حَوْضَهُ ^(٢) فَلَا يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ
 رَفَعَ أَكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ، فَلَا يَطْعَمُهَا.

النفخة الأولى (الصعق) والثانية

(البعث)

وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ ^(٣) يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْعَقُ مَنْ فِي
 السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ فَأُصْعَقُ مَعَهُمْ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ

(١) ناqqته .

(٢) يطئنه .

(٣) وهو قرنٌ يُنْفَخُ فِيهِ .

أُخْرَى فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ، أَوَّلَ مَنْ يُفِيْقُ، فَإِذَا
 مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَام - آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ فَلَا
 أَذْرِي، أَكَانَ فِيمَنْ صُعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي، أَوْ كَانَ مِمَّنْ
 اسْتَثْنَاهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فَحُوسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ
 الطُّورِ. وَمَا بَيْنَ التَّفَخُّتَيْنِ أَرْبَعُونَ ^(١) .

(١) قال أصحاب أبي هريرة له :أربعون يوماً ؟ قال أبو هريرة : أبيت .
 قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : أبيت قالوا : أربعون سنة ؟ قال : (أبيت) أي :
 أبيت أن أجزم أن المراد أربعون يوماً ، أو سنة ، أو شهراً ، بل الذي أجزم
 به أنها أربعون مجملة . قال النووي : وقد جاءت مفسرة من رواية غير
 مسلم (أربعون سنة) .

الحياة البرزخية في القبر

اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ^(١)، اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ مِنَ السَّمَاءِ، يَبِضُّ الْوُجُوهَ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ حَرِيرَةٌ بَيْضَاءُ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ^(٢)، ثُمَّ يُجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: اخْرُجِي أَيْتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَأَنَّكَ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً اخْرُجِي رَاضِيَةً مَرْضِيًّا عَنْكَ

(١) موت الإنسان هو بداية آخرته، فبداية اليوم الآخر لكل إنسان بحسبه، فمن مات في أي وقت فقد قامت قيامته، وانتهت دنياه وبدأ في طريق الآخرة، أما يوم البعث ويوم الحشر فهو لكل الناس.

(٢) أي: قريباً منه مع كمال الأدب، يَنْتَظِرُونَ خُرُوجَ الرُّوحِ مِنْهُ.

اُخْرِجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ وَأَبْشِرِي بِرُوحٍ
وَرِيحَانٍ وَرَبِّ غَيْرِ غَضَبَانٍ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى
تَخْرُجَ، فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السَّقَاءِ،
فَيَأْخُذُهَا مَلَكُ الْمَوْتِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَيَخْرُجُ مِنْهَا
كَأَطْيَبِ رِيحٍ مِسْكٍ وَجَدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَإِذَا
أَخَذَهَا، لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا
حَتَّى أَنَّهُ لَيُنَاوِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ثُمَّ يَجْعَلُونَهَا فِي ذَلِكَ
الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ فَيَتَلَقَّاهَا مَلَكَانِ يُصْعِدَانِهَا
حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى [بَابِ] السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ
لَهُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ: مَا أَطْيَبَ هَذِهِ الرَّيْحَ،
رُوحٌ طَيِّبَةٌ جَاءَتْكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، مَنْ هَذَا؟، فَيَقُولُونَ:
فُلَانٌ بَنُ فُلَانٍ - بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا

فِي الدُّنْيَا - فَيَقَالُ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي
 الْجَسَدِ الطَّيِّبِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ، وَعَلَى جَسَدٍ كُنْتَ
 تَعْمُرِيهِ ادْخُلِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرُوحٍ وَرِيحَانٍ، وَرَبِّ
 غَيْرِ غَضَبَانَ وَيَشِيعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ
 الَّتِي تَلِيهَا قَالَ: فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا
 إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ الَّتِي فِيهَا اللَّهُ - عز وجل - فَيُنْطَلَقُ
 بِهِ إِلَى رَبِّهِ - عز وجل - فَيَقُولُ اللَّهُ - عز وجل - : اكْتُبُوا
 كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا
 خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أَعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أَخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى،
 قَالَ: فَتَعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَإِنَّهُ
 لَيَسْمَعُ قَرَعَ نِعَالِهِمْ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ
 أَسْوَدَانِ أَرْقَانِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَالْآخَرُ: النَّكِيرُ

فَيَجْلِسَانِهِ غَيْرَ فَرِيعٍ وَلَا مَشْعُوفٍ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: هَلْ رَأَيْتَ اللَّهَ؟، فَيَقُولُ: مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَرَى اللَّهَ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟، فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ، الَّذِي يُعْثَ فِيكُمْ فَيَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا يُدْرِيكَ؟، فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَأَمَنْتُ بِهِ وَجَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَصَدَّقْنَاهُ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ - عز وجل - : {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ}، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ أَنْ: صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ،

فَيَقُولَانِ لَهُ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، فَيُفْرَجُ لَهُ
فُرْجَةٌ قَبْلَ النَّارِ، فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَقَالُ
لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَا وَقَاكَ اللَّهُ، ثُمَّ يُفْرَجُ لَهُ قَبْلَ الْجَنَّةِ، فَيَنْظُرُ
إِلَى زَهْرَتِهَا وَمَا فِيهَا، فَيَقَالُ لَهُ: هَذَا مَقْعَدُكَ، فَيَأْتِيهِ مِنْ
رُوحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ
فِيهِ، وَيَقَالُ لَهُ: عَلَى الْيَقِينِ كُنْتَ، وَعَلَيْهِ مِتَّ، وَعَلَيْهِ
تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمْ، فَيَقُولُ: دَعُونِي
أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي فَأُبَشِّرُهُمْ، فَيَقُولَانِ لَهُ: نَمْ كَنُومَةَ الْعُرُوسِ
الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ
مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ
الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرَّيْحِ، فَيَقُولُ: أَبَشِّرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا
يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟

فَوَجَّهَكَ الْوَجْهَ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ،
 فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي.
 فَيَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ مِنْ
 أَحَدِكُمْ بِغَائِبِهِ يَقْدَمُ عَلَيْهِ، فَيَسْأَلُونَهُ مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ؟،
 مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ؟، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَنْظِرُوا أَخَاكُمْ
 حَتَّى يَسْتَرِيحَ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي كَرْبٍ، فَيَقْبِلُونَ عَلَيْهِ
 يَسْأَلُونَهُ: مَا فَعَلَ فُلَانٌ؟، مَا فَعَلَتْ فُلَانَةٌ؟، هَلْ
 تَزَوَّجَتْ؟، فَإِذَا سَأَلُوا عَنِ الرَّجُلِ قَدْ مَاتَ قَبْلَهُ، قَالَ
 لَهُمْ: إِنَّهُ قَدْ هَلَكَ، أَمَا أَتَاكُمْ؟، قَالُوا: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ
 رَاجِعُونَ، ذَهَبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الْهَآوِيَةِ، فَبِئْسَتِ الْأُمُّ،
 وَبِئْسَتِ الْمُرَبِّيَّةُ، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ، فَإِذَا رَأَوْا
 حَسَنًا، فَرِحُوا وَاسْتَبَشَرُوا، وَقَالُوا: اللَّهُمَّ هَذِهِ نِعْمَتُكَ

عَلَى عَبْدِكَ فَأَتَمَّهَا، وَإِنْ رَأَوْا سُوءًا قَالُوا: اللَّهُمَّ رَاجِعْ
بِعَبْدِكَ ^(١).

وَإِنَّ الْكَافِرَ الرَّجُلَ السَّوَّاءَ إِذَا اخْتُصِرَ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ
الْعَذَابِ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ ^(٢) فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ
مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ،
فَيَقُولُ: اخْرُجِي أَتَيْتَهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ كَأَنْتِ فِي الْجَسَدِ
الْخَبِيثِ، اخْرُجِي ذَمِيمَةً اخْرُجِي سَاخِطَةً مَسْخُوطًا
عَلَيْكَ إِلَى عَذَابِ اللَّهِ - عز وجل - وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ
وَعَسَاقٍ، وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٍ. فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ،
فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ
فَتَتَقَطَّعُ مَعَهَا الْعُرُوقُ وَالْعَصَبُ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنَّ نِيحَ

(١) أَي: رُدَّهُ إِلَى دِينِكَ وَطَاعَتِكَ.

(٢) الْمُسُوحُ : جمع مُسَح وهو ثوب من شعر أسود.

جِيفَةً وَجَدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا
 فِي يَدِهِ طَرْفَةً عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ ثُمَّ
 يُعْرِجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَلَا يُفْتَحُ لَهَا، فَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ:
 مَا أَنْتَنَ هَذِهِ الرِّيحَ، رُوحٌ خَبِيثَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الْأَرْضِ،
 مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ بْنُ فُلَانٍ - بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي
 كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا - فَيَقَالُ: لَا مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ
 الْخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، ارْجِعِي ذَمِيمَةً، فَإِنَّهَا لَا
 تُفْتَحُ لَكَ أَبْوَابُ السَّمَاءِ {إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
 وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ
 الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْجَأَ الْجِمْلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
 الْمُجْرِمِينَ} فَيَقُولُ اللَّهُ - عز وجل - : اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي
 سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا {وَمَنْ

يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ، فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ { فَيُرْسَلُ بِهَا مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ.

وَيَأْتِيهِ الْمَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فِي قَبْرِهِ فَرِعًا مَشْعُوفًا
فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟، فَيَقُولُ: هَاهُ، هَاهُ لَا أَدْرِي،
فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟، فَيَقُولُ: هَاهُ، هَاهُ لَا أَدْرِي،
فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي بُعِثَ
فِيكُمْ؟، فَيَقُولُ: هَاهُ، هَاهُ لَا أَدْرِي سَمِعْتُ النَّاسَ
يَقُولُونَ قَوْلًا فَقُلْتُ مِثْلَهُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا
تَلَيْتَ، قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ. ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ
مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا
الْخَلْقُ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ فَيُفْرَجُ لَهُ قَبْلَ الْجَنَّةِ، فَيَنْظُرُ إِلَى زَهْرَتِهَا

وَمَا فِيهَا، فَيَقُولَانِ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَا صَرَفَ اللَّهُ عَنْكَ، ثُمَّ
يُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قَبْلَ النَّارِ، فَيَنْظُرُ إِلَيْهَا يَحِطُّمُ بَعْضُهَا
بَعْضًا، فَيَقُولَانِ لَهُ: هَذَا مَقْعَدُكَ، عَلَى الشَّكِّ كُنْتَ،
وَعَلَيْهِ مُتَّ، وَعَلَيْهِ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. فَيُنَادِي
مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الْأَجَلِ
حَتَّى تَأْتُوا بِهِ أَرْوَاحُ الْكُفَّارِ فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَأَلْبِسُوهُ
مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا
وَسُمُومِهَا وَيُضَيِّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ فَيَقَالُ لِلْأَرْضِ: التَّيَّمِّي عَلَيْهِ
فَتَلْتَمِعُ عَلَيْهِ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهَا أَضْلَاعُهُ فَلَا يَزَالُ فِيهَا
مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ
قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ
بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ:

مَنْ أَنْتَ؟، فَوَجَّهَكَ الْوَجْهَ الَّذِي يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ:
 أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ، ثُمَّ
 يُقَيِّضُ لَهُ أَعْمَى أَبْكُمْ لَا يَسْمَعُ صَوْتَهُ فَيَرْحَمُهُ مَعَهُ مِرْزَبَةً
 مِنْ حَدِيدٍ، لَوْ ضَرَبَ بِهَا جَبَلٌ لَصَارَ تُرَابًا، فَيَضْرِبُهُ بِهَا
 ضَرْبَةً يَسْمَعُهَا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، إِلَّا الثَّقَلَيْنِ،
 فَيَصِيرُ تُرَابًا، ثُمَّ تُعَادُ فِيهِ الرُّوحُ.

نزول ماء الحياة ونمو الأجساد

ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءَ الْحَيَاةِ فَتَنْبُتُ مِنْهُ
 أَجْسَادُ النَّاسِ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ^(١) وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ

(١) أي ينبت الخلائق من ذلك الماء كما ينبت البقل والخضروات من المطر أي فإذا تهيأت الأجسام وكملت نُفَخَ في الصور نفخة البعث فخرجت الأرواح من المحال التي هي فيها، فتأتي كل روح إلى جسدها فيحييه الله بها، كل ذلك في لحظة بدليل قوله تعالى: {فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ}.

شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجَبُ الذَّنْبِ^(١)،
لَا تَأْكُلُهُ الْأَرْضُ أَبَدًا فَإِنَّهُ مِنْهُ خُلِقَ^(٢) وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى إِذَا أُخْرِجَتِ الْأَجْسَادُ، أَرْسَلَ اللَّهُ
الْأَرْوَاحَ، وَكَانَ كُلُّ رُوحٍ أَسْرَعَ إِلَى صَاحِبِهِ مِنَ الطَّرْفِ،
ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ أُخْرَى، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ،
مَحْشُورُونَ حُفَاةَ عُرَاءَ غَزَلًا.

أول من تنشق عنه الأرض

إِنِّي لَأَوَّلُ النَّاسِ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَنْ جُمُجُمَتِي يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَلِوَاءِ الْحَمْدِ بِيَدِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا
فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ

(١) هُوَ الْعَظْمُ اللَّطِيفُ الَّذِي فِي أَسْفَلِ الصُّلْبِ وَهُوَ رَأْسُ الْعُصْعُصِ.

(٢) أَيُّ: ابْتَدِئَ مِنْهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ أَوَّلًا.

يَوْمَئِذٍ -آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ- إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ
يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ.

الأرض يوم القيامة

يَطْوِي اللهُ - عز وجل - السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،
ثُمَّ يَأْخُذُهَا بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضَيْنِ، ثُمَّ يَأْخُذُهَا
بِيَدِهِ الْأُخْرَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا اللهُ، أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا
الْمُتَكَبِّرُ، أَنَا الْمُتَعَالِي، أَنَا الْكَرِيمُ، أَنَا الْمَلِكُ، أَأَيْنَ مُلُوكُ
الْأَرْضِ؟ أَأَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَأَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟.

وَيُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ
كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ^(١) لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ.

إخراج بعث النار وهول الموقف

وَأَوَّلُ مَنْ يُدْعَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ آدَمُ، فَيُنَادِيهِ رَبُّهُ تَعَالَى
فَيَقُولُ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ يَا رَبِّ وَسَعْدَيْكَ، فَتَرَاهُ
ذُرِّيَّتَهُ، فَيُقَالُ: هَذَا أَبُوكُمْ آدَمُ، فَيَقُولُ لَهُ رَبُّنَا: أَخْرِجْ
نَصِيبَ جَهَنَّمَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَكَمْ أَخْرِجُ؟،
فَيَقُولُ اللَّهُ - عز وجل - : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ، تِسْعَ مِائَةٍ
وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ، فَحِينَئِذٍ
يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى

(١) (النَّقِي): حُبْز الدَّقِيقِ الْخَوَّارِي، وَهُوَ النَّظِيفُ الْأَبْيَضُ.

النَّاسَ سُكَارَى، وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ
شَدِيدٌ.

وَيُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ، {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ
مَسْئُولُونَ} ، فَذَلِكَ يَوْمٌ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا، وَذَلِكَ يَوْمٌ
يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ، يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ مِقْدَارَ
نِصْفِ يَوْمٍ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، فَيَهْوُونَ ذَلِكَ الْيَوْمَ
عَلَى الْمُؤْمِنِ، كَتَدَلَّى الشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ، إِلَى أَنْ تَغْرُبَ.

اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّكُمْ
لَمَعَ خَلِيقَتَيْنِ مَا كَانَتْ مَعَ شَيْءٍ إِلَّا كَثَرَتْهُ ؛ يَا أَجُوجُ
وَمَاجُوجُ، فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلًا، وَمِنْ يَا أَجُوجَ وَمَاجُوجَ أَلْفًا،
وَمَنْ هَلَكَ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَبَنِي إِبْلِيسَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ
إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا

ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ،
مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ، إِلَّا كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدٍ ثَوْرٍ
أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعْرَةِ بَيْضَاءٍ فِي جِلْدٍ ثَوْرٍ أَسْوَدَ.

انتظار فصل القضاء

وَيَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِمِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ
فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ قِيَامًا أَرْبَعِينَ سَنَةً، شَاخِصَةً أَبْصَارُهُمْ
إِلَى السَّمَاءِ يَنْتَظِرُونَ فَصْلَ الْقَضَاءِ، يُبْصِرُهُمُ النَّاطِرُ،
وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَنَجِيءٌ نَحْنُ^(١) فَوْقَ النَّاسِ، وَمَا جِ
النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ.

(١) في زيادة : عَلَى كَذَا وَكَذَا انْظُرْ أَيُّ ذَلِكَ.

دنو الشمس

وَتَدْنُو مِنْهُمْ الشَّمْسُ عَلَى قَدَرٍ مِيلٍ وَيُزَادُ فِي حَرِّهَا
كَذَا وَكَذَا، يَغْلِي مِنْهَا الْهَوَاءُ كَمَا تَغْلِي الْقُدُورُ، فَيَكُونُ
النَّاسُ عَلَى قَدَرٍ أَعْمَالِهِمْ وَخَطَايَاهُمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ
مَنْ يَبْلُغُ الْعَرَقُ إِلَى كَعْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ الْعَرَقُ إِلَى
سَاقِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ الْعَرَقُ إِلَى وَسْطِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ
يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ الْجَمَامًا^(١)، وَيُطَوِّلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى النَّاسِ،
فَيَبْلُغُ النَّاسُ مِنَ النِّعَمِ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا
يَحْتَمِلُونَ، فَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَتَغَشَّاهُ الْمَوْتُ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَهُوَ
عَلَيْهِ كَالزَّكَمَةِ.

(١) وَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ . يَعْنِي :
إِلَى فَمِهِ .

الشفاعة في الخلاص من كرب المحشر

وَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ، فَيَقُولُ

بَعْضُ النَّاسِ: أَلَا تَرَوْنَ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟، أَلَا تَرَوْنَ إِلَى مَا

بَلَّغَكُمْ؟، أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ لَوْ

اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا فَيُرِيحُنَا مِنْ مَكَانِنَا. فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ

لِبَعْضٍ: انْطَلِقُوا بِنَا إِلَى آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ فَيَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّنَا

فَلْيَقْضِ بَيْنَنَا. فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ آدَمُ أَبُو

الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَعَلَّمَكَ

أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَأَسْكَنَكَ جَنَّتَهُ،

أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟، أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟ فَاشْفَعْ

لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، فَيَقُولُ آدَمُ:

وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ؟ لَسْتُ

بِصَاحِبِ ذَلِكَ، إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ
يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ
نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي اذْهَبُوا
إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ
إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ. فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ
أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ^(١)، وَسَمَّاكَ اللَّهُ {عَبْدًا
شَكُورًا} اشفع لنا إلى ربِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟،
أَلَا تَرَى إِلَى مَا بَلَّغْنَا؟، فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ -
سُؤَالَهُ رَبَّهُ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ -، فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي - عز

(١) وَقَدْ اسْتَشْكَلَتْ هَذِهِ الْأَوَّلِيَّةُ بَأَنَّ آدَمَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَكَذَا شَيْثٌ وَإِدْرِيسُ
وَهُمْ قَبْلَ نُوحٍ ، وَالْجَوَابُ أَنَّ الْأَوَّلِيَّةَ هُنَا مُقْبِدَةٌ بِقَوْلِهِ (أَهْلُ الْأَرْضِ)
لَأَنَّ آدَمَ وَمَنْ ذَكَرَ مَعَهُ لَمْ يُرْسَلُوا إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَبَعَثَتْهُ إِلَى أَهْلِ
الْأَرْضِ بِاعْتِبَارِ الْوَاقِعِ لِيُصَدِّقَ أَنَّهُمْ قَوْمُهُ، بِخِلَافِ عُمُومِ بَعَثَةِ نَبِيِّنا
مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقَوْمِهِ وَلِغَيْرِ قَوْمِهِ ، وَأَنَّ رِسَالَةَ آدَمَ كَانَتْ
إِلَى بَنِيهِ وَهُمْ مُوَحِّدُونَ لِيُعْلِمَهُمْ شَرِيعَتَهُ، وَنُوحٌ كَانَتْ رِسَالَتُهُ إِلَى قَوْمٍ
كَفَّارٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ .

وجل - قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ،
وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا
عَلَى قَوْمِي، إِنِّي دَعَوْتُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ دَعْوَةً فَأُهْلِكُوا.
نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى
إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ. فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا
إِبْرَاهِيمُ، أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا
إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟. فَيَقُولُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ:
لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ.
وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ. وَهِيَ قَوْلُهُ: {إِنِّي
سَقِيمٌ} وَقَوْلُهُ: {بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا} وَقَوْلُهُ فِي
الْكُوكَبِ: {هَذَا رَبِّي} ^(١)، وَأَتَى عَلَى جَبَّارٍ مُتْرَفٍ وَمَعَهُ

(١) تقدم أن الثلاث في ذات الله ليحاج قومه.

أَمْرَاتُهُ، فَقَالَ: أَخْبِرِيهَ أَنِّي أَخُوكَ فَإِنِّي مُحِبُّهُ أَنْكَ أُخْتِي^(١)،
 إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ،
 وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا
 إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، عَبْدًا اصْطَفَاهُ اللَّهُ
 بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ وَقَرَّبَهُ نَجِيًّا. فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُونَ:
 يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَصَلِّكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ
 عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟
 فَيَذْكُرُ مُوسَى خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ، فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ
 غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ
 بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أَوْمَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي،
 نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ

(١) يعني في الدين .

مَرْيَمَ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولَهُ، وَرُوحَ اللَّهِ وَكَلِمَتِهِ. فَيَأْتُونَ
 عِيسَى فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَلِمَتُهُ
 أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ
 صَبِيًّا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟
 فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ
 يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ - وَلَمْ يَذْكُرْ
 عِيسَى ذَنْبًا -، نَفْسِي، نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي،
 اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، عَبْدِ غَفَرِ اللَّهِ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا
 تَأَخَّرَ، وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، فَإِنَّهُ قَدْ حَضَرَ الْيَوْمَ، أَرَأَيْتُمْ لَوْ
 كَانَ مَتَاعٌ فِي وِعَاءٍ قَدْ خُتِمَ عَلَيْهِ، هَلْ كَانَ يُقَدَّرُ عَلَى مَا
 فِي الْوِعَاءِ حَتَّى يُفْضَ الْخَاتَمُ؟، فَيَقُولُونَ: لَا، قَالَ: فَإِنَّ
 مُحَمَّدًا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وسلم - : فَيَأْتُونِي، وَإِنِّي لَقَائِمٌ أَنْتَظِرُ أُمَّتِي تَعْبُرُ عَلَى الصَّرَاطِ، إِذْ جَاءَنِي عِيسَى فَقَالَ: هَذِهِ الْأَنْبِيَاءُ قَدْ جَاءَتْكَ يَجْتَمِعُونَ إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، وَيَدْعُونَ اللَّهَ أَنْ يُفَرِّقَ جَمْعَ الْأُمَمِ إِلَى حَيْثُ يَشَاءُ اللَّهُ لِعَمِّ مَا هُمْ فِيهِ، فَالْخَلْقُ مُلْجَمُونَ فِي الْعَرَقِ، فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ فَلْيَقْضِ بَيْنَنَا، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟، أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟، فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا، أَنْتَظِرُ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْكَ، -فَيَوْمَئِذٍ يَبْعَثُهُ اللَّهُ مَقَامًا مَحْمُودًا، يَحْمَدُهُ أَهْلُ الْجَمْعِ كُلُّهُمْ-. فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَآتِي بَابَ الْجَنَّةِ، فَآخُذُ بِحُلْقَةِ الْبَابِ فَأَقْعُقُهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟، فَأَقُولُ: مُحَمَّدُ، فَيَفْتَحُونَ لِي، وَيُرَحِّبُونَ بِي، فَيَقُولُونَ:

مَرْحَبًا فَإِذَا الْجَبَّارُ - عز وجل - مُسْتَقْبِلِي فَأَخِرُّ سَاجِدًا،
ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ
شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَيَّ أَحَدٍ قَبْلِي ^(١)، فَأَوْحَى اللَّهُ - عز وجل -
- إِلَى جِبْرِيلَ: اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ لَهُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ
رَأْسَكَ، وَاشْفَعْ تَشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَهُ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ.
فَارْفَعْ رَأْسِي فَأَقُولُ: أُمِّي يَا رَبِّ، أُمِّي يَا رَبِّ، أُمِّي يَا
رَبِّ فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ادْخُلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ
عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ
النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ
- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ مَا

(١) فَلَقِيَ نَبِيُّ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا لَمْ يَلْقَ مَلَكٌ مُصْطَفًى
، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ.

بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجْرٍ
أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى .

العرض والحساب وصحف الأعمال

وَإِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ^(١)
وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟، فَيَقُولُ: نَعَمْ،
فَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟، فَيَقُولُ: نَعَمْ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ
بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ
فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ ثُمَّ يُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ
بِيَمِينِهِ، { فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا } وهذا هو
العرض .

(١) الكنف : الستر. أي يستره فَلَا يَفْضَحُهُ.

وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فإِنَّهُمْ لَا يُحَاسِبُونَ مُحَاسَبَةً
 مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ؛ فَإِنَّهُ لَا حَسَنَاتٍ لَهُمْ وَلَكِنْ
 تُعَدُّ أَعْمَالُهُمْ وَتُخْصَى فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا وَيَقَرَّرُونَ بِهَا
 وَيُجْزَوْنَ بِهَا، وَيُوتُونَ كُتُبَهُمْ بِشِمَالِهِمْ مِنْ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ،
 فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ: {هَؤُلَاءِ الَّذِينَ
 كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ، أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}. {وَقَدِمْنَا
 إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} {فَلَا نُقِيمُ
 لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا} (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا
 نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ، أُولَئِكَ
 الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا
 وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ)،

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) .

الميزان

ويوضع الميزان له كفتان يوم القيامة، فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعهن، فتقول الملائكة: يا رب لمن يزن هذا؟ فيقول: لمن شئت من خلقي فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك. {فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ} .

الحوض

وَفِي مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ: الْحَوْضُ الْمَوْرُودُ لِمُحَمَّدٍ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى
مِنَ الْعَسَلِ آيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ طُولُهُ شَهْرٌ وَعَرْضُهُ
شَهْرٌ مَنْ يَشْرَبُ مِنْهُ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا.

كل أمة تتبع ما كانت تعبد

ثُمَّ يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ تُعْرَضُ كَأَنَّهَا سَرَابٌ، فَيَدْعَى الْيَهُودُ،
فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟، قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عَزِيرَ ابْنِ
اللَّهِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ، مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا
وَلَدٍ، فَمَا تُرِيدُونَ؟، قَالُوا: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ
إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِيدُونَ؟ اشْرَبُوا، فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا

سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقُطُونَ فِي النَّارِ، ثُمَّ
يُدْعَى النَّصَارَى، فَيَقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟، قَالُوا:
كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ، فَيَقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ، مَا اتَّخَذَ
اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَمَا تُرِيدُونَ؟، فَيَقُولُونَ:
عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا، فَيُشَارُّ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟، اشْرَبُوا،
فَيُنَادِي مُنَادٍ فَيَقُولُ: لَتَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، مَنْ
كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ. فَيُمَثِّلُ لِصَاحِبِ الصَّلِيبِ
صَلِيبُهُ، وَيُمَثِّلُ لِمَنْ كَانَ يَعْبُدُ عِيسَى شَيْطَانُ عِيسَى،
وَيُمَثِّلُ لِمَنْ كَانَ يَعْبُدُ عَزِيرًا شَيْطَانُ عَزِيرٍ، وَيُمَثِّلُ
لِصَاحِبِ التَّصَاوِيرِ تَصَاوِيرُهُ، وَلِصَاحِبِ النَّارِ نَارُهُ،
وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسُ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ
يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرُ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ

الطَّوَاعِيتَ، فَيَذْهَبُ أَصْحَابُ الصَّلَيبِ مَعَ صَلِيبِهِمْ،
وَأَصْحَابُ الْأَوْثَانِ مَعَ أَوْثَانِهِمْ، وَأَصْحَابُ كُلِّ إِلَهَةٍ مَعَ
إِلَهَتِهِمْ، فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ، يَخْطِمُ بَعْضُهَا
بَعْضًا، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنْ
الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقُطُونَ فِي النَّارِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ
إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ، وَغَيْرِ مَنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ.

بقاء أمة التوحيد يقودهم ربهم إلى

الجنة

حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ بَرٍّ
أَوْ فَاجِرٍ، فِيهَا مُنَافِقُوهَا وَبَقَايَا أَهْلِ الْكِتَابِ - وَقَلَّ لَهُمْ

بِيَدِهِ - . فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ - عز وجل - فِي غَيْرِ الصُّورَةِ الَّتِي
يَعْرِفُونَ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ - وَالْمُؤْمِنُونَ عَلَى كَوْمٍ - . فَيَقُولُ
لَهُمْ: مَا بَالُ النَّاسِ ذَهَبُوا وَأَنْتُمْ هَاهُنَا؟ مَا يَحْبِسُكُمْ وَقَدْ
ذَهَبَ النَّاسُ؟ مَا تَنْتَظِرُونَ؟ أَلَا تَتَّبِعُونَ النَّاسَ؟ لِيَتَّبِعُ
كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ. فَلَا يُكَلِّمُهُ إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ، فَيَقُولُونَ:
فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا عَلَى أَفْقَرٍ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ
نُصَاحِبْهُمْ، وَإِنَّمَا نَنْتَظِرُ رَبَّنَا الَّذِي كُنَّا نَعْبُدُ، فَيَقُولُ: أَنَا
رَبُّكُمْ. فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا -
مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا - هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا أَتَانَا رَبُّنَا
عَرَفْنَاهُ. - وَهُوَ يَأْمُرُهُمْ وَيُثَبِّتُهُمْ - فَيَقُولُ: هَلْ
تَعْرِفُونَهُ؟، فَيَقُولُونَ: إِذَا تَعَرَّفَ إِلَيْنَا عَرَفْنَاهُ. فَيَقُولُ:
هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا؟، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ،

السَّاقُ. ثُمَّ يَأْتِينَا رَبُّنَا بَعْدَ ذَلِكَ فَيَقُولُ: مَنْ تَنْظُرُونَ؟،
 فَيَقُولُونَ: نَنْظُرُ رَبَّنَا، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: حَتَّى
 نَنْظُرَ إِلَيْكَ. قال الصحابةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهَلْ نَرَى
 رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟، فَقَالَ: " هَلْ تُضَارُّونَ ^(١) فِي رُؤْيَةِ
 الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ صَحْوَاً لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ؟"، قُلْنَا: لَا
 يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: " هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةً
 الْبَدْرِ صَحْوَاً لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟"، قُلْنَا: لَا يَا رَسُولَ
 اللَّهِ، قَالَ: " فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ، لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ
 رَبِّكُمْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَيْهِمَا، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ
 فِي الصُّورَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَ فَيَتَجَلَّى لَنَا صَاحِغًا وَيَكْشِفُ رَبُّنَا

(١) أي: تضرون؛ لأن الضير: المضرة، من قوله تعالى: {قَالُوا لَا ضَيْرَ}.
 أي: لا تضرون أحداً، ولا يضركم بمنازعة، ولا مجادلة، ولا مضايقة.
 وفي رواية: "تَضَامُونَ" بضم أوله من الضيم، أي: تلحقكم مشقة. وفي
 أخرى: بفتح التاء وتشديد الضاد والميم معاً (تَضَامُونَ): تتفاعلون
 من التزاحم والانضمام.

عَنْ سَاقِهِ فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ،
 إِلَّا أَذِنَ اللَّهُ لَهُ بِالسُّجُودِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ،
 وَيَبْقَى كُلُّ مُنَافِقٍ وَمَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً
 يَجْعَلُ اللَّهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ
 عَلَى قَفَاهُ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْجُدَ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى:
 {يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا
 يَسْتَطِيعُونَ}، ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ
 الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ: أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّبِعُونِي.
 فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبَّنَا. فَيَتَّبِعُونَهُ فَيَقُودُهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ.

نور المؤمن والمنافق قبل الصراط

وَيُعْطَى كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مُنَافِقٍ أَوْ مُؤْمِنٍ نُورًا،
 فَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ مِثْلَ الْجَبَلِ الْعَظِيمِ يَسْعَى بَيْنَ

يَدِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ
يُعْطَى نُورًا مِثْلَ النَّخْلَةِ يَمِينِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورًا
أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى يَكُونَ رَجُلٌ يُعْطَى نُورَهُ عَلَى إِبْهَامِ
قَدَمِهِ، يُضِيءُ مَرَّةً، وَيُطْفِئُ مَرَّةً، فَإِذَا أَضَاءَ قَدَّمَ قَدَمَهُ
فَمَشَى، وَإِذَا طُفِئَ قَامَ .

المرور على الصراط

ثُمَّ يُؤْتَى بِالْجَسْرِ (الصَّراطِ) مَدْحَضَةً مَرَلَةً، مِثْلَ
حَدِّ السَّيْفِ الْمُرْهَفِ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرَانِي جَهَنَّمَ، وَالرَّبِّ
- عز وجل - أَمَامَهُمْ يَقُولُ: مُرُّوا. وَفِي حَافَتِي الصَّراطِ
خَطَاطِيفٌ وَكَلَالِبُ وَحَسَكَةٌ مُفْلَطَحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ
عَقِيفَاءُ مِثْلُ شَوْكِ تَكُونُ بِنَجْدٍ يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ، غَيْرَ
أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عَظَمِهَا إِلَّا اللَّهُ، مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ

أُمِرْتُ بِهِ، فَتَخَطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ. وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ
وَالرَّحِمُ، فَتَقُومَانِ جَنَبَيِ الصَّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا، قَدْ تَبَيَّنَ
لَكُمْ يَوْمَئِذٍ مِنَ الْمُؤْمِنِ. فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرُّسُلِ
بِأَمَّتِهِ، فَيُطْفَأُ نُورُ الْمُنَافِقِينَ، وَيَنْجُوا الْمُؤْمِنُونَ، فَتَنْجُو
أَوَّلُ زُمْرَةِ كَالْبَرْقِ، أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمْزُ وَيَرْجِعُ فِي
طَرْفَةِ عَيْنٍ؟، وَجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، سَبْعُونَ أَلْفًا
لَا يُحَاسِبُونَ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ كَأَضْوَاءِ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ
كَذَلِكَ، ثُمَّ كَمَرَّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرَّ الطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ
وَالرَّكَّابِ، وَآخِرُونَ يَسْعَوْنَ سَعْيًا، وَآخِرُونَ يَمْشُونَ
مَشْيًا، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ، وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصَّرَاطِ
يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ. وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا الرُّسُلُ،
وَدُعَاءُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ. فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ،

وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمِنْهُمْ الْمُخْرَدَلُ ثُمَّ يَنْجُو، حَتَّى تَعْجَرَ
 أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَمُرَّ الَّذِي أُعْطِيَ نُورَهُ عَلَى إِبْهَامِ
 قَدَمَيْهِ، يَحْبُو عَلَى وَجْهِهِ وَيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ، تَخْرُ رِجْلُ،
 وَتَعْلُقُ رِجْلُ، وَيُصِيبُ جَوَانِبَهُ النَّارُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ
 إِلَّا زَحْفًا، يُسْحَبُ سَحْبًا، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَخْلَصَ،
 فَإِذَا خَلَصَ وَقَفَ عَلَيْهَا ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، لَقَدْ أَعْطَانِي
 اللَّهُ مَا لَمْ يُعْطِ أَحَدًا، أَنْ نَجَّيَنِي مِنْهَا بَعْدَ إِذْ رَأَيْتُهَا. إِنَّ
 قَعَرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيفًا، فَمِنْهُمْ الْمُؤْمِنُ بَقِيَ بِعَمَلِهِ
 وَمِنْهُمْ الْمُجَازِي حَتَّى يُنَجَّى وَمِنْهُمْ مَنْ يُوبَقُ بِعَمَلِهِ،
 مَكْدُوشٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ. ثُمَّ يُقَالُ لِجَهَنَّمَ: هَلْ امْتَلَأَتْ؟،
 فَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟، ثُمَّ يُطْرَحُ فِيهَا فَوْجٌ، فَيُقَالُ: هَلْ
 امْتَلَأَتْ؟، فَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟، حَتَّى إِذَا أَوْعِبُوا فِيهَا

وَضَعَ الرَّحْمَنُ قَدَمَهُ فِيهَا، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ
وَتَقُولُ: قَطٌّ، قَطٌّ بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ.

القنطرة بعد الصراط

فإذا عبر المؤمنون الصراط وقفوا على قنطرة^(١) بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض قصاصاً تزول به الأحقاد والبغضاء ليدخلوا الجنة إخواناً متصافين، فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم بدخول الجنة، ولا يدخلونها أيضاً إلا بعد أن يَسْتَأْذِنَ لهم أو يشفع لهم نبينا صلى الله عليه وسلم، وهذه من خصائصه ومن مميزاته، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا.

(١) جسر صغير.

شفاعة النبي فيمن دخل النار من أمته

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :

فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فِي دَارِهِ، فَيُؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ، فَأَدْخُلُ، فَإِذَا

الْجَبَّارُ - عز وجل - مُسْتَقْبِلِي، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ

سَاجِدًا، وَيُلْهِمُنِي مُحَمَّدَ أَحْمَدُهُ بِهَا، لَا تَحْضُرُنِي الْآنَ،

فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، فَيَدْعُنِي اللَّهُ مَا شَاءَ أَنْ

يَدْعَنِي، ثُمَّ يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ،

وَأَشْفَعْ تُشَفِّعْ، وَسَلْ تُعْطَ. فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ: يَا رَبِّ،

أُمَّتِي، أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ

مِثْقَالَ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَانْطَلِقْ فَأَفْعَلْ، فَأَدْخِلْهُمْ الْجَنَّةَ.

ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا،

فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ وَسَلْ

تُعْطِ، وَاشْفَعْ تُشَفِّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي، أُمَّتِي، يَا رَبِّ
أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ خَرْدَلَةٌ. فَيَقُولُ: انْطَلِقْ،
فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ
فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا. فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ. ثُمَّ أَعُودُ
فَأُحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا
مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمِعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطِ، وَاشْفَعْ
تُشَفِّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي، أُمَّتِي، أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ
فِي قَلْبِهِ أَذْنَى شَيْءٍ. - قَالَ أَنَسٌ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَصَابِعِ
رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ
فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَذْنَى أَذْنَى أَذْنَى مِثْقَالِ حَبَّةٍ
خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ، قَالَ: فَأَنْطَلِقُ
فَأَفْعَلُ، فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، وَيُخْرِجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ

إِلَّا اللَّهَ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، ثُمَّ يُخْرِجُ
 مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْخَيْرِ
 مَا يَزِنُ بُرَّةً، ثُمَّ يُخْرِجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَانَ
 فِي قَلْبِهِ مَا يَزِنُ مِنَ الْخَيْرِ ذَرَّةً. قَالَ : ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ،
 فَأُحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا
 مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمِعُ، وَسَلْ تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ
 تُشَفَّعَ. فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ
 الْقُرْآنُ وَوَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ. يَا رَبِّ، ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ:
 لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَيَقُولُ: هَذِهِ لَيْسَتْ لَكَ يَا مُحَمَّدُ، وَلَا
 لِأَحَدٍ، هَذِهِ لِي، وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَرَحْمَتِي، لَا أَدْعُ فِي النَّارِ
 أَحَدًا يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَكِبْرِيَايَ
 وَعَظَمَتِي لأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَوْمًا

وَاحِدًا مُخْلِصًا، وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ. وَهَذَا هُوَ الْمَقَامُ
الْمَحْمُودُ لِنَبِينَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {عَسَى أَنْ
يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا}.

شفاعة المؤمنين في إخوانهم

حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ
نَجَوْا، قَوْلَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مُجَادَلَةٌ أَحَدِكُمْ لِصَاحِبِهِ فِي
الْحَقِّ يَكُونُ لَهُ فِي الدُّنْيَا، بِأَشَدِّ مُجَادَلَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
لِرَبِّهِمْ فِي إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ أُدْخِلُوا النَّارَ؛ يَقُولُونَ: رَبَّنَا،
إِخْوَانُنَا كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيَصُومُونَ مَعَنَا، وَيَحُجُّونَ
مَعَنَا، وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا، فَأَدْخَلْتَهُمُ النَّارَ. أَمَّا أَهْلُ النَّارِ
الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَإِنَّ
أَهْلَ النَّارِ الَّذِينَ يُرِيدُ اللَّهُ - عز وجل - إِخْرَاجَهُمْ، يُمِيتُهُمْ

فِيهَا إِمَاتَةٌ، حَتَّى يَصِيرُوا فَحْمًا، حَتَّى إِذَا فَرَّغَ اللَّهُ مِنْ
الْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ وَأَرَادَ رَحْمَةً مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ
مِمَّنْ كَانَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ
يُخْرِجُوهُمْ وَأَذِنَ بِالشَّفَاعَةِ فَقَالَ لَهُمْ: اذْهَبُوا فَأَخْرِجُوا
مَنْ عَرَفْتُمْ مِنْهُمْ، فَيَعْرِفُونَهُمْ بِصُورِهِمْ دَارَاتِ وُجُوهِهِمْ،
لَا تَأْكُلُ النَّارُ صُورَهُمْ وَيَعْرِفُونَهُمْ بِآثَارِ السُّجُودِ، فَكُلُّ ابْنِ
آدَمَ تَأْكُلُهُ النَّارُ، إِلَّا أَثَرُ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ
تَأْكُلَ أَثَرُ السُّجُودِ. فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا، مِنْهُمْ مَنْ
أَخَذَتْهُ النَّارُ إِلَى كَعْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ النَّارُ إِلَى
نِصْفِ سَاقِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ النَّارُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ،
وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ النَّارُ إِلَى حُجْرَتِهِ ^(١) وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ

(١) الحجرة: معقد الإزار والسراويل.

النَّارُ إِلَىٰ عُنُقِهِ، قَدْ اُمْتُحِشُوا^(١) وَعَادُوا حُمَمًا^(٢)،
فَيُخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ خَلْقًا كَثِيرًا، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرُ
ضَبَائِرِ^(٣)، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ فِيهِ كَمَا تَنْبُتُ
الْحَبَّةُ^(٤) فِي حَمِيلِ^(٥) السَّيْلِ، أَلَا تَرَوْنَ مَا يَكُونُ مِنَ
النَّبْتِ إِلَى الشَّمْسِ يَكُونُ أَخْضَرَ، وَمَا يَكُونُ إِلَى الظِّلِّ
يَكُونُ أَصْفَرَ؟ أَلَمْ تَرَوْهَا كَيْفَ تَنْبُتُ صَفَرَاءَ مُلْتَوِيَةً؟،
فَيُخْرِجُونَ مِنْ أَجْسَادِهِمْ مِثْلَ اللُّؤْلُؤِ، فِي أَغْنَائِهِمُ الْخَاتَمُ:
عَتَقَاءُ اللَّهِ، فَيَقَالُ لَهُمْ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ، فَمَا تَمَنَّيْتُمْ أَوْ رَأَيْتُمْ
مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ لَكُمْ. ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ

(١) أي: احترقوا، والمحش: احتراق الجلد وظهور العظم.

(٢) الحمم: جمع الحممة، وهي الضحمة.

(٣) الضبائر: جماعات في تفرقة.

(٤) الحبَّة - بكسر الحاء وتشديد الباء -، وجمعها: حَبَب - بكسر الحاء وفتح الباء المخففة - وهي: اسم لبذر العشب. وقيل: التشبيه لبياضها، وسرعة نباتها لأنها تنبت في يوم وليلة، وهو أسرع النبات.

(٥) الحميل: ما يجيء به السيل من طين أو غثاء وغيره.

أَمَرْتَنَا بِهِ، فَيَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ
 دِينَارٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ
 يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا، فَيَقُولُ:
 ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ
 فَأَخْرِجُوهُ، قَالَ: فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا
 لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا، فَيَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ
 وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ خَيْرٍ
 فَأَخْرِجُوهُ، قَالَ: فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا
 لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا أَحَدًا، فَيَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ
 وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ^(١) فَأَخْرِجُوهُ، قَالَ:
 فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا.

(١) والإيمان قول وعمل، ومنه أعمال القلوب وأعمال الجوارح، والله أعلم.

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا} .

دخول أهل الجنة الجنة

يقول نبينا محمد عليه الصلاة والسلام: آتِي بَابَ
الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟،
فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ، لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ.
يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي أَوَّلُ زُمْرَةٍ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ
حِسَابٍ، مَتَمَاسِكُونَ آخِذٌ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، لَا يَدْخُلُ
أَوَّلُهُمْ حَتَّى يَدْخُلَ آخِرُهُمْ، تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ
لَيْلَةَ الْبَدْرِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوَكَبٍ دُرِّيٍّ فِي
السَّمَاءِ إِضَاءَةً، ثُمَّ هُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مَنَازِلُ، وَيُنَادِي مُنَادٍ:

إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا
 فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشْبُوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ
 لَكُمْ أَنْ تَعْمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ - عز وجل
 -: {وَنُودُوا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}،
 لَا تَبْلَى ثِيَابُهُمْ وَلَا يَبْصُقُونَ فِيهَا، وَلَا يَمْتَخِطُونَ وَلَا
 يَبُولُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، وَيَكُونُ طَعَامُهُمْ ذَلِكَ جُشَاءً،
 آيَتُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، وَأَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ
 وَالْفِضَّةِ، وَرَشْحُهُمْ ^(١) الْمِسْكُ، وَوَقُودُ مَجَامِرِهِمُ الْأَلْوَةُ
 الْأَنْجُوجُ ^(٢)، يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا تُلْهَمُونَ
 النَّفْسَ، أَخْلَقَهُمْ عَلَى خُلُقٍ رَجُلٍ وَاحِدٍ، قُلُوبُهُمْ عَلَى
 قَلْبٍ رَجُلٍ وَاحِدٍ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، أَبْنَاءُ

(١) يعني رائحة عرقهم.

(٢) يعني : الْعُودُ الْهِنْدِيُّ الْجَيِّدُ الَّذِي يُتَبَخَّرُ بِهِ.

ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ، سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي
السَّمَاءِ فِي سَبْعَةِ أَذْرُعٍ عَرْضًا، جُرْدٌ مُرْدٌ^(١)، مُكْحَلُونَ،
بَيْضٌ جَعَادٌ^(٢)، أَزْوَاجُهُمُ الْخُورُ الْعَيْنُ، لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ
زَوْجَتَانِ عَلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً يَرَى مَخَّ سَوْقِهِمَا
مِنْ وَرَاءِ الْعَظْمِ وَاللَّحْمِ وَالثِّيَابِ مِنَ الْحُسْنِ، كَمَا يُرَى
الشَّرَابُ الْأَحْمَرُ فِي الزُّجَاجَةِ الْبَيْضَاءِ، وَمَا فِي الْجَنَّةِ
أَعْزَبُ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا.

وَتَكُونُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُبْزَةً وَاحِدَةً يَتَكَفَّوْهَا
الْجَبَّارُ بِيَدِهِ كَمَا يَكْفَأُ أَحَدُكُمْ خُبْزَتَهُ فِي السَّفَرِ نَزْلًا لِأَهْلِ

(١) الأجرد: هو الذي لا شعر على جسده. والأمرد: هو الذي لم يبلغ سن إنبات شعر لحيته، والمقصود هنا أن أهل الجنة ليس على وجوههم ولا على أجسادهم شعر، كشعر الرجلين والعانة والإبط، وغيره مما هو شعر زائد.

(٢) الجعد: هو ما فيه التواء في شعره وانقباض، لا كمفضل السودان، وفيه جمال ودلالة على قوة البدن.

الْجَنَّةِ، إِذَا مَهُم بِالْأَمِّ^(١) وَنُونٌ^(٢) يَأْكُلُ مِنْ زَائِدَةٍ كَبِدِهِمَا
سَبْعُونَ أَلْفًا.

وَإِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ؛ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ
وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟
فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا أُعْطُوا
شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ - عز وجل -
{لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} ، {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ،
إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}.

(١) تَوَرَّ.

(٢) حوت.

وَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ
الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ
رَضِيتُمْ؟، فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ
تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ
ذَلِكَ، فَقَالُوا: يَا رَبِّ، وَآيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟،
فَيَقُولُ: أَحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ
أَبَدًا.

يعتق الله من النار مَنْ له ذرّة توحيد

فَإِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ، وَأَدْخَلَ مَنْ بَقِيَ
مِنْ أُمَّتِي النَّارَ مَعَ أَهْلِ النَّارِ، فَيَقُولُ أَهْلُ النَّارِ: مَا أَغْنَى
عَنْكُمْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ اللَّهَ لَا تُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا؟،
فَيَقُولُ الْجَبَّارُ - عز وجل - : شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ

النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا شَفَاعَةُ أَرْحَمِ
الرَّاحِمِينَ، فَبِعِزَّتِي لَأُعْتِقَنَّهُمْ مِنَ النَّارِ. فَيَقْبِضُ الْجَبَّارُ -
عز وجل - قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا
خَيْرًا قَطُّ^(١)، قَدْ عَادُوا حُمَمًا، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهْرٍ بِأَفْوَاهِ
الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: نَهْرُ الْحَيَاةِ، فَيُخْرِجُونَ كَأَنَّهُمُ اللُّؤْلُؤُ،
فَيُجْعَلُ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِيمُ، وَيُكْتَبُ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ: هَؤُلَاءِ
عُتَقَاءُ اللَّهِ - عز وجل - فَيُذْهَبُ بِهِمْ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ،
فَيَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: هَؤُلَاءِ الْجَهَنَّمِيُّونَ الَّذِينَ
أَدْخَلَهُمُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ، وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ.
فَيَقُولُ الْجَبَّارُ: بَلْ هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ الْجَبَّارِ. ثُمَّ يَقُولُ الرَّبُّ -

(١) عدا شهادة توحيد الله واعتقاد ما فيها من عمل القلب ، لما يظهر
من قول أهل النار لهم : "مَا أَغْنَى عَنْكُمْ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ اللَّهَ لَا
تُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا؟". ولحديث : "فَأَقُولُ يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فَيَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ
إِلَّا اللَّهُ. قَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ لَكَ، وَلَكِنْ وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي
وَجَبْرِيَائِي لَا خُرْجَنَ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ". والله أعلم.

عز وجل - : ادْخُلُوا الْجَنَّةَ، فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ وَمِثْلَهُ مَعَهُ. فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا أَعْطَيْنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، فَيَقُولُ: لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا، فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؟، فَيَقُولُ: رِضَايَ، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا.

ثُمَّ يَفْرُغُ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَيَبْقَى رَجُلٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَهُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّارِ، فَهُوَ يَمْشِي مَرَّةً، وَيَكْبُو مَرَّةً، وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ، قَدْ قَسَبَنِي رِيحُهَا وَأَحْرَقَنِي ذِكَاؤُهَا، فَلَا يَزَالُ يَدْعُو اللَّهَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: لَعَلَّكَ إِنْ أَعْطَيْتُكَ أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرُهُ؟، فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرُهُ، فَيُعْطِي اللَّهُ مَا يَشَاءُ

مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ، فَيَصْرِفُ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ. فَإِذَا مَا
 جَاوَزَهَا التَّفَتَ إِلَيْهَا فَقَالَ: تَبَارَكَ الَّذِي نَجَّيَنِي مِنْكَ، لَقَدْ
 أَعْطَانِي اللَّهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ،
 قَالَ: فَتَرَفَّعَ لَهُ شَجَرَةٌ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ أَدْنِي مِنْ هَذِهِ
 الشَّجَرَةِ، فَلَأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، فَيَقُولُ
 اللَّهُ - عز وجل - : يَا ابْنَ آدَمَ، لَعَلِّي إِنْ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِي
 غَيْرَهَا؟، فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، وَتُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا
 - وَرَبُّهُ يَعِدُّهُ، لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ - فَيُذْنِيهِ
 مِنْهَا، فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تَرَفَّعَ لَهُ
 شَجَرَةٌ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَى، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ أَدْنِي مِنْ
 هَذِهِ لِأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، وَأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، لَا أَسْأَلُكَ
 غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي

غَيْرَهَا؟، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، هَذِهِ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ:
لَعَلِّي إِنْ أَدْنَيْتُكَ مِنْهَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؟، فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا
يَسْأَلُهُ غَيْرَهَا - وَرَبُّهُ يَعْذُرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ
- فَيُذْنِيهِ مِنْهَا، فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ
تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَيَيْنِ،
فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ أَدْنِي مِنْ هَذِهِ لِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبَ
مِنْ مَائِهَا، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ
تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؟، قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، هَذِهِ لَا
أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا - وَرَبُّهُ يَعْذُرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ
- قَالَ: فَيُذْنِيهِ مِنْهَا، فَإِذَا أَدْنَاهُ مِنْهَا رَأَى بَهْجَتَهَا وَمَا
فِيهَا مِنَ النَّضْرِ وَالسُّرُورِ، وَسَمِعَ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْجَنَّةِ،
فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ

أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: وَيْحَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ،
 أَلَيْسَ قَدْ أُعْطِيتَ الْعُهُودَ وَالْمِيثَاقَ أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ الَّذِي
 أُعْطِيتَ؟، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لَا تَجْعَلْنِي أَشَقَى خَلْقِكَ،
 فَيَضْحَكُ اللَّهُ - عز وجل - مِنْهُ، ثُمَّ يَأْذَنُ لَهُ فِي دُخُولِ
 الْجَنَّةِ. فَيَأْتِيهَا، فَيُخَيِّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلَأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ:
 يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلَأَى، فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ،
 فَيَأْتِيهَا، فَيُخَيِّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلَأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ
 وَجَدْتُهَا مَلَأَى. فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، مَا يَصْرِفُنِي مِنْكَ؟،
 أَيُرْضِيكَ أَنْ أُعْطِيَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشْرَةَ أَمْثَالِهَا مَعَهَا؟،
 فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَتُسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟^(١)

(١) وَضَحَكَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ " فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: " مَنْ ضَحِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ حِينَ قَالَ - يَعْنِي ذَلِكَ الْعَبْدُ - : أَتُسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ " .

فَيَقُولُ اللَّهُ - عز وجل - : إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ، وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ. فَإِذَا دَخَلَهَا قَالَ اللَّهُ لَهُ: تَمَنَّهُ. فَسَأَلَ رَبَّهُ وَتَمَنَّى حَتَّى تَنْقَطِعَ بِهِ الْأَمَانِيُّ، حَتَّى إِذَا انْقَطَعَتْ أَمْنِيَّتُهُ قَالَ اللَّهُ - عز وجل - : تَمَنَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا. فَيَتَمَنَّى، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: تَمَنَّ مِنْ كَذَا فَيَتَمَنَّى. - يُذَكِّرُهُ رَبُّهُ - حَتَّى إِذَا انْتَهَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: لَكَ ذَلِكَ، وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ مَعَهُ. ثُمَّ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنَ النَّاسِ رُفِعَ لَهُ قَصْرٌ مِنْ دُرَّةٍ، فَيَخِرُّ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لَهُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، مَا لَكَ؟، فَيَقُولُ: رَأَيْتُ رَبِّي، أَوْ تَرَأَى لِي رَبِّي، فَيُقَالُ لَهُ: إِنَّمَا هُوَ مَنْزِلٌ مِنْ مَنَازِلِكَ، قَالَ: ثُمَّ يَلْقَى رَجُلًا، فَيَتَهَيَّأُ لِلسُّجُودِ لَهُ، فَيُقَالُ لَهُ: مَا لَكَ؟، فَيَقُولُ: رَأَيْتُ أَنَّكَ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَيَقُولُ: إِنَّمَا أَنَا خَازِنٌ مِنْ

خَزَّانِكَ، عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِكَ، تَحْتَ يَدَيِ أَلْفِ قَهْرْمَانٍ عَلَى
 مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ، قَالَ: فَيَنْطَلِقُ أَمَامَهُ حَتَّى يَفْتَحَ لَهُ
 الْقَصْرَ، وَهُوَ فِي دُرَّةٍ مُجَوَّفَةٍ، سَقَائِفُهَا وَأَبْوَابُهَا وَأَعْلَاقُهَا
 وَمَفَاتِيحُهَا مِنْهَا، تَسْتَقْبِلُهُ جَوْهَرَةٌ خَضِرَاءُ مُبَطَّنَةٌ
 بِحُمْرَاءَ، كُلُّ جَوْهَرَةٍ تُفْضِي إِلَى جَوْهَرَةٍ عَلَى غَيْرِ لَوْنٍ
 الْأُخْرَى، فِي كُلِّ جَوْهَرَةٍ سُرُرٌ وَأَزْوَاجٌ، وَوَصَائِفٌ،
 أَذْنَاهُنَّ حَوْرَاءُ عَيْنَاءُ عَلَيْهَا سَبْعُونَ حُلَّةً يَرَى مَخَّ سَاقِهَا
 مِنْ وَرَاءِ حُلَلِهَا كَبِدُهَا مِرْأَتُهُ، وَكَبِدُهُ مِرْأَتُهَا، إِذَا أَعْرَضَ
 عَنْهَا إِعْرَاضَةً، أَزْدَادَتْ فِي عَيْنِهِ سَبْعِينَ ضِعْفًا عَمَّا
 كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ، وَإِذَا أَعْرَضَتْ عَنْهُ إِعْرَاضَةً، أَزْدَادَ فِي
 عَيْنِهَا سَبْعِينَ ضِعْفًا عَمَّا كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ لَهَا:
 وَاللَّهِ لَقَدْ أَزْدَدْتِ فِي عَيْنِي سَبْعِينَ ضِعْفًا، وَتَقُولُ لَهُ:

وَأَنْتَ وَاللَّهُ لَقَدْ اِزْدَدْتَ فِي عَيْنِي سَبْعِينَ ضِعْفًا، فَتَدْخُلُ
عَلَيْهِ زَوْجَتَاهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، فَتَقُولَانِ لَهُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي أَحْيَاكَ لَنَا، وَأَحْيَانَا لَكَ. ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: أَشْرَفُ،
فَيُشْرَفُ، فَيُقَالُ لَهُ: مُلْكُكَ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ يَنْفُذُهُ
بَصَرُهُ. فَيَقُولُ: مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُعْطِيتُ. وَذَلِكَ
أَذْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً .

ذبح الموت بين الجنة والنار

فَإِذَا أَدْخَلَ اللَّهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ،
أَتَى بِالْمَوْتِ كَبْشًا أَمْلَحًا مُلَبَّبًا^(١) فَيُوقِفُ عَلَى السُّورِ بَيْنَ
أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَطْلِعُونَ

(١) فِي الْقَامُوسِ لِبَبِّهِ تَلْبِيْبًا جَمَعَ ثِيَابَهُ عِنْدَ نَحْرِهِ فِي الْخُصُومَةِ ثُمَّ جَرَّ. كَأَنَّهُ أَخَذَ بِتَلَابِيْبِهِ، وَهُوَ اسْتِعَارَةٌ، وَالْأَخْذُ بِالتَّلَابِيْبِ: أَنْ يَجْمَعَ عَلَى الْإِنْسَانِ ثَوْبُهُ، وَيَأْخُذُ بِمَقْدَمِهِ فَيَجْرِبُهُ.

خَائِفِينَ وَجَلِينَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْ مَكَانِهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ. ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَیَطْلَعُونَ مُسْتَبْشِرِينَ فَرِحِينَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْ مَكَانِهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ وَيَرُونَ أَنْ قَدْ جَاءَ الْفَرْجُ. فَيُقَالُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ - وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَاهُ -، فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ: قَدْ عَرَفْنَاهُ، هُوَ الْمَوْتُ الَّذِي وَكَّلَ بِنَا. فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُضْجَعُ، فَيُذْبَحُ ذَبْحًا عَلَى السُّورِ الَّذِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ.

الخلود

ثُمَّ يُقَالُ لِلْفَرِيقَيْنِ كِلَاهُمَا: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ فِيمَا تَجِدُونَ، لَا مَوْتَ فِيهَا أَبَدًا، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ فِيمَا تَجِدُونَ لَا مَوْتَ فِيهَا أَبَدًا. فَيَزِدَادُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحِهِمْ، وَيَزِدَادُ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ. فَيَأْمَنُ هَؤُلَاءِ،

وَيَنْقَطِعُ رَجَاءُ هَؤُلَاءِ، {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ
الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ . جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ
رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ).

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ
نَتَّبِعُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . وَتَرَى
الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ
وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

الخاتمة

اللهم اهدنا صراطك المستقيم، واجعلنا من عبادك
المؤمنين ، وارزقنا رضاك، وأدخلنا الجنة بلا حساب
ولا عذاب، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين يا
أرحم الراحمين.

انتهت (قصة الحياة) . .

رحم الله من جمعها وكتبها ومن قرأها ونشر علمها.

والحمد لله رب العالمين.

فهرس الموضوعات

المقدمة	٣
الله جل وعلا	١٣
علم الله	١٤
بدء الخلق	١٦
رحمة الله	١٦
خلق السموات والأرض	١٨
تسخير الشمس والقمر والنجوم للناس	٢٠
خلق الملائكة والجن	٤٥
قصة خلق آدم	٤٦
إخبار الله للملائكة بخلق البشر	٥٢
سجود الملائكة لآدم واستكبار إبليس	٥٤
خلق حواء وإسكانها الجنة مع آدم	٥٧
إغواء الشيطان لآدم وزوجه	٥٨
توبة آدم وحواء وإنزالهما إلى الأرض	٦٠
هبوط آدم وحواء وإبليس إلى الأرض	٦٢
وجود إبليس وذنوب البشر لحكمة	٦٣
إكرام الله لبني آدم وإنعامه عليهم	٦٥

- ٦٧ تحذير البشر من عدوهم الشيطان
- ٦٩ وفاة آدم عليه السلام
- ٧١ ذرية آدم وتربص الشيطان بهم
- ٧٣ الأنبياء والمرسلون
- ٧٥ نوح عليه السلام
- ٧٨ إرسال هود عليه السلام إلى عاد
- ٨١ إرسال صالح عليه السلام إلى ثمود
- ٨٤ بعثة إبراهيم عليه السلام في العراق
- ٩٢ فضل إبراهيم وهجرته إلى الشام
- ٩٦ قصة إبراهيم وسارة مع ملك مصر
- ٩٩ رجوع الخليل من مصر إلى الشام
- ١٠٠ انتقال لوط إلى قرية سدوم
- ١٠٠ ولادة إسماعيل وقصة زمزم
- ١٠٦ إرسال لوط عليه السلام
- ١٠٧ مجيء إبراهيم إلى مكة لتفقد حال ابنه
- ١١٠ إبراهيم وإسماعيل بينان الكعبة
- ١١٢ قصة الذبيح ومناسك الحج
- ١١٨ بشارة إبراهيم بإسحاق عليهما السلام
- ١٢٠ إهلاك قوم لوط في قرى سدوم

١٢٣	إرسال شعيب عليه السلام إلى مدين
١٢٦	إسحاق عليه السلام
١٢٨	قصة ذي القرنين
١٣٣	وفاة إبراهيم عليه السلام
١٣٩	يعقوب (إسرائيل) عليه السلام
١٤١	قصة أيوب عليه السلام
١٤٤	يوسف بن يعقوب عليه السلام
١٨٢	مكوث بني إسرائيل في مصر
١٨٤	اضطهاد فرعون لبني إسرائيل
١٨٧	موسى وهارون عليهما السلام
٢٠١	بعثة مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ، صَفِيُّ اللَّهِ
٢١٢	تكذيب فرعون وقومه بالآيات المعجزات
٢١٥	إهلاك قارون
٢١٩	نصيحة مؤمن آل فرعون
٢٢٤	إصرار فرعون على استئصال المؤمنين
٢٢٦	خروج موسى ببني إسرائيل من مصر
٢٢٨	هلاك فرعون
٢٣٠	بنو إسرائيل بعد نجاتهم من فرعون
٢٣٠	ذهاب موسى لميقات ربه

قصة الحياة

- ٢٣٤ إنزال الله التوراة على موسى
- ٢٣٧ قصة السامري والعجل
- ٢٤٠ رجوع موسى إلى بني إسرائيل
- ٢٤٤ قصة موسى مع الخضر عليهما السلام
- ٢٥٣ حياء موسى وإيذاء بني إسرائيل له
- ٢٥٥ قصة البقرة
- ٢٦١ رفض بني إسرائيل دخول الأرض المقدسة
- ٢٦٥ وفاة موسى عليه السلام
- ٢٦٧ يوشع بن نون عليه السلام
- ٢٧٠ كَالِبُ بْنُ يُوفَنَّا
- ٢٧٠ حَزْقِيلُ بْنُ بُوَذَى
- ٢٧١ إِيْلَاسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
- ٢٧٢ الْيَسَعُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
- ٢٧٣ من الأنبياء والأقوام الذين أُشير إليهم
- ٢٧٥ قصة أصحاب الكهف
- ٢٨٢ قصة أصحاب السبت
- ٢٨٦ قصة طالوت وجالوت
- ٢٩١ داود عليه السلام
- ٢٩٣ سليمان عليه السلام

٣٠٩	قصة يونس عليه السلام
٣١٤	قصة النبي شُعَيْبًا بْنُ أُمِّصِيَا
٣١٨	الخراب الأول لبيت المقدس
٣٢٧	قصة عزيز
٣٣٥	اختلاف بني إسرائيل
٣٣٦	تحريف اليهود التوراة
٣٣٩	زكريا ويحيى وآل عمران
٣٤٤	المسيح عيسى بن مريم عليه السلام
٣٥١	نزول الإنجيل على المسيح ابن مريم
٣٥٢	ميثاق الأنبياء بالإيمان بمحمد ونصرته
٣٥٣	كفر اليهود بالمسيح ابن مريم عليه السلام
٣٥٥	قتل يحيى بن زكريا
٣٥٩	قصة رفع المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام إلى السماء
٣٦١	زعم اليهود أنهم قتلوا المسيح وصلبوه
٣٦١	الخراب الثاني لبيت المقدس
٣٦٤	شاؤول اليهودي (بولس) يحرف دين النصارى
٣٦٦	إنجيل برنابا ينقض تحريفات بولس
٣٦٩	تحريف الإنجيل واختلاف سُسخه
٣٧٠	بنو إسرائيل كتبوا كتابًا فاتبعوه وتركوا التوراة

٣٧٣	تحريف النصارى دينهم وتفرقهم
٣٧٥	تغيير الملك قسطنطين دين النصارى
٣٧٨	اضطهاد الآريوسيين الموحدين
٣٨٣	قصة سبأ وسد مأرب
٣٨٨	قِصَّةُ تَبَعِ أَبِي كَرِبٍ
٣٩٣	قِصَّةُ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ بنجران
٣٩٩	تسلط الأحباش على اليمن بعد الأخدود
٤٠٢	قصة أصحاب الفيل
٤١١	ولادة رسول الله محمد ونشأته
٤١٧	زواج النبي من خديجة بنت خويلد
٤٢٠	وضع الحجر الأسود في مكانه
٤٢٣	حال أهل الأرض قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام
٤٢٨	بعثة محمد عليه الصلاة والسلام
٤٣٤	إرسال النبي للناس كافة
٤٣٧	معجزة القرآن الكريم الخالدة
٤٤١	من معجزاته وخصاله عليه الصلاة والسلام
٤٤٩	الدَّعْوَةُ في مكة
٤٥٧	الهجرة إلى الحبشة ومحاولة منعها
٤٦٩	حصار الشَّعْب

٤٧٢	عام الحزن
٤٧٤	خروجه عليه الصلاة والسلام إلى الطائف
٤٧٧	بيعتا العقبة
٤٨٢	انشقاق القمر
٤٨٤	رحلة الإسراء والمعراج (١ ق هـ)
٤٩٩	اتفاق مشركي قريش على قتل النبي
٥٠٣	قصة الهجرة
٥٢٣	السنة الأولى من الهجرة (١هـ)
٥٢٣	بناء مسجد قباء والمسجد النبوي
٥٢٧	فرح أهل المدينة
٥٢٨	دعوة يهود المدينة للإسلام
٥٣٣	الدعاء للمدينة بالصحة
٥٣٥	المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار
٥٣٦	كتابة الصحيفة
٥٤١	قصة سلمان الفارسي رضي الله عنه
٥٥٣	مشروعية الأذان
٥٥٥	السنة الثانية من الهجرة
٥٥٥	بدء الغزوات
٥٥٧	تحويل القبلة إلى الكعبة

٥٥٨	فرض الصيام وزكاة الفطر
٥٥٩	غزوة بدر
٥٦٤	السنة الثالثة من الهجرة
٥٦٤	مقتل كعب بن الأشرف
٥٧٨	غزوة أحد
٥٨٣	السنة الرابعة من الهجرة
٥٨٣	يوم الرجيع واستشهاد خبيب
٥٨٧	حادثة بئر معونة
٥٨٩	إجلاء يهود بني النضير
٥٩٣	السنة الخامسة من الهجرة
٥٩٣	غزوة دومة الجندل
٥٩٥	غزوة المريسيع (بني المصطلق)
٥٩٦	حادثة الإفك
٥٩٩	غزوة الخندق (الأحزاب)
٦٠٢	نزول آية الحجاب
٦٠٣	غزوة بني قريظة
٦٠٥	السنة السادسة من الهجرة
٦٠٥	غزوة ذي قرد وقصة سلمة بن الأكوع
٦٠٧	قصة صلح الحديبية

٦٤١	نزل سورة الفتح
٦٤٧	قدوم المهاجرات من مكة
٦٤٩	قصة أبي بصير
٦٥٣	دعوة الملوك إلى الإسلام
٦٥٥	الإرسال إلى ملك الحبشة وإسلامه
٦٥٩	الإرسال إلى ملك الغساسنة في الشام
٦٦٢	الإرسال إلى قيصر ملك الروم
٦٧٨	الإرسال إلى كسرى ملك الفرس
٦٨٠	الإرسال إلى ملك القبط في مصر
٦٨٢	الإرسال إلى ملك اليمامة بنجد
٦٨٣	الإرسال إلى ملك عُمان
٦٨٥	الإرسال إلى ملك البحرين (الأحساء)
٦٨٦	السنة السابعة من الهجرة
٦٨٦	غزوة خيبر
٦٩٠	تسميم اليهود طعام النبي في خيبر
٦٩٤	تحريم المدينة والدعاء لأهلها بالبركة
٦٩٥	عودة المهاجرين من الحبشة
٦٩٦	غزوة ذات الرقاع جهة نجد
٦٩٩	السنة الثامنة من الهجرة

٧٠٢	غزوة مؤتة
٧٠٩	غزوة فتح مكة
٧١٤	غزوة حنين
٧٢٠	السنة التاسعة من الهجرة (عام الوفود)
٧٢٢	غزوة تبوك
٧٢٦	قصة الثلاثة الذين خَلَفُوا
٧٤٥	حج أبي بكر بالناس
٧٤٩	السنة العاشرة من الهجرة
٧٤٩	وفاة إبراهيم ابن النبي عليه الصلاة والسلام
٧٥١	كسوف الشمس
٧٥٨	حجة الوداع
٧٥٩	اكتمال الشريعة وإبلاغ الدين
٧٦٢	السنة الحادية عشر من الهجرة
٧٦٢	وفاة النبي صلى الله عليه وسلم
٧٦٦	من جوامع ما أخبر به النبي أصحابه
٧٦٧	لكل نبي حواريون يُخَلِّفُهُمْ مُبَدِّلُونَ
٧٦٨	افتراق هذه الأمة
٧٦٩	حفظ الإسلام بعلماء ربانيين مجددین
٧٧١	دين الإسلام ناسخ ومتمم للرسالات

- ٧٧١ ولادة الإنسان وحياته
- ٧٧٣ الذرية تتأثر بصفات الوالدين
- ٧٧٥ الوصية بحسن معاشرته النساء
- ٧٧٦ عمل الإنسان في الحياة وقدره ومصيره
- ٧٨٠ عدل الله ورحمته وكرمه وغناه عن خلقه
- ٧٨٢ ركائز دين الإسلام
- ٧٨٥ عماد الدين وقوامه : النَّصِيحَةُ
- ٧٨٦ دين الإسلام كامل . . فاسألوا أَهْلَ الذِّكْرِ
- ٧٨٧ الزهد يورث النجاة وغنى القلب
- ٧٨٨ صلاح القلب والأخلاق
- ٧٩٠ حق المسلم على المسلم
- ٧٩٢ ذم صفات المنافقين
- ٧٩٣ النسب والميراث
- ٧٩٣ القضاء والحكم
- ٧٩٥ أعمال تورث الرضا وأخرى تسخط
- ٧٩٧ أهمية طيب المطعم والمكسب
- ٧٩٨ من وصايا المأكل والمشرب
- ٨٠١ من وصايا حفظ الصحة والتداوي
- ٨١٦ من أسباب إجابة الدعاء ومنعه

- أعمال تكفر الذنوب وترفع الدرجات ٨١٨
- من فضائل ذكر الله ٨٢٢
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٨٢٥
- التحذير من الابتداع في الدين ٨٢٦
- وجوب اتباع السُّنة ٨٢٩
- حرمة دم المسلم ٨٣٢
- قتال الطائفة التاركة للصلاة أو الزكاة ٨٣٤
- الإخبار بوقوع الفتن ٨٣٤
- تداعي الأمم على المسلمين ٨٧٢
- قتال الكفار المعادين والمعتدين ٨٨٠
- بقاء طائفة منصور من المسلمين ٨٨١
- أمور ستقع قبل قيام الساعة ٨٨٢
- ظهور المهدي ٨٩٠
- أحداث آخر الزمان ٨٩٢
- مصالحة الروم والغزو معهم ثم غدرهم ٨٩٢
- الملحمة الكبرى في الغوطة ٨٩٣
- فتح القسطنطينية ٨٩٥
- خروج الدجال يتبعه يهود وشياطين ٨٩٧
- نزول عيسى ابن مريم وقتله الدجال ٩١٢

- ٩١٤ انهزام اليهود وقتلهم
- ٩١٤ خروج يأجوج ومأجوج
- ٩١٧ جمال الحياة في زمن المسيح ابن مريم
- ٩١٩ المسيح ابن مريم يحكم العالم بالإسلام
- ٩٢١ طلوع الشمس من مغربها
- ٩٢٣ خروج الدابة
- ٩٢٥ نار تخرج من عدن تحشر الناس للشام
- ٩٢٥ الريح الطيبة تقبض أرواح المؤمنين
- ٩٢٦ اختفاء أثر الإسلام ورفع القرآن
- ٩٢٧ تقوم الساعة على شرار الناس
- ٩٢٨ النفخة الأولى (الصعق) والثانية (البعث)
- ٩٣٠ الحياة البرزخية في القبر
- ٩٤٠ نزول ماء الحياة ونمو الأجساد
- ٩٤١ أول من تنشق عنه الأرض
- ٩٤٢ الأرض يوم القيامة
- ٩٤٣ إخراج بعث النار وهول الموقف
- ٩٤٥ انتظار فصل القضاء
- ٩٤٦ دنو الشمس
- ٩٤٧ الشفاعة في الخلاص من كرب المحشر

٩٥٤	العرض والحساب وصحف الأعمال
٩٥٦	الميزان
٩٥٧	الحوض
٩٥٧	كل أمة تتبع ما كانت تعبد
٩٥٩	بقاء أمة التوحيد يقودهم ربهم إلى الجنة
٩٦٢	نور المؤمن والمنافق قبل الصراط
٩٦٣	المرور على الصراط
٩٦٧	القنطرة بعد الصراط
٩٦٨	شفاعة النبي فيمن دخل النار من أمته
٩٧١	شفاعة المؤمنين في إخوانهم
٩٧٥	دخول أهل الجنة الجنة
٩٧٩	يعتق الله من النار من له ذرة توحيد
٩٨٧	ذبح الموت بين الجنة والنار
٩٨٨	الخلود
٩٩٠	الخاتمة
٩٩١	فهرس الموضوعات